

عالم الفكر

المجلد الخامس العدد الأول - ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٤

فلسفة التاريخ

- التاريخ ومشاكل اليوم والغد
- التاريخ والمؤرخون
- صناعة التاريخ
- التاريخ هل هو علم؟
- أحدث النظريات في فلسفة التاريخ



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

رئيس التحرير : أحمد مشاري العدواني
مشار التحرير : دكتور أحمد أبو زيد

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * إبريل - مايو - يونيو - ١٩٧٤
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية * وزارة الإعلام - الكويت : ص ٠ ب ١٩٢

المحتويات

فلسفة التاريخ

٣ بقلم التحرير	التمهيد
١١ الدكتور محمد الطالبي	التاريخ ومشاكل اليوم والغد
٤٧ الدكتور حسين مؤنس	التاريخ والمؤرخون
١١٥ الدكتور محمد عواد حسين	صناعة التاريخ
١٦٧ الدكتور شاكرا مصطفى	التاريخ هل هو علم
٢١٥ الدكتور عبد الرحمن بدوي	أحدث النظريات في فلسفة التاريخ

★ ★ ★

آفاق المعرفة

٢٤٥ الدكتور توفيق الطويل	لقطات علمية من تاريخ الطب العربي
-----	----------------------------	----------------------------------

★ ★ ★

ادباء وفنانون

٢٨٩ الاستاذ صفى خطاب	ارنولد توبنيسي
-----	------------------------	----------------

★ ★ ★

عرض الكتب

٢١١ عرض وتحليل الاستاذ صغوت كمال	الفولكلوريون البريطانيون
٢٢١ عرض وتحليل الدكتور عبد الباسط محمد حسن	السياسة الحضرية

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم .

فلسفة التاريخ

تقديم

في أماننا هذه ، ونحن نسير في سرعة تصعب على العقل ملاحقتها نحو القرن الحادى والعشرين ، تدخل الإنسانية كلها عصراً جديداً يختلف عن كل ما سبقه ، حتى ليعجز الإنسان عن تصور المصير الذى ستصير اليه ، فى ذلك العصر الحافل بالمفاجآت والهزات والاضطراب تدخل علوم البشر جميعها فى طور جديد جداً ، يمتاز بالدقة المتناهية والعمق البالغ ، والشمول البعيد المدى ، وانساعة التى جعلت حقائق العلم تتجاوز حد الخيال ، حتى أن شطحات رجل مثل **جول فيرن** ، التى كانت تعتبر فى الماضى طرائف نتسلى بهما فى أوقات الفراغ ، أصبحت أشياء بالية قديمة تخطاها العلم بمراحل شاسعة ، وإين حديثه عن معجزة الطواف حول الأرض فى ثمانين يوماً ؟ وإين تصوراتهِ للفواصات والطائرات مما نحن فيه اليوم من رحلات الفضاء والتجول على سطح القمر ؟

* اشرف على اختيار موضوعات هذا العدد وراجع مادته العلمية الاستاذ الدكتور حسين مؤنس .

في هذا العصر كان لا بد للتاريخ ايضا ان يساير هذا التطور ، والا انتهى امره وانصر الناس عنه ، واصبح جزءا من حطام العلوم البائدة كالسيمياء التي كانت تسعى الى تحو الحديد والرماس الى ذهب ، وبالفعل ارتفعت اصوات كيرة بعد الحرب العالمية الاولى -تھا- التاريخ وتنكر عليه مكانه بين العلوم ، وزادت الحملة بعد الحرب العالمية الثانية على التاريخ واصبح مصيره في الميزان فعلا، لولا حركة التجديد التي ادخلها على مفهومه ومناهجه علماء افذاذ ومؤرخون من ذوى الجد والبصر ، والعلم الواسع بشئون البشر ، فاخرجوا التاريخ من نطسا المرويات واساطير الاولين ، وادخلوا عليه مناهج البحث والاستقصاء ، ومدوا نطاقه حتى شذ الحاضر والمستقبل ، وجعلوا منه دراسات اجتماعية وسياسية وفكرية ، وفتحوا له بذا آفاقا جديدة ، فبعثوه بذلك حيا من جديد ، ودعوا كل امة الى ان تعيد النظر في تاريخها وتار البشر جميعا لتفهم نفسها وغيرها فهما جديدا ..

وهذا هو الذى حدا « بعالم الفكر » الى ان تخصص للتاريخ عددا من اعدادها ، يصو ازمة علم التاريخ وخروجه منها بشرح مفهومه الماضى والحاضر ، وتفسيره الكثيرة عند كم المؤرخين . ويلقى نظرة على مستقبل هذا العلم وماذا يجرى منه في قابل الايام حتى لا يفقد مكان كعلم له اصول ومناهج ووظيفة في الحياة .

وقد حدا « بعالم الفكر » الى تخصيص هذا المجلد لعلم التاريخ لان تاريخنا الاسلام نفسه يعانى في ايماننا هذه ازمة ربما كانت اخطر على مصيره عندنا من ازمته في بلاد الغرب ، لا صورة التاريخ عندنا جدت من زمن طويل عند قوالب جامدة لا تتصل بالحاضر الا من بعيد ، ان الكثيرين استخدموا التاريخ كوسيلة للوعظ والتوجيه الفكرى بل السياسى ، واقتحموا الكثيرون ممن لا يعرفون اصله ومناهجه كعلم له اصوله ومناهج بحثه المقررة ، وما اكثر اه الادب الذين حاجهم موضوع يكتبون فيه فما لوالى بحر التاريخ واغترفوا منه اغتراف حاط الليل ، تم مضوا يؤلفون كتباً هي في حقيقتها مؤلفات ادبية او نظرات شخصية لا تنفع التاريخ او قارئه في شىء ، فتكدست كتب التاريخ عندنا على غير طائل ، وفي غمار هذا الاندفاع نحـ التاريخ كاد المنهج التاريخى نفسه يضع عند نـر من اسئلة الجامعات ممن اكثروا مـ التأليف في التاريخ دون تمحيص او صبر او تنقيب مستبلف في الاصول ، ولا روية فيما يقرأو ويكتبون ، مما هون امر التاريخ على الناس وقل الفائدة منه .

لهذا يجيء هذا العدد من « عالم الفكر » وكأنه وقفة تأمل وتدبر ومحاولة للعودة بالتاريخ الى اصوله ومناهجه ، وتذكير بما اهملناه من مسؤوليات المؤرخ ودوره في المجتمع . ثم دعـ الى اعادة النظر في مفهوم التاريخ عندنا والاجتهاد في تنويمه - او اعادة بناؤه بتعبير ادق - حتـ يصبح التاريخ كما ينبغي ان يكون علما نافعا يعين الامة على ادراك حقيقة نفسها حقائقا غيرها من الأمم ، ويمكن لنا من ان نتخذ من الماضي نبراسا يضيء لنا زوايا الحاضر وطريق المستقبل ، لان الماضي في ذاته لا يفيد الا اذا كان وسيلة لانارة طريق الغد اماننا ، والاغصر تنفير ولكم الانسان واحد ، وهو لا يتعلم الا من التجارب وكلما كانت احاطته بتجارب الماضي اشمل كا. ذلك اعون على شق طريقه الوعر الى الغد ، وقد قال اسلافنا ان الخيول على اعراقها تجسر؛

ونحن في هذه الأبحاث نريد أن نقول أن الأمم على هدي من تجاربها في الماضي تسير وترقى ، وأن التاريخ لا يدرس العبرة ، لأن الحقيقة أن أحدا لا يعتبر بما يقرأ من أخبار الماضين كما سئرى فيما بعد ، وإنما نحن ندرسه على أنه تجارب الماضين أو تجارب الأمم كما قال ابن مسكويه ، فتتسع معارفنا بتجاربهم ، وتزداد بصيرةً بالدنيا وأحوالها ، ولا يهم هنا أن نتمتع أو لا نتمتع ، بل المهم أن نعلم والحال هنا كحال رجل ينتقل من بلاده إلى بلاد أخرى ، فيرى لطبيعتها صورا وأشكالا تختلف عما ألفه في بلاده فتزداد معرفته بالأرض ومسايفها دون أن يحاول تحويل مناظر الطبيعة في بلاده إلى صوره فتشابه ما رآه في غيرها . وهذا في ذاته مستحيل استحالة الاتعاض بتجارب الآخرين ، لأن الإنسان جزء من تجربة حياته ، ولهذا فلا يمكن لإنسان آخر أن يقوم بنفس التجربة ، ومن هنا فهي لا تنفع غير صاحبها إلا في القليل النادر . وكذلك يصعب أن تصور أمة تقوم بنفس التجربة التي قامت بها أخرى ، وتصل إلى نفس النتيجة فيما عدا بعض النتائج العامة لتجارب الأمم مثل ضرورة ضبط الإدارة ، ووضع قواعد لها ، والتدقيق في مصارف الأموال والحرص على إقامة علاقات طيبة مع الأمم الأخرى ، وإقامة الحكم على أساس الشورى والنراضي ، وهي انديمقراطية ، وما إلى ذلك من البديهيات .

وهذا الكلام الذي نقوله يبدو للغالبية العظمى من القراء وكأنه مناقض للحقيقة بسبب تعودهم السماع عن عبر التاريخ ودروسه . وقد يستنكر كلامنا هذا نفر من الواغليين في التاريخ ، الداخلين ميدانه من غير بابه ، لأن أهم كتبنا شتى في التاريخ يقبل الناس على قراءتها فيتوههم أصحابها أنهم يكتبون تاريخا وما هم في الحقيقة إلا أهل أدب أو تأملات أو فلسفات . والكثير من هذه المؤلفات تـجـيد وممنوع ، ولكنه ليس بتاريخ ولا فائدة فيه للمؤرخ المتقطع لهذا الفن وطلابه الذين يدرسون عليه .

وهذا المجلد من « عالم الفكر » يحاول أن يوضح هذه النواحي ويعرف الناس بتاريخ ، أي شيء هو وما منهجه وكيف يكون ، وكيف يتأتى لنا فهمه على الوجه العلمي المضبوط ، لهذا فقد تعاونت على كتابته جماعة من أساتذة التاريخ الذين قضوا أعمارهم في خدمته باحثين ومؤلفين ومعلمين وموجهين لابنائهم من الباحثين ، واتجه الاهتمام إلى تقسيم موضوعات العلم التاريخي بينهم على نحو يمكن القارئ من أن يلم بهذا العلم وخصائصه ومدارسه العماما عاما ، فتتفتح أمامه موضوعاته لكي يستزيد منها إذا شاء المزيد .

وقد قصرنا معظم الأبحاث على علم التاريخ عامة دون أن نطيل الوقوف عند علم التاريخ عند العرب ، لأن هذا في ذاته بحث طويل يستحق أكثر من إشارات ولحاحات ، وربما أعان الله ومد في الأجل حتى يغرد لعلم التاريخ عند العرب مجلد قائم بذاته ، وهو في الحق جدير بمجلدات عدة .

البحث الأول من هذا المجلد وموضوعه « التاريخ والمؤرخون » كتبه د. حسين مؤنس مدخلا عاما لهذا العلم . تناول فيه مباحث شتى مثل ماهية التاريخ ولماذا ندرسه ، وتطوره في الغرب خلال العصور الحديثة ، وأهم نظرياته ومراحل تطوره ، وشمل الحديث ببناء علم التاريخ الحديث وأهم أعمالهم . وقد اتجه الجهد في هذا البحث إلى التبسيط والتقريب ، لأن الآراء في تصريف التاريخ وتحديد

ماهيته وفائدة دراسته كثيرة جدا ، وبعضها معقد لا يفهم في سطور ، وبعضها الاخر يقوم على نظريات معروفة في علم الاجتماع أو علم النفس وما إليها ، ولهذا فقد اجتهدنا في التوضيح وتغريب المعاني أكثر من اجتهدنا في التفصيل والتفريع حتى يستطيع الإفادة من البحث رجل التاريخ المنقطع اليه وطالب التاريخ المبتدئ منه والمتأريء العادي الذي يقرأ ليتثقف ويوسع افقه .

ولهذا فقد طال الكلام بعض الشيء في بعض الفقرات . ولكن لم يكن من ذلك مفر اذا أريد لهذا الكلام أن يكون عميم النفع . . وقد تطلب الامر أحيانا مغارة بعض النظريات الفرعية بمذاهب وآراء مؤرخين من العرب مثل **ابن خلدون** و**شمس الدين السخاوي** .

ومن الواضح أننا عندما نتكلم ملا عن الغرض من دراسة التاريخ فأننا لا بد أن نشير الى آراء أئمة العلم التاريخي عندنا الى جانب من نذكر من آراء غير العرب في هذا الموضوع .

وتعرض البحث بعد ذلك لتطور الدراسات التاريخية في الغرب من مطالع العصر الحديث ، ولم يتسع المجال للكلام عن انظار اليونان والرومان وأهل العصور الوسطى في هذا العلم ، لأن الحقيقة أن علم التاريخ ، الذي تقرأ المؤلفات فيه اليوم ، إنما هو من عمل طائفة من اعلام المفكرين الغربيين المحدثين ، ما زالوا يعملون حتى أعطوا علم التاريخ شخصيته المميزة له ، وحددوا له الغايات التي يسمى إليها ، ورسمواله مناهج البحث الخاصة به . وقد تتبعنا عمل أولئك المفكرين ، وعرضنا وجه انظارهم وخاصة ذلك الرأي الطريف الذي يقول أن التاريخ حوار بين الماضي والحاضر ، حوار بين الاجيال ، بين الانسان والزمان ، بين المؤرخ والقارىء ، وانتبهنا من عرض هذه الآراء الى القول بأن كل عصر ينبغي أن يكتب التاريخ من وجهة نظره ومفهومه الخاص وعلى ضوء ظروفه . ومن هنا فلا يمكن أن يكون لاي بلد من البلاد ، أو العالم كله تاريخ واحد ، بل تواريخ متعددة ومعنى هذا أن عملية اعادة كتابة التاريخ ينبغي أن تكون متجددة ومسيرة لتطور الفكرى والحضارى .

وانتقلنا بعد ذلك الى الكلام على الاتجاهات السائدة في كتابة التاريخ في عصرنا هذا ، فبدأنا بالكلام على بحث الدراسات التاريخية نتيجة لتنبيه الناس لمجموعات الوثائق الضخمة التي احتفظت بها الكنائس ، ودور محفوظات الدول ، ومكتبات البلديات ، وما الى ذلك ، وانكباب المؤرخين على تنظيم هذه المجموعات وقراءتها لاستخلاص المادة التاريخية منها ، وتكلمنا عن التيارات المختلفة لكتابة التاريخ نتيجة لظهور هذا القدر الضخم من المادة التاريخية الخاصة أو الاصلية ، وفصلنا امر الواقعية الموضوعية والايجابية التاريخية ، ثم النسبية التاريخية ونظريه ارتباط الماضى بالحاضر . وأعطينا ذلك بالكلام على تطور العلم التاريخي على أبسدى النابهيمن من اصحاب هذه الاتجاهات ، بادئين بقولتير ثم تحدثنا عن ادوارد جيبون والموسوعيين الفرنسيين ، وديفيد هيوم ، وآدم سميث ، وليوبولد فون رانكه ومدرسته ، وجوهسان جوتفريد هيرد ، وبارتولد جيورج نيبوهير ، وجيزو ، وأوجستان فييرى ، وهوركهارت وميشليه . ووقفنا طويلا عند هيغل والمائنة التاريخية . وانتقلنا بعد ذلك للكلام على مذهب المادية التاريخية الذى ابتكره كارل ماركس وفريدريش انجل وفصلنا الكلام فيه . وختمنا

هذا الكلام عن المذاهب التاريخية بالكلام عن مذهب جديد في التاريخ يؤمن به الكثيرون من أئمة علم التاريخ في عصرنا وهو مذهب التاريخ الكلي . ويراد به التاريخ للعصر الذي تؤرخ له بصورة كاملة تتناول كل نواحيه سياسية كانت أم اقتصادية فكرية ، لأن هذه النواحي مجتمعة تعطي الصورة الحقيقية للعصر الذي تؤرخ له . ثم تكلمنا عن أعلام التاريخ في عصرنا مثل كولنجود وكروسى وشبنجلر وتوينبي ، وشرحنا مذهب كل منهم شرحا وافيا ولكنه مبسط على نحو يستطيع معه أى قارئ متقف أن يفهمه فهما صحيحا ، لأننا لاحظنا أن معظم النظريات العلمية والأدبية لا يفهمها القارئ العربي فهما صحيحا ، لأن الذين يتولون تقديمها إليه لا يقدمونها إليه تقديمًا صحيحًا أولاً ، ثم أنهم يصوغون كلامهم على نحو لا يستطيع القارئ العادي معه أن يدرك حقيقة هذه النظريات والآراء ، وخذ مثلاً نظريات داروين وانطلسر كيف يفهمها الناس عندنا .



وتناول د. شاكى مصطفى موضوع « التاريخ بين العلوم » تناولاً جديداً من كل ناحية . وجعل مقاله مقدمة للموضوع نفسه السلى تصدى له ، فطاف بنا طوافاً بعيداً في موضوع علم التاريخ بادئاً بالكلام على الإنسان نفسه وهو صانع التاريخ ، أو أداة تنفيذ الحوادث بتعبير أدق ، ثم وقف طويلاً عند الإجابة على سؤال رئيسى هو : **هل التاريخ علم ؟** فعرض آراء الكثيرين من أساتذة ذلك العلم في الغرب ، وتحدث عما سماه « ثورة التاريخ » في عصرنا ، وهى ثورة حقيقية تشمل الإنسانية كلها وعلومها ومن بينها التاريخ . وتناول أسباب هذه الثورة ومداهها وقال إن ثورة التاريخ اليوم رغم أنها تجرى فى « الصمت الآخرى » ، تسهم فى الانقلاب الجذرى للفكر الإنسانى ، وقال ، « إنها فاعلة منفعله » بهذا الانقلاب فى وقت معا ، أبعادها تتناول مادة التاريخ تناولها لمناهجه ومساره فى العمق والشمول « وتناول بالمناقشة عوامل تلك الثورة فى ميدان التاريخ فنحدث عن تضخم مادته فى عصرنا الراهن بزيادة عدد الأمم التى بلغت الوعى وأخذت تكتب تواريخها ، ثم تناول الثورة من ناحية المنهج وذكر كيف أن التاريخ ما كان يمكن أن يظل بعيداً عن الثورة انعامة التى تشمل مناهج العلوم جميعا .

ثم نحدث عن التاريخ « لا كأحداث نعر الزمن » ولكن كممارسة فكرية وجهد تكوينى « وهما يتناول موضوع التاريخ بتفصيل طويل بعد أن يعرض لآراء عدد كبير من المشتغلين بهذا الموضوع من شيوخ الفن . ثم يقف وقفة طويلة عند موضوع « الزمان » وتحديد معناه ، وهو فصل طويل من فصول الفلسفة . ولكنه فى نفس الوقت موضوع أساسى من موضوعات التاريخ . لأن التاريخ يدور فى الزمان ، وبلا زمان فلا تاريخ . ويعقب ذلك بالحديث عن الماضى وإمكان معرفته ، ووسائل هذه المعرفة ، وهل يمكن أن تكون كاملة . ويقف طويلاً عند سؤال شغل بال الكثيرين من المؤرخين وهو : إلى أى حد نستطيع القول بأن التاريخ الذى نقرؤه هو الصورة الحقيقية لما مضى من الأحداث ، وينتهى إلى القول بأن معرفتنا التاريخية لا بد أن تكون جزئية ومحدودة .

وعلى هذا النحو الفلسفى الرفيع بمضى شاكى مصطفى فى تناول موضوعه الواسع العسير . وهو ينفى عند كل صغيرة ويناقشها مناقشة فلسفية مدعمة بالحجج مما قرأ من أصول التاريخ وكتب المؤرخين وما عاينه هونفسه كمؤرخ نشيط لا يكف عن التنقيب فى نواحي

ذلك الميدان الواسع من ميادين المعرفة الإنسانية. ويستوقف النظر كلامه عن « الحادث . وما يراد به ثم حركة التاريخ وما هي « وميكانيكية العملية التاريخية » وهنا يعرض عشرات من آراء أعلام التاريخ في تلك المشاكل التي تعرض لها وخاصة المعرفة التاريخية وطبيعتها وحدودها وينتهي بأن يضعنا على عتبة موضوع دراسته وهو «مكان التاريخ بين العلوم .. فيتحدث طويلا عن عملية التاريخ، ثم عن الموضوعية وما هي وما حدودها، والنقد التاريخي والدائمة التاريخية والسببية التاريخية وما إلى هذه من الموضوعات التي يشير بها في ذهن القارئ ذلك البحث الممتع .



وننتقل بعد ذلك إلى المقال الثالث وهو الذي كتبه د. عبد الرحمن بدوي عن أحداث النظريات في فلسفة التاريخ .. وعبد الرحمن بدوي فيلسوف أصيل ألف في الفلسفة ما يمكن أن يوصف بأنه موسوعة كاملة تتناول كل مسألتها وعصورها ، وهو يتناول الموضوع هنا تناول الخبير العارف بكل كلمة يكتبها ، وهو يسير في موضوعه سيرا منهجيا دقيقا يضع السؤال ويجيب عليه ثم ينتقل إلى الذي يليه ، وهكذا حتى يستوفي بحثه على أحسن وجه يكون .

وهو - كفيلسوف - يبدأ بالكلام عن الزمان ، ويعطينا في سطور آراء أهم الفلاسفة الذين تعرضوا لذلك الموضوع الذي تعرض له شاكر مصطفى في بحثه من وجهة نظر المؤرخين . ثم ينتقل إلى الكلام عن مسار التاريخ وهل هو يسير في خط مستقيم أو في دوائر . ويتحدث عن كثير من المشاكل التي تناولها شاكر مصعب ولكن في أسلوب فلسفي كمسألة النسبية التاريخية ، والعلية التاريخية وإمكان التنبؤ بما سيكون عليه التاريخ، ومن تعرضوا لبحثها من أعلام فلسفة التاريخ . ويقف عند البكسيس دي توكفيل ويعقوب بوركارث وفريدريش نيتشه وكارل ياسبرز .

ثم يخصص فصلا إضافية حافلة بالعمق لعدد من فلاسفة التاريخ في العصر الحديث وهم فلهلم دلتاي ورأيه في تاريخية الإنسان . ثم يتحدث عن جورج زمل ونظريته في نسبة المعرفة التاريخية . ورأيه في إمكان وجود قوانين تحكم سير التاريخ .

وبعد ذلك يتحدث د. بدوي عن بندنوكروثشي وفلسفته التاريخية ، ويعطينا عرضا شاملا موجزا لآراء هذا الفكر الإيطالي الذي يعتبر في طبيعة فلاسفة التاريخ في عصرنا هذا . وليس من اليسر إيجاز كلام بدوي هنا ، لأنه في ذاته خلاصة دقيقة لدراسات واسعة في كروثشه وكتبه، وخاصة ما يتعلق منها بالتاريخية المطلقة.

ويقف بدوي بعد ذلك عند كارل ياسبرز وهو من أكثر فلاسفة التاريخ تعقيدا ، ولكنه استطاع أن يشرح لنا آراءه شرحا وافيا ، يوضح جوانبها ، وخاصة فيما يتعلق بالموضوعات الرئيسية التي تعرض لها مثل حدود التاريخ ، والتراكيب الأساسية للتاريخ ، ووحدة التاريخ والوعي التاريخي ، والعلو على التاريخ ، والتاريخ والكون والوراثة والمنقول والفردى والكل .

وقد استطرد بدوي عن الكلام عن اشبنجلر لأن له عنه كتابا كاملا ، ولم يطل الوفوف عند آرنولد توينبي لأنه في الحقيقة مؤرخ لا فيلسوف تاريخ ، وقد شرحنا ذلك بتفصيل في المقال الأول من ذلك المجلد .

ونصل الى المقال المتمع الذي كتبه د. محمد عواد حسين عن صناعة التاريخ الى كتابته ، فقدم لنا دراسة منهجية ذات أهمية كبرى في المنهج الامثل لكتابة التاريخ . وهذه الدراسة ذات قيمة عظيمة لاي مشتغل بهذا العلم . واذا كان طالب التاريخ في الجامعة ، وخاصة طالب الدراسات العليا في التاريخ ، يفيد اعظم الفائدة من هذا المقال فان كل مؤرخ - حتى اولئك الذين تمكنوا من المنهج التاريخي ، والفوا كتباً تعتبر عيوناً من مؤلفات هذا الفن ، يفيدون من ذلك المقال ويجدون متعة وفائدة في قراءته ، اذ ان كتابه خبير بذلك الموضوع سواء بما ألف ونشر من الكتب عن الاغريق والرومان ، أم بما تولى من تدريس هذا الموضوع لطلاب الدراسات العليا في اقسام التاريخ في مصر والكويت .

ولقد قرأته في امان وروية وخرجت من قراءتي بمعرفة أدق وبطريقة مثلى في التجويد في الصنعة التاريخية ، لأن د. عواد يسير بنا خطوة خطوة من جمع المادة الى ترتيبها وتصنيفها ، الى صياغتها في صورة مقال أركتاب ، وأحسب أن هذا المقال يبني أن يكون في مقدمة ما ينصح أهل التاريخ جميعاً بقراءته ، والتفكير فيه وتطبيقه تطبيقاً دقيقاً .



ونصل أخيراً الى مقال : **التاريخ ومشاكل اليوم والغد** الذي يهديه إلينا د. محمد الطالبي وسط هذه المجموعة من الأبحاث والدراسات عن علم التاريخ .

و د. الطالبي طراز فريد من مؤرخي العرب المعاصرين ، فهو تونسى من نفس المدرسة التي أخرجت لنا ابن خلدون التونسي الأصل مثله ، ودراسته عربية فرنسية ، تجمع بين أصالة العلم التونسي التي تتجلى في أعمال مفكرين تونسيين مثل سعيد بن عبد السلام المعروف بسحنون - درة التاريخ الفكري التونسي الخالص في العصور الوسطى ، ومحمد بن أبى زيد الفيرواني الذي شأى إضرابه من فقهاء المالكية برسائله الصغيرة حجماً العظيمة قدراً والتي تعتبر - في رأيي - من أجمل وأدق ما كتب في الفقه على مذهب مالك أمام دار الهجرة .

وتقافة د. الطالبي بعد ذلك فرنسية ، وقارنه يستمتع وهو يقرؤه بهذه الطلاوة التي يعرضها كل مطلع على الكتابات الفرنسية ، فان الفكر الفرنسي عادة دقيق في تفكيره ودقيق في تعبيره ، وهذه الدقة لا تحول دونه ودون العمق والشمول والنظرة الواسعة ، وهذا بالضبط هو ما يجده القارئ في مقال د. الطالبي الذي يحمل إلينا جدّة في الأسلوب وأصالة في التفكير . ومع أن الموضوع الذي طلبنا إليه الكتابة فيه موضوع عسير وهو « التاريخ ومشاكل اليوم والغد » إلا أنه عرف كيف يتناوله تناول استاذ جمع أطراف الفن التاريخي في يديه ، ومضى بنا في مباحث ومسارات من التفكير تحمل إلينا طعم الفكر الفرنسي وما يمتاز به من ذكاء وحدة .

وأقرأ مثلاً كلامه البديع عن موقف الإنسان والتاريخ اليوم ، واستمع إليه يجيب عن سؤال عظيم. الأهمية هو : « هل الحوادث أى الهزات العظيمة التى اعتاد أن يسجلها التاريخ هى حقيقة أجل ما يواجهه مصرينا ؟ وجوابه « ان الزلازل التى اعتاد أن يسجلها الإنسان فى ذعر

وفزع لا تزيد على أن تخدم وجه الأرض خدسلا يفي له أثر ، بينما التعاريف الوديعه الخفيه عن الميان هي التي تكيف الجبال والادوية والبحار .. وهذه مقالة مؤرخ مفلسف اديب اربب تعطينا فكرة عن المستوى العالي الذي ارتفع اليه في كتابة موضوعه الممتع .

والقضايا التي يتناولها محمد الطالبى هنا كثيرة ومثيرة ، والاسئلة التي يطرحها هم يجيب عليها تثير في الذهن دوامات من اتفكير ، فقد تحدثنا مثلا في المقال الاول عن رأى بعض المؤرخين في أن التاريخ حوار بين الانسان والرمز ، ونجد الطالبى هنا يضع الموضوع وضعا آخر ويتحدث عن الحركة الجدلية بين الانسان والتاريخ ، فالتاريخ يصنع الانسان ويكفيه ، والانسان هو الذي يصنع التاريخ ويصوره . وفي سياق بحثه يتعرض الطالبى لابن خلدون وهو من احسن من درس هذا الفكر العظيم الذي لا يزال الى يومنا هذا يطل بقامته المديدة على نهر الفكر العربى السائر الى الابد باذن الله .

تم يسأل بعد ذلك : هل يعين التاريخ على حل مشاكل اليوم ؟ وللإجابة على هذا السؤال يطوف بنا مع نفر من اعلام التاريخ عندنا من أمتال الطبرى وابن الاثير وابن خلدون . ويربط بين ابن خلدون وهيجل ربطا بديعا ويشير الى جول فاليرى . وفي أثناء كلامه يجيب عن سؤاله بقوله « ان التاريخ لا يمدنا بطول لمشاكل الحاضر لانه لا يعيد نفسه ، ولكنه مع ذلك يعيننا اعانة جذرية على فهم واقعنا » . ويختم بحثه بعبارة جميلة ربما كانت تعبيرا بليغا عن موقفنا نحن أهل التاريخ من علم التاريخ والعلمى . وان كانت الصعوبات لا تخفى علينا ولا تأمن الاخيبات ، وذلك لاننا نؤمن بالتقدم ، ذلك التقدم الذى تقسرا خطوطه واضحه في سجل الخليقة ، ذلك السجل الذى اعاننا ، وسيعيننا التاريخ اكبر فأكبر على سبر صفحانه : « انحسبتهم اننا خلقناكم عبنا وانكم الينا لا ترجعون ؟ » .



ذلك هو الزاد الوافر من العلم بالتاريخ الذى يضعه هذا المجلد من عالم الفكر بين يدي القارئ العربى الذكى ، المتطلع الى المعرفة ، الباحث عن كل ما يعينه على حل مشاكله كممثل لشعب من اكبر الشعوب التي حملت مشعل الحضارة ووجهت سير التاريخ . وهو زاد فيما نعتفد غنى ووفير يحتاج منا الى ان نستوعبه في هدوء ، ونتمنله في صبر ، ونقدمه الى امتنا الجيدة في تواضع ، ولنضيف به الى بناء الفكر العربى الشامخ لبنة صغيرة « وخيركم من جاد بما عنده » والله الموفق سبحانه .



محمد الطالبي *

التاريخ ومشاكل اليوم والغد

ما فائدة التاريخ بالنسبة لمشاكلنا اليوم وغدا ؟ وما هو مستقبله في عالم التقنيات والعالم التجريبي ، والقوانين الكونية التي تضع بيد الإنسان مقاليد التحكم في المصير وتكييف العالم الحاضر والقادم ؟ انه يحسن بالمؤرخ ، وبكل ذي علم على الاطلاق ، ان يقف من حين الى حين وقفة تأمل ونسأل عن جدوى العلم الذي وهب له حياته . ولعل هذه الوقفة اوكد ما تكون في ايامنا هذه التي اخذت فيها البشرية تخرج من جلودها ، وتقفز في الاجواء العليا محققة ما انبأ به التنزيل - « يا معشر الجن والانس ان اصبغتم ان تنفدوا من افطار السموات والارض فانفدوا ، لا تنفدوا الا بسلطان » (١) - وما ورد في الأثر : « لو تعلق همة بني آدم بما وراء العرش لنالته » . فالיום اعطيت البشرية سلطانا عظيما ، وناقت همتها الى ما وراء العرش ، وقبلت

* الدكتور محمد الطالبي استاذ التاريخ الاسلامي في كلية الاداب بالجامعة التونسية . يمتاز بثقافة واسعة وعلم غزير بتاريخ الاسلام العام والمغرب خاصة معقم مؤلفاته بالفرنسية . آخرها عن ابن خلدون وفلسفته التاريخية والاجتماعية نشره بالفرنسية .

(١) الرحمن ، سورة ٥٥ ، آية ٢٣ .

التحدى . فما سيكون المصير ؟ وما دور المؤرخ والتاريخ في هذا الوضع الجديد والانقلاب الحاسم .

فالانقلاب اليوم اجسم واهول بكثير مماشاهده في زمانه مؤرخ عربى فلد ، حضرمي النسب ، اندلسي الاجداد ، تونسسي المنبت ، مغربي التجربة والتنقل ، ومصرى الخاتمة والنقلب ، اعنى ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون (٧٢٢ - ١٣٣٢/٨٠٨ - ١٤٠٦) حيث كتب في ذلك الاسلوب المحكم الصادر عن وضوح الملاحظة وعن نفاذ بصيرة مدهش : « واذا تبدلت الاحوال جملة فكانما تبدل الخلق من اصله ، وتحول العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث . فاحتاج لهذا المهتم يدون احوال الخليقة والآفاق (٢) » .

ولمعدنا هذا الذى نعيش فيه فنحن ايضا فى اوكد حاجة الى « يدون احوال الخليقة والآفاق » ، احوال الخليقة عامة ، لا احوال بعض الجماعات المنفردة مهما كانت هامة فى حد ذاتها ، او عزيزة على نفوسنا لسبب من الاسباب ذلك ان « الخلق الجديد » الذى نعيشه ، حسب عبارة ابن خلدون ، ان لم يكن اول خلق للبشرية من نوعه ، فهو بدون منازع اجسم من كل ما سبق ، وهو احسم منمرج من تلك المنعرجاتالعديدة التى تسوق حتما الخليقة نحو مصيرها .

نم ان البشرية ، ان كانت قديما تساق نحو مصيرها فى غيبوبة بين الغفلة والوعى ، فهى اليوم يزداد ويصير وضوحا اكثر فاكثر ، وهى تعالج فى نعر توجيه خطاها عن يقظة وتبصر نحو اهداف لم تتضح لها بعد كامل الوضوح ، يطفى عليها ذلك الجانب المادى الصرف الذى حذر منه ابن خلدون (٣) . فالوعى البشرى الجماعى اخذ يفتق من اكمامه ، اكمام الحدود العديدة ، حدود الانحياز ، وضيق الازهان ، والتعصب الطائفي والاقليمي ، او الجنسي ، وغير ذلك مما يسد الافق ويحول دون الشمول ووضوح الرؤية .

الانسان والتاريخ اليوم :

ان الكائن البشرى يمتاز من بين كل الكائنات بالذاكرة ، ذاكرة فردية وذاكرة جماعية ان التاريخ هو ذاكرة الجماعات هكذا كان قديما ، وهكذا هو اليوم . غير اننا اليوم توغلنا فى منمرج سوف يصبح فيه التاريخ ، عندما يبلغ التطور غايته ، ذاكرة الجنس البشرى بدون حصر او تقييد .

والحقيقة ان هذا التطور الذى سيجعل فى النهاية من التاريخ ذاكرة الجنس الذى ننتمى اليه بدأ منذ احقاب او قرون ، لكن بصفة بطيئة وثيدة ، لا يسلك سبيلا واضحة سوية ، بل كثيرا ما يتيه فى ادغال التعصب والتحزب والشعوبيات ، قبل ان يعود الى الجادة على يد بعض الرواد الافذاذ الذين لم تنطمس امامهم السبيل مهمانسجتها من جنوب وشمال . ولنا الى هذه الناحية من البحث عود .

وريثما يتم التطور الذى نعتقد ان التاريخ سوف يصبح فى نهايته علما حقيقيا - وان اختلف عن علوم الطبيعة - فما نشاهد اليوم ؟ ما التاريخ ، وما علاقته بالانسان فى يومنا هذا ، وفى هذه

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ص ٥٣ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٥١ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ - ٦٧٤ .

المرحلة الحاسمة التي نقطعها بين ماضٍ يوداد تشعبا كلما زدنا في درسه تعمقا ، ومستقبل نحن على أبوابه في منزلة بين المنزلتين ، يتأذفنا الرجل والأمل ؟ أن كل من اعتاد قلب الصفحات الصفراء ، صفحات توارىخنا القديمة ، وكل من راض نفسه على سبر بطونها ، ونفض غبارها ، واستكشاف ما احتوت عليه من أفراح وأتراح ، لعله يجتج الى الظن الى أن كلمة تاريخ إنما هي مرادف كارثة أو عجيبة .

هكذا فهم أجدادنا التاريخ عندما كان في طور الطفولة ، لم يتخلص بعد من خضم الأساطير التي منها طفا شيئا فشيئا . كان بعضهم يقصد منه التسلية ، وبعضهم يسجل به مغاخر القبيلة ، أو مآثر الآلهة ، وهذا يجعل منه مدرسة عظة وإرشاد ، والآخر يضعه للملوك كي يكتسبوا من خلاله ما يحتاجون اليه من خبرة سياسية أو يستغلوه لتدعيم ملكهم وسلطانهم . وهكذا اتت التواريخ تدوى بصليل السيوف ، وتقطر دماء ، وتضج بالتهليل والتكبير ، أو بالتذيد والعويل . وهكذا وردت في شكل حوليات شحنت بكل حادثة جلييلة اعتبرت جديرة بأن تسجل على صفحات التاريخ الغراء أو السوداء . . . فإذا بصفحات هذا التاريخ تكاد تكون خالية من وصف الإنسان في حياته اليومية ، وإذا بك تلمس الإنسان الهادي الذي تنبض فيه الحياة وبكسوه اللحم والدم ، وتبحث عنه في بطون هذه السجلات القديمة ، فلا تكاد تعثر له على أثر . هنا أيضا كما هو بالنسبة لعلوم أخرى ، طغى القريب والولوع بالشاذ على ما به العمل وعليه الموعول . الحوادث احتلت كل مكان ، وطردت في النهاية الإنسان . وبقيت هذه النزعة العتيقة التي لا ترى في التاريخ إلا وعاء لأهم الحوادث وذكرها مفعلا لها مسيطرة على كثير من العقول الى يومنا هذا ، إذ انصارها المخلصون لها لم ينقرضوا بعد ولم يستسلموا ، وإن ثلث صفوفهم وخفتت اصواتهم .

ذلك انه قويت نزعة أخرى جعلت التاريخ يعبر أكثر عناية للإنسان العادي ويوجه نحوه الانوار التي كانت مقصورة على الحدث البارز الذي كثيرا ما كان أروقة البلاط أو ساحة الوغى . وهذه النزعة أكثر كشافا عن واقع الإنسان ، وأجزل فائدة بالنسبة اليها ، بالنسبة لعقليتنا ، ومنصوراتنا ، وحاجات يومنا ، فنحن لا ننكر . وهذا ما يجب أن نؤكد حتى لا نتخلص من تطرف لنقع في تطرف معاكس - ما للحوادث الحاسمة من قيمة ممتازة . غير أن هذه الحوادث ، مهما كانت جسيمة ، فهي لا تزيد على أن تكون شبيهة بتلك التجاعيد التي تكسو سطح البحار . فهي وليدة ما يجري في الأعماق ، وتلك الأعماق هي ، بالنسبة لنا ، بواطن روح الإنسان العادي ، وصروف حياة الشعوب الكادحة ، وما يطرأ على المحيط التي يحويها من تفسير وتفاعل يهتز له بعنف ، من حين الى حين سطح التاريخ . لقد اعتاد التاريخ التقليدي أن يسجل الهزات السطحية ، واصبنا نبحث عن أسبابها البعيدة واسرارها الدفينة . ذلك هو التأثير الجذري الذي طرأ على العلاقة الجدلية التي تربط الإنسان ، إنسان اليوم ، بتاريخه . فمن موقف الاندهاش أمام الرجات التي كان يكتفي بتاريخها ، أي بضبط زمانها ، خرج الى البحث عن أسبابها . ومن أدراك ؟ لعله إذا ما اهتدى الى الكشف عن العلة وجد السبيل الى تفادي ما يتبعها من محن وأحزن ، أو حال دون وقوعها ولنا الى هذا עוד .

لم نسأل آخر ، هل الحوادث ، أي الهزات العظيمة التي اعتاد أن يسجلها التاريخ مهما بدت ممتازة ، هي حقيقة أجل ما يوجه عجلة مصيرنا ، وأجدر ما يستوجب عنايتنا ؟ وإذا ما أردنا أن نضرب مثلا قلنا : أي شيء أشد اثرا في تكييف وجه البسيطة ، الهزات العنيفة

التي ترتعد لها الفرائص والقلوب ، أم التعاريج الهادئة البطيئة التي لا تثير الانتباه ولا يحسب لوجودها أدنى حساب ؟ الجواب أصبح اليوم يسيرا لان الجيولوجية علمتنا ان الزلازل التي اعتاد ان يسجلها الإنسان في زعر وفزع لا تزيد على ان تخدش وجه الأرض خدشا يكاد لا يبقى له أثر ، بينما التعاريج الوديعه الخفيفة على العيان هي التي تكيف الجبال والوديه والبحار .

فهذا الاكتشاف جعل الإنسان اليوم يتقن الدوافع التاريخية - او الاسباب ان شئت - فبعبارة جديدة . اننا اصبحنا لا نقيس هذه القيمة بمقياس خطورة الكارثة ، وشدة المحنة ، وعدد القتلى . فكم من كارثة رهيبه ، او انتصار باهر ، لم يغير مجرى التاريخ بقدر انملة ، وكم من دقيقه لطيفه ، لم ينتبه لها إمام ظهورها لدقتها ، اسفرت عن جسيم العواقب . فاكشف العجلة ، واكتشف صنع الفولاذ - وليس من الحوادث التاريخية بالمفهوم العادي القديم - غيرا وضع البشرية . وكذلك اكتشف العالم الجديد ، وشق السبيل الى الهند عن طريق البحر ، قد عملا لتقويض قاعدة العرب الاقتصادية ولتدهورهم وانحطاطهم ، ما لم تعمله الحروب الضوارس . فالحوادث اذن ، جليلها ودقيقها ، لبنه لا يستغنى عنها طبعها التاريخ ، الا انها ليست التاريخ كله .

فليس التاريخ اذن ، في نظر انسان اليوم ، كما كان الشأن بالنسبة لانسان الامس ، سلسلة من حوادث متعاقبة في زمن مضى ومنسوبة الى الاهمية بوجه وبدون وجه . فاذا خرج التاريخ ان يكون هذا تعريفه ، فما هو اذن ؟ فلقد عرفه بعضهم بأنه « علم الماضي » غير ان هذا التعريف لا يرضى تماما ايضا ، لان الماضي وعاء لكل مظاهر الكون . يختلف اشكالها والوانها ، يتسع للجيولوجية ، ولعلم تطور الحياة ونشوتها وارتقاها ، ولعلم الفلك وغيره . فكل صنف من اصناف الكائنات ، من جماد ونبات وحيوان تاريخ وهذا التاريخ له علماء وله اختصاصيه .

وكذلك الكائن البشرى تاريخه - في جملة الكائنات - اذ ان هذا الكائن لا نستطيع ان نتصوره الا في محيط وفي وضع وحالة . فالتاريخ اذن علم الانسان في وضعه واحواله المتبدلة دائما ابدا . فهو علم نطلب منه ان يساعدنا على حل لغز الحياة ، وفي حله طبعاً حلّ للفز الكائن البشرى على العموم . وهذا العلم لا ييسر سلطانه طبعاً الاعلى الماضي ، الا ان هذا الماضي التاريخي من نوع خاص . فهو ليس بماض قارئ ذى حدود معينة ثابتة . هو ماضى في امتداد مستمر . فهو كاطل بأكف في كل آن ولحظة الحاضر ويتحفّر لرخسي سدوله على المستقبل . فالتاريخ اذن ليس علم ماضى الانسان ، بل هو علم تطور الانسان بلا انقطاع على مدى الزمان . فهو علم يعبر وراء الانسان محاولا ان يدركه وان يفهمه ويتعجب منه ، وان ينيره لنا في مختلف المراحل المتتابعة المنداخله التي مر بها ، ويتجه نحوها ويدب على المرور بها وطبها في طبات التاريخ .

غاية التاريخ اذن وهدفه ان يشرح لنا الانسان . وهكذا يتضح لك ان الحوادث - بارزها وما خفي منها في الاعماق - ليس لها في حد ذاتها ، من حيث هي حوادث مجردة كبير قيمة ما لم تتفاعل مع الفكر الانساني . ذلك انما تصبح الحوادث ذات قيمة عندما ينطقها المؤرخ بعد خرس باستفساره اياها والحاحه في سؤالها عن قدر مسئوليتها ومدى تأثيرها في تغيير وضع الانسان وتوجيه مصيره . فالتاريخ اذن غايته ووضالته ان يفهم ، ان يربط العلل بالملات والاسباب بالمسببات ، وان يجعل من كامل الواقع المتشعب والمترامي الاطراف شيئاً له نظامه

وانسجامه اضطرابا والاراما بحكم التسلسل والتوالد المنطقي. التاريخ بناء منطقي لعالم الانسان. وإذا كان الامر كذلك فانه ينبغي - كي يكون البناء متين الاسس وفي مأمن من مزلق الخيال - ان لا يهمل المؤرخ أى مظهر من مظاهر الواقع ، اذ هذا الإغفال قد يؤدي الى عدم الفهم ، او الى شئ من ذلك ، الى سوء الفهم واشادة قصور من ورف سرعان ما تنهار ونسلم اصحابها الى اوخم العواقب . انه يستحيل عليك مثلا ان تفهم الانسان فهما صحيحا مفيدا اليوم وغدا. الانسان هو موضوع علم التاريخ - اذا اكتفيت باحصاء الكوارث ، واذا اجتهدت في وضع قوائم الحوادث. اذ الانسان كل لا نفهمه ما لم نعتن ايضا بحياته الاقتصادية ، والاجتماعية والشرعية والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته . ولذا ترى المؤرخ اليوم يلجأ الى تخصص ادق فادق حتى يتمكن من اداء رسالة التاريخ على وجهها ، أى حتى يتمكن من اعانتنا على فهم ذاتنا اكثر فاكتر . وذلك ان سبيل التاريخ في تشعب مستمر كلما ازداد موضوع بحثه تعمقا واتساعا وكلما ازداد وضع الانسان تعقدا ، أى كلما ازدادت انسانية الانسان تكاملا على مر التاريخ وبفضله .

فهناك حركة جدلية بين الانسان والتاريخ . فالتاريخ يضع الانسان ويكشفه ، والانسان هو الذى يصوغ التاريخ ويصوره . لا تاريخ لو لم ينقش الانسان التاريخ على صفحات ذهنه قبل ان ينقشه على صفحات ابقي على مر الزمان . فالانسان ، في علاقته مع تاريخه ، فاعل منفعل . فهو يجلي هذا التاريخ في مرآة فكره ويقليه الى متصورات محكمة الهيكل ينعكس تأثيرها بدورها على اتجاه مصيره . فلا وجود للتاريخ . كما لا وجود للزمان الذى هو وعاء التاريخ . أى لا وجود للظروف والمظروف لولا الفكر الذى يفكر التاريخ والزمن . انما التاريخ من خلق فكر الانسان فليس الانسان اذن ريشة تسير في انجاء ربح التاريخ ، انما هو يريد ان يكون ارادة تحاول ان تجرى الريح بما تشتهي السفن ، فبعكس التمثل ويخضعه لعزمته .

لكن التجربة البشرية التي بلغها علمنا حتى الآن نعلمنا ايضا ان سيل التاريخ يجرف الانسان في تياره . فهل لهذا السيل اتجاه وغاية ، وهل يوجه الانسان ، او يوجّه من طوفانه لا هذا مشكل من اشد المشاكل تعقدا واستعصاء على الحل اكتب عليه فلاسفة ومؤرخون عديدون ، وبالرغم مما أسال من حبر فهو لم يزل الى يومنا هذا قائما ، شائك الجواب ، حافزا للنحس . بل قل للتعصب ، في اتجاهات متناقضة (٤) ، وسوف لن يزال كذلك الى امد بعيد . ذلك ان

(٤) انه يحسر الاستيعاب في هذا العدد . لكن يمكن ان نحيل القارئ على المصادر التالية التي هي من اهم ما كتب حول الموضوع :

L'homme et l'Histoire, Acts du VIe Congres des sociétés de Philosophie de Langue Française (Strasbourg 10-14 Septembre 1952) P.U.F., Paris 1952.

في هذا العدد ييسف المؤرخون آراء اهم القدامى والحديثين ، من فلاسفة ومؤرخين في القضية

L'Histoire et ses interprétations ; Entretiens au tour de Arnold Toynbee, sous la direction de Raymond Aron, Paris 1961.

في هذا المؤلف نجد نقاشا لآراء ارنولد توينبي - بحضور الكاتب نفسه - وكثير من هذه الآراء تدور حول اتجاه التاريخ وعلاقته بإعادة الاتساق

Janus, No. IV, Paris Décembre 1964 — Janvier 1965, Ansacré à la question,, L'Histoire a-t-elle un sens ?

Rene Sédillot, L'Histoire n pas de sens, Paris, A. Fayard, 1965.

M. Talli, Ibn Khaldun et l'Histoire, Maison Tunisienne de L'Édition, Tunis 1973.

جدلية ارتباط الإنسان بالتاريخ لعلها في قراراتها لتتحقق بجدلية الجبر والاختيار التي أصبت كل العقول ، لأنها ولا شك تتعدى الإدراك الذي يحشرون استيعاب كل أطراف القضية - وهو شرط لعلها - في مرحلتنا هذه التي وصلها نمونا الفكرى وبلغتها قدرتنا على الإلمام . فالأمر بالنسبة للقول بحتمية اتجاه التاريخ لا يختلف في جوهره من الاعتقاد في إبرام القضاء والقول بالجبر . وإذا ما اعتقد المرء هذا اعتقاداً صادقاً لا لبس فيه ، أدها حتماً هذا الاعتقاد ، بحكم التولد المنطقي الاضطرابي ، الى اسلام امره الى أعينة القضاء المجرم التي تقود التاريخ ، فتقوده بالتبعية ، فيما ومن تقود ، الى ما لا يعلمه ولا يتحكم فيه . ان هذا التصور مثير ، وهو ، كالقول بالجبر ، يدك ويقتض من الأساس اركان الجهد والاجتهاد والمسئولية . أو هو ، في بعض الاحيان ، يخدم سياسة او مذهبية معينة تدعي انها منتصرة ، لاريب في ذلك ، لأنها في اتجاه التاريخ ، ولان تطور العالم يداب حتماً نحوها . لكن هذا ليس من التاريخ في شيء ، وإنما هو ضرب من التزييف والتزوير سوف تعود اليه في حينه .

والذي نذهب اليه هو أن اقرب المواقف الى الصواب في هذه المسألة ، كما هو بالنسبة لمسألة الجبر والاختيار ، هو موقف الاعتدال . ان الإنسان في تفاعله مع التاريخ موجه وموجه . انه لا شك في نظرنا ان التاريخ لا يخطط خيط عشواء في ليلة دكناء . ان ما نعلمه عنه يفيدنا أنه يسير ، عن طريق لعلها ليست بالسوية كرمية قوس نحو المرمى ، لكنها تقصد ، مهما كانت منعرجاتها الشرة للحيرة ، هدفاً وغاية . لكن هذه الغاية التي نحوها يسير بنا ركب التاريخ ، ليست في نظرنا ، كما اعتقد البعض نظاماً اجتماعياً معيناً ، ولا مذهبية سياسية دون غيرها ، انما هي اسمى من كل ذلك ، اسمى وأبقى من كل هذه الجزئيات الفانية التي لا تزيد - اذا ما نظر اليها من زاوية التاريخ - على أن تكون اعراضاً متغيرة بتغير الظروف ، زائلة براولها . ان الغاية التي يسير بنا - أو بفضلنا - نحوها التاريخ انما هي نفس الغاية التي تحرك كل الخليقة من النشوء الى الارتقاء . ان عجلة التاريخ تدفعنا ، بوسائل شتى تختلف باختلاف الظروف ، وكثيراً ما تكون اليمة قاسية ، نحو انسانية اكمل ، تخلف لنفسها ، في كل مرحلة من مراحل سيرها الى الامام ، الاطار الاجتماعي ، والاقتصادي والسياسي الملأ لموضعها ولنضجها . ان حركة التاريخ الوحيدة التي لا جدال فيها ، هي حركة النشوء والارتقاء ، ذلك هو اتجاهه ، وتلك هي غايته .

ويتضح لنا هكذا ان التاريخ ، اذا ما وضعناه في هذه الأبعاد ، لم يبدأ من يوم نقش الانسان مآثره على المدر أو الورق ، أو حتى من يوم انضج الخزف أو سن الحجر وصقله بل من يوم نفخ الله فيه روح الانسية ، وفصله وفصله بذلك عن سائر الحيوان . « قل سبيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، ان الله على كل شيء قدير » (٥) . لقد سار العلماء في الأرض واجتهدوا كي ينظروا كيف بدأ الله الخلق ، واتضح لهم بصفة لا تقبل الشك ان الإنسان في تطور لم يزل مستمراً ، ويؤمل أن يستمر . ان لم تكن كارثة واجهاض .

والحقيقة ان هذا الاكتشاف ليس بجديد تماماً في خواتمه ونتائجه . ذلك ان الإنسان ان لم يقم عليه الدليل العلمي قديماً كما هو الشأن الآن ، فقد انتهى اليه بمجرد التأمل ، قبل ان

بهديه السير في الارض ، وفحص اديهما ، الى العثور على حلقات السلسلة التي تربط اوله بحالة اليوم . ومن بين المفكرين العرب الذين كان لهم - قبل داروين بقرون - التسط الاوفر في هذا الصدد ، يجدر ان نخص بالذكر اخوان الصفا (٦) ، ومسكويه (٧) (توفي سنة ٤٢١ / ١٠٣٠) وابن خلدون ، الذي يلاحظ فيما يخص نشوء الانسان وارتقائه في سلم الكائنات :

« واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعه ، وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية ، ترتفع اليه من عالم القردة (٨) الذي اجتمع فيه الحس والادراك ، ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل . وكان ذلك اول افق من الانسان وبعده . وهذا غاية شهودنا (٩) » .

ويضيف ابن خلدون : « .. فوجب من ذلك ان يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتنا من الاوقات في لحظة من اللحظات ، وذلك بعد ان تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ، ويكون لها اتصال بالافق الذي بعدها ، شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه (١٠) » .

وهكذا يصبح التاريخ وعاء لحركة تقدم جدلية يتوق الانسان من خلالها ، وبفضل الانتصار على تناقضاته التجسمة في اجهازات الحضارات المتتالية ، الى انسانية اكمل فاكمل . فهو في كل يوم يبنى ، بالتغلب على خيباته المتكررة ، انسانيته ، وما الخيبات في هذا الصدد الا جملة من الانحرافات التي ، ان عانت السير في طريق الارتقاء ، لا تقطعه ولا تغير اتجاهه . وهذه الطريق تؤدي الى الافق الذي يلي ، افق يكون فيه - حسب تعبير ابن خلدون - « الانسلاخ من البشرية الى الملكية » ، اي الاقتراب من عالم الروحانيات . ومن يدريك ؟ لعل في خاتمة مطاف هذه المرحلة ينشئ الله يوما الانسان نشأة اخرى ، لا تقل خطورة عن تلك التي فصله بها وفضله على عالم الحيوان ؟ فالتاريخ اذن ليس بالنسبة للانسان تسلسلا زمنيا تعدد دقات الحوادث ، انما هو حركة تطورية جدلية ، يستمر بها الخلق .

هذه الحركة توجه الانسان بلا ريب . لكن هذه الحركة ، في نفس الوقت ، لم يكن ليكون لها وجود لولا الانسان ذو اليد والروية ، لأن الانسان هو نقطتها المركزية ومحركها الدافع لها . لا اتجاه

(٦) انظر رسائل اخوان الصفا ، ط . بيروت ١٩٥٧ ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ، وانظر ايضا المؤلف التالي

S. H. Nasr, An introduction to Islamic cosmological doctrines, Conceptions of Nature and Methods used for its study by the Ihwan El-Safa, Al-Birun and Ibn Sina, Harvard University Press, 1964.

(٧) انظر الفوائد الاصفى ، ط . القاهرة ١٢٢٥ هـ ، ص ٤٦ - ٨٣

(٨) الرواية التي اخترناها هنا هي التي اثبتها كاترمار Quaternere في طبعه للمقدمة ، باريس ١٨٥٨ ، ج ١ ص ٩٧٤ ، وهي التي اعتمدها ايضا روزانتال Fr. Rosenthal في ترجمته الانجليزية للمقدمة (ج ١ ص ٤ و ٩ و ج ٢ ص ٤٢٢) عملا بما ورد في مخطوط المقدمة الذي راجعه ابن خلدون بنفسه وبقلبه والمحتفظ به في استنبول وهذه الرواية هي الوحيدة التي تتسمج مع السياق . اما الطبعات الاخرى المتعددة للمقدمة ، فاننا نقرا بها عوض « القردة » « القردة » وهذا اختيار لا يتماشى مع السياق ويأسف له ساطع الحضري في دراساته عن مقدمة ابن خلدون ، بغداد ١٩٥٣ ، ص ٣٠٢ .

(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٧ .

(١٠) ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٨ .

للتاريخ لو لم يكن ذلك الاتجاه في خلد الانسان الاول كالشجرة في النواة . التاريخ انما هو التجلي التدريجي لحاجات الانسان الكامنة وبنيتها الاولى ، واتخاذ الوسائل المؤدية لتحقيقها . فهو خروج مسترسل من القوة الى الوجود ، وتحقيق متواصل للغاية التي يحمل سرها الانسان في غيب تكوينه وفي الطاقات المودعة فيه ، وان كان لا يدرك دائما على حقيقتها ، وفي كل وضوح تلك الغاية ، وان كثيرا ما اشتبهت عليه السبل ، وانحرف وتاه في معارجها ، واساء استعمال طاقاته ولم يحسن تقييمها وتوجيهها . غير ان الطاقة الموجهة للتاريخ كامنة فيه بلا منازع . فتاريخ الانسان في الانسان من اول الخليقة .

لكن ان كانت القوى الدافعة للتاريخ كامنة في الانسان ، هل هي متساوية فيه من حيث هو انسان على العموم ، ام هل هي تختلف باختلاف الافراد ، فيكون لبعضهم دور احسم ووزن اجسم في توجيه عجلة التاريخ ؟ انكر بعضهم - خاصة بعدما ظهرت المنهجية الماركسية في التاريخ - ان يكون للفرد دور يذكر حقيقى في التطور التاريخي ، اذ الدوافع الحقيقية كامنة في الجماعات وما يحدث في حياتها من تغير . فهي الاعماق التي تتكون في صلبها التعاريج العظمى التي تغير وجه الكون ، والهزات التي يرتجف لها من حين لحين . غير ان هذه النظرية - على ما فيها من حقائق لا تجد - تمثل تطرفا جديدا في التفسير والفهم يمثل رد فعل معاكس ضد تطرف آخر طغى على التاريخ قرونا طويلة وجعل منه مجر " ملحمة وردية تارة وسوداء تارة اخرى - بعض الابطال المتوجين وغيرهم . والصواب في نظرنا في الابتعاد عن كل انواع التطرف ، وفي التقييم السليم لكامل العناصر ، اذ تفاعل الانسان بتاريخه ، على مستوى الافراد والجماعات ، شديد التعقد كثير التشابك ، فمن ينكر الدور الذي لعبه « آتف كليوترا » اى سحر شباكها ، في تاريخ مصر ورومه ؟ وهل تاريخ انجلترا كان يكون على ما كان عليه لو حذفنا **كرومويل** (١٥٩٩ - ١٦٥٨) Cromwell ؟ وما قولنا في **هتلر** Hitler هل حال عالمنا اليوم كان يكون على ما هو عليه ، لولا هذا الرجل الغرب ، بشذوذ عقليته ، واحتدام مزاجه ، واختلال توازنه ، وقدرته على الهاب الجماهير وتجنيدھا ؟ طبعاً يمكن ان نلاحظ انه لو لم يجد حطبا جزلا ، لما استطاع ان يبعث الحريق . لكن يمكن ايضا ان نعكس الآية ونقول : لولا قدرته العجيبة على قذح الزناد ، لما اضطر الحطب ، وما شب الحريق بتلك الصورة التي نعرفها على الأقل . وهكذا نجد دائما في طريقنا تداخل العوامل وتشابكها ، وتفاعل الانسان ، على مستوى الافراد والجماعات ، مع تاريخه . فهو مؤثر مؤثر فيه ، فاعل منفعل على الدوام يصور واشكال مختلفة تعجز الحصر والاحاطة والاحصاء .

وخلاصة القول ان صلة الانسان بالتاريخ وفهمه له قد تغيرا تغيرا بعيدا منذ تلك الايام الاولى التي لم يكن التاريخ فيها سوى شرب من الميثولوجية او قصص اساطير الاولين . وان العرب قد لعبوا دورا حاسما في تقدم العلوم التاريخية وكان دورهم في مصورهم الذهبية يفوق بكثير دور الأمم الاخرى . فمن طريق منهجية الحديث ، ادخلوا في التاريخ الاعتناء بالموضوعية ، والتأكد من صحة الاخبار المروية بفضل قواعد الجرح والتعديل ، والاعتناء بنقد السند والرجال ، اى بما نسميه اليوم النقد الخارجى . وبهذا جعلوا من التاريخ علما حقا ، ذا جدية ومنهجية . وكذلك قد حاولوا ان يخرجوا به من حدود الاقليمية الضيقة الى حدود اوسع هدفها ان تشمل العالم التحضر المعروف في زمانهم .

ثم ظهرت مقدمة ابن خلدون التي شكلت منعرجا حاسما في كيفية فهم الانسان لتاريخه وتقييمه له ، وما يرجو منه من كشف ، لا عن ماضيه فحسب ، بل خاصة عن تطور الجنس الذي ينتمى اليه ومصيره . لقد سبق أن بينا كيف اعتبر الناس - قبل ابن خلدون وحتى بعده بقرون - أن التاريخ إنما هو رواية صادقة ، مرتكزة على قواعد سليمة ، عند أهل الجدل من المؤرخين ، غايتها الإلمام بحوادث الماضي والإحصاء العددي لها . لقد حاول الانسان أولا أن يورخ للحوادث البارزة ، أي أن يكون لنفسه ، ولعشيرته ، ولقومه ذاكرة تحفظ المفاخر خاصة ، وتضبط أزماتها حسب السنوات ، من دون أن يحاول أن يفهم فهما عقليا عميقا ضرورة بروزها في زمن وبيئة ما وسر تداعيلها ، ومدى تأثيرها على جنسه كأنسان يقطع النظر عن الشعوبية الضيقة . وأول من شدّ عن هذه القاعدة اليوناني **توسيديد** Thucyolide الذي عاش بين سنة ٤٦٠ وسنة ٣٩٥ قبل المسيح . فلقد حاول التحليل والتعليل . لكن رغم الومضات الصادرة من حين إلى حين عن بعض الأفاذا فان التاريخ بقي ، بصفة عامة حتى القرن التاسع عشر مجرد دفتر به تضبط الوقائع حسب وقوعها ، مع توخى الصدق والتحرى في الرواية إذا كان المؤرخ أميناً . وهذا ما جعل **إيف لاکوست** Yves Lacoste يجزم « أن قبل القرن التاسع عشر لم يكتب لأحد أن يفوت **توسيديد** سوى **ابن خلدون** : فالأول قد اخترع التاريخ ، وعلى يد الثاني اكتسب هذا التاريخ صبغته العلمية » (١١) .

كيف أصبح باترى التاريخ علما - بالمعنى المعاصر للكلمة - على يد ابن خلدون ؟ كان ذلك قبل كل شيء عن طريق فهم ابن خلدون للعلاقة الجدلية الخلاقة التي تربط الانسان بتاريخه . ويتخلل ذلك بكل وضوح في تعريفه له حيث يكتب :

« حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني ، الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، وأصناف التفتلات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال » (١٢) .

فهذا التعريف للتاريخ يدهشنا ، إذ هو تعريف له كما نفهمه نحن اليوم ، بل كما يفهمه انصار الحركة التجريدية الذين حملوا حملة شعواء في مؤتمر سنة ١٩٥٠ بباريس ، على من بقي من المؤرخين متمسكا بالطريقة التقليدية في رواية الحوادث واعتبار التاريخ بكفي أن يكون سجلا لها . فابن خلدون يريد عكس ذلك ، فهو يريد أن يجعل من التاريخ أداة كشف عن سر « الاجتماع الإنساني » ، وعن خروج هذا الانسان من « التوحش إلى التأنس » بفضل الصراع الجدلي الذي يُعبد سبيله ، عبر عقبات متجددة ، نحو **النسيئة اكمل** ، من طريق الرقي المستمر الناشئ حتما عما « ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال » ، وطبيعة الأحوال هذه التي يشير إليها

Yves dacoste, Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire, passe du tiers-monde, Paris, F. Maspero, 1966, p. 187. (١١)

(١٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٧ .

ابن خلدون ، ويعتبرها القانون الذى بمقتضاه يسير التطور الضرورى الذى لا يعاند ، انما هي سنة الله « التى توجهه تراخى الخليفة » لئلا تارة عنيفة اخرى ، والتى اشار اليها القرآن فى اكر من آية . وهكذا يصبح التاريخ استكتشافا لكليات التطور الانسان ، ومحاولة حل للغز وضعه اليوم فى هذا الكون ، ولصيره العاجل او الاجل .

وان لم يطبق ابن خلدون آراءه هذه الطموحة الجريئة فى كتاب العبر ، فان ذلك لا يسلبه فضل التعبير عنها بقاية الدقة والوضوح . وبعدفانه يستحيل عمليا لا سيما فى زمانه ، تطبيقها من طرف باحث واحد ، فى موسوعة فتحت صفحاتها لتاريخ العالم الاسلامي بأكمله . ولعل استعصاء تطبيق هذه الآراء فى كتاب العبر هو الذى جعل ابن خلدون يضمن خلاصة افكاره وعبرته واعتباراته خاصة فى المقدمة . وهكذا فتح ابوابها للاجتماع والاقتصاد والمؤسسات ، وضروب الثقافات والعلوم ، لان كل ذلك ان لم يكن تاريخا صرفا بالمعنى الضيق فلا غنى للمؤرخ عنه ولا سبيل لفهم الانسان بدونه .

هل يعين التاريخ على حل مشاكل اليوم ؟

لقد حارلنا فيما سبق ان نعالج بعض القضايا الناشئة من تفاعل انسان يومنا بتاريخه ، وان نستكشف ابعادها ، ودورها فى هيكلية كيانه ومحيطه . ولقد اتضح لنا ان الانسان ، ان كان كما قيل قديما « حيوانا اجتماعيا » فهو ايضا ، والى درجة ابعد ، « حيوان تاريخي » فالتاريخ يغلبى ويكتف بصفة اعمق فاعمق على مر الزمان ، شعوره والاشعوره .

فهل لهذا التاريخ - الذى اخذ الانسان يشعر اليوم بوضوح لم يسبق له مثيل بوزنه - فائدة عملية ، وهل يمكن ان نغم منه غنما يلمس بصفة واقعية حسية لحل مشاكل الساعة ؟ ام هل هو علم مجاني ، لا مقابل من ورائه سوى مجرد المعرفة ولذة البحث ؟

هذه قضية قديمة ، وهذا السؤال ليس وليد مشاغل اليوم . ولقد اختلفت الاجابة عن هذا السؤال باختلاف الأوضاع والملايسات ، وباختلاف الأمم والشعوب ، وتغير الازمنة والعقليات ، لكن ، ان اختلف الناس قديما رحدبنا فى تفاصيل الجواب ، فهم متفقون بدون استثناء ان للتاريخ فائدة .

ودروا أولا فوائده فى جوانبه الدينية . كان التاريخ يعتبر علما تكميليا للعلوم الدينية التى كانت تحتل مركز الدائرة بالنسبة للعلوم الاخرى المتلفة حولها ، السابحة فى فلكها . كانت وظيفته بالنسبة للحضارة الاسلامية فى ايام نشوئها ، اناة ظروف البعثة المحمدية ، وما نشأ عنها من غزوات وفتوحات ، وما نشأ عن الفتوحات من مشاكل فقهية تتعلق بنظام الارض حسب فتحها حلما أو عنوة ، وبالحجبة والخراج ، وقانون اهل الذمة ، كما يطلب منه تفصيل ما ورد فى القرآن من اشارات إلى الانبياء ، والرسول والامم القديمة وما الى ذلك . التمس اذن السلف فى التاريخ حلا للمشاكل التى كانت قائمة فى ايامهم ، ووفقوا فى ذلك الى حد بعيد .

وتظهر هذه النزعة بوضوح فى تاريخ الطبرى (٢٢٤ - ٨٣٨/٣١٠ - ٩٢٣) ، وتبرز من اؤل وهلة جلية ، فى عنوان الكتاب « تاريخ الرسل والملوك » ، كما تجددها مفصلة فى المقدمة التى قدّم له بها مؤلفه ، الذى كان فى نفس الوقت محدثا ومفسرا . ولعلنا يحسن ان نذكر هنا ان التاريخ بدأ عند العرب أشبه ما يكون بعلم الحديث ، فى منهجه واسلوبه وطرق روايته . كانت هكذا غاية التاريخ لا تختلف كثيرا عن غاية الدين فى حل مشاكل المجتمع والفرد .

ويؤكد ابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ / ١١٦٠ - ١٢٣٢) على هذه الناحية أيضا ، غير أنه أصبح يلج خاصة على الجوانب السياسية التي أخذت تحتل المكانة الأولى عندما انقلبت الخلافة إلى الملك ، حسب تعبير ابن خلدون (١٢) . ومعنى ذلك أن التاريخ الذي كان في أول أمره في خدمة الدين أصبح في خدمة السياسة . ففي وعائه افترغ مسكويه (٣٢٠ - ٩٣٢ / ٤٢١ - ١٠٣٠) وغيره « تجارب الأمم » ، كي يفترف من معيها أولو الأمر الحلول الملائمة لما يحدث لهم من مشاكل في سياسة التسعوب التي يديرون شؤونها . وهذا ابن الأثير يعبر عن ذلك بكل وضوح في تاريخه الكامل الذي وضعه **لبين الدين أولؤ بن عبد الله الأتابكي ، الملقب بالملك الرحيم** (١٤) ، صاحب الموصل (توفي ٦٥٧ - ١٢٥٦) فهو يبين ما نصه :

فمن فوائد التواريخ : « أن الملوك ومن اليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ، وأروها مدونة في الكتب يتناقلها الناس ، فيروها خلف عن سلف ، ونظروا إلى ما أعقب من سوء الذكر ، وفتيح الاحذونة ، وخراب البلاد وهلاك العباد ، وذهاب الأموال ، وفساد الأحوال ، استنبحوها ، وأعرضوا عنها واطروحها . وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وممالكهم عمرت وأموالها دثرت ، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه ، وثابروا عليه وتركوا ما يتنافيه . هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الإعداء وخلصوا بها من المهالك ، واستعانوا نفائس المدن وعظم الممالك . ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخرا .

ومنها ما يحصل للانسان من التجارب والمعرفة بالحوادث ، وما تصير إليه عواقبها ، فإنه لا يحدث أمر الا قد تقدم هو أو نظيره ، فيزداد بذلك مقبلا ، ويصبح لأن يقتدى به اهلا (١٥) .

لا شك أن ابن الأثير ، عندما كان يكتب هذه الأسطر ، كان يفكر في الملك الرحيم ولي نعمته ، الذي استفاد من دروس التاريخ وعظته ، واستعان بها في سياسة ملكه . وهكذا حدث تطور في فهم فوائد التاريخ وغاياته ، فاعتبره معاصرو مسكويه ، وابن الأثير ، ومن أتى بعدهم ، زيادة على أغراضه الدينية ، مدرسة لتخريج الأطارات السياسية ولتخريج الملوك منهم خاصة . وتتخلل هكذا متانة الصلة التي تربط التاريخ ، في نظر هذا الجيل من المؤرخين والقادة ، بمشاكل الحين والساعة .

(١٣) انظر الفصل الثامن والعشرين من الباب الثالث الذي عقده ابن خلدون بمقدمته (ص ٣٦٢ - ٣٧٢) تحت عنوان : « في انقلاب الخلافة إلى الملك » .

(١٤) خير الدين الزركلي ، الاعلام ، الطبعة الثالثة ، بيروت ج ٦ ص ١١١ . ويذكر ابن الأثير تأليف الكامل في الساريخ لبين الدين في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٥ . ويلاحظ أن هذا الملك ، الذي ألف له ابن الأثير كتابه : كان من أحسن الملوك سيرة ، مما ينير ما يذكر صاحب الكامل من فوائد التاريخ لسياسة الدولة . ولعله يحسن أن نشين نبذة مما يروي ابن تقي بردي في شأنه في النجوم الزاهرة (ط. دار الكتب ، القاهرة ، ج ٧ ص ٧٠) وهذا نصها : « ... وكان شديد البحث عن أخبار رعاياه ، ما يخفى عنه من أحوالهم الا ما قل ، وكان يفكر على العصاد والجواسيس في كل سنة ما لا عظميا . وكان اذا علم من بلاده ما قيمته مائة درهم هان عليه أن يبذل عشرة آلاف دينار ليبلغ غرضه في عودته ، ولا يذهب مال رعيته . قلت : لله در هذا الملك ، ما أحوج الناس إلى ملك مثل هذا يملك الدنيا بأسرها . وكانت وفاته بالموصل وهو في عمر التسعين سنة » .

(١٥) ابن الأثير ، الكامل ، بيروت ١٩٦٥ ، ج ١ ص ٧ .

ولم يتخذ ابن خلدون في هذا الاتجاه العام، واعتبر هو بدوره التاريخ حقاً تجارب فريد، ومجال تأمل واعتبار، وابرز ذلك بصفة جليسة في جبهة موسوعته التاريخية التي اختار لها، عن قصد ودوية (١٦)، اسم «كتاب العبر، وديوان المبتدا والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر» فهو ايضا حرص على بيان وتوضيح فوائد التاريخ بالنسبة لاهل العصر وما يحدث لهم من قضايا فكتب متبنيها:

«اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، اذ هو يوقنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم، والانبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في احوال الدين والدنيا».

لكن رغم هذا الاتفاق العام حول فوائد التاريخ، وعدم مجانيته بالنسبة لشئون الحياة العاجلة والالجلة، فانه حدث تغير جوهري في فهم نوعية هذه الفائدة وكيفية استنماها. لقد رأينا منذ حين ان ابن الاثير كان يرى «انه لا يحدث امر الا قد تقدم هو او نظيره» أي حسب العبارة التي شاعت، وما زالت شائعة في اذهان الكثير من ابناء يومنا «ان التاريخ يعيد نفسه».

وكرر كل من يرى هذا الرأي فائدة التاريخ على امكانية الحصول من حوضه على حلول جاهزة، برهنت على نجاعتها قديما، لمشاكل متكررة هي بعينها، أو نظائرها.. ويجمع المؤرخون اليوم، وكل اهل الفكر، ان هذا وهم وخطأ محض، وسوء فهم للتاريخ.. ومن العجيب ان ابن خلدون قد سبق - قبلنا بقرون - الى نفس ما انتهينا اليه من نتائج ونبه الى ما اشرنا اليه من خطأ، بفضل ما اوتي من عبقرية، ونفاذ ملاحظة، ودقة بصيرة، وقدرة نادرة على التأليف والتحليل. فلقد اهدى الى ان التاريخ لا يعيد نفسه، وأوضح ذلك ايضا لا لبس فيه. فكتب في هذا الصدد ما نصه:

«ومن الفلظ الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والاجيال، بتبدل الاعصار وممرور الايام. وهو داء دوى، شديد الخفاء، اذ لا يقع الا بعد احقاب متطوالة، فلا يكاد ينفطن له الا الاحاد من اهل الخليقة. وذلك ان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر. انما هو اختلاف على الايام والازمنة، وانتقال من حال الى حال. وكما يكون ذلك في الاشخاص والوفات والامصار: فكذلك يقع في الافاق والانقطار والازمنة والدول. سنة الله التي قد خلت في عبادته (١٧)».

ويعتمد ابن خلدون في استنتاجاته هذه على الحضارات العديدة البائدة أو القائمة في زمانه، كحضارات الفرس الاولى، والسريانيين، والنبط، والتبابعة، وبني اسرائيل، والقطب، والروم، والفرنجية، والترك، والبربر، وسائر العجم، والعرب من مضر وغيرها.. فلهذه الحضارات كلها تقيم الدلائل القطعية - كما سبق أن بينا - ان التاريخ ليس تكراراً وعوداً متواصلاً على بدء، انما هو تطور وخلق. وهذا الخلق لا يزال يرتقي في سلم «التدريج في المخالفة حتى ينتهي الى المبائة بالجملة (١٨)». وهكذا ينتهي ابن خلدون الى خاتمة ما كان لينكرها لا هيكل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) ولا پول فاليري P. Valéry (١٨٧١ - ١٩٤٥) خاتمة تمثل

(١٦) المقدمة، ص ١٢.

(١٧) المقدمة ص ٢٦، انظر ايضا ص ٤٨.

(١٨) المقدمة ص ٤٧.

خلاصة تجربته الطويلة ونعكيره في جدوى التاريخ بالنسبة لحل قضايا اليوم والساعة ، وهي انه « لا يقاس شيء من احوال العمران على الآخر ، اذ كما اشتبهنا في امر واحد ، فلعلمنا اختلغا في امور (١٩) » . ونتيجة هذا هي « أن العلماء من بني البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها (٢٠) » . ويعمل ابن خلدون استنتاجه هذا ، الذي جعله عنوانا لفصل من الفصول الاخيرة التي يختتم بها مقدمته ، والذي يمثل عصارة ما انتهى اليه في خاتمة مطافه في مجالي المفامرة والتأمل ، « بأن العلماء - لاجل ما تعودوه من تعميم الاحكام ، وقياس الامور بعضها على بعض - اذا نظروا في السياسة ، افروا ذلك في قالب انظارهم ونوع استدلالهم ، فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم (٢١) » . ومعنى هذا ان التاريخ يتحدى المنطق وان صناعة المنطق غير مأمونة للغلط لكثرة ما فيها من الانزاع وبعدها عن المحسوس (٢٢) « اذا ما انحمت قهرا في حقله وطبقت عليه اعتبارا ، وكل ذلك لان التاريخ - خلافا للاعتماد الذي ما زال سائعا في كثير من الازهان - لا يعيد نفسه ، وذلك لانه خلق متجدد .

لكن اذا خرج التاريخ كما بينا ان يكون يعيد نفسه ، وان يكون وعاء حلول جاهزة او على الأقل جملة من الامثلة تحتلب منها بالاستقراء المنطقي النظائر والنتائج ، هل يبقى له مع ذلك فائدة تدرك لحل ما يعرض لنا من مشاكل في كل حين وساعة من حياتنا اليومية او السياسية ؟ ام هل هو بالعكس ، لا يرجى من ورائه نفع ملمس ، ولا يزيد على ان يكون عبئا يتقل عبئا الداكرة ، او في احسن الحالات انما هو زينة يتحلى بها الرجل المنقف والاديب الارب ؟ .

لقد سبق ان قطعنا ، بدون تردد ولا توقف ان التاريخ ليس يعلم مجاني ، وان له نفعنا وفائدة . في هذا جملة لا يختلف انان ولا يتناطح عنان . لكن الاختلاف يظهر عند التفصيل وحصر مواطن النفع والفائدة . لقد عرضنا - لتحسن ضبط القضية وفهمها - لبعض آراء القدماء من بين اهم مؤرخي العرب . ولنا الآن على نور ما تقدم ، ان نضبط ابعاد القضية بالنسبة لوضعنا اليوم .

اننا اصبحنا اليوم لا نعتقد ان التاريخ يعدنا بطول ، لانه لا يعيد نفسه . لكننا اصبحنا نعلم علم اليقين انه يعيننا اعانة جلية على فهم واقعنا ، بل انه لا فهم لهذا الواقع ما لم نستعن بنوره الذي لا يوهض . والفهم الصحيح شرط اساسي لاتماس الحل الناجح . لهذا نحن نعتقد اليوم ، كما اعتقد اسلافنا ، مع الاختلاف في التقدير ، ان التاريخ مدرسة لتخريج الاطارات السياسية ، او على الأقل انه لا غنى عنه في تكوين الرجل السياسي الذي بيده الحل والعقد .

فكيف يتأتى مثلا لصاحب الامر ان يفهم العالم الحديث ، وتوازن القوى المتصارعة حتى يحسن التصرف والسير بامته في طريق السلامة ، اذا ما جهل كيف كوين هذا العالم في ارحام التاريخ القريب منه والبعيد ؟ انه من البديهي ان نقول ان تصرفات العالم الغربي ، واختيارات قادته ، وملايسات سياستهم ، تكمن في ذلك الماضي الذي شهد تكون الرأسمالية وثائق الثورة الصناعية ، وما تبعها من تسابق نحو مواطن الطاقة والمواد الاولية ، وما نشأ عن ذلك كله من توسع ،

(١٩) المقدمة ص ١٠١٩ .

(٢٠) المقدمة ص ١٠١٨ .

(٢١) المقدمة ص ١٠١٩ .

(٢٢) المقدمة ص ١٠١٩ .

واكتساح اراضي الفير واطنانهم بالقوة ، ومزاحمت ، ونزاعات مسلحة وانقلابات داخلية تريد وتقل عنفا ، وظهور مذهبيات اجتماعية ثورية ، وما تبع ذلك كله من انكاسات الية على ما نسميه اليوم بالعالم الثالث ، وعلى وطننا العربي بالخصوص ، الذي ذاق الامرين نتيجة لانعزاله التدريجي عن حظيرة التاريخ ، بعدما كان ، في القرون التي خلت ، مركز دائرته والمحرك الدافع لمجته .

ولقد كون الغربيون ، لدعم سياستهم المولدة عن الانفجار الصناعي والتقني الذي شهدته ربوعهم مستشرقين عديدين ، وكثيرا من المخلصين في سنئون البلاد التي اخذوا بغزونها بسلاحهم وتقنياتهم ، وامداد حضارهم ولقائهم ، سواء كانت تلك البلاد في امريكا ، او افريقيا او آسيا ، علما منهم انه لا تحكم في الواقع بدران فهمه جيدا . وهكذا يتضح لك لم كتب تاريخنا - اول ما كتب بصفة علمية في مصرنا - في لغات الحضارات الغربية الغازية . لم يكن ذلك عملا مجانيا صرفا ، مهما كان حب العلم والاطلاع داعيا اليه . وفي هذا دلالة واضحة بينت التجربة نجاعتها ، على اهمية التاريخ بالنسبة لسنئون الوقت والساعة . ونتيجة هذا هي اننا اذا ما اردنا اليوم ان نحكم سياستنا نحو العرب ، ونجفع في علاقاتنا معه ، وجب علينا الا نكتفي بدرس تاريخنا - وهو ما نفضل عليه كامل طاقاتنا اليوم - بل ان ندرس ايضا تاريخ وحضارات الأمم الأخرى التي نتعامل معها أكثر فأكثر . اى انه يجب علينا ان نكون - اذا صح التعبير - « مستشرقين » مختصين في تاريخ الغرب وشؤونه . ولا يذهبن يكمن الظن ان ما نعرفه من لغات القوم ، وما نقرأه مما صنفه علماءهم في تاريخهم ومختلف شؤونهم يفني من ذلك ويجزي . فان المثل يقول : « ما حك جلدك مثل ظفرك » . ولعل فنل سياستنا اليوم وسلبيتها في كسار من الاحيان يعزبان الى انعدام المختصين في صفوفنا في سنئون الأمم التي نتعايش معها او تصادم . لقد سبق ان قلنا ان التاريخ بقي ايضا بالنسبة اليها ، لكن بمفهوم جديد ، مدرسة لتخريج الاطارات السياسية . وليس معنى ذلك ان رجل السياسة ينبغي ان يكون مؤرخا . ان التاريخ اختصاص يفني - كغيره من العلوم - الاعمار ، ولا يترك المجال للاشتغال بما سواه . لكن يجب ان يجد القائد السياسي من بني جلده وحوله ، من المؤرخين الاكفاء ، ومن الدراسات التاريخية المتينة ، ما ينير له السبيل ، ويمكنه من ادراك الوضع بوضوح ، حتى يحسن الخطاب والتصرف ، ويحقق النجاح لا لانه ، كما توهم القدماء ، يستطيع ان يفترف حلولا جاهزة من الماضي يطبقها على الحاضر - مما قد يؤدي الى الكوارث الجسام - بل لان الحكم على الشيء ، كما بين ذلك المنطقيون فرع تصوره . وفي التاريخ عون عظيم على التصور الصحيح . واذا صح ما قدمنا من مقدمات ، فانه يصح ايضا ان نقول ان اخفاق السياسة في معالجة سنئون اليوم ، انما هو الى حد بعيد اخفاق الجامعة قبل كل شيء .

وللتاريخ دور آخر في معالجة سنئون اليوم يلعبه على المستوى الداخلي لامتنا العربية . ان هذه الامة تفتتت منذ قرون ، وتجرعت كأس الانحطاط ، وعرفت ذل الخضوع الى الفير ، وهدهدها الفويان ، وجربت مرارة الهزيمة . فهل لكل هذه الادواء في التاريخ اعانة على العلاج ؟ طبعاً ليس التاريخ عصاً سحرية تحقق المعجزات . لكن - على هذا البساط ايضا - في التاريخ اعانة على الفهم ، والفهم الصحيح طريق الحل .

ان التاريخ من اهم مقومات الشخصية . فالفهم الصحيح له يعين على بنائها ، ووقايتها من الدوبان الذي يهددها ، وعلاجها من الامراض النفسية التي تعترضها ، وتشمل طاقاتها . فكما

التاريخ ومشاكل اليوم والغد

ان الانسان يحتاج الى ذاكرة ، فهو يحتاج الى تاريخ ، لأن التاريخ هو ذاكرته القومية ، وعلماء النفس يعلمون الاختلال الذي يطرأ على التوازن العقلي والنفسى اذا ما فقد المرء ذاكرته . فكما يمرض الأفراد لفقدان الذاكرة ، كذلك تمرض الشعوب لضياح تاريخها او دخول التشويه والتشويش عليه .

وان شئت أن نفهم قيمة التاريخ بالنسبة للحياة الأمم ، وتوازن ذاتياتها الذى هو شرط نجاحها في معركة الحياة ، فما عليك الا ان تلقى بنظرة على من لم يمنحهم القدر - او الحظ - تاريخاً مرموقاً او عربيقاً ، فهم كثير . فسترى العديد منهم يتألمون - عن شعور او عدم شعور - من نقص وبتر ، كثيراً ما يرى قوماً ، عظم شأنهم أو قل ، يحثون عن قاعدة قارة متينة يفسعون عليها أرجلهم ، وبشيدون عليها بنيانهم ، ويستمدون منها قواهم في صراعهم اليومي . فهم تارة يخلقونها من عدم ، ويحصون كل كبيرة وصغيرة لوضع أسسها الحديثة التي لا عمق لها في صلب الأرض . وقد يرمي اليأس بالضعفاء منهم في أحضان تاريخ غيرهم ، فيفضلون هكذا الدوان في معين غير معينهم ، والسباحة في ماء ليس بمائهم ، على البقاء بدون تاريخ . فكأن الكائن البشرى الذى لا تاريخ له كائن عابر لا يجسر ان يظهر للناس .

غير أنك تسمع أيضاً المثل الغائل أن الامم السعيدة لا تاريخ لها . كلا ان هذا المثل يرشح بالاستسلام ، ويشيء من الضعف ، ويتم من الخوف ، والكبت ، والميل الى التوارى والتعاس اللذيد على هامش الحياة ، والفشل والعمول والخذلان . هو مثل المتهودين الذين عضهم الزمن ببناءه ومال عليهم بكتله . كان المحن والاحن ليست لازمة ، كالأفراح والنجاح ، لتكوين الكائن الحي حقاً ، شحذ العزيمة فيه ، وتدريبه على المفاولة والانتصار بفضل رياضة طويلة عسيرة لا ندرک دائماً سرها . وبعد فلتد سبق أن بينا أن التاريخ ليس هو حتماً دائماً تاريخ الكوارث والفشل تارة ، والتواضع وتضيق الجراح تارة أخرى . ونحن نعتقد أن أهم ما فيه ليس من هذا القبيل . ثم اننا نأمل ان يصبح يوماً تاريخ عالمنا تاريخ عزة المعرفة ، والتقدم عن الكمال والسعادة عن طريق السلامة ، طريق أمانة من حوادث المرور .

ومهما يكن الامر فالتاريخ مدرسة نتعلم من خلالها الاطوار التي مررنا بها في طريق تكويننا ونضجنا ، مدرسة تعيننا أن ندرک ذاتيتنا ، وأن نخرج ذلك الإدراك من حيز التصور الغامض الى حيز الشعور الواضح البين . خذ مثلاً من نفسك . انت عربي ، ندرک أنك عربي لا بحكم الرقعة التي تحتلها من ارض الله ، بل لأن لك ذاتية خاصة تميزك عن غيرك من أهل البلاد الأخرى ، لأنك تعرف وجهك فيما يحيط بك ، لأنك تحس ان هناك سبباً يربط بينك وبين من سبقك على سطح هذا الوطن من الاجيال المتتابعة . ان ذلك السبب هو سبب التاريخ . فلو قطعت هذا السبب لأضعت قاعدة ذاتيتك . كما أنك ، اذ سبرت أعماق تاريخك ، وتصورت تصوراً واضحاً جلياً نوع الروابط التي تربط بينك وبين من غيرودك من بني جلدتك ، تمكنت من تعزيز ذاتيتك .. كما تتمكن أيضاً من شلها اذا ما احتاجت الى شذب وتهذيب ، كي يسرى فيها الماء من جديد بفضل بتر الافصان التي لا خير فيها ، وتستعيد هكذا شباباً متجدداً ابداً ، وتستعيد القوى التي تمتصها من أعماق تربتها . والذاتيات القوية الأصلية الواعية هي التي تخلق العزائم الصادقة التي تستطيع ان تثبت في رياح الدهر ، وتتابع السير الى الامام باعتزاز وكرامة واحترام للغير .

لقد قلنا ان التاريخ يعين على التشذيب لاستعادة شباب ذاتياتنا اذا ما دعت الظروف الى ذلك . وهذا ما قد يفغل عنه الكثيرون لأن الرأى السائد هو ان التاريخ لا يزيد عن شحن وعاء

الذاكرة بمواد تزيد وتقل قيمة . وقلنا ما يهتدى المرء الى أن التاريخ كثيراً ما يكون ، لا شحنا ، بل طرحاً للأعباء التي لا خير فيها ، الأعباء أو الانقراض التي تتراكم على الذاتية ، وتفشيها بالادراة التي تنوالت عليها عبر القرون ، فتخلفها ، ويعيش في زواياها الكتب وأنواع العقد العائقة عن الانطلاق . فتعرض نفسيات الجماعات كما تعرض نفسيات الافراد ، فتسرى فيها المركبات سريان السرطان ، ويخل بتوازنها اللهاة ويشلها العصاب ويدخل عليها الارتباك . وفي التاريخ بمفهومه العلمي الصحيح علاج لهذه الادواء ، لانه يلعب بالنسب لنفسيات الأمم والجماعات ، الدور الذي يلعبه التحليل النفسي بالنسبة للأفراد .

ولنضرب لذلك مثلاً حسياً . أتذكر أنك أنتهيت أكثر من مرة - وقد ضربت في الأرض شوطاً ومر عليك زمن منذ نزلت من الحافلة - أنتهيت وانت تضم يدك ، وتعد أناملك عقداً على التذكرة التي ابتعتها عند ركوبك ، وأمرت أن تحتفظ بها كي تدلي بها عند الحاجة ، وتأمين المراقبة والحساب ؟ هل تساءلت عن السر في احتفاظك بتذكرة أصبحت عديمة الفائدة بعد نزولك من الحافلة ، واخذك طريقك نحو غايتك على الأقدام ؟ هذه التذكرة فقدت صلاحيتها ، وأصبحت مجرد ثقل ينقل يدك ، ويعوق حركتك ، وانت تحتفظ بها ، فهل مر بخلدك ، وطرق ذهنك ، أن السر في ذلك هو أن الأمر الذي صدر عن وعيك الباطن لديك وأناملك بالاحتفاظ بالتذكرة لم يرفع بعد ؟ . فاستمرت الأنامل المأمورة على الامتثال للأمر . . وان رفعت الأسباب التي من أجلها صدر ذلك الأمر . يعني الأمر رسوماً في طيات ، بل في طيات أعماق نفور وعيك الباطن وانصاعاً ، بقي في غضون اللا شعورك كمالو رسم في ناظمة آلية ، فبقيت تمثل اليه وانت لا تشعر به شعوراً واضحاً . حتى إذا أنتهت ووعيت أن الظروف قد تغيرت واستحالت ، صدرت عندها الأوامر بالتخلي عن التذكرة التي أصبحت عبئاً لا نفع وراءه . فتنسبط أذاك فكك ، وتنطلق أناملك وتسقط التذكرة ، وتشعرونوع من الانفراج ، وبأن عائقاً قد رفع ، وأن عقدة قد حلت ، وأنك أصبحت قادراً على أن تصرف قواك التي كانت معطلة الى ميدان آخر ، هو أكثر نفعاً ، في الظروف الجديدة القائمة . فخلاصة القصة هي أن نسيانك التذكرة لم يخلصك من عبئها غير الصالح ، وأن الخلاص لم يتج ، والعقدة لم تحل الا عندما أدركت ، وتذكرت ووعيت .

وكذلك شأننا مع التاريخ ، فنسياننا إياه ، وتكرنا له ، وأعراضنا عنه ، وغض الطرف لا يعيننا كل ذلك لا قليلاً ولا كثيراً على الانفلات من شبكته . فنحن ، ما دما نحمله في غضون الاشعورنا دون فرز وتقييم وتمييز ، فاننا نظل نجر قيوداً عديدة من عقائد بالدة ، ورواسب بالية ، واقتشاش فانية ، تشوش شخصيتنا ، وتعطل حركتنا وتثقلها مع أنها قد فقدت الحاجة اليها ، ولا نستطيع أن نتخلص منها ونطلق العن طريق الاضطلاع البصير والوعي الجريء الذي يمكن من طرح ما ينبغي طرحه ، وإبداع ما ينبغي إبداعه في خزانة المحفوظات أيداعاً مرتباً منظماً . وهكذا تتمكن من شلذبذبتنا كي تبقى فتية إبداعاً ، تؤدي أكلها وافرأ جيداً ، من دون أن ننكر الى عودنا ، ولا نجحت أرومتنا . . واجتثاث الأرومة يعميت الشجرة ويذهب بالذات ، بينما التشذيب يزدها قوة ويضمن لها الحياة . أن التاريخ عملية تطهير . فالوعي التاريخي السليم يقوم اذن مقام الوعى الذاتي بالنسبة للأفراد : فيه سلامة روح الأمة عن طريق الوعي . فعندما نرتب عن علم

تاريخنا ، نربب في نفس الوقت من وعي مسابغسنا . و « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » (٢٣) ، ولقد قيل ان الأمم المختلفة اقتصاديا انما هي في الحقيقة مختلفة تحليلا . وهكذا نجد التاريخ في صلب مشاكل اليوم .

ولننظر الآن - على سبيل المثال ، ومع ترك الباب طبعاً مفتوحاً في وجهه التأويل والتحليل - من بين قضايا السامعة في قضية واحدة وهي قضية الوحدة العربية ... وقضية وحدة الأمة العربية هي قضية أمم كثيرة تبحث اليوم عن الوحدة وتشعر بالحاجة الماسة اليها على جميع المستويات . ومن بين هذه الأمم ، المعطيات الخام التي تمكن من بناء قاعدة هذه الوحدة ، لعلها أوفر عند العرب معاً هي عند غيرهم . ولعل الحاجة اليها أيضاً تؤكد وأمسُ بالنسبة لنا . لكننا نتوق الى الوحدة بصدق ، ونسلك اليها عن طريق تؤدي الى التفرقة . لم ؟ انه يستحيل علينا ان نجيب من هذا السؤال ، وان نفهم السر في هذا التوق الصادق وهذا التناقض المضمي - والفهم كما قدمنا طريق ضرورية نحو الحل - ما لم نستعن بمشعل التاريخ نهتدى في ظلمات اخفاقنا كي نسير السبيل نحو النجاح والوصول الى الأهداف .

طبعاً انه يمكن ان نفتنح باليسير من التفسير ، فنقف عند قول عثمان لأصحابه قبيل ان يدخل عليه في بيته ، ويسفك دمه بغير حق : « لئن قتلوني لن يصلوا بعدى جميعاً ابداً ولن يقاتلوا عدواً جميعاً ابداً » ، فيذهب بنا الظن الى ان دعوة الخليفة الشهيد قد استجيبت ، وإلى ان العرب لم يزالوا ، ولن يزالوا يحملون دم عثمان على مر الأيام ، اذ بذلك قضى القدر . فهذا تفسير ما ورائي لا نطمئن اليه .

غير انه يحمل ضرباً من الحق انه ينبغي ان نبحت عن توق العرب الى الوحدة ، وانما هم في الانقسام ، في تلك الفترة التي عاشها العرب أيام الفتنة الكبرى ، فتنة صدعت وحدتهم صدماً لم يجبر بعد .

لقد مر عليهم ، من قبل ، ردح من الزمن نعموا فيه بحرية مطلقة ، حرية الفضاء الفسيح حرية الغامرة والغزو والنهب والاختد بالثار ، حرية الخيام التي ترفع قصد التوغل في الصحارى المقفرة بين الأودية والرمال ، حرية الطفينة النائية ، والاتافي الباقية ، والقلوب المكلومة الباكية على الاطلال . دهر اباء ينسبه ابناء الضواري ، قضى عندما ظهر فجر الاسلام ... غير انه ترك في النفوس والعقول آثاراً لم يعف رسمها مهما نسجتها رياح الدين الجديد . ولعل هذه الآثار ما زالت كامنة في طيات اللا شعورنا الى اليوم .

ولقد حاول الاسلام ان يجعل من المسلمين اخواناً ، وان ينزع ما في قلوبهم من غل ، ويمحو حمية الجاهلية . فسمى الى تأليف قلوبهم حول اله واحد ، وكتاب واحد وقبلة واحدة . وسوَّى بينهم ، سوَّى صوفهم في الصلاة ، وسوَّى طوافهم في ازار واحد محلّين الرؤوس حول الكعبة ، وخفف من التفاوت الاجتماعي بأن جعل - عن طريق الزكاة - حقاً للفقير على الغني . وهكذا من هباء القبائل والعشائر والافراد ومن الغل والبغضاء خلق أمة موحدة تربط بين افرادها لحة الأخوة وتضمن سلامتها عدالة التشريع وتوفر المساواة .

ودارت عجلة التاريخ دورتها . فاذا العصبية تبعث من رسمها - أو قل تستيقظ بعد اغفاء - واذا الحمية تحتدم ، واذا دم عثمان يسفك ، والشمل يعزق تمزيقاً لم يلتئم بعده التئاماً حقيقياً

الى اليوم . لكن بذرة الاخاء والوحدة التي بذرها الاسلام لم تمت ايضا ، فبقيت كامنة في النفوس ، لا تورق وتثمر ، ولا تزول وتفتنى ، وذلك لأسباب يجب ان يعيط عنها اللتام التاريخ ، اذا ما اردنا ان نهيب للبدرة الظروف الملائمة لازدهارها الدائم . لان السبل التي اعتمدت الى اليوم لم تات بباطل ولم تسفر عن نتائج قارئة ، بل انتهت بنا في آخر الامر الى عكس ما اليه ن قصد .

لقد عمد الامويون الى لم شعت الامة ، فاعتمدوا في الجملة على السيف الا شذوذا ، ونفخوا في العصبية ، وحاولوا اخضاع شق الى شق ، او شق بشق . فتتابع العنن والنورات وأودت في النهاية بملكهم . وحاول ان يام شعت الامة العباسيون ، فاستعانوا بالخراسانية وأوكلوا امرهم الى المرتزقة من اصناف الجند ، واحكموا نظام البريد والاستعلامات . فلم يفر عنهم ذلك شيئا ، ولم يجنوا من الاعتماد على القوة والباس شيئا ما ، سوى انقسام دار السلام الى ممالك عديدة ، فلم يبق في يد الخليفة المقتضيين وصيف وبغا شيء يذكر .

وبقيت دار السلام والعروبة مفترقة الشمل ، بل حربا على بعضها بعض . ومرت القرون . وحاول بعض الفقهاء - **كالموردى** (٣٦٣ - ٩٧٤/٤٥٠ - ١٠٥٨) و**ابن تيمية** (٦٦١ - ٧٢٨/١٢٦٣ - ١٣٢٨) وغيرهما ان يبرروا الانقسام او ان يخفوه وراء ستور من الصيغ القانونية الملائمة . وقد يخال للانسان ان الشعور بالوحدة ، بعد هذا كله ، فد طوى في طيات التاريخ وقضى امره . فاذا بقرار الفاء الخلافة - الصادر في ٣ مارس ١٩٢٤ يحدث رجة عميقة في القلوب وازمة في الضمائر . واذا الكتب تنشر حول هذا الموضوع ، تسيل اسي تارة - كتاب **مولوى محمد بركات الله** ، الهندي الاصل - وتصف الدواء تارة اخرى ككتاب **رشيد رضا** الشير في الخلافة .

وفي هذا دلالة واضحة على ان اللحمة التي نسجتها لغة القرآن بين كل الناطقين بها خاصة لم تبل بالرمع عما تعاقب عليها من أحداث . تمزقت الامة العربية على المستوى السياسي وبقيت حية على المستوى الحضارى والعاطفي . وفي بقائها حية ، وفي صمودها طوال العرون المتتالية في وجه كل دواعي التلاشي ، دلالة على انها تملك ارضية يمكن ان نطمئن للبناء عليها .

لكن ليم لم ننجح في اشادة هذا البناء بالرغم من كل المحاولات المعاصرة التي لا تنتسك في صدقها ، هذا يحتاج الى تحليل تاريخي عميق ودقيق لا يتسع له طبعاً هذا المقال ، اذ يجب ان نخصه بعدد الدراسات التي تثير المشكل من جميع النواحي . اننا اخفقتا الى اليوم في حل اهم قضية من قضايا مصرنا لاننا لم نحسن تصور كامل ابعادها ، ولم نحسن ذلك التصور لاننا لم نحسن التحليل التاريخي ، ولم نمد رجال السياسة منا بما يضمن لمسايعهم التوفيق .

وعندى - اذا كان لي عند - ان السر في فشلنا يكمن في اننا ما رلنا ، بصفة وباخري بطرق ممتعة او صريحة ، نسعى الى الوحدة من تلك الطريق التي جربها الياة في غير نجاح ، طريق القوة ، والاخضاع ، والهيمنة ، وتفوق عصبية على عصبية ، وشق على شق . ولقد اقام التاريخ دليله القطعي ان هذه الطريقة تنتهي الى رتج (٢٤) ان نسفك دم عثمان او ان نطالب به ، أى ان كل اصناف العف ، ما يدعى منها بالثورى وما يدعى بالرجعي ، الفعل ورد الفعل ، كل ذلك لا يطل المشكل ولا يجمع شملا . ألم تر ان الغرب ، عندما شعر بالحاجة الملحة الى الوحدة في ايمانها هذه ، اخذ يسعى اليها عن طريق توحيد المصالح وتاليف العقليات ؟

لقد مر علينا دهر ونحن نتأرجح بين قطبي الوحدة والتفرقة ، واعتقادى انه يستحيل علينا ان نخرج من هذا التأرجح الى الانطلاق الا اذا وعينا تاريخنا واحسنا تحليله وفهمه ، وفهمنا دروسه . ولا يمكن ان ن فك الدائرة الموبوءة الا اذا غسلنا ايدينا من دم عثمان - اى من وسائل العنف بكل انواعه - ولا يكون ذلك الا بتطهير ضمائرنا من بقايا حمية الجاهلية - التي مازالت ولا شك تختلج في اعماق الانسجومات - فننتكس فينا باعانة الوعي والارادة الصادقة ، المبادئ التي بلورها في قلوبنا الاسلام ، تلك المبادئ الخالدة لكنها لما تبتئع ايضا لعدم صفاء تربة ضمائرنا . ان التحليل التاريخي الصحيح يمكن ان يحدث ثورة في نفوسنا لا لان فيه عمارة للذاكرة واشغال لها ، بل لانه كثيرا ما يكون ، كما قدمنا ، عملية شذب وطرح للأعواد اليابسة ، ورفعنا للكايح الذى يعوق الانطلاق .

هذا كله معناه ان التحليل التاريخي فيه فك للقيود التي تعوق حل مشاكل الساعة . فينبغى اذن ان نحذر ان نفع في الخطأ الذى حذر منه ابن خلدون ، وحذرنا منه بدورنا ، اى ان نعتبره خزانة لحلول جاهزة . ولقد وقمنا في هذا الخطأ فعلا ، فلم ننجح في نهضتنا التي سبقت نهضة اليابان زما ، وتأخرت عنها تحقيقا وانجازا بهوة ساحقة ، هي هوة تخلفنا الدائم . ولعل السر في ذلك هو ان حركة الاصلاح التي اتبعت فينا كانت تدعو الى الرجوع الى السلف الصالح - وهل كان كل السلف صالحين ، فلنقلب صفحات التاريخ عن صدق - وكان شعارها : « لا يصلح حال حاضر هذه الامة الا بما صلح به اولها » . فلم نوفق الى السبيل التي جعلت من اليابان ثالث قوة في عالمنا ، وما ذلك الا لاننا لم نع انه : « لا يقاس شيء من احوال المعمران على الآخر » ، كما علم التاريخ ذلك ابن خلدون ، فعلمنا اياه ، فلم نفقه . فحاولنا ان نقلد السلف عوض ان نبكت ونخلق ، او على الأقل نكوّننا في انفسنا عقلية تبعث على التقليد اكثر مما تبعث على الابداع والابتكار .

لذا يجدد بمؤرخينا اليوم ان يعتبروا كل هذا حتى لا يكون التاريخ ، اما علما مجانيا لا فائدة ما ترجى من ورائه سوى مجرد المعرفة ، واما سجل تمجيد نعالج به - بصفة غير ناجعة في الحقيقة - مركبات النقص ، ولا نجني منه في النهاية سوى التخدير والذيد النعاس على فراش مجد اسلافنا . يجب ، كي نعين على حل مشاكل اليوم ، ان نعطى الأولوية في بحوثنا الى تلك الفترات المظلمة في تاريخنا ، تلك الفترات التي انتهت بنا الى ما نقاسيه من تخلف وحرمان . الى هذا الحقل يجب ان توجه جهود شبابنا من الباحثين . وبهذه الصورة نرجو ان يكون في التاريخ عون على الافقار الذهني الذى هو شرط ضرورى للافلاق في بقية الميادين .

تزوير التاريخ

لكن التاريخ لا يؤدي على الوجه الاكمل وظيفته هذه ، التي تخرجه من ان يكون علما مجانيا (٢٥) ، الا بشرط : شرط مطابقته الواقع حتى لا يكون بناء الحاضر والمستقبل على مقدمات واهية . ولسوء الحظ فان توفّر هذا الشرط ، الذى يحلم به كل مؤرخ مخلص لعلمه ، ليس شيئا فقط ، بل هو مستحيل تماما في كامل العلوم الانسانية اطلاقا ، وفي التاريخ على وجه الخصوص ، وذلك لاتحاد المنظور بالناظر . لقد سبق ان قدمنا اثنا نصنع التاريخ بقدر ما يصنعنا . فكل كتابة للتاريخ اذن ، مهما احططنا ، تزوير بوجه من الوجوه وبدرجة من الدرجات .

ذلك ان التاريخ الذى نكتبه ليس ابدا عين الحقيقة ذاتها المجردة ، انما هو صورة ننزعها من ذهننا نوهم بصدق انها تعكس عين الحقيقة . فكل كتابة للتاريخ مبنية في قراراتها على هذا الوهم .

ثم ان هناك مشكلة الوثائق التى نتمتعها في كتابة التاريخ . فهذه الوثائق لا تمثل ابدا كامل أوجه الواقع . مهما كان التاريخ الذى نكتبه قريبا او بعيدا ، وخاصة اذا ما كان بعيدا ، فان ما يبلغنا من وثائق لا يحيط بجميع نواحيه . ذلك ان يد الدهر ويد الانسان وانسواع الصدق في النهاية تضمن البقاء للبعض وتلف البعض الآخر انلافا بلا رجعة . وهكذا تكتسي كتابتنا للتاريخ صبغة اعتبارية تميز بعض الظواهر دون بعض وما ذلك الا لجهلنا ، وعدم شمول وثائقنا ، التى تترك في نسج التاريخ ثغوبا تكثر وتقل ويتسع خرقها ويضيق . وكل هذا يختم في النهاية بالوان من التحريف ، لا سيما عندما يستعين المؤرخ بالخيل ليرقى الفتق ، ويملا البياض ، ويرفو الثقب .

اضف الى ذلك كله وهن الملاحظة . فما يكون قد شاهد الجندي الذى شارك في واقعة واترلو (Waterloo ١٨١٥/٦/١٨) التى اودت بمجد نابليون Napoléon وما قد يستطيع ان يحكي عنها ؟ ان ابعاد الحادث واتساع رقعته تعجز المشاهدة وتغورها . وعندما تتسع المشاهدة للحادث وتستطيع الالام به ، فان ذلك لا يقيها تماما النقص والخطأ . خذ ، ليتضح لك الامر ، مثلا بسيطا ، مثل حادث مرور ، يرويه عدد من شهود عيان كلهم نقات . فإناك واجد لا محالة اختلافات تزيد وتقل أهمية في الرواية ، وتستجد البون يتسع بين الرواة عند تقدير المسئوليات وتقييم الاسباب . وفي هذا دلالة على استحالة التقاط صورة صادقة كل الصدق للحادث مهما كانت الظروف ملائمة . فما بالك عندما يكون النقاط الصورة في ظروف سيئة يختلط فيها الحابل بالنابل ، وتتصادم فيها المصالح ، وتحدث فيها الأهواء ؟! وهذه هي اغلب الحالات التى تسجل خلالها وقائع التاريخ . وفي كم من مرة نحن نكتب التاريخ اعتمادا على روايات غير مباشرة لانكنا اللسن احقابا بل فرونا قبل ان تسجل لا ندرى كيف على وجه التحقيق واليقين !

كل هذا يؤدي اضطرارا الى اضطراب الصورة التى نحاول ان نرسمها للتاريخ ، والى عدم امانتها امانة تامة تطمئن لها القلوب اطمئنا . لا يكتدره شك . ففي كل هذه الاحوال التى استعرضناها ، على سبيل المثال من دون استيعاب ، يصطدم المؤرخ بانواع متنوعة من الهنات واللباسات التى تعوقه دون بلوغ الحقيقة ، من غير ان يقصد حتما الى التلبيس قصدا ، والى التزوير عمدا ، في أى مرحلة من مراحل تسجيل الحادث او تأليف البحث . انما هي صعاب وتقصيرات ملازمة لطبيعة التاريخ . وهذا ما يجعل التاريخ ، وان كان واحدا في قرارة ذاته التى نخرج عن قبضة ادراكنا ، متعددا في توابلته التى تصوغها عقولنا انطلاقا من قواعد تزيد وتقل ثبوتا . وليس من تاويل ، عندما تكون خاصة هذه ملابساته ، في ما من تام من الانحراف والزيف .

لكن هناك اخطر من هذا كله ، قد يقصد احيانا ، لاسباب عديدة ، الى التزوير عن قصد وروية بطرق شتى ، تتراوح من التندليس الصراح والافتراء السافر ، الى الافعال المبرر وغض الطرف واسدال الستر . والامثلة على هذا لسوء الحظ اكثر من ان يحيط بها عد او حصر ، تجدها في اقدم عصور البشرية ، عندما كانت تسجل الآثار على المدر والخرف ، كما تجدها في عصرنا هذا ، عصر الوسائل السمعية والبصرية . فماذا نعلم عن جهم بن صفوان ؟ لا شك انه كان احد اعلام التفكير الاسلامي في ايامه الاولى . لكن لم يبلغنا عنه الا ما كاله معارضوه من انواع الثلب والتحامل . وفيما يخص الامويين هل نحن على يقين تام ان تاريخهم كان يكون على الصورة التى

نكتبها لو بلغت المصادر التي الفت في أيام قيام دولتهم ؟ أو لم يبلغ التزوير المديبر المنظم في أيام العباسيين الى تدليس وثيقة ، شهد على صحتها ثقات الشهود ، تدنس نسب الفاطميين ؟ ثم انظر ما كتبه السنونيون والشيعة في شأن عبد الله الداعي ، القائم بدعوة الفاطميين بأفريقيا والبلاني لدولتهم . أى صورة نصديق ؟ وكيف نفرق الحقيقة من التمجيد أو صريح الافتراء فيما كتبه القاضي النعمان - وكان منقطعا للمعز لدين الله الفاطمي ومتحزبا لمذهبه - أو فيما وصلنا متفرقا من تاريخ الرقيق ، الذي كان من رجال دولة الزيريين ، أى من رجال السياسة في عصرهم ؟ وفي إيماننا هذه ، ماذا كان يكون تاريخ النازية لو انتصرت هذه النزعة وكتب تاريخها مؤرخون متحزبون لها ؟ ثم السنا نعلم ان تاريخ الحزب الشيوعي تعاد كتابته كلما تغير ذوق الساسة فيسطع نجم البعض من رجاله وبأفضل نجم الآخرين ؟ وهلم جرا .

وكل انواع التزوير هذه ، التي تزيد وتقل سفورا وقاحة وتحديا ، فان تعددت وسائلها وتحسنت واحكمت على مر الایام بفضل التقدم التقني لاجهزة قلب الحقائق ، فانها بقيت واحدة في غاياتها ودواعيها . وهذه الدواعي هي التي نقصد عموما الى ان تجعل من التاريخ خادما طيعا لسياسة الساعة . فعوض ان يكون التاريخ بحثانزها وعسيرا عن الحقيقة ، ومحاولة فهم صادق لوضعنا ، يصبح سلاحا مجردا لمناهضة سياسة ومناصرة اخرى . ويستحيل ان يكون ذلك بدون تحزب الى شق على شق ، وبدون انحياز الى هؤلاء على اولئك . فان الالتزام في التاريخ - ما لم يكن في خدمة الحقيقة - يجر حتما الى التزوير . فالاولى اذن بكل رجال السياسة ، على اختلاف مشاربهم ، الا يكون المؤرخ متحزبا ، حتى لا يكون حربا ، وحتى يتمكن من اداء رسالته السيرة بأكثر ما يمكن من امانة . ولقد راينا ان ذلك ليس بهين حتى في احسن الظروف ، فما بالك اذا ما تراكت العقبات ؟ ولقد راينا ايضا ان البحث التاريخي الصادق عونا لكل رجال السياسة الذين يكرسون جهودهم عن اخلاص للتقدم بشعوبهم .

غير ان هناك من يدعو جهرا الى تحزب المؤرخ وانحيازها في تأويله الى فريق او مذهب . ويعلمون هذا بان التاريخ تصور ذهني . يستحيل ، مهما بدلنا من جهد ، ان يكون نسخة صادقة مطابقة للواقع . ونحن نعلم هذا ، ونظن اننا اكدنا عليه تأكيدا كافيا فيما سبق . لكننا نعتقد ايضا ان هذا التعليل ، وما يترتب عليه من تزييف متعمد مدبر للحقيقة ، انما هو ، كما قال علي ، « كلمة حق اريد بها باطل » . حق ان الواقع في قرارة ذاته لا يدخل تحت قبضة ادراكنا . وباطل ان نتخذ من ذلك ذريعة كي نشوه الواقع عروية ، ونكيفه ، ونؤوله حسب ما يرضيه حزبنا ، او ولي نعمتنا ، او ما تمذهبنا به من مذاهب . فان كان الواقع صعب المراس مستحيل المثال ، فانه لا علرفي ذلك للمؤرخ ان يفقد الايمان ويصبح من المرتزقة . بل يجب ان يدعوه ذلك الى المزيد من الحذر واليقظة حتى يتجنب اكثر ما يمكن من الشراك الباطنية والخارجية . وذلك ارا موضوعية المطلقة ، ان كانت غاية يستحيل تحقيقها لعدد من الاسباب التي تعرضنا لبعضها ، فمحاولة الموضوعية في امكان كل مؤرخ صادق العزيمة ، مخلص لعلمه ، واع لمسئوليته ومتمكن من منهجية صناعته . كي ثامن التزوير ، المضر في النهاية بالمزور والجور له ، يجب اذن ان نوفر للبحوث التاريخية اكثر ما يمكن من الحرية : حتى تتلاقح الاراء ، ويكتشف هذا عما يغيب عن ذلك .

وهناك ضرب آخر من التزوير تكاد نجد انفسنا امامه عزلا من كل سلاح ، بل تكاد لا نتوهمه ولا يخطر لنا على بال ، لانه يندس اليناعن طريق التكيف الذي لا ينفلت من قبضة أي

انسان يعيش في مجتمع متحضر . ذلك اننا ، في كل القضايا التي تعالجها ، تلقى على الماضي ما بأنفسنا وما يشغل عصرنا . ونفعل ذلك عامة في كل شئوننا . وهذا ما ادركه السوعي التسعبي ولخصه في المثل القائل ان « كل اناء بما فيه يرشح » وهكذا يصبح التاريخ - رغم ارادتنا وفي دون وعي واضح منا - رشح شواغلنا وشواغل بيتنا . فهذا ما وقع قديما وحديثا ، وما سيقع ايضا مستقبلا ، ربتما يصبح التاريخ في يوم من الايام علما صحيحا - اذا ما افترضنا حصول ذلك ممكنا - او ان يقترب على الاقل اكثر فاكثرا من العلوم الصحيحة ، بفضل ازدياد الوعي بالمشاكل وبفضل ما تقوم به من نقد ، ونبدله من جهود منهجية . ولنكتف الآن ببعض الامثلة على هذا الضرب الخفي من التحريف الصادر عن رشح اناء التاريخ بما في نفس المؤرخ المكيف بشواغل عصره .

اننا نجد **حسان بن النعمان** (٢٦) (توفي حوالي ٦٩٩/٨٠ - ٧٠٠) بعد هزيمته امام الكاهنة بافرقية ، يصف البربر الى عبد الملك بن مروان كما يلي : « ان امم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف احد منها على نهاية . كلما بادت امة خلفتها امم ، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم (٢٧) » هكذا انعكست صورة البربر على مرآة ضمير حسان المنهزم . فهو لم ير فيهم ، عن صدق ، سوى قطع من « سائمة النعم » لا يتميز الا بالكثرة والجهل . ولم يخطر له على بال انهم امة ابية ، قاومت طوال قرون عديدة الاحتلال الاجنبي بنبات وعزيمة ، واستماتة . ان حسانا كان في حكمه ، من حيث لا يشعر مكيفا .

وهكذا نجد الوعي الجماعي لبعض الاوساط العربية ، لا كان يغلب عليها من تكيف بروح العصر ، تفرز هذه الاحاديث الملفقة التي تطفح بالاحتقار وتناقى تماما تعاليم الاسلام . يروى **ياقوت** (٢٨) ما يلي :

« وذكر **محمد بن احمد الهمداني** في كتابه ، مرفوعا الى **انس بن مالك** قال : جئت الى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعي وصيف بربري فقال : يا انس ما جنس هذا الفلام لا فقلت : بربري يا رسول الله . - فقال : يا انس ، بعه ، ولو بدنيار - فقلت له : ولم ؟ يا رسول الله - قال : انهم امة بعث الله اليهم نبيا فذبجوه وطبخوه واكلوا لحمه ، وبعثوا من المرق الى النساء فلم يتحسوه . فقال الله تعالى : لا اتخذتكم نبيا ولا بعثت فيكم رسولا . »

ويضيف **ياقوت** (٢٩) : « ويروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - انه قال : ما نحت اديم السماء ولا على الارض خلق شر من البربر . ولئن اتصدق بعلاقة سوطي في سبيل الله احب الي من ان اعق رقبة بربري » .

وتلدور عجلة التاريخ دورتها ، وتمر القرون ، وتقلب الاوضاع ، وتحتل الجيوش الفرنسية المغرب ، وينظر الفاتحون الجدد الى اهل البلاد من وراء عدسة تكيف جديدة . ويؤلف **هنري**

Les Arabes d'hier a demain Chap. I.

(٢٦) انظر كتابه

Lo rupture de l'homme traditionnel, P. 13-30, ed. du seil Paris 1960.

انظر دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة .

(٢٧) ابن عذاري ، البيان ، ط كولان وليفي - برونفسال لينن (هولندا) ١٩٤٨ ، ج ١ ص ٣٦ .

(٢٨) معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٤/١٣٧٥ ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢٩) معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٦٩ .

فورنل Henry Fournel مؤلفه الضخم في تاريخ المغرب ، ويشرح اهدافه هكذا في مقدمته (٢٠) :

« اثناء السنوات ١٨٤٣ - ١٨٤٦ التي كرستها للمهمة التي كلفني بها السيد وزير الحرب قصد الكشف عن الثروات المعدنية التي قد تحتوى عليها ارض الجزائر .. فانه قد جلبت انتباهي الفروق العديدة التي تفرق بين الجنسين البربري والعربي .. وتساءلت عندئذ كيف ، ازاء جنسين توجد بينهما هذه الفروق ، نستطيع ان نتمادى اكثر في التصرف نحوهما تصرفا واحدا من دون ان نفكر في البحث ، اليس من واجبا ان نبدى شيئا من التفضيل يكون ، في صالح الجميع ، الغالبين منهم والمغلوبين ، قاعدة لسياسة يبدونها تموزنا تماما » .

وهكذا يبدو التكيف بالظروف السياسية واضحا . ويظهر هذا التكيف في عنوان كتاب فورنل « البربر » ، وفي عناوين الكتب التي تلتها ، وكان اساسه التفضيل العنصري . لكن في هذه المرة عكست الآية ، وكان تفضيل البربر على العرب ، واول كل تاريخ المغرب على هذا الاساس ، اساسا اغتصاب العرب لارض كانت ، عن طريق رومة ، تابعة للغرب وملتزمة بحضارته . وادى هذا الاغتصاب ، الذي غير مجرى التاريخ الطبيعي ودحا طويلا من الزمن الى دول بلاد البربر في حندس تلك « القرون المظلمة » التي حاول جوتي E. F. Gautier في كتاب هذا عنوانه ان يشرحها للقاتحين القادمين بحضارة ودين يعيدان الامور الى نصابها الطبيعي ، بعد الفساد الطويل الذي تسبب فيه العرب .

وهذا التكيف بالوضع ، الذي يؤدي المؤرخ الى التزوير بصفة تكاد تكون غير شعورية تسمر مغالبتها ، خطير جدا . فينبغي ان ننتبه اليه بصفة خاصة ، وان نحذره ونحذر منه ، وان نتعظ بالأخطاء التي وقع فيها من سبقنا عندما وقعوا في حباله . قلنا انه خطير جدا وذلك لانه يؤدي بدوره عن طريق كتابة التاريخ وتدرسه الى تكييف الاجيال الصاعدة ، وتقع هكذا في دور تسلسل يعسر الانفلات من ريقته ومما ينجر عنه من وخيم العواقب . فهذا **موريس كروبيلي Maurice Crubellier** يكتب في هذا الصدد ، ضاربا المثل بمعركة بلاط الشهداء التي استشهد فيها والي الاندلس **عبد الرحمن بن عبد الله الفافقي** عندما اصطدم بجيوش **شارل مارتيل Charles Martel** (رمضان ١١٤ / اكتوبر ٧٣٢) قرب مدينة بواتي Poitiers بفرنسة : « ان الصيغة التي تقدم بها معركة بواتي قد اثرت زمنا طويلا في الصورة التي ارتسمت في قلوب الشباب الفرنسيين عن الاسلام والمسلمين (٢١) . وهذه الصورة لم تكن طبعيا تخدم التأخي والتفاهم . وهكذا يصبح التاريخ عن طريق القديم والتأويل المفرض للحوادث - وهو تزوير كثيرا ما يكون غير شعوري ناشئا عن التكيف بملاسلات البيئة والعصر ، او عن الميل الاعتقادي والمذهبي - مدرسة تبث سم العداوة والبغضاء في نفوس الصبيان الطاهرة اللينة ، وتجعل منهم في النهاية تلك

H. Fournel, Les Berbers, Paris 1875-1881, Vol. I, p. 1.

(٢٠)

Maurice Crubellier, Enseignement de l'histoire et formation humaine, dans l'histoire et (٢١) L'Historien, col. Recherches et Debate du centre catholique des Intellectuels Français, Fayard, Paris 1964, p. 66-7.

الأمم الضاربة التي يدفع بها سكر المجد أو الحقد في حروب لا تنتهي ولا تعود بالخير على جنسنا . وكل من فكر في هذا لا يستطيع عدم مشاطرة **بول فاليري** Paul Valéry **رأيه المتشائم في التاريخ** الذي يعبر عنه هكذا :

« ان التاريخ اخطر انتاج انتجته الكيمياء الذهنية . . فهو بهيج الاحلام ، وبمثل الشعوب ، ويولد لهم ذكريات موهومة ، ويزيد ردود فعلهم حدة ، ويفذي جراحهم القديمة ، ويعكر عليهم صفو راحتهم ، ويقودهم الى الهذيان بالمجد او بالاضطهاد ، ويحمل الامم تشعب بالمرارة والعجب ، وبصبرها لا تحمل زهوا بنفسها (٢٢) .

ما العمل اذن ؟ هل يجب ان تكسر كواب التواريخ الذي « يشمل الشعوب » ؟ اننا لن نستطيع ذلك حتى لو عقدنا العزم عليه . انشالا نستطيع سلب جنسنا الذاكرة . فالطريق الوحيدة المفتوحة امامنا اذن هي طريق تطهير هذه الذاكرة ، وانارتها وصلقها . لقد رأينا ان هذه الطريق عسيرة ، كثيرة الانحراف ، والزيغ والاشراك . لكن هذا كله يجب الا يسلمنا الى الفشل والخذلان والاستسلام . وذلك لاننا مهما كانت الخيبات ، نشعر اننا في النهاية نتقدم . ان الحفينة التاريخية في جوهر ذاتها لا تدرك . لكننا نقتررب منها . ان باب الغد ، الذي نرجوه بغضل ما حصل وسيحصل لنا من نقطة متزايدة مفتوح امامنا .

التاريخ والغد :

قلنا ان باب الغد مفتوح امامنا . لكن ما سيكون عليه هذا الغد ؟ كيف ستكون ملامحه ؟ لغد رأينا - وذلك ما جعل بول فاليري يدين التاريخ - اننا كثيرا ما زرعنا الرياح عن طريق تزوير الماضي ، وسوء فهمه وتأويله ، فحصدنا العواصف ، وما زلنا نحصدنا . ذلك معناه ان تصورنا للأمس يؤثر في صورة الغد . وذلك معناه ايضا اننا اذا ما تحكمنا في الماضي ، سوف يعيننا ذلك لا محالة على التحكم في المستقبل ، وعلى اعطائه صورة اقرب مما نأمل ونرتضي . ان الغد نمرة يقطعها الخلف ، ويبلر بذرنا السلف ، ويتمهدا برعايته وميض الحاضر . اننا الى اليوم لم نحسن علم زراعة غدا ، فقطفنا التسوك اكثر مما قطعنا الورد . لكن علمنا في نمو ، وهذا هو الأهم .

وربما يريد علمنا نموا ونجاعة ، لعله يحسن ان نحدد نقطة وضعنا اليوم ، وان تلقى هذا السؤال : هل يمكننا التاريخ ، في هذه المرحلة التي بلغها علمنا ، من ان نرسم خطا يباينا يكشف لنا عن الاتجاه الذي تتجه نحوه سفينتنا ، وعماسيكون عليه غدا ؟ انه من البديهي ان التاريخ ليس ضربا من الكهانة او التنجيم ، وانه ليس من دور المؤرخ ان ينشأ مسبقا بدقائق ما سيقع من الحوادث في مستقبل قريب او بعيد . لكن المؤرخين وفلاسفة التاريخ حاولوا منذ القدم ان يستنبطوا بالماضي لنقب حجب المستقبل ، وانتهوا الى نظريات متفائلة واخرى متشائمة . وحيث انه من المستحيل ان نفصل القول في كل هذه النظريات ، فاننا اخترنا ان نستعرض بسرعة آراء مؤرخ تجريبي ، **ارنولد توينبي** Arnold Toynbee وكاهن مسيحي ، **تيسار دي شاردان** Teilhard de Chardin وفيلسوف صوفي مسلم ، **محمد اقبال** .

يحتل **أرنولد توينبي** ، الذى ولد ببريطانيا سنة ١٨٨٩ ، مكانة سامية في التفكير المعاصر ، اذ قد احدثت آراؤه في التاريخ عامة ، وفي الحضارة الغربية خاصة ، ضجة كبرى قبيل الحرب العالمية الثانية ، واصبح اليوم من المستحيل ان يتحدث متحدث عن تأويلات التاريخ المختلفة من دون ان يذكر اسمه ويحيل على مؤلفاته . ان كتاب **أرنولد توينبي** في « دراسة التاريخ » (٢٢) A Study of History اذا ما لجأنا الى التعريف به في عبارة وجيزة لا تخلو من ادخال الضيم على المعرف به لا يجازها ، قلنا انه كتاب في فلسفة التاريخ ، اى انه يحاول ، من خلال فحص المخوادث - لا ان يصف الماضي - بل ان يستنتج منه عبرة وفلسفة ، وجملته من القسوين التي تسيطر الكون ، وتدفع التيار البشرى ، وترسم الخط البياني لما سيكون عليه الغد . هذا الاتجاه ليس جديدا في ذاته . انما **أرنولد توينبي** يذهب ابعد في طريق قد سلكت من قبل ، ويعتمد في ذلك منهجا بريطانيا صمما ، هو المنهج التجريبي الذى ينطلق من طرق المشاهدة كي يصل الى نتائج تفرضها التجربة فرضا ، وتنتهي بنا الى تصور عام لغاية التاريخ ومآل الحضارات .

ولقد حاول علماء كيرون ان يفحصوا الماضي البشري ، كي يستخلصوا منه فلسفة او قوانين تزيج الستار قليلا او كثيرا عن سر الغد . ويرجع تأويل هؤلاء المفكرين الى معطين اثنين لا بد من ضبطهما لإيضاح ما يلي :

النمط الأول هو الذى يمكن ان نسميه : **بالنمط الخطي** المسترسل التصاعدي ابدا . ومعنى هذا هو انهم يؤولون التاريخ كخط مستقيم متصاعد دائما نحو اكمال مسترسل لا ينتهي . وهذه النظرية نتيجتها - وقاعدتها ايضا - الايمان المطلق بالرقى . فهي تأويل متفائل .

النمط الثاني هو الذى يمكن ان نسميه : **بالنمطي الدوري** . ومعنى ذلك هو انهم يؤولون التاريخ كحلقة ، بل قل كجملة حلقات متناهية زمنا ومكانا ، منفصلة بعضها عن بعض ، تمثل كل حلقة منها حضارة ، من يوم نشوئها عند ابتداء الحلقة الى يوم وفاتها الحتمية عند انقلاق الحلقة . فكل حضارة إذن حلقة لها بداية ونهاية ، حلقة متناهية تمر باطوار أربعة : التكوين ، فالنمو ، فالجمود ، فالانحلال والاضمحلال . فهي في عذاتها كل الكائنات الحية : فهي تولد وتموت .

ولقد اذول التاريخ التأويل الأول جماعة من اهمهم **هيجل** (١٧٧٠ - ١٨٣١ Hegel) و **أوجوست كونت** (١٧٩٨ - ١٨٥٧ Auguste Comte) و **كارل ماركس** (١٨١٨ - ١٨٨٣ Karl Marx) . وذهب الى التأويل الثاني قوم آخرون اهمهم **سبنجلر** (١٨٨٠ - ١٩٦٦ Spengler) صاحب « افول الغرب » ، وفي ايامنا هذه الأستاذ **تيجارت** Teggart من جامعة كاليفورنيا ، في مؤلفه « تطوّر التاريخ » The Proecessus of History الفه سنة ١٩١٨ ، و « نظرية التاريخ » The Theory of History الفه سنة ١٩٢٥ . وذهب هذا المذهب ايضا **سسوركين** Sorokin في كتابه في « الحركية الاجتماعية والثقافية » Social and Cultural Dynamics الذى نشر بين سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٤١ .

خلاصة القول ان النقاش في شأن التاريخ والغد - الذى هو ليس بالجديد في الحقيقة اذ نجد اثره عند القدماء ايضا - قد استرعى اكثر اهتمام المفكرين ابتداء من اوائل القرن التاسع

(٢٢) صدر هذا الكتاب في عشر مجلدات ، واعد طبعه مرارا ، واختره سنة ١٩٤٧ سماروال sommerwell .
(٢٣) وظهر سنة ١٩٥١ له اختصار آخر في اللغة الفرنسية تحت عنوان (التاريخ) اخرجته بباريس الناشر جليمار Gallimard

عشر ، واستفحل واحتدم قبل الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة ، وزاد احتراما في السنوات التي تلتها . والسبب في ذلك هو القلق الذي اخذ يساور مفكرى الغرب عندما شعروا فجأة ان حضارتهم ليست في مأمن من أن يصيبها ما اصاب الحضارات السابقة ، وان الغد ليس حتما مضمونا .

في هذا الجو فكر ارنولد توينبي واراد ان يكون منهجه تجريبيا بحتا ، يذهب رأسا من وصف الواقع من دون رأى مسبق فيه . فأخذ يستعرض لوحة كامل التاريخ ، لوحة ارادها مستوعبة لكامل الحضارات الماضية - : حضارات آسيا ، وافريقيا ، وامريكا واوروبا . وكانت نتيجة استعراضه هذا للتاريخ ، وتفكيره فيه عملا بمنهجه التجريبي ، ان الحضارات لا يمكن ان تفهم الا في نطاق النمط الدوري ، أى أنها ككل كائن حي - وهي في نظره اكمل الكائنات الحية حياة - تمر بكامل مراحل الحياة بدون استثناء الموت والانقراض ، وهكذا يلتقي **ارنولد توينبي** بمفكرين آخرين ، نخص بالذكر منهم **عبد الرحمن خلدون** ، الذي كان المؤلف من المعجبين به (٢٤) .

ولقد كان لآراء ارنولد توينبي ، لما اكتسبته من جذبه ، صدى بعيد مريع في ربوع الغرب . لان الغرب اخذ يدرك ان غده ليس مضمونا ، بل ان كل القرائن تدل على انه دخل منعرج الهرم . ولقد عيب هذا الرأى على المؤلف لما فيه من تشاؤم بمستقبل الحضارة التي ينتمي اليها فأجاب بما نصه : -

« لقد اضطرب عدد كبير من انشاء عصرى عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى ، فادركوا ان الموت يتالنا نحن ايضا . ان هذه التجربة القاسية ، اظنها فيما يخصني ، قد وجهت موفاي في شأن مستقبل حضارتنا الغربية . غير أني شعرت ايضا ، من الناحية العملية ، انه من الحسن بالنسبة للمجتمعات ، أو قل بالنسبة لاعضاء تلك المجتمعات ، ان يدركوا ان الموت ينالهم .

« فغما يخص حياتنا الفردية ، فاننا لاحيلة لنا . فنحن نقبل ، برباطة جاش تقبل وتزيد ، ان يحل أجلنا بعد ربح من الزمن . غير انني لا اعتقد - وأنا في هذا الصدد اخالف مخالفة تامة **شبنجلر** Spengler - ان المجتمعات من هذه الناحية - وهي ناحية هامة جدا - شبيهة بالافراد البشرية . ان الكائن البشرى كالحيوان او النبات ، كتب عليه الموت بعد أجل أقصى معلوم . فاني لا ارى لماذا يكون كذلك المجتمع ، قد كتب عليه هو ايضا الموت . اني اؤمن ايمانا راسخا بالاختيار ، وبان المستقبل مفتوح . اني الاحظ طبعاً ان جل المجتمعات البشرية ، لما ارتكبت من اخطاء وحماقات ، قد اندثرت كلها بعد عصور متفاوتة الطول . غير أني لا اعتقد ان مجتمعا واحدا من هذه المجتمعات قد كتب عليه هذا المآل . هذا هو الفارق الجوهرى بين نظريتي ونظرية **شبنجلر** . فاننا اذن اقصف موقفا من الحضارة الغربية ، غير اني لا اقصف منها موقفا متشائما (٢٥) .

هكذا اجاب ارنولد توينبي . غير أن جوابه هذا ، المقام على فكرة الجبر والاختيار لم يكن

(٢٤) لقد خص ارنولد توينبي في كتابه في « دراسة التاريخ » عبد الرحمن ابن خلدون بعفحات ملؤها الإعجاب . انظر A Study of History, 6th ed. 1955, III, 321, 8, 473-5.

(٢٥) L'Histoire et ses interprétations. Entretiens au tour de Arnold Toynbee, sous la direction de R. Aron, Cerisy-la-Salle 10-19 1958, ed. Mouton et co: Paris — La Haye 1961, p. 19-20.

مقنعا تماما . وذلك ان كامل كتابه انما هو دليل طويل الدليل على الجبر . فكتابه سلسلة من الأدلة على ان كامل حضارات العالم السابقة ، مهما بلغت من القوة والشمول وطول الحياة ، كان مآلها حتما ونهائيا الموت ، وانها لم تستطع ان تختار لنفسها البقاء وتضمن الغد . فاذا ما كان الأمر كذلك فيما مضى ، فلماذا هو سيختلف يا ترى ، ويتغير ؟! ارنولد توينبي يجيب : « ان المستقبل مفتوح » ، وان تاريخ الماضي لا ينشأ بصسفة قطعية ثابتة بما سيكون عليه الغد . غير ان النمط الدوري الذي يهيمن على كامل حضارات الماضي يجعلنا نتصور مآل حضارة اليوم ، أى بصسفه اخص حضارة الغرب التي تحتل مركز النقاش . ان مثل ارنولد توينبي في ايمانه بإمكانية خلود الحضارة التي ينتمي اليها والفوز بضمأن الغد . مع اقامته الدليل على ان كل الحضارات التي سبقت لم تستطع ان تضمن لنفسها ذلك ، هو اذن كمثل الفقيه الذي يفهم الدليل على الجبر ، ثم يؤمن لأسباب نفسية بالاخبار . ولقد لخص هو نفسه موقفه في هذه العبارة :

« اني حقا اقمتم الدليل على ان الحضارات الزائلة لا محالة ؛ بصفة اكثر اقناعا من اقامته الدليل على استحالة التنبؤ بالمستقبل . غير ان هذا لا يمنع من ان الانسان يمكنه دائما ان ينفلت من الجبر ، ومن انه يمكنه دائما ان يوجه تاريخه في الطريق التي يشتهيها . لكن - في الواقع - ليس من اليسير على الكائن البشرى ان يكون بشرا حقا ، ولا على الحضارات البشرية ان تسلم من الموت » (٣٦) .

وهكذا تصبح مشكلة التاريخ والغد مشكلة ما وراثية . وهكذا يبقى المسألة مطروحة والقلق قائما . قد زالت كل الحضارات ، كحلقات كلما استكملت الدورة انتهت . فمآذا سيكون غد الحضارة التي تهيمن على عالمنا اليوم ؟ هل ستخضع لحكم الحضارات التي سبقت أم هل ستشهد عنها لأول مرة في تاريخ البشرية ؟ ارنولد توينبي يجيب : « ان الانسان يستطيع ان ينفلت من الجبر » .

لكن هذا معناه اننا اذا اردنا ان نتحدث عن التاريخ والغد بصفة تجعلنا نتجاوز الخيبات المتعشلة في مقابر الحضارات المتتالية ، يجب ان نخرج بالمشكل من اطاره الذي وضعه فيه ارنولد توينبي ومن حدا حدوه ، وهو اطار الحضارات المنفصلة المتتالية بخلف بعضها بعضا على مر الزمان ، الى اطار اوسع ، وهو اطار غد الانسان عامة . ذلك ان مشكل التاريخ والغد لا ينحصر في مستقبل هذه الحضارة او تلك ، وان وضع السؤال على هذا المستوى هو الذي اثار حماس مفكرى الغرب وتقسيمهم الى متفائلين ومتشائمين بمستقبل حضارتهم . فاذا ما اردنا ان نتقدم في البحث وجب ان نلحق قوسي التساؤل بقلق عن مستقبل حضارة الغرب ، أى ان تكسر حدود بقايا القبلية ، كي نفرض الى سؤال اهم وهو : هل في التاريخ ما يزيح لنا الستار عن غد الانسان ؟

هذا ما فعله تيار دى شاردان (١٨٨١ - ١٩٥٥) Teilhard de Chardin ، اثار اكتشافاته كان الرجل يسوعيا ، وكان في نفس الوقت عالم احياء واثروبولوجي ، اثار اكتشافاته

(٣٦) Op. Cit., p. 22.

(٣٧) انظر من بين مؤلفاته :

Le phénomène humain, éd. du senil, Paris 1955,

-L'apparition de l'homme, éd. du senil, Paris 1956 ; Le Milieu divin, éd. du Senil, Paris 1957. On peut également consulter, Cl. Tresmontant, Introduction à la pensée de Teilhard de Chardin.

وآراؤه صدى بعيدا ، قبل ان يصبح اليوم محل احراز ونقد من طرف كثير من العلماء . . لاحظ تيار دى شاردان كفيره ان الحضارات الى فناء وزوال . لكن ان بادت وزالت الحضارات ، فان الانسان باق ، وهو في تقدم مطرد . وذلك ما يستخلص من علمي الاحاطة والاناسة . لكن هذه النتيجة ، التي لا يختلف فيها اثنان اليوم ، قد اولت تاويلات مختلفة حسب العائلات الفكرية المتباينة التي ينتمي اليها المفكرون . كانت الارض في نظر القدماء مركز العالم ، والافلاك حولها مرتبة في نظام . فأتت العلوم الحديثة فبددت هذا الوهم وحطمت هذا الامتياز . واذا بكرتنا الارضية لا تزيد عن ذرة مبعثرة في محيط لا ساحل له من عديد العوالم . ونشبت الانسان بعد ذلك بفكرة اخرى وجد فيها عوضا عن مركزية الارض ، وهي مركزية البشرية anthropocentrisme . لكن هذا ايضا وهم جديد في نظر عدد كبير من علماء الحياة الذين نجد تعبيراً واضحاً عن آرائهم في مؤلف **جان روستان** Jean Rostand «عبر احيائي» *Pensees d'un Biologiste* فهو لا يعتبرون الجنس البشري الا عرضا سبوزل بدوره كما زالت من قبله بلا شك انواع اخرى من الحياة تولدت عن الصدفة في زاوية من زوايا الكون العديدة . وتطورت في احضان الامل والالام ، ثم انقضت انقراضا لا رجعة فيه . ولعل هذه العملية ستتجدد تحدوها دائما نفس الاوهام ، وتفضي في النهاية الى العيب والبطالة » اذ هي قد اهلت حتما من الاساس الى الخيبة في الحتم والى ظلمات لا ساحل لها . وقد اول بعضهم هكذا ظاهرة الحياة تاويلا متشائما حالكا الافق ، كله ولادة واجهاض ، حسب ذلك النمط الدوري الذي وصفناه والذي يهيمن على كثير من المفكرين في تاويلهم لتعاقب الحضارات . فهو لا لم يزيدوا في تفكيرهم هذا على ان نقلوا النمط الدوري المتشائم من سلمه الارضى الى سلم كوني .

ان تيار دى شاردان لم يسلك هذه السبيل المتولدة عن الاكتشافات الدينة الباهرة في ميدان علوم الفضاء والحياة والتي هي اقصى سبيل التفكير المعاصر نشاؤا ، اذ تنقل العيب والقلق الى مدار كوني . ان الانسان في نظريته لم ينشأ عينا من تفاعل « الصدفة والاضطرار » ، ولئن يزول باطلا في محيط لا ساحل له من الظلمات تطفو على سطحه الحياة وتفور . ان الملاحظة الدقيقة اليعظة في اعماق الماضي السحيق جعلته يتبين « خطوط انقلاط » *des lignes de fuite* نحو الغد ، خطوطا يبدو ان اتجاهها قد ضبط مسبقا ابتداء من نقطة الانطلاق ، ويكني اذن ان نظيلها في اتجاه غايتها كي نحدد نقطة البلوغ . انا اذن ، انطلاقا من ملاحظة الماضي ، نستطيع ان ندرك الغد . هذا الماضي يفيدنا ان الحياة ، من اول ظهورها في ايسر تركيب الودقة الاولى ، لم تزل تدفع دفعا نحو تعقد متزايد ، وتخصص اذق الوظائف ، وهيكلية اشد احكاما واكثر تشعبا . تبدو لنا هكذا القوى الحيوية كمنظومة نحو الانسان الذي يمثل القمة الحالية للحياة على وجه ارض . وهذه القمة لم تزل تزداد ارتفاعا منذ ظهور الانسان الاول البدائي ولا شك ان ارتفاعها لم يكتمل بعد ولم يبلغ غايته . لكنه في امكاننا ان ننصو من الان تلك الغاية ، اي نقطة البلوغ . تلك النقطة التي تجذب التيار الحيوي نحوها ، يسميها تيار دى شاردان نقطة « اوميغا » ω معطيا اياها اسم آخر حروف الهجاء عند اليونان ، وراما بذلك الى انها نقطة الغاية والنهاية التي تكسب الحياة معناها وتبررها . وهكذا يكشف لنا التاريخ اذا ما

ان هذا التصور لنفظة القد ، اعتمادا على اطالة خطوط التاريخ ، يتركز على افتراض وجود قصد او مشروع ، اى على وجود خالق ، فهواذن ، ان ارضى المتفكرين ، لا يرضي مسر لا يعتقد . ولعل احسن معبر عن هذا الصنف الاخير من المتكلمين هو **جاك منود** **Jadques Monod** المدير لمعهد باستور Pasteur بباريس الآن ، والذي احرز سنة ١٩٦٥ جائزة نوبل في الفيزيولوجيا *** والطب . فهو طبعا لا يذهب بدهب تيار دى شاردان بل يزدري ذلك المنهج ويكتب : ان فلسفة تيار دى شاردان الاحيائية ليس جديرة بان نستوقفنا لولا الصدى المدهش الذى اثارته حتى فى الاوساط العلمية ، ذاذا الصدى الذى يعبر عن القلق ، وعن الحاجة الى تجذبد العهد (٤) » . وحيث لم يكن **جاك مونود** فى حاجة الى تجذبد العهد اراد ان يضع تفكيره على بساط موضوعي بحت ، البساط الوحيد الذى يلق بالعلوم . واداه هذا التفكير فى آخر اكتشافات الاحيائية الى انه ليس هناك من شيء يندر بانفجار الحياة فى صلب المادة . فالجياة اذن لم تنشأ عن قصد او مشروع سابق . فلم يبق اذن الا انها وليدة محض الصدفة . وهذه النتيجة الاولى الى يقضى اياها جاك مونود هي وليدة المنهجية التى اختارها ، وهي الموضوعية العلمية التى يعمرها كما يلي : «هي الرفض للنسق باعتبار امكانية حصول اى معرفة حقيقية عن طريق تأويل الظواهر . تأويلا يصاغ فى عبارات عللانية (٤) » .

غير ان جاك مرونود يلاحظ « ان الموضوعية تجربنا ايضا ان نعترف بان الكائنات الحية لها صبغة « تطورية مقننة » téléonomique وان نسلم بانها في هيكلتها وانجازاتها تحقق مشروعا وتقتصد نحوه . فهناك اذن - على الاقل بصفة ظاهرية - تناقض منهجي عميق . فمشكل الاحيائية المركزي هو هذا التناقض ذاته الذي ينبغي ، اما ان نحلّه ، في حالة انه لا يزيد على انه ظاهري وحسب ، واما ان نقيم الدليل على انه يستعصي جدوريا على كل حل اذا ما كان الامر في الحقيقة كذلك » (٢) .

(٣٨) المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ١٦٨ . انظر ايضا ما سبق ص ٧ - ٨ من هذا البحث .

(٣٩) الروم رقم ٣٠ ، الآية رقم ١١ ، وقد ورد الرجوع الى الله في اكثر من آية . انظر محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس للغات القرآن الكريم ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

**** الفريولوجيا او علم الفريوسات .**

Jacques Monod, *Le Hasard et la nécessité*, éd. du senil, Paris 1970, p. 44. (1.)

Jacques Monod, *Le hasard et la nécessité*, p. 32. (1)

(٤٢) نفس المصدر ص ٣٣ .

ان جاك مونود لا يعتبر طبعاً المشكل غير قابل للحل . فهو يحاول في كتابه اعتماداً على أجبر مميزات الكيمياء ، والاحيائية ، وغيرهما ان يبين كيف تخضع الكائنات الحية ، من ناحية الى الثابتية invariance التي تحفظ لها خصائصها ، اي خصائص جنسها ، ونضمن لها تواربها ، ومن ناحية اخرى الى التطور المقنن téléonomie الحاصل عن طريق ما يحدث - صدفه في نظريته - من تغير في مورثاتها ، او جيناتها ، تغير ينطبع فيها بدوره بصفة عارة فيصبح بابتية . وهكذا يفك لغز الثابتية والانتخاب الطبيعي التواصل الذي هو محور الاحيائية ، ويترج شرحاً علمياً موضوعياً . ويلاحظ جاك مونود ان من بين كل العمليات الممكنة - وهي لا تخصى عدا - يقع التغير الحاصل في المورثات دائماً في اتجاه ضمن الانتخاب الطبيعي ، او تطور الحياة الى اشكال ارقى فارقى . قال فمن ربكما يا موسى قال : ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٤٣) .

لكن جاك مونود يرفض وجود هداية او هاد (٤٤) . فهو يبين ان الثابتية تخضع لقانون يجد العلم سره مكتوباً في المورثات ، وان الانتخاب الطبيعي له ايضا قانونه الذي يحول دون التفتت مثلاً ، لكنه يرفض وجود مقنن مفارق ، عملاً بالفرض الاولى الذي فرضه وهو فرض الموضوعية التي عليها اقيم العلم الحديث ، وهكذا يفضي بنا في النهاية الى فلسفة مقامه على وحدة الوجود ، هي ايضا احيائية كفلسفة يبار دى شاردان ، غير انها « نفاية » (٤٥) ، اذ ترفض رفضاً باتاً التعليل الغائي ونعوضه بالصدفة .

ولقد اثارت آراء جاك مونود هذه ردود فعل كثيرة نذكر منها على الخصوص ما ورد في مؤلفين : الاول عنوانه « الصدفة والحياة » (٤٦) Le hasard et la vie وصاحبه مارك اوريزون Marc Oraison كاهن اختصاصي في الطب النفساني ، والثاني صدر تحت عنوان « مذهب الصدفة والاضطرار » (٤٧) : L'idéologie du hasard et de la nécessité وهو بقلم السيدة مادلين بارتيليمي - مادلون Madeleine Barthelemy — Madaule المتخصصة في الفلسفة . اما مارك اوريزون فانه يقبل الى حد ما نظرية الصدفة فيما يخص ظهور الحياة ، باعتبار ان هذه النظرية لا تزيد على انها تعبر في لغة خاصة على ان ظهور الحياة ليس حادثاً ضرورياً الوقوع بذاته ، وانما هو جائز ومحتمل فقط ، اي انه في الامكان ان لم

(٤٣) طه رقم ٢٠ ، الاية ٤٩ - هـ .

(٤٤) (انظر مؤلفه المشار اليه ص ٣٧ - ٤٦ ، ١٨٢ - ١٩٥ .

(٤٥) (وردت كلمة نفاة ، ج ناف ، للتدليل على بغي وجود الله . قال ابو العلاء المبري

اثبت لسي خالقها حكيماً

ولست من معشر نفسا

انظر الزوميات ط . صادر ، بيروت ١٩٦١ ، ج ١ ص ٢٢٩ . ونحن نستعمل هنا عبارة « نفاية » كمتقابل للكلمة athéisme

éd. du senil, Paris 1971.

(٤٦)

éd. du senil, Paris 1972.

(٤٧)

يكن . واما فيما يخص الاضطراب ، الذى يضمن للكائنات الحية نابتية الجنس والارتقاء فى نفس الوقت من طريق التطور المقتن ، فانه يلاحظ بحق ان من قال ارتقاء او « انتخابا » قال حتما **تحجيرا** « (٤٨) ، **تحجير** حدوث ما يخالف الانتخاب . « فالحياة إذن ، فى شكلها هذا الذى يظهر عليه ولتئثم ، تحجر بصورة من الصور حدوث شىء آخر « (٤٩) » فيعين اذن الا نرى فى كل هذا قصدا une intentionnalité بل « رسالة » message و « معنى » sens .

وتلاحظ السيدة ماديلين بارتيليمي - مادول بدورها فى مؤلفها الذى هو اعمق تحليل فلسفى لنظريات جاك مونود ان تفكير هذا العالم لا يخلو من تناقض اذ هو يعترف من ناحية باخلاص : « انه من المستحيل ان نتخيل تجربة فى وسعها ان نقيم الدليل على عدم وجود مشروع ، او هدف مقصود ، فى اى ناحية من نواحي الطبيعة (٥٠) ومن ناحية اخرى يقطع بعدم وجود هذا المشروع ، وبأن الحياة بخضع لمجرد الصدفة وهكذا يستدرجنا نحو فلسفة مركزة على وحدة نغائية . وتعتبر المؤلف بجدارة انه ليس ممن اللائق ان نستدرج هكذا ، بدون بينة كافية ، من نغائية منهجية - كثيرا ما ينطلق منها العلماء كقاعدة فى ابحاثهم - الى نغائية كائنية ontologique او ما ورائية عقائدية . واخل على جاك مونود اشياء اخرى منها انه يستخف بغير حق بتيار دى شاردان فى حال انه يدين له باقتباسات كثيرة منها بعض المصطلحات .

ان التفكير فى تاريخ الانسان وعده انسج كما راينا الى تفكير فى نشوء الحياة وغايتها حتى من طرف من ينكر المشروع والغاية . ذلك ان التاريخ صنفان : فهو عندما يكون غير شعورى ، تاريخ طبيعي للاجرام السماوية ، والفضاء والجمادعامة ، والنبات والحيوان . ذلك لان لكل شىء تاريخا ، اذ كل شىء يتغير ويتحول على مر الزمان ، ويرتقى الى هيكليات اكثر فاكثر تشعبا واحكاما . ان قائلة الزمان ، اى حركة التاريخ ، تسير بكل شىء فى طريق التطور ، وعندما تصبح هذه الحركة شعورية ، عندها تصبح تاريخا بالمعنى المصطلح عليه عند المؤرخين . فالتاريخ اذن هو وعي التطور والاضطلاع به ، والانسان هو الكائن الذى يفضلته ينقلب التطور الشامل لكل الطبيعة تاريخا بالمعنى الاصطلاحي .

ففى هذا الاطار وضع محمد اقبال (١٨٧٣ - ١٩٣٨) تفكيره فى التاريخ . ففكر فيه كفيلسوف (٥١) ، وفكر فيه كصوفي فى شعره . فهو **جلال الدين الرومي** (٦٠٤ - ٦٧٢ / ١٢٠٧ - ١٢٧٣) الصوفي الشاعر ، وكاتب خلدون ، المفكر الاجتماعي ، يعتقد ان الحياة لا تنقهر ولا تكرر

Marc Oraison, Le hasard et la vie, p. 142.

(٤٨)

op. cit., p. 142-3.

(٤٩)

Jacques Monod, Le hasard et la nécessité, O. 33.

(٥٠)

(٥١) انظر تجديد التفكير الديني فى الاسلام ، ترجمة عن الانجليزية ، عباس محمود القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٥٥ - ١٩٢ .

فيها . انما هي نمو ، وانما هي رقى مطرد متصاعد ابدا من المادة الى اكمل الكائنات التي
يقع عليها حسنا : الانسان . فهذا الانسان بصنع غده ، ويناجي الله هكذا :

حوار بين الله والانسان (٥٢)

الله

اني صنعت هذا الكون من ماء وطين
وصنعت ايران ، وبلاد التتر و زنجبار
ومن الارض صنعت حرف الفولاذ ،
وصنعت السيف والتبيل والبنديقية
وصنعت الفأس لشجرة المروج
وصنعت القفص لفرد الطيور .

الانسان

صنعت الليل ، وصنعت القنديل
صنعت الطين ، وصنعت الكوب
خلقت الصحارى والوددة والجبال
وانشأت الرياض والحدائق والورود
فانا الذى اخرجت من الحجر البلور
ومن السمسم الترياساق



وهكذا تبدو لنا من خلال هذا القصيدة الصوفي الفنائي وظيفة الانسان في الكون وظيفة سامية .
فهو يضطلع عن وعى بدوره الخلاق اذ تحولت فيه حركة التطور الى حركة شعورية اى انه اصبح
في تفاعله مع حركة التاريخ او الخلق فاعلامنفعلا. وهذا الانسان ليس قمة ، انما هو رمية نحو
مرمى ، نحو هيكلية اكمل ، نحو انسان الفداء الذى يدموه **محمد اقبال** في لهجته الصوفية
الغنائية هكذا :

اقبل ، انت ، يا فارس القدر
اقبل ، يا نور ظلام عالم التحول !
فالبشرية حقل بُرّ، وانت حصادها .
انت هدف قافلة الحياة (٥٢)

فالتاريخ اذن اماننا اكثر مما هو خلفنا .

(٥٢) هذا القصيدة يوجد في ديوان محمد اقبال في اللغة الفارسية وعنوانه « بياص - ي - مشرق » اى « رسالة
الشرق » . ترجم هذا الديوان لأول مرة بأكمله الى لغات اوروبية - وهي اللغة الفرنسية - بمثابة ايفا مايروفيتش
Eva Meyerovitch . نحت عنوان 1956 Paris Message de l'Orient ، وقد عربنا هذا
القصيدة عن الفرنسية ، وهو يوجد بالطبعة المذكورة ص ١١٠ - ١١١ .

وإذا ما اردنا الآن أن نتكهن بما سيكون عليه غد حضارة اليوم ، أى الحضارة الغربية التى تكتسح أكثر فأكثر عالم ما تحت القمر وما فوقه ، وجب أن نضع السؤال فى احدثائيات ما سبق . يقول ارنولد توينبي ، الذى أقام الدليل أكثر من كل من سبق على أن كل الحضارات عرضة للزوال : « أن المستقبل مفتوح » نعم ، هو مفتوح . لكن على أى غد ؟ أن كل الحضارات السابقة ارتكبت « اخطاء وحماقات » انتهت بزوالها . فالامر اذن يرجع الى قدرة حضارة اليوم على تجنب الاخطاء والحماقات . فالحضارة هى الصورة التى يستكمل فيها الانسان يوما بعد يوم انسانيته . فإذا ما « فسد الانسان فى قدرته على اخلاقه ودينه ، (و) فسدت انسانيته ، وصار مسخا على الحقيقة » حسب عبارة ابن خلدون (٥٤) ، فذلك يؤدى حتما الى زوال الحضارة المعنية ، لانحرافها عن جادة التطور التلأونومى الذى يوجه الحياة . فما دامت اذن حضارة اليوم تسير و « وخطوط الانعلات » نحو نقطة اومقا التى يتحدث عنها تيار دى شارداى ، أى ما دامت تسير فى سبيل الانتخاب الطبيعى ، حسب لغة جاك مونود ، فانها ستبقى لادائها لوظيفة الحياة . وإذا ما فشلت فى ذلك فانها ستقرض كما اقترضت قبلها حضارات عديدة . لكن ان اقترضت هذه الحضارة وخلت ، كما خلت قبلها حضارات وامم ، فان الحضارة باقية ، وستجد البشرية عندها كما وجدت قديما ، فى خزانات امم اخرى لم تفقد انسانياتها ، سواعد جديدة تذهب بمشعل الحياة اشواطا اخرى الى الامام حتى يبلغ التطور غايته ويتم الله نوره .

مستقبل التاريخ

بقى لنا الآن أن نتساءل سؤالا اخيرا : ماذا سيكون مستقبل التاريخ ؟ لقد رأينا أنه كتب الى حد الآن باقلام مختلفة وأول تأويلات عديدة . وقيل فيه وعليه كثيرا . هل يجب اذن أن نياس - والرجال تلك عين - الوصول الى حقيقة مثبتة ، إن لم تكن مطلقة ، وأن نشاطر شبتجلر فى رايه الذى يعبر عنه هكذا : « الحقائق انما هى حقائق بالنسبة لفريق من البشر فقط . فان فلسفتى الشخصية مثلا لا تمكس الا الروح الغربية فى اختلافها عن الروح الكلاسيكية ، او الهندية ، او غيرها (٥٥) .

ان هذا لصحيح . لكن اذا ما ظل الامر كذلك وجب أن نياس من مستقبل التاريخ وان نفسل ايدينا منه ، وان نوصد ابواب مدرسته التى لا نتلقى فيها الا شبه حقائق مزعومة ونسبية ، ودورسا خطيرة فى الشعوبية . واذا ما اردنا ان نترك التشاؤم - الذى لا طائل وراءه - جانبنا ، وجب ان نخرج من سجن التكيف بالبيئة الذى يجعل من الحقائق « حقائق بالنسبة لفريق من البشر فقط » . ومعنى ذلك هو ان مؤرخ المستقبل يجب ان يسعى جهده وأن يضع تفكيره ، لا فى نطاق قومي شعوبي بل فى احدثائيات عالمية . ان هذا ليس طبعيا بالهين لكنه اصبح تقنيا ممكنا .

ان الناطقات الآلية اخذت اليوم نفوذ كامل مقاطعات الحياة ، حتى مطابخ البيوتات الفردية . وسوف يزيد سرعه نطاق انتشارها في مستقبل اقرب مما قد نظنه وتكنهه . وليس من شك في ان انتشار الناطقات الآلية ، ومرونتها المتزايدة ودقة التحكم فيها : ستفتح امام التاريخ آفاقا بعسر تصورها من قبل . وستتغير طبعاً منهجية التاريخ بغيراً تاماً ، اذ لا بد لكتابتها بصغة عصرية من الاستيعان بخبرات عديدة ، لتزويد الناطقات بالمعلومات اولا ، وحسن استنطاقها ثانياً . ولعل نفاوت المؤرخين حذقاً في المستقبل سيفاس تنفاوت قدرهم على ابتكار الاسئلة الراشقة ، وعلى مهارة استنطاقهم للناطقات . . ومهما يكن من امر فان هذه الناطقات سوف نمكنا من الشمول ، والخروج من حدود الاقليميات الضيقة ، وعمودنا نعتبر التاريخ ليس بتاريخ امية دون امة ، او حضارة دون حضارة ، وانما هو تاريخ الانسان عامة . واذا خلقت فيها هذه العقيلة تكون قيد خطونا خطوة شاسعة نحو الموضوعي ، وابتعدنا من تلك الحقائق الجردية او النسبية التي تحدث عنها سينقار ، والتي كثيرا ما زيفت (٥٦) وجه التاريخ سابقا . فعمل الناطقات وشبكة النقل التي تزيد سرعة وشمولا ، والتحاكك المتزايد بين الاجناس وتلاقح الافكار وعبور الآراء ، يمكن في المستقبل من كتابة تاريخ الانسان في كامل اوضاعه واصقاعه دون تحيز وتمييز وتعصب . انه لا بد ان ياتي يوم طال الزمان ام قصر تصبح فيه قوله مونتسكيو (١٦٨٥ - ١٧٥٥) Montesquie هذه : « اني انسان اولاً وفرنسي بالصدفة » ، شعار كل مؤرخ . لعل هذا المستقبل بعيد ، ولعل دونه عقبات كاذاء ، لكن النجوم على بعدا تهدي السالرين ونجبهم الضلال . ومهما يكن الامر فان التاريخ لن يتقدم الا اذا ما اصبح علما حقيقيا من علوم الانسان ، وخرج من القبيلة التي ما زالت تهيم عليه حتى اليوم ، بصغة تزيد وتقل غلوا ، وتختلف سفورا وتقعنا ، وتشرب بالوان المركبات غرورا ونقصا .

لكن هل يصبح التاريخ يوما علما حقيقيا ؟ ان من يشك في ذلك كثيرون ومن بينهم بول فاين Paul Veyne الذي يقطع بدون تردد « ان التاريخ لن يكون ابدا تاريخا علميا (٥٧) . ان هذا القول الفصل - الذي ينم عن وثوق بالغ بالنفس وبظهور في لهجة كامل الكتاب ، وكثيرا ما يحرج المطالع - ناشيء في نظرا

(٥٦) انظر ، فيما يخص تزوير التاريخ المغالات النالسة الواردة في مجلة « الاصاله » التي تصدر بالجزائر العاصمة ، في عددها ١٤ و ١٥ سنة ١٩٧٢/١٩٧٣ : سعد الله ، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر ، ص ٧ - ٢٧ ، عبد الجيد مزبان ، النظريات التاريخية بين التفسير والتخريف ، ص ٢٧ - ٣٥ ، محمد ابراهيم اليلى ، نماذج من تشويه المؤرخين الاجانب لتاريخ الجزائر ، ص ٥٧ - ٦٥ ، المهدي البوعبدلي ، موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر عبر العصور ، ص ١٢٥ - ١٢٩ ، عبد الرحمن الجيلالي ، من بواعث الاستشراق واهداف المستشرقين ، ص ١٥٥ - ١٦١ ، الطاهر فيفة ، تاريخنا يحتاج الى اعادة نظر ، ص ١٧٢ - ١٧٧ ، اسماعيل العربي ، مساهمة المؤرخين الفرنسيين وهل تصلح اساسا لتنمية تاريخنا القومي ، ص ١٨٧ - ١٩٩ . وفي القسم الفرنسي من هذه المجلة :

Yvonne Turin, L'histoire et sa nationalité, p. 13-22, Charles Robert Ageron, Simple note en faveur de la décolonisation de l'histoire algerienne ... p. 23-26.

Paul Veyne, comment on écrit l'histoire, éd. du senil, Paris 1971, p. 205 et. suiv.

(٥٧)

عن مركب وخط . فاما المركب فهو ذلك الذى تتألم منه كل العلوم الانسانية عامة امام العلوم المدعوم بالصحيحه والى من الاصح ان نسميها بعلوم الطبيعة - لما حققته هذه العلوم من انجازات غيرت وجه حياتنا المادية وتحديث اعتقادنا الروحية . وهذا المركب هو الذى يجعل كثيرا ممن يشتغلون بعلوم الانسان لا يكادون يفكرون فى علومهم الا وقارونها - بصفة شعورية او غير شعورية - بعلوم الطبيعة ومناهجها . وهذا طبعاً يقضى الى الخلط ، اذ يجعل دائماً العلوم الانسانية موضوعة ، بوجه من الوجوه ، على كفة ميزان هو غير ميزانها ، وهذا عين ما نلمسه فى صفحات عديدة من كتاب بول فاين ، مما يؤدى الى استطرادات كثيرة تفصل عن الموضوع اكثر مما تهدي اليه .

كل يعلم منذ قرون ان التاريخ ، كغيره من علوم الانسان ، ليس يعلم ناموسي (nomologique) وان غايته ليست فى تجريد نواميس من نوع اذا دخلت حامضاً على قاعدة اصبحت ملحاً ، وانما هى الفهم . ألم يقل لنا ابن خلدون انه « لا يقاس شيء من احوال العمران على الآخر (٥٨) » . وهذا معناه طبعاً ان التاريخ لا يقضى بنا الى نواميس تاريخية ، ولا يقصد الى ذلك . واما النواميس التى كد فى استخلاصها بعض المؤرخين المعاصرين فانها ليست ناموسية فى شيء . وذلك لسبب بسيط ، وهو ان النواميس العلمية مقامة كلها على تكرار الظاهرة كلما توفرت شروطها . وهذا لا يتوفر الا فى عالم تكرار الظواهر ، وهو عالم الطبيعة . والتاريخ ، كما بينا ، وكل ما واكبه من نشاطات الانسان لا تكرر فيه ، اذ هو حركة خلق مستمرة . لذا فانه من المستحيل ان نتصور تجربة تاريخية من نوع تجارب الكيمياء والفيزياء التى يقام بها فى المخبر . كل هذا مفروغ منه منذ زمان ، وليس فى حاجة الى زيادة تدليل .

لكن ، ان كان التاريخ ليس من العلوم الناموسية ، فليس معنى ذلك حتماً انه ليس بعلم فهو علم بهده ، اذ هو ككل العلوم يسمى وراء الحقيقة ، وهو علم بمنهج الذى لم يفتأ على مر العصور يتطور ويزداد احكاماً . فخلافاً لما يزعمه بول فاين فاننا نرى التاريخ يصير يوماً بعد يوم علمياً اكثر فاكثراً ، وليس هناك من موجب كي تهدأ هذه الحركة او تكف ، بل كل شيء ينذر أنها ستزداد سرعة . انا نرى التاريخ اليوم يستنجد باحدث اكتشافات الكيمياء او الفيزياء وسوف يستخدم غداً بدون شك الاجهزة والمقولات الالكترونية كي يسيطر اكثر فاكثراً على الواقع . ولعله يوفق يوماً فى تسجيل ذاكرة جسناني ناظمة آلية واحدة .

هل سيمكن ذلك المؤرخ يوماً من استيعاب كل المعطيات حتى يتمكن من تاويل اثبت للواقع وفهم ادق ؟ الامر يختلف طبعاً باختلاف العصور والمبادين . لكن يمكن ان نقول ان الاستيعاب المطلق للمعطيات يبدو لنا فى كل الحالات عسيراً ، وفى بعضها مستحيلان غير ان هذا ليس له فى الحقيقة من الاهمية ما قد تخيله اولاً ، اذ يمكن ان نحصر الحقيقة التاريخية ونضيق عليها الخناق بوسائل شتى حتى نغفر بها بدون حاجة الى الاستيعاب . ثم اننا لسنا فى حاجة الى ان نعلم كل

شيء من شئون الماضي . ومهما يكن الامر ، فانه ليس من الضروري كي يكون العلم علماً ، ان يمحيط اللثام عن كل خفية ودقيقة ، بل يكفي ان يبلغ الحقيقة في الميادين التي بلوغها فيها يكون ممكناً . وهذه الميادين كثيرة بالنسبة للتاريخ وستزيد اتساعاً وعدداً في المستقبل .

وخلاصة القول اننا من المتفائلين بمستقبل التاريخ العلمى ، وان كانت الصعوبات لا تخفى علينا ولا تآمن الخيبات ، وذلك لاننا نؤمن بالتقدم ، ذاك التقدم الذى نقرأ بخطوطه والضحى في سبيل الخليفة ، ذاك السجل الذى اعاننا ، وسيعيننا اكثر فاكثر التاريخ على سبر صصفحانه . « افحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم اليينا لاترجعون » (٥٩) .

★ ★ ★

حسين مؤنس *

التاريخ والمؤرخون

بإعية التاريخ ولماذا ندرسه - تطوره في الغرب في خلال المصور الحديثة -
أهم نظرياته ومراحل تطوره وبنية علم التاريخ الحديث وأهم أعمالهم .

الخلاص حول أهمية التاريخ ومكانته بين العلوم :

يحتل التاريخ بين فروع المعرفة الإنسانية مكاناً صديراً ، وتشغل المؤلفات فيه نسبة عالية من الكتب التي تصدر في الشرق والغرب على السواء . وإلى ما قبل الحرب العالمية الأولى كانت المؤلفات في التاريخ وما يتصل به من تراجم وقصص تاريخي وآثار وسياسة ومذكرات تكون خفمن الكتب العالمية . وفي إيماننا هذه ، ورغم اتساع ميادين المعارف وعلية الاهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية والطبية والهندسية على الاهتمام بما عداها لا زالت مؤلفات التاريخ تحتل جانباً ضخماً مما ينشر كل عام ، وخاصة إذا أضفنا إليها ذلك النوع الجديد من الكتب

• الدكتور حسين مؤنس استاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الكويت مؤرخ وأدب وقصاص له مؤلفات كثيرة وخاصة بالمغرب الإسلامي . آخر مؤلفاته « الإسلام والحضارة » .

الذي يؤلفه نفر من اذكيا اهل الصحافة والادب عن حوادث التاريخ الجارى current history ورجاله ، ويكفي ان نشير الى العدد الضخم من المؤلفات التي صدرت خلال السنوات الاخيرة من قضايا فلسطين وفيتنام والامن الاوروبى والاستعمار الجديد والشيوعية والاستراكية وتجرح العالم الثالث وما الى هذه من موضوعات التاريخ المعاصر ورجاله من امثال لينين وستالين وماو - تسي - تونج وهو - شي - منه وفرنسون تشرشل وشاول دى جول وجمال عبد الناصر وايرنستو (تشيه) جيفارا وجون كينيدي وغيرهم ، وكل هذه كتب صحفية الطابع في التاريخ المعاصر تنشر وتباع بعشرات الالوف بل مئاتها ، مما يدل على ان التاريخ لا زال من اكثر فروع المعرفة الانسانية قربا الى قلوب الناس .

ومع ذلك فلا زالت حقيقة « التاريخ » ومكانته بين العلوم وطبيعته وفائدته موضع شك ونقاش طويل بين المؤرخين والفلاسفة والمفكرين عامة . وقد عرض شمس الدين السخاوى (٨٣١ - ١٤٢٧/٩٠٢) في كتابه المشهور « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ » بعض جوانب مشكلة علم التاريخ عند المسلمين ، واعطانا صوراً من المآخذ التي كان علماء عصره يوجهونها الى اهل التاريخ وحاول الدفاع عنهم ، وهو لم يوفق لا في العرض ولا في الدفاع ، فقد كان اقصى ما قاله في مدح التاريخ ان جملة احد العلوم المساعدة لعلم الحديث ، ولكنه على اى حال اعطانا فكرة واضحة عن مشكلة علم التاريخ عند العرب والاختلاف بينهم في تقديره والحكم عليه .

وتتلخص آراء الناقدين لعلم التاريخ من المسلمين في انه علم لا ينفع ، اذ هو يشغل الانسان باخبار الماضين واساطير الاولين عما ينفع الانسان في اخراه من علوم الدين ، ثم انه يعرض صاحبه للكذب عن علم او غير علم ، فهو لا يدري ان كانت الاخبار التي يسوقها صحيحة ام غير صحيحة ، ورأى بعض نقاد التاريخ من المسلمين انه غشبية ، لان المؤرخ يتناول الغائبين بالذم والنقد ويكشف عن ميوبهم ، والاسلام ينهى عن الغيبة ، ثم ان بعض المؤرخين يقعون في اعراض الناس ويسبون اليهم ، ولهذا تحامى الكثيرون من اهل الخلق والتصاون الكلام في التاريخ حفاظا على خلقهم .

ولكننا نعلم الماضين من اهل الفكر عندنا فيما وجهوه للتاريخ من نقد ، لانه لا زال بين اهل عصرنا من كبار المفكرين - والفلاسفة خاصة - من ينكرون وجود التاريخ اصلا ، ويقولون ان التاريخ يعنى بما مضى وانقضى من الاحداث ، وما دامت قد مضت فهي غير ذات وجود حقيقي ، وهي لا تبعث الى الحياة الا في ذهن المؤرخ . فالمؤرخون وحدهم - في رأى هؤلاء - هم الذين يشعرون بوجود التاريخ لانه صنعتهم ومدار حياتهم ، امامن عداهم فلا وجود للتاريخ في حسابهم ، وهم لا يحسون بالحاجة الى معرفته ، ويحلو لكثير من اهل العلم ان يرددوا قول هنرى فوردي « التاريخ لغو History is bunk » .

ولكن التاريخ كما سنرى ليس لغوا ، فهو لا يقتصر على اخبار الماضين واساطير الاولين ، بل هو يدرس التجربة الانسانية او جوانب منها ، يسعى الى فهم الانسان وطبيعة الحياة على وجه الارض ، واذا نحن اعتبرنا الحياة طريقا يقطعه الانسان ، فلا شك في ان معرفتنا بما قطعناه من الطريق تعيننا على قطع ما بقي منه . وسنأتي فيما بعد بفكرة طويلة وافية عن فائدة التاريخ وضرورة دراسته ومعرفته .

مثل من اختلاف الناس حول طبيعة التاريخ ووظيفته : رأي ابن خلدون ونظرية هيجل :

ولا زال تعريف **ابن خلدون** للتاريخ في فائحة مقدمته يعتبر من اذق ما قيل في هذا العلم ، وهو تعريف اعجب به وأشار اليه نفر من كبار المؤرخين في الغرب من امثال كولنجود وتوينبي رغم انه لم يترجم الى الانجليزية ترجمة دقيقة الا على يد فرانتس روزنتال في السنوات الاخيرة . وترجمته دقيقة ولكنها خالية من الروح ، وافضل منها واكثر حيوية الترجمة الفرنسية التي صنعها فنسان مونتاي ، وسنشير اليها فيما بعد .

قال ابن خلدون بعد مدخل بلاغي : « اما بعد ، فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الامم والاجيال ، وتشهد اليه الركائب والرجال ، وتسمو الى معرفته السوق والأفغال ، وتتنافس فيه الملوك والاقبال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال ، اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأولى ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الامثال ، وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال ، وتؤدي اليها شأن الخليفة كيف تقلبت بها الاحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال . وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لهذا اصيل في الحكمة عريق » .

وهذه عبارة تدل على فهم ذكي لطبيعة التاريخ ووظيفته فهو « في باطنه نظر وتحقيق » اى تفكير في طبائع البشر وتكوين مجتمعاتهم ، وبحث عن اسباب الحوادث وتحليل لنتائجها ، فهو على هذا - كما يقول ابن خلدون - « اصيل في الحكمة عريق وجدير بان يعد في علومها خليف » والحكمة في المفهوم العربي هي اعلا مراتب العلم ، وقد قرنها الله سبحانه وتعالى بالكتب السماوية في القرآن الكريم ثماني مرات ، وعبارة « الكتاب » والحكمة عبارة قرآنية لا تزال ترد في الاسماع والقلوب .

ولكن يستوقف النظر ان ابن خلدون ينظم التاريخ في سلك الفنون لا العلوم ، والفن بمعنى « الضرب من الشيء » كما جاء في « لسان العرب » اقل منزلة واهمية من العلم الذي هو معرفة اكيدة . نعم ان ابن خلدون عاد فعقد فصلا عن فائدة التاريخ سميته « في فضل علم التاريخ » وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من اسبابها « ولكنه يبدأ هذا الفصل ذاته بقوله : « اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب » فكانه غير مقتنع تماما بان التاريخ علم مستكمل لاشراط العلوم .

وهذا الفصل الذى نشير اليه يدور حول وظيفة التاريخ او قوائمه ، وهو يعطينا فكرة عن رأي ابن خلدون في قيمة التاريخ وفضائله في نظر ذلك المفكر الكبير ، قال : « اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية ، اذ هو يوقنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم ، والانبيااء في سيرهم والملوك في دولهم وسياساتهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في احوال الدين والدنيا ، فهو محتاج الى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وثبنت بفضيان بصاحبهما الى الحق ، ويتكبان به عن المولات والمغالط » .

وخلاصة هذا الكلام هي ان التاريخ ينفع في العظة والعبرة ، فنحن ندرس تواريخ الدول والملوك لتتعلم ، وندرس سير الانبياء لتتأسى بهم ، وندرس تجارب الامم ونرى ما وقعت فيه من الاخطاء لننجو بانفسنا عن المزالق ومواطن الضرر ، وهذه في رأينا هي اعظم فوائد التاريخ في نظر دارسيه من العرب . ولهذا نجد ابن خلدون يسمى تاريخه الكبير « كتاب العبر » .

ولا ندرى كيف غاب عن ابن خلدون ان احداً لا يعتبر بما يقرأ من التاريخ . ولقد كان الملوك في الماضي من اكثر الناس مطالعة للتاريخ . ومع ذلك فما اتمنظ احد منهم بما قرأ ، فنجدهم جميعا يقعون في نفس المغالط التي يقرأون عنها في الكتب ، وهم يرون انها أدت بالملوك السابقين الى التلف ومع ذلك يسيرون في نفس الطريق ، وكل الظلمة في تاريخنا كانوا من المشغوفين بالتاريخ فأين فائدتهم من ذلك ، والسخاوى نفسه يجدنانا من شفف نفر من سلاطين الماليك وامرائهم بالتاريخ ومع ذلك فقد كان اولئك الماليك من اجهل الناس بالسياسة والحكم واقلهم معرفة بتجارب الامم واكثرهم اسرافا في العدوان على اموال الناس وابشارهم ، فإين استفادتهم مما قراوه ؟

والحق ان الكتيرين يقرأون التاريخ ليتعلموا منه وليوعظوا به ولكنهم لا يتعلمون ولا يوعظون ، لان الانسان قد يجب بما يقرأ ويجد فيه متعة ولكنه لا يتعظ به ، لان الموعظة لا دخل لها في التجارب الإنسانية . فمعهما حذرت ابنك من الاندفاع وراء النساء فان تحذيرك لن ينفعه ، لانه لا بد ان يجرب بنفسه .

واسأل نفسك : اننا معاصر العرب من اكثر الامم تأليفا في التاريخ وقراءة له حتى ان متناكبنا لنوءلثل ما نحمل من اعباء التاريخ فغيم نغعدنا ذلك ؟ وها نحن منذ الدهر الابد نقع في نفس الاغلاط ببلاهة ندمو الى العجب .

ثم اننا نرى في كلام ابن خلدون عن فائدة التاريخ ابهاما لا نرتضيه ، فما المراد مثلا بقوله ان التاريخ « عزيز المذهب شريف الغاية » ؟ لقد اختلط امر معنى « عزيز » و « شريف » على فئسان مونتاي مترجم المقدمة الى الفرنسية في سلسلة الروائع الإنسانية التي تنشرها منظمة اليونسكو ، وترجمهما بلفظ واحد هو noble وهو لفظ فرنسي مبهم المعنى ايضا ، مثله في ذلك مثل مقابلة في العربية : « نبيل » .

ونحن لا نلوم ابن خلدون في لجوئه الى هذا التعريف غير الدقيق لطبيعة التاريخ ووظيفته ، فبعد وفاة ابن خلدون باربعة قرون وربع القرن (توفي في ١٧ مارس ١٤٠٦) القى **جيورج فلهلم فريدرش هيغل** محاضراته المشهورة في فلسفة التاريخ في شتاء سنتي ١٨٣٠ - ١٨٣١ وقال فيها ان تاريخ البشر كله يمكن ان يوصف بأنه عملية طويلة استطاعت البشرية خلالها ان تحرز تقدما روحيا واخلاقيا ، وهذا التقدم هو ما استطاع العقل البشري ان يحزره في طريق معرفته لنفسه ، وقال ان التاريخ يسير وفقا لخطة Plan ومهمة الفيلسوف هي معرفة هذه الخطة . ولقد عجز الكثيرون من المؤرخين المبرزين عن الكشف عن أى خطة واكتفوا برواية الاحداث ، ووجد آخرون مفتاح التاريخ في قوانين مختلفة ذهبوا الى ان الطبيعة تعمل بموجها . اما تفكير هيغل فيقوم على الإيمان بأن التاريخ هو تحقق الغاية التي ارادها الله من وراء الخلق ، وان الانسان وصل في بداية القرن التاسع عشر الى درجة من التقدم تمكنه من الكشف عن هذه الغاية وهي تحقيق حرية البشر تحقيقا تدريجيا . والحرية التي يعنيها هيغل هي تحرر الانسان من عقال الجهل والخوف والظلم .

وفي رأى هيغل ان الخطوة الاولى في هذا الطريق كانت الانتقال من حالة التوحش الطبيعية الى مستوى النظام والقانون . خلال هذه المرحلة كان لا بد من انشاء الدول ، وكان على اولئك الذين انشأوا هذه الدول ان يستعملوا القوة والعنف ، ولا سبيل غير القوة والعنف لالزام الناس بطاعة القانون قبل ان يصلوا الى درجة كافية من التقدم العقلي تجعلهم يلزمون النظام

والقانون من تلقاء انفسهم . وهذه العملية لا يمكن ان تتم بالنسبة لكل البشر في نفس الوقت ، فهناك مرحلة يصل فيها بعض البشر الى هذا الادراك لقيمة القانون واحترامه فيصلوا بذلك الى الحرية في حين لا يستطيع بعضهم ادراكها فيظلوا عبيدا ، وذهب هيغل الى ان الانسانية وصلت الى مستوى من الفهم يجعلها توفق بان البشر جميعا احرار نظريا وان واجبنا ان ننشئ النظم التي تجعل هذه الحرية حقيقة .

وفد وقفنا عند هيغل هذه الوقفة القصيرة في كلامنا عن ماهية التاريخ لكي نضرب للفارء مثلا من الاختلاف الواسع المدى الذي يمكن ان يقع بين فلاسفة التاريخ حول طبيعة التاريخ ووظيفته ، فان ابن خلدون كما نعلم وضع نظرية دورة العمران ، وقال ان مسار التاريخ دائرة مغلقة سيئة ، لا يزال الانسان يدور فيها حتى يطوى الله الارض وما عليها . اما هيغل فيرى ان هذا المسار نعط مستقيم يبدأ عند البداوة والتوحش ولا بد ان ينتهي يوما ما الى تحرر البشر جميعا ويمشهم في سلام في ظل القانون .

وقد نبعت فلسفة كل من ابن خلدون وهيغل من تجربته الخاصة والطريق الذي سارت فيه تجربة الامة التي انتسب لها ، فقد عاش ابن خلدون في عصر شقي مضطرب ، وتلفت الى وراةه فرأى ان تاريخ امم العروبة يتلخص في سلسلة من التجارب الحزينة الفاشلة ، فسأه ظنه بالدنيا والناس ، وصور تاريخ البشر في هذه الصورة اليايسة ، اما هيغل فقد كتب في عصر وصل الغرب الاوربي فيه الى استقرار نسبي ورخاء وغنى وسيادة ، فامتلات نفسه بالتفاؤل وقال ان الانسانية تسير من حسن الى احسن ، وانها ستصل في يوم ما الى هدفها الاسمي الذي ذكرناه .

وقد كان هيغل يحسب انه قال آخر كلمة في فهم التاريخ وانه وضع يده على الخطة او الخط الذي رسمه الله سبحانه لمسيرة البشر على وجه الارض ، ونسب اليه نفر من خصومه عبارة ساذجة تنطوى على غرور كثير وهي قوله : « عندي ينتهي التاريخ » والحق ان الرجل لم يقل شيئا من ذلك كما اثبتته تلميذه ومجدد فلسفته **فلهلم دلتاي** Wilhelm Dilthey ، وانما زعمه خصومه من الماركسيين ، ومن المعروف ان كارل ماركس واتباعه اجتهدوا في هدم آراء هيغل ، وقد انفضوه لاياماته الشديد بالمسيحية ولناصرته للدول والنظم الرأسمالية التي سادت الغرب في ايامه .

ما هو التاريخ

بعد هذه المقابلة في الراى في علم التاريخ بين اثنين من اكابر فلاسفة التاريخ ، وهي مقابلة اردنا من ورائها ان نستلقت النظر الى صعوبة ادراك حقيقة التاريخ وفائدته تعود فنسأل : ما هو التاريخ ؟

والجواب : هو دراسة الحوادث او هو الحوادث نفسها .

والحوادث جمع حادث ، والحادث هو — من وجهة نظر المؤرخ — كل ما يطرا من تغير على حياة البشر ، وكل ما يطرا من تفسير على الارض او في الكون متصلا بحياة البشر .

والحادث قد يكون مفاجئا كوقوع زلزال يهدم المدن وقد يكون عنيفا مثل قيام حرب وقد يكون بطيئا غير محسوس كعمليات التطور البطيئة التي لا يفتن الانسان الى حدوثها الا على المدى الطويل . ومثال ذلك تطور المرأة العربية وخروجها من عزلة البيت الى الحياة العامة ومساهمتها في كل ميادين

النشاط الاجتماعي والثقافي والسياسي أيضا ، فهذه عملية طويلة بدأت من اواخر القرن الماضي ولا زالت مستمرة الى اليوم . وهي في مجموعها أحداث تاريخي خطير بعيد المدى . وقد يقع الحادث دون ان يفتن اليه احد ثم تتجلى خطورته فيما بعد مثل ميلاد طفل يصبح في يوم من الايام قائدا كبيرا او مفكرا عظيما او سياسيا ماهرا ، اى يصبح من صناع التاريخ .

وسواء اكانت الحوادث صغيرة او كبيرة ، محسوسة او غير محسوسة ، قصيرة الامد او طويلة ، فان الجامع بينها هو ان الحال قبلها يختلف عنه بعد وقوعها ، فالعالم قبل نابليون يختلف عن العالم بعده ، والدنيا قبل الحرب العالمية الثانية تختلف عنها بعدها ، والمفكر الانساني قبل جورج برنارد شو يختلف عنه بعده ، وهكذا ، فالعبرة في الحوادث التي هي مادة التاريخ هي ان تعني تغيرا في الاحوال . سواء اكان هذا التغير كبيرا او صغيرا ، محليا او عالميا ، وحوادث التاريخ اذن هي تغيرات . والحادثة الان هو التغير . واذا نحن اردنا ان نتبين اهمية حادث ما فنحن نقارن الاحوال قبله وبعده . وعلى هذا الاساس فنحن نعتبر ظهور من نسميهم بعظماء الرجال او صناع التاريخ حوادث . فيوليوس قيصر حادث ، وخالد بن الوليد حادث ، والشيوخ محمد عبده حادث ، وهكذا ، وواضح اننا اذا اعتبرنا كلا من اولئك الرجال حادثا فنحن نأخذه في مجموعه وننظر الى حجم التغير الذي احدثه في مسيرة البشر .

ولكننا اذا فكرنا مليا وجدنا ان التغير في حقيقة الامر مستمر وهو لا يتوقف على ظهور اشخاص باعيانهم ، ولا ينتج عن تجميع ظروف تؤدي الى قيام دول او نشوء حروب او وقوع تطورات وما الى ذلك ، بل ان التغير في احوال الارض والناس مستمر منذ ان انشا الله الخلق الى ان يطويه ، واذا نحن اخذنا حقيقة من الزمن من تاريخ امة لاحظنا ان مجرد مرور الزمن يحدث تغيرا الى الاحسن او الى الاسوأ ، ولكنه تغير على اى حال . وهذا التغير يحدث نتيجة لسير الزمن نفسه . فما دامت الشمس سائرة في فلكها ، والارض في مدارها فلا وقوف للتغير . ونحن نحسن في انفسنا ذلك ، فنحن نتفريع مرور الليالي والايام وننتقل من الطفولة الى الشيخوخة دون ان تكون لنا يد في ذلك . ولقد قالت **سيمون دي بوفوار** تلميذة **جان بول سارتر** : ان اقوى عامل في حياتنا هو ذلك الشيء الذي لا يحس ولا يرى ولا يدرك له وزن : الزمن . انني احس الآن بوطائه على كتفي « الحق ان الزمن نفسه هو الحادث الاكبر ، واذا استطعنا ان نتصور ان الزمن يمكن ان يتوقف لرأينا ان الحوادث هي الاخرى يمكن ان تتوقف . والحق ان الشاعر الذي قال :

الليالي من الزمان حبالى

مثقلات بليدن كل عجيب

لم يفتن الى عمق الحقيقة التي توصل اليها في هذا البيت .

فاذا كان التاريخ في حقيقته هو الحوادث ، وكانت الحوادث هي التغيرات ، والتغيرات وليدة الزمان او سير الزمان انتهينا الى ان التاريخ هو الزمان . ويكون ميدان اهتمام المؤرخ على هذا هو دراسة كل تغير طرا على الكون والارض وكان له تأثير على حياة البشر . ثم دراسة كل تفسير طرا على حياة البشر انفسهم ، مهما كان هذا التغير صغيرا او غير ظاهر الاهمية . فالحقيقة انه لا توجد حوادث صغيرة واخرى كبيرة ، لان الحوادث الكبيرة انما هي تجمع حوادث صغيرة بعضها الى بعض في نطاق مكاني وزماني ضيق . وكما ان السيل الجارف ينشأ من تجمع ذرات صغيرة من البخار فان وقوع حرب عالمية مدمرة يكون في الغالب نتيجة تجمع قوى بشرية وتراكمها في دولة

من السدود او اكثر . فيؤدى هذا التجمع الى الاحكامك نم الانفجار ، وكذلك الحال بالنسبة لمن نسيمهم عظماء الرجال ، فهم في ذاتهم لا قيمة لهم الا بالرجال الذين ساروا وراءهم وايدوهم ، وما فيهم نابلون بدون جنوده وما قيمة التنبى بدون قرائه ؟

لقد نبهوا سير التاريخ بسير الماء في مجرى طويل يتسع حيناً ويضيق حيناً ويستقيم حيناً ويتعرج حيناً وينبسط مرة ثم ينحدر في صورة سلالات مرة اخرى، وقد تعترضه الجنادل والصخور ، والماء - الذى هو التاريخ - يسير بحسب حالة المجرى ، فاذا اتسع المجرى انساح الماء وبطأت حركته، واذا استقام انساب الماء فبقا حتى لا تحس بانسيابه ، واذا نرجح لوى معه الماء وتراخى سيره او اندفع بحسب المعرجات ، ونفس هذا الماء الهادئ يتحول الى شلال رهيب فينبص انصباباً يعطم اقصى الصخور اذا انحدر المجرى انحداراً عنيفاً ، واذا احسن التحكم فيه اطلق قوى كهربائية ضخمة من عقابها ، وهذا هو سير التاريخ أو سير الزمان بعصور هدولة وعصور فورانه ، ومصدر القوة والخير والى والكهرباء هو ذلك الماء الهادئ الصامت الذى تخفى منه في كفيك وتنتظر فلا ترى شيئاً ، وهذا هو الزمان الذى شكت منه سيمون دى بوفوار ونعجبت من انه صنع بها ما صنع ومع ذلك فهو لا يرى ولا يحس ولا يدرك له وزن . واذا كان نهر الماء يتكون من سيئين : الماء والمجرى فان نهر التاريخ يتكون من عنصرين : البشر والزمان ، ويضاف اليهما عنصر ثالث وهو المكان .

وفي بداية التاريخ اى في عصور توحش الانسان الأولى ، كان الانسان يعيش تحت رحمة الزمان والمكان . فلما نما ذهنه واتسعت نجاياه بدأ تأمل ما حوله واخذ يحاول التحكم في الزمان والمكان ، ولكي يحى نفسه من عبث الزمان وتحكم المكان تعلم كيف يتخذ اسلحة واكسية ، وسكن المنازل ثم تعلم كيف يبنى الكوخ، وعندما اهتدى الى فضل النار وعرف كيف يوقدها خطا خطوة فسيحها الى الامام ، ثم تعلم كيف يدخر غذاءه ثم كيف ينتج عن طريق الزراعة وهكذا مضى في طريق التحكم في ظروفه الزمانية والمكانية عن طريق التفكير والتجربة ، وعندما فطن الى فكرة الكتابة دخل عصور التاريخ ، لأن الكتابة مكنت له من ان يختزن معلوماته وثمرات تجاربه عن طريق التدوين لينتفع بها فيما بعد .

وهذا الطريق الذى سار فيه الانسان منذ عصور البداوة والتوحش الى عصور الكتابة وما تلا ذلك من عصور هو الذى يسمى بالتاريخ السياسى والحضارى . فاما السياسى فهو جانب الصراع الذى خاضه وبخوضه الانسان لتأمين نفسه ومجتمعه من العدوان الخارجى ثم تنظيم هذا المجتمع على نحو يوفى له اكبر جانب من الامان والرخاء ، واما الحضارى فهو صراعه للارتقاء بنفسه وبمستواه المعاشى من الناحيتين المادية والمعنوية . ومن الواضح ان الجانبين السياسى والحضارى متلازمان ولا يمكن دراسة واحد منهما دون دراسة الآخر ، ولا يمكن الفصل بين التاريخ السياسى والحضارى ، وانما يمكن الاهتمام في بعض المؤلفات بجانب السياسة اكثر من الاهتمام بجانب الحضارة او العكس .

ولماذا ندرس التاريخ ؟

وهذا الكلام يوهى بان ميدان التاريخ هو الماضي وحده او حكاية ما اتقضى وفات وطواه الزمان في سيرة الابد من الاحداث ، وليس هذا بصحيح ، لاننا اذا قلنا ان التاريخ هو نهر الحياة فان هذا النهر متصل السير قبلنا وفي زماننا وبعده زماننا ، واذا كنا عندما نكتب التاريخ فمعنى ذلك اننا نسجل التجربة الانسانية . وهذه التجربة لا زالت سائرة متصلة الحلقات ، والتاريخ على هذا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل معاً، ونحن عندما ندرس الماضي فاننا في نفس الوقت ندرس

الحاضر والمستقبل ، لآنا اذا دققنا النظر تبيننا لشيء في الوجود يتلاشى ويضيع مع الزمن ، وفي علم الطبيعة يقولون ان المادة لا تفنى ، اما في علم التاريخ فنحن نقول ان شيء يزول وزوالا تاما . وانما هي الاشياء نفسها تأخذ مع الايام صوراشتى ، فلو انك نظرت الى صورة نفسك وانت طفل رضيع وقارنتها بصورتك في يومك لهالك الفرق ولحسبت انكما انسانان مختلفان ، والحقيقة ان هذا الطفل هو انت في صورة اخرى والفرق الذى نراه هو فعل الزمان ، ومن هنا فان الذين ينظرون الى كتاب فى تاريخ مصر القديمة مثلا ويحسبون انه تاريخ مضى وانقضى يخطئون ، لأن شعب مصر القديمة لا زال حيا في كيان شعب مصر الراهن ، وحضارتها لا زالت قائمة في الكثير من مظاهر حضارتنا الراهنة ، ونحن العرب أولى من غيرنا بالاحساس بحيوية الماضي ، فان اسماء عمر بن الخطاب ، وعلي بن ابي طالب ، وهارون الرشيد ، وابي بجر عمرو بن عثمان الجاحظ ، اسماء معاصرة تردد في اذهاننا وكلامنا كل يوم ، لآنا نعيش تاريخنا الماضي فعلا . بل ان بعضنا يذهب به الحماس الى درجة انه يؤمن بانه من الممكن ان تعود الى هذا الماضي فنعيثه كما كان .

حفا لقد دخلت الانسانيه كلها طورا من التقدم جديدا من كل ناحية من اوائل القرن التاسع عشر ، وظهرت نتيجة لذلك صور للمجتمع البشرى تختلف كل الاختلاف عن صورته الماضية ، ولكن ليس معنى ذلك ان الماضي قبل ذلك اختفى بحذافيره ، بل لا زال حيا في كل ناحية من نواحي حياتنا الراهنة ، واذا كنا نحن احفاد من عاشوا قبل القرن التاسع عشر نحمل في كياننا الكبير من خصائصهم المعيزة ، بل لا زلنا نتكلم لفنهم ونؤمن بنفس العقائد التي آمنوا بها ، فان كل معالم حياتنا هي ايضا حفيدة معالم حضارتهم ، وان اختلفت المظاهر لان الماضي لا يموت ، او قل انه ليس هناك شيء ماضى تماما .

نم اين هو الفاصل بين الماضي والحاضر والمستقبل ؟ انك لا تكاد تفكر في لحظة « حاضرة » حتى تجد انها قد اصبحت ماضيا في طرفة عين ، وهذه السطور التي تقرأها الآن ماضية بالنسبة لي ، لأنني كتبتها من زمن ، ولكنها « حاضرة » بالنسبة لك لانك تقرأها اول مرة وهي « مستقبل » لن سيقراها في قابل الايام ، والمسألة هنا مسألة نسبية تختلف من انسان لانسان ، بل يختلف الحكم عليها بحسب اختلاف حالة الانسان نفسه من زمان لزمان ، وقد قالت بهذا مدرسة كاملة من مدارس المؤرخين المعاصرين وهي مدرسة التسيبيين . وستتقف عندها فيما بعد وقفة طويلة بعض الشيء .

وعلى هذا فالمؤرخ ليس ذلك الرجل العنيق الطويل اللحية الفارق في غبار الماضي ولا هو ذلك الشيخ الذى حنت ظهره السنون التي قضاها زاحفا بين الاسفار العتيقة والاضابير المترامية في كهوف المكتبات ، وانما هو على العكس من ذلك تماما ، انه دارس حياة البشر كلها قديمها وحديثها ومستقبلها ، وهو يدرس الماضي ونظرة متجهة الى المستقبل ، بينما تقف اقدامه ثابتة على ارض الحاضر ، وهو يعتبر تاريخ الانسانية كلها تجربة واحدة بداها آدم وسار فيها اولاده ، وهو يربقها ويحللها ويستخرج حقائقها لعله يخرج بشيء من الحكمة ينفع الانسانية في تجاربها الكثيرة . واذا ن فالمؤرخ ليس مسجل احداث الماضي فحسب ، بل هو رفيق الانسانية في حاضرها وهو من قادة الانسانية في سيرها الطويل نحو الغد .

ومع هذا الجهد الذى يبذله المؤرخ لينير لآخوانه البشر الطريق - مثله في ذلك مثل غيره من اهل العلوم النافعة - فقد تعرض المؤرخون دائما للتقذبل للسخرية . وفي ايماننا هذه يلاحظ

بصورة عامة انصراف الكثيرين من اذكىء التنباه عن دراسة التاريخ على اعتبار انها دراسة عقيمة لا ينحقق من ورائها نعم واضح، الا اذا كان الغرض من دراسته الاشتغال فيما بعد بتدريسه في المدارس او التخصص فيه في الجامعات . ومن هنا فانه يلاحظ تضخم اقسام التاريخ في جامعات البلاد الفقيرة لان ذلك طريق سهل نوعا للحصول على درجة جامعيه تفتح امام صاحبها ابواب التدريس ، وهو عمل مطلوب دائم ومأمون رغم قلة مكاسبه . اما في البلاد الميسورة الحال او الفنية فان الطلاب ذوي الحس التاريخي يتجهون الى دراسة علوم متصلة به ، ولكنها تفتح سبيلا اوسع للعمود الاجتماعى كالعلوم السياسية والاجتماع .

ونحن الذين ندرس التاريخ نجد انفسنا في احيان كثيرة مضطرين الى الدفاع عن العلم الذى نخصصنا فيه وتبرير اشتغالنا به ، لان الكثيرين من الناس لا يزالون مثل **دوق كامبرلاند** الذى مر بالمؤرخ المشهور **ادوارد جيون** وهو غارق في العمل في كتابه عن اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها فقال له ساخرا : ما اراك الا منصرفا ما تزال الى الحرفة القديمة : تنبشتم نبشتم تنبشتم تنبشتم (١) .

وقد تصدى **شمس الدين السخاوى** (٨٣١ - ٩٠٢/١٤٢٧ - ١٤٩٧) للرد على خصوم التاريخ في كتابه المعروف « التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ولكنه هو نفسه لم يعرف كيف ينصفهم، لان السخاوى لم يكن مؤرخا او صاحب ملكة تعينه على ادراك حقيقة التاريخ ، انما كان السخاوى حافظا اقل راسه يحفظ عشرات المجلدات ، فغلبت على ذهنه الملكة الواعية على الملكة المفكرة ، وتلك ظاهرة نلاحظها عند الكثيرين من الحفاظ الذين حولوا اذهانهم الى مكاتب متنقلة وتمطعت عندهم ملكة التفكير والتأمل ، ومن هنا فان مفهومه للتاريخ ضيق جدا بل يخلو تماما من الحس الانساني والحضارى ، فالتاريخ عنده « في الاصطلاح التعريف بالوقت الذى تضبط به الاحوال من مولد الرواة والائمة ووفاة صحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتدقيق وتجريح ، وما اشبه هذا مما مرجعه الفحص عن احوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ، ولتحقق به ما يتفق في الحوادث والوقائع الجليلة ، من ظهور مملكة ، وتحديد فرض ، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من مغلب عليه وانتقال دولة ، وربما يتوسّع فيه لبند الخلق وقصص الانبياء ، وغير ذلك من امور الأمم الماضية ، واحوال القيامة ومقدماتها كما سيأتي ، او دولها كبناء جامع او مدرسة او قنطرة او رصيف او نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد ، او خفي سماوى كجراد وكسوف وخسوف ، او ارضي كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان وغيرها من الآيات العظام والمعجائب الجسم . والحاصل انه فن يُبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت . بل عما كان في العالم » .

وهذا في رايانا اضعف ما يمكن ان يقال في التعريف بالتاريخ ، فهو سقيم سطحي من كل ناحية ، بل ان اسلوبه ردى غير متماسك .

وفي كلام السخاوى عن « فائدة التاريخ » نجده يحدد افق هذا العلم الى درجة انه يجعله علما فرعيا مساعدا لعلم الحديث وجعل مزيته الكبرى تحقيق سنوات ميلاد الرواة ووفاتهم حتى

نتأكد من امكانية لقاء بعضهم ببعض ورواية بعضهم عن بعض . ومدار كلامه في هذا الشأن قول **سفيان الثوري** : لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ .

ثم ذكر السخاوي بعد ذلك فوائد شتى تدل على انه هو نفسه كان بعيدا عن ادراك حقيقة التاريخ والالام بفضل الله . فهو يرى فيه اولامقياسا للتحقق من صحة رواية الناس للاحداث بعضهم عن بعض . ثم يرى فيه ثانيا موضعا للعبرة : « وكذا ما يذكر فيه من اخبار الملوك وسياساتهم ، واسباب مبادئ الدول واقبالها ، ثم سبب انقراضها ، وتدبير اصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الاحوال التي يتكررمثلها واشباهها في العالم ، غزير النفع كثير الفائدة ، بحيث يكون من عرّفه كمن عاش الدهر كله ، وجرب الامور بأسرها ، وبأثر تلك الاحوال بنفسه ، فيغزو عقله ويصير مجربا غير غرولا غمر ، كما سيأتي في نظم بعضهم » وانه ايضا جم الفوائد كثير النفع لذوي الهمم العالية والقرايح الصافية ، لما جبلت عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الاخبار الى التشبّه والاقتداء باربابها . ليصير لهم نصيب من حسن التناء وطيب الذكر الذي حرص عليه خلاصة البشر ، واخبر الله تعالى عن امام الحنفاء الخليل عليه الصلاة والسلام انه قال : « واجمل لي لسان صدق في الآخرين (الشعراء ٨٤) وامتن على غير واحد من رسله عليهم الصلاة والسلام بقوله « وتركنا عليه في الآخرين » (الصافات ٧٨) وعلى خيرته من خلقه عليه افضل الصلاة والسلام بقوله : « ورفعنا لك ذكرك » (الشرح ٤) و « انه لذكر لك ولقومك » (الزخرف ٤٤) .

ولكننا نحمد للسخاوي انه جمع في « الاعلان والتوبيخ » طائفة من احسن ما قال العرب في التاريخ . وكلامهم في مجموعه لا يخرج عما ذكرناه من فضائل التاريخ عند كتاب المسلمين وهي انه يساعد على تحقيق تواريخ ميلاد الرواة ووفاتهم ، فيعين هذا على التثبت من صحة رواة الحديث او عدم صحتهم ، ويقدم لنا مادة نافعة في تفسير القرآن الكريم ، ثم هو الى جانب ذلك حافل بالعبر والمواظ ، اى ان للتاريخ في الجملة فائدتين رئيسيتين : الاولى دينية والاخرى تعليمية . وهناك على اى حال اجماع بين قدامى المؤرخين ومحدثيهم من القيمة التعليمية للتاريخ .

ذم التاريخ واهله

ونحمد للسخاوي ايضا انه اتانا باطراف ماقال خصوم دراسة التاريخ من كتاب المسلمين ، وقد اشرنا الى ما ذهب اليه بعض اهل الغرب من عقم الدراسة التاريخية وقلة جدواها ، ونضيف هنا ان سجل تاريخنا الفكري لم يخل ممن راوا في دراسة التاريخ هذا الراى وقالوا فيها (ان غاية فائدتها انما هو القصص والاخبار ، ونهاية معرفتها الاحاديث والاسمار . ومنهم من نسب بعضهم الى القصور ، حيث لم يتعرض للجرح وضده ، مع كونه اعظم فوائده ، ولا على اخبار الائمة والزهاد والعلماء الذين بذروهم تنزول الرحمة ، ولا على شرح مذاهب الناس مع عموم الحاجة اليه ، بل اقتصر على الحروب والفتوحات ونحوها ، مع ان من اتصف بعلم انه ليس من العلم فتح البلد الفلاني في سنة كذا ، ولا ان عدد الجيش كان كذا) .

« ومنهم من نسب المتعرض منهم للتجريح في الازمان المتأخرة الى ارتكاب المحرم لانه غيبة ، وان الاخبار المرخص له من اجلها قد دونت وما بقي له فائدة ، ومن صرح بهذا **ابو عمرو بن الربيع** ، وقال ان فائدته انقطعت من رأس الاربعائة ، ودندن هو وغيره ممن لم يتدبر مقاله بعيب المحدثين بذلك ، وصرح بعضهم بان ما يقع في كلام جماعة من المتأخرين القائلين بالتاريخ وما

اشبهه كالدهبي ثم شيخنا من ذكر المائب - واوكان المعاب من اهل الرواية - غيبة محضه . ونحوه معتقب التقي ابن دقيق العيد بن السمعاني^(٢) في ذكره بعض الشعراء وقدح فيه بقوله : اذا لم يضطر الى القدح فيه للرواية لم يُجْزَ » .

« ومنهم من نسب بعضهم (اى بعض المؤرخين) الى التقصير والتعصب . حيث لم يستوعب القول فيمن هو منحرف عنهم ، بل يحذف كثيراً من ثناء الناس عليهم ، ويستوفي الكلام فيمن عداهم غير مقتصر عليهم . »

« ومنهم من الحامل له على الدم مجرد الجهل ، فاما الاول ، فلا شك في تحريم الاقتصار عليه حسبما قرناه ، واما الثاني فقد رواه ابن الاثير بما حاصله انه ظنُّ من اقتصر على القشر دون اللب ، واختصر فلم ينظر ما فيها من الجواهر لما عنده من التعصب . ومن رزقه الله تعالى طبعاً سليماً وهذه صراط مستقيماً علم ان فوائده كثيرة ومنافعه الدنيوية والاخرية - يعني كما قدمننا - جمة غزيرة » .

« واما الثالث فليس الاقتصار على ما ذكر نقص ، فالمؤرخون مقاصدهم مختلفة ، فمعهم من اقتصر على ذكر الابتداء ، او على الملوك والخلفاء ، واهل الاثر يؤثرون ذكر العلماء والزهاد ويحيون احاديث الصلحاء ، وارباب الادب يميلون الى اهل العربية والشعراء » .

« ومعلوم ان الكل مطلوب والجميع محبوب وفيه مرغوب ، وكل من التزم شيئاً فالغالب عدم خروجه عن موضوعه وان لم يمكنه الاستيفاء لمجموعه ، والسعيد من جمعه في ديوان وأودعته من غير كبير خلل ولا نقصان والكمال لله » .

« واما الرابع فقد اجبناهم بأن الملحوظ في توسيع ذلك كونه نصيحة ولا انحصار لها في الرواية^(٣) . فقد ذكروا من الاماكن التي يجوز فيها ذكر المرء بما يكره ولا يعد ذلك غيبة ، بل هو نصيحة واجبة ان تكون للمذكور ولاية لا يقوم بها على وجهها ، اما بان لا يكون صالحاً لها ، واما بان يكون فاسقاً او مفلاً او نحو ذلك ، فيذكر ليزال بغيره ممن يصلح ، او يكون مبتدعاً من المتصوفة وغيرهم ، او فاسقاً ويرى^(٤) ان يتردد اليه للعلم او للارشاد وبخاف عليه عود الضرر من قبيله ، فيعلمه ببيان حاله . و يلتحق بذلك المتساهل في الفتوى او التصنيف او الاحكام او الشهادات او النقل او الوعظ حيث يذكر الاكاذيب وما (لا) اصل له على رؤوس العوام ، او المتساهل

(٢) في الاصل الذى نشره د . الصالح العلي وردلفظ ابن بدون الف مما يفهم منه ان تقي الدين بن دقيق العيد اترك على ابن السمعاني وهو غير صحيح . والصحيح كما اعتقد ان تقي الدين بن دقيق العيد اترك على ابن السمعاني قدحه لبعض الشعراء ويرى ان هذا القدح لا يجوز ، لان القدح لا يجوز الا اذا كان نقداً لرواية من رواية الحديث غير المؤثري فيهم .

(٣) يريد ان يقول انه بين ان المهم في اباحة نقد الناس وتجريحهم ان يكون ذلك على سبيل النصيحة والتحذير والتنبيه ، لا ان يكون مجرد دم وتجريح ، ومواطن النصيحة فيما يتعلق برواية الاحاديث كثيرة لا تحصر .

(٤) الفاعل هنا هو المؤرخ .

※ ساقطة من الاصل والسيال لا يستقيم بدونها .

في ذكر العلماء او في الرشي او الارتساء ، اما بتعاطيه له او باقراره عليه مع مدرته على منعه ، او اكل اموال الناس بالحيلة والافتراء ، او الفاصب لكتب العلم من ادبائها او من المساجد بحيث تصير ملكا ، فضلا عن الاوقاف التي لاحقيقة للمسوغ فيها ، او غير ذلك من المحرمات . فكل ذلك جائز او واجب ذكره لينحذر ضرره . وبهذا ظهر ان الجرح لم ينقطع ، وانه والحالة هذه من النصيحة الواجبة المناب فاعلمها ، وقد قال من لم يشك في ورعه **الامام احمد لابي تراب النخشي** حين عزله علي (٥) الجرح بقوله « لا تغتب الناس وبكح » : هذه نصيحة وليست غيبة » (٦) .

ولا ينبغي ان تطول دهشتنا من طول وقوف السخاوى عند موضوع الغيبة ، لان نقد رجال الحديث الى روايته وهو المسمى بالجرح والتعديل كان يقوم على اصدار احكام على الرواة ، فهذا صدوق وهذا عدل او من اهل الضبط والتحرى ، وذلك كذاب او مدلس او فاسق او ضعيف او متروك . وكانوا قليلا ما يمتدحون احدا ، الكثير من كلامهم نقد وتجريح واتهام لاسباب شخصية في الغالب . وقل من سلم من لسانهم ، ولهذا ذهب اهل المصادق منهم الى تحريم مل هذا التجريح للناس وقالوا انه غيبة ، واباحه بعضهم كما رأينا هنا على انها نصيحة . الامر في ذلك مقتصر على اهل الحديث ، ورواة الاخبار المتعلقة بالسيرة والصحابة ، ومن هنا فهو لا ينطبق على المؤرخين عامة ، ولا يمكن بداهة ان يرمى المؤرخ بالغيبة لانه نقد هارون الرشيد او المأمون او ابن طولون او نابليون فذلك موضوع آخر يختلف تماما عما كان يدور في اذهان السخاوى وامثاله من الشيوخ .

وقد كتب في علم التاريخ وفوائده كثيرون من المسلمين ، ومعظم كلامهم يجيء في فوائح كتبهم على سبيل التمهيد او على سبيل تبرير اشتغالهم بالتأليف في هذا العلم او اعتذارهم عن انفاق الوقت فيه ، اذ كان التاريخ في حسابهم من « الفنون » اى العلوم الفرعية او الثانوية المحدودة النفع ، ومن لم فلا محل لانفاق الوقت فيها فيما خلا ما يمكن ان ينفع المحدث او مفسر القرآن من تفاصيل تاريخية . ولكن كل كلامهم في تعريف التاريخ او مفهومه او فوائده او تقسيمه لا يخرج عما اورده السخاوى ، وهو كلام ، كما رأينا ، بعيد عن ادراك حقيقة هذا العلم او موضوعه او مقاصده كما نراها اليوم ، ولكنه كلام يتفق مع عقلية العصور التي كتبت فيها ومفهوم العلم كله في نظر اهلها ، ونستثنى من ذلك ابن خلدون ، فقد كان بالفعل مفكرا سابقا لاوانه ، وعالما من طراز نادر في تلك العصور .

ضرورة الدراسة التاريخية واهميتها وفوائدها

من اواخر القرن الثامن عشر كثر في الغرب التأليف في علم التاريخ وموضوعه ومناهجه وتفسيراته ومذاهبه . وظهرت من ذلك الحين نظريات وآراء كثيرة جدا في هذه الموضوعات . وسنعرض لاهم هذه النظريات والآراء في فقرة خاصة من هذا البحث . ولكنني اورد هنا ترجمة

(٥) الاصل : عن ، والسياق يقتضي ابدالها بعلى .

(٦) شمس الدين السخاوى ، « الاعلان بالتوبيخ لمن اهل التاريخ » نشره ضمن ترجمته العظيمة القيمة لكتاب تاريخ التاريخ منذ المسلمين . وقد اتي د . صالح العلي في ترجمته بكل النصوص التي رجع اليها المؤلف وهو فرانس روزنتال . ص ٢٩٢ .

لفقره من أهم فترات دراسة جامعة مختصرة ضمنها المؤرخ الإنجليزي آرثر مارفيك Arthur Marvic في كتابه المسمى « طبيعة التاريخ The Nature of History » (٧) وهو من الكتب الدراسية الجامعية المعتمدة Text-Books الواسعة الانتشار في جامعات أوروبا وأمريكا وهو يمتاز بالإيجاز والشمول والوضوح . والفقره تتناول ضرورة الدراسة التاريخية وأهميتها . قال بعد بمهيد صفر (ص ١٤ وما يليها) : « وأذن فالتبرير الأساسي للدراسة التاريخية هو أنها ضرورية . فهي تسد حاجة غريزة انسانية أساسية تفي بحاجة أصيلة من حاجات البشر الذين يعيشون في المجتمع » .

« وضرورة التاريخ لها وجهان ، فالتاريخ يقوم للإنسان والجماعة البشرية بوظيفة فعلية functional بمعنى انه يسد حاجة المجتمع الى معرفة نفسه ورغبته في ان يفهم علاقته بالماضي وعلاقته بالمجتمعات الأخرى وثقافتها ، وهو - أي التاريخ - شاعري أو عاطفي Poetic بمعنى ان كل فرد تقريبا يضم في كيانه تطلعا مركبا في طبعه وشعورا بالعجب من أمر الماضي ، وهذا التطلع هو وعيٌ عبر عنه **جسورج ماكولي تريفيان** George Macaulay Trevelian بقوله : « انه وعي الى حقيقة كانتا عجيبة وهي انه في وقت مامشي قبلنا على ظهر الأرض رجال ونساء ، ناس حقيفون مثلنا اليوم ، تشغل أذهانهم أفكارهم الخاصة بهم وتحركهم عواطفهم الخاصة بهم ، وان هؤلاء الناس قد مضوا جميعا الى سبيلهم ، واختفى جيل منهم في اثر جيل وانتبوا تماما كما سنختفي نحن ايضا في القرب كما لو كنا أشباحا في ظلام الفسق » . ففي أعماق الخيال الانساني ترقد رغبة غريزية في تحطيم حواجز الزمن والموت ومنه حدود الوعي الانساني بهذه الطريقة الى ما وراء عمر الإنسان الواحد (٨) . وهذه الغريزة شبيهة بهذا الشعور الذي يملأ نفس الإنسان في ايام الخريف عندما يحس برائحة دخان الخشب تملأ الهواء من حوله ، وعندما يجتاح الدهن شوق غريب مضطرب ، وهذه الغريزة شبيهة ايضا بالأحاسيس التي يثيرها في النفس رنين اجراس الكنائس في صباح يوم أحدٍ ساكن (٩) .

« وسواء اكان المؤرخ يهتم أكثر بالناحية الشاعرية او العملية من التاريخ فانه يخدم حاجة انسانية ، واذا هو قال - كما لا يزال الكثيرون من المؤرخين يقولون - انهم انما يدرسون الماضي لذاته فهو اما ان يكون مؤرخا جيدا يؤمن من زمن طويل بالحاجة الواضحة لدراسة التاريخ ايمانا كاملا ، وسلم بها كما هي ، او يكون مؤرخا سيئامن طراز خاص . وحال المؤرخ في هذا شبيهة

(٧) طباعته الزهيدة الثمن كثيرة أهمها طبعة دارماكميلان ودار بنجوين ، ونحن نتابع هنا طبعة ماركملان سنة ١٩٧٠ .

(٨) May Mackisack, History as Eudcuation (1956), p. 10.

(٩) G. J. Renier, History, its purpose and method (1950) p. 29.

والتشبيهان يشيران الى تطلع الإنسان الى تعرف ما حوله واحساسه وهو في وحدته بان هناك اناسا كثيرين يعيشون بعيدا عنه دون ان يراهم ، وهم الذين يوقدون النار فينبعث منها الدخان الذي يصل اليه ، وهم الذين يدقون اجراس الكنائس فتنترامى اليه اصواتها وهو قابع في بيته . هذه الاحاسيس تشبه احاسيس الإنسان نحو الاجيال الماضية التي ذهبت وخلقت لأبدا . وهذه الآثار تثير في نفسه التطلع الى معرفة أخبارها وما فعلت .

بحال الفنان ، ففي احيان كثيرة تتجلى لنا الحقيقة التي تقول بأنه على قدر ما يقل شعور المؤرخ بأهميته في المجتمع تزداد قدرته على القيام بواجبه كمؤرخ ، وهو تشبيه بالفنان في انه يكون فنانا حقا عندما يترك جانب الاهتمام الظاهر بالفايات التي يتوخاها من وراء عمله . فان المجتمع يحتاج الى التاريخ لا الى المؤرخ ، والمؤرخ الذي يحس أكثر مما يجب بحاجة المجتمع اليه قد يكتب (نتيجة لهذا) تاريخا سيئا ، لأنه على الرغم من ان التاريخ له ذلك العنصر الاجتماعي القوي الخاص به الذي يعتبر تبريرا لوجوده فإنه يشترك مع غيره من العلوم الانسانية في انه جزء من الهجوم العام الذي يقوم به الانسان على المجهول الذي لم يكشف النقاب عنه بعد . والمؤرخ شريك في صراع الانسان ليفهم بيئته من النواحي الطبيعية والزمنية والاجتماعية . فالتاريخ اذن - بالإضافة الى المبررات الأساسية لدراسته والخاصة بهذه الدراسة - له نصيب في المبرر العام لكل نشاط ذهني يرمي الى توسيع آفاق العلم الانساني (وليس من الضروري ان يكون هذا الدافع الى دراسة التاريخ اقوى من الدوافع التي يمكن ذكرها فيما يتصل بمبادئ أخرى من الجهد الانساني) .

» وما ذكرناه هنا ان هو الا تبرير بدائي جدا لدراسة التاريخ ، وهو ليس التبرير الذي يتقدم دائما او في غالب الحالات ، ولكن قبل ان نحاول ان ندلل على ان كل التفسيرات الاخرى هي في صميمها تفسيرات فرعية او مصاحبة للتبرير الاساسي قد يكون من المفيد ان نذكر هنا تحديدا او تحديدين ، فان لفظ التاريخ يستعمل عادة في ثلاثة مستويات من المعاني : الاول : ان التاريخ يمكن ان يعرفنا (بماضي البشر كله كما يحدث) . ولا شك ان الحياة تكون ايسر اذا نحن استطعنا ان ندع هذا التعبير جانبا ونأخذ بدلا منه لفظ « الماضي » الذي يحمل في طياته أكثر من معنى . ولكن اللقطة ملك للجميع ، وهي احيانا تفهم فهما خاطئا او يستعملها الناس استعمالا سيئا ، ولكن لا يمكن ان يكون استعمالها وتفسيرها تحت رحمة جماعة الاكاديميين المتحذلقين (١٠) . وحتى اولئك العلماء الذين اعلنوا على الملأ انهم كفوا عن استعمال لفظ التاريخ في هذا المعنى سيجدون انفسهم في مرحلة ما من مراحل عملهم يخونون انفسهم ، لأنه من العسير جدا ان يتجنب الانسان استعمال عبارات ثقيلة الوزن مثل قولنا : ليس التاريخ من عمل شخصيات الأبطال او « لقد حان الوقت لأن نتخذ من التاريخ ذخرا » .

» والاستعمال الثاني والاكثر فائدة هو ان التاريخ يعني أيضا محاولة الانسان وصف الماضي وتفسيره ، وهو - كما قال الاستاذ باراكلاف Barraclough - « المحاولة التي لبذل للكشف عن الاشياء المهمة في الماضي على اساس من شواهد جزئية ماضية » . وهذا هو التاريخ الذي نعنيه عندما نتحدث عن التاريخ كضرورة اجتماعية اوعن التاريخ كصناعة (١١) وهذا هو اقرب المعاني الى المفهوم الاصلي للفظ التاريخ عند الاغريق وهو « الاستعلام او الاستفهام » . وواضح ان بعض محاولات الكشف او الاستعلام أكثر توفيقا من غيرها ، وقد اعطت بعض عصور التاريخ أهمية لسائل نضعها نحن الآن في نطاق الخرافات والاساطير و نجعلها موضع مناقشة . اننا نستطيع

(١٠) يريد ان المؤرخ لا يستطيع في كثير من الاحيان مغالبة التحذلق والادعاء بأنه يعالج بعلم التاريخ قضايا خطيرة مثل أهمية الأبطال في صناعة التاريخ او ان الألوان قد أنليت بين الناس ان التاريخ كنز من كنوز المعارف .

(١١) بالانجليزية history being an industry وستتحدث من هذه النقطة فيما بعد .

ان نستمتع او نستفيد من مؤلفات تاريخية ظهرت على طول تاريخ النشاط الادبي الانساني مثل مؤلفات **توكيديد** Thucydides (١٢) او **سوما تشين** Ssuma Chien (١٣) او **بيد** Adam Bede (١٤) او **ماكيا فيلي** Machiavelli (١٥) ، ولكننا ينبغي ان نلاحظ ان الدراسة المنهجية للتاريخ ، اى دراسة التاريخ كعلم discipline (وهذا هو الاستعمال الثالث للتاريخ) ظاهرة حديثة تقرر في جامعات غرب اوروبا وشمال امريكا في القرن التاسع عشر فقط متأخرة بذلك تأخرا كبيرا عن دراسات الفلسفة واللغات القديمة والرياضيات والعلوم الطبيعية (١٦) . وفي كتابنا هذا سنهتم بصورة خاصة بتطور الدراسات التاريخية الحديثة ، ولكننا سنتعرض لموضوع هام وعسير ومثير للجدل في نفس الوقت هو موضوع النزاع بين من يعتبرون التاريخ علما اكاديميا - يميل الى التعامل والتفهيقي في احيان كثيرة - . والقاتلين بأن التاريخ انما هو وجه اساسي من وجه التجربة الانسانية .

« وما دمنا قد عرضنا للمعاني الثلاثة التي يستعمل التاريخ فيها فان الوجوه الثلاثة التي يستعمل فيها لفظ « التاريخ » لا تبدو غير ذات معنى كما قد يظن ولو انه ربما بدا محيرا في بعض الاحيان .. » .

(١٢) يمكن كتابة اسمه ايضا توسيديد بحسب النطق الفرنسي لعرف C اليوناني واللاتيني . هو اكبر المؤرخين اليونان وقد عاش في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد وهو مشهور بالتاريخ الذي كتبه للحروب البوليونيكية التي شبت بين المويلات الاثينية على ايامه ، وقد بدأت سنة ٤٣١ ق . م . وكانت السن قد تقدمت به اذ ذاك فكتبه الى اهميتها وتوقع ان تكون طويلة المدى وشرع في كتابتها . وترجع اهمية كتاب توكيديد الى انه يصف الحرب التي شنتها اثينا وحلفائها ضد اسبرطة التي كانت تسود بلاد الاغريق الى ذلك الحين بفضل اللوحات العسكرية ولعمتها من انقاذ بلاد اليونان من اجتياح الفرس اياها وانتصار اثينا وديموقراطيتها بفصل رجال من امثال بيريكليس وديموستين . والكتاب حافل بالملاحظات ذات العمق والصدق ولهذا يعد توكيديد تاليا لهيرودوت في اشاء علم التاريخ عند القريين .

(١٣) صو ما - شين Ssu-Ma Chien ولد فيما بين ١٤٥ و ١٢٥ ق . م . وتوفي ٩٠ ق . م . اكبر المؤرخين الصينيين القدماء وهو مشهور بكتابه المسمى شيه - تشي Shih-Chi اى سجلات المؤرخ وقد اتمه بعضهم بعد وفاته في سنة ٩٠ ق . م . وقد عاش في بلاط الامبراطور (دو) من اسرة هان Han . وكتابه يغطي ٢٠٠٠ سنة من تاريخ الصين من بدايته الى حياة المؤلف وقد جرو صو - ما في اواخر ايامه على الدفاع عن قائد مفصوب عليه لعاقبه الامبراطور بخصامته . وكانت عادة الناس ان من جرى عليه هذا العقاب الشنيع ينتحر بعده ، ولكن صو ما فصل الحياة على الموت حتى يفرغ من تاريخه . وهو يهتم اهتماما خاصا بتراجم الرجال وما اثر عنهم من الاعمال والاوال الحكيمة .

(١٤) آدم بيدد Adam Bede ليس من المؤكد ان اسمه آدم ، ولقبه يكتب احيانا Baeda او Beda وهو راهب انجليزى عاش فيما بين سنتي ٦٧٢ (او ٦٧٣) و ٧٣٥ وكتب باللاتينية كتابا في التاريخ الكنسي للشعب الانجليزى Hrologium Ecclesiastica Gents Anglorum وهو من اقدم المؤلفات في تاريخ إنجلترا ولهذا يلقب بيدد بابي التاريخ الانجليزى ، وهو من اوائل العلماء في التاريخ الانجليزى كله وله ففصل كبير في نشر المذهب الكاثوليكي في الجزر البريطانية .

(١٥) هو نيقولو مكيا فيلي Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) مفكر وفيلسوف سياسي ايطالي من اهل فلورنسا ، وهو مشهور بكتابه المسمى « الامير » الذي يرشد الامراء فيه الى اسرار السياسة ، والسياسة عنده انتهائية لا ضمير لها ولا اخلاق فيها ، وقد وصف مكيا فيلي بانه خبيث ووصولي مع انه في الحقيقة كان رجلا سليم الطوية ، ودليل ذلك انه فشل في ميدان السياسة ولم يصل الى شيء يذكر .

(١٦) الحكم هنا ينصب فقط على الغرب اما بالنسبة للعرب فان التاريخ كعلم كان مقرا ومعترفا به وكان يدرس ويدرس منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي لضرورة تفهيم القرآن والحديث ومعرفة رجال السنن .

« وعندما نتحدث عن فلسفة التاريخ تطفر امامنا صعوبات اخرى متصلة بالتحديد او التعريف . وهذا الاصطلاح « فلسفة التاريخ » يمكن ان تكون له ثلاثة معان رئيسية .

فاما المعنى الاول فهو ان فلسفة التاريخ تعني بالنظريات العالية المستوى الخاصة بالتغيرات التحتية او القوى الاساسية للتاريخ باعتباره حقيقة موضوعية (هي الماضي) .

« وهناك معنى ادنى من ذلك لفلسفة التاريخ وهي انها تصف لنا النظرة العامة الاساسية والمفاهيم الاساسية ايضا التي يأتي بها مؤرخ أو تأتني بها مدرسة من المؤرخين متعلقة بالمشاكل التاريخية التي يعالجونها متضمنة النظريات الخاصة بتعليل الحوادث أو مفهوم التقدم وما الى ذلك » .

« واخرا من الممكن ان يستعمل مصطلح فلسفة التاريخ مرادفا على وجه التقريب للمنهج التاريخي historical methodology أى العملية الفعلية التى يسلك المؤرخ فى شعابها » .

وحيث اننا لا نستطيع من الناحية العملية ان نقول : « ان هذه الكلمة سيكون لها هذا المعنى ولا معنى غيره » فانه من المهم دائما ان نتأكد من المعنى الذى نريده ونميزه عن غيره . ومن سوء الحظ ان كثيرا من المصطلحات التى تستعمل فى علم اصول التاريخ او مراجعته المسمى باسم historiography او فى الصور المختلفة لفلسفة التاريخ مصطلحات مبهمه يحمل الواحد منها اكثر من معنى . ومن الامثلة البيئة لذلك هذا المصطلح الهجين historicism (بالبرية : الفكر التاريخي) وقد نشأ هذا المصطلح فى ألمانيا Historismus اشتقاقا من اللفظ الإيطالي storiciemo وسنحاول فيما بعد ان نقدم مصطلحات بديلة له ولكن خيرا نفعله به الآن هو ان نتجنب استعماله » .

« ويلدب نفر قليل من المؤرخين الى ان الدراسة التاريخية ينبغي ان تطلب لذاتها ، ولما تبعته فى النفس من متعة ، وليس فى ذلك غرابة فقد قال الرياضيون وعلماء الكيمياء الحيوية والمثاليون ذلك عن ميادين نشاطهم ، ويمكن من ناحية ان تعتبر مسألة المتعة فى الدراسة التاريخية تابعة للنقطة الاساسية المتعلقة بشوق الانسان الفريزى الى التاريخ ، وهو شوق يحس به فى اقوى صورة طالب التاريخ للترحم به (سواء كان محترفا او غير محترف) ومن ناحية اخرى يمكن ربط هذه المتعة بالبدا القائل بان الشيء الذى يعطى المتعة للفرد يمكن ان يكون مفيدا من الناحية الاجتماعية أى مفيدا للجماعة . وقد لجأ عدد قليل جدا من المؤرخين عندما ارفعهم التساؤل عن فائدة التاريخ الى الكار وجسود أى فائدة فى دراسته . ولكننا اذا تمسكنا بالرائى القائل بان التاريخ يدرس لذاته كما ان المعرفة تطلب لذاتها فاننا فى هذه الحالة تكون قد قلنا كل شيء او لم نقل شيئا على الاطلاق . فان المعرفة اذا لم تنقل من انسان الى انسان فان دراسة التاريخ لا تكون لها فائدة البتة (١٧) اما اذا نقل العلم من انسان الى انسان فان ذلك يحقق هدفا انسانيا واجتماعيا . وعلينا ان نقارن ونقابل بين الخدمة التى يؤديها التاريخ وما تؤديه الفروع الاخرى من النشاط الفكرى . وعندما يقوم اهل التاريخ بتلك المقارنة فانهم يهتمون بابرار الناحية التعليمية من التاريخ كوسيلة لتعريب الذهن او كدليل عملي على تشابه مشاكل المجتمع الانساني ومعضلات

(١٧) أى اننا اذا كنا ندرس العلم لذاته ونطلب المعرفة ارضاء لفضولنا فحسب دون ان نعنى بنقل ما نتعلم الى الناس فان دراسة التاريخ تظل قهرا على اصحابها ولايتأتى منها أى نفع للآخرين .

السياسة . والمشكلة فيما يتعلق بالقول بأن الاشتغال بالتاريخ فيه تمرين للذهن هو أنه يتوقف كثيرا على درجة الحزم او التركيز التي يلتزمها القائم بالدراسة التاريخية ، ثم انه يصعب تطبيقه على أولئك الذين لم يتسبق لهم الا معرفة عابرة بمؤلف او مؤلفين من المؤلفات الكبرى في التاريخ» .

« ان من يقوم بدراسة تاريخية مركزة مكيفة سيجد دون شك ان ذهنه قد تحسن بذلك . وفيما يتعلق بالحالة الخاصة للتاريخ فمن المعروف الشائع ان دراسته احسن صور التعليم الحر . وقد تعرضت هذه العبارة للمبالغات من جانب من يتناولون التاريخ على سبيل الهواية . والمتنفعين بالادب التافه ، وذلك لا مبرر له ولا معنى على الاطلاق ، اما اذا اريد من وراء دراسة التاريخ ان نفهم الانسان من شتى نواحيه المختلفة فان دراسة التاريخ تصبح عنصرا مصاحبا او مكملا لرأى الذين يبررون دراسة التاريخ فانها وسيلة ضرورية لتذكر تجارب الناس والجماعات الماضية على نحو يعين الفرد والجماعة على توجيه جهوده وجهودها توجيهها سليما وسط تيارات الحياة الانسانية المتضاربة . ولقد اتخذ الناس اساليب شتى في تصوير هذه الحقيقة ، فقليل ان التاريخ رحلة في الزمان تزيد في معارف الانسان وتوسيع افقه كما هو الحال في الرحلات الاخرى ، وكان من القائلين بهذا . هـ . وولش W. H. Walsh الذى قال مرة ان من وظائف التاريخ الكبرى هو انه يعرف الناس برمانهم عن طريق رؤيته مقارنا بزمان آخر . وقال المؤرخان الفرنسيان لانجولا وزيوبوس Seignobos, Langlois « ان التاريخ يعرفنا بالاختلاف في صور المجتمعات وبشغينا من مرض الخوف من التغيير » .

« اما القول بان التاريخ دليل على المجتمعات للسير في مجاهل التجربة الانسانية فهو استمرار واكمال لنظرية القائلين بان التاريخ مدرسة للبشر ، وانه اذا كان البشر يشعرون بالرغبة في معرفة ماضيهم للاسترشاد به فان قادمهم ومديرى امورهم احوج الى ذلك . وقد ادى هذا الرأى بكثير من المؤرخين الى قول اشياء بالغة السخف في تعظيم فائدة التاريخ وكما ان هناك من ينكرون انكارا تاما فائدة التاريخ ، فان فائدته ووظيفته الاجتماعية وجدت في السنوات الاخيرة من يبالغ فيها ، ولكن المؤرخ المحدث المعتدل في تفكيره الذى يزن ما يقول وزنا جيدا يكتفي بتدريد ما قاله الاستاذ ستراير Strayer من ان « دراسة التاريخ تعين الانسان على مواجهة المواقف الجديدة لا لانها تقدم له اساسا للتنبؤ بما سيكون ، ولكن لان الفهم الكامل للسلوك الانساني في الماضي يتيح الفرصة للعثور على عناصر مشتركة بين مشاكل الحاضر والمستقبل مما يجعل حلها حلا ذكيا امرا ممكنا . وليس معنى هذا ان دراسة التاريخ الحديث وحده هي التى تعود على الانسان بالغاثة بالنسبة للحاضر والمستقبل ، لان التاريخ كله مادة واحدة . ودراسة قديمه لا تقل فائدة عن دراسة حديثه ، فكلها جوانب من التجربة الانسانية المتعددة الصور . فمع ان التاريخ لم يكن يدرس في جامعات العصور الوسطى الا انه كان دائما معتبرا موضوعا اساسيا في تعليم الامراء ورجال الدين ، ولهُولاء - ولها الغرض - الف الاسقف بوسويه Bossuet تاريخه للعالم الذى سماه : Discours sur l'histoire universelle سنة ١٦٧٩ » .

وقد قال الاستاذ ستوربات هيوز ان التاريخ كان يعد نفسه دائما « علما شاملا وعلما بسيطا » ، وقد كان التاريخ في الماضي يربط الشعر بالفلسفة ، وهو اليوم يربط الادب بعلم الاجتماع . وربما يكون المؤرخون قد اغضبوا غيرهم احيانا بالمبالغة في الدور التحليلي الذى يقوم به علمهم . ولكن سواء استطاع التاريخ ان يقوم بدوره كوسيط ام لم يستطع ، فان التاريخ لا يستطيع ان يتخلص من دوره كعلم وسيط ، وما دام لكل شيء تاريخه فان التاريخ كعلم يشمل كل

شيء ، حتى الكاتب الصغير الذي يدرس مبادئ التأمين يجد نفسه يدرس الى حد ما تاريخ التأمين . والتاريخ يكون جزءا من عمل الناقد الادبي وجزءا من عمل دارس العلوم الذي يدرس تطور علمه . واذن فالتاريخ يصبح ميدان التقاء كثير من العلوم وهذا هو ما يجعل التاريخ دراسة فائقة ، ومع ذلك فان كل ما نفعله الآن هو ان نجد صياغة مبررات دراسة التاريخ : ان الانسان ينبغي ان يعرف ماضيه ولهذا فعليه ان يقف على ما يضمه الماضي من غنى وتنوع لا حد لهما سواء في الفن والعلم والتنظيم الاجتماعي والسياسة . هذا الغنى وذلك التنوع هما في الحقيقة مادة التاريخ » (١٨) الى هنا ينتهي كلام آرثر مارفيك .

التاريخ حواد بين الماضي والحاضر

يقول كثير من العلماء ان كل عصر ينبغي ان يكتب التاريخ من وجهة نظره لان تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة له يختلف عن تقدير العصر الآخر ، وكل عصر كذلك يحاول ان يرى الماضي من خلال اهتماماته وافكار السائدة فيه ، و من هنا قال كثيرون من المؤرخين ان التاريخ حوار بين الحاضر والماضي ، وهذا في ذاته يكشف لنا عن جانب من جوانب المتعة في الدراسة التاريخية، فان التاريخ بطبعه - كدراسة للانسان واعماله تتأثر صورته التي يراها المؤرخ تأثرا واضحا بالاحوال المادية والعنوية في الوسط الذي كتبت فيه ، وليس في هذا عيب او مأخذ على التاريخ ، فكل العلوم الاجتماعية تخضع لهذا التأثير ، وصورة المتنبئ كما يرسمها مؤرخ ادب في القرن الثامن عشر مثلا تختلف عن صورته كما يرسمها مؤرخ ادب اليوم ، وكذلك الحال مع الدولة الاموية مثلا فان تصوير الجاحظ لها يختلف تماما عن تصويرنا نحن لها . بل ان نظريات العلوم الرياضية والدقيقة والطبيعية كثيرا ما تكون وليدة الظروف التي احاطت بمن ابتكرها ولقنت انظارهم اليها ، فلو لا ان توماس مالتوس Thomas Malthus قد عاش في عصر انفجار سكاني لما تنبه الى ظاهرة زيادة السكان ولما ابتكر نظريته المشهورة في العلاقة - او بتعبير ادق - اتعدام العلاقة بين زيادة الموارد وزيادة السكان ، ولولا نظرية مالتوس هذه لما توصل تشارلس داروين الى ضبط نظريته عن « صراع البقاء » ، واعتقد ان احدا لا يناقش في ان سنوات الحروب تكون في الغالب سنوات اسراع في الاختراع والابتكار ، لان ظروف الخطر ورغبة الجماعات في النصر والتخلص من الاخطار تشجع القرائح الى ابعاد حد . وليس هناك عالم رياضي او طبيعي الا

Robert V. Daniels, Studying History. How and Why, 1966. (١٨) انظر :

Richard Pares, The Historian's Business (1961) p. 5.

Robert K. Merton, Social Theory and Social Structure (1957) p. 16.

C. L. N. Brooke, The Dullness of the Past. 1957.

May Mackisack, History as Education (1956) p. 10.

G. J. Renier, History, its purpose and method (1950) p. 29.

Geoffrey Barraclough, History in a Changing World (1955) p. 29-30.

Marra Komarovsky, Common Frontiers of the Social Sciences (1957) p. 264.

H. Stewart Hughes. The Historian and the Social Scientist in American Historical Review, LXVI (1960) p. 46.

وهو متأثر الى حد بعيد في آرائه بالظروف المحيطة به . والعالم الذى ينكر اما مخطيء او مخادع لنفسه ، واذن فلماذا توجه اللوم الى التاريخ وحده ويقال انه يتأثر دائما بعصر المؤرخ وظروفه ومزاجه ؟

ومن الواضح ان اهتمامات المؤرخين في عصر ما تختلف عن اهتماماتهم في عصر آخر ، ومن ادلة ذلك ان الاهتمام بالسيرة النبوية وشرحها وتفصيلها عندنا نشط جدا في القرنين السادس والسابع الهجريين ، لان نوالي الاخطار على المجموعة الاسلامية دفع المؤرخين المسلمين الى الارتداد الى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسون فيها الحل او المخرج او مجرد تقوية الروح المعنوية ، فظهرت كتب مثل الاكتفاء في مغازي رسول الله ، والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الاندلسي ، وتاريخ الخميس للدليار بكرى ، ودلائل النبوة للبيهقي ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ، و ((الروض الاتف)) في شرح سيرة ابن هشام لأبي زيد عبد الرحمن السهيلي ، و ((شرح السيرة)) لأبي ذر الخشنى و ((شرح المواهب اللدنية)) للزرقاني و ((الدرر في اختصار المغازي)) والسير لابن عبد البر و ((الشفا في التصريف بحقوق المصطفى)) للقاضي عياض بن موسى السبتي و ((عيون الاثر)) لابن سيد الناس و ((كنوز الحقائق)) للمناوى ، وكلها كتب في سيرة الرسول ، وليس من المصادفة ظهورها كلها في هذه الفترة التي توالى فيها الاخطار على المجموعة الاسلامية .

ومن الملاحظ ان اهتمام الناس في الغرب بدراسة التاريخ واجتهاد الكثيرين من العلماء في تحويل هذه الدراسة الى علم مستقل مستكمل لاشراط العلوم تبع الى حد ما من قيام القوميات والدول الكبرى في اوربا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وواضح ان الاجيال التي قامت بانشاء هذه الدول والامبراطوريات شعرت بالحاجة الى معرفة الماضي ربما لتستنير به ، اذ لا شك في ان معرفتنا بما قطعتم من الطريق تعينك على معرفة الباقي ، ومن هنا اخذ نبيوه ورافكه وبوركهارت وغيرهم اهميتهم كمؤرخين واهتمت الدول بتيسير عملهم ففتحت لهم دور المحفوظات لكي يستخرجوا ما يستطيعون من حقائق الماضي . وهذا يؤكد لنا الحقيقة التي لا زال الكتبيون يجادلون فيها ، وهي ان الماضي لا يدرس لذاته بل للحاضر والمستقبل ، وان كتابة التاريخ إنما هي صورة من الحوار الذى لن يتوقف بين عصرنا والعصور التي سبقتة . ومن المؤكد على اى حال ان المؤرخ مهما بلغ نجرده لا يستطيع التخلص من روح عصره . وفي بعض الاحيان نشعر ان المؤرخ يبحث عن حاضره في الماضي الذى يدرسه ، فاجتهاد رافكه في دراسة تاريخ الرومان راجع الى ايمانه العميق بالدولة البروسية التي كان يخدمها ورغبته في التماس الأدلة على صواب رايه المحافظ بقوة الدولة في صفحات تاريخ روماني ازهى عصورها عندما كانت الدولة الرومانية تهيم على كل شيء .

وبديهي ان اى مؤرخ ذكي يتحرى دائما ان يكتب ما يكتب من التاريخ على صورة نفع معاصريه او تكون ذات قيمة ونفع لهم على الاقل ، ومن هنا كانت كتابة سير عظماء الرجال موضوعا مطلوبيا دائما ، لان النفس الانسانية تميل دائما الى معرفة تفاصيل حياة اولئك الرجال ، ولهذا فكتب التراجم دائما كتب ذات معنى للحاضر . والهدف الرئيسي من الحوار التاريخي او من النظر الى التاريخ كحوار بين عصرنا والعصور الماضية هو ان نرى اين اخطاوا لكي لا تقع فيما وقعوا فيه . وفي العصور الوسطى ، حينما كان عيون الناس متجهة نحو الحياة الاخرى وحدها دون امل في صلاح الحاضر كان افق اصحاب المدونات التاريخية ضيقا جدا ، فلم يكن يهمهم من الماضي الا ملوكه وامراؤه وكبار علماء الدين والصلحاء فيه . ومن عدا هؤلاء فلا وجود لهم في

حسابهم ، ولا يمكن ان يكون لهم في التاريخ دورولا ذكر . ومن هنا يجوز لنا ان نقول ان الماضي كما يراه جيلنا يختلف عن نفس الماضي كما رآه الجيل السابق علينا ، وكما سيراه الجيل الذي سيأتي بعدنا ، ومن هنا يصدق القول بأن الامة الواحدة اكثر من تاريخ ، ولا بد - لهذا - لكل عصر ان يكتب التاريخ من وجهة نظره ، وكما اننا نتعجب من السخافات التي ملأ بها ابن عباس « بدائع زهوره » فان الاجيال القادمة دون شك ستتعجب من نظرنا لماضيينا بل اغلب الظن ان عجبها سيكون اشد من نظرنا الى حاضرننا .

ويرى كثيرون من المؤرخين ان ذلك يفوتى حنجة القائلين بأن التاريخ لتفوت ، فما دامت صورة نفس الشيء تتغير بحسب العصور فلا يمكن ان يكون التاريخ علما ، لان العلم يقوم على نبات الحقائق ولو لفترة طويلة من الزمن ، فقد ظلت نظريات علم الطبيعة ثابتة قرونا متطاولة ولم يدخل التغيير عليها الا بعد ان انسمت آفاق العلم الانساني الى حد استلزم اعادة النظر في كل حقائق العلوم ، ثم ان عالم اليوم يملك من الادوات ووسائل القياس والحساب والتحليل ما يمكن من الحصول على رؤيا جديدة تزعزع الثقة في قواعد الماضي الثابتة . ومن العجيب ان هذا الزعزع في حقائق التاريخ ونفري صورته بحسب الاجيال والاشخاص يعجب الكثيرين من المؤرخين القائلين بأن دراسة التاريخ لا فائدة فيها وانما هي تمارس للمتعة الشخصية ليس غير .

ويوجه الكثيرون الى التاريخ كعلم نقداشديدا بسبب ارتباطه الدقيق بالمجتمع الذي يكتب فيه . ولكن هؤلاء النقاد ينسون ان ذلك ينطبق ايضا على كل اوجه النشاط الفكري الذي يقوم به الانسان ، وان الظروف التي تحيط بالمشغل بالعلوم الانسانية جميعا هي التي توحى اليه بما قد يتبكر من آراء ونظريات ، ومثال ذلك ما ذكرناه من ان توماس مالتوس Thomas Malthus طليعة علماء الديموجرافيا (علم السكان) لم يقم باجراء دراساته البالغة الدقة في شئون السكان الا بسبب ما كان يلاحظ حوله من زيادة مضطردة في اعداد السكان من حوله . وكان المفهوم الذي انتهى اليه مالتوس وهو مفهوم الصراع للبقاء struggle for survival هو الذي جعل بتبلسور آراء داروين ونظرياته عن النشوء والارتقاء والتطور على اساس من نظريته القائلة بأن البقاء للأصلح survival of the fittest وعلى هذا فان قوانين مالتوس وداروين ومن في طبقتهم من اهل العلم ناتجة عن التأثير بالبيئة والظروف التي كانوا يعيشون فيها . ومن هنا فان نقد علم التاريخ لان حقائقه كما يعرضها المؤرخون تكون دائما متائرة بالظروف التي يعيشون فيها نعد لا محل له . ولا يمكن القول قط بأن اهل العلوم والباحثين في العلوم الاجتماعية عندنا اليوم متحرون تماما فيما يصدرن من الاحكام على الافكار المستتبقة والآراء الشائعة في عصورهم ، وهذا لم يمنع من القول بأن المؤرخين ربما كانوا اكثر تأثرا بهذه الظروف والآراء من غيرهم من اهل العلوم .

وقد لاحظ آرثر مارفيك في كتابه المشار اليه (سابقا) ان مؤرخي القرن التاسع عشر في الغرب الاوروبي وامريكا كانوا يوجهون اهتمامهم بصورة خاصة نحو اعمال الحكومات وعظماء الرجال وتطور الوعي القومي ونحو الحريات السياسية في حين ان مؤرخي القرن العشرين يوجهون عناية اكبر نحو الاقتصاديات والديمقراطية الاجتماعية ، وهم يصرفون جهدهم الى التاريخ الاقتصادي مهتمين بالجماهير دون الافراد . وابدئ نفس المؤرخ ملاحظة اخرى لها اهميتها : وهي ان المؤرخين في غرب اوربا كانوا يهتمون بصورة تقليدية بحضارات بلادهم وحدها ، وكانوا اذا انفتوا الى تاريخ اقليم آخر او حضارته لم يروا من هذا التاريخ ونلك الحضارة الا ما كان صدى اورد فعل للحضارة الغربية فيه . اما الآن فقد ظهرت قوميات اخرى كثيرة جديدة واخذ اهلها

في العمل على استلقات الانظار نحو تواريخ بلادهم وحضاراتها . ومن هنا فقد أدت دراسات التاريخ الافريقي وتاريخ امريكا اللاتينية ، واهم من ذلك تاريخ الصين وشرق آسيا الى تغير الصورة العامة لتاريخ البشر والاتجاه الفالب في ايامنا هذه» التي تهتم فيها عالم الاستعمار وامبراطورياته» يقصد الى دراسة تلك الحضارات غير الغربية من ناحية تطورها المحلي الخاص بها لا من ناحية علاقتها بالغرب وصراعها معه فحسب كما كان الحال قبلا . وهذا وسع آفاق الدراسات التاريخية ، وسيؤدي حتما الى تغير الصورة التقليدية التي تعودناها فيما يعرف بالتواريخ العالمية الكثيرة المتداولة اليوم . وكلها اوروبية او مكتوبة من وجهة نظر غربية ، فالاهتمام فيها منصب نحو الغرب وحضارته وحدها ، فهي في الواقع تواريخ للغرب الاوروبي لا تواريخ عالمية . والتواريخ العالمية الجديدة بهذا الاسم لم تكتب بعد ، وعلينا نحن اهل العالم الثالث الذين لم يحسب لهم حساب فيما يتداول الناس من تواريخ عالمية ان نعيد كتابة تاريخ البشر وحضارتهم ، بادئين بدراسة تاريخنا نحن ، لكي يتسنى لنا وضعها في مكانها الصحيح في سلسلة التاريخ العالمي .

واذا نحن اعتبرنا التاريخ حوارا بين اجيالنا والايال السابقة فينبغي ان تسع مائدة الحوار حتى يكون فيها لكل قوم من اهل الارض مقعد وصوت . هنا فقط يمكن ان يقال اننا نستطيع كتابة تاريخ عالمي . اما ان يكون التاريخ العالمي قصة الصراع بين دول اوروبا على سيادة العالم فهذا زيف مقصود او غير مقصود .

الاتجاهات السائدة في كتابة التاريخ في عصرنا الراهن

ويتحدث علماء التاريخ في الغرب عن طفرة للدراسات التاريخية في الغرب ويرجعون بهذه الطفرة الى النصف الاول من القرن التاسع عشر عندما فتحت دور المحفوظات الاوروبية ابوابها لاهل العلم فاخذوا يستخرجون كنوزها وينشرونها على الناس ، فكانت هذه الثروة الضخمة حافزا للكثيرين على الاتجاه نحو دراسة التاريخ على اساسها . ومن ثم حدث ما يسمى عادة بالانفجار الواسع المدى في الدراسات التاريخية .

وسنرى في الفقرة التالية كيف ظهرت مجموعات الوثائق الكبرى ووضعت مقاييس دراستها ، دراسة علمية دقيقة على يد اقطاب العلم التاريخي من امثال ليوبولد فون رافكه ، ولكننا سنمر هنا مسرعين باهم تيارات الدراسات التاريخية في عصرنا وقبلة بقليل .

ساد في الغرب الاوروبي خلال القرن التاسع عشر تياران رئيسيان : الاول تيار الواقعية الموضوعية objective empiricism الذي يقول اصحابه بأنه من الممكن ان نكتب الحقائق التاريخية بالضبط كما كانت في الماضي ، وتيار القائلين بتوالد احداث التاريخ بعضها عن بعض The genetic view of history واصحابها الذين كانوا يستعملون ذلك المصطلح البغيض « الهيستوريستيزم historicism اي الفكرة التاريخية — يرون ان التاريخ عملية توالد مستمرة ويؤمنون باضطراب التوالد من عصر الى عصر . وكلا التيارين ثمره من ثمرات تلك الثقة البالغة في النفس التي ملأت نفوس اهل العلم في الغرب في القرن التاسع عشر ، حتى يشعر من يقرأ لهم انهم كانوا يحسبون انهم جمعوا العلم كله من اطرافه جميعا . ويدخل في هذا النطاق ايضا فريق التقريبيين القنئين او الاجابيين من المؤرخين positivist historians اولئك الذين حسبوا انهم يستطيعون ان يوجزوا التاريخ كله في سلسلة من القوانين العامة . ويمكننا ان ندخل في زمرة

اولئك التفريريين المقتنين ابن خلدون الذى اوجز تاريخ العالم فى قانونه المشهور عن « دورة العمران » ، وعلى الرغم من انه عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى الا اننا نستطيع ان نضعه على رأس هذه المدرسة الهامة من علماء التاريخ .

اما مؤرخو القرن العشرين الذين يكتبون متأثرين بنظريات **فرويد** و**اينشتاين** و**كارل ماركس** فقد صرفوا النظر الى حد كبير عن الموضوعية التاريخية وابكروا ما يعرف عادة بالنسبية التاريخية historical relativism . وفى ايمانها هذه بتجه نفر من اكابر المؤرخين الى صرف النظر عن النظريات والتيارات جملة والعكوف على دراسة الحروب والانقلابات الاجتماعية كلا على حدة صارفين النظر تماما عن نظرية « الاسنمرافى التاريخ » التى كانت اساسا متينا لكتابه التاريخ ارامانا متطاوله . وستشرح النسبية التاريخية بشيء من التفصيل فيما بعد .

وكما انصرف المؤرخون عن البحث عن قوانين وضوابط تحكم سير التاريخ ، فكذلك انصرفوا عن قواعد كبرى كانت تعد الى حين قريب من الاسس التى لا يملك اى مؤرخ ان يتخلى عنها، مثل قولهم : كلما قرب المؤرخ من العصر الذى يتحدث عنه ، كان كلامه اصدق ، فقد تبين ان مسألة القرب او البعد عن الحوادث هذه لا تعنى شيئاً كثيراً بالنسبة لصدق الفهم وكثيرا ما نجد مؤرخا يكتب عن عصره نفسه وعن حوادث مرث امام عينيه فلم يدرك من حقيقتها شيئاً وجاءت روايته هي الغلباء بعينه . وفى نفس الوقت نجد مؤرخا يكتب عن نفس الحوادث ، بعده بعدة قرون ، فىرى بالفهم ودقة الحس العلمى ما لم يره هذا المعاصر ، وخذ مثلا كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » الذى حاول فيه **عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاسفهانى** وصف استعادة صلاح الدين لبيت المقدس ، واسأل نفسك بعد قراءته ان كان هذا الرجل الذى نوفي سنة ١٢٠١/٥٩٧ اى بعد استعادة القدس باربعة عشرة سنة فقط قد رأى او فهم شيئاً . ولا بد لهذا من ان نتخلى بعض الشيء عن قاعدة القرب من الحوادث هذه ، لان العبرة فى التاريخ بالفهم والادراك والاحساس ، ومن دلائل ذلك انك تقرأ كتاب ادوارد جيون عن الدولة الرومانية فلا يخالجك شك فى ان هذا الرجل عاش فى عصور الرومان بقلبه وذهنه فعلا وهو يكتب هذا التاريخ. وفى بعض الفقرات التى كتبها عن عصر الانطونيين تشعر وانت تقرأ انك نسمع جلبة الجيش الرومانى الخارج للفتوح وقعقة العجلات على صخور الطرق الرومانية وصهيل الخيل وجلجلة السلاح.

وفى ايماننا هذه نسلّم المؤرخون جميعا بأن المؤرخ مهما فعل فهو لا يرى الماضى الا من خلال عصره ، اى انه لا يستطيع التخلى عن مفهومات مجتمعه والآراء السائدة فيه ، وفى هذا خير كثير للتاريخ والمؤرخين ، فان المؤرخ بصفته خادما للجماعة الانسانية ينبغي ان يكتب تاريخه فى صورة ذات معنى واهمية ، لابناء عصره وهذا المعنى وتلك الاهمية يعبر عنهما المؤرخون بما يسمى بارتباط التاريخ بالحاضر the present relevance of history فاذلا لم يكن الحوادث التاريخية الماضى ذا اثر فى الحاضر relevant to the present فلا قيمة حقيقية له ، وهو اشبه ببناء قديم محطوم فى البيت ، كانت له اهمية فى حينه ابام كان نافعا ، ثم نقادم به العهد وتحطم ، فلم يعد اكثر من ذكرى ماضية، ومن الصالح التخلص منه ، لان هذه الذكرى نفسها غير ذات قيمة . وهنا يقول آرثر مارفيك : « وما دامت للتاريخ تلك الاهمية بالنسبة للمجتمع فان احسن تاريخ يمكن كتابته ، ينبغي ان يكون اقرب ما استطاع الى الحقيقة . والمؤرخ الوامى

للعجز المفروض عليه بسبب وضعه مكانا وزمانا) بالنسبة للأحداث التي يؤرخ لها) ينبغي عليه ان يجتهد في تلافي التشويه والحويز الذين ينتجان عن اختلاف الزمان والمكان» (١٩) .

وقد كان لجهود اصحاب نظرية النسبية التاريخية (٢٠) اثر طيب في تخفيف ثقل المدرسة الالمانية التي قادها **رافكة** والتي ظنت انها تستطيع اعتمادا على الوثائق ان تكتب التاريخ بالضبط كما حدث منذ مئات السنين او آلافها . وكان من رأى اصحاب هذه المدرسة ان المؤرخ نفسه لا يقول شيئا وانما هي الوثائق التي نقول كل شيء ، وعلى هذا فلا فرق بين مؤرخ ومؤرخ الا فيما يتعلق بدرجة القدرة على استخدام مناهج البحث ، وهذا غير صحيح فان موهبة المؤرخ لا يمكن اغفالها ، والمؤرخ ليس كما قال **كونيلز ريد** Conyers Read رجل يقضي عمره لاهثا بين مكتبة ومخزن الوثائق ودهاليز المخطوطات المثقلة بالغبار ، ليس هذا هو المؤرخ الوحيد الجدير بالاعتبار ، لأن المؤرخ الجيد ليس عبد الوثائق والمخطوطات وانما هو ناقد حصيف يختار منها ويكتب كلاما حيا يخاطب عقول الناس في كل عصر . وكم من مؤرخ كتب من عشرات السنين نحس ونحن نقرأه انه اقرب الى نفوسنا من مؤرخ معاصر بموت الحوادث بين يديه قبل ان يكتبها ، ومؤلفاته ان هي الا اكفان لما يكتب .

فاذا صدق هذا استطعنا ان نقول ان التاريخ على الحقيقة انما هو إعادة كتابة وإعادة تفسير مستمرتان ، وهذه العملية المستمرة تلقى ضوءاً على الطريق الذي نسير فيه . فنحن عندما نرى كيف كان اجدادنا أسرى أوهام عصورهم استطعنا ان نتجنب أوهام عصرنا ، وفي هذه الحالة تكون دراسة التاريخ قد نفعتنا وارتقت بمستوى ادراكنا ولو الى حد ضئيل . ومن هنا نجى فائدة قراءة ما كتب الماضون من صفحات التاريخ ، فان المؤرخ الذي لا يفعل ذلك لا يقل بعدا عن المنهج الصحيح من ذلك المؤرخ الذي يقدر قيمة الكتب بدرجة صفرية ، ورتبتها ، ويؤمن بكل ما طبع على ورق اصفر لمجرد انه اصفر .

اذن فالأمر كما قلنا ينبغي ان يكون حوارا بين الماضي والحاضر ، ولا بد ان يكون كذلك حوارا بين المؤرخ وقارئه ، والكلمة الأخيرة في تاريخ أى عصر او أى حادث لم تقل بعد ولا يمكن ان يقال أبدا ، وهذا يضع يدنا على ممكن الخطأ الأكبر في أعمال رافكة ومدرسته ، أولئك الذين بلغ بهم الغرور بوثائقهم التي اعتمدوا عليها حداثاً جعلهم يتصورون انهم وصلوا الى كبد الحقيقة في كل ما كتبوه .

تطور الدراسات التاريخية :

كل تاريخ لتطور علم التاريخ بقرائه في كتاب غربي لا بد ان يكون بالضرورة ناقصا ، اذ ان هذه الكتب نسقط من الحساب - كليا او الى حد كبير - الدور الضخم الذي قام به المؤرخون المسلمون في تطوير هذا العلم ، وما نقول هذا مجاملة منا للسابقين من مؤرخين بل نقوله لأنه حق ، واذا كان من الممكن الجدل في قيمة ما وصل اليه علماء العرب في الطبيعة والكيمياء بالنسبة لحالة هذين العلمين اليوم فانه لا جدال في ان المؤرخين العرب والمسلمين قد وصلوا في هذا العلم الى شام بشارع احسن ما وصل اليه الغربيون الى اواخر القرن التاسع عشر على الأقل . بل اذا

كانت مدرسة الوثائقيين واهل التوثيق الكامل في الغرب وهي مدرسة **ليوبولد فون رافكه** و**ياكوب يوركهات** هي ذروة ما وصل اليه العلم التاريخي في القرن التاسع عشر فان مؤرخينا المسلمين بدأوا بالذات من هذه النقطة : بدأوا على طريقة المحدثين المدققين الذين لا يروون خبرا الا اعتمادا على سند متين موصول من روافذ ذوى صدق وامانة ، وساروا بعد ذلك على مناهج علمية جديرة بكل تقدير . ولهم ، نتيجة لهذا ، فضل كبير جدا في تطوير هذا العلم ، ولكن مؤرخي الغرب ساروا على مبدأ ان العلم كله غربي . وفي ميدان التاريخ يبدأون عند **هيرودوت** و**توكيديد** وينتهون عند **توينبي** و**هويتسنجا** Huitsinga ومن اليهما من معاصرينا .

ومن العسير لهذا ان نوسع في هذه العجالة مكانا مناسباً لما قمنا به في تاريخ هذا العلم . ولهذا فنسندهم جانباً لكي نخصص له دراسة قائمة بذاتها ، ونكتفي هنا بأن نروى للدارس العربي تاريخ هذا العلم كما يروونه في كتب الغرب .

وقد كان من المناسب لهذا البحث ان نروى في ايجاز تاريخ تطور علم التاريخ من بداياته الاولى عند هيرودوت الى اليوم ، ولكننا رأينا اننا اذا قصصنا هذا التاريخ بحسب المفهوم الغربي جاءت القصة ناقصة ، لأنها ، كما ذكرنا ، لا تحسب حساب الدور الكبير الذي قام به العرب والمسلمون في تطوير ذلك العلم والسير به الى الامام ، ثم ان هناك - خارج النطاقين الاوروبي والعربي - مؤرخين ومدارس تاريخية لها اهميتها عند الصينيين والهنود خاصة ، فاذا كان ولا بد من ايجاز تاريخ علم التاريخ فلا بد ان يتضمن ذلك الموجز حديثاً عن نصيب تلك الامم في تطوير علم التاريخ بدلا من الاكتفاء على متابعة اهل الغرب فيما يقولونه والاكتفاء به ، ومن آفات الفكر الغربي انه لا ينظر الا الى نفسه ولا يكاد يحسب لغيره حساباً ، وفي اعماق كل مفكر غربي ان الحضارة الجديرة بالاهتمام هي الحضارة الغربية وحدها ، وان الفكر هو الفكر الاوروبي ولا غير ، فاذا ظهر خارج النطاق الاوروبي افذاذ من امثال ابن خلدون وطاغور مثلاً فهذه نوادر بل طرائف تقرأ ، ويهتم بها لغرابتها او لطرافتها ، لا لانها تكون جزءاً اصيلاً من الخط الرئيسي .

ولهذا وحتى يمكن تعديل التاريخ التقليدي لعلم التاريخ على نحو يجعله انسانياماً لا اوروبياً نحسب ، فاننا سنكتفي هنا بأن نعرض تطور هذا العلم خلال العصر الحديث من اواخر القرن الثامن عشر الى اليوم ، وهي فترة حاسمة في تاريخ تطور التاريخ ومفهومه ومناهجه .

تطور علم التاريخ خلال العصر الحديث :

الى منتصف القرن السابع عشر كان التاريخ في الغرب فرعاً ثانوياً قليل الاهمية من العلم يهتم به بصورة خاصة الرهبان وحواشي الملوك ، فاما الرهبان فقد كان مهمهم موجهاً الى شئون الدين وتواريخ البابوات واخبار القديسين وما يقال من اجرائهم المعجزات او الكرامات ، وربما اشاروا في اثناء ذلك الى بعض ما يهم غير رجال الدين من الحوادث . ومراكز المخطوطات في مكتبات الغرب مثقلة بهذه التواريخ التي كتبها الرهبان في صمت صوامعهم على ضوء الشموع على سبيل التسلية احياناً وقطعا للوقت وهروباً من الملل وتقرباً الى الله في اكثر الاحيان .

ومعظم هذه المدونات مكتوب باللاتينية ، والقليل منها بلغة اهل البلد من فرنسية او المانية او انجليزية وما اليها ، ولكنها كلها تشارك فيما يسودها من ثقل وتشابه وابهام بالخشوارق والمعجزات وقلة ما يجده المؤرخ فيها من مادة تاريخية نافعة .

وأما ما كتبه حواشي الملوك من سير سادتهم وما قاموا به من أعمال فاكثر قيمة من الناحية العلمية وإن كان يغلب عليها التلق والمبالغة والاكاذيب ، ولكنها على أى حال تضم مادة تاريخية يمكن استخلاص حقائق ناعمة منها بعد جهد قليل أو كبير .

والخلاصة هنا انه لم يكن في الغرب الى ذلك الحين شيء يمكن تسميته علم التاريخ ، انما كانت هناك المدونات Cronica التي ذكرناها وبيننا قلة قيمتها كأصول تاريخية ، وفيما عدا مؤرخي العصور القديمة ما بين اغريق ورومان من أمثال **هيرودوت** و**توكيديد** و**بوليبوس** و**تيوتوس ليفيوس** و**مارسيلوس اميانوس** لم يكن هناك الا اصحاب مدونات أشهرهم رجال مثل **اجينسارت** Eginhardt مؤرخ شرلمان و**فرواسسار** Froissart و**دى جوانفيل** De Joinville اللذين أرخا لبعض الحملات الصليبية .

ولهذا فعندما نشر **فولتير** مؤلفه الاول في التاريخ عن حياة واعمال **شاول الثاني** عشر ملك اسكتلنداوه وحروبه مع الروس Historie de Charles XII سنة ١٧٣١ رأى الناس فيه لونا جديدا من التاريخ لم يعرفوه الى ذلك الحين ، فعلاوة على تحقيق فولتير لاعمال هذا الملك الاسكتلنديناوى الشاب واجتياحه للقوات الروسية كانه شهاب ثاقب ، معتمدا في ذلك على دراسة نستطيع ان نصفها بانها وثائقية نجد ان فولتير عرف كيف يتأنى في الحكم ويحسن المقارنة بين ذلك الملك الشاب المغامر ومناقسه العنيد **بطرس الاكبر** قيصر الروس . فقد رأى فولتير ان شارل الثاني عشر ، رغم انتصاراته العسكرية ، شاب متهور مخرب في حين ان بطرس الاكبر رغم قسوته وعنقه رجل مصلح استطاع ان ينشئ امبراطورية شاسعة متحضرة وايد فولتير بعد ذلك ملكته التاريخية في كتابه البديع « خطابات فلسفية » Lettres Philosophiques الذي يدخل في نطاق المؤلفات الفلسفية ولكنه حافل بالآراء والملاحظات على مسار التاريخ وتصاريف الزمان . وبعد ذلك بست سنوات نشر فولتير كتابه المشهور عن عصر لويس الرابع عشر Le Siècle de Louis XIV الذي ابدي فيه براعة فائقة في تحليل الاحداث والاشخاص ، واعطى للمرة الاولى في تاريخ الفكر الغربي الحديث صورة بديعة لعصر اشتهر بما زانه من مظاهر الحضارة . وقد اغراه نجاح كتابه هذا بالتفكير في كتابة تاريخ عالمي ، ولكنه لم يستطع السير في عمل ضخم كهذا ، واقتصر على تحرير خلاصة صغيرة اسمها « مقال عن الاخلاق والعادات » Essai sur les moeurs وهو كتاب طريف جدا للمؤرخ لدة في قراءته نظرا لما فيه من محاولة التعمق في فهم الجماعة البشرية وتركيبها ، وبعض صفحات هذا الكتاب تذكر احيانا بصفحات مما كتب **السعودي** في مروج الذهب ، وحيانا اخرى بما اورده **ابو حيسان التوحيدى** في الامتاع والمؤانسة » .

ولهذا كله يميل الكثيرون من المؤرخين الى اعتبار فولتير مؤسس العلم التاريخي بمفهومه الحالي في الغرب . ولكن فولتير لم يكن على الحقيقة مؤرخا ، وانما كان من هواة التاريخ ، وقد كتب التاريخ على انه لون من الادب او الفلسفة ، وهو يمثل القمة التي وصل اليها لون من الوان الفكر الغربي نشأ في عصر النهضة وجمع اصحابه في مؤلفاتهم اطرافا من الفلسفة واخرى من التاريخ وضافوا الى ذلك فيضا من التاملات والآراء الصائبة او غير الصائبة .

ولا بأس هنا من الاشارة الى بعض كتاب عصر النهضة هؤلاء ممن صدرت عنهم مؤلفات اصبحت فيما بعد من ذخائر المكتبة التاريخية ، واولاهم بالتنبيه هنا **نيكولو ميكافيلسي** Nicolo Machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) صاحب كتاب « الامير » المشهور ، وهو كتاب فلسفة وسياسة في ظاهره ، ولكنه قائم في صميمه على فهم سليم للتاريخ وخاصة لتاريخ

إيطاليا في عصره وهناك ايضا **فرانشيسكو جيتشيارديني** Francesco Guicciardini (١٤٨٣/ ١٥٤٠) الذي كتب تاريخا لإيطاليا لا يخلو من تعمق ونظر تاريخي ، و**ليوناردو بروني** Leonardo Bruni (١٣٧٤ - ١٤٤٤) صاحب كتاب **تاريخ فلورنسا** Storia Fiorentina الذي يعد من احسن المؤلفات التاريخية التي خلفها عصر النهضة . وقريبا منه ذلك الكتاب الذي ألفه **السر والتر رالي** Walter Raleigh وسماه **تاريخ العالم** History of the World ونشره سنة ١٦١٤ فلم يلق كبير نجاح رغم انه لا يخلو من قيمة علمية .

وفي نفس الوقت كان نغر من الرهبان في الأديرة يحاولون الخروج من سآمة المدونات التاريخية والبحث عن طرق جديدة للدراسة التاريخ وفهمه . وقد التفت بعضهم الى اهمية مجموعات الوثائق المكسدة في الاديرة وامكانية استخدامها كمادة تاريخية اذا هي درست الدراسة العلمية الكافية ، واهم هؤلاء الرهبان هم البندكتيون في دير **سان مور** Saint Maur فرنسا، ويشبههم في ذلك نفر من رهبان الجيزويت في بلجيكا على رأسهم الراهب المؤرخ المشهور **يوحنا بولاند** Jean Bolland (١٥٩٦ - ١٦٦٥) الذي أصبح علما على مدرسة جديدة في دراسة وثائق الاديرة واستخراج المادة التاريخية منها ، ولا زالت جمعية البولنديين Les Bollandistes الى يومنا هذا من أكبر الجمعيات التاريخية وأكبرها مكانا من احترام الناس . وقد ادت دراسات أولئك الرهبان الى الكشف عن حقائق ازلت من النفوس كثيرا من الأوهام ، ومن ذلك ما كشف عنه الراهب **فاللا** Valla (١٤٠٧ - ١٤٥٧) من ان الوثيقة المشهورة المسماة بهية **قسطنطين** Doratio Constantini التي كانت تعتبر مقدسة لأن البابوات كانوا يقولون ان **الامبراطور قسطنطين الكبير** وهب فيها اراضى إيطاليا للكرسى البابوى على اعتبار انها ارث **الرسول بطرس** اخذه عن السيد المسيح مباشرة . فقد اتب هذا الراهب ان هذه الوثيقة زائفة وان رجال الكنيسة زيفوها ووضعوا عليها خاتم قسطنطين وان **السيد المسيح** لم يمنح الحوارى بطرس نيثا في إيطاليا او غيرها . وقد احدث هذا الكشف زلزالا عنيفا في اوساط العلم والسياسة والدين في اوربا ، وهوجم الراهب فاللا هجوما عنيفا .

وكان هذا النجاح الذي لقيه فاللا مغربا للكثيرين من الرهبان على الانكباب على مجموعات الوثائق التي تحت ايديهم فاقبلوا بدرسونها ويمحصونها ، فبدت اصول علم الوثائق تظهر وهو العلم الذي عرف فيما بعد باسم **الباليوجرافية** Paleography ووظيفته دراسة الكتابات والمخطوطات ، وتفرع عنه علم النقوش المعروف باسم **الإبيجرافية** Epigraphy ووظيفته دراسة النقوش والرسوم على الاحجار وغيرها وتفسيرها واستخراج المادة التاريخية منها ثم لم يلبث ان ظهر علم الآثار او **الآركيولوجيا** Archeology ووظيفته دراسة كل ما خلفته العصور الماضية من ابنية واشياء مصنوعة او أدوات او قطع او نقوش او بقايا عمران .

وهكذا وسيثا فنيثا من اوائل القرن الثامن عشر اخذ العلم التاريخي يستقر على قواعد واصول فنية علمية خرجت به - شيثا فنيثا ايضا - من مجال الادب والفلسفة والتأملات واساطير القديسين ومدائح الملوك الى ارض العلم الصلبة ، وولد علم التاريخ في الغرب ، ونضج خطا عريضا تحت عبارة **(في الغرب)** لأن التاريخ عندنا - معاصر العرب - ولد من أول الامر علما دقيقا قائما على النقد والتحقيق ، فان شجرة التاريخ عند العرب نبتت في تربة علم الحديث ، وعلم الحديث علم يقوم على الدقة والتحري والضبط بالنسبة للحديث المروى وعلى نقد الرجال - وهو علم الجرح والتعديل - فيما يتصل برجال السند وهم قواعد الرواية وعمدها.

وقد ارتبط ميلاد هذا العلم التاريخي في الغرب باسماء لا زلنا نقرأ مؤلفات اصحابها باجلال عميق : هناك **دوشسن** Duchesne الذي كتب تاريخا ضخما للكنيسة الكاثوليكية تحرى فيه الدقة والصدق وتسليح بشجاعة نادرة كشفها عن مساوئ الكثير من البابوات وزيف بعض كبار الرهبان ، و**بالوز** Baluze و**مابليون** Mabillon و**مونفوكون** Montfaucon الذين اقبلوا على دراسة مجموعات الوثائق المحفوظة في الاديرة والبلديات وخزان الدولة واجتهدوا في جمع ما لدى الافراد من وثائق لادعائها في المكتبات الوطنية وجعلها في متناول الناس .

ادوارد جيبون ودوره في تطور علم التاريخ في الغرب - معاصرو جيبون .

ووسط ذلك الحماس للتاريخ والاهتمام بجعله علما محترما ظهر **ادوارد جيبون** Edward Gibbon (١٧٣٧ - ١٧٩٤) الذي يعتبر من اعظم المؤرخين واساتذة هذا العلم على مر العصور رغم ان كتابه الاشهر : تاريخ اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها The History of the Decline and Fall of the Roman Empire حافل بوجوه النقص ، ولكنه عمل علمي رائع كتبه صاحبه عن ايمان عميق باهمية ما يعمل ، وانفق في كتابته معظم سنوات عمره تقريبا كما فعل مؤرخنا العظيم ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ومهما تقادم به العهد فيستظل دائما من دور المكتبة التاريخية في كل عصر ولغة ومكان ، ولقد قال المؤرخ الانجليزى الاشهر **ج . ب . بيوري** J. B. Bury : انك لن تكون مؤرخا حتى تقرأ جيبون ، وهي قالة حق ، لان جيبون عاد بالفعل بنفسه الى ايام الدولة الرومانية وقرأ كل ما تيسر له من كتابات اهلها وكتب تاريخا لها لا يمل الانسان من قراءته . واذكر انني في سنوات الدراسة الاولى في جامعة القاهرة كنت احفظ عن ظهر قلب تقريبا اربعة فصول من كتاب جيبون هذا ، ونشرها في طبعة ميسرة للطلاب هي الفصول الخاصة بعصر الانطونيين The Age of the Antonines

واجمل ما في **جيبون** انه كان رجلا ميسورا الحال طول حياته ، وكان في صباه يمتلئ بالامراض مشغلا بالمتاعب بسبب اهمال امه اياه ، ولكنه كان انسانا غني النفس ذكي القلب ، فهذا الصبي الذي لم تمكنه صحته من الدراسة المنتظمة الا بعد ان ادرك سن الرشيد وتخطى الخامسة عشرة لم يلبث ان قرر بعد تفكير طويل ان يتخلى عن العقيدة الانجليكانية ويعتق الكاثوليكية . وهو امر افزع اياه ، لان معناه حرمان ابنه ما عاش من الوصول الى اى وظيفة محترمة في الدولة او مكانة مرموقة في المجتمع . ولكن ادوارد جيبون سار في طريقه غير هيباب ، وعندما ابعد ابوه الى جنيف ، حتى يمسود الى عقله وينترك الكاثوليكية ، اقبل على دراسة الفرنسية وبرع فيها واخذ يؤلف بها ، واتصل بعولتير واصحابه ، واصبح شخصية لها مكانتها واقبل على قراءة الاداب اللاتينية في تَهَم بالغ . وعندما اشتركت انجلترا في حرب السنين السبع دخل الجيش ووصل الى درجة كابتن ، ثم ذهب الى باريس سنة ١٧٦٣ وتعرف على الموسوعي الاشهر **ديدرو** Denis Diderot وصاحبه الدامير Jean D'Alembert ثم ذهب الى ايطاليا ، وفي منتصف اكتوبر ١٧٦٤ وبينما كان ينتقل بين آثار روما خطرت بباله فكرة كتابة تاريخ شامل للدولة الرومانية . ومن ذلك الحين الى آخر حياته أصبح هذا التاريخ شغله الشاغل ، وقد ظهر مجلده الاول في ١٦ فبراير ١٧٧٦ ومجلده الاخير في ٨ مايو ١٧٨٨ ، وتوفي جيبون نفسه بعد ذلك بست سنوات في ١٦ يونيو ١٧٩٦ وقد ترهل جسده وحطت عليه الامراض وتكاثرت عليه الالام بموت خيرة اصحابه واصدقائه .

لا يتميز كتاب جيبون بفلسفة خاصة للتاريخ . بل ان الدقة والضبط والاستفادة الكاملة من المراجع تنفذه في احيان كثيرة ، ولكنه كان اول غربي كتب في العصر الحديث دراسة تاريخية للدولة كبرى ، قص فيها تاريخها كاملا . وحاول ان يستقصي اسباب ضعفها وانهيارها ، وكان اقبال الناس على هذا الكتاب وتقديرهم اياه كافيا لرفع قدر التاريخ الى مستوى اهم فروع العلم واحداها بالعناية . ومن حسن الحظ انه كان رجلا بليغا فخم العبارة عظيم الهممة وان كان هو نفسه رجلا صغير الحجم دميم الشكل ، وقد نجح الى حد كبير في ان يضع قارئه في العصر الذي يتحدث عنه حتى انك تسمع ، وانت تقرا وصف خروج جيش قيصر من روما للحرب ، قعقعة العجلات وصلصلة السيوف وصهيل الخيل ، ولم يحاول ان يقلص الأحداث او ان يجهد نفسه في البحث فيما وراءها .

والاجماع منعقد على ان تاريخه للقرون الثلاثة الاولى من تاريخ روما عمل رائع ، ولكن النقد كثير لما كتبه عن تاريخ الدولة البيزنطية اى عن الالف سنة الاخيرة من تاريخ الدولة الرومانية ، وقد سخط عليه الكثيرون لتحرر فكره وقلة ايمانه بالمسيحية ، ولهذا كرهه وحمل عليه الدكتور صمويل جونسون وصاحبه بوزويل ، ولكن هذا بالذات اعطى ذلك الرجل الفرصة ليفهم الدبانات الاخرى ، ولهذا فادوارد جيبون من الاوروبيين القلائل الذين قدروا الاسلام وراوا بعض جوانب عظمة الرسول الكريم وهنا نجد جيبون اوسع ذهنا واكثر تحرا من فولتير الذى لم يستطع ، رغم تحرره المعروف ، التخلص من اسرار التعصب الكاثوليكي ، بل لقد حاول جيبون ان يفهم الزردشتية والماتوية وما اليهما من العقائد غير السماوية ، وهذا فضل يذكر له . لم يكن جيبون صاحب مدرسة في التاريخ - مثل رافكه مثلا - ولكنه ارتفع بالتاريخ كله الى مستوى لم يعرفه الغرب قبل ذلك .

لقد عاش جيبون في صميم عصر التنوير The Enlightenment وعاصر فولتير ومونتسكيو Montesquieu **وجان چاك روسو** وغيرهم من اعلام ذلك العصر . ويحس الانسان وهو يقرأه انه اكثر الجميع استنارة ، لا نستثنى من ذلك جان چاك روسو . وهو دون شك اقرب الى الروح الانساني ، وادق فهما للتاريخ من معاصره الفرنسي الاسقف **چاك بنين بوسويه** Jacques Benigne Bossuet (١٦٢٧ - ١٧٩٤) الذى يحتل مكانا كبيرا بين المؤرخين بكتابه المسمى مقال عن التاريخ العالمي Discours sur l'histoire universelle الذى جعل الكنيسة الكاثوليكية فيه محور التاريخ الانساني كله وفسر التاريخ كله تفسيراً دينياً صرفاً بل مسيحياً كاثوليكياً نحسب .

في ذلك العصر ارتفع مقام المؤلفات التاريخية واقبل عليها الناس حتى ان **ديفيد هيوم** David Hume الفيلسوف صرف جزءا كبيرا من وقته في التأليف التاريخي ، ولف تاريخاً لانجلترا في ستة مجلدات ، كسب من المجلد الاول وحده الفي جنيه وكانت مبلغا ضخما بحسب تلك الايام .

ولا يمكننا ان نترك عصر التنوير ومؤرخيه دون وقفة صغيرة عند **آدم سميث** (١٧٢٣ - ١٧٩٠) الذى يعتبر مؤسسا لعلم الاقتصاد بكتابه المشهور عن «الثروة الامم» Wealth of Nations وهو كتاب تاريخي في صميمه وفي طريقته ، وفضيلة آدم سميث انه لفت الانتظار الى اهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ ، وهي كما نعرف من اهم العوامل واواها بالاهتمام . وبكفي ان نذكر ان جيبون في بحثه الطويل عن اسباب سقوط روما لم يتنبه الى العامل

الاقتصادي . انما تنبه اليه المؤرخون بعد ان كشف آدم سميث عن اهمية العامل الاقتصادي في بناء الدول والجماعات ، وقد افاض كارل ماركس بعد ذلك في هذه الناحية ، ولكن آدم سميث يعتبر صاحب الفضل الاول في استلغاف انظار الناس الى اهمية العامل الاقتصادي .

واذا كان مؤرخو القرن الثامن عشر وعلى راسهم ادوارد جيبون قد لفتوا انظار الناس الى اهمية دراسة التاريخ دراسة علمية وقيمتها الكبرى ، كدراسة انسانية اصيلة ، فانهم رغم ذلك لم يصلوا الى تثبيت اقدام التاريخ كعلم له اصول ومناهج مقرر في البحث . فعلى الرغم من ان جيبون وهب حياته كلها لدراسة التاريخ الا انه ظل يعتقد انه ضُرِبَ من الادب وقال عنه انه « اذنيحُ ضروب الادب » :
The most popular of all forms of literature
وهي عبارة انكرها عليه مؤرخو القرن التاسع عشر انكارا شديدا ، والحق ان الذي يقرأ جيبون وفولتير على انهما اديبان ، بقدرهما باكثر مما يفعل من بقراهما على انهما مؤرخان . ومن عباراته المبدعة التي كتبها في مقدمته كتابه عن اضمحلال الدولة الرومانية قوله : « ان كل صفحة من صفحات التاريخ ملطخة بدماء البشر وعنف الصراع بين الناس وغرور النصر والياس من التوفيق وذكريات المظالم الماضية والخوف من الاخطار المقبلة ، وهذه كلها امور تثير العقل ولكنها تسكت صوت عاطفة الاشفاق » وهذه مقالة اديب وشاعر وليست قطعاً عبارة مؤرخ محترف ، لان المؤرخ الممارس يعرف ان هذه كلها اشياء طبيعية داخلية في تكوين بنية الحياة على الارض . فكما ان عالم الحيوان لا يستنكر اقتراس الذئب للارنب ، لان الذئب بطبيعته يعيش على الاقتراس فان المؤرخ لا يستنكر الحروب او المظالم او المآسي التي ينزلها الناس بالناس لان هذه هي طبيعة الحياة .

ويؤخذ على مؤرخي القرن الثامن عشر كذلك قلة تنبههم الى تطور الانسان ومجتمعه . فانسان عصرهم في نظرهم هو نفس انسان العصور القديمة دون ادنى تطور في عواطفه او سلوكه . ومن هنا فانهم جميعاً يجمعون على سوء الظن بالناس وتصرفاتهم . والسخرية من البشر واعمالهم ، وهم بهذا اقرب الى الاخلاقيين منهم الى العلماء او المؤرخين المحترفين . ولهذا فانهم لم يستطيعوا ان يصلوا بالتاريخ الى مرتبة العلوم التي تدرس في الجامعات .

ليوبولد فون رانكه ومدرسته :

ولكن وضع التاريخ هذا والنظرة اليه كان لا بد ان يتألفها تغيير حاسم خلال القرن التاسع عشر الذي تميز بتزاحم الاحداث الضخمة التي احدثت في الذهن الاوربي ما يشبه الزلازل العنيفة العميقة المدى ، وقد احدث هذا الزلازل ثورة حقيقية في كل ميادين العلوم تقريباً ، وكان لا بد ان يكون للتاريخ نصيب من هذه الثورة ، فانتقل التاريخ من نطاق الهوايات او الاداب الى نطاق العلوم ذات الاصول والمناهج .

ومثلت هذه الثورة في ميدان التاريخ في الحركة الشاملة البعيدة المدى التي قامت بها مدرسة برلين وطلبتها نيبوهر Niebuhr وقاندها **ليوبولد فون رانكه** .

ولكن الفضل في هذا التطور الشامل في علم التاريخ لا يرجع كله الى الالمان ، بل سبقهم اليه مفكرون اوروبيون آخرون اشتهرهم **جامباتيستا فيكو** Giambattista Vico (١٦٦٨ — ١٧٧٢) وهو مفكر ايطالي من نابولي تشوب تفكيره فوضى جعلت البعض يتهومونه بالجهل ، ولكن الرجل كان ذا فكر لاجح ممكن له من ان ينظر في التاريخ نظراً هي اعظم مما فعله الكثيرون من مشاهير رجال

عصر التنوير ، فقد نظر إلى التاريخ نظرة عامة وآخذة في مجموع عصوره وقسمها إلى ثلاث حقبة ، الأولى « الهلنستية » أي العصر الذي كان الناس يردون كل الحوادث إلى صنع آلهة ، والثانية « بطولية » كان التاريخ فيها سردا لأعمال وعظماء الرجال ، والثالثة « انسانية » وهي التي انتبه المؤرخون فيها إلى أن التاريخ الحقيقي هو الذي تصنعه الجماهير والشعوب . وعلى الرغم من بساطة هذا التقسيم وسذاجته ، فإن فيكون يعتبر في الغرب أول من نظر إلى التاريخ العالمي نظرة عامة فلسفية . لقد عاش بعد ابن خلدون بثلاثة قرون (عاش ابن خلدون فيما بين سنة ١٢٣٢ - ١٤٠٦) ، وكان ينبغي أن يعتبر تابلا له في سلسلة فلاسفة التاريخ ، ولكن أهل الغرب نادرا ما يفكرون تفكيرا عالميا حقيقيا ، وهم نادرا ما يوسعون لغير غربي مكانا في تاريخ الفكر العالمي .

ولقد كان لكتاب **فيكو** أثر بعيد في اوساط المؤرخين إلى نهاية الحرب العالمية الأولى على الأقل ، وربما كان اثره مباشرا عند رجل مثل **يوهان جوتفريد هيردر** Johann Gottfried Herder (١٧٤٤ - ١٨٠٣) الذي يعتبر بحق مؤسس المدرسة الألمانية في علم التاريخ . كان هيردر في اساسه أدبيا وناقدا أدبيا ، وتكوينه الأول لاهوتي كلاسيكي ، وهو يحتل مكانا ضخما في تاريخ الأدب الألماني ، فهو صديق **جيتته** معظم أيام عمره ، وهو من مؤسسي حركة الاقتحام والاندفاع Strum und Drang ذات الانزاع البعيد في تاريخ الفكر الجرمانى ، ولكنه صرف إلى التاريخ جانباً من عنايته وألف فيه كتباً تعتبر معالم على طريق علم التاريخ الحديث وخاصة كتابه « آراء في فلسفة تاريخ البشر : Ideen Zur Philosophie der Egeschichte der Menschheit » ورسائله المسماة « وكذلك فلسفة لتاريخ بناء الإنسانية » Auch eine philosophie der geschichte zur bildung der Menschheit غير أن آراء هيردر في التاريخ متناثرة في أعماله الكثيرة في الأدب وعلم اللغة والدراسات القديمة ، فقد كان الرجل موسوعيا بحق سواء في ثقافته الخاصة أو ميادين دراساته وتوابعه .

وتقوم فلسفة التاريخ عند هيردر على القول بأننا لا بد أن ندرس الماضي لفهم مشاكل اليوم والغد ، وقد نسبته ابن خلدون في تشبيهه الجماعات الإنسانية بالمخلوقات الحية وقال ، بأن لها هي الأخرى أعمارا من الطفولة والصبوة إلى الشيخوخة ، وأبدى ذكاء بعيدا في فهم التاريخ الأوروبي المعاصر له ، وقد قال أن المؤرخ ينبغي أن « يحس » العصر الذي يؤرخ فيه إحساسا مباشرا ، وابتكر لذلك فعلا في اللغة الألمانية هو *empfinden* وقال أن هذا الإحساس المباشر هو الحاسة التاريخية ، ولهذا فإن لفظ الحس أو الإحساس *das gefuehle* له عند هيردر معنى خاصا ، وهو ممن قالوا بأن المؤرخ الحق هو الذي يستطيع أن يكون فكرة أو صورة عامة *Gestalt* عن العصر أو الشخص أو الظاهرة التي يكتب عنها . وقد حاول أن يثبت في كتابه المسمى « آراء عن فلسفة تاريخ الإنسانية » أن التاريخ يخضع لقوانين كتلك التي تخضع لها الأشياء والطبيعة ، وقد قال بأن التاريخ يسير في خط تقدمي واحد ، وتحدث عما سماه التوازن الداخلي للجماعات ، وأن كل جماعة حية سليمة ينبغي أن تحافظ على هذا التوازن ، وأن الاضطرابات والفوضى وعهود الظلم والتأخر تنتج عن فقدان هذا التوازن ، وكان يؤمن بأن لانسانية ستصل يوما ما عن طريق العقل والتجربة إلى حالة من التوازن تستقر معها أسس العدالة والنظام .

وكان هيردر بعمله هذا فاتحا لعصر جديد زاهر في تاريخ العلم التاريخي انتهى باعتباره علما قائما بذاته له أصوله وقواعده وكراسيه وأقسامه في الجامعات ، والفضل الأكبر في ذلك يرجع إلى **ليوبولد فون رانكه** Leopold Von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦) الذي عمّر فوق التسعين

سنة ، عاملا نشيطا في ميدان التاريخ ، وهو من اوائل من قصروا جهدهم كله على التاريخ ووصفوا في الغرب بانهم مؤرخون . ولد رانكه في ٢١ ديسمبر ١٧٩٥ في بلدة فيهي Wiehe في مقاطعة تورينجن في مملكة سكسونيا وتخصص أولا في الدراسات القديمة والأهوت ، ثم دخل في خدمة ملوك بروسيا وانتقل الى برلين حيث عين استاذامساعد للدراسات القديمة في جامعتها سنة ١٨٢٥ ثم اصبح استاذًا وظل في هذه الوظيفة الى وياته في ٢٣ مايو ١٨٨٦ في برلين .

كان رانكه عميق الايمان بالمسيحية على المذهب اللوثرى (البروتستانتي) وكان مثاليا على مذهب فيخته ، وباتر باتجاه هيردر نحو الاعتراف بالجانب الانساني اى البشرى في التاريخ وقال بفكره التطور العضوى للجماعات وكذلك باهمية العامل الفردى Das Individualistische في توجيه الاحداث ، ولكنه انكر استخدام التاريخ للغة والعبرة ، وهو مذهب مؤرخي العرب ومعظم مؤرخي القرن الثامن عشر في اوروبا ، وقال ان التاريخ ينبغي ان يدرس لداته لا كوسيلة للتعليم والتهديب .

واهم ما تميز به رانكه ودعا اليه قوله بانذاني في قبل كل شيء ان نعرف الاحداث والاحوال الماضية كما كانت بالضبط ، ودفعه هذا الى الاهتمام بالوثائق ومخلفات الماضي اهتماما بالغا . فلكي نعرف عصرنا ينبغي ان نراه في الاصول التى كتبت خلاله لا تلك التى كتبت عنه ، وائ شىء هو اصدق من الوثائق الرسمية ومكاتبات الدول والافراد وسجلات الحكومات والكنائس والمذكرات الشخصية ؟ وقد بلغ من حماس رانكه وثلايمه لهذه الاصول ان انتشروا في الارض ينقبون في كهوف المحفوظات ورفوف الاديرة باحثين عن الوثائق في حماس جعلل الدول والامارات والكنائس وغرف التجارة وبيوت الاشراف نهتم بتلك الاضابير وتنظيمها فنشأ علم الوثائق واخذت قواعده تستقر ، وقامت دور المحفوظات ومجموعات السجلات في اوروبا كلها ، واقبل طلاب التاريخ بدرسونها وكانهم - كما قيل يومئذ - فيران نقضى الليل في قضم صفحات الكتب » وكان كتابه الاول المسمى تواريخ الشعوب اللاتينية والجرمانيه Geschichten der Romanischen und Germanischen Völker طرازا جديدا من التأليف التاريخي يقوم على الاعتماد على الاصول . وقد بسط فيه رانكه آراؤه التى ذكرناها . ولكنه وقع فيما وقع فيه ابن خلدون عندما عجز في تاريخه عن ان يطبق نظرياته التى بسطها في « المقدمة » فقد كان - مثلا - ناقدا حصيفا لاصوله التى اعتمد عليها ولكنه كان شخصيا غير موضوعي في الكثير من احكامه ، وانكر على هيجل تأملاته وتصوراته غير التاريخية ثم ملا هو كتبه بالتأملات والنظريات الخاصة ، ومن اكبر وجوه النقص في تفكيره انه في حماسه للنظام البروسى لم ير الحد الفاصل بين سعي بروسيا نحو الوصول الى القوة واستخدام هذه القوة للعدوان بعد ذلك . وقد رأى في « الدولة » مفهومًا اخلاقيا شبيها بالكنيسة ، ووقع بذلك في الاحراف الذى وقع فيه الكثيرون من مفكرى الالمان الذين تحمسوا للنظام البروسى واعتماده على القوة والنظام حماسا يعتبر تمهيدا لقيام دولة الحديد والنار على يد بسمارك .

وكان اهتمام رانكه بالوثائق الرسمية ومكاتبات الدول سببا في اهتمامه الشديد بالتاريخ السياسي والعسكرى فلم ينتبه كثيرا الى التواحي الاجتماعية والاقتصادية . وقد وجه معظم اهتمامه الى قيام النظم السياسية الاوروبية وما كان يقوم بينها من صراع . ولكن غاب عن ذهنه تماما ان يفتن الى اهمية قيام الدولة السلافية الكبرى وهي روسيا وتوسعها البطيء

الذى سيجعل منها في المستقبل اكبر قوة في اوروبا . وكان إيمانه شديدا بنظام المجتمع الالمانى الذى عاش فيه والنظام البروسى الذى حكم ذلك المجتمع ، فكان شديد الإعجاب بالطبقة الوسطى الالمانية-وهو منها - وكذلك بالطبقة الأرستقراطية الالمانية التى انتسب اليها فيما بعد . وهذا كله حال بينه وبين ان يقدر نظم المجتمعات الاخرى خارج اوروبا ويفهم حضارتها ، وإذا كان قد اجاد فهم تاريخ بروسيا في الكتب التسعة التى كتبها عنه Neun Bücher preussischer Geschichte (١٨٤٧ - ١٨٤٨) وتاريخ انجلترا فى كتابه عنه Englische Geschichte (١٨٥٦ - ١٨٦٨) وكذلك تاريخ فرنسا فى كتابه Fransoesische Geschichte (١٨٥٢ - ١٨٦١) فانه لم يوفق فيما كتبه عن موضوعات تاريخية غير اوروبية . ومثال ذلك مقاله عن محمد صلى الله عليه وسلم الذى نشره فى المجلة التاريخية التى سنشئ اليها ، وهو دليل واضح على قلة علمه فى ذلك المجال وقصوره عن ادراك حقيقة الاسلام ورسوله . وكذلك فهمه قليلا بالحركة الصناعية فى اوروبا كلها وما كان لها من نتائج ، ولم يكتب شيئا ذا قيمة عن الولايات المتحدة .

ولكن الذى اعطى راتكه مكانه الكبير فى تاريخ علم التاريخ هو اهتمامه بالوثائق والمنهج الدقيق الذى وضعه لتنظيمها ودراستها ، وكانت الوثائق تسمى بالدبلومات ولهذا فان مدرسة راتكه تسمى بالمدرسة الدبلوماسية ومن الخطأ تسميتها بالمدرسة الدبلوماسية . فلا علاقة لعمله بالدبلوماسية بفهمها الشائع اليوم . ومما يذكر له بالخبر اسفاره المتعددة الى بلاد اوروبا لفحص مجموعات الوثائق وتقارير السفراء والمكاتبات الرسمية . واليه يرجع الفضل فى انشاء اللجنة التاريخية فى اكااديمية بافاريا للعلوم Historische Kommission bei der Bayrischen Akademie der Wissenschaften . وقامت هذه اللجنة بنشر الوثائق العامة ووثائق الدولة والمدونات والخطابات . وعلى مثال هذه اللجنة انشئت فى نواحي اوروبا كلها هيئات قامت بهذا العمل فى كل ناحية ، فتبئات السبل بذلك امام المؤرخين ليقوموا دراساتهم على الاصول . وانشاء كذلك المجلة التاريخية السياسية Historische-Politische Zeitschrift . فكانت من طلائع الدوريات التاريخية التى قامت ولا زالت تقوم بالدور الذى نعرفه فى ميدان الابحاث التاريخية .

والنظرية الاساسية التى جاء بها هي قوله باننا ينبغي ان نصور الماضي كما كان بالضبط wie es eigentlich gewesen وهي غاية فسيحة كل العصر ، لم يوفق اليها هو نفسه فى الكثير من كتبه ، ثم اننا لا نعرف كيف كان الماضي بالفعل حتى نحكم اذا كان المؤرخ قد وفق فى تصويره تصويرا دقيقا ام لم يوفق ، ولكن مذهبه هذا دفع بالمؤرخين الى الانصراف عن التصورات التخيلية للماضي والبحث عن الحقيقة كيفما كانت على قدر ما تساعفهم مكانتهم .

وكان راتكه كذلك مولعا بتنسيق المادة التى يحصل عليها والبحث عن التوازن فى تصويره للحوادث او المجتمعات ، ولهذا فانه لم يوفق الى فهم الثورة الفرنسية مثلا لانه لم يجد فى حوادثها ذلك التوازن الذى كان يلتزمه دائما . وقد كان مغاليا ولا شك فى تقدير مهمة المؤرخ عندما قال فى مقدمته لكتابه عن تاريخ الامم اللاتينية والجرمانية : « ولقد وضعت على عاتق التاريخ مهمة الحكم على الماضي وافهام الحقائق لاهل الحاضر بما يعود بالخير على اهل الاجيال القادمة . وكتابتى هذا لا يسبو الى تحقيق هذه المطالب الرفيعة وكل مايسعى اليه هو ان يعرض ما حدث فعلا بالضبط كما كان بالفعل » . ولقد كان لهذا المبدأ اثر سيء فى اعمال الكثيرين من المؤرخين الذين تابعوا راتكه ، فجعلوا من انفسهم قضاة للماضي وحكام على اهله ، ومضوا يصدرون احكاما تضمنت خطلا كثيرا ، وجعلت الكثير من هذه الكتب اشبه بالهراء ، لان مهمة المؤرخ الاساسية ليست الحكم على الماضي وانما فهمه ، وعند الفهم الصحيح للماضى ينتهي مهمة المؤرخ كمؤرخ ، فاذا تعدى مهمته ونصّب نفسه قاضيا تعرض للخطأ .

على أى حال يعتبر رائكه بشخصيته وحماسة ونشاطه ودأبه على العمل فاتح عصر جديد في تاريخ التاريخ ، فقد نقل التاريخ من ميادين الأدب والفلسفة والتأملات الى ميدان خاص به ، فقرر بصورة نهائية مكانه كعلم له شخصيته وحدوده ومناهجه وأهدافه وفائدته . واقبلت الجامعات تخصص له الكراسي ، عامة أولا ، ثم مخصصة بعد ذلك ، فانشئ في الجامعة الواحدة أكثر من كرسي للتاريخ ، وانشئت دور المحفوظات ، ورثت فيها الوثائق ، ووضعت تحت تصرف الباحثين ، وظهرت وظيفة خاصة جديدة هي وظيفة قِيم المحفوظات Archivist بل انشئت كما سنرى معاهد خاصة لعلم الوثائق . وقد بلغ من تقدير الناس لعمل رائكه ان قال اللورد آكتون استاذ التاريخ الانجليزى المعروف : ان رائكه هو كوليبوس العلم التاريخي .

ولا يمكن ان نغفل ذكر **نيبوه** Barthold Georg Niebuhr في هذا المجال . كان هذا الرجل دانماركى الاصل ولكنه دخل في خدمة الحكومة البروسية من سنة ١٨١٠ حيث عين محاضرا في التاريخ في جامعة برلين ، وفي تلك الجامعة التي سلسلة محاضرات عظيمة القيمة في تاريخ روما نشرت في مجلدين سنة (١٨١١ - ١٨١٢) وقد انبت في هذين المجلدين واعتمادا على الوثائق والسجلات زيف مؤرخ كان له مقام كبير في دراسات تاريخ الدولة الرومانية وهو **تيتوس لивиوس** Titus Livius . وقد اتبع نيبوه في دراسته منهجا غاية في الدقة والاحكام تمكن به من استخلاص الحقيقة من كل ما وقع تحت يده من وثائق ونقوش وسجلات وخطابات . وقد تأثر رائكه نفسه بمنهج نيبوه في الاستفادة الكاملة من المذكرات واليوميات والمراسلات الدبلوماسية وروايات شهود العيان وما اليها من المراجع الاصلية المباشرة .

وعقب ذلك مباشرة قام المؤرخ الفرنسي **فرانسوا جيزو** Guizot (١٧٨٧-١٨٧٤) الذي اصبح وزيرا فيما بعد باصدار اوائل مجلدات مجرعة وناثق تاريخ أوروبا في العصور الوسطى المعروفة باسم Monumenta Historiae Germaniae التي بلغت مجلداتها فيما بعد بضع مئات ضمت مجموعة هائلة من الوثائق والمذكرات والمكاتبات ونصوص المعاهدات وما اليها . ثم قام المؤرخ الفرنسي **اوجستان تيرى** Augustin Thierry (١٧٩٥ - ١٨٥٦) باصدار كتابه المعروف « تاريخ الغزو النورماندى لآنجترا » (١٨٢٥) معتمدا على الوثائق الأولى فحسب ومثقلا بالهاموش واشارات المراجع . وفي سنة ١٨٢١ انشئت في فرنسا مدرسة الوثائق المعروفة باسم Ecole des Chartes التي لا تزال الى اليوم من اعظم معاهد أوروبا لدراسة علم الوثائق والمخطوطات وما الى ذلك . وكل هذه نتائج مباشرة للحركة التي ادخلها رائكه ونيبوه على دراسات علم التاريخ .

ولم يقتصر عمل رائكه ونيبوه ومدرستهما على تقرير اصول البحث التاريخي ومناهجه ووضع الاسس العلمية للنقد التاريخي واكمال تكوين التاريخ كعلم سوي قائم بنفسه مستقل التخصصية . بل انهم عملوا كما قال **ايبرى نيف** في كتابه عن « شاعرية التاريخ » : على توكيد مغزى الاحداث واستمرارها وادراك حركة التطور التاريخي وفهما « (٢١) .

وقد اتهم رائكه ، من بعض معاصريه ومؤرخي الجيل التالي عليه ، بأنه جرد التاريخ من شاعريته وجعله سجلا جافا للحقائق المدعمة بهاموش ضخمة من الاشارات الى الاسسول ، واخذ عليه ايضا ايمانه القومي المتعصب بالدولة البروسية واسلوبها المحافظ في

الحكم ، ومن هنا كان رانكه معاديا لكل حركات التحرر التي قامت في أوروبا في عصره ، ومن الواضح ان محافظته حالت بينه وبين فهمها . ومن هنا كانت الحملة عليه شديدة من جانب مؤرخين مثل **دورنيج** Duering ، **ولورنتس** Lorentz ، و**لامبرخت** Lamprecht و**يوهان جوستاف درويسن** Johann Gustav Droysen (١٨٠٨ - ١٨٨٤) الذي وصف موضوعه رانكه بأنها سلبية .

ولكن اكبر ناقدى رانكه كان **يعقوب يوركرات** Jacob Burckhardt (١٨١٨ - ١٨٩٧) وهو من اصل سويسرى ، ولكنه تتلمذ لرانكه وتخرج عليه في برلين وقد نفر من جمود رانكه وقضائه على الجانب التساوى من التاريخ . وبلغ من استنكاره للمذهب رانكه هذا ان رفض ان ينولى كرسي التاريخ بعده في جامعة برلين ، ثم قام بتأليف ثلاثة من احسن ما كتب في التاريخ على المذهب الجديد وهي : عصر قسطنطين الكبير Die Zeit Konstantin des Grossen (١٨٥٣) وحضارة عصر النهضة في إيطاليا Die Kultur der Renaissance in Italien (١٨٦٠) وتاريخ النهضة في إيطاليا Die Geschichte der Renaissance in Italien (١٨٦٨ - ١٨٧٣) ثم اتبعها بكتابه المشهور : تأملات في التاريخ العالمي Weltgeschichtliche Betrachtungen وكلها كتب تجمع بين المنهج التاريخي الدقيق الى جانب الاحساس الانساني والجمالي . وجدير بالذكر ان آدم ميتز الذي كتب كتاب نهضة الاسلام Die Renaissance des Islams الذي اشتهر عندنا بترجمته العربية التي عملها د . **محمد عبد الهادي ابو ريده** ونشرها باسم « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع » هذا الرجل كان تلميذا ليوركرات وهو سويسرى مثله ، وقد كتب كتابه على مبال كتاب استاذ من تاريخ عصر النهضة في إيطاليا .

وقد اشرنا الى بعض ممثلي هذه الحركة الجديدة في فرنسا من امثال جيرو وفييري ولكن اكبر اولئك الممثلين وابعدهم اثرا كان **جول ميشيليه** Jules Michelet (١٧٩٨ - ١٨٧٤) الذي جمع الى ضبط المدرسة الجديدة ودقتها وقدرتها على الاستفادة من المراجع روحا شاعرية رومانتيكية ، وحامسا قوميا يسار حركة الثورة الشعبية التي استمرت في فرنسا طوال القرن التاسع عشر . لقد اشتهر ميشيليه بتاريخه المطول لفرنسا الذي يقع في سبعة عشر مجلدا (١٨٣٣ - ١٨٦٧) الذي يعتبر دون شك من اعظم الاعمال العلمية في تاريخ التاريخ ، ولكن جهود ميشيليه في اصلاح مناهج علم التاريخ في المدارس الثانوية لا تقل اهمية عن ذلك . لقد تولى ميشيليه التدريس في مدرسة المعلمين العليا في باريس L'Ecole Normale وفي السوربون وفي الكوليج دي فرانس Le Collège de France ولكن ذلك لم يصرفه عن تأليف كتب مختصرة في التاريخ لينتفع بها المدرسون في المدارس مثل مختصر للتاريخ الحديث Précis de l'Histoire Modern (١٨٢٧) ومقدمة للتاريخ العالمي Introduction à l' Histoire Universelle (١٨٣١) وكلها مؤلفات كان لها ابعاد اثر في وضع الاسس للكتاب المدرسي في مادة التاريخ .

هيجل والثالثة التاريخية :

ولا بد من الإشارة هنا الى العلاقة بين آراء هيجل في التاريخ وما حققه رانكه ومعاصروه . لقد سبق ان اشرنا الى بعض نظريات جيورج فلهلم **فريدريش هيجل** (١٧٧٠ - ١٨٣٠) ولكننا حريون الآن بان نلقي نظرة على مجمل آرائه قبل ان تنتقل الى دراسة آراء مدرسة الماديين اي

اصحاب التفسير المادي للتاريخ ، وهم الذين زعموا الثقة في قيمة فلسفة التاريخ عند هيجل . وواضح ان هيجل سابق على رانكه بجيل كامل فقد ولد هيجل سنة ١٧٧٠ وولد رانكه بعد ذلك بخمسة وعشرين سنة (١٧٩٥) وعندما توفي هيجل سنة ١٨٣١ كان رانكه في مطالع نشاطه الواسع المادي ، ولكنه نشأ على أى حال في جو مشبع بالهيجلية التي ظلت تسيطر بقوة على الفكر الأوروبي حتى تمكن الماديون من زحزحتها عن مكان الصدارة في عالم الفكر الأوروبي .

يعتبر هيجل في جملة المثاليين الذين يقولون ان الفكر او الفكرة اساس كل ما هو موجود . ويستعمل هيجل هنا مصطلحا خاصا هو *der Geist* الذى يمكن ترجمته ايضا بعبارة الروح او ما يسمى في الانجليزية *Spirit* وفي الفرنسية *Esprit* ولكن هيجل كان يعني به العقل او الفكر ، ولكنه ليس العقل او الفكر الانسانيين العاديين وانما هو العقل الأعلى الذى يوجه الكون ، وهذه الفكرة نبعت من ايمان هيجل الوثيق بالمسيحية وقد بسط فكرته تلك في كتابه عن روح المسيحية *Das Christliche Geist* وهو يرى في المسيحية او روح المسيحية اجتماع العنصرين الالهى والانسانى ، اى الروح والبدن ، اى الكنيسة والدولة ، والعبادة والحياة ، والتقوى والفضيلة ، وهذه الثنائية المسيحية كان هيجل يراها في الكون كله . وقد كان المفكرون الماديون يقولون ان الفكر يحكم الدنيا *L'Opinion gouverne le Monde* فكانوا بهذا يعطون العقل الانسانى اكثر مما يستحق او يستطيع ، وكانوا بذلك واحدتين او *monists* في تفكيرهم . اما هيجل فكان ثنائيا يؤمن بأن هناك عنصرين متميزين يختلف كل منهما عن الآخر وهما الروحى والمادى وهما مجتمعان في روح او فكر واحد *Geist* يعتبر القوة العليا التي تحرك كل شيء ، وهذا هو العقل المطلق ، ويعتمد هيجل في التدليل على ذلك بنوع خاص من الجدل او الحوار يسمى عادة باسم *Dialektik* وعن طريق هذا الجدل وصل الى القول بأن العقل او الفكر الانسانى يسعى دائما نحو التقدم ليصل الى العقل او العلم المطلق الذى يعتبره مثالا يحتذيه ، ومن هنا يوصف هيجل بأنه مثالى ، بل يعتبر في طليعة المثاليين الاسمان وهم خصوم الماديين *the materialists* الذين سنتحدث عنهم في الفقرة التالية . وقد شرعنا فيما مضى كيف طبق هيجل هذا المبدأ في فلسفته للتاريخ وهي تتلخص في سعي الجماعات الانسانية للانتقال من حالة الهيجية والوحشية الى مستوى الدولة ذات النظام والقانون . وقد وفق هيجل في ميدان فلسفة التاريخ توفيقا جعل الناس يضعونه دائما في عداد المؤرخين . وبالفعل كان هيجل مؤرخا واسع الفهم والادراك التاريخي . وبفضل هذا الادراك وصل بفلسفة التاريخ على مذهب المثاليين الذين يؤمنون بالفكر او العقل المطلق الذى يسر الاحداث في الكون ويعتبرونه مثالا او مثالا أعلى ، وان التاريخ على هذا الاعتبار ان هو الا عملية طويلة متقدة بتقدير *Vorsehungsprozesse* يأخذ فيها كل حادث او ظرف مكانه ومبرراته على ضوء مسار التاريخ في مجموعه . وقد اهتم هيجل اهتماما خاصا بالتطور الانسانى للدولة وهنا يتفق هيجل مع رانكه الذى قال ان السدول الفكرية لله *Gottesgeanken* ويريد بذلك انها تقوم بتقدير الله سبحانه (٢٢) .

Fritz Stern, *The Varieties of History* (1956) p. 61-62.

Arthur Marwick, *The Nature of History*, p. 37.

وقد اخذنا آراءنا عن فلسفة التاريخ عند هيجل من كتابه المشهور عن فلسفة التاريخ واحسن ترجمة انجليزية له هي التي عملها J. Sibre سنة ١٩٥٦ .

التفسير المادى للتاريخ :

ولكن مثالية هيغل لا تعين الانسان على تفسير الحركة الدائمة للتاريخ . انها ترضي الفيلسوف او العقل الفلسفي الذى يفتنه منطق هيغل الدقيق ، وطريقته في الجدل ، التى تكشف عن ذكاء خارق ، ودقة ذهن لا تجارى ، ولكننا عندما ننتهي من استيعاب مذهبه ونفهم أن الفكر او الفكرة او العقل المطلق او المثال هو اساس كل موجود او روحه بتعبير ادق ، وان المادة نفسها ليست الا صورة من صور وجود العقل المطلق او الفكر نجد انفسنا قد خرجنا من ميدان التاريخ تماما ، واننا عاجزون عن الاستفادة من هذا التفلسف الرفيع في فهم أى حادث كبير من حوادث التاريخ . ان الفيلسوف يجد متعة كبرى عندما يجد هيغل يقول : ان التاريخ انما هو تفتح ذلك العقل الكوني (المطلق) وانبساطه في الزمان . ولكن المؤرخ لا يدرى ماذا يفعل بهذه العبارة .

ولقد قال هيغل ان فلسفة التاريخ هي التاريخ منظورا اليه بذكاء . وبالفعل يرى القارئ لكتاب هيغل في فلسفة التاريخ انه ينظر اليه بذكاء ، فالتى نظرات بالغة الصدق على حضارات العصور القديمة ، ولكنه عجز تماما عن ادراك العوامل التى ادت الى سقوط روما مثلا . وهذا هو الذى جعل راتكه ومدرسته يجهدون انفسهم في جمع الوثائق والمخلفات والمخطوطات ودراستها بعناية ، باحثين عن العوامل التى حركت تاريخ البشر شأنهم في ذلك شأن المحقق الجنائي الذى يفحص كل صغيرة وكبيرة يعثر عليها في مسرح الجريمة بحثا عن ادلة توصله الى الحقيقة ، ثم يعد ملفا كاملا للقضية ، ويضعه بين يدي القاضي . هذا الملف يصف بفاية الدقة كيف وقعت الجريمة ، ولكنه في الغالب لا يصل الى مرتكبي الحقيقتي ، ووبقع القاضي بذلك في حيرة كبرى ، والقاضي هنا هو القارئ الذى يهلك في قراءة مؤلفات المؤرخين الذين اتفوا على مذهب راتكه ، متأثرين بمثالية هيغل ، وانقلوا كتبهم بهوامش واشارات الى المراجع تزيد حجما على النص نفسه ، ولا يصل في نهاية الامر الى حقيقة الواقعة التاريخية التي يقرأ عنها .

ولكن نفرا آخر من المؤرخين اتجهوا من أول الامر اتجاها ماديا في دراسة التاريخ ، اذ انهم اعتبروا الانسان حيوانا كغيره يسعى لرزقه وحماية نفسه . وجعلوا ذاهب البحث عن العوامل الداخلية التي تدفع الانسان او الجماعات البشرية الى الحركة ، وكلها في نظرهم عوامل مادية . اى انهم نظروا الى التاريخ وكأنه فرع من فروع التاريخ الطبيعي فكانت مؤلفاتهم اكثر واقعية واقرب الى حقيقة الواقع ، وهؤلاء هم الماديون الذين تركوا جانبيا العامل الروحي او الديني او الفكري ونظروا الى المادى وحده ، فعرفوا باسم الواحديين Monists او اصحاب المذهب الواحد ، بخلاف المثاليين او الثنائيين الذين فسروا حركة التاريخ على انها بحث عن التوازن بين توجيه العقل المطلق الرفيع ونزعات البشر .

ولن نستطيع دراسة جميع أولئك الماديين ومذاهبهم . فذلك مطلب يطول . ثم ان الكثيرين منهم تهادوا في هذا الاتجاه الى درجة التبلل والسخف ، ولهذا فاننا سنكتفي بالظاهرين منهم ، الذين يحددون معالم الطريق الذى وصل في نهايته الى كارل ماركس وفريدريش انجلز .

نبدا عند سان سيمون Saint Simon الذى يعتبر من المع رجال الفكر الثورى في فرنسا بل اوروبا كلها . عاش سان سيمون فيما بين سنتي ١٧٦٠ و ١٨٢٥ فهو من المهدين للشورة الفرنسية وصانعي فلسفتها ، وهو يحسب في العادة بين علماء الاجتماع او الاقتصاديين . وهو

نفسه كان يقول ان ميدانه هو الفيزياء الاجتماعية *la physique sociale* وكان يحسب انه يستطيع بتحليل المجتمع تحليلاً فيزيائياً ان يجعل من التاريخ علماً يقينيا كغيره من العلوم الطبيعية. ولكي يصل الى ذلك عكف على دراسة تاريخ أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية . واهتدى الى ان هذا التاريخ يتلخص في صراع متصل بين العاملين (من زراع وصناع) ويسميهم بالطبقة الثالثة *tiers-état* والطبقتين الممتازين اللتين تستفيدان من جهود العاملين ، وهما طبقة النبلاء (الملوك ورجال الاقطاع) وطبقة كبار رجال الدين أو الاكليروس . وقد أبدى سان سيمون ذكاء بعيداً في دراسته تلك . وشرح لتلك الطبقة ان الملوك ابدوا الطبقة الثالثة في صراعاتهم مع امراء الاقطاع خلال العصور الوسطى . ومن مظاهر هذا التأييد تلك الحقوق التي منحوها لسكان المدن من تجار وصناع الذين كانوا يكرهون امراء الاقطاع الذين كانوا يستغلونهم ، وكانت نتيجة ذلك ظهور المدن الصناعية الفنية *les bourgs* وسكانها وهم البورجوازيين *les bourgeois* الذين تزعموا الطبقة الثالثة في نضالها مع امراء الاقطاع . ثم قادوها بعد ذلك في صراعها مع الملوك (الثورة الفرنسية وما تلاها) .

وبذلك يكون سان سيمون اول من تنبه الى ان صراع المصالح الاجتماعية ، او مصالح الطبقات الاجتماعية هو السبب الرئيسي في الحركة التاريخية ، واول من تنبه الى حرب الطبقات وحرب المصالح ودورها الكبير في حركة التاريخ .

وفي هذا الطريق سار احد نهباء تلاميذ سان سيمون وهو **أوجستان ثيري** Augustin-Jacques Nicolas Thierry (١٧٩٥ - ١٨٥٦) الذي يعد من المؤرخين الرومانتيكيين بسبب بلاغته وقدرته على صب رؤيته في قالب درامي يذكرنا بأدوارد جيبون . وكان الى جانب اهتمامه بالتاريخ والاجتماع قصاصاً . ويعتبر كتابه عن « الفزو النورماني لبريطانيا » من أحسن ما كتب في الموضوع معتمداً على المراجع الأولى ، وقد كلفه هذا الكتاب بصره ، فما زال يضعف حتى عمي تماماً سنة ١٨٢٠ ولكنه ظل نشيطاً في عالم البحث التاريخي حتى توفي سنة ١٨٥٦ .

وفد عاش ثيري بعد أحداث الثورة الفرنسية وتحمس لبادئها تحمسا شديداً واستهواه نظام الكومون *la commune parisienne* أي الحكومة المحلية الاشتراكية التي قامت في العاصمة الفرنسية في أثناء الثورة ، وهي اول تجربة في تنظيم الحكم على أساس اشتراكي متطرف ، فآخذ يدرس تاريخ جمهور الناس او ما يسمى بالطبقة الثالثة *tiers-état* واثق في ذلك كتابا من أربعة مجلدات سماه « مجموعة وثائق غير منشورة عن تاريخ الطبقة الثالثة (١٨٥٠ - ١٨٧٠) *Recueil des monuments inédits de l'histoire du Tiers-état* فابحس فيه التاريخ على انه صراع بين الطبقات ومصالحها ، وقال فيه ان الطبقة العاملة هي أساس الانتاج ومصدر الثورة ، وانها كانت دائماً كفاح مع الطبقات القوية المستبدة للوصول الى حقوقها ، وهاجم الفكرة القائلة بان التاريخ من صنع الأبطال وعظماء الرجال وتساءل : « أتريدون ان تعلموا على وجه الصحة من الذي انشأ مؤسسة ما ، او من الذي وضع خطة مشروع عظيم ؟ اذن فابحثوا عن الذين احتاجوا اليه بالفعل ، اولئك هم اصحاب فكرته الأولى وارادة العمل من اجله ، وهم اصحاب الفضل الاكبر في تحقيقه » . وعلى هذا الأساس لا يكون وليام الفاتح بطل الفزو النورماني لانجلترا وانما الأبطال الحقيقيون هم الزراع النورمان الفقراء في شمال غربي فرنسا ، الذين دفعتهم حاجتهم الى الارض الى الاندفاع نحو انجلترا باحثين عن مجال حيوى فسبح . وهنا فقط تصدى وليام لقيادتهم .

وشبيه بهذا ما نقرأه عند معاصر تييرى وهو **فرانسوا ميثييه** François Auguste-Marie Mignet (١٧٩٦ - ١٨٨٤) الذى كان مؤرخاً وأمين محفوظات ، وصحفيًا ثوريًا مناضلاً . كان زميلاً وصديقاً لـ **أدولف تيير** Adolphe Thiers الذى أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية الفرنسية . كتب ميثييه كثيراً جداً ولكن تاريخه للثورة الفرنسية الذى صدر فى مجلدين سنة ١٨٢٤ يفسرها على أنها صراع طبقات . صراع بين العاملين المنتجين والطبقتين المستفيدتين من ثمرات جهود العاملين ، فهو يقول مثلاً عن دستور سنة ١٧٩١ الذى أصدرته حكومة الثورة الفرنسية : كان هذا الدستور من صنع الطبقة الوسطى la bourgeoisie التى كانت اقوى الطبقات فى ذلك الحين . اذ أن القوة السائدة كما هو معروف - تسيطر على المؤسسات والنظم . وكان يوم ١٠ أغسطس انتفاضة جماهير الناس ضد هذه الطبقة الوسطى وضد الملكية الدستورية . كما كان يوم ١٤ يوليو انتفاضة الطبقة الوسطى ضد الطبقات المتميزة وضد الحكم الملكي المطلق » .

وهذه العبارة تعمنا هنا بصفة خاصة لانها تربنا ان كارل ماركس لم يكن اول من تنبه الى الدور الحاسم لحرب الطبقات وصراعها على السلطان فى توجيه التاريخ .

فمن المعروف أن الثورة الفرنسية التى قامت فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ قادها رجال الطبقة الوسطى ، الذين كانوا قد اتروا وتمولوا فى عهد الملكية ، وعندما تكسدت ثرواتهم شعروا بقوتهم وتطلعوا للسلطان ، فنادوا بالثورة على الملكية واستخدموا جماهير الناس فى ذلك ، فلما انتصرت الثورة تربع رجال هذه الطبقة الوسطى أى البورجوازيون فى دست الحكم واصدروا دستور ١٧٩١ الذى يؤمّن اموالهم وامتيازات طبقتهم . وانزلوا بجمهور الناس مظالم شتى .

وكان هذا هو الذى دفع بجماهير الناس فى باريس بالثورة على البورجوازية المتحكمة وانشاء الحكومة الاشتراكية المتطرفة la commune فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ والفاء دستور ١٧٩١ ومواصلة الثورة الى نهايتها .

كارل ماركس والتفسير المادى للتاريخ :

لم يكن كارل ماركس اذن اول من تنبه الى ان التاريخ لا يسره العقل المطلق وحده ولا يصنعه عظماء الرجال بعقرياتهم ، وانما تصنعه عملية تطور اجتماعي داخلي فى كيان كل امة ، وصراع طبقات للوصول الى الحكم والسلطان ، وان العامل الرئيسى الذى يقرر المصير فى النهاية هو الانتاج ، هو الثروة ، وان من يملك وسائل الانتاج يستمتع بثمراته ويفرض سلطانه . والذى فعله ماركس انه نص على العامل الاقتصادى الاجتماعى فى تحريك التاريخ نصا شديداً وصاغ منه نظرية متكاملة الاطراف .

وكارل هاينريخ ماركس Karl Heinrich Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) المانيًا من اصل يهودى ، وقد تنصر والسده على المذهب البروتستنتى ، ونشأ اولاده كلهم على هذا المذهب ، ولكن كارل ماركس يبدو لنا من اول الامر عريق الالحد . درس الفلسفة والتاريخ فى جامعتى بون وبرلين ، وتأثر تأثراً عميقاً بأراء فلهم فريدريش هيغل « وبعد حصوله على الدكتوراة من جامعة يينا كان يستطيع اتخاذ السلك الجامعي ، ولكنه خلق مقابلاً فاتخذ الصحافة عملاً ، واصبح رئيس تحرير جريدة الراين Rheinische Zeitung فى كولونيا ، ولكنه لم يكن صحفيًا اخباراً ، بل كان صحفي رأى ، وصحافة الراى قلما تؤتي صاحبها مالا ،

ولهذا ظل كارل ماركس حياته كلها فقيرا . بل مرت به فترات من الفقر المدقع ، وكان يعتمد دائما على المعونات المالية التي ظل يقدمها له عمره كله صديقه وزميله **فريدريخ انجلز** Friedrich Engels وهو قسميه في معظم افكاره ومؤلفاته وكفاحه .

وقد ظهرت آراء ماركس في التفسير المادي للتاريخ في رسالة صغيرة نشرها سنة ١٨٤٧ في بروكسل بعنوان **بؤس الفلسفة** Misère de la philosophie ردا على رسالة بعنوان فلسفة البؤس Philosophie de la misère كتبها فيلسوف مثالي تقليدي هو **ب . ج . برودون** P. J. Proudhon الذي كان يعتبر كبير فلاسفة ذلك العصر . وفي سنة ١٨٤٨ نشر ماركس في بروكسل ايضا بالاشتراك مع صاحبه انجلز البيان الشيوعي Manifest des Kommunistischen Partei وهو دعوة صريحة للعمال في العالم كله الى الثورة وانتزاع السلطة وانشاء الدولة الاشتراكية او الشيوعية ، وتجلى بوضوح ان ماركس لم يكن فيلسوفا من اصحاب الرأي والقلم فحسب بل داعية لانقلاب سياسي اجتماعي كبير ، ودليل ذلك انه انشا في سنة ١٨٦٨ اثناء وجوده في لندن الجمعية الدولية للعمال : International Workingmen's Association التي تعرف عادة باسم « الدولية الاولى The First International » تمييزا لها عن جمعيتي العمال الدولية الثانية والثالثة اللتين قامتتا على يد **لينين** واتباعه فيما بعد .

وكان كارل ماركس يشرح في كتبه طريقة اخراج افكاره الى حيز التنفيذ ، اى طريقة احداث الثورة الاشتراكية او الشيوعية ، ولهذا تعتبر كل كتبه اسسا للعمل عند اتباعه ، واهمها بالنسبة لوضعنا هنا : صراع الطبقات في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠ (نشر فيما بين سنتي ١٨٥٠ و ١٨٥٩) Klassenkaempfe in Frankreich 1848 bis 1850 و « في نقد الاقتصاد السياسي » Zur Kritik der politischen Oekonomie Das Kapital (تم كتاب راس المال الشهير الذي ظهر جزؤه الاول سنة ١٨٦٧ ونشر الجزءان الثاني والثالث بعد موته في سنتي ١٨٨٥ و ١٨٩٤ وفي هذا الكتاب يقدم ماركس نظرية كاملة عن طبيعة راس المال والنظام الرأسمالي ويظهر كيف انه نظام هدام يخرب نفسه بنفسه، وسنتحدث عن هذه الآراء في الفقرة التالية .

ويجهل كثير من الناس ان **ماركس** الذي اشتهر بالدفاع عن الحرية وحرية المستضعفين بصورة خاصة كان يؤيد الامبراطورية البريطانية ويدعو الى تقويتها وتثبيت اقدامها في المستعمرات، ويذهب انصاره الى انه كان يقول بذلك لانه كان يكره روسيا القيصرية ويرى انها اعداء الحرية في اوروبا ، وانه كان يرى في مساندة الامبريالية الانجليزية اضعافا لروسيا القيصرية ، وهذا غير صحيح ، والصحيح الذي يجهله الكثيرون انه كان رغم تظاهره بالانحياز ليهوديا في الصميم ، وكانت انجلترا اذ ذاك موئل اليهود وسندهم الاكبر الى جانب هولندا . وذلك قبل ان ينتقل مركز الثقل اليهودي بصورة نهائية الى الولايات المتحدة . بل كان **كارل ماركس** **صهيونيا** وله كتاب لا يذكر الا في النادر اسسه « **الدولة اليهودية** Der Judische staat » وهو الاصل الذي استلهمه **تيودور هيرتسل** عندما ألف كتابه الذي يحمل نفس الاسم .

وينبغي الحذر عند الكلام على آراء ماركس، لأن الكثير مما ينسب اليه ليس له ، وانما وضعه الشيوعيون فيما بعد ونسبوه اليه . وجدير بالذكر ان أمر ماركس لم يشتهر في عصره بل غطى عليه في فرنسا في ميدان التاريخ وفلسفته **برودون** الذي اشرنا اليه ، وفي المانيا **فريدريش لاسال** Ferdinand Lavalه ولم يكن لاسال خصما لماركس بل شارحا لآرائه . ولم تشتهر آراء

ماركس ومؤلفاته الا على يد الشيوعيين الروس وخاصة لينين ، الذى وجد في كتابات ماركس مصدرا لآلهامه ، واساسا فكريا للثورة الروسية الشاملة التي كان يدعو لها . وسنحاول ان نعرض هنا آراء ماركس فيما يتعلق بموضوعنا وهو التاريخ وفلسفته .

يرى ماركس ان التاريخ تحكمه قوانين يدرکها العقل الانساني ، وهذه القوانين حتمية اى انها تفرض نفسها لانها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه . واذا ادرك الانسان هذه القوانين استطاع ان يقرر صورة مستقبل الجماعة الانسانية : وهذه القوانين ليست مثل قوانين العلوم البحتة ، وانما هي حقائق متعلقة بطبيعة العمل والانتاج ، وطريقة توزيع الثروة بين المواطنين ، فان الثروة تنتج عن العمل ، والعمل يقوم به من يعملون بايديهم او بعلمهم ومواهبهم ، فلا بد ان تعود ثمرته حتما على اولئك العاملين انفسهم . فاذا استولى عليها منهم غير العاملين من اصحاب السلطة او الطبقات غير المنتجة كالاشراف ورجال الدين والوسطاء التجاريين والمضاربين ، اختل توازن المجتمع واصبح من الضروري اعادة التوازن اليه اما عن طريق بورة هادئة تتم شيئا فشيئا بفضل ادراك اصحاب السلطان لطبيعة الاشياء (كما في إنجلترا) او ثورة عنيفة تحطم نظام المجتمع القائم وتقيم محله نظاما جديدا . واذا لم تنتج الثورة الاولى في الوصول الى النظام السليم الذى يشترك اعضاؤه جميعا في الانتاج ويستمتعون معا بثمرات الانتاج . فلا ينال انسان الا بحسب عمله ولا يصيب الاحاجته دون زيادة ، فلا مفر من ثورة جديدة كما حدث في الثورة الفرنسية الاولى ، التي جنى ثمراتها البورجوازيون من مياسير اهل الحرف والصناعات والمتاجر وهم في رأى ماركس ليسوا بالمنتجين الاصليين بل مجرد وسطاء ، فقامت بعد ذلك الثورات المتوالية على النظام البورجوازي : ثورة الكومون سنة ١٧٩٢ ثم ثورة ١٨٤٨ التي اسقطت الملكية الثانية ، ملكية لويس فيليب وماتلاها من احداث .

وقد تولت شرح تلك النظرية الحتمية **روزا لوكسمبورج** (١٨٧٠ - ١٩١٩) Rosa Luxemburg وهي امرأة بولندية يهودية ذات نوع ثوري مخرب ونشاط عجيب وذهن وقاد . واليها يرجع جانب كبير من الفضل في دفع الثورة الشيوعية الى الامام ، وهي لم تأخذ المذهب الشيوعي عن ماركس وانما عن كبار تلاميذه من الروس من امثال **ج . ف بليخانوف** G. V. Plekhanov و**بافل اكسلرود** Pavel Axelrod و**فيرا تسلازوليك** Vera Zasulich وهم من اكابر شيوخ لينين . وكثير من الآراء التي تنسب الى ماركس يرجع الى روزا لوكسمبورج وخاصة في كتابها المسمى « تراكم رأس المال Die Akkumulation des Kapitals » .

وقد قال بعض الماركسيين الحتميين بأنه اذا كان هذا التغيير حتميا اى لا مفر منه فلماذا يتعين على العمال القيام بالثورة وتعرض انفسهم للاسراع به ، ويرد الماركسيون المحاربون Militant Marxists على ذلك بالقول بان التضحيات التي يقدمها العمال عند القيام بثورتهم اقل بكثير من خسائرهم اذا تركت العملية تتم من تلقاء نفسها ببطء . وهنا نقطة من نقط الخلاف بين الماركسيين .

ويقول ماركس ان الاحوال او الاوضاع الاقتصادية لاى جماعة هي التي تحدد صورة نظامها وكل مظاهر حضارتها . فاذا اردنا ان نفهم نظام اى مجتمع ونظامه السياسي ، او حتى طبيعة عقيدته الدينية وانتاجه الفني والفكري ، فلننظر اولا الى نظامه الاقتصادي . واساس النظام الاقتصادي هو الانتاج ونوعه واساليبه وطريقة استعمال او توزيع ثمراته . والانتاج نفسه ، سواء

أكان يدويا بدائيا أو آليا متطورا لا يظل دائما على مستوى واحد واسلوب واحد . فهو يتطور دائما ، أو على الأقل متطور باستمرار ، ادواته وصورته وطريقة توزيعه . وهذا التطور للانتاج أى اللوضع الاقتصادى مستمر وحتمي مهما كان بيطيئا ، وتطوره هذا هو الذى ينتج عنه تطور المجتمع الذى يقوم عليه . وكل نظمته institutions وقوانينه وما يقوم على ذلك كله من افكار وعقائد وآداب وفنون ، وكل ما يسميه الماركسيون المظهر الخارجى العلوى للمجتمع Super structure .

ويقول ماركس في شرح نظريته تلك : « ان الناس فى اثناء قيامهم بانتاجهم لمعيشتهم يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية لهم ، ولا مفر لهم من اقامتها ، لأنها مرتبطة بأسس الارتباط بانتاجهم نفسه . وعلاقات الانتاج هذه تطابق درجة معينة من تطور قواهم الانتاجية المادية .

ومجموع علاقات الانتاج هذه يشكل صورة البناء الاقتصادى للمجتمع ، أى انه الأساس الواقعى الذى يقوم عليه المظهر الخارجى العلوى Super structure الذى ذكرناه ، وهذا المظهر الخارجى العلوى يشمل القوانين والنظام السياسى واشكالا معينة من الوعى الاجتماعى التى تسود فى أى مجتمع من المجتمعات . ومعنى ذلك ان الانتاج المادى لجماعة ما هو الذى يحدد صورة نظامها الاجتماعى والسياسى والفكرى بصورة عامة ، فليس وهى الناس هو الذى يحدد صورة حياتهم ومستواها الاجتماعى . بل العكس هو الصحيح .. صورة حياة الناس ومستواهم الاجتماعى هما اللذان يحددان درجة وعيهم .

وعندما تبلغ الطبقة المنتجة فى الجماعة درجة من القوة فى تطورها يزداد وعى افرادها باحوالهم وحقوقهم ، ويحفزهم هذا الوعى الى الدخول فى نزاع مع الطبقة الحاكمة ، اذا كانت هذه الطبقة الحاكمة تستولى على معظم ثمرات الانتاج بمقتضى التقاليد التسي وضعتها ، لتضمن استمرار احتكارها لهذه الثمرات ، وفى العادة تكون هذه الطبقة مالكة لاحسن الاراضى والعقارات ومنايع الثروة ومحصنة لهذه الملكية بشريعات تمكنها من احكام قبضتها على الاراضى ومنايع الثروة والعقارات ، وحصرها فى ايدى افرادها . ولا بد فى هذه الحالة من وقوع الصراع بين قوى الانتاج وتنظيمات الملكية السائدة ، لان هذه التنظيمات انما هى فى الحقيقة قيود تكبل الطبقة المنتجة وتعرقل تطورها وتحول بينها وبين الاستفادة من ثمرات جهدها .

وهنا يبدأ عهد بورات اجتماعية وسياسية ، لان تغير الأساس الاقتصادى يززع كل البناء العلوى الهائل (السوبر ستركتر) بكل نظمته وقوانينه واخلاقياته) على درجات مختلفة من العنف والسرعة .

وعند دراسة هذه التغيرات او الانقلابات او الثورات ينبغي دائما التمييز بين أساس الموضوع ومظهره . فاما الأساس هنا فهو التغير المادى للوضع الاقتصادى للانتاج ، وهذا التغير المادى حقيقى يمكن تقديره بدقة علمية ، واما المظهر فهى الاشكال القانونية والوضع السياسى والدينية والفكرية والفلسفية ، وهذه الاشكال الظاهرية هى التى تسمى فى مجموعها بأيدولوجية النظام القائم ، وهى ، كما رأيت ، نتيجة لا سببا ، وطبقة علوية خارجية Super structure وليسبت أساسا ، ولكننا تعودنا على أن نعتبرها الأساس ، ونعطىها أكبر جانب من الأهمية ، والسبب فى ذلك أن المفكرين والفلاسفة اهتموا بتركيز الضوء عليها لأنهم هم انفسهم كانوا جزءا ففيجل مثلا وغيره من المثاليين قالوا ان الفكر هو الذى يوجه التاريخ ، لانهم هم انفسهم كانوا جزءا من النظام القائم ، وكانوا قادة الفكر فيه ، وتفكيرهم كله تأييد له ولأوضاعه ، ومن العسير

عليهم ان يتصوروا انهم في جملة الصورة الخارجية لنظام الجماعة . ورجال القانون يتصورون ان قوانينهم هي اساس سلامة المجتمع واستقراره ويفوتهم ان هذه القوانين نفسها لم توضع الا لصيانة شكل معين للمجتمع ، حتى عيوب ذلك المجتمع ونقائصه تحميها هذه القوانين ، وكل من يحاول اصلاح هذه العيوب يعتبر معتدبا على نظام المجتمع . ولا بد ، حسب رأيهم ، ان يقع تحت طائلة القانون . ومن هنا فمن الممكن جدا ان تكون مجموعة الافكار المتداولة بين المفكرين واهل القانون والنظام مليئة بالاطعاء ولكنهم يدافعون عنها في اصرار ، ودفاعهم هذا لا يمكن ان نقبله على انه حقيقة لانك لا تستطيع ان تحكم على انسان بحسب ما يقوله عن نفسه .

وعندما تتغير اوضاع الانتاج تغيرا بعيد المدى ، يظهر بوضوح التناقض بين الحقيقة والمظهر ، بين الأساس والبناء القائم فوقه . ومن المعروف ان هذا التناقض لا يظهر بصورة حاسمة الا اذا تحركت الطبقات المنتجة لتطالب بتغيير الاوضاع ، وهنا تظهر المشاكل الاجتماعية ، وهذه المشاكل الاجتماعية الكبيرة لا تظهر الا عندما تكون الظروف المادية كلها قد وجدت ، أو أخذت في التكون .

ويذهب كارل ماركس الى ان اوضاع الانتاج وعلاقاتها هي التي تحدد جميع العلاقات الاخرى التي تقوم بين الناس في مجتمع ما . وخاصة اوضاع الملكية ، ملكية الارض والعقار والمال والنقولات ، فاذا كان المنتج يحصل على اكبر جانب من ثمرة انتاجه لم تكن هناك وسيلة لتكدس الاموال في يد البعض ، ولكن ذلك يحدث عندما تستولي طبقة الاقوياء والوسطاء على ثمرات الانتاج . وتكدس الاموال يظهر حتما في صورة ملكيات كبيرة او صغيرة ، ففي مجتمع الصيادين ، حيث يتقاسم الصيادون لحم الفريسة التي صادوها معا ، فانه لا يبقى لرئيس القبيلة فائض من نصيبه يمكن تحويله مع الزمن الى ملكية ، اما في المجتمعات الزراعية فان السلطة الحاكمة تعطي قطعاً كبيرة او صغيرة من الارض لانصارها . وهذه الملكية لا قيمة لها الا اذا وجد الفلاح او الزارع الذي يستطيع زراعة الارض واخراج ثمراتها . وما دام الفلاح في حاجة الى ارض يزرعها فهو مضطر الى التفاهم مع مالك الارض على ان يُسمح له بزرعتها ، وهو في الغالب يتفاوض فرديا فيضطر الى قبول شروط المالك . وهي في العادة لا تعطي الزارع الا الكفاف ، والباقي يتوزع بين صاحب الارض والوسطاء بينه وبين الفلاح المفرد الصغير . وشيئا فشيئا يقل نصيب الفلاح من ثمرة انتاجه ، ويزداد تبعاً لذلك نصيب الآخرين ، فتزداد مساحات الملكيات وثمراتها ، وتسن القوانين ، وتوضع النظم لحماية هذه الملكيات ، ولقد صدق **جيزو** عندما قال : ان اوضاع الملكية في اى مجتمع تشرح لنا طريقة تكوينه .

ويطبق الماركسيون هذا القول على الصناعة فيقولون ان الصانع الذي يوفق في صناعته ، ويتمكن من جمع رأس مال يمكنه من توسيع نطاق صناعته ، يفرض شروطه على العامل المفرد الذي يدخل في خدمته . وكما ان مالك الارض الزراعية يجتهد دائما في ان يحصل من المزارع الصغير على اكبر قدر من ثمرة عمله ، فكذلك صاحب المصنع . فنصيب العامل دائما اقل في حين ان رأس مال صاحب المصنع في زيادة دائما ، وفي وقت ما ينعدم التوازن بين المنتج والمتمتع بثمرة الانتاج . ولا سبيل في هذه الحالة امام العمال ، ليميدوا هذا التوازن الى حد معقول . الا بان يفاهموا جاعيا مع صاحب رأس المال ، وما دام عملهم هو اساس ثروته فهو مضطر الى التفاهم معهم ، وهذا هو اساس البيان او «المانيفستو الشيوعي» الذي نشره ماركس وانجلز سنة ١٨٤٨ وبداه يقول : يا عمال العالم اتحدوا .

ومعنى هذا ان ماركس واتباعه يقولون ان الظروف المادية للمجتمعات هي التي تحرك التاريخ ، فالثورات والانقلابات السياسية سواء كانت عنيفة سريعة ، او هادئة بسيطة ، ترجع في نهاية الامر الى اوضاع العمل والانتاج والملكية ، وسلامة هذه الاوضاع او عدم سلامتها هي التي تعين قوة النظام القائم عليها او ضعفه . وقوته تحول دون العدوان الخارجي عليه ، وضعفه يشجع الآخرين على العدوان عليه . اى ان الاوضاع المادية للمجتمعات هي في النهاية من اكبر اسباب الحروب . بعبارة مختصرة : الاوضاع المادية ، واحوال الملكية ، وصراع الطبقات ، بعضها مع بعض ، هي العوامل التي تدفع حركة التاريخ كله ، وهذا هو ما يسمى بالتفسير المادى للتاريخ .

ولا يقول ماركس بان الافكار لا دور لها اطلاقا في توجيه التاريخ ، بل هو يعترف بقوتها وفعاليتها ، ولكنه ينكر انها عوامل مستقلة بنفسها . وانما هي ناتجة عن الاوضاع المادية ، وهي في رايه وسبطة بين التغير الاقتصادى والمظهر الخارجى للحوادث . وفي هذه الحدود يقول ماركس ان الافكار يمكن ان تكون ذات قوة كبيرة . ولا يقول ماركس بان الانسان لا تحركه الا الدوافع المادية الانانية ، فهو يعترف بوجود عواطف الايثار ، والحماس الديني ، والوطنية وغيرها من الخصال النالية ، ولكنه يردّها بدورها الى الاوضاع الاقتصادية واثارها المباشرة او غير المباشرة على العقل الانساني .

وهو يقول ان التطور التكنولوجي يؤدي بطبيعته الى انشاء مصانع اكبر فاكبر ، وان ذلك سيسبب بالضرورة رؤوس اموال اضخم مع الزمن ، وكلما زاد حجم المنشأة الصناعية تضاعف حجم العامل بالنسبة لراس المال الضخم واصحابه ، وهذا يؤدي الى استبعاد راس المال بالعمال ، ومن هنا تبدأ مشاكل الصراع بين العمال واصحاب رؤوس الاموال ، وهو صراع يحول بين الجماعة والاستقرار المنشود ، ويعرض مصالح العمال للخطر ، ولا حل في هذه الحالة الا ان تضع الجماعة يدها على مصادر الانتاج وادارتها جماعيا ليعود خيرها كله على الجميع .

وقد لاحظ معظم نقاد التاريخ والاقتصاد ان هناك نقطة ضعف كبيرة في تلك النظرية وهي غموض مفهوم « التغير الاقتصادى The economic change » التي جعلها ماركس اساسا لكل فلسفته التاريخية الاجتماعية ، وجدير بالذكر انه لم يقدم في اى كتاب من كتبه عرضا واضحا متكاملا لتفسيره المادى للتاريخ ، انما جاء هذا العرض مفرقا ومتناثرا في مؤلفاته الكثيرة . وقد اجتهد انجلز وماركس معا في لثم اطراف هذه النظرية في رسالة كتبها في الرد على ناقد ثورتها يسمى **اويجن دورنج** Herr Eugen Dührings revolution in science ولكن حتى هنا لا نجد ذلك العرض المتكامل الذي يتحدث عنه الماركسيون في حماسهم للتفسير المادى للتاريخ .

والحق اننا لا نستطيع الفصل بين الانتاج والفكر في مجتمع معا ، ولا يمكن ان نقول ان صورة الانتاج هي التي تعطي الصورة الظاهرة لنظام المجتمع وفكره وذوقه ، او ما يسميه الماركسيون بالظواهر الخارجى super structure لأن الانتاج نفسه يخضع في جانب كبير منه لهذا الظاهر الخارجى . واكثر من نصف الانتاج في اى مجتمع معاصر يوجه لارضاء مطالب نفسية واجتماعية وذوقية وفنية للمجتمع . فان الانتاج لا يقتصر على الزراعة وصناعة الضروريات ، بل يشمل ايضا الاقمشة الفاخرة ، والسيارات الفاخرة ، والاثاث النفيس ، والعمود الفاخرة ، وادوات التجميل ، وملابس السيدات ، والخمور والسجائر ، وغير ذلك مما يدخل ضمن الكماليات ، ولكنه يصنع خاصة لارضاء مزاج وذوق اهل الطبقة الظاهرة الخارجية اى السوبر - ستراكتشر ، وهنا يتجلى لنا كيف ان هذا الظاهر الخارجى للمجتمع هو نفسه يعتبر من اساس الانتاج .

ولكن ، لا شك ان تطور الانتاج عامل حاسم في تطور الجماعات وسير تاريخها ، وحتى لو سلمنا انه في اساسه يعتمد على القدرة البدنية والتقدم التكنولوجي ، فلا بد ان نسلّم بأنه مستمر ولا يمكن إيقافه . صحيح انه في كثير من الأحيان تقف النظم والقوانين والمصلحة المتشابكة لاهل نظام معين سائد في وجه هذا التطور ، ولكن مع تقدم العلم والتكنولوجيا يصبح الانتاج المادى قوة لا تقهر ، وهنا نضع يدنا على الجانب الصحيح من النظرية الماركسية ، وفي إيماننا هذه نلاحظ ان تطور الانتاج ومستواه وكميته وتنوعه هو العامل الحاسم في سير مجتمعتنا الحاضر .

ان التفسير الاقتصادي للتاريخ لا ينطبق بصورة ملموسة الا على عصرنا هذا الذى تقدمت فيه العلوم والتكنولوجيا الى درجة جعلت الاقتصاد (وأساسه الانتاج) الشغل الشاغل للمجتمع كله ، ولكن لا يمكن القول مثلاً بأن ذلك العامل كان العامل الحاسم في توجيه التاريخ في العصور الوسطى ، لأن رجال الدين والفكرين والملوك كانوا هم الذين يحركون التاريخ في تلك العصور ، ثم ان الذين خرجوا بالغرب من ركود العصور الوسطى، وفتحوا له آفاق النهضة والاكتشافات والتقدم الفكرى والعلمى . كانوا المفكرين وأصحاب الآراء والنظريات ، لا العمال او الزراع . وهنا يبدو لنا جانب ضعيف من جوانب التفسير المادى للتاريخ. ولكننا ينبغي ان نسلّم بأن تمسك الماركسيين بأهمية الانتاج افاد الطبقات العاملة ، ورفع مستواها ، وفتح لها ابواب المشاركة في الحكم ، وهذه خطوة الى الامام لا شك فيها . وهي الجانب الايجابى الذى لا ينزاع فيه في آراء الماركسيين .

ولا بد مع ذلك ان نلاحظ انه لا علاقة بهذه الآراء الماركسية التي تسمى في مجموعها احيانا بالمادة التاريخية Historical materialism لا علاقة لها بما يسمى في الفلسفة بالمادية الفلسفية Philosophical materialism .

ويتجه الماركسيون في اثبات صحة نظرياتهم تلك الى استخدام طراز خاص من الجدل يسمى بالجدلية المادية Material dialectic وهو جدل يعتمد في طريفته على الاسلوب المنطقي المحكم الذى وضعه هيجل والماليون، ولكنهم يستخدمونه لتحقيق اهدافهم الخاصة ، ويقول هذا الجدل الماركسي ان كل التقدم التاريخي يتم عن طريق صراعات شاملة بين أسس قديمة للتنظيم الاجتماعي . وهم يرون ان الصراع ينبغي ان يكون شاملاً وعنيفاً ، وان الاصلاحات الجزئية للنظم العتيقة تعوق عملية التحول التاريخي وحياتنا تجهضها . وكذلك يرون ان التطور التدريجي لا يمكن ان يؤدي الى نتيجة حاسمة، وان الاصلاحات لا تكون لها فائدة الا اذا اقترنت في بدن النظام القديم على نحو يسرع بموته . وحيث ان الماركسيين لا يوافقون على الاصلاحات التدريجية التي لا تقضي على النظام القديم بل تكتفي بتحويله او تعديله فان الطريق الوحيد للتغيير الشامل عندهم هي الثورة وهم يقولون ان الالام والتضحيات التي تسببها الثورات هي الثمن الذي لا بد من ادائه في مقابل الوصول الى اى تقدم . ومن الغريب ان يصر الماركسيون على ذلك مع علمهم بأن بلاداً كثيرة تم فيها التغيير الشامل ، والانتقال من القديم الى الجديد عن طريق عملية اصلاح تدريجية طويلة المدى ، واكبر مثال لذلك انجلترا واليابان .

ومن تفاصيل النظرية الماركسية التي لا رالت موضع الجدل بين مفكرى الماركسية انفسهم هو قولهم بأنه لا توجد مصالح مشتركة بين الطبقات المتصارعة ، ويرى ماركس ان كل مذهب من مذاهب التنظيم الاجتماعي تمثل طبقة معينة ، فالنظام الاقطاعي يمثلته الاشراف ، والنظام الرأسمالي يمثلته المقاولون او اصحاب الاعمال entrepreneurs والنظام الاشتراكي يمثلته العمال ، ولا توجد مصلحة مشتركة بين هذه الطبقات ، ومن ثم فهي لا تستطيع ان تتعايش ، والصراع بينها ينبغي ان يكون حاسم النتيجة ، فلا يتوقف حتى تموت الطبقة القديمة تماماً ، وهم

يرون ان هذا الصراع لا يمكن ان يأخذ صورة ديموقراطية اى لا يمكن ان يعتمد على الانتخابات او الاستفتاءات ، لان هذه القواعد الديموقراطية تنص على ضرورة احترام آراء الخصوم، والخصوم في رأى الدبالكتيكيين الماركسيين لا احترام لهم ، بل ينبغي الا يكون لهم وجود . وهم يرون ان انتصار النظام الجديد على القديم ينبغي ان يتبعه القضاء على الخصوم بكل انواع العنف ، وفرض ما يسمى بالحكم المطلق للطبقة العاملة او دكتاتورية البروليتاريا dictatorship of the Proletariat ويستمر هذا طوال فترة الانتقال من النظام الرأسمالي الى الشيوعي .

وواضح ان هذا المنطق ملء بالمناقضات ، لان فرض دكتاتورية طبقة من الطبقات على غيرها ، والقضاء على الخصوم بالعنف لا يتفقان مع ماينادى به الماركسيون من عدالة في الحقوق ، ثم انه ثبت بالفعل ان الرأسمالية يمكن ان تتعايش مع الشيوعية كما هو الحال في الوفاق الحالي بين السوفييت والامريكيين ، وفي يوغوسلافيا اليوم صبغة من الشيوعية تسمح بالتعايش مع الرأسمالية وهذه بعض صور ما يسمى بالماركسية الجديدة Neo-marxism التي ينتهجها الروس بعد ستالين ، وبنكرها ماو - تسي - تونغ واتباعهم يرون انهم يسيرون على خط ماركس - أنجلز بكل امانة .

وواضح من العرض السريع الذى قمنا به ان الماركسية سواء كملذهب في تفسير التاريخ ، او في تغيير قواعد علم الاقتصاد مليئة بالمناقضات ووجوه الضعف ، ولكنها على اى حال حققت بصفتها فلسفة اجتماعية نجاحا لم تحققه اى فلسفة اخرى مماثلة ، ولقيت من كثير من الناس وشعوب الارض اقبالا فاق كل تصور ، واصبحت نظام الحكم والعمل الوحيد فيها ، ويرجع ذلك لانها اظهرت الى الوجود الاهمية الكاملة للعمل والعمال ، حتى في البلاد غير الشيوعية قفز العمال الى الصدارة وشاركوا في الحكم وانتقلوا من اجزاء الى اصحاب رأى وقوة واثار سياسي فعال يتمثل في احزاب قوية يسارية او تميل الى اليسار ، ونقابات ذات قوة سياسية حقيقية ، ومن الواضح انه لولا الالحداد ، والاصرار على انكار الاديان ومحاربتها ، لكان للماركسية نجاح اكبر ، ولكن ذلك الالحداد جزء لا يتجزأ من الآراء الماركسية نفسها . فهي ترى في الدين اساسا من اساسي النظام القديم الذى يجب القضاء عليه . ومع ذلك فقد ادت مبادئ الماركسية الى تغير حاسم في الاوضاع الاجتماعية والفكرية للطبقة العاملة ، فطلمت آمال نبهاء العمال الى ان يستزيدوا من العلم ويدخلوا ضمن التكنولوجيا ، وهذا بدوره رفع المستوى الفكرى للعمال في الدنيا كلها ، وادى ذلك بطبيعة الحال الى ارتفاع المستوى الاجتماعي لامة كلها .

وجدير بالملاحظة ان معظم الفضل في النجاح الذى حققته الماركسية يرجع الى اعتناق الثوار الروس اياها ، وخاصة فلاديمير اوليانوف المعروف باسم لينين ، فهذا الرجل هو الذى تمكن من ان يحول آراء ماركس الى ثورة دموية وحولت امبراطورية من اضخم دول الارض الى دولة شيوعية ومركزا لنشر الشيوعية في العالم ، ولولا لينين لما كان لماركس هذا الاثر الكلى في التاريخ .

التاريخ الشامل واهم شيوخ مؤرخي عصرنا

انتقل علم التاريخ اذن خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في اوربا من فرع ثانوي من فروع المعرفة يمارسه بعض الناس على انه هواية او وسيلة للتقرب من الله برواية اخبار الصالحين او للتزلف الى الملوك بكتابة تراجمهم الى علم مقررا لاصول والمناهج ، تخصص له الكراسي والاقسام في الجامعات ، ويقوم بالعمل في ميدانه مؤرخون اجلاء ، ويدرسه طلاب كثيرون على انه عياد من

عُمد المعرفة الإنسانية ، ونشأت عن ذلك العلم التاريخي علوم أخرى مساندة له أو مساعدة كالأثار ، وعلم النقوش أو الديجرافية ، والخطوط والكتابات القديمة أو الباليوجرافية ، وعلم الوثائق والمحفوظات ، وما إلى ذلك مما أنشئت له المعاهد والمراكز والمجلات في كل بلد من البلاد . بل كان علم التاريخ سببا في أكبر حركة سياسية واجتماعية بعد الثورة الفرنسية وهي الثورة الماركسية ، وما كان لها من اصداء بعيدة في كل ناحية من نواحي الحياة في عالمنا المعاصر .

وعلى اثر ذلك اخذ نفر من اساتذة المادة يتساءلون عما اذا كان لا بد ان يوجد لعلم التاريخ منهجية methodology خاصة به الى جانب ما لا بد للمؤرخ من التمسك به من مناهج الدقة والاستيفاء والبحث والتحليل التي تشترك فيها العلوم جميعا . هنا لا بد من الوقوف قليلا عند كتاب من احسن ما كتب في ذلك الموضوع في نهاية القرن الماضي (سنة ١٨٩٨) وهو الذي كتبه المؤرخان الفرنسيان **لانجلو وزينبوس** عن علم التاريخ ومنهجه :

C. V. Langlois et Charles Seignobos : *Introduction à l'étude de l'histoire*

في هذا الكتاب وفق العالمان الفرنسيان اكثر من غيرهما الى رسم ما يمكن ان يسمى بدستور المؤرخ ، وقالوا ان التاريخ ربما كان احوج فروع العلم الى الالتزام التام بالامانة ودقة المنهج ، لان التاريخ كما يبدو ميدان سهل للبحث والتأليف ولكنه في الحقيقة من اصعبها . لان البحث التاريخي ينبغي ان يكون اصيلا وصادقا وقائما على حقائق ، وفي كثير من الاحيان يصعب ذلك لاسباب نفسية او عاطفية او عقائدية وربما شخصية ، ولهذا فلا بد من ان يتكون المؤرخ تكوينا منهجيا دقيقا حتى يخرج شيئا له قيمة . وقالوا ان الجانب الاكبر ممن يتناولون التأليف في التاريخ لا يعرفون لماذا يتخذون التاريخ عملا ، وربما كان السبب في ذلك انهم كانوا اقرباء في مادة التاريخ في المدرسة الثانوية او يحسبون ان التاريخ ميدان سهل نسبيا . وربما كان دافع الانسان الى العمل في التاريخ نوعة عاطفية رومانتيكية كما كان الحال مع اوجستان تييرى .

وقال لانجلو وزينبوس ان التغير الحاسم في تاريخ العلم التاريخي تم حوالي سنة ١٨٥٠ عندما استقل التاريخ بنفسه ولم يعد فرعاً من الادب ، وهما يريان ان المؤرخ لا ينبغي ان ينفق الوقت في بحث المسائل الصغيرة لجرد تكديس المعلومات وقالوا : « انه ليس من هدف للتأليف في التاريخ جلب التعة الى القارئ او استخراج قواعد عملية للسلوك او اثاره المشاعر ، وانما الهدف الحقيقي هو المعرفة الخالصة البسيطة (la connaissance pure et simple) للموضوع الذي يدرس . »

وفي نهاية القرن التاسع حفلت اوروبا بنفر من اعظم المؤرخين الذين افادوا من صراع سابقهم في وضع التاريخ في مكانه بين العلوم ووضعوا مناهجه ، ومن اكابر هؤلاء **تيسودور مومسن** Theodor Mommsen (١٨١٧ - ١٩٠٣) الذي وضع اساسا متينا للدراسات الرومانية بفضل معرفته الوثيقة باللغات القديمة ، وتمكنه من منهج العمل التاريخي ، وتضلعه في قراءة النصوص القديمة واستخدام ادوات التاريخ جميعا ، وهومن المؤرخين القلائل الذين حصلوا على جائزة نوبل .

وفي إنجلترا كثر المؤرخون الذين ساروا على نهج **وانكه** ومدرسته من امثال **وليام ستانيز** William Stubbs صاحب الكتاب المشهور عن تاريخ الدستور الانجليزي و **ج. ب. بيوري** J. B. Bury الذي ألف واجاد في كل عصر من عصور التاريخ ، وله كلمة مأثورة في فضائل علم التاريخ لقاهما عندما خلف **اللورد اکتسون** في استاذية علم التاريخ في كيمبردج ، قال : « واذا

كان علم التاريخ يصبح عاما بعد عام واكثر فاكثر قوة عظيمة تعمل على نزع غشاوات الخطأ ، وتعين على تكوين الراى العام ، وعلى السير الى الامام بقضية الحرية الفكرية والسياسية ، فان ذلك العلم سيعمل جاهدا على تكوين طلابه على نحو يمكنهم من القيام بذلك الواجب لا للانتفاع به في سدد مطالب الاسبوع التالي او العام القادم او حتى القرن الذى سيجيء ، ولكن لكي يذكروا دائما ان التاريخ ، وان كان يقدم مادة للتاريخ الادبي او للتأمل الفلسفى ، الا انه علم قائم بذاته لا اكثر ولا اقل ، وينبى الحذر من تطويع ذلك المثل الاعلى لحاجات اللحظة ، ولا يجوز كذلك تحديد مجال ذلك العلم وآفاقه .

وقد تفرقت نظرة بيورى مرارا فيما بعد ، وذلك يصدق على الكثيرين من كبار المؤرخين ولكنهم جميعا متفقون على ان مواصلة العمل العلمى في ذلك المجال للكشف عن الحقائق وعرضها عرضا أميناً سيؤدى حتما الى اعطائنا صورة امينة للماضي . وفي اثناء ذلك حرص المؤرخون على ان يفيدوا من كل المذاهب والنظريات التي جدت في ميادين العلم الاخرى من آراء نيوتون في الطبيعة الى نظرية اينشتاين في النسبية ، لان هذا كله يوسع افق المؤرخ ويؤيد فهمه لما يقرأ ، ورجل مثل بيورى هذا كان واسع العلم والافق يتكلم بثقة في كل موضوع من موضوعات العلوم ، ولهذا فهو يعتبر بحق من اعمدة الفكر الانجليزى في عصره ، وقد كان يكتب الى جانب ذلك في اسلوب ادبي رفيع مما جعل له مكانا محترما في عالم الادب . ومثل ذلك يقال ، وبدرجات متفاوتة ، عن **فريمان** Edward A. Freeman و**جسرين** G. R. Green و**سيلي** Seelay انجلترا و**جيبوتي** في ايطاليا و**جورج بانكروفت** George Bancraft (١٨٠٠ - ١٨٩١) مؤسس مدرسة المؤرخين الامريكيين ، وتاريخه للولايات المتحدة كان ولا يزال مدرسة يتخرج فيها المؤرخون هناك .

ويضارع بيورى في المكانة وفي الجمع بين صفات المؤرخ والفيلسوف والاديب **جورج ماكولي تريفيبيان** George Macaulay Trevelian (١٨٧٦ - ١٩٦٢) الذى يعتبر كتابه عن التاريخ الاجتماعى لانجلترا نموذجا يحتذى في هذا المجال العسير من علم التاريخ ، وله مقال بدع عن طبيعة علم التاريخ وحدوده جعل لها عنوانا طريفا هو : « Clio, a Muse (كليو الهة التاريخ ، الهة فن) » خلاصتها ان التاريخ لا يمكن ان يكون علما دقيقا ، او واضح المنفعة كما هو الحال في العلوم الطبيعية ، ولكنه علم في حدود معينة هي الدقة والاستقصاء في جمع المادة ، والدقة كذلك في الموازنة بين الادلة وقال : « وحتى عندما يعالج المؤرخ موضوعا واضح الوقائع نسبيا كالثورة الفرنسية ، فانه من المستحيل ان يتعرف الانسان على حقيقة الحالة النفسية لخمسة وعشرين مليون انسان (هم سكان فرنسا اذ ذاك) يختلف كل منهم عن الآخر ، اختفوا جميعا في ظلام ليل التاريخ فيما عدا بضعة مئات او آلاف هم الذين نعرف كيف كانوا يحسون وماذا فعلوا . وعلى هذا ملا احد يستطيع ان يقدم عرضا كاملا شاملا للثورة الفرنسية . ولكن قراءة الدراسات التاريخية الناقصة خير من لا شيء على اى حال ، والمؤرخ الذى يستطيع ان يزن كل الادلة التي في متناول يده وزنا دقيقا ومعقولا يستطيع ان يستلقت اهتمام العقول بكلامه ويثير احدى العواطف الانسانية ويفتح الباب امام قوى التخيل والتصور .

وذهب تريفيبيان الى ان **توماس كارلايل** Thomas Carlyle وفق الى ذلك بكتابه عن الثورة الفرنسية ، فعرف كيف يصف ببيانه المبدع ، وقدرته على فهم طبيعة البشر ، مشاعر الجماهير الفرنسية ، وتمكن كذلك من ان يعطينا صورة حية لكثير من شخوص الثورة . وقد وفق كارلايل الى ذلك باكثر مما استطاع اى مؤرخ محترف . جمع من الادلة اضعاف ما جمع كارلايل

ولكنه عاجز عن فهم طبيعة البشر . ولتريفيليان كلمة بالغة الصراحة وان كانت ثقيلة على نفس المؤرخ ، وذلك حين يقول : « وفي الجزء الأهم من عملية التاريخ نجد ان التاريخ ليس استنتاجا علميا ، وانما هو حدس قائم على التخيل ، ومبني على اساس اقرب التعميمات الى الامكان . .

In the most important part of its business, history is not a scientific deduction, but an imaginative guess at the most likely generalisations.

وفي نفس الوقت الذي اتجه فيه الانجليز الى الاقتصاد في تقدير التاريخ وحدوده ومكانته بين العلوم نجد ان الالمان والفرنسيين ساروا في طريق العمل التاريخي المحكم الدقيق ، محاولين ان يبنوا اهمية التاريخ عن طريق اخراج اعمال تبه العقول بدقتها وذكاء اصحابها ، وقدرتهم على الاستخراج والاستنتاج ، وتصوير الماضي كما كان على صورة تحقق ما كان يروجوه **ليوبولد فون رانكه** الى حد بعيد . ففي الجانب الالمانى نجد كثيرين سنقف لحظة عند واحد منهم فقط هو **فريدريش ماينكه** Friedrich Meinecke (١٨٦٢ - ١٩٥٤) وهو من عظماء رواد التاريخ على مذهب رانكه ويوركهارت ، وقد وجه اهتمامه الى دراسة الافكار وتطورها ، وقد شغل ماينكه اعلا مراكز الاستاذية في جامعات المانيا ، وظل اكثر من اربعين سنة (١٨٩٣ - ١٩٣٥) رئيسا لتحرير المجلة الالمانية التاريخية Historische Zeitschrift وهو مشهور بكتب ثلاثة تعتبر نماذج تحتذى في دراسة الفكر السياسي وتطوره اولها : المواطن العالمية والدولية القومية Weltbürgertum und Nationalstaat (١٩٠٨) وفيه يؤيد فكرة الدولة القائمة على الاساس القومي والعدالة وخدمة الحضارة . و « فكرة صالح الدولة » Idee der Staatssaison (١٩٢٤) وفيه يكشف النقاب عن الصراع والتناقض بين الاخلاق وسياسة القوة وبهاجم المانيا فيلية في صنف معتمدا على حقائق التاريخ . وكتابه الثالث الكبير « قيام الحركة التاريخية Entstehung des historismus » (١٩٣٦) ينتسب فيه قيام علم التاريخ الحديث ويؤيد فيه نظرية اعتماد التاريخ على افراد هم الذين يصنعون التاريخ متابعا في ذلك رانكه وجيته .

ومن الفرنسيين نقف عند اثنين لا بد من ذكرهما في حديثنا هذا عن بناء علم التاريخ الحديث ، الاول هو **ايرنست رينان** Ernest Rénan (١٨١٣ - ١٨٩٢) وهو علامة متبحر في اللغات والفلسفات والتاريخ ، ومؤلفاته تجمع بين وفرة المادة وعمق الفهم وحرية في الحكم لا نجدها الا عند القلائل ، وقارئ رينان يحس باستمرار انه يستمع الى مؤرخ حكيم يتحدث ، فكتابه المسمى مستقبل العلم l'avenir de la science الذي لم ينشر الا سنة ١٨٩٠ يتحدث عن اهمية دراسة تاريخ الاديان . على اعتبار انها علم انساني له اهمية علوم الطبيعة مثلا ، وفيه نلاحظ قلة تدين رينان وضعف ثقته في الكنيسة المسيحية ومحاولته اثبات ان المفكر الحنيف الجيد التكوين اقرب الى استكشاف حقائق الحياة والنفس الشريفة من رجل الدين المحترف . وفي سنة ١٨٥٢ نشر كتابا مشهورا عندها هو « **ابن رشد والرشدية** Avenofes et l'Auerroisme » وهو دفاع مجيد عن ذلك الفيلسوف الاندلسي الجليل الذي كان مركز الدراسات الفلسفية في جامعات اوروبا الى اواخر القرن السابع عشر وحركة الرشدية التي اثارها فلسفته . والرشدية عند رينان ليست دراسة لآراء ابن رشد وانما هي مجموع الآراء والافكار التي دارت حول موضوع علاقة العقل بالدين . ويتجلى تفكير رينان التاريخي الفلسفي بصورة اوضح في كتابه الأشهر « مقالات في الاخلاق والنقد Essais de morale et de critique » (١٨٥٩) وهو مجموعة

مقالات نشرها رينان في جريدة المحاورات Journal des Débts ومجلة العالمين Revue de Deux Mondes و « العالمان » هاتهما عالم الفكر والدين . وفي هذه المقالات نجد ان رينان يربنا كيف ندرس الاديان دراسة تاريخية انسانية (٢٣) . وقد كان لرينان اثر كبير في تاريخنا الفكري الحديث ، فقد ترسم خطاه طه حسين في الكثير من كتب ايام كفاحه الاول الطويل في سبيل تحرير الفكر العربي .

والثاني هو فوستل د. كولانج Huma Denis Fustel de Coulanges (١٨٢٠ - ١٨٨٩) الذي يعتبر مؤسس المنهج العلمي في دراسة التاريخ في فرنسا ، وهو استاذ بحق في علم التاريخ ومنهجه ، وقد وضع للمؤرخين الفرنسيين منهاجا صارما يقوم على الموضوعية البحتة والتركيز على المصادر الاساسية ودراستها في لغاتها ، واستخلاص كل ما تحويه من مادة تاريخية ، وقلة الاهتمام بالمصادر الثانوية . ثم الاكتفاء بذكر الحقائق التي تؤيدها الادلة دون غيرها . وله كتب كثيرة قائمة على هذه الاسس منها كتاب « المدينة العتيقة La Cité Antique (١٨٦٤) » وقد درس فيه المدن التي كانت في نفس الوقت دولا في العصر القديم la cité-état مثل اثينا واسبرطة وروما ، واثر الدين والتطور السياسي والاجتماعي في تاريخها . ثم ركز همه على دراسة نظم العصور الوسطى وخاصة في فرنسا ، ووضع اسس دراسة الوثائق والمخطوطات . ولا زالت كتبه قطعا من العمل التاريخي الدقيق مثل « الفزوة الجرمانية ونهاية الامبراطورية L'Invasion Germanique et la fin de l'Empire Monarchique » و « الملكية الفرنجية La Monarchie Franque (١٨٨٨) » والولاء والملكية الزراعية في العصر المرونجي L'allue et le domaine rural pendant l'époque mérovingienne (١٨٨٩) وكل مؤرخي العصور الوسطى في فرنسا من امثال مارك بلوك Marc Block (٢٤) من تلاميذ ذلك الرجل .

ونختتم هذا الكلام عن بعض اكابر اساتذة علم التاريخ المحدثين الذين وضعوا اصوله ، وقرروا مناهجه بكلمة من المؤرخ البلجيكي هنري بيرين Henri Pirenne (١٨٦٢ - ١٩٣٥) وبهنا بيرين من ناحيتين : الاولى انه عني عناية كبيرة بالناحية الاقتصادية - لا كعامل محرك للتاريخ كما فعل ماركس ، بل كجزء من الاطار العام للحقائق التاريخية ، فهو يدرس نظم الضرائب والاسعار والتجارة وطرقها وموادها والعمل وما الى ذلك ، والثانية انه احسن من طبق ما يسمى بالتاريخ الكلي ، وهو مفهوم للتاريخ يختلف عن التاريخ التقليدي ، وهو ان تؤرخ للناحية السياسية لعصر معين ، او تدرس تاريخ واقعة معينة او حياة رجل بعينه ، أما التاريخ الكلي فهو ان تدرس العصر الذي تريد من كل نواحيه: سياسية واجتماعية واقتصادية وحضارية وتعطي عنه صورة كاملة ، وهذا يقتضي جهدا شاقا في جمع المادة اللازمة لعمل الصورة التاريخية المطلوبة .

كمنوذج لدراسة الناحية الاقتصادية للتاريخ نأخذ كتاب « تاريخ المدن في العصور الوسطى Les Villes Médiévales وهو دراسة غايقة في العمق للحياة الاقتصادية في العصور الوسطى ، لان المدن ظهرت خلال القرن العاشر كمراكز اقتصادية ، صناعية وتجارية . ويشبه هذا الكتاب كتاب آخر يعد من اجمل واعمق ما ألف بيرين في تاريخ العصور الوسطى وهو محمد وشارلمان Mohammad et Charlemagne (١٩٣٧) وهو دراسة كاملة لاثر سيادة الاسلام

F. Millepieres, La Vie d'Ernest Renan, Sage d'Occident (1961)

(٢٣)

J. Herrick, The Historical Thought of Fustel de Coulanges

(٢٤)

على البحر الابيض المتوسط خلال القرن التاسع الميلادي على احوال اوروبا الاقتصادية والاجتماعية . ويقول بيرين ان سيادة المسلمين هذه اقفلت ابواب اتصال اوروبا بالعالم الخارجي فتم تحول المجتمع الاوربي الى مجتمع زراعي مقفل ، تم ان الخطر الاسلامي على غرب اوروبا (من الاندلس) كان السبب في ظهور الدولة الكارولنجية نتيجة لانتصار شارل مارتل او مارتنة كما يقول العرب على المسلمين في موقعة بلاط الشهداء ٧٣٢/١١٤ ، ومن كلماته الماثورة : لولا محمد لما كان من الممكن ان يظهر شارلمان .

واكبر اعمال هنري بيرين هو تاريخه لبلجيكا Histoire de Belgique في سبعة مجلدات ، وهو ايضا نموذج من التاريخ الكلي الذي يعطي صورة شاملة للعصر او الموضوع الذي يدرس . وحيث ان بلجيكا لم تولد الا سنة ١٨٣٠ فان ما سبق الميلاد الرسمي لبلجيكا انما هو تاريخ اوروبا والاراضى المنخفضة بشكل خاص .

ومن اجلاء اساتذة مدرسة التاريخ الكلي جورج ليفيفر George Lefebvre (١٨٧٤ - ١٩٥٩) الذي سار على المنهج الدقيق الذي يلتزم الاصول بكل دقة، وله كلمة ماثورة هي : لا وثائق، لا تاريخ .

واجلاء شيوخ هذا الفن فيما بين ١٨٥٠ والحرب العالمية الاولى كثيرون غير هؤلاء . ولكننا نكتفي بمن ذكرنا ممن كان لهم الفضل الاكبر في جعل التاريخ علما مستقل الشخصية ، واضح المنهج والطريقة ، والبتوا للناس انه من اهم نواحي الدراسات الانسانية ، وابعدها اثرا في تكوين العقل الواعي المدرك لحقائق الحياة .

فلاسفة التاريخ في عصرنا ، كروتشي وكولنجودوتويني وشبنجلر

ولتلفت الان لنلقي نظرة على آخر موضوعات هذه الدراسة وهي الامام باهم مذاهب فلسفة التاريخ خلال القرن العشرين .

وصل التاريخ على ايدى من ذكرنا وغيرهم كثيرين الى مرتبة العلوم ذات الوظيفة والشخصية المستقلين ، واستقر الرأي على ان التاريخ علم بالمنهج ، اى ان موضوعه الاساسي - وهو الانسان - لا يسمح بان تكون له قواعد وقوانين لهادقة قوانين العلوم ، ولكننا ندرسه بمناهج البحث العلمي من استقصاء المادة ودراستها وتحليلها وتحليلا دقيقا ثم استخلاص الحقائق ، وقال بعضهم ان التاريخ لا يسير على قوانين ولكنه يسير على منطق ، فكل حادث اسبابه وتطورات ونتائج المنطقية ، وفي احدي دراساته قال ج . ب . بيوري عبارته التي لقيت قبولا كبيرا : التاريخ علم ، لا اكثر ولا اقل ، ولكن بيوري نفسه تبين في دراسته الاخيرة ان عبارة History is a science, no more, no less تحتاج الى تعديل . لاننا في الحقيقة لا نستطيع الوصول الى صورة الماضي كما كانت بالضبط ، وانما نراها متأثرين بعصرنا ومفهوماته، وعلى هذا فالصورة او الحقيقة التاريخية نسبية دائما ، ومن هنا حلت عبارة « التاريخ النسبي Relative History محل التاريخ العلمي Scientific History وهذا يعود بنا الى الفكرة التي تحدثنا عنها اوائل هذا البحث عن ان التاريخ حوار بين الحاضر والماضي ، وقال ج . ب . بلاك J. B. Black في مقاله عن فن التاريخ The Art of History « ان رؤية التاريخ بصورة مباشرة غير ممكنة ، وهو لا يرى - الا بصورة غير مباشرة اى كما يتجلى في مرآة عصرنا . وفي محاضرة القاها هنري بيرين في قاعة الجمعية

الجغرافية في القاهرة سنة ١٩٣٣ سمعناه يقول أننا نرى حوادث التاريخ كما نرى ملقعة وضعناها في كوب ماء فانفجرت الى ثلاثة ارباعها ، فالغامر في الماء لا يرى الا منكسرا بحسب انكسار شعاع الضوء عند مروره في الماء. وشيئا فشيئا اصبحت النسبية التاريخية Historical Relativism هي النظرية السائدة ، وكان هذا حلا موفقا لأن صورة الماضي « كما كان بالضبط » التي سعى وراءها رائكه ومدرسته كانت امرا في الحقيقة مستحيلا . وقال **تشارلس بيرد** Charles A. Beard عميد المؤرخين الامريكيين ان التاريخ العلمي انما هو حلم تبيل تبدو الحقائق فيه وكأنها الحساء النائمة في الغابة la belle au bois dormant تنتظر المؤرخ المتقذ الذي يعتبر منها ونظاراته على عينيه ويضع على جبينها قبلة الحياة فتدب فيها الروح كما تقول الاسطورة . وقبل الحرب العالمية بقليل قال **كارل هاينريخ بيكر** Carl Heinrich Becker الذي كان ايضا من كبار المستشرقين - ان كل انسان مؤرخ نفسه ، اي ان كلا منا يروى التاريخ على طريقته ، واكد ذلك **كونيارز ريد** Conyers Read عندما قرران نسبية التاريخ The relativity of History اصبحت القاعدة السائدة .

ولم ير **بندتو كروتشي** Benedetto Croce (١٨٦٦ - ١٩٥٢) ان يسير على هذا المذهب الذي رآى فيه تواضعا لا يتفق مع اهمية التاريخ في نظره . كان كروتشي مؤرخا وفيلسوبا ، وكان له نصيب في سياسة إيطاليا اذ تولى وزارة التربية سنة ١٩٢١ - ١٩٢٢ اى قبل استيلاء موسوليني والفاشيين على الحكم ، وبعد ذلك اصبحت صماما ناولا للحكم الفاشي . ولكن مناوآته لم تصل الى حد التحدي الذي ربما كان قد ادى الى العصفبه ، فظل دائما محترما من جانب السلطات ، وان كان الفاشيون نهبوا داره في نابولي سنة ١٩٢٦ بعد اعلانه احتجاج اهل الفكر على استبداد الفاشيين . وفي سنة ١٩٤٣ وبعد ان تزوع النظام الفاشي الف الحزب واصبح وزيرا بغير وزارة في وزارة **بييترو بادوليو** Pietro Badoglio التي اعقبت سقوط موسوليني ، وشغل نفس المنصب في وزارة **ايفانوى بونومي** Ivanoe Bonome (١٩٤٤) واصبح عضوا في الجمعية التشريعية سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ وفي نفس السنة أسس المعهد الايطالي للدراسات التاريخية Istituto Italiano di studi storici وتوفي في داره في نابولي في ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢ .

وقد كتب كروتشي كتباً تاريخية كثيرة من الطراز العلمي التقليدي ، ولكن مقالاته وآراءه كلها نجدها في مجلة « النقد » la Critica التي انشأها سنة ١٩١٣ ، وظل مديرها ورئيس تحريرها احدى واربعين سنة . وعندما تخلى عنها انشأ كراسات النقد Quaderni della critica ونشر منها عشرين عددا ، وهو مشهور بكتابه الكبير فلسفة الروح Filosofia delle spirito الذي قسمه الى اربعة مجلدات : الاول في علم الجمال estetica والثاني في المنطق Logica والثالث لفلسفة السلوك Filosofia della condutts والرابع في نظرية التاريخ وتاريخه Teoria a storia della storiografia وهذا الجزء الاخير هو الذي يهتما وهو الذي يجعل له مكانا بين فلاسفة التاريخ .

وكان كروتشي يرى في نفسه فيلسوفاً من مستوى هيجل ، وكان الكثيرون من انصاره ينظرون اليه على هذا الاعتبار ، ولكننا عندما نقرأ الجزء الخاص بالتاريخ من « فلسفة الروح » نجد انه يعوزه الوضوح وتلك الدقة اللذهنية التي تميز تفكير هيجل . وفي كثير من الاحيان نفقد خيط الافكار . وانا شخصيا لم استخرج من آرائه الامما وجدته في طبعات الانجليزية لبعض جوانب فلسفته في التاريخ وكلها مقتبسة من كتاب وضعه هو نفسه ونشر فيه مختارات من كتاباته في الفلسفة والشعر والتاريخ .

والذي يريده كروتشي بالروح هو روح العصر اى لبابه وشخصيته والجو السائد فيه والافكار المسيطرة عليه والنظم والتقاليد التي تحكمه ، وهو يقول انك لا تستطيع ان تؤرخ لعصر الا اذا الممت بروحه على هذا النحو الشامل ، ويقول كذلك انك لا تستطيع ان تؤرخ لرجل الا اذا الممت بظروف عصره كلها وتمكنت من الاحاطة بظروفه الشخصية ايضا ، حتى اوصافه الجسمانية لا بد من معرفتها فهي في كثير من الاحيان ذات اثر بعيد في توجيه فكره وحياته ، ومعنى ذلك كله ان التاريخ في الحقيقة عملية معايشة ، معايشة العصر الذي نكتب عنه ومعايشة الرجل الذي نترجم له وادراك روح الموضوع ايا كان ادراكا تاما .

وهذا الروح الذي يتحدث عنه كروتشي هو الذي يعبر عنه كبار المؤرخين في عصرنا ممن يؤرخون على مذهب «التاريخ الشامل» total history التي سنتحدث عنها بجو العصر او المناخ التاريخي historical climate وهو آخر المذاهب التاريخية المعتمدة في عصرنا .

وبرجع فلسفه كروتشي في بعض نواحيها الى آراء جيامبا نيسنا فيكو التي اوجزناها ، وتركز في بعض نواحيها الاخرى الى تجربته الشخصية ونشاطه الواسع في النقد الادبي والتاريخ ، ولهذا نجده يستمد آراءه من الواقع التاريخي الذي لمس انه معاناته لكتابة التاريخ ومحاولاته تفسير الاحداث . وهو يرى ان فلسفة التاريخ ينبغي ان تنبع من التاريخ نفسه اى لا بد ان تقوم على اساس الواقع الثابتة ، فهي على هذا تفسر الوقائع لا فلسفة لها ، وكلا الوقائع وتفسيرها ينبغي ان يقوما على فهم كامل لروح الموضوع . ومع هذا التمسك بالواقع التاريخي والتشدد في القول بانه ينبغي ان يكون اساسا لى فلسفة تاريخية - مما يجعل الانسان يتصور ان كروتشي يرى ان فلسفة التاريخ ما هي في الواقع الا تفسير له . على الرغم من ذلك نجد كروتشي يميل الى الجانب المثالي او التأمل في فلسفته للاحداث . مما يوحي بان هناك اضطرابا في تفكيره الفلسفي التاريخي ، وهذا صحيح الى حد بعيد .

ومن اطرف آراء كروتشي قوله بان هناك فرقا اساسيا بين المعرفة التاريخية والمعرفة العلمية . الاولى في نظره لون من الثقافة او الادراك الفكري . وهو يقول ان الماضي في ذاته لا وجود له ، وهو يتبع في ذلك نفرا من العلماء الذين قالوا بذلك لينقضوا القول بان التاريخ علم ، فاذا لم يكن للماضي وجود فعلي فانه لا يوجد الا في ذهن المؤرخ . ومعنى ذلك ان الحوادث الماضية لا وجود لها بالفعل الا اذا فكر الانسان فيها ، في هذه اللحظة توجد وتصبح بالنسبة للمؤرخ المعني بها حوادث معاصرة ومن هنا يقول كروتشي ان التاريخ كله معاصر على هذا المعنى ، ولنفرب لذلك مثالا من تاريخنا فنقول ان ثورة الزنج التي قامت في عصر الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩ - ٨٩٢ / ٢٨٩ - ٩٠٢) كانت من اعظم الحركات الاجتماعية في تاريخ الدولة العباسية ، وكانت لها آثار سياسية واجتماعية بعيدة المدى . ولكنها انتهت وتلاشت آثارها بعد ذلك فيما دهم الدولة العباسية من تدهور واحداث جسام ، فهي على هذا حادث مضي نماما واندرج في صحائف التاريخ ولم يعد له وجود في الواقع ، فاذا فكر مؤرخ في دراسة ثورة الزنج وبحث عنها « وجدت » في ذهنه واصبحت حادثا واقعيا بالنسبة له لانه يشغل نفسه بها ويعيش فيها . وهذا الرأي الذي يستوقف النظر لطرافه لا لعمقه يبدو وكأنه استطراد مع القول بنسبية التاريخ . ويمكن تلخيصه على هذا الاساس بالقول بان التاريخ حي بالنسبة للمؤرخ او لابناء العصر ، وميت بالنسبة لغيره .

وكان كروئشي يرى أن الفكر التاريخي اعلاواوتق من أى فكر آخر لأنه يعتمد على واقع وتجربة ومعاناة ، وأن القول بنسبية التاريخ ليست مظهرًا من مظاهر ضعف التفكير التاريخي ، بل تأكيد للقوة الذهنية والتخيلية . ويمكن القول بأن كروئشي كان حقيقياً ناقداً ومصيباً فيما كتب عن تاريخ إيطاليا ، أما كتابابه في فلسفه التاريخ فيتسبها القموض والتناقض .

ولكن آراء كروئشي كانت ذات نفع لمعاصر له من كبار الفلاسفة والمؤرخين وهو **روين جورج كولنجوود** Robin George Collingwood (١٨٨٩ - ١٩٤٣) وهو علامة انجليزى صافى الذهن بعيد النظر ، تخصص أول الامر في التاريخ وخلف لنا كتابا من احسن ما كتب في تاريخ انجلترا في العصور الرومانية Roman Britain (١٩٣٦) وهو جزء من تاريخ اكسفورد لانجلترا ، وشغل وظائف استاذية التاريخ في اكثر من جامعة انجليزية ، وجعل همه التغريب بين الفلسفة والتاريخ ، وقال ان الفلاسفة منذ ايام ديكارت شغلوا انفسهم بمشاكل العلم والمناهج ومعان اخرى لا يمكن طبيفها عند دراسة الفكر أو العمل، وبعد ان رأى الدنيا تخوض غمار حريين عالميتين ايقن ان العلوم لم تساعد كثيرا في حل مشاكل البشر وان الفلسفة اذا مزجت بالتاريخ كان من الممكن ان تعين على ايجاد هذا الحل ، وقال ان دراسة الواقع التاريخي ربما اعطت الانسان نوعا من الحكمة الواقعية تمكنه من العثور على طريق قويم . وقد جمع آراءه في كتاب « فكرة التاريخ The Idea of History » الذى نشر بعد وفاته سنة ١٩٤٤ وهي رسالة مصوغة في أسلوب جميل حافلة بالآراء الصادقة ، ولكنها لا تتضمن نظاما فلسفيا متناسقا .

وقد كتب كولنجوود كتابا آخر عن فلسفة التاريخ ، وهو يحمل هذا العنوان بالفعل Philosophy of History وهو يعتبر في العادة اقل مستوى من « فكرة التاريخ » ولكنه على اى حال اوضح ، ويستطيع الانسان ان يخرج منه شئ نافع . ويؤيد كولنجوود هنا القول بنسبية التاريخ (٢٥) ولكنه ينكر ان المؤرخ يتبع هواه في اختيار الطريق الذى يجمع به الشواهد او الادله التاريخية على ما يريد قوله . ثم يتابع كروئشي في تفكيره ويقول انه ما دام التاريخ ابتداء وخلفا للمؤرخ نفسه ، اى ما دام الماضي لا يبعث حيا الا اذا وجد المؤرخ الذى يهتم باعادته الى الحياة فان عودة الحياة الى الماضي لا تحدث الا اذا سأل المؤرخ سؤالا ، اى ان تورة الزنج مثلا لا تكتسب اهمية الا اذا تسأل المؤرخ عن ماهيتها ومضى يبحث عن هذه الماهية . ونفى كولنجوود القول بأن المؤرخ يتخير ما يريد بحثه من حوادث الماضي، لأن هذه الحوادث نفسها غير موجودة ، انما هي توجد فقط عندما يريد المؤرخ ذلك . وكان الناس قبل كولنجوود يقولون ان الماضي او التاريخ كله لا وجود له الا في ذهن المؤرخ ، وعلى هذا فرأى كولنجوود هذا ليس الا صياغة جديدة لهذه الفكرة . ومن هنا نفهم كيف كان كولنجوود من المتحمسين لما قاله كروئشي من ان التاريخ كله معاصر وقال: ان التاريخ كله يروى احداًه ويضعها في عالم الحاضر لا كتاريخ بالضرورة بل كتاريخ للتاريخ . وربما اراد ان يقول بذلك ان كتاب التاريخ الراقد على رف في المكتبة لا يصبح تاريخا الا اذا تناولته وفتحته ومضيت تقرأ فيه . هنادب فيه الحياة وقبل ذلك كان كل ما فيه شيئا ميتا .

ومن هنا استنتج كولنجوود ان التاريخ ليس له تفسير واحد بل ان كلا منا يفهمه ويفسره على قدر ما يستطيع ذهنه ، وهذا التفسير لا يمكن ان يتحلل من شخصية المؤرخ وفاقته ، وهذا يفسر

لنا كيف ان كل مؤرخ يرى في نفس الحوادث شيئا آخر ، وعلى هذا فانه لا يمكن القضاء على العنصر الشخصي The subjective element وان التاريخ الموضوعي الصرف pure objective history يكاد ان يكون لا وجود له .

وليس معنى ذلك ان كولنجود يرى ان التاريخ كله خاضع للهوى والاحكام الفردية التعسفية . ولكنه يقول ان المسألة مسألة وجهة نظر وراي صادر عن انسان له شخصيته وتكوينه وخلفيته وقال : « فاذا كان لى مثلاً راى فى بوليوس قيصر يختلف عن راى مومسن فهل معنى ذلك ان واحدا منا على خطأ ؟ الجواب لا ، لان تفكيرى التاريخي مبني على ماضي وتجربتي لا على ماضي مومسن وتجربته . اتنى ومومسن تتفق فى اشياء كثيرة ، وفى احيان كثيرة تتفق فى نواح من ماضينا ، ولكن حيث اتنا انسانان مختلفان ، وكل منا يمثل ثقافة معينة وينحدر من اصلااب خاصة به فورا كل منا ماضى يختلف عن ماضى الآخر ، وكل شىء فى ماضى مومسن لا بد ان يعاني انحرافا عندما يدخل فى ماضى » .

ويقول : « و اخيرا وحيث ان الماضى نفسه لا شىء ، فان معرفة هذا الماضى ليست - ولا يمكن ان تكون - هدف المؤرخ ، انما هدفه - وهو هدف كل مخلوق يفكر - هو معرفة الحاضر ، الى هذه الغاية ينبغي ان ينتهي كل تفكير ، وحول هذه الغاية ينبغي ان يدور كل شىء . ولكن المؤرخ لا يشغله الا مظهر واحد من الحاضر ، وهو : كيف صار الى ما هو عليه . وعلى هذا الاعتبار يكون الماضى مظهرا للحاضر ووظيفة من وظائفه ، وعلى هذه الصورة ينبغي ان يظهر التاريخ فى نظر المؤرخ الذى يفكر بذكاء فى عمله او يحاول ان يصل الى فلسفة التاريخ » .

وقد كان الكثيرون ممن يتقنون التاريخ ومنهجه يقولون ان عمل المؤرخ يعتمد على « القص وزجاجة الصمغ Scissors and paste أى انه يقطع صفحات مما قال الاولون ويلصقها بعضها الى جانب بعض ويعمل منها تاريخا ، وهذا يصدق - ربما - على الكثيرين من مؤرخي العصور الوسطى ، وقد انكر كولنجود ذلك انكارا شديدا وقال ان المؤرخ الحق ليس عبدا لمراجعته وقال : « ان القص والصمغ لم يكونا قط اساس المنهج التاريخي » فان المؤرخ الحق لا يتقيد بمراجعته الى الحد الذى يجعلها قيда له ، بل ان للمؤرخ الحق فى ان يقوم مراجعته نفسها اذا تبين له فيها الخطا او الكذب .

وقد اورد كولنجود هذه الآراء فى تاريخ حياته An autobiography الذى نشره سنة ١٩٣٩ وهو من اجمل والذى ما يقرؤه المؤرخ او المفكر بصفة عامة . ويصادف القارئ فى هذا الكتاب الكثير من الآراء التى لا يقللها ، ولكن المؤرخ يشعر وهو يقرأها ان هذا المفكر الفذ يؤكد له اهمية عمله ويكشف له عن آفاق واسعة للعمل التاريخي . فقد كان كولنجود مقتنعا تماما بأهمية التاريخ ، و فى كتاباته يشعر الانسان بجلالة هذا العلم وقدره ، واذا كان الكثيرون قد نقذوه لقوله بان للمؤرخ ان يعتمد الى جانب مراجعته على ادراكه الشخصي وتصوره للاشياء حتى لو خالف تلك المراجع ، الا ان كل مؤرخ يحترم مسننته ويشعر بقدرها لا بد ان يشعر بتقدير واجلال لهذا الرجل الذى انصف التاريخ والمؤرخ معا ، واستطاع بذكائه وصدقه وإخلاصه للحقيقة العلمية ان يضع التاريخ فى وضع رفيع بين العلوم سواء اكانت نظرية ام عملية .

التاريخ العالمي ونظرياته

وهكذا نصل الى اشهر المؤرخين المعاصرين وابعدهم اثرا فى الفكر الفلسفي التاريخي فى ايامنا هذه وهو **ارنولد يوسف توينبى** Arnold J. Toynbee الذى ولد فى نفس العام الذى ولد فيه

كولنجود (١٨٨٩) وانجه بالدراسات التاريخية اتجاها اشمل واوسع مما قصد اليه كولنجود واجتهد في ان يتحقق مما اذا كان للتاريخ مسار معين يمكن التعرف عليه ولو على وجه التقريب ، ومعنى ذلك انه وجه اهتمامه الى ما يسمى احيانا **بإيا وراء التاريخ** Metahistory أى البحث عن القوى أو العوامل أو المناهج التي تسير التاريخ .

وعاد توينبي بالفكر التاريخي الى حيث تركه المفكر الفرنسي المعروف اوجوست كومت Auguste Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٧) الذي اجتهد في ان يطبق على الانسانيات والتاريخ خاصة - نفس المناهج العلمية التي تطبق على العلوم الطبيعية ، وقد ركز كومت اهتمامه على علم الاجتماع ، وهو دون شك منشئ هذا العلم في الغرب قبل **دوركايم** Durekheim بزمن طويل . وهنا نجد كومت قريبا جدا في منهجه وطريقة علاجه لما يدرسه من منهج ابن خلدون ، وربما كان من المفيد ان يكف بعض المشتغلين بالفلسفة عندنا بعمل مقارنة بين مناهج الرجلين . على أى حال لا يعد كومت مؤرخا او مفلسفا للتاريخ . لأن ميدانه الحقيقي هو فلسفة العلوم ، ولكنه بالحاجة على البحث عن قواعد وقوانين لسير التاريخ انشأما يسمى **بالإيجابية التاريخية** La positivité historique أى التزام الدقة العلمية في كتابة التاريخ مع البحث عن المنطق الدقيق وراء كل حادث وتطور . وقد لعبت الإيجابية التاريخية نجاحا كبيرا وجعلت أى مقدم على التأليف في التاريخ يبدل غاية وسعته في استقصاء مادته وتنقيتها وتحليلها باقضى ما يستطيع من الدقة أى باقى ما يستطيع من المنطق ، وكان يرى ان دراسة التاريخ تقدم لنا المادة التامة لفهم المجتمع . وإلى هذا الرجل يرجع الفضل في انشاء كرسى التاريخ في الكوليج دى فرانس سنة ١٨٢١ . وقد وضع الرجل منهجه في كتابين يعتبران من اسس الفكر الحديث وهما « دروس في الفلسفة الإيجابية » (١٨٢٠ - ١٨٢٢) ومنهج للسياسة الإيجابية Systeme de politique positiviste (١٨٥١ - ١٨٥٢) وهو لا يزال يكرر في كتابيه هذين على رايه في ان المجتمع الانساني قابِل للدراسة على الاساس العلمي .

وقد رأينا كيف عمل كروتشي وكولنجود من بعده في تحرير التاريخ من العلم الطبيعي والمؤرخين من محاولة تطبيق مناهج العلم الطبيعي على مجرى حياة البشر ، ومن فضائل كولنجود انه نصح المؤرخين بأن يكتفوا عن السعي وراء البحث عن قوانين عامة للتاريخ ، وقال ان الاجدى هو الاجتهاد في فهم الحوادث كما فهمها أهل عصرها ، وعرضها في اطار الزمن الذى دارت فيه لا في اطار عصرنا . ففي العصور الوسطى مثلا كان الملوك اذا صعدوا الى العرش كان اول مهمهم القيام باعمال عسكرية ضد جيرانهم لا بقصد العدوان وانما لاعلاما للجيران بأن الملك الجديد قوي جسورا لا يصطلي بناره « كما يقولون » فيهاوه ويحترمواحدوده ، فاذا لم يفعل ذلك ظنوه ضعيفا فقاموا بالعدوان على بلاده ليعجبوا عوده ، وعلى هذا فلا ينبغي ان ننظر الى كل حروب الملوك والأمراء في العصور الوسطى على انها اعمال عدوانية ، بل هي روح العصر كانت تقتضي ذلك . هكذا ينبغي ان نفهم التاريخ في ضوء عصره وظروفه وافكاره الشائعة حتى نطمئن الى ان فهمنا للحوادث صحيح .

ولكن فكرة البحث عن قواعد وقوانين تسيّر التاريخ العام ما زالت مع ذلك تراود ذهن المؤرخ الطموح الذى لا زال يأمل في الوصول الى سر التاريخ . ومن هذا الطراز لدينا في العصر الحديث عدد ليس بالقليل ، ولكنهم لم يعودوا يصيرون آراء فلسفية قائمة على التأمل ، ولكنهم لجأوا الى ما صرف عند الألمان باسم التحليل التاريخي أو مورفولوجية التاريخ Geschichtsmorphologie او تحليل الحضارات Kulturmorphologie والمراد بذلك ان يأخذ المؤرخ مجموعة من الحضارات بعينها نماذج ثم يحلل عناصرها ومكوناتها ويحاول ان يجد عناصر

متشابهة بينها تساعد على ان يرى ان كان هناك بالفعل - او لم يكن - نظام واحد يمكن ان يطبق عليها جميعا .

وهذا المفهوم للتاريخ العالمي يختلف عن مفهومه التقليدي الذي يقوم على رواية تاريخ البشر عصرا عصرا او امة امة كما نجد مثلا في تاريخ كيمبريدج باقسامه الثلاثة : القديم والوسيط والحديث ، ويختلف كذلك عن مفهومه الفلسفي الذي يبحث عن القوى العامة التي تحرك مسار التاريخ كما راينا هيجل ينظر الى التاريخ او العملية التاريخية كما كان يسميها Geschichtsprozesse على انها عملية صعود ومنطقي الى مستويات عقلية او فكرية جدلية تنتهي آخر الامر الى تحقيق ما تقصد اليه القوة العليا المدبرة Dialektische Stufen لشئون الكون Weltgeist من توحيد العالم في كل واحد Weltganz يعيش في حرية وامان ، وكان يحسب ان الانسانية قد اقتربت من هذا الهدف الاعلى بظهور الدول الاوربية المنتظمة القائمة على القانون Rechtsstaaten وكان يرى في الدين والعلم والفن مظاهر مرتبطة بما بتحقيق من الاقتراب من ذلك الهدف الاخير الذي قصده الى العقل الكوني الاعلى - اي الخالق سبحانه في راي هيجل - وقد راينا كيف هدم ماركس هذا البناء الفلسفي بقوله لا وجود لهذا العقل او الروح الاعلى ، وان المحرك الحقيقي للتاريخ هو الاقتصاد والانتاج ، اي انه هبط بالفلسفة التاريخية من السماء الى الارض ، وقال ان ما ذكره هيجل من دين وعلم وفن ، وطن انها لباب التاريخ واساسه ان هي الا قشرة ظاهرية لبنية التاريخ ، وقد سماها بالبناء العلوي Neberbau او Super structure كما يترجمها الانجليز يقوم اساسا على انتاج الطبقات العاملة ويعتمد على عمل الكادحين الذين هم في رايه بناء التاريخ وصناع الحضارة .

هذا التصور الجديد للتاريخ العالمي يرجع الى آراء فيكو في قيام الدول وسقوطها ومحاولة البحث عن اسباب القيام والسقوط وقد راينا ان فيكو يحاول ان يرد القيام والسقوط الى عوامل بيولوجية اي انه فعل ما فعله ابن خلدون من تشبيه الدول والحضارات بالنباتات والحيوانات وقوله بان لها اعمارا لا بد ان تمر فيها .

ونحن نذكر ان ابن خلدون اشار في تحليله الى ان الامم في صعودها تنطلع نفوس اهله الى عظام الامور وتستسهل الصعاب ، وفي ايام هبوطها تسقط هم اهله وتصعب عليهم الصفائر ، وهذه لمحة عبقرية سماها متفلسف تاريخي الماني هو **فوننت Wundt** باسم نفسية الشعوب Völkpsychologie وتحدث عنها **كارل لامبرخت Karl Lamprecht** في تاريخه للحضارات على اساس نفسي .

وكان **لامبرخت** من اوائل من فكروا في البحث عن سر التاريخ عن طريق تحليل عدد من الحضارات والبحث عن العوامل التي سببت قيامها وهبوطها واستخراج المعاني من ذلك التحليل او ما يسمى بدلالات التحليل الحضاري Kulturmorphologische Geschichtsdeutungen

وقد يكون لامبرخت قد استوحى في ذلك آراء مؤرخ روسي يعتبر من اوائل دعاة الحركة الصقلية اي السلافية ، وهو **نيكولاي دانيليفسكي Nikolai Davielewski** (١٨١٢ - ١٨٨٥) وفي محاولته لتحديد الشخصية السلافية قام دانيليفسكي ببناء نظرية كاملة تقوم على اساس من مورفولوجية التاريخ . فاخار عشر حضارات راي فيها انها حضارات مبتدعة او بانية للحضارات ثم قسمها على اساس لغوي ، فجمع الحضارات الابطالية والفرنسية والاسبانية مثلا في وحدة

حضارية واحدة ، وكان هدفه من ذلك ان يبين آخر الامر ان هناك وحدة حضارية مسقبلية او سلائية تنتميها روسيا ، ولكنه كشف عن جهل عميق بما هو خارج عن النطاق الاوربي فقرر ان هناك اجناسا ذات انس سلبية او مخرب للحضارات .

وقد تناول هذه الفكرة وسار بها الى مدى ابعد مؤرخ الماني اصيل هو **اوزفالد شبنجلر** Oswald Spengler (١٨٨٠ - ١٩٢٢) فقد كانت نظريته اوسع وافقه اتمل فادرك من التوفيق ما ادرك لامبرخت ودانيليفسكي وقد بسط آراءه في كتابه المشهور : **افول نجم الغرب** *Untergang des Abendlandes* الذي ظهر جزؤه الاول سنة ١٩١٨ ، واتار ضجه كبرى ، اذ انكره المؤرخون المحترفون لانه هدم الكثير من آرائهم ودعاهم الى اعادة النظر فيما يتناولون من علم التاريخ . اما جمهور الناس فقد اعجبوا بكتاب شبنجلر وبهافتوا عليه لما راوا فيه من جدة وشمول ، ثم ظهر جزؤه الثاني سنة ١٩٢٢ مع نسخة معدلة من جزئه الاول .

راى شبنجلر تشابها بين قيام الحضارات ونموها ووصولها الى القوة ثم انحدارها عملية بيولوجية سببية بما يجرى على الكائنات الحية من بطور طبيعي عضوي *naturhafte prozesse* بالضبط كما قال ابن خلدون . واذا كان نظر ابن خلدون لم يتخط نطاق الحضارة الاسلامية ودولها الا فيما ندر ، فاننا لا نستطيع بسبب ذلك ان ننكر عليه فضله في انه اول من قال بهذا الراى وان كان هذا الراى في ذاته غير صحيح .

درس شبنجلر سبع حضارات وحاول ان يستكشف اسباب صعودها وسقوطها ، وكل واحدة من الحضارات التي اخبرها نميز بسيادة طراز معين من الناس ما بين رجال دين او عسكريين او فلاسفة . وحاول ان يرى كيف سارت الامور في كل منها ، فتبين - بحسب ما ادى اليه نظره - انها جميعا مرت بعصور انشاء ونمو ونضج ثم انحدار ، كانها كلها مرت باعمار محددة ، وكان شبنجلر بارعا في عرضه ولكن سيطرت عليه فكرة التشابه بين الدول والكائنات الحية ، وهي فكرة غير سليمة ، لان الدول او المجتمعات لا تشبه الكائنات الحية ، فان الكائن الحي يبدأ في الموت بعد ان يصل جسمه الى درجة معينة من النمو في حين ان الشعوب او الجماعات تتجدد شبابها مع ميلاد كل جيل ، ونحن نقول مثلا ان الكائن الحي يتشيخ وان الامه تشيخ ، فاما شيخوخة الكائن الحي فمفهومه واما شيخوخة الامه فكيف تكون : هل يولد اطفالها جميعا في فترة ما شيوخا ؟ الحق ان شيخوخة الامه مفهوم آخر يختلف كل الاختلاف عن شيخوخة الكائن الحي ، وهي في الحقيقة ليست شيخوخة وانما هي ضعف وفساد وظواهر اجتماعية وسياسية تختلف كل الاختلاف عن الشيخوخة العضوية .

ونتابع شبنجلر في تحليله للحضارات التي اختارها فنقول انه ذهب الى ان الحضارات اجهزة عضوية *Kulturen Sind Organismen* وان كل حضارة تمر في مراحل عمر تشبه مراحل اعمار البشر المشهورة هي : *Jede Kultur Läuft die Alterstufe des eingenen Menschen* : ولكل حضارة منها روح او لباب ، وشبنجلر لا يستعمل هنا لفظ *Geist* الذي استعمله هيجل ولا *Spirit* الذي استعمله كروتشي ولكنه استعمل لفظ *Scele* وهي الروح التي في الكائن الحي . وهو يقول ان الفترة الاولى من حياة اى حضارة تشبه العصور الوسطى الاوربية . وهي في نظره على هذا مرحلة طفولة او صبوة ، ثم تدخل في مرحلة الوعي لنفسها والتنبه الى قواها ، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة الضعف والهبوط ، واننا نستطيع ان نستشف روح كل حضارة في معاملات

الناس في نطاق أى حضارة ما في كيانها من قوة ، وما تمر فيه من مراحل العمر ، وطابعها الخاص كذلك ، وعبارة بنصها :

In den Handlungen der Menschen wird dabei Kraft, Alter und Eigenart jeder Kulturseele sichtbar

وقد اتينا بها لأنها كانت موضع نقد شديد ، لأنه ذهب في تنسيبه دورة الحضارة بدورة حياة الكائن الحي الى مدى مسرف في البعد ، فان التطابق بين حياة الأمم وحياة الافراد كما قلنا غير موجود الا في الظاهر فقط . وقد عدل شبنجلر عن بعض آرائه تلك فيما بعد ، ولكن صلب نظريته ظل قائما . واليوم لا يأخذ احد بنظرية شبنجلر التي تلخص في قول احد تلاميذه :

Spenglers Deutung der Weltgeschichte als Naturhaftes Prozesses des Wachstums and Verfalls.

(تصوير شبنجلر التاريخ العالمى في صورة عملية نمو وتفكك طبيعية) ، وأضاف - مقسما من كلام اشبنجلر : ان ملاحظة سير الدورة Zyklus الحتمية وتنبع اطوارها يمكننا من الحكم على مستقبل أى حضارة وذلك بدراسة ما قطعه من اطوار دورة حياتها فتعرف ما بقى لها من العمر . وقال « ان الصورة الروحية لكل من هذه الاطوار ومدتها وسرعتها ولباها وانتاجها يمكننا من الوقوف على ما بقى لأى حضارة راهنة من سنوات القوة . وقال ان حضارة الغرب قد خلفت وراءها مرحلة الخلق الحضارى ودخلت في مرحلة السامبل والاستمتاع المادى (التى يعتبرها شبنجلر مرحلة النضج الكامل لأى حضارة فلم يبق للغرب الامرحلة الانحدار او الافول Verfall) وقال ان اعادة الشباب الى حضارة الغرب وتجديدها مستحيل استحالة اعادة الشباب الى حيوان او انسان ادرسته الشيخوخة .

وقد كان غضب المؤرخين في الغرب على اشبنجلر شديدا وقاسيا بسبب هذه النبوءة السوداء ، وهاجموا كتابه ومنهجه وعلقوا أهمية كبرى على بعض الأخطاء التاريخية التى وقع فيها في دراسته الواسعة المدى فتعرض بسبب ذلك لانتعاب كثيرة ، وزادت متاعبه عندما قام النظام الهتلر فى ألمانيا ولم يرض الاشتراكيون الوطنيون (النازيون) عن آرائه وتوفى في ميونيخ في ٨ مايو ١٩٣٨ اسيفا وحيدا . (٢٦)

وكانت تجربة شبنجلر حافزا للكثيرين للقول بأنه خير للمؤرخ ان يقصر على عمله العلمى ، وهو دراسة ما يتولى من موضوعات التاريخ على المنهج التاريخى الصحيح ويترك جانبا موضوع البحث عن قواعد وقوانين عامة ، وهذا هو الذى رفع مقام كولنجود الى المستوى الذى ذكرناه ، وبين أن عكوف المؤرخ على عمله على هذه الصورة يمكنه من الخروج فى الموضوع الذى بحثه بنتائج ربما كانت أهم بالنسبة للفكر الفلسفى من المحاولات المتعثرة لتقنين مسار التاريخ .

-
- R. G. Collingwood, Oswald Spenglor and the Theory of Historical (٢٦) انظر
 Cycles (Antiquity, 1927. بحث نشر في مجلة
 P. A. Sorokin, Social Philosophies of An Age of Crisis (1950)
 M. Schröter, Metaphysik des Untergangs (1949).

عبد الرحمن بدوى : اشبنجلر . القاهرة ١٩٤٧ .

وكان ارنولد توينبي في جملة هؤلاء الذين عكفوا على دراستهم التاريخية في جد بالغ . كان موضوع دراسته وتخصصه هو تاريخ الاغريق وأدبهم وعندما قامت الحرب العالمية الاولى كان يقرأ على نلاميذه في جامعة اوكسفورد درساً في الحرب البلويونيزية ويشرح لهم كلام **توكيديد** عنها ، وهنا خطر بباله أن الحرب التي بصعها ذلك المؤرخ الاغريقي بين كتلتى بلاد اليونان اللتين تزعمتهما اثينا واسبرطة سببه الى حد كبير الحرب العالمية التي اندلعت ووقفت فيها بريطانيا وحلفاؤها ضد المانيا وحليمانها . وان التاريخ ربما كان يعيد نفسه حقاً كما قال **توكيديد** ، وان **شينجلر** لم ينفق وقته في بحثه وراء نظام المسيرة التاريخية . **وتوينبي** من أولئك الذين لم يدخلوا ميدان التاريخ عن طريق الاحتراف بل لانه كان يحس أن تيار التاريخ يتدفق في شرايينه كما تجرى التساعرية في كيان من خلقه الله ليكون شاعراً . وبعد أربع سنوات فضاها مدرسا في اوكسفورد (١٩١٢-١٩١٥) انتقل الى لندن أستاذاً للتاريخ البيزنطى ، واللغة اليونانية المعاصرة (١٩١٩ - ١٩٢٤) وهنا بدأ اتصاله بالدولة العثمانية والمسألة الشرقية عموماً ، وهنا ايضا درس عليه المؤرخ المصرى **محمد شفيق غربال** واربط مع بصدقة كان لها أثر بعيد على تفكير توينبي وشفيق غربال معا . ومن سنة ١٩٢٥ الى سنة اعتزاله (١٩٥٥) كان توينبي أستاذاً للتاريخ الدولى في لندن وكذلك مديراً للدراسات في المعهد الملكى للشئون الدولية . Royal Institute for International Affairs وفى سنة ١٩٢٢ بدأ في كتابة دراسته الواسعة للتاريخ التى دال فيها - ضمن أشياء كثيرة - على حقيقة استمرار التاريخ، وأن الماضى والحاضر يرتبطهما بالفعل رباط حقيقى لا شك فيه . ولقد استوقف نظر توينبي وهويتبع اخبار الحرب العالمية أن البلفاريين كانوا يلبسون قلانس من فراء الثعالب ، وكذلك كان جنود أجزرسييس ملك الفرس في حريم مع الاغريق ، فكان لا شيء في الحضارة يموت موتاً نهائياً .

يقول كتاب توينبي على دراسة عامة شاملة لتاريخ البشر على اعتبار أن هذا التاريخ يكون من سلسلة من التجارب السياسية وصل كل منها الى قمته في صورة حضارة قائمة بذاتها ، فالتاريخ الاسلامى بمجموعه - في نظره - بجزيرة واحدة خلاصتها هى الحضارة الاسلامية . فاختار توينبي من هذه الحضارات احدى وعشرين ومضى يدرس كلا منها دراسة عميقة شاملة على حدة ، فتجمعت له بذلك ثروة من العلم التاريخى ربما لم تنوفر لمؤرخ آخر قبله ، وهذه الثروة هى التى تبهر قارئ كتابه وتجعله يتغاضى عن بعض الاخطاء في التفاصيل .

وتبين توينبي أن تاريخ كل أمة من الامم التى اختارها موضوعاً لدراسته انما هو استجابة لتحدى الظروف التى وجلت فيها . وبرى توينبي أن أى مخلوق حى يجد نفسه بمجرد خلقه أمام عوامل تعمل على فناءه والقضاء عليه ، فما من حيوان الا وله اعداؤه علاوة على ظروف المناخ والغذاء وهى ليست دائماً مؤانية . ومن هنا فإن الحياة في ذاتها تحد للكائن الحى ومواجهته لظروفه ومحاولته التغلب عليها والاستمرار في عالم الاحياء هى استجابة لذلك التحدى . من هنا تنبه توينبي الى حقيقة التحدى والاستجابة Challenge and Response التى تعتبر مفتاح نظره العامة للتاريخ .

وعند دراسة توينبي للحضارات التى اختارها تبين أن المجموعات البشرية تقودها دائماً جماعات من القادة او اصحاب الراى وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة في استجابتها للتحدى

وبحددون نوع هذه الاستجابة بحسب ملكاتهم . فإذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداء الوسائل التي يمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التي تواجهها والسير الى الامام كانت هذه الجماعة موفقة ، وسار تاريخ الجماعة الى الامام ، لان الاستجابة كانت ابتكارية او ابتداعه Creative Response ولا يزال الامة في صعود وتقدم مادام قادتها محتفظين بالقدرة على الاستجابة الابتداعية . فإذا عجزوا عن ذلك أخذ سيرة الجماعة كلها يتلكأ ويتراخى وربما توقف . وبينما كان استنبجول - مثل ابن خلدون - يرى ان الاستجابة الابتداعية تصل الى ذروتها ثم تتوقف ، اى ان موت الحضارات لا مفر منه يرى توينبي انه من الممكن ان تسمم الحضارة في الاستجابة الابتداعية ولا تموت بذلك . ويضع توينبي في دراسته العوامل الفكرية والروحية في المقدمة خلافا لما كان يفعله ماركس من تقديم النواحي والعوامل المادية على غيرها .

وقد أخذ توينبي عن المفكر الامريكى **ف.ج. تيجارت** F.J. Tegar فكرة انتفع بها فيما بعد في دراسته . وهي انه لكي نفهم تاريخ حضارة ما علينا اولا ان نقرأ عنها في توسع حتى نهتدى الى روحها ولبائها . وهذا هو مفتاح فهمها ، فإذا كان في يدنا هذا المفتاح عدنا نقرأ تاريخ هذه الامة وتجربتها السياسية والحضارية فنجد انفسنا قادرين على ادراك حقائق هذا التاريخ ومعرفته مواضع قوته وضعفه . وافاد توينبي كذلك من دراسة علم النفس على مذهب **يونيغ** Jung احد تلاميذ فرويد ، ويونج من اقدر من درس موضوع نفسية الجماعات وهي تختلف كما هو معروف عن نفسية الافراد .

وجد توينبي ان كل الحضارات التي يدرسها مرت باطوار متشابهة في النمو واستمرار التقدم وريادة القوة ، ثم تعقب ذلك مرحلة من المصاعب الداخلية والخارجية يليها تصدع العناصر التي قامت عليها قوة هذه الحضارة وربما انتهى الامر بتفككها او تصدعها ، ويعقب ذلك تحولها الى دولة عالمية Universal State اى ان عناصر قوتها تنفرد في الشعوب التي كانت تكون منها كما حدث مثلا بالنسبة لدولة الرومان ، فعد قامت على العنصر اللاتيني الروماني الذى كان تكوين الاقلية القائدة التي قادت الرومان في تاريخهم الاول بما لديها من قوة الخلق والابتداع، وتمكنت من انشاء الامبراطورية وسيادتها ، ثم سرت في حقبة الاضطراب الداخلي وحروب **ماريوس وسلا** وصراع الاخوين **جراكوس** في سبيل الإصلاح الداخلي ، ثم حروب قيصر واوكتافوس وقيام الامبراطورية ، وهنا تصل الدولة الرومانية الى قمة قوتها وتأخذ وحدتها في التصدع ثم التفكك ، وتنتقل حضارتها وعناصر قوتها الى الشعوب التي كانت تحكمها ، اى انها تحولت الى دولة عالمية . ومن السهل على المؤرخ العربي ان يتتبع سير هذه العملية في تاريخنا العربي الاسلامي نفسه .

ويقول توينبي ان النموذج العادى للتفكك الاجتماعي في حضارة من الحضارات يأخذ صورة انشقاق في صفوف الجماعة وظهور الطبقة العاملة الى الميدان وتحديها للغة الحاكمة . ويعتبر ذلك بعجز هذه الطبقة عن الثبات لذلك التحدى بسبب التصدع في بنائها ومعجزها عن الاستجابة ابداعيا للتحدى ، وشيئا فشيئا تفقد القيادة سيادتها وتميل الامور الى الفوضى ، وقد يتم ذلك على مراحل تحاول القوة الحاكمة في كل منها استعادة سلطانها ثم يفقده ، وفي آخر الامر -

وكحل وسط للمشكلة - ترك جانباً من السلطان للطبقات أو الجماعات الأخرى في الدولة أي أنها تحولت تحت ضغط الظروف إلى دولة عالمية أو عامة كما ذكرنا ، وهنا نجد الطبقة العاملة أو البروليتاريا التي أحدثت هذا التغيير الشامل تجعل من مبادئها التي نادت بها أثناء تحديدها للسلطة الحاكمة عقائد ثابتة وتنشئ ما يمكن أن يسمى بهيئة أو قوة عقائدية عامة Universal Church وهذه العقائد العامة هي التي تبني بعد تفكك الدولة وزوالها وتصبح نواة لبناء دولة أو قوة جديدة .

وقد كتب توينبي المجلدات الست الأولى من تاريخه قبل الحرب العالمية الثانية في ظروف سادت أوروبا فيها موجات من التفكك والضعف واليأس ، ولكن الحرب العالمية الثانية جددت إلى حد ما نشاط الحضارة الغربية ، فلما عاد يستتم كتابه بعد نصر الحلفاء كتب المجلدات الأربع الباقية بروح من التفاؤل تختلف عن روح الأجزاء الأولى وقال : « إذا كانت هناك مركبة تسير إلى الإمام في طريق رسمه لها قائدها فلا بد أنها تسير محمولة على عجلات تدور وتدور في حركة منتظمة راقية . فإذا تصورنا أن حضارة البشر هي هذه المركبة وأن عجلاتها تضعف وتتهشم أثناء السير الطويل لتحل محلها عجلات أخرى تبين أن هذا التعاقب في تغيير العجلات واستمرار سير الحضارة يدل على أن اتصال هذا المسير مقدر في ذاته ولا بد أن يكون هناك نتيجة لهذا تقدير إلهي أعلى يسيّر هذه العملية ويجعل من فشل حضارة من الحضارات عنصر قوة وبناء لحضارة تليها .

ومعنى ذلك أن توينبي لا يرى ضيراً أو شرافاً في اضمحلال الحضارات لأن تجاربها لا تذهب سدى بل تنتقل إلى غيرها ، وتكون نقطة بداية لتجربة جديدة أو عنصراً من عناصر قوتها . ومن هنا فهو يقول أن التاريخ لا يعرف حضارة تزول تماماً ، وإنما الذي يحصل في الغالب أن الحضارة بعد أن تتم دورها على يد أمة من الأمم تدبّل وتجمد أو تتحجر Petrifies ثم تتفكك وتنتقل عناصرها إلى أمة أو أمة جديدة لتقوم حضارة أو حضارات جديدة . وقد كان توينبي يكتب هذا التاريخ في نفس الوقت الذي كان يشرف فيه على تحرير دورية سنوية كان يصدرها المعهد الملكي للشؤون الدولية تسمى « عرض للشؤون الدولية Survey of International Affairs » أي أنه كان يتابع سير التاريخ الحاضر في نفس الوقت الذي كان يقبل فيه دفاتر الماضي ، مما أعطى دراسته للماضي نفسه طابعاً من الحاضرية فيه حيوية وقوة وواقعية . وتوينبي نفسه قال أنه ما كان يمكنه أن يقوم بأى من العملين على شكل ناجح أو لم يكن يقوم بالأخر في نفس الوقت . لأن تتبع سير التاريخ الحاضر وفهمه لا يتمان إلا إذا أخذ الإنسان في اعتباره سير الحوادث في الماضي أيضاً . وإى مؤرخ ناجح لا بد أن يكون متنبهاً لأحداث عصره في نفس الوقت الذي يدرس فيه ما مضى من الأحداث لأن مادة التاريخ واحدة ، وهي الإنسان ، ولبابه واحد وهو الحضارة . **فلا بد لمن يدرس حورباي أو اخنايون أن يكون متنبهاً لرجال عصره مثل غاندي ولينين واتاتورك وفرانكلين وبلانو روزفلت .**

وتلك هي الميزة الكبرى لنظرة توينبي للتاريخ . فهو يدرسه على أنه كل واحد أو تجربة واحدة تمت على مراحل أو دورات ، وإذا كان كل من سبقوه من مفلسي التاريخ في الغرب قد

ركزوا على تاريخ الغرب بادئين بالمصريين القدماء فالأغريق فالرومان ومنتهين بالثورة الفرنسية والقرن التاسع عشر ، فجاءت دراسهم ناقصة لانها قامت على فهم ناقص للتجربة الانسانية العامة . فان توينبي ادخل في اعتباره نجارب أمم الشرق جميعا وانفق جهدا ضخما في فهمها وتقديرها ، بل ادخل في اعتباره التجارب الحضارية للهنود الحمر قبل الكشف الكولومبي . ومن هنا كانت دراسه انسانيه عامه وان سطر عليها شعوره المسيحي البروتستانتي ، واذا كان بعض النقاد قد قالوا عنه انه يتكلم احيانا كواعظ مسيحي فان من الحق ان يقال انه في معظم تاريخه يصدر عن احساس انساني عام قائم على الايمان بوحدة الانسانية وتجربتها الحضارية .

وتوينبي لا يعد نفسه فيلسوفا او مفلسا للتاريخ ويكتفي بالقول بانه مؤرخ ، اما كبار مؤرخي العصر من امثال **يوهان هويتسنجا** Johan Huizinga فينكرون عليه هذه الصفة، ويكتفون بالقول بانه شاعر ويصفون انه ادخل على التاريخ عنصرا شاعريا انسانيا ولكنه لم يكتب تاريخا حقيقيا منهجيا كما يرون . وارنولد توينبي لا يفضى من هذا الموقف ويقول ان هدفه من كتابه « دراسة التاريخ » كان تعريف الامم بعضها ببعض واطلاع كل منها على التجربة السياسية والحضارية للآخرات ، وهذه المعرفة من شأنها ان تقلل من كراهة الامم بعضها لبعض ، وتخفف من خوفها وتفتح بابا من ابواب التفاهم الانساني . وهذا فيما نعتقد يكفي .

ونلاحظ ان معظم نقاد توينبي ومنكري فضله هم من اليهود او ممن يعملون الى الاخذ بلعيا بهم . ولقد اجتهد اليهود خلال نصف القرن الاخير في تضخيم قدر ما يسمى بدولتهم في جزء من فلسطين لكي يجعلوا من ذلك سندا لدعواهم العريضة في القول بانهم اساذة الانسانية . فجاء توينبي وقاس الابعاد السياسية والحضارية لتلك الدولة ووضعها في وضعها الصحيح . وفي كلامه عن العقيدة اليهودية بين زيف الدعوى التي روجها اليهود التي تقول ان مفكريهم هم اصل الاديان السماوية وان النصرانية والاسلام تحريفات لها . فكشف توينبي زيف ذلك كله . واثبت دون تحامل او قصد معين ان هذه كلها مزاعم من صنعة اللاهوتيين والسياسيين اليهود في العصر الحديث ، واعطى المسيحية حقها ، وتكلم عن الاسلام عن فهم او محاولة صادقة للفهم على الاقل . فكان هذا كافيا لاثارة حملة اولئك عليه : وهي حملة سياسية في حقيقتها ولا قيمة علمية لها .

في كتاب « دراسة التاريخ » نرى كيف تمكن توينبي من المصالحة بين علمي الاجتماع والتاريخ على احسن صورة ممكنة ، فهو في الواقع مؤرخ وعالم اجتماع . وهو اذ يتحدث مثلا عن حضارة مصر القديمة يجتهد في ان يعطيها صورة للمجتمع المصري القديم ، لان الحضارة لا تنجلي في مبتكرات اهل العبقريه بقدر ما تنجلي في مستوى معيشة الجانب الاعظم من الشعب ، ومن هنا فان توينبي لا يتحسس حماسا شديدا لعصر النهضة الاوروبية مجرد انه اطلع رجالا من امثال **ميكلا نجلو** لان الفلاح الايطالي كان يعيش اتمس ايامه خلال ذلك العصر المضطرب . ومن هنا نستطيع القول بانه حتى الذين يريدون ان يقولوا ان ارنولد توينبي ليس مؤرخا لا بد ان يسلموا بانه فتح في التاريخ فتحا انسانيا لم يوفق اليه مؤرخ قبله .

الى هنا نقف بهذا البحث ، فقد قطعنا فيه رحلة اثنين وعشرين قرنا من جهد علماء الغرب في اثبات قدر علم التاريخ وللوصول به الى ما هو عليه اليوم . ولم يكن لنا مفر في اثناء هذا العرض من الاستطراد عن اعلام لهم قدرهم في هذا المجال من امثال **ف.و.ميتلاند** F. W. Maitland (١٨٥٠ - ١٩٦٠) صاحب الفضل الاكبر في نشاط نشر الوثائق الاولى في إنجلترا وهو مشهور بنشره للمذكرات **براكتون** . Tracton's Not Book (١٨٩٥) وكان براكتون محاميا في القرن الثالث عشر ومذكراته حافلة بالكلام عن الصور الاجتماعية والمعاملات في عصره ، وهذه المذكرات تشبه في قيمتها العلمية وثيقة « يوميات كاتب الشونة » التي نشرها عزت عبد الكريم والتي بدلك ضوءاً باهرا على حياة الناس في الشام في العصر العثماني . **ويول فينوجرادوف** Paul Vinogradoff (١٨٢٤ - ١٩٢٥) ذلك المهاجر الروسي الذي انشأ في مانشستر بإنجلترا مدرسة من اصلب مدارس العلم التاريخي ، والمؤرخ الأمريكي **ماكولن** C. H. Naellwain استاذ التاريخ في هارفارد ورئيس الجمعية التاريخية الأمريكية American Historical Association وهو صاحب فضل كبير في تعريف الأمريكيين بالقيمة الكبرى للوثائق التاريخية ايا كانت ، ولـ **ب.ب.نامير** L. B. Namier (١٨٨٨ - ١٩٦٠) الذي تعتبر مؤلفاته الى جانب مؤلفات ميتلاند نماذج لتاريخ العلمي المستكمل الشروط .

وهؤلاء الاساتذة جميعا يسرون في التاريخ على مذهب التاريخ الشامل Total History اى الدراسة الشاملة للفترة او الظاهرة التي ندرسها . فاذا كنت مثلا تدرس موضوع الضرائب في عصر الدولة الايوبية مثلا ، فلا بد لك من ان تدرس الدولة الايوبية دراسة كاملة من كل نواحيها . وتلم بتاريخها السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي . وتدرس الى جانب ذلك احوال العالم الاسلامي كله في ذلك العصر . وذلك لكي تستطيع ان تتكلم في موضوعك عن ثقة وتمكن . ولا مفر من هذه « الكلية » totalité لمن يريد ان يقوم بدراسة تاريخية جديرة بالتقدير . ولم يتبع هذا المنهج اتياما صادقا ووصل فيه الى مدهاء كما فعل ابناء المدرسة الفرنسية العريقة التي عرفت بمدرسة الانال L. Ecole des Annales التي ذكرناها . ففي هذه المدرسة الاصلية التي تكونت حول الجماعة التي انشأت دورية الانال . . اى الحوليات ظهر رعب فحل من المؤرخين الفرنسيين الذين بلغوا الذروة في كمال البحث واصالته حتى قال واحد منهم وهو Ariès ارييه ان كل ما ننق في الوقت من دراسة الحوادث السياسية والعسكرية ووقائعها ربما لا يكون في الحقيقة الا الواجهة الظاهرة للتاريخ .

وان التاريخ الحقيقي يقع وراء la face de apparence de l'histoire ذلك في حياة الناس العاديين ومستوى معيشتهم وافكارهم وآمالهم ومخاوفهم . وهم لهذا يحذرون من التاريخ السطحي histoire superficielle الذي ينزلق اليه الكثيرون فيجرون وراء تتبع الحوادث ذات الدوى الكبير ومع ذلك فربما لم يكن لها في الوعي الانساني اثر . . على المؤرخ اذن ان يبحث عن الاصيل والدائم عن اللباب دون القشر .

ومن امثلة الدراسات الشاملة على مذهب مدرسة الحوليات ذلك الكتاب المبدع الذي كتبه **فردينان براودل** Ferdinand Braudel الاستاذ المعاصر في السوربون عن عالم البحر الابيض في

أيام فيليب الثاني (1949) La Méditerranée et le Monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II وهو كتاب شامل يدرس البحر الأبيض في عصر الصراع الضخم بين الإثراك العثمانيين والإسبان والبلاد الأوروبية على سيادة البحر الأبيض . وقد درست على هذا الرجل وربطتني به صداقة كبيرة أيام كنت أدرس تاريخ إسبانيا في السوربون ، وكنت في جملة طلاب قاعة بحنه Seminaire في المدرسة العليا العملية في جامعة باريس . ورأيت اسهلاكه نفسه في تكوين تلاميذه وتدريبهم على التاريخ على مذهب البحث الشامل . ولكي يصل الرجل الى بحثه هذا درس جغرافية البحر الأبيض دراسة مستفيضة واستخرج ما سماه بشخصية البحر الأبيض التاريخية la personnalité historique de la Méditerranée ويتجلى هذا في الجزء الثاني من كتابه الذي يدرس فيه وحدة النظم الاقتصادية والنظم السياسية التي سادت في معظم الدول التي قامت على حوض هذا البحر . وبعد هذا كله يدرس برودل في الجزء الثالث حوادث الصراع على سيادة هذا البحر خلال القرن الخامس عشر الميلادي وهو يسمي هذا الجزء تاريخ الأحداث histoire événementielle وعلى نفس الطريقة سار Charles Labrousse شاول لابروس في كتابه المبدع عن الثورة الفرنسية الذي حلل فيه النظام القديم الى النظام الملكي l'ancien régime تحليلا اجتماعيا اقتصاديا فكريا ونفسيا بالغ العمق والشمول يجعل من كتابه هذا خيرا ما يعرف الانسان بالثورة الفرنسية واسبابها والظروف التي قامت فيها .

وبضاهي برودل في سعة الافق وشمول البحث والتاريخ على مذهب التاريخ الشامل **بيير رينوفان** Pierre Renouvin الذي تخصص في دراسة العلاقات السياسية في العصر الحديث . وهو من الذين يرون في أحداث التاريخ السياسي مجرد مظهر سطحي للواقع التاريخي الاهم وهو جماع الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تدفع بالجماعات الانسانية الى التعرف على هذا الوجه او ذاك . ويظهر رينوفان ذكاء بعيدا وسعة رائية في الافق عندما يتكلم عن اثر الدولة والسياسة في تشكيل الصورة العامة لنشاط الامة كلها واهميتها في المجتمع الدولي ، ويظهر كذلك براعة في تحليل ما يسميه بالسياسة الكبرى la grande politique اي التيارات الضخمة التي تدير سياسات الدول الكبرى ويتجلى ذلك كله بصورة واضحة في كتابه عن تاريخ العلاقات الدولية Histoire des relations internationales الذي ظهر سنة ١٩٥٣ وفيه تتجلى الميزة الكبرى للمدرسة الحوليات وهي القدرة على عرض المشكلة عرضا شاملا وهو ما يسمى بالموضوع la thèse ثم دراستها دراسة نقدية شاملة وهو ما يسمى بنقد المشكلة antithèse ثم الخروج بعد ذلك بالخلاصة التحليلية المركزة التي تسمى جمع الاطراف او لم؛ اطراف الموضوع la synthèse .

وبمناسبة الخلاصة التحليلية او لم؛ اطراف الموضوع الذي بلغت به مدرسة الانال اي الحوليات ما بلغت من مكانة في تاريخ العلم التاريخي نقف لحظة عند واحد من اكبر ممثلي هذه المدرسة وهو مارك بلوك Marc Bloch الذي اشتهر امره بكتابه البدع عن المجتمع الانطاقي La Société Féodale الذي ظهر اول ما ظهر سنة ١٩٣٥ وعد في ذلك الحين فتحا في التاريخ للعصور الوسطى وتحليل مجتمعا الانطاقي تحليلا اقتصاديا اجتماعيا وأثنو جغرافيا بالغ العمق .

ولقد ادخل **بلوك** على كتابه تعديلات في طبعات تالية ، ولكن النظرية الرئيسية في الكتاب ظلت كما هي وملخصها ان التركيب الاجتماعي والاقتصادي ينبغي ان يكون الاساس لكل تحليل تاريخي *la structure sociale et économique doit être le noyau de toute synthèse historique* وقد بسط مارك بلوك رايه هذا في دراسة مشهورة عن ازمة العلم التاريخي في فرنسا *La crise de la science historique en France* وفي هذا البحث تطرق الى دراسة المجتمع الفرنسي كله قبيل الحرب العالمية الثانية والهزيمة التي انتهت اليها . قال : ان هزيمة فرنسا كانت قبل كل شيء هزيمة للذكاء والخلق الفرنسي : *la défaite de la France a été, avant tout, une défaite de l'intelligence et du caractère* وقد اتيت بهذه العبارة بنصها املا في ان تدعو بعضنا الى التفكير في ازمة العرب الحالية على هذا الاساس او في هذا الاتجاه على الاقل .



هؤلاء ما هم الا نماذج من عشرات المؤرخين العاملين اليوم في جامعات الدنيا في خدمة هذا العلم الانساني الخالص الذي يدور حول الانسان وتجاربه على سطح هذا الكوكب وما ادرك من توفيق وما اصابه من نكسات وما صادف من مآسى . هؤلاء الناس - المؤرخين اقصدهم - يحاولون جهدهم النفاذ الى الماضي الطويل المظلم والقاء الاضواء عليه لعل معرفتنا في الماضي يمكننا من فهم الحاضر والنظر في شيء من الفهم وحسن التدبير للمستقبل . وهم يبدلون في ذلك جهدا شاقا في الاطلاع والدراسة والتحليل والتفكير ولكن قل " ان يتقدم مجهودهم احد . ولا يعرف الشوق الا من يعانيه كما قال جيته . ومن سوء الحظ ان التاريخ - وعندنا خاصة - مركب سهل يتخذه كل صاحب قلم اعوزه موضوع يكتب فيه او نطلع الى الشهرة وحسن الفالة بين الناس وشيئا من المال ، فما اسرع ما تمتد يده الى موضوع ضخم من موضوعات التاريخ الاسلامي ثم ينشئ فيه كتابا ربك سبحانه وتعالى اعلم بما فيه . ورفوف المكتبات العربية مثقلة بالدراسات التاريخية ومعظم ما فيها تصورات ونماذج وفروض وتعلق للقارئ الطيب الغلب . ونادرا ما تقع عينك على كتاب فيه بضع صفحات - من مئات - تبرر قراءته فضلا عن تأليفه .

لقد رايت الجهد الشاق الذي بذله رجال الغرب في نقل التاريخ من هوايه الى علم ، ومن حكايات واساطير الى دراسات وحركات فكرية هي الغاية في العمق والشمول . ونحن عندما نقرأ كتابا مما علوا انما نمسك بالثمرة ، ولكننا نادرا ما نفكر فيما وراءها من الجهد والتعب وسنوات العمر التي انقضت ليلة بعد ليلة بين وتائق لانقرا ، ومحطوطات كانها الطلاس ، ومصطلحات لا تفهم ، الا بعد البحث الطويل ، والعناء الشاق في تتبع الاصول اللغوية والقواعد العرفية ، وليس في الدنيا عالم هو اقل كسبا من وراء ما يكتب من المؤرخ فيما عدا اولئك القلائل الذين المنا بذكرهم في هذا العرض السريع . وهل يعرف الناس مثلا قدر الجهد الذي بذلته تلك الجماعة الصادقة من المؤرخين الذين انشأوا دورية الانال اى الحويلات *Annales de l'histoire économique et sociale* التي ظهر عددها الاول في فبراير ١٩٢٩ ولا زالت تصدر الى اليوم ؟ هل يذكر الا

القليلون فضل **لوسيان فيفر** Lucien Fèvre و**الير ديمانجون** Albert Demangeon و**هنري**
هاوزر Henri Hauser و**اندريه سيغفريد** André Siegfried و**هنري بيرين** Henri Pirenne
 الذى ذكرناه وغيرهم كثيرين ممن قاموا على انشاء هذه المدرسة الجليلة .

ولكن لا بأس فان العلم جهاد ومشقة وصمت ، والتاريخ يستحق هذا الجهد كله ، فهو
 سجل الماضي وصورة الحاضر والمرشد الى !لقد. انه يسير في طريقه قائما بنصيبه المتواضع في الكشف
 عن المجهول في امانة وصدق وعلى أسس علمية سليمة انشاها اهل العلم في صبر وصمت وتضحية
 على طول احقاب متطاولة كما رأيت .

★ ★ ★

مراجع مختارة

اتينا في كل فقرة من هذا البحث بأهم المراجع التي استمدنا عليها . ونضيف هنا طائفة مختارة من امهات المؤلفات في مبحث علم التاريخ مقسمة الى فترات :

تاريخ التاريخ

Carlo Antoni, From History to Sociology. The Transition in German Historical Thought. Detroit 1959.

H Elmer Barsies, A History of Hisotical Writing (revised paper back ed. New York, 1962)

J. B. Black. The Art of History. London 1926

E. Bayer, Worterbuch Zur Geschichte. Begriffe und Fachansdrücke 1960.

Brandi, K. Geschichte der Geschichtswissenschaft. 2 Aufl. 1952. Deutsche Geschicht-
philosophie von Kessing bis Jaspers.

Schiller, Kent, Herder, Lessing.

(مختارات من كتابات)

Nagel, Schilling, Fichte, Humboldt, Goethe

وجيته

Nietzsche, Diltheyo, Burckhardt, Engels, Marx,

K. Rossman نشره Jaspers, Weber.

في فرانكلورت سنة ١٩٥٩

J. W. Thompson u. B. J. Holm, History of Historical Writing 1950.

T. B. Bottomore and M. Rubel, Karl Marx, Selected writings in sociology and social philo-
sophy (paper back ed. London 1967).

J. B. Bury, Selected Essays. London 1930.

V. H. Galbraith, Historical Research in Medieval England, London 1959.

G. B. Cooch, History and Historians of the Nineteenth Century, London, 1952.

S. William Holperin, Some 20th Century Hisotrians (Chicago 1961).

دراسات عن هنري بيرين وتريفيان وليغير ودينوفان وفيغر .

Page Smith, The Historian History. New York, 1966,

Fritz Stern, The Varieties of History, Cleveland, Ohio 1956.

مختارات من كتابات كبار المؤرخين من فولتير الى ايماننا هذه .

عن النظريات التاريخية

Philip Bagby, Culture and History, London 1958.

Marc Block, The Historian's Craft, Manchester 1954.

Norman Canter and R. Schneider, How to Study History, N.Y. 1967.

- R. G. Callingswood, An Autobiography. London 1939.
 — The Idea of History, London 1946.
 — The Philosophy of History, London 1930.
- G. R. Elton, The Practice of History. London 1967.
- H. P. R. Finberg, Approaches to History, London, 1962.
- V. H. Galbraith, An Introduction to the study of history, London, 1961.
 — The Historian at work. London 1962.
- Louis Coltschalk, Unverstanding History. A Primer of Historical Method. N.Y. 1951.
- C. V. Langlois et C. Seignobos, Introduction a l'elude de l'Histoire Paris 1898.
- من اصول الكتب عن المنهج التاريخي . صدرت له طبعات كثيرة بعد ذلك « ترجمة الى الانجليزية » نشر في لندن مع مقدمه اضافية سنة ١٩٦٦
- Gordon Leff, History and Social Theory, London 1969.
- Hans Meyerhof (ed.) The Philosophy of History in our Times, N.Y. 1959.
- مختارات من احسن ما كتب في فلسفة التاريخ في عصرنا .
- L. B. Namier, Avenues of History, London 1952.
- Emergy Neff, The Poetry of History, London 1947.
- Richard Pases, The Historian's Business, Oxford 1961.
- A. L. Rowse, The Use of History, London 1946.
- David Thompson, The Aims of History, London 1969.
- A. J. Toynbee, A New Opportunity for Historians, London 1956.
- W. H. Wash, Introduction to the Philosophy of History. 1967.
- Alban Gregory Widgesy, Interpretations of History :
 Confucius to Toynbee, London 1950.
- Arthur Marwick, The Nature of History, London 1970.
- C. G. Gustavson, A Preface to History N.Y. 1953.
- Nans Rothfels u. Valdemar Besson, Geschichte
- (وهو الجزء الخاص بعلم التاريخ من دائرة معارف فيشر المعروفة باسم Das Fischer Lexikan) فرانكفورت (١٩٦١) .

صناعة التاريخ

تعريف بالتاريخ

في لغتنا العربية تأتي كلمة التاريخ والتاريخ والتورخ بمعنى الاعلام بالوقت ، وتاريخ شيء من الاشياء قد يدل على وقته الذي ينتهي اليه ، مضافا اليه ما وقع خلال هذا الوقت من حوادث ووقائع ، ويقول السخاوي انه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت ، وموضوعه الانسان والزمان (١) .

وكلمة « تاريخ » في لغتنا هي المقابل لكلمة History في اللغة الانجليزية ، وكلمة Histoire في اللغة الفرنسية ، وكلاهما اشتقاق من الكلمة اليونانية Histor بمعنى التعلم أو المشاهدة أي كل ما يتعلق بالانسان منذ بدأ يترك آثاره على الأرض (٢) .

* دكتور محمد عواد حسين رئيس قسم التاريخ واستاذ التاريخ القديم في جامعة الكويت متخصص في التاريخ اليوناني والروماني ومعصر البطلمية . آخر مؤلفاته : بيريكليس والديمقراطية الاثينية .

(١) السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) - الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . القاهرة ١٣٤٩ هـ ص ١٧ .

Oman, Ch. On the Writing of History London 1939, P.2.

(٢)

وقد استعمل أرسطو كلمة « هستوريا » بمعنى السرد المنظم لمجموعة من الظواهر الطبيعية سواء جاء ذلك السرد وفقاً للتسلسل الزمني أم جاء غير كذلك ، ولا يزال هذا الاستعمال شائعاً فيما نسميه « التاريخ الطبيعي » .

وقد تدل كلمة « تاريخ » على مطلق مجرى الحوادث الذي بصنعه الإبطال أو نصنعه التعويب (٢) .

ونحن لا نستخدم كلمة تاريخ الآن إلا في حالة السرد المرتب زمنياً ، وفي المعنى العام صارت كلمة تاريخ تعنى ماضي الإنسان ، ولهذا وضع لها الألمان كلمة تحمل نفس المعنى، وهي Geschichte المشتقة من الفعل الألماني Geschehen بمعنى يحدث ، ولكن الواقع أن كلمة تاريخ تعنى مجموعة الأحداث التي وقعت في الماضي ، والتي تقع حالياً ، ثم التنبؤ على هدى ذلك وفي ضوءه بما سوف يقع مستقبلاً .

ويقول ابن خلدون في مقدمته « فن التاريخ عزير المذهب سريف الفاهة ، إذ هو يوقننا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والإنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياساتهم ، حتى تتم الفائدة في الاقتداء بذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا » .

ومفهوم هذه العبارات يقطع بأن التاريخ يناول الماضي والحاضر والمستقبل كما ذكرنا ، ولكن ابن خلدون يرى التاريخ فنا من الفنون ويبعده عن دائرة العلوم ، وذلك موضوع سوف نتناوله فيما بعد .

كيف بدأ التاريخ :

ظهر التاريخ أول الأمر بصورة بدائية حين أخذ الإنسان القديم في فجر الحضارة يقص على أبنائه قصص قومه ويرى لهم الأساطير والمعتقدات الدينية .. فالتاريخ إذا قرين الحضارة ، ولقد بدأ الإحساس به في ذهن البشرية منذ أقدم العصور حين كان الإنسان يسجل الأحداث بالرسم والنقش على الحجر ، ومع تطور الحضارة وازدهارها أخذ التاريخ يشكل أساساً جوهرياً في تسجيل الأحداث ، وأضحى بمثابة السجل الذي يحفظ لنا ألواناً من الأحداث والأفكار والأعمال .

وتجمعت المعلومات التاريخية بصورة تدرجية حين أراد الناس أن يركزوا إليها ويفيدوا منها في حياتهم وأعمالهم ، فلا تكاد يمر بالإنسان لحظة دون أن تتمثل في ذاكرته صور عديدة بعضها عفوى وبعضها ارادى ، ولا تكاد تمر به لحظة دون أن ترتد إلى ذهنه ذكريات عن أحداث الماضي التي عفا عليها الزمن ، ولكنه عرفها وسمع عنها .

وحين يشرع الواحد منا في القيام بعمل ما فإنه - وحتى دون أن يشعر - يهتدى بأمور مشابهة لهذا العمل سبق أن قام بها غيره ، وهذا الاقتداء هو الذي ينير له طريقه ويهديه سبيل النجاح ، لأنه من غير شك سوف يتجنب ما خيب آمال من سبقوه إلى القيام بهذا العمل المشابه .

وهكذا يبدأ التاريخ في أبسط صوره ، يبدأ حين يستعيد المرء من بين ذكرياته المتناثرة ما يصلح لأن يكون نموذجاً لأعماله التي ينوى القيام بها .

(٢) عبد الحميد العبادي - علم التاريخ (ترجمة كتاب هرنشو) القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٨ .

والغريب ان هذه الصورة البدائية للتاريخ لم تنقص ، ولا تظن انها الى زوال ، لان الانسان تتمسك بها كلما ازدادت مظاهر نشاطه وتعمدت .

واذا فالتاس حين يجترون الماضي ويتمسكون بشواهد انما يؤرخون وهم لا يشعرون ... وهكذا يصبح التاريخ عملا حتميا لا بد منه لكل مجتمع بشري، وبدونه نعدم الاحساس باستمرار الوجود ، وبمعجز أى مجتمع عن التعرف الى شخصيته، وليس هناك ما يقي الناس من النسيان غير التاريخ ولقد تنوع مهمة المؤرخ باساع الامور الى تدفعه الى العمل ، ولكنها لا تخلو أبدا من الواقع النفى .

واذا كان التاريخ بمعناه العام يهدف الى معرفة الماضي كما ذكرنا من قبل ، فذلك لان الانسان ميال بطبعه للوقوف على ماضيه ، فهو يحب ان يعرف كيف كان حال اجداده ، وكيف كانت اساليب حياتهم نم كيف تطورت هذه الاساليب ، كما يجب ان يعرف اعمالهم ، والآثار التي خلقوها وراءهم ، وانجازاتهم .

واذا كانت حياة الانسان - منذ كان - عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام فيها ، فان الانسان اذا أصبح ابنا للماضي باسره وتعمة هذا الماضي برمته . وبالتالي فان العلاقة بين حياة الفرد في أى زمان من الازمنة ، وحياة القرون السابقة ، تكون علاقة وطيدة وثيقة ، ولا بد له من معرفة تامة بأحوال هذه الفروق السابقة حتى يفهم نفسه وحاضره ويتمكن من التنبؤ بمستقبله ، ومعرفة الماضي تكسبنا حبرة السنين الطويلة التي عاشتها البشرية في حقبة المتتالية .

ولا شك ان التأمل في الماضي يأخذ الانسان بعيدا عن ذاته ، وحين يتم ذلك فانه يرى أشياء عديدة من العسير عليه ان يراها في نفسه بسهولة، وبالتالي يصبح اقدر على فهم نفسه واقدر على حسن التصرف في حاضره ومستقبله (٤) .

والماضي - ايا كان - يكون دائما عزيزا على اصحابه ، ومن لا يعرف له ماضيا مدروسا لا يعتبر انسانا متحضرا ، والشعب الذى يجهل ماضيه يكون شعبا مبتورا لا جذور له ، وهو بهذه المثابة يخرج من دائره شعوب الارض المنحضرة ، ويصبح اشبه ما يكون بنسء معلق في الهواء تتفاذفه الرياح والأعاصير بم نهوي به في مكان سحيق .

من اجل هذا كله يصبح التاريخ دراسة تستحق كل الجهد الذى ينفق فيها ، وهناك اربعة أسئلة يحسن أن نسألها لأنفسنا نم نحاول الاجابة عنها ، وسوف تجلو لنا هذه الاجابة كل ما نصل بالتاريخ .

وهذه الاسئلة هي :

ما هو التاريخ ؟ وما هو موضوعه ؟ وما هو اسلوبه ؟ وما هو هدفه ؟

وبدور حول السؤال الأول جدل كبير ، لكن التاريخ آخر الامر لا يخرج عن كونه نوع من انواع البحث العلمى ، فهو اصلا يندرج تحت ما نسميه « العلوم » .

والعلوم الوان من التفكير تثير اماننا أسئلة معينة نحاول الاجابة عنها ، والعلم بصفة عامة لا يخرج عن كونه محاولة لتكيز الجهد حول شىء لا نعرفه في محاولة جادة لمعرفة والوقوف على حقيقته ، فالعلم اذا هو الكشف عن حقيقة الاشياء وهذا هو المعنى المقصود من قولنا ان التاريخ علم .

لكن ابن خلدون يقول في عبارته التى يُعرّف بها التاريخ انه فن (٥) ، فما هي الحقيقة ؟ وهل يعتبر التاريخ علما أم فنا ؟

هناك من يقول ان التاريخ لا يمكن ان يكون علما لأنه يعجز عن اخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المراقبة والمساعدة والفحص والاختبار والتجربة ، ودراسة التاريخ لا توصلنا الى استخلاص قوانين يقينية ثابتة على نحو ما يصل اليه الكيميائيون والفيزيائيون مثلا . وذلك رأى له وجهته ؛ ولكن التاريخ مع ذلك يعتبر علما من حيث المنهج ، لأن نتائجه تخضع للتحقيق ، والاتفاق بين المؤرخين أو عدم الاتفاق بينهم ، وذلك عن فهم وإدراك .

والذى أريد ان اقطع به هو أن التاريخ يبيح عن اسباب تسلسل الظواهر ويحاول ربطها الى بعضها وتعليلها تعليلا يقبله العقل .

ولكن هذا لا يفي الى وضع القوانين الثابتة ، لأن المؤرخ لا يجرد ، والتاريخ قصص وليس برهان ، ... وهو يتناول أحداثا مستغلة لا تقع الا مرة واحدة ، ومن هنا لا يستطيع المؤرخ ان يستخلص منها نواويس عامة شاملة .

وليس هناك شك في أن المؤرخ يستخدم أحيانا تحقيقات الاختبارات العامة ونتائج الملاحظات الاجتماعية ليدرك مدى الحدث الواحد الفريد ، وكذلك نرى المؤرخ اليوم يبسط الأوضاع الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية ليوضح آثارها على مجرى التاريخ ، وهذه تلك من الاشياء المجردة .

ولقد نستطيع أن نعرّف التاريخ بأنه العلم الذى يوازن العلوم الاخرى ، ذلك بأن حياة المجتمعات الإنسانية هي في الحقيقة تاريخ هذه المجتمعات ، وبما أن التاريخ لا يعيد نفسه ، ولا يضع سنّنا عامة ثابتة لا تتغير ، فلن نكون لاي علم القدرة على الوصف الدقيق في كل تفاصيله ... لكن التفاصيل ذات قيمة كبرى ، ومعرفة هذه التفاصيل والموارض الفريدة هي المجال الذى يخوضه التاريخ .

ومن هنا فان التاريخ لا يستطيع ان يصل ابدا الى غايته المنشودة وهي اعادة تمثيل الحياة البشرية كما كانت ، واعادة رسم مظاهر النشاط العقلى بكل تطوراتها وتقديمه .

والانسان هو الوحدة التى يدور التاريخ من حولها ، وكل جهد يحاول به صاحبه ان يعزل فئة من الناس خارج تاريخ الانسان ، انما هو جهد فاشل .

وبهذا المعوم فان التاريخ يتضخم الى درجة الشمول لكل انواع المعرفة ، حتى العلوم الطبيعية يستطيع التاريخ ان يخرجها عن الرسم التجريدى اللازمى ويعرضها عرضا مؤسسا على مجهود الانسان ، بوصفها نتيجة لهذا الجهد .

ووجود عنصر شخصية الفرد هو في الواقع السبب الرئيسي فيما يذهب اليه البعض من نفي صفة العلم عن التاريخ ، لأن الانسان الفرد - اى انسان - له ارادة حرة وله ميول واهواء واتجاهات خاصة ، وهذه كلها تدخل في التاريخ حين يصنع ، وربما حين يكتب ، وذلك قمين بهدم كل محاولة تبدل لاقامة التاريخ على اسس علمية ثابتة مجردة تماما .

ومن هنا ذهب البعض الى أن التاريخ فن كما ذكرت ، وينبغي ان يكون كذلك لأن العلم المجرد لا يمكن ان يعطينا عن الماضي سوى عظامه النخرة ، ولا بد من الاستعانة بخيال المؤرخ لكي يكسو تلك العظام لحما ، ويحيلها الى شيء ينبض بالحياة ، ولا بد من براعة المؤرخ في العرض لكي يخرج القصص التاريخي في نوب براق جذاب كما يقول **هرنسو** (٦) .

ومع ذلك فان صفة العلم تظل منطبقة على التاريخ ، اذ يكفى لذلك ان نعلم أن المؤرخ يعرض في دراسته ساعيا جهده الى توخي الحقيقة ، طارحا وراء ظهره كل هوى في نفسه ، وكل افتراض سابق ، قادرا آخر الامر على التصنيف والتبويب وحسن العرض (٧) .

والخلاصة من كل ما ذكرت هي أن التاريخ له منهج خاص ، غايته بلوغ المعرفة عن طريق تسلسل الحوادث الفريدة لا عن سبيل وضع العوائين المجردة ، فهو علم ، والتاريخ ايضا يحتاج الى خيال كاتبه وقدرته الادبية ، فهو فن وهواؤب ايضا .

ان التاريخ لا يمكن ان يكون ولا يستطيع ان يكون غير الاجابة عن منشأ الحالة الحاضرة التي نعيشها نحن ، والاسباب التي وصلت بدنيانا الى ما نراها عليه الآن .

ولنتنقل الى الاجابة عن بقية الاسئلة :

فموضوع التاريخ - كأي علم آخر من العلوم - هو الكشف عن نوع معين من الحقائق ، وهذا النوع هو جهود الانسان ومنجزاته في الماضي ، ونستطيع ان نقول في اجابة اخرى ، ان التاريخ هو العلم الذي يحاول الاجابة عن الاسئلة التي تتعلق بما بدلته الانسانية من جهود منذ كانت .

اما طريقه التاريخ او منهج البحث فيه فهو تفسير الوثائق ، والوثيقة هي الشيء الذي يرجع الى زمان ومكان معينين ، وتحمل معلومات ذات طابع خاص ، يفكر المؤرخ فيه ويعمل على تفسيره ، وسوف نتناول الوثائق التاريخية فيما بعد بعزيم من الدراسة والتفصيل .

اما هدف التاريخ فهو - في عبارة موجزة - **وقوف الانسان على حقيقة نفسه** ، ولست اعني بذلك مجرد معرفته بسميزاته الشخصية التي تفرق بينه وبين غيره من الناس ، وانما اعني ان يعرف الانسان طبيعته كائنسان ، وما يستطيع ان يعمل وان يقدم لبني جنسه ، وهذا غير ممكن الا اذا عرف الانسان ماذا فعل في الماضي وما هي الجهود التي بذلها فعلا . واذا فقيمة التاريخ ترجع الى أنه يحيطنا علما بأعمال الانسان في الماضي ومن ثم بحقيقة هذا الانسان .

(٦) انظر عبد الحميد المبادي - علم التاريخ (ترجمة لكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٢ ، ٢ .

(٧) انظر عبد الحميد المبادي - علم التاريخ (ترجمة لكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٦ ، ٧ .

كتابه التاريخ :

يتبين لنا مما سبق أن التاريخ علم ضروري للشعوب والأفراد على السواء ، فلا بد للفرد من أن يعرف نفسه بوقوفه على ماضيه ، ولا بد لكل شعب من أن يعرف تاريخه ليربط حاضره بماضيه ويصبح جديراً بالحياة ، ولا بد من أن يدرس التاريخ دراسة عميقة ، وأن يدون كل دارس ما انتهى إليه لكي يقدم بعد ذلك للطلبة في المدارس والمعاهد وكافة المنفعين بل والمتخصصين على السواء .

ومن الأزم المزومات أن تتم كتابة التاريخ على خير وجه ، فيكون الكاتب دقيقاً غاية الدقة ، بأدلا كل ما في الطاقة من جهد وصلق وأمانة وعدل ، ومستعينا بكل ما لديه من احساس وفن وذوق ، وهذا كله يؤدي الى الوصول الى الحقيقة قدر المستطاع .

ونحن نقول عادة ان التاريخ ليس علم تجربة واختبار ، وانما هو علم نقد وتحقيق ، وإذا كان الناس يقولون ان التاريخ كالجولوجيا لأن موضوع كليهما هو دراسة آثار الماضي ومخلفاته ، فان المؤرخ يختلف عن الجيولوجي من حيث اضطراب الأول الى دراسة العامل البشري الذي يدور من حوله التاريخ ، بكل ما فيه من ارادة وانفعال وميول خاصة .

من هنا كان لا بد ان تتوافر فيمن يتصدى لكتابة التاريخ مجموعة من الصفات والمميزات ، وان نتاح له الظروف التي تجعله قادراً على الدراسة العميقة والتدوين الادبي السليم .

وأول صفة ينبغي أن نحلي بها كاتب التاريخ ليصبح مؤرخاً ، هي صفة عامة لا بد منها في كل الباحثين في شتى العلوم ، تلك هي حب الدراسة والاصطيار عليها ، فقد يكون البحث وعراً شاقاً ، وقد تكون المصاعب التي تعترض الباحث انشاعمله ، مصاعب جمّة وكثيرة ، كندرة المصادر وغموض الوقائع والحقائق أو اختلاطها واضطرابها . . . ولكن ذلك كله لا ينبغي أن يصد الباحث عن بذل الجهد والصبر على مواصلة الدراسة ولو امتضت منه السنين تلو السنين ، ذلك ان الاسر والتعجل سوف يؤديان دون تسلك الى طمس الحقيقة التاريخية .

ولا بد للمؤرخ من أن يكون أمبياً شجاعاً ، فلا يكذب باصطناع الفوائس ، ولا يزيّف في تفسيرها ، ولا يتناقض لارضاء صاحب جاه أو سلطان ، أو دفعاً لبطشه وطفياته . . . فلا رثيب على المؤرخ الا ضميره ، ولا بد من أن يرضيه كل الرضا .

واذا كنا نقول ان التاريخ علم نقد وتحقيق ، فلا بد للمؤرخ من أن يكون نافداً ناضج البصيرة قادراً على تحليل كل وثيقة تصادفه ، والواقع ان المؤرخ الذي نعوزه ملكة النقد يصبح غير جدير بصفته ، ويتحول الى مجرد قصصي يروي كل ما يعرض له على أنه حقيقة واقعة .

وعلى المؤرخ أن يكون مولعاً بعمله من أجل هذا العمل لذاته ، لا سعياً وراء شهرة أو فائدة مادية عاجلة ، عليه أن يتفرغ لما يدرس تفرغاً تاماً ، وأن يقتصر عليه وحده ، والا توزعت جهوده وعجز عن أداء مهمته كما ينبغي . . . ان التفرغ للعمل الواحد في الوقت الواحد كقيل بالاشتغال الى اطيب النتائج واسلمها ، بل هو كقيل بأن يجعل صاحبه ممن يقدمون للانسانية احسن الخدمات ، وممن يسهمون بنصيب وافر في تقدم الحضارة وازدهارها .

ومن الصفات التي لا عنى عنها في كل من يريد أن يكون مؤرخا ، عدم التحيز أو الميل مع الهوى ، فلا بد للمؤرخ أن يحرق نفسه تماما من عواطفه وميوله الشخصية ، وأن يصدر أحكامه بصورة موضوعية خالصة على أساس مما بين يديه من أدلة ووثائق ، وبدون ذلك يصبح المؤرخ قاضيا مجحفا ، ويصبح الكتابة التي يجرى بها قلمه غير علمية تأخذ القارئ بعيدا عن الحقيقة ، وتلك جريمة نكراء .

ولعل من أهم صفات المؤرخ أن يكون صاحب حس مرهف وعاطفة إنسانية واضحة حتى يستطيع أن يدرك نوازع الآخرين ، ويتمكن من تفسير أعمالهم وتصرفاتهم ، والدوافع التي دفعتهم إلى هذه الأعمال والتصرفات ، والواقع أن فائدة الحس والعاطفة يعجز عن فهم ما كان بجيش بصدور من أسهموا في تشكيل التاريخ .

تلك هي الصفات الرئيسية التي ينبغي أن تتوافر فيمن يريد أن يكون مؤرخا جديرا بهذه الصفة . . . وإذا اكتملت لدى المرء هذه الصفات فقد أصبح مؤرخا .

بدء النشاط التاريخي

وأنماط الكتابة في التاريخ :

تقصد بالنشاط التاريخي هنا ، كتابة التاريخ ، ونريد أن نعرف كيف بدأت وكيف تطورت أنماطها على مر العصور .

وفكرة التاريخ بوضعها الحالي جذبه من غير شك ، فالمحدون يعتقدون أن التاريخ كعكرة يدور حول محاور أربعة هي :

- ١ - أنه علم كسائر العلوم يجب على أسئلة معينة .
- ٢ - أنه نصل بمجهود الإنسان في الماضي .
- ٣ - أن طريقته هي تفسير الوثائق التاريخية .
- ٤ - أنه يهدف إلى تعريف الإنسان بذاته .

وهذه الفكرة باركانها الأربعة لم تكن هي فكرة الناس عن التاريخ في كل العصور ، فقديما وبالنسبة للسومريين وقدماء المصريين ، كانت كتابة التاريخ تتمثل في النقوش الرسمية أو شبه الرسمية التي يقصد بها إحياء ذكرى ملك أو أمير ، أو تمجيد اله ، أو الانتصار في حرب من الحروب . وفي حكومة الكنيسة في العصور الوسطى اصطلح الناس على أن كل شيء مرده لفعل الغدر .

ومثل هذه الصور من الكتابة التاريخية لا تعطينا تاريخا حقيقيا ، وإن كانت تعطينا صورةا تتصل بالتاريخ في بعض النواحي ، هي في حقيقتها تعبير عن بعض ألوان الفكر لا نستطيع الآن أن نسعيه تاريخيا لأنه يعتقد الطابع العلمي ، فهو لا يجيب على سؤال محدد لا يعرفه الكاتب أصلا وإنما هو تسجيل لأمر يعرف الكاتب أنها حقيقة ، ثم إن هذه الأمور ليست في الغالب من عمل الإنسان - فهي لا تتصل بمجهوده - وإنما هي من عمل الآلهة والإنسان فيها مجرد أداة ، وتبعاً لذلك فإنها لن تكون تاريخية بالنسبة لطريقته لأنها لا تعتمد على وثائق ، ولا هي تاريخية من حيث قيمتها لأنها لا تستهدف معرفة الإنسان لذاته وإنما تخدم معرفة الإنسان بالآلهة .

لقد كان الكاتب لا يكتب تاريخاً، وإنما يكتب عن الدين والآلهة ، وهي كتابة نستطيع نحن الآن أن نعتبرها وثائق تاريخية ونعتمد عليها في كتابة التاريخ بالصورة الحديثة .

وإذاً فأسلافنا القدماء لم يكن لديهم الشيء الذي نسميه « فكرة التاريخ » ولعل السبب هو أنهم لم يكونوا يملكون المادة التاريخية نفسها ، لم يكن هناك تاريخ ، وإنما كانت هناك مادة تشبهه في بعض النواحي ، ولا يتفق مع مفهومنا عن التاريخ قائماً على محاوره الأربعة التي ذكرناها .

ونحن نستطيع بعد ذلك أن نقرر أن التاريخ في وضعه الحاضر قد أصبح شيئاً واقعاً ، فكيف حدث ذلك ؟ وما هي مراحل التطور التي أوصلتنا إلى ما يسمى بالتاريخ ؟

إن هذه المراحل قد نبعت أصلاً من منطقة الشرق الأدنى القديم ، ومن ثم فينبغي أن نبداً حديثنا من نفس المنطقة ، ففيها بدأ التاريخ ، تاريخ البشرية كلها في مرحلته الأولى ، وأهم ما تميزت به هذه المرحلة هو الارتباط الشديد بالعقيدة ، ففي كل حدث ، وفي كل تفسير له أو تأويل ، نلمس العقيدة الدينية واضحة جلية ، حتى ليكاد يختفي أي جهد للإنسان ذاته ، لقد كانت الأفعال كلها الهية ، والسبب في ذلك هو أن الناس تصوروا الآلهة كإدميين من الحكام .

فهم يملون إرادتهم على الملوك على نحو ما يفعل هؤلاء مع رعاياهم ، ونحن نتصور تبعاً لذلك أن السلطات كانت موزعة توزيعاً هرمياً يبدأ من الأرض ويتصاعد في حلقات تربط بينها وبين سلطة السماء ، سلطة الآلهة .

وكان الملك غالباً هو الله ، هو الصورة المجسدة للإله على الأرض .

وهكذا كان التاريخ في مرحلته الأولى تاريخاً دينياً ، ومفهوم طبعاً أن التاريخ الذي نقصده هنا ليس تاريخاً بمفهومه العلمي ، وهذا التاريخ الديني لا يجعل جوهره أفعال الإنسان ، ولا يعرض لها أساساً ، ولكنه مع ذلك يتناول هذه الأفعال في ثنايا الأساطير .

ولنتناول الفكرة الرئيسية في القصص البابلية عن الخلق : نرجع هذه القصص إلى القرن السابع ق.م. ، وهي تقرر أنها ترجع إلى صور أخرى لها موهلة في القدم ، وبدايتها تحدثنا عن نشأة الخليقة ، لم تكن هناك أول الأمر أية مخلوقات أو موجودات على الإطلاق ولا حتى الآلهة ، ومن حالة العدم هذه نشأ عنصران ، أحدهما يقال له Apsu أى الماء العذب ، والآخر يقال له Tiamat أى الماء الملح ، ونزواج هذان العنصران ، فجاء بمولود يقال له Mumma ، وهو يمثل المرحلة الأولى في نشأة الآلهة ، ثم أخذ عدد الآلهة يتزايد بالتناسل ، واشتد الصراع بين هذه الآلهة إلى أن استطاع الإله ماردوك marduk تمزيق المعبودة تيامةات إلى شطرين شطر خلق منه السماوات ونجومها ، وشرط خلق منه الأرض ، ومن دماء ماردوك خلق الإنسان .

وهذا النوع من التفكير الديني ، الممتزج بالأساطير هو الذي سيطر على تفكير الشرق الأوسط كله طوال العصور القديمة وحتى ظهور اليونان تقريباً ، وفي هذه الفترة كتبت التوراة وفيها نلمس إبراز المقدرة الإلهية في حياة اليهود ، ولم يكن هناك سبيل لاتبات هذه المقدرة أفضل من عرض تاريخ هذا الشعب .

ولقد ألزم كتاب التوراة في سرد الوقائع أسلوباً شرقياً ، واستعملوا التعبيرات الشرقية واستنسغوا حدوث الخوارق والمداخلات الإلهية المباشرة التي تغير اتجاه الأحداث تغييراً معجزاً . .

في التوراة نجد طابع التعميم : وهذا تطور عما كنا نجده في الاساطير القديمة في مصر والعراق القديم حيث كانت الحكومة الدينية تحتفظ بطابع التخصص في قصص شعوبها وحدها ، واقصد بالتعميم تناول البشر بصفة عامة ، ولعل السبب في ذلك هو اعتقاد اليهود ان الههم يسيطر على البشر اجمعين ، فهم ينظرون منه ان يحكم بين هؤلاء البشر وبين اليهود بالعدل والقسطاس ، ولا ينظرون منه ان يرعى مصالحهم وحدهم نسدغهم من البشر .

فنحن بصدد مقاييس عامة للناس كافة ، ولذلك نجد قصة الخلق عند اليهود تتضمن محاولة لتفسير أصل الانسان بعامة وتفسير أصل الشعوب . وجملة القول ان الفرق بين القصة البابلي والقصة العبري هو ان الأخير قد اتجه الى سلالة البشر ، بينما كان الاول متجها الى سلالة الآلهة .

بداية التاريخ العلمي - الاغريق

ظهرت كتابة التاريخ بعد ذلك عند الاغريق في اسلوب ملحمي أول الامر ، ويعتبر الشاعر **هومروس** صاحب الملحمتين - الالياذة والاوديسا - ملهم امته في هذا المجال .

لقد عني **هومروس** (٨) اشد العناية بتمجيد البطولة والابطال وروح النضال التي ترتفع بصاحبها الى قمة الشخصية وتجعل منه بطلا مغوارا يأتي بالمعجزات ... وعنه اخذ المؤرخون من بعده هذا كله .

فلما جاء **هيودوت** (٩) ، الذي لقب « بابي التاريخ » والذي يعتبر أول المؤرخين الاغريق على الاطلاق ، كتب كسبه التسعة واطلق عليها اسم « التاريخ » وقال في مقدمتها « انه يدون تاريخه حتى لا يطمس الزمن أعمال الرجال ، وحتى لا يفتى الانجازات الرائعة دون تمجيد او اعجاب ، سواء في ذلك منجزات الاغريق او مآثر المتبريرين ».

وهذه العبارة وحدها تقوم دليلا لا يرفى اليه ادنى شك في ان الاغريق قد أدركوا ان لتاريخ علم ، وبالتالي فلا بد أن يتناول أعمال الانسان ويمجدها ، فالقصة الاغريقية تتناول الحداث التاريخية فتفصله تفصيلا دقيقا ، وتبرز من خلال ذلك شخصية بطلها ابرازا شديدا ، وقد ترجم لنا حياته كما فعل المؤرخ **بلوتارك** Plutarch وهو يكتب « المقارنات » .

بهذا يتجه التاريخ عند الاغريق اتجاها عقليا يرتبط بالانسان نفسه وتصرفاته ولا يخضع هذه التصرفات للارادة الالهية ، ولا اعنى بذلك ان مؤرخي الاغريق قد تجاهلوا الاساطير الدينية تماما ، انما اعتمدوا عليها كثيرا .

(٨) هومروس هو شاعر الاغريق الاكبر ، وهو صاحب الملحمتين الكبيرتين ، الالياذة والاوديسا ، وترجمان على الأرجح الى القرن التاسع ق . م . ، وتدور الملحمة الاولى حول حرب طرواده ويطوله الاغريق فيها ، بينما تدور الثانية حول المغامرات التي لقيها الملك اوبسيسوس لدى عودته بحرا من اسيا الصغرى الى مملكته بعد انتهائه حرب طرواده وقد افندنا كثيرا مما جاء في الملحنين عن الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد الاغريق آنذاك .

(٩) هيودوت هو ابو التاريخ كما كنا خطيب الرومان والسياسي الكبير شيشرون . ولد في هاليكارناسوس بآسيا الصغرى حوالي عام ٨٥٠ ق . م . ، وفي سن مبكرة هاجر من مملكة راسه الى اثينا ، وقام برحلات عديدة زار فيها كثيرا من بلاد الشرق . وخلف لنا تسع كتب باسمه التاريخ تحكي لنا قصة الحروب بين الفرس والاغريق .

وحسبنا دليلا على ذلك الاتجاه العلمى العقلى ان نقرأ ما كتبه المؤرخ الاغريقى الكبير **ثوكيديديس** في مقدمته عن «الحروب البيلوبونيزيه» حيث يقول «انه يكتب من أجل الفائدة التى يمكن ان تحصل عليها من معرفة حقائق الماضي ، ومن ثم نضع مفايس سليمة للأحداث المتشابهة التى يمكن ان تقع مستقبلا ترتيبا على الطبعة المشتركة بين البشر » .

هذا هو النمط الجديد في كتابة التاريخ ، فعلى نفض كتاب التوراة لم يجد مؤرخو الاغريق في سير الحوادث اجها جبريا يفرضه العناسة الالهية ، ولا عبئا ورث الناس أمقاله جزاء ما اقترفه اجدادهم .

ونحن اذا تناولنا خصائص التاريخ الأربعة التي سبق حديثنا عنها ، وهي ان التاريخ علم لأنه يجيب على أسئلة يضعها الكاتب لنفسه ، وأنه يتناول أعمال الانسان ، وأنه يخضع للعقل من حيث استناده الى تفسير الوثائق ، وأنه يكشف عن ذات الانسان عن طريق سرد أعماله ... اذا تناولنا هذه الخصائص وحاولنا تطبيقها على ما كتبه المؤرخون الاغريق ، لرأينا أن الخواص كلها واضحة فيما كتب هيرودوت باستثناء الخاصية الثالثة . ولا شك في أن التاريخ بوصفه علما قد ابتكره الاغريق ، وأن هيرودوت هو امام المؤرخين ، ولعل **ششرون** قد ادرك هذه الحقيقة حين كناه « ابا التاريخ » .

اما **ثوكيديديس** فلعله تفوق على هيرودوت حيث حقق في كتاباته الخاصية الثالثة ، وهي الاستناد الى الوثائق في تفسير الأحداث . وهو الذي يقرر بصراحة أن البحث التاريخي يقوم على المصادر التاريخية .

ولما كان الاغريق قد اهتموا تاريخ البشرية ككل ، واهتموا بالحوادث وحدها ، فقد وصلوا بأسلوب العرض والرواية والتفسير الى درجة رفيعة من الاقناع الفني ... وكان المؤرخون يحصلون على مادتهم من الذكريات الشخصية ومن المؤلفات الأدبية ومن السجلات المحفوظة ومن شهود العيان ومن الاساطير ايضا ، فاذا جمعوا هذه المادة عمدوا الى تصفيفها وتنقيتها ومناقشتها ثم بسطوها في عرض جميل .

ولنستمع الى مؤرخ اغريقى آخر - **بوليبوس** Polybius وهو يقول « على الكاتب ان يوجه اهتمامه الى الظروف التي سبقت الحادث أو اكبرته او جاءت بعده ، لأن دلالة هذه جميعا تفوق ما يروى عن الحادث نفسه » ثم يستطرد قائلا « نحن اذا انزعنا من التاريخ البحث عن الاسباب والاسباب والاهداف التي حركت الانسسان ، واغفلنا دراسة النتائج التي نواها من عمله ، والفدر الذى استطاع تحقيقه من هدفه الكلى ، فاننا لا نبقي من التاريخ سوى نماذج ادبية لا عبرة فيها ، ولغد يكون متعة للأذنان وملهاة للأذهان لانميجه لها بالنسبة لمستقبل الایام » .

فالتاريخ عند بوليبوس له هدف مادی ، وذلك بحتم على كاتبه بوخى الدقة العلمية فدر الطاقة ، وبدفعه الى محاولة اصابة كبد الحقيقة ، وميران الحقيقة هنا هو مدى تقبل العقل لها كشيء مجرد لا دخل للغميبات فيه .

وفي هذا الصدد نرى بوليبوس يسخر من الكتاب الذين جعلوا من هانببال اداة مسخرة في يد اله يرشده الى اجتياز جبال الالب ويقول فيهم « أنهم قد قلدوا شعراء التراجيديا في أكثر المآسى التي تمثل فوق مسارحنا ، فاضطروا مثلهم الى ادخال الآلهة في حل عقدة المآسة ، لانهم

اختاروا الاساطير موضوعا لما يكتبون ، وابتعدوا عن نطاق العقل والحقيقة ، وهكذا اضطروا الى الاستعانة بالاباطال والآلهة ، لأنهم انطلقوا فيما يكتبون من بدايات تدخل في نطاق المستحيلات ، وبالتالي لا يمكن ان تكون لها نهاية يقلبها العقل المجرد ، انهم في الواقع يعجزون عن ايجاد الخاخه فلجأوا الى الآلهة لتضع هي الخاتمة ، والتاريخ غير ذلك ، انه يستند الى الحقائق والانسان هو الذي يصنعه .

التاريخ في العصر الهلنستي

كان التاريخ عند الاغريق كما رأنا يخضع للعيد الزمني والعيد المكاني ، فهو يعرض في الاصل لوحده اجتماعيه معبته في وقت معين ... وبعد القرن الخامس قبل الميلاد تفتحت نظرية المؤرخ للأحداث ، فلم يعد يخضعها للقيود الزمني ، وأخذ التفكير الاغريقي يتجه الى ان التاريخ ينبغي ان يلتزم بوحدة جوهرية تربط بين مراحل الزمنية ، ومن ثم تغلبوا على الطابع الجزئي .

وتبين لهم ان هذه الوحدة الاجتماعية الجوهرية ، ترتبط بدورها مع عدة وحدات أخرى لا بد ان تظهر هي ايضا على المسرح التاريخي ، وهكذا مثلاً كتب هيرودوت عن الفرس لا اهتماما بهم وانما لارتباطهم بالاغريق كأعداء لهم .

واذا كان الاغريق قد فطنوا - ربما قبل القرن الخامس - الى وجود عالم انساني يتألف من مجموعة من الوحدات الاجتماعية الجزئية ، فان الوحدة التي ينهض عليها هذا العلم كانت وحدة جغرافية - في نظرهم - وليست وحدة تاريخية ، ولهذا لم يدركوا وجود فكرة تاريخ عام تنتظم احداث العالم وتطورها .

ولما كان منهجهم في البحث التاريخي يستند - فيما يستند اليه - الى اقوال شهود العيان ، فقد اقتصر بحثهم على نطاق محدود من الاحداث بالقدر الذي تتسع له الذاكرة الانسانية .

فلما جاء الاسكندر وغزا شعوب المتبربرين (الذين لا يعرفون اللغة الاغريقية ولا ينهجون في اسلوب حياتهم النهج الاغريقي) ونشر حضارة الاغريق بينهم ، فآخذوا بأسبابها ونعلموا لغتها ، تحول العداء بين الاغريق والمتبربرين الى نوع من التعاون والتآخي ، ونظر الاغريق الى عذبة الشعوب بوصفها وريثة لحضارتهم .

كذلك ادت غزوة الاسكندر الى خلق وحدة سياسية تشمل الجزء الاكبر من دنيا الانسان ، واصبح العالم وحدة جغرافية ووحدة تاريخية ، وارتبطت امبراطوريه الاسكندر بتاريخ واحد ، هو تاريخ العالم الاغريقي الذي يؤلف وحدة تمتد من البحر الادرياتي غربا الى نهر السند شرقا ومن الدانوب شمالا الى الصحراء جنوبا .

هكذا ظهرت فكرة العالمية في عصر ما بعد الاسكندر وهو العصر الذي نسميه « العصر الهلنستي » وعاشت الفكرة في العصر الروماني واصبح من المستطاع كتابة تاريخ من نمط جديد ، يمتاز بالوحدة الواضحة - بصرف النظر عن مداها - ويقوم بكتابه مؤرخون يجمعون المادة العلمية ممن سبقوهم من المؤرخين .

ولقد كان بوليبيوس اول من فكر في كتابة تاريخ من هذا الطراز ، فهو يعرض لموضوع هام ، واعني به غزو روما للعالم ، ولكنه يبدأ قصته باحداث وقعت في ماض يرد الى قرن ونصف قرن ، وبذلك نراه يؤرخ لخمسة اجيال لا لجيل واحد .

التاريخ عند الرومان

بانتاج المؤرخ الاغريقي بوليبيوس انتقال التفكير التاريخي من المفهوم الذي استنه المؤرخون بعد الاسكندر ، الى ايندى الرومان ، تم شهد بعد ذلك تطوراً اصيلاً وهاماً على يد شيوخ مؤرخي الرومان « تيتوليقيوس » .

فهذا المؤرخ هو مبتكر فكرة كتابة تاريخ روما منذ نشأتها الاولى ، معتمداً على من سبقوه من المؤرخين ، وعلى الجمع بين السجلات التي حفظت مراحل تاريخ روما المبكر وادماجها كلها في مؤلف واحد .

ونحن نلمس فرقا واضحا بين المؤرخين الرومان والمؤرخين الاغريق ، فالرومان بطبيعتهم ماديون تغلب عليهم النزعة النفعية ، ولم يبرأ المؤرخون الرومان من هذه النزعة المادية النفعية ، والتي كانت سببا في انتفاء روما لدور السجلات الرسمية التي تخضع لانساف هيئات دينية .

ومن هذه السجلات كتبت الحوليات ودوننا الاحداث عاما بعد عام .

واعتقد الرومان ان تاريخهم وحده هو الخلق بالتدوين ، فهم ارقى الناس كافة ، وهم وحدهم الذين اختصوا بالفضائل السامية ، ولهذا جاء تاريخ ليقيوس تاريخا عاما يتناول الحقيقة التاريخية التي لا يرقى اليها شك ، وجاء تاريخا للعالم بأسره لأن روما أصبحت سيده العالم بأسره .

وكان المؤرخون الرومانيون يدورون في كل ما يكتبون حول محور رئيسي ، هو روما ذاتها ، واعتبر المؤرخ نفسه صاحب رسالة في امته ، فهو يؤدي وظيفة وطنية حين يتحدث عن امجاد وطنه ويهتدي اليها مواطنيه ... وهذه روح مادية نفعية ، كان لها ولا شك اثرها الضار على روح البحث الحيادي ، وعلى النقد الهادف الرشيد ، والالفة على المعرفة المجردة .

وهكذا حصر المؤرخون الرومان كل اهتمامهم في روما ذاتها التي غزت شعوب الارض واحدا بعد الآخر ، دون ان تعبأ حتى بمعرفة لغات هذه الشعوب فضلا عن آدابها وتقاليدها ، وبالتالي لم يهتموا بتدوين شيء عن هذه الشعوب الكادحة ، وركزوا اهتمامهم في التحدث عن كبار القادة ورجال السياسة .

ومع ذلك فنحن نستطيع ان نقرر ان التاريخ عند الاغريق والرومان معا قد النزم بمحور واحد من المحاور الاربعة التي قلنا ان التاريخ الحقيقي يقوم عليها ، واعنى بها تناول التاريخ بوصفه دراسة اجتماعية تعرض لتاريخ الانسان ممثلا في الشعب الروماني وما قام به من مجهود وما استهدفه من آمال وما اصابه من فشل أو نجاح .

وكتساب التاريخ الاغريق والرومان يسلمون معا بوجود قوة الهية مقدسة ، لكنها لا تتدخل في مجرى التاريخ بحيث توجهه توجيها جبريا ، انما هي ارادة عليا فيها تحييد ودعم لارادة الانسان الحرة ، وتلك هي الفلسفة الانسانية التي اعتنقها المؤرخون في العصرين اليوناني والروماني .

التاريخ في العصر المسيحي

تمرضت كتابة التاريخ لازمة خطيرة في القرن الخامس قبل الميلاد ، حين نشأت الفكرة التي

ننادى بأن التاريخ علم كسائر العلوم ، أو هو صرب من ضروب البحث العلمي ، وكانت تلك هي الازمة الأولى ، ثم تعرضت لازمة ثانية في القرنين الرابع والخامس للميلاد حين خضعت فكرة التاريخ لتكييف جديد نتيجة للانقلاب الذي جاء في ركاب التفكير المسيحي .

لقد استحدثت المسيحية فكرين رئيسيتين في كتابة التاريخ بعد النمطين الاغريقي والروماني : **الأولى** هي فكرة التفاؤل بالطبيعة الانسانية ، **والثانية** هي الفكرة التي تقول بوجود قيم أبدية خالدة تكمن وراء عملية التغير التاريخي .

اريد ان اقرر ان المسيحية بدلت الفكر البشري تبديلاً بالغ العمق بحيث غير كل الأوضاع التي شاعت في العصر الروماني ومن بينها المهج التاريخي ... كانت الثقافة اليونانية والرومانية آخذة في الأفول، فحملت اليها المسيحية ثروة هائلة جديدة من القصص والاحداث والحكم والامثال المستقاة من التوراة .

ووجدت الشعوب نفسها امام هذه الثروة التي تمثل غذاء روحيا كانت في مسيس الحاجة اليه ، فاقدمت عليها لثمتها ، ثم ارادت ان تهضمها ، ولم يكن هناك سبيل الى ذلك الا اذا قدمت الحلول التي يفسر دقائقها وما يبدو فيها من متناقضات .

وقام بهذا العمل آباء الكنيسة من الاغريق والرومان ، وعلى رأسهم جميعا القديس اوغسطين (١٠) الذي فتح للتاريخ آفاقاً فسيحة ، اذ سمح للفكر ان يرسل نظرة اجمالية الى مجموعة التواريخ الموجودة وايجاد تفسير لها ... فالمسيحية كما يرى ترشد معتنقها الى تصور تاريخي للكون يبدأ بالخلق كما جاء في التوراة وينتهي بالدينونة العامة أي يوم الحشر .

ومنذ وضع اوغسطين هذه المبادئ لم ينس مؤرخ في الغرب ان التاريخ بمعناه الصحيح هو تاريخ البشرية كلها ، وان من يكتب تاريخ امة واحدة انما يصنع قطعة صغيرة من لوحة كبيرة .

والواقع اننا نلاحظ في أي تاريخ كتب على النمط المسيحي انه يتميز بصفة العموم ، فهو تاريخ عام شامل ، وانه قد تدرج ، لئلا فيه قوة مهيمنة توجه الناس فيما يصنعون من أحداث .

ولقد كان التاريخ اليوناني والروماني عاماً للعالم ، لكن ليس بالمعنى المسيحي ، لانه ينتقي من مركز جاذبية خاص به ، له اسلوبه في تكييف الحوادث ، فالليونان أو روما هما المركز الذي تدور من حوله الاحداث ولا تخرج من فلكه ، أما التاريخ المسيحي العام فقد نبت فكرة وجود مركز جاذبية من هذا النوع .

ثم ان التاريخ في العصر المسيحي لم يرد الاحداث لحكمة البشر ، ولكن لحكمة قدسية ، فالاله هو الذي يهيمن على نشاط البشر ويرسم الطريق للاحداث التي سبقت في علمه .

كذلك كان التاريخ في العصر المسيحي يهتم بحياة المسيح ، وكثيراً ما يجعلها محور الاحداث ، وقد قسمه المؤرخون الى حقب وفترات لكل فترة مميزاتها الخاصة وطابعها الخاص وفصل بينها وبين الفترة السابقة واللاحقة حادثة تعتبر - كما نقول - بداية عصر جديد .

(١٠) اوغسطين ولد سنة ٣٥٥ م وتوفي سنة ٤٣٠ م ، عاش في تاجستي في نوميديا ، كان أبوه وثنيا وامه مسيحية ، واعتنق الدين الجديد واصبح في عام ٣٨٦ م من أبرز رجائه وكتابه . وقد نذر حياته للتوفيق بين ما جاء في تعاليم الدين الجديد وما الله الناس من مفائد وثنية .

والتاريخ بوصفه تاريخا للعالم اجمع من حيث المبدأ ، لا يقيم وزنا كبيرا لألوان الصراع الهائل الذي احتدم بين الفرس والإغريق أو بين روما وفرطاجه مثلا ، ولا يهتم بانتصار فريق وهزيمة آخر ، وإنما يهتم بالنتائج التي تمخض عنها هذا الصراع ، هذه الفكرة هي التي غدت مألوفة تماما في نمط الكتابة في العصر المسيحي ، وأكبر رمز يشير إلى فكرة التاريخ العام هذه ، هي اختيار توقيت ينظم الأحداث التاريخية جميعا ، وهذا التوقيت العام الواحد هو تاريخ ميلاد المسيح الذي استحدثه إيسيدور الأندلسي في القرن السابع للميلاد ، فكل أحداث الماضي والمستقبل تؤرخ بميلاد المسيح .

كذلك شاعت فكرة توجيه القدر للأحداث ، كما شاعت فكرة تناول أخبار الكنيسة .

هذه هي الأفكار التي شاعت في الكتابات التاريخية تحت تأثير المسيحية ولم يكن لها وجود على الإطلاق عند اليونان والرومان .

كتابة التاريخ في العصور الوسطى

تعتبر كتابة التاريخ في العصور الوسطى - في جانب من جوانبها - رجوعا إلى الأسلوب الذي درج عليه المؤرخون بعد الإسكندر الأكبر وعلى أنام الرومان . فقد اعتمد مؤرخو هذه العصور على المصادر التقليدية يستنبطون منها الحقائق ، ولكنهم لم ينقدوا هذه المصادر ولم يخلوها التحليل العلمي الدقيق ... وإذا كان بعض مؤرخي العصر قد قاموا بمحاولة للنقد ، فإن هذه المحاولة كانت تستند إلى التقدير الشخصي لكل منهم دون استناد إلى منهج علمي ، لذلك كانوا يصدقون كل ما جاء في مصادرهم .

ومع ذلك نجد مؤرخ العصور الوسطى يختلف عن مؤرخ مثل ليفي الروماني من حيث كونه يعرض مادته مرتبطة بتاريخ العالم ككل . وكانت القومية قد غدت حقيقة واقعة في العصور الوسطى ، وبدأ الصراع القومي يظهر لم يستند ، وبدأ الاعتزاز بالقومية يأخذ مكانه في الكتابة التاريخية .

وانتهجت فكرة المؤرخين إلى أن التاريخ يمضي بمشيئة الهية ، وأن هذه المشيئة تنتظم الأحداث كلها ، والإنسان عنصر فيها ، مهمة إقرار المشيئة الإلهية .

أما المهمة الكبرى التي انبسط بمؤرخي العصور الوسطى فكانت الكشف عن الخطة الإلهية وتفصيلها .

والذي حدث هو أن تيار الفكر التاريخي انتقل من دراسة اجتماعية إلى دراسة مجردة محدودة تنبثق من سلطان الكنيسة ، لقد امتازوا بالدور الذي تؤديه المقادير في الأحداث التاريخية ، لكنهم حددوه بصورة ينفي معها وجود أي مجال لنشاط الإنسان ، وكانت النتيجة هي عجز المؤرخين عن التنبؤ بأحداث المستقبل - لأنهم يجهلون ما يخفيه القدر - وانصرفهم إلى البحث عن جوهر التاريخ خارج نطاقه نفسه ، لأن بحثهم كله كان يهدف إلى الكشف عن سياق الأحداث انطلاقا من عقيدة راسخة في أن القدر هو الذي وجه هذه الأحداث ، بعيدا عن إرادة الإنسان .

ومن هنا اسمت كتابة التاريخ في العصور الوسطى بأعمال الدور البشري فيه ، وبالتالي لم يكن نمة مجال لنقد أو تحليل ... لقد كانت المصادر بين أيديهم لكنهم فرضوا على أنفسهم قيودا شديدا وجعلوا همهم الأول هو دراسة خصائص الذات العليا المقدسة .

وبرغم كل شيء فنحن نستطيع ان نفرر ان كتابة التاريخ في العصور الوسطى كانت السبب في الاحتفاظ لنا بالتسلسل التاريخي خلال الاجيال دون انقطاع .

وعرفت العصور الوسطى التراجم التاريخية التي تتناول سير القديسين لتكريمهم وتخليدهم وإظهار ما تحملوه من آلام في سبيل العقيدة، ولكن الحقائق كانت تتراجع كثيراً في هذه التراجم أمام المبالغات المسرفة ، وبدأ كتاب التاريخ في العصور الوسطى يلجأون الى الأساليب العلمية في استقاء المعلومات ، ذلك ان هذه العصور بحروبها المتصلة لم تقطع أسباب الدوام والاتصال في حياة هيئات عديدة ، كالأسر الاقطاعية والكنسية ، وعانس هذه الهيئات إياماً بالغة العنف ، كانت الحقوق فيها تضع وتترك ، وكان البطش فيها يسود ويحكم . . . ولهذا كان لا بد من الحرص على واثق الملكية ، فامسكت دفاتر الحسابات انثى تثبت الحقوق وتؤكددها ، وغدت هذه الدفاتر سجلات تاريخية هامة ومصادراً من أهم مصادر التاريخ ، كما اتجهت الاسر الاقطاعية الى تسجيل تاريخها ، فنشأ نوع من التاريخ الأسرى .

ونظراً لانساع ثقافة رجال الدين "الذين" ، فقد أصبحوا مؤرخي العصر حتى القرن الخامس عشر حين انتقلت هذه الصفة الى رجال "الزمن" ، فادخل هؤلاء في كتاباتهم المسألة القانونية واستندوا الى الصكوك والوصايا والعقود ، فكان ذلك بدوره سبباً في ظهور المزيف منها ، وكان بعض هذه ذا أثر عميق في مجرى الأحداث ، كالوصية التي زعموا انها صدرت عن الامبراطور قنسطنطين لصالح البابا قبل رحيل الاول لبيزنطة ، اذ اوصى له بملكية روما .

التاريخ في عصر النهضة

كان على مؤرخي نهاية العصور الوسطى ان يوجهوا كتابة التاريخ ترجيحاً جديداً فيخلصوها من الخضوع لنظريات اللاهوت والفلسفة التي سيطرت على مجرى الأحداث التاريخية ورسمت لها مسارها دون اى اعتبار للواقع المادى ولنشاط الانسان في رسم هذا المسار .

وحين جاء عصر النهضة الأوروبية عاد الناس الى تقييم التاريخ بوصفه دراسة اجتماعية تسند الى اسلوب علمي ، والى كتابته استناداً الى افعال الانسان ونشاطه في تحديد مساره تماماً كما كان الحال في العصورين الاغريقي والروماني .

وكانت النتيجة الاولى لذلك هي البدء في تنظيف المادة التاريخية التي كتبت في العصور الوسطى مما علق بها من خرافات لا أساس لها ، كما كان من نتائجها أيضاً البدء في كتابة النتائج على أسس نقدية تحليلية .

والواقع ان النظم في الدول الأوروبية كانت قد تقدمت تقدماً كبيراً في عصر النهضة ، واخذت العلاقات بين هذه الدول تتشابك وتتعدد ، كما اكتمل فن الدبلوماسية وانضحت اساليبه ، وبالتالي فقد أصبحت كل دولة بحاجة الى هيئة منظمة تتولى كتابة تاريخها .

والامر الذي نلاحظه بوضوح تام في كتابة التاريخ في عصر النهضة هو ان حكام الدول اخذوا يستعينون بالادباء لتدوين تاريخ دولهم ، فبرز الاسلوب الادبي ولا سيما في ايطاليا بوصفها الدولة التي سبقت دول أوروبا جميعها الى عصر النهضة .

لقد بدأ التاريخ اذا يفقد طابعه الدينى ، وسيطر المذهب العقلي على كتابه ، فاستبعدت الخوارق والمجزات ، واصبح هدف المؤرخ هو التثقيف السياسي لا مجرد القاء المواعظ وحمل الناس على الأخذ بأسباب الدين .

ولم يعد هناك كذلك اهتمام يذكر بالكونيات، وإنما تركزت كتابة التاريخ حول الدولة ذاتها بوصفها المحور الرئيسي الذى ينبغى ان تدور حوله الاحداث ، واصبح المؤرخ ذاته فى الصف الاول من رجال الدولة .

وتبعاً لذلك فان المؤرخين لم يحفلوا كثيراً بالجماهير ولم يهتموا بالشعب ، وإنما نركز اهتمامهم على بلاط الملوك والامراء والحكام وعظماء الرجال .

وسرعان ما حذا الاسبان والفرنسيون حذو ايطاليا ، فأصبح لكل دولة مؤرخها الرسمى ، فكان **راسين** هو مؤرخ فرنسا الرسمى بأمر من ملكها لويس الرابع عشر ، وفيما بعد خلع هذا اللقب على **فولتير** .

واتبع امراء المانيا نفس القاعدة . فنجد امراء هانوفر يعينون الفيلسوف الشهير Leibnitz مؤرخاً لامارتهم .

وفى انجلترا ظهر **ماكولى** ومن قبله **كلارندون** يؤرخان للأحزاب بعد تغلب البرلمان على العرش فى القرنين ١٧ ، ١٨ ، فانصرفا بكل جهودهما لتوضيح المسائل الدستورية والقضائية مع الاشارة بمعظماء الحزب .

ويعتبر **فولتير** ومعاصره **هيوم** امامى مدرسة جديدة فى التفكير التاريخي ورائدى حركة جديدة فى كتابة التاريخ ، هي حركة الاستنارة ، ونحن نقصد بكلمة الاستنارة تلك الجهود التى اُتست بها مقدمات القرن الثامن عشر والتي استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية فى كل ميادين الحياة الانسانية والتفكير ، وهي فى واقعها ثورة على الدين الذى يقيد النشاط الانساني ، فهي جهاد ضد سيطرته وسلطانه غايتها تحرير الانسان من كل قيد على فكره وتصرفاته .

لقد تقيد التدوين التاريخي فى عصر الاستنارة بفكرة البحث التاريخي ، فكان ذلك مدخلا للتاريخ العلمى ، الذى استنفد اقراره جهوداً صامتة جاءت بمثابة فاتحة لعهد جديد ، وكان السبب فى هذا التطور تلك المناظرات التى انصبحت على الأمور الدينية بين البروتستانت ومخالفيه .

وظهرت فى بلجيكا جماعة من اليسوعيين ارادت ترجمة حياة القديسين على حقيقتها ، فكان لا بد من تقويم احوال الاساطير العديدة ، وبدا افراد هذه الجماعة يشكون فى صدق كل الوثائق القديمة استناداً الى ذلك التزييف الطاغى الذى لمسوه فى سير القديسين .

ومن هنا ظهرت جماعات الباحثين الذين وجهوا كل اهتمامهم الى نقد الوثائق ، واصبح هذا النقد فنا له اصول وقواعد .

وما لبثت هذه النزعة العلمية ان انتشرت فاذا الفرنسيون يميلون الى كتابة التواريخ العلمية واذا الاهتمام باللغات يزداد زيادة كبيرة ، واذا الوثائق تصبح الشغل الشاغل للباحثين فى كل انحاء اوربا ، وبعد ظهور كتاب **ديكارت** Discours de la Methode ، أصبح منهجه قاعدة

للباحثين ، وعلى اساسه استبعدت كل شواهد التاريخ المؤسسة على العقيدة وحدها ، واصبح الشك هو الاساس العام للدراسة والسبيل الوحيد للوصول الى المعرفة .

ولم يعد المؤرخ يستسلم لخياله ، او يقصر همه على دراسة الوثائق ونشرها ، وانما كان عليه ان يهتم بالاحداث والوثائق جميعا ، وان يناقش هذه وتلك ، ويعرض نتيجة عمله في اسلوب ادبي .

هكذا كانت نهضة البحث التاريخي في القرن الثامن عشر .

واذا كان العظماء قد استطاعوا فيما قبل اغراء كتاب التاريخ على العمل لفائدتهم ، الا ان الاوضاع تغيرت في القرن التاسع عشر واصبح العصر عصر اتصال الكاتب بالجمهور اتصالا عفويا ، واصبح البحث موضوعيا يستهدف النتائج ولا يستلهم فائدة سياسية يجنيها فرد او حزب ، وغدا التاريخ عملا علميا محضا يحاول به صاحبه كشف ماضي الانسان على اسس علمية .

ومعنى ذلك ان الجهد المبذول في الكتابة كان جهدا مجردا منزها ، بمعنى ان التاريخ الذي كان رواية لما يثير ، اصبح رواية للحياة اليومية للمجتمعات ، واذا كان تاريخ الافراد يكتفى بسرد الوقائع ، فان تاريخ المجتمعات يقتضينا اعمال الفكر ، وانتقاء الحدث النموذجي ، الامر الذي يتطلب التعرف التام على خصائص هذا المجتمع ، ومن هنا سلك التاريخ سبيله الى ان يصبح دراسة انسانية تتصل بالحياة البشرية عموما في شتى نواحي انشطتها المختلفة .

مشكلة البحث التاريخي ومنهجه

لا تختلف مشكلة البحث التاريخي عن غيرها من مشكلات البحث في اى علم آخر ، فلا بد ان يدرك الباحث انه يبحث ليزيح الغموض الذى يكتنف موضوعا من الموضوعات ، او ان هناك شيئا يتطلب الايضاح .

والمشكلات التي يراها المؤرخون اساسية تتطلب البحث ، تختلف من جيل الى آخر ، اعني ان المؤرخ الذى يتصدى لاختيار الوقائع التي تبدو له اساسية بالنسبة لجيل من الاجيال ، لا يمكن ان يراها كذلك بالنسبة لجيل آخر لان الظروف والاضاع تتغير ، ولان ميول الانسان تتغير كذلك .

ومن هنا نقول ان المسألة الرئيسية في الدراسات التاريخية هي تحليل التغير عبر الزمن ، ونقول ايضا ان معطيات المؤرخين هي الحوادث المترابطة زمنيا ، ولهذا فان كل حادثة تاريخية ، مهما تكن مشابهة لغيرها ، تكون فريدة في بابها من بعض الزوايا ، ولهذا ايضا نقول ان التاريخ لا يعيد نفسه ، ولا مفر للمؤرخ من ان يدخل عنصر الزمن في اعتباره عند البدء في القيام بعملية التحليل .

واذا كان من المسلم به ان الهدف من كل بحث ، هو المعرفة وفهم العلاقات ، فان البحث التاريخي يقتضينا الكشف عن اوجه ترابط الاحداث المتتابعة زمنيا - لا مجرد سردها - من حيث ان بعضها يكون علا وبعضها الآخر يكون معلولات .

ولقد تحدثنا فيما سبق عن الصفات التي ينبغي ان تتوفر فيمن يتصدى لكتابة التاريخ

ونريد الآن ان نتحدث عن المنهج التاريخي . اعنى الطريق الذى ينبغي على المؤرخ ان يسلكه ليمضي في مهمته على أسس سليمة ، ويخرج تاريخه صادقا قدر الطاقة ، مصطبغا بالصبغة العلمية ما وسعه ذلك .

ومنهج البحث التاريخي في تعريف مبسط هو المراحل او الخطوات التي يمضي فيها الباحث حتى يصل الى الحقيقة التاريخية عن طريق فحص وتحليل سجلات الماضي ومخلفاته ثم يدونها ليقدّمها للناس ، والحقيقة التاريخية غير مطلقة ، فمن العسير جدا بلوغ الحقيقة المطلقة لاي شيء في الماضي ، بل وفي الحاضر ، وذلك لعوامل كثيرة تعترض سبيل من يشتدّها ، ومن أهمها ضياع البراهين وانطماس الأدلة ، وتدخل الاغراض والمصالح ، لذلك نقرر منذ البداية ان الحقيقة التي يصل اليها المؤرخ لا تعدو ان تكون حقيقة نسبية ، كلما زادت نسبة الصدق فيها اقتربت من الحقيقة المطلقة . وحين يبدأ الباحث في التاريخ عمله - ولا سيما في التاريخ القديم - فانه لن يجد بين يديه ما هو بحاجة اليه من مصادر مكتوبة ، وبالتالي فانه يستخلص مادته من مخلفات الانسان وآثاره المادية ، كالنقوش والصناعات والآثار ، وهذه جميعا تحتفظ لنا بكثير من الحقائق التاريخية ، ويحتاج المؤرخ الى بذل كثير من الجهد لاستنباط هذه الحقائق من تلك الآثار والمخلفات الصامتة (١١) .

ويحاول المؤرخ باستخدام المنهج التاريخي والتدوين التاريخي ان يرسم صورة لماضي الانسان بالقدر التاح له ، ونحن نسمي العمليتين معا في كثير من الاحيان « بالمنهج » لانهما دائما متلازمان متواكبتان ، كلاهما جزء من عمل واحد .

ويخضع المنهج التاريخي لقواعد وتنظيمات ، وهكذا كان منذ كتب المؤرخ الاغريقي **ثوكيديديس** كتابه عن « الحروب البونونية » ، فلقد قال لقرائه بصراحة وأمانة الكيفية التي جمع بها مادته ، كما روى الاختبارات التي طبقها ليفصل الحقيقة عن الخرافة والاسطورة ، ونحن نعرف انه الف خطبا انطق بها معاصريه من امثال بركليز ، فبذل غاية الجهد في استقصاء المصادر الموفرة لديه كي يجعل هذه الخطب اقرب ما تكون الى الأصل ، وكان يأمل ان يصل الى حرفية الخطبة لكنه لم يستطع .

ومنذ ايام **ثوكيديديس** كتب العديدون في المنهج التاريخي باسباب احبانا وفي ايجاز احبانا اخرى ، ومن أمثلة ذلك **لوكيانوس** السفسطائي الاغريقي (ولد حوالي ١٢٥ م) وابن خلدون وقولتر . ولكن الدراسة الاكاديمية للمنهج التاريخي لم تبدأ الا بعد ان ألف **Ernest Bernleixmور** كتابه المشهور « تعلم المنهج التاريخي والفلسفة التاريخية » عام ١٨٨٩ ، وفيه وضع ارنست الخطوات التي يجب على المؤرخ ان يخطوها والعقبات التي تعترضه وكيف يذللها ، والمهالك التي قد يقع فيها وكيف يتحاشاها ، ولا يزال هذا المؤلف حتى اليوم اكمل ما صنف في بابه .

ومن بعد جاء العالمان الفرنسيان **شالرس ستيوبوس** Ch. Signobos و **شكارل لانجلوا** Ch. Langlois ، فاصدروا في عام ١٨٩٨ كتابهما المعنون « مقدمة في الابحاث التاريخية » فجاء مختصرا دقيقا ومفيدا .

ونحن نستطيع ان نقول ان المنهج التاريخي يتألف من مجموعة العناصر الآتية :

- ١ - الثقافة الواسعة .
- ٢ - اختيار الموضوع .
- ٣ - جمع المادة .
- ٤ - نقد المادة .
- ٥ - ترتيب الحقائق .
- ٦ - انشاء الصيغة التاريخية .

ومن المقرر ان قيمة التاريخ الذى نقرأه فى الكتب تعتمد اساسا على اتساع ثقافة الكاتب واتقائه لمنهج البحث التاريخي ، كما تعتمد على استعداداته وملكانه الشخصية ومدى تمتعه بالصفات التي سبق ان حددناها وجوب نوافرها في المؤرخ .

ولا شك ان الثقافة الواسعة هي الركيزة الاولى التي لا بد منها لكتابة تاريخ علمي صحيح ، والمقبل على كتابة تاريخية ينبغي ان يعرف نماياته بصدد مهمة شاقة تقتضي منه الدراسة العميقة والتحصيل الجاد المتنوع ، والتاريخ في هذا كله لا يختلف عن غيره من سائر العلوم ، فالمعرفة بعامة متداخلة متشابكة وليس في وسع احد ان يدرس علما بذاته مستقلا تماما عن العلوم الاخرى ، فما هي العلوم المساعدة التي نعين المؤرخ على انجاز عمله ؟

العلوم المساعدة :

يتصل التاريخ اتصالا وثيقا بكثير من صنوف المعارف الانسانية ، ومن يتصدى لكتابته لا بد له من تحصيل هذه المعارف اولا ، لانه حين يحسنها يستطيع ان يحسن ما يكتب من الدراسات التاريخية .

ونحن نسمي هذه المعارف عموما بالعلوم المساعدة او العلوم الموصلة ، وهي بطبيعة الحال تختلف بالنسبة لدارس باختلاف العصر او الموضوع الذى يريد ان يتناوله ، فدارس التاريخ القديم مثلا تختلف علومه المساعدة عن علوم دارس تاريخ العصور الوسطى ، وهذا يختلف علومه المساعدة عن دارس التاريخ الاسلامي او التاريخ الحديث .

الواقع ان اللغات تأتي في مقدمتها جميعا ، لانه لا فكاك من ضرورة معرفة اللغة الاصلية الخاصة بموضوع البحث التاريخي ، ومهما كان لدينا من ترجمات ، فانها قد تفق باحتياجات من يستهدف الحصول على ثقافة عامة ، لكنها لا تكفي ابدا للمؤرخ الذى يستهدف الفهم الكامل العميق للناحية التى يريد ان يتناولها ، اعني ان الذى يريد ان يدرس ناحية من نواحي التاريخ المصرى القديم ، لا يستطيع ان يفعل ذلك الا اذا تعلم اللغة الهيروغليفية ، والذى يريد الكتابة في موضوع من موضوعات التاريخ الاغريقي ، لا بد ان يعرف اللغة الاغريقية القديمة ، والذى يريد ان يكتب في موضوع من موضوعات التاريخ الاوربي الوسيط ، لا بد له من معرفة اللغة اللاتينية .

وذلك هو السبيل الوحيد الذى يمكن الدارس من قراءه النصوص الاصلية بلغتها الاصلية ، وكلما تنوعت اللغات القديمة التي يعرفها الباحث ، اتسع أمامه أفق البحث ،

ولا يصدنه عن تعلم هذه اللغات صعوبتها ، والاقلوى به ان يتخلى تماما عن التصدى لهذه التخصصات القديمة .

وينبغي على الباحث أيضا ان يكون عارفاً بأكثر من لغة من اللغات الاوربية الحديثة الشائعة ، لان اللغات الاوربية كلها غنية بتراتها التاريخية ، ولا يجوز للدارس ان يفوته الاطلاع على هذا التراث كي يفيد منه الافادة القصوى .

ونحن لا ننكر ان تعلم اللغات القديمة بالذات امر فيه كثير من العسر والصعوبة ، ولهذا اخذ الدارسون الشبان من خريجي الجامعات في بلادنا العربية ، يبتعدون عن التخصصات التي تتطلب العلم بهذه اللغات ، وهذا امر مؤسف حقا ، كانت نتيجة ندرته المتخصصين عندنا في فروع التاريخ القديم بعامة ، والذي ادعو اليه ان يتخلى الشباب الدارسون عن الخوف من دراسة اللغات القديمة شرقية كانت ام غربية ، وان يقدموا عليها في شجاعة وثقة بالنفس ، ولسوف يجدون بعد بضعة اشهر انهم خطأ خطوات طيبة في تعلم هذه اللغات ، ولسوف يدفعمهم ذلك الى مواصلة الدرس في اصرار وتصميم ، ان الدراسة الجادة على مدى عام واحد لاية لغة قديمة تكفي لوضع اساس طيب للاستمرار وتحصيل المزيد .

ويأتي بعد ذلك علم قراءة الخطوط Paleography ، فهو علم لازم لدراسة التاريخ القديم والوسيط ، بل ودراسة الفترات المبكرة من التاريخ الحديث ، وتبدو لنا أهمية هذا العلم واضحة جلية حين نتصدى لدراسة تاريخ الشرق القديم وتاريخ اليونان والرومان وتاريخ العرب قبل الاسلام وتاريخ العصور الوسطى وتاريخ الشرق الأدنى الحديث حتى القرن التاسع عشر .

ونحن نستطيع عن طريق هذا العلم ان نحدد تاريخ اية وثيقة غير مؤرخة تعرض لنا تجديدا مضبوطا بمجرد النظر الى الخط الذي كتب به وخصائصه ، وليس نمة شك في ان معاونتنا سوف نظل قاصرة عن قرون كاملة وطويلة من تاريخ البلاد التي خضعت للعثمانيين ، ما لم يوجد من يدرس خط القيرمة مثلا ، الذي درنت به وثائق النظم الادارية والمالية في ظل الحكم العثماني لهذه البلاد ، ولا سيما مصر ، التي شاع بها استعمال هذا الخط ابتداء من القرن الحادى عشر الهجرى ، والتي تفيض دار محفوظاتها بالقلعة بألاف من الوثائق المكتوبة بخط القيرمة ، وكذلك دمشق التي يوجد بمكتبتها الظاهرية مجموعة كبيرة من الوثائق المدونة بنفس الخط ونتناول - فيما نتناول - تاريخ فخر الدين المعنى الثاني أمير لبنان .

ومن العلوم المساعدة الهامة للمؤرخ علم « النميات » او علم النقود المسكوكة ، فالعملة القديمة تحمل عادة صورة للالهة التي كان الناس يعبدونها ، كما تحمل صور المسوك الامراء واسمائهم ، وهذه كلها تمد الباحث بمادة تاريخية أصيلة عن العصور القديمة والعصور الوسطى على السواء ، كما تعيننا على دراسة الاساطير والديانات والفنون والنشاط التجاري في الفترات التي ترجع اليها هذه المسكوكات .

اما الجغرافيا ، فانها من المواد المساعدة التي لا يستغنى عنها الباحث في التاريخ ، ذلك ان الارتباط بين الجغرافيا والتاريخ ارتباط عضوى وثيق ، فالأرض كما يقال هي المسرح الذي مثلت فوقه الاحداث التاريخية .

وليس نمة شك في ان لجغرافية اى اقليم اثرا كبيرا على توجيه مسار تاريخه ومن ثم على مصائر اهل هذا الاقليم .

ان الناس في اية بيئة من البيئات يتفاعلون معها تفاعلا تلقائيا تمليه الطبيعة الجغرافية لهذه البيئة ، ومن ثم يتشكل تاريخهم تشكيلا يتفق والبيئة ، وبالتالي يتحدد مسار تاريخهم .

ومن أبرز الامثلة على اثر الطبيعة الجغرافية في تاريخ قوم من الاقوام ، مصر ، فالتيل هو مصدر حياتها وهو الذي شكل تاريخها ووجهه الوجهة التي سار فيها ، لقد نعلم منه سكانها هندسة الري ، وادركوا بفضلهم معنى الوحدة والتعاون وجعلهم من اغنى شعوب العالم القديم واسبقهم الى الاخذ بأسباب التقدم الحضارى .

وينبغي للمؤرخ ان يلم بعلم الاقتصاد المائمايمكنه من الوقوف على مدى تأثير العوامل الاقتصادية على مسار التاريخ ، فنحن نعرف ان السياسة الداخلية لدولة من الدول تعتمد اعتمادا كبيرا على مدى ثرائها الطبيعي ونشاطها التحارى، وطريقة توزيع الثروة الطبيعية في بلد ما نحدد عادة نوع الحكم فيها ومستوى الرخاء العام بها وعلاقة طوائفها ببعضها ، فضلا عن ذلك فان الرخاء الاقتصادى يؤثر تأثيرا هائلا في علاقة الدول ببعضها ، لا في النواحي الاقتصادية وحسب ، وانما في النواحي السياسية ايضا .

ان كثيرا من الحروب والغزوات ، والحروب الاستعمارية ، كان الدافع اليها دافع اقتصادى بحث ، ومكانة الدول في عالمنا الحديث تتوقف قبل كل شيء ايضا على اوضاعها الاقتصادية .

والادب من العلوم المساعدة التي يلزم المؤرخ ان يلم بها ، فادب القوم هو مرآة حياتهم وحضارتهم ، وهو التعبير الصادق عن افكارهم وعواطفهم الانسانية ، وهو الذى يكشف دخائل الافراد ويصور لنا احلامهم وامانيهم ، والادب في مجالاته المختلفة يرسم لنا اوضاع الشعوب ونظمهم وشئى جوانب حياتهم .

ونحن اذا تناولنا الادب المصرى القديم سبرغم قلة ما وصلنا منه - او الادب الاغريقى او الادب الرومانى ، نجده يفيض بالمعلومات التى ترسم لنا تاريخ هذه الشعوب رسما دقيقا واضحا .

وقد تكون مخلفات اديب واحد معيننا هائلا للمؤرخ ، يستقى منه معلومات تاريخيه هامة ام تكن لتتاح له لولا هذه المخلفات ، فالياذة هوميروس و « العمل والايام » **لهيسودوس** ومسرحيات **ايسخولوس** و**سوفوكليس** و**يوريبيدس** عند الاغريق القدماء ، وآثار دانتي الادبية التي ترجع الى اواخر العصور الوسطى في ايطاليا ودراسة الادب العربى الحديث ، كلها تعتبر من المصادر التي لا غنى عنها لمن يريد التصدى للبحث في التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى لملك الزمان ، البعيد منها والقريب على السواء .

ونرى كذلك ان الاحاطة بفنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة في عصر من العصور مسألة ضرورية بالنسبة للباحث في تاريخه ، وان آثار مصر القديمة او آثار العراق القديم او آثار الاغريق والرومان ، كلها تعطينا صورة واضحة لحضارات هذه البلاد وتمدنا بفيض من المعلومات عن تقاليد اصحابها وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية .

بل ان هذه الآثار الفنية تعتبر المصدر الوحيد لتاريخ الشعوب التي عاشت قبل معرفة الكتابة ، فلم تترك لنا اية سجلات او مدونات ، وانما تركت فقط آثارها لنستنتقها ونستنبط منها تاريخها .

وفضلا عن ذلك كله ، يستطيع الباحث في التاريخ ان يزود نفسه بقسط من علوم المنطق والفلسفة والاجتماع والنفس والقانون ، فكلها تفيد في البناء التاريخي لموضوع دراسته ، وفي عقد المقارنات وتفسير الظواهر بحيث يخرج تاريخه متكاملا وببحثه وافيا .

وعلى المؤرخ في النهاية الا يعتمد على ما يتاح له من مراجع ومصادر فحسب ، انما عليه ان يعتمد ايضا على ما حصله هو شخصا من خبرة بالحياة العملية بين اهله وعشيرته وقومه ووطنه ، فذلك زعيم ان يجعله اقدر على فهم تصرفات البشر في الماضي وتقدير الظروف التي احاطت بهم وادت الى توجيههم معنا .

وعلى المؤرخ ايضا الا يكتفي بالدرس والبحث داخل نطاق بلده وحده ، انما يتحتم عليه ان يسافر ويرتحل خارجه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فذلك سوف يفتح امامه آفاقا جديدة رحبة ويكسبه خبرة واسعة باقوام وبيئات متباينة ، ومن الواجب عليه ان يقوم بزيارة البلد الذي يكتب عنه ، وان يشاهد بنفسه الاماكن التي يتناولها في بحثه ، وذلك كفيلا بان يضفي على ابحاثه مزيدا من الدقة ومزيدا من نبض الحياة .

وبعد ، فذلك الذي تحدثنا عنه في الصفحات السابقة ، يعطينا موجزا عن الثقافة الواسعة التي يتعين على المؤرخ ان يزود نفسه بها ، ومفهوم بطبيعة الحال اننا لا نطلب من المؤرخ ان يتوسع ويتعمق في كل هذه العلوم المساعدة ، فذلك مستحيل ، انما نطلب منه فقط الامام بها الماما طبيا ولا بأس عليه اذا هو تعمق ناحية بلداتها من هذه الدراسات تكون لها صلة مباشرة وثيقة بموضوع بحثه التاريخي .

اختيار الموضوع :

ذلك هو العنصر الثاني من عناصر المنهج التاريخي ، وعملية اختيار موضوع تاريخي معين لدراسته والكتابة فيه تتصل اتصالا وثيقا بميول الباحث ومدى المامه بالعلوم المساعدة التي يتطلبها البحث في هذا الموضوع ، وهي في الواقع اول مشكلة تواجه من يتصددى للكتابة التاريخية ، ومن واجبه ان يصرف فيها وقتا كافيا حتى يستقر على ما يريد ، ويضمن قدرته على المضى فيه .

ويختلف موضوع اختيار البحث باختلاف وضع الراغبين فيه ، فمثلا طالب الجامعة المبتدئ في التخصص لا يستوى مع طالب الدراسات العليا الذي انهى دراسته الجامعية الاولى ، وبدا يتطلع للحصول على الماجستير ثم الدكتوراه ، وكلاهما لا يستوى مع المتخصص الكبير الذي امضى حياته في كتابة التاريخ .

فطالب المرحلة الجامعية الاولى بدوره اسأله على وسائل تحصيل المادة وجمعها ، وهذه الوسائل هي التي تصبح اسلحة في المستقبل للعمل العلمي الاصيل المبتكر ، ونحن لهذا السبب لا نطالبه بالكتابة التاريخية للوصول الى نتائج علمية جديدة لم تكن معروفة من قبل ، انما نحن نساعد في اختيار موضوعات من تلك التي سبق تدرستها بهدف تمرينه وتدريبه على الاقتباس ، وإعادة الكتابة في الموضوع بترتيب جديد وبويب جديد وعرض جديد ، معتمدا على المصادر والمراجع التي يرشده اليها استاذة ، فاذا جمع من هذه وتلك ما يراه متصلا بموضوعه ودونه في مذكراته ، كان عليه بعد ذلك ان يجمع ما حصل عليه من معلومات ، وان يميز بين ما يتعلق منها

بالنقاط الجزئية في المراجع المختلفة ، ثم يعمد الى المقارنة بينها حتى ينتهى الى ما يريد ويعرضه بعد ذلك في اسلوبه الخاص .

وغالبا ما يكون الموضوع الذى يختاره الطالب في هذه المرحلة الاولى من كتابة البحوث ، موضوعا عاما شاملا ، ثم يتدرج بعد ذلك - تحت اشراف استاذة ايضا - الى اختيار الموضوعات المحددة التى تهتم بجانب واحد من جوانب الموضوع الشامل الذى كتب فيه أولا وهنا يكون موضوع البحث اضييق واكثر تحديدا ، وبالتالي يصبح اكثر عمقا .

على هذا النحو يبنى ان يكون التدرج في اختيار موضوعات البحث بالنسبة لطلاب المرحلة الجامعية الاولى ، فلسوف يتعلم قبل كل شيء فائدة الالام بالموضوع الواسع الشامل ، ثم يتعلم الانتقال الى الموضوع المحدد ، وهذا يدرجه على الاهتمام بالجزئيات مع الاهتمام في نفس الوقت بالنظرة العامة الى الموضوع الذى يدرسه .

ويستطيع الأستاذ الجامعي ان يوجه طلابه في المرحلة الاولى الى كتب يعينها من كتب التاريخ الهامة الجيدة التى تتناول موضوعا بعينه من الموضوعات التاريخية ، ويطلب منهم ان يلخصوا هذه الكتب بحيث تصبح في نصف حجمها ثم في رבעه ثم في صفحات محدودة ، وحذا لو كان الكتاب المختار مكتوبا بلغة اجنبية ، وسوف يستفيد الطالب كثيرا من هذه العملية لأنها تعلمه القدرة على الاستيعاب ثم التركيز ، الى جانب الحصول على معلومات تاريخية جديدة ، واجادة اللغة الاجنبية التي يقرأها .

كذلك يستطيع الأستاذ ان يرشد الطالب الى دراسة بعض الوثائق الاصلية المنشورة ، او بعض الوثائق المخطوطة ، لاستخراج المعلومات الواردة فيها عن موضوع معين ، وهذا تدريب لا بد منه لاعداد المتخصص في التاريخ .

فاذا اتم الطالب هذه المرحلة الجامعية ، وحصل على هذا القسط من التدريب على الكتابة التاريخية مستعينا بالمصادر والمراجع والوثائق ، وانتقل الى المرحلة التالية ، مرحلة التخصص الدقيق ، وعزم على المضي في الكتابة لاعداد رسائله للماجستير والدكتوراه ، فان الوضع بالنسبة لاختيار الموضوع يتغير .

هنا يصبح الباحث مسئولا عن اختيار موضوع بنفسه ، وعلى استاذة المشرع ان يتحقق من ذلك ، لان العلاقة بينهما لم تعد كما كانت ، علاقة موجه ومشرع على طالب مبتدئ ، انما أصبحت علاقة زمالة ومساواة في تحمل المسؤولية ، تقوم على النقد الحر الذى يتقبله الأستاذ من تلميذه ، كما تنهض على اساس من التقدير المتبادل .

ولقد يقال ان الطالب حديث التخرج قد لا يستطيع الاستقلال باختيار موضوع بحثه . لانه لم يلم بعد الماما كافيا بالعصر الذى يريد الكتابة فيه ، لكن هذا لا يبرر ان يولى الاساذ على تلميذه موضوع البحث املاء ، انما عليه ان يرشده ويوجهه في صبر وناة ، وان يطلب اليه مزيدا من القراءة في الموضوع وما حوله ، حتى يصبح قادرا على الاختيار الموفق بنفسه ، فتلك مسئوليته وحده .

والباحث في مرحلة الماجستير ، يعتبر قائما بدراسة ابتدائية في مجال التخصص ، ولهذا فنحن نتجاوز عن الزامه بالاتيان بجديد في الحقل التاريخي ، ونكتفي بالجهد الذى يبذله مخلصا

في تحصيل المادة التاريخية من اصولها ، تم تصفيتها وترتيبها وعرضها عرضا سليما ، رلعله ينتهى بعد ذلك الى جمع شتات موضوع كان متناثرا في كتب عديدة ، وهذا عمل مفيد كبل الفائدة ... لقد ادى خدمة في ميدان التاريخ وان تكن متواضعة .

وذلك بطبيعة الحال لا يمنع الباحث من القيام بنشر عدة وثائق كشفت ولم ننشر بعد ، على أن يكون النشر علميا بالمعنى الصحيح ، وفي هذه الحالة يكون قد اتى بشيء جديد فعلا .

وعلى الباحث في هذه المرحلة ، ومنذ اللحظة الاولى ، ان يكون امينا مع نفسه حين يقرر الفرع الذى ينوئ التخصص والكتابة فيه ، فيسألها : اهو على دراية كافية بالعلوم المساعدة الموصلة لهذا الفرع ، فمثلا اذا اتوى الكتابة في التاريخ اليوناني ، عليه ان يتأكد من المامه الكافي باللغة اليونانية القديمة ، فاذا لم يكن مطمئنا الى ذلك ، فعليه ان يكون امينا مرة اخرى ويسأل نفسه ، اهو قادر على تعلم هذه اللغة بالقدر المطلوب ؟ فاذا تبين له أنه غير قادر ، فليعدل عن المضي في تلك الدراسة وليفكر في تخصص آخر .

وفي وسع كل مبتدئ ان يصل الى موضوع يهمه للكتابة فيه ، وكل ما يحتاجه لذلك هو ان يسأل نفسه الاسئلة التالية التي تقع في مجموعات اربع على النحو التالي :

المجموعة الاولى جغرافية ، وتبدأ الاسئلة بأداة الاستفهام « أين » ، فأى مكان في العالم الواسع يرغب الطالب دراسته ؟ اهو الشرق ام هو الغرب ؟ ثم أين بالضبط من انحاء الشرق ؟ او أين بالضبط من انحاء الغرب ؟ .. وهكذا . والمجموعة الثانية تتعلق بالسبب ، والاسئلة هنا تبدأ بأداة الاستفهام « من » ، فمن من الناس يستأثر باهتمام الطالب ؟ اهم العرب ام هم الانجليز ام هم الفرنسيون ، ام هم الاغريق والرومان ، ام اصحاب حضارات الشرق القديم ؟ .. الخ ، ام هي شخصية فرد بعينه : قائد ام ملك ام زعيم سياسي ؟ .. الخ .

والمجموعة الثانية زمنية : وتبدأ الاسئلة بكلمة « متى » : فأى حقبة من العقب يفضل دراستها ... اهي العصور القديمة ام الوسطى ام الحديثة ؟

واخيرا المجموعة الرابعة ، وهي نوعية ، تبدأ الاسئلة فيها بكلمة « اى » فأى نوع من انواع النشاط البشرى يستأثر باهتمام الباحث ؟ اهو الاقتصاد ام السياسة ام الحروب ام الاوضاع الاجتماعية ؟ ... الخ .

وبعد أن ينتهي الطالب من عرض هذه الاسئلة على نفسه ، والاجابة على كل منها اجابة صريحة مقنعة ، فانه سوف يشعر باطمئنان كامل ، وسوف يصل الى نتيجة واضحة آخرى الامر ، ويقف على مجال اهتمامه الخاص في الدراسات التاريخية ومن ثم يختار موضوع بحثه .

وهنا ينبغي ان نشير الى بعض المسائل الهامة ، اولها ان المبتدئ يكون عادة - ان لم يكن دائما - على قدر كبير من الطموح وربما الاندفاع والتسرع . والسبب في ذلك هو قلة ما لديه من خبرة ، فهو لا يستطيع ان يتصور القدر الهائل من الأدلة التي قد تكون متوفرة في الموضوع الذى اختاره ، فاذا مضى في البحث فترة من الوقت لاقى نفسه غارقا الى اذنيه في بحر خضم من المصادر ، وشعر بمعجزه عن الخروج من هذه الامواج المتلاطمة ، ولقد ينتابه اليأس وبعض برودة شديدة قد ترده من مواصلة الدرس . وعكس ذلك صحيح ، فربما اختار موضوعا

مصادره ومراجعته نادرة ومشتتة ، وبالتالي لا يجد بين يديه المادة التي تعينه على المضي في بحثه .

وليس من الضروري بالنسبة للباحث المبتدئ ان يحدد عنوان موضوعه منذ بداية العمل ، وحسبه ان يحدد العصر او النواحي التي تصلح للبحث في نطاق محدد ... أما التحديد النهائي للعنوان فلا يتم غالبا الا بعد ان يقطع الباحث شوطا طويلا في القراءة والاطلاع ... ولعله من المفيد ان يحدد لنفسه المدة الزمنية التي يستطيع ان ينجز فيها عمله ، علما بأنه محتاج الى بعض الوقت لتقصي احوال العصر الذي ينوي دراسة جزء منه .

ومن اهم الامور الا يختار طالب البحث موضوعا طويلا ، وحسبه ان يكتفى بدراسة مسألة محددة ، فذلك يساعد على انجاز بحثه في مدة مناسبة ، كما يساعده على الاتيان بشيء جديد .

فاذا تورط الباحث في موضوع كثير المصادر والمراجع ؟ وماذا اذا حدث العكس ؟ في الحالة الاولى يكون لا مفر من تضيق نطاق الموضوع الذي اختير ، وفي الحالة الثانية لا مفر من توسيع هذا النطاق .

فلنفترض ان الباحث اجاب عن مجموعات الاسئلة الاربعة سالفة الذكر على النحو التالي : افضل ان اكتب في تاريخ الشرق القديم ، وعن العراق بالذات من اقطار هذا الشرق ، وعن الفترة المبكرة من تاريخه ، واخيرا عن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية حينذاك ، وبالتالي فسوف يكون عنوان الموضوع كالتالي « الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في العراق القديم في تاريخه المبكر » .

وربما اكتشف الطالب بعد فترة ان لديه قدرا هائلا من المصادر والمراجع يفرقه الى اذنيه كما ذكرنا ... هنا ينبغي عليه ان يضيق نطاق الموضوع فيجعله مثلا ، « الاوضاع الاجتماعية عند السومريين في العصر الحجري الحديث » وهكذا يكون قد اختصر المكان واخصر الزمان واخصر مظهر النشاط البشري الذي سوف يتناوله ، وهكذا يصل الى حدود مقولة يمكن التصرف فيها والانتهاء منها خلال مدة معقولة من الوقت .

وربما كان موضوع كهذا من انسب الموضوعات للمبتدئين ، لانه يضعهم بين مصادرهم ومراجعهم الخاصة المتوفرة في مكتباتهم او في مكتبات قريبة منهم .

اما حين يجد الباحث ان موضوعه ضيق النطاق بسبب اغراقه في التخصص بحيث لا يجد المصادر والمراجع اللازمة ، فعليه ان يوسع نطاق البحث بصورة تتيح له مزيدا من المصادر والمراجع .

ومع ذلك فان البحث التاريخي المتخصص ، اى الذى يتناول احداثا محدودة ، ويقوم على الوثائق المتخصصة ، هذا النوع من البحوث هو الاجدر بالاهتمام والدراسة ، وهو الذى يقضى على صاحبه لقب « الباحث المورخ » ، لاننا لا نريد ان نجد انفسنا آخر الامر مجرد ناسخين ومقتبسين . ولقد قيل ان الفرق بين البحث التاريخي وسرقة ابحاث الآخرين ، هو ان البحث يقتضى نسخ اكثر من كتاب واحد او الاقتباس الجزئي من اكثر من كتاب ... لكن الفارق الحقيقي يكمن في ان البحث معناه التفتيش عن بعض المصادر الجديدة او التي لم تستخدم بعد ، فتستقى منها المعلومات المتصلة بموضوعنا ، وقد يكون البحث ايضا عبارة عن تحليل وتفسير جديد لمعلومات معروفة .

ومن اهم الامور التي ينبغي ان يراعيها طالب البحث المبتدىء ، هي ان يعرف - قبل ان يتورط - ما اذا كان الحقل الذي اختاره للدراسة قد درس من قبل دراسة كاملة وافية بحيث تصبح فرض الايمان فيه بجديد معدومة او محدودة للغاية وهنا عليه ان يلجأ الى مؤرخ خبير ليقتف منه على جلية الامر .

وهناك كتب تقترح مشكلات تاريخية تحتاج للدراسة والبحث ، كذلك هناك المصادر المرتبة في مجلدات خاصة بها ، والتي تلخص الابحاث التي تمت في فترات معينة اعنى كتب البليوجرافيا Bibliography وهناك ايضا المجلات العلمية المتخصصة التي تنشر دوريا ، وبها مقالات في النقد العلمي لما ظهر من كتب وبحوث .

بقي ان نذكر انه ينبغي الا يقل الزمن الذي يفصل الباحث عن موضوعه عن خمسين عاما . بهدف اعطاء الباحث فرصة البعد عن الوقوع تحت اى تأثيرات شخصية ، بحيث يكتب كتابا محايدا المتحرر الذي لا يخشى وقوعا في مضرة او انسياقا وراء منفعة شخصية عاجلة او انحرافا وراء تيار عام ، وذلك زعيم ان يخرج بحثه اقرب ما يكون الى الحقيقة والصدق ، وفضلا عن ذلك فان انقضاء فترة نصف قرن على وقوع الاحداث يكفل بلورتها والخروج بها من حالة الغوران والفلتان التي تواكب وقوع الحدث وتستمر بعده فترة غير قصيرة .

ومعروف ان الدول لا تنشر وثائقها المتصلة بسياساتها المختلفة الا بعد انقضاء خمسين عاما عليها ، وفيما قبل ذلك فانها تعتبر سرا لا يجدر نشره او الاطلاع عليه ، وان كانت بعض الدول تكفي الآن بمرور ثلاثين سنة على هذه الوثائق .

جمع المادة

ننتقل هنا الى العنصر الثالث من عناصر منهج البحث التاريخي ، ونعنى بذلك جمع المادة التاريخية اللازمة للبحث من المراجع والمصادر وشتى الاصول . ولعل اول ما يقال في هذا الصدد هو ان المكتبة ودور المحفوظات العلمية ودور الارشيف التاريخي هي مختبر المؤرخ ، ومن ثم فلا بد ان يكون كل باحث على بيئة ودراية تامة بطريقة استغلال المكتبات وهذه الدور .

وهناك كتب كثيرة وضعت بهذا الهدف ، يتعلم منها الباحث افضل السبل لاستخدام المكتبات والحصول منها على المادة التي تهتمه بالنسبة لبحثه (١٢) ، وما من شك ان انفع اداة للباحث في المكتبة هي فهراسها المختلفة ، سواء اكانت للموضوعات او لاسماء الكتب او لاسماء المؤلفين .

ومفروض ان كل باحث يكون على علم بمجموعة من اسماء الاعلام واسماء الاماكن التي تدخل في موضوع بحثه ، وعليه ان يرجع الى قواميس الاعلام والى دوائر المعارف يبحث فيها عن هذه الاسماء وتلك ، ويحصل منها على مزيد من المعلومات عن كل اسم من هذه الاسماء ، كما يظفر بعدد من اسماء المراجع التي يذيل بها كل مقال يكتب عنها في القواميس ودوائر المعارف .

(١٢) من اشهر هذه الكتب كتاب :

M. Hutchins, A.A. Johnson & M. S Williams ; Guide to the use of Libraries, New York 1936.

كذلك يحتم على الباحث ان يدرس المسألة الواحدة في عدة مراجع في وقت واحد ليرى كيف عالجها اصحاب هذه المراجع ، وذلك هو ما نسميه بالقراءة المقارنة التي تساعد على معرفة أوجه القوة وأوجه الضعف في الافكار المختلفة عن الافكار المختلفة عن الموضوع الواحد .

ومن المفيد جدا ان يحتفظ بفهرس موجز للكتب التي لا يمكن الاستغناء عنها بحيث تكون في متناوله دائما، وأهم ما ينبغي الاحتفاظ به هو :

- ١ - قائمة باسماء بعض كتب المراجع .
- ٢ - فهرس مطبوع لحدى المكتبات .
- ٣ - دائرة من دوائر المعارف ويحسن ان تكون من تلك المتخصصة في حقل الدراسة .
- ٤ - قاموس من قواميس الاعلام .
- ٥ - قاموس متخصص في حقل البحث الذي يتناوله الباحث (اقتصادى او ديني او اجتماعي ... الخ) .
- ٦ - دورية او اكثر من الدوريات المتصلة بالبحث .
- ٧ - مجموعة الوثائق المتعلقة بعصر البحث .

والمراجع العامة تفيد في إعطاء الباحث فكرة شاملة جامعة عن العصر الذى اختار منه موضوع بحثه ، وهي أيضا تمدد بمراجع أخرى تعينه في عمله . ومن الواجب ان يبدأ الدارس بالأفادة مما كتبه السابقون في الميدان ، والاطلاع على المراجع والمصادر التي استعانوا بها .

ولنفرض مثلاً ان باحثاً قد اختار الكتابة في موضوع « الديمقراطية الاثينية في القرن الخامس قبل الميلاد » فأول واجباته ان يطلع على المراجع العامة التي تتناول تاريخ الاغريق كله منذ بدايه الى ظهور الاسكندر الاكبر ، ثم يلجأ الى مراجع تتحدث عن تاريخ أثينا وحدها ، ثم يتناول بعد ذلك المراجع التي تتحدث عن النظم الدستورية الاغريقية ، ثم تلك التي تتناول النظم الديمقراطية وكيف تطورت حتى صارت الى ما صارت اليه في القرن الخامس قبل الميلاد .

تلك هي الخطوات الاولى في برنامج الدراسة والبحث ، ثم يأتي بعد ذلك دور التعمق في الاصول والوثائق .

وعملية الوقوف على كل المراجع والاصول ، أو معرفة جلها ، عملية شاقة عسيرة ، ولا مفر لاستكمالها من اللجوء الى كتب المراجع ، أو مايسمونه بالانجليزية Bibliographies ، ولقد أصدر العلماء في الغرب العديد منها ، بعضها لطابع التعميم ، وبعضها الآخر له طابع التخصص ، وبعضها يكتبي يذكر اسم المرجع واسم مؤلفه ومكان نشره وعام صدره وعدد صفحاته ، وبعضها الآخر يعطينا بالإضافة الى ذلك مذكرة موجزة عن كل مرجع أو مصدر مطبوع (١٣) .

(١٣) من أهم هذه الببليوجرافيات :

International Bibliography of Historical Sciences, edited by the International Committee of Historical Sciences, Washington 1926.

ومنذ عام ١٩٢٦ يصدر من هذه الببليوجرافية مجلد واحد كل عام يشترك فيه طائفة كبيرة من العلماء المتخصصين ، يتضمن ما نشر خلال العام في جميع نواحي التاريخ بل في طرق البحث التاريخي والعلوم المساعدة ودور الإرشاف ، وهو يكتبي يذكر مكان الطبع وتاريخه وعدد الصفحات .

لكن كتب المراجع وحدها لا تكفي لأنها غالباً ما تغفل أسماء البحوث والمقالات المنشورة في المجلات العلمية التي تصدر دورياً كل عام أو كل نصف عام أو كل ربع عام بمختلف اللغات .

ولهذا ينبغي أيضاً أن تراجع فهارس هذه المجلات للوقوف على ما نشر بها من أبحاث أو مقالات في الموضوع الذي ندرسه .

فإذا انتهى الباحث من ذلك كله ، فعليه أن يفتش عن الوثائق الخاصة بموضوعه ليدرسها ويستنبط منها ما يستطيع من حقائق ، ونقصد بالوثائق هنا المعاهدات والمراسلات الرسمية وتعليمات الرؤساء وأوامرهم لن يعملون تحت إشرافهم ، وكذلك المجموعات القانونية ، وهذه جميعاً يوجد منها قدر كبير لا يمكن الباحث أن يهمله ولا يخرج بحثه ناقصاً مبتوراً عديم القيمة .

أن البحث عن الوثائق من أهم العمليات الجذرية في كتابة التاريخ ، ونستطيع أن نقرر أن الكشف عن قدر من الوثائق في موضوع معين هو الفحص في إمكانية دراسته والكتابة فيه أو الكشف عن هذه الدراسة التي لن نخرج منها بجديد ، وحسبنا أن نكرر في هذا الصدد ما ذكره لانجوا وسيبوس في كتابهما الرابع عن أهمية الوثائق إذ قال « حيث لا توجد الوثائق ينعدم التاريخ » (١٤) ، وما قرره أسد رستم في أول صفحة من صفحات كتابه « مصطلح التاريخ » (١٥) حين قال « إذا ضاعت الأصول ضاع معها التاريخ » .

وهذه العبارات تعبر تعبيراً دقيقاً عن أهمية الوثائق في كتابه التاريخ ، فمما لا يقبل الجدل أن التاريخ لا يخترع اختراعاً أو يخلق من العدم خلقاً ، إنما هو ينبنى على الآثار التي خلفتها عقول أصحاب هذا التاريخ وإباديهم . وإذا تصورنا أن فترة من الفترات قد ضاعت أصولها وآثارها تماماً لسبب أو لآخر ، كالتدمير والحرق وغيرها ، فإن تاريخ هذه الفترة يضيع تماماً هو الآخر ، وإي باحث يتصدى لكتابة أي تاريخ دون دراسة وثائق وأصول هذا التاريخ لا يعود أن يكون ناقلاً عن غيره ، وبالتالي فإن قيمة عمله تنعدم مهما اتفق في النقل من جهد ووقت .

وإذا كانت الوثائق ضرورية بالنسبة للكاتب الذي يكتب عن عهد قريب منه نسبياً ، فإنها أكثر ضرورة بل هي حتمية بالنسبة لمن يكتب عن العصور القديمة ، ذلك أن الأول قد يستطيع الاستفادة من روايات بعض شهود الأحداث ، فيقارن بينها ويصنفها ويستخلص منها الحقائق ، بينما لا يجد الثاني سوى الأصول وحدها .

ونجد هذه الوثائق محفوظة الآن في المكتبات والمتاحف والمساجد والكنائس ، وقد توفر عدد كبير من العلماء - ولا سيما في الغرب - على فهرستها وتنظيمها ، لكن هناك أكادسا من هذه الوثائق لا تزال في حكم المجهولة تماماً - القديم منها والحديث - لأنها لم تحظ بمن ينظمها ويفهرسها ، وتلك عملية ضرورية لا بد أن يتفرغ لها بعض العلماء .

ونحن جميعاً نعرف أن الهيئات العلمية والجامعات في الغرب تخصص عدداً من رجالها وترسلهم في بعثات إلى الخارج للفتيش عن هذه الوثائق وتصويرها ونشرها .

(١٤) Ch. Langlois et Ch. Seignobos : Introduction aux Etudes Historiques, Paris 1898.

(١٥) أسد رستم : مصطلح التاريخ - بيروت ١٩٢٩ ص . ١٠ .

وكثيرا ما يجد الباحث في الوثائق التي يعترض عليها امورا تستدعي الرجوع الى التخطيط انعام الذي وضعه لبحثه كي يجري فيه التعديل الذي توحيه هذه الامور .

وحين يكف الباحث على نقل شيء من الوثائق فعليه ان يمي تماما محتويات ما ينقله ، وعليه كذلك ان يدون على الفور اى تعليق او ملاحظة تمن له وهو يقرأ الوثيقة حتى لا ينسى ما خطر على باله ساعة القراءة .

ويتصل بالوثائق في هذا الصدد ، ما يتصل بموضوعنا من آثار مختلفة ، سواء اكانت رسوما او صورا او نماثيل او حفرا بارز او غائرا ، فهذه كلها تمدنا بمزيد من المعلومات التي نفتقدها في المصادر والمراجع المكتوبة .

نقد المادة التاريخية

قلنا فيما سبق ان مادة الموضوع الذي يبحث انما تجمع من المصادر والاصول والمراجع ، وتمدنا المصادر والاصول بالمعلومات بصورة مباشرة احيانا وغير مباشرة احيانا اخرى ، وأقصد بالمعلومات المباشرة تلك التي تأتينا عن طريق مشاهدة الاحداث اثناء وقوعها ، كما اقصد بالمعلومات غير المباشرة تلك التي نستنبطها من دراسة مخلفات الانسان وآثاره ، وكذلك آثار الاحداث نفسها .

ان شاهد العيان الذي يكتب لنا ما رأى بعينه او ما شارك فيه بنفسه ، يمدنا بمعلومات مباشرة ، ولهذا نجد فيها كثيرا من التفاصيل الدقيقة ، وقد نجد فيها تصويرا لروح العصر ، ولكن ذلك لا يعني ان تأخذ كتاباته قضية مسلمة ، لانه لا يستطيع دائما ان يحيط بمختلف جوانب الحدث ، وهو قد لا يستطيع ايضا ان يخلص نفسه من آفة التحيز والميل مع الهوى ، او عوامل الخوف من اصحاب السلطان وعوامل الرغبة في المنفعة الذاتية .

ولهذا فنحن نستمع معلوماتنا عن الاحداث - اساسا - عن طريق غير مباشر بدراسة الآثار والمخلفات ، وهذه هي نقطة البدء عند المؤرخ ، وبعدها يمضي في طريق سائل وطويل ومعتد حتى يصل الى الحقيقة التاريخية .

واولى مراحل هذا الطريق هي دراسة الاصول وتعميقها وتحليلها ، وتلك هي العملية الصعبة التي نعيم عنها عبارة « نقد الاصول » .

ودراسة الآثار المادية التي خلفها الانسان او الحدث ، كالعماير والنماثيل وغيرها ، تكون عادة ايسر من دراسة الآثار الدلونة او المسجلة بالكتابة ، والسبب في ذلك واضح تماما ، وهو ان العلاقة بين الآثار واصحابها تكون دائما ماثلة امام المؤرخ . . . فهذا المعبد قد اقيم لاجراء الطقوس الدينية ، وهذا المنزل قد شيد للسكنى ، وتلك المقبرة قداعدت للحياة الأخرى وهكذا .

اما الآثار المسجلة ، فامرأها مختلف ، انها مجرد اثر عقلي ونفسي لكتابها ، او هي عبارة اخرى تصوير لآثر الاحداث التاريخية في ذهن هذا الكاتب متأثرة بنفسيته ومزاجه الشخصي ، وهنا ممكن الصعوبة ، فالانسان مخلوق معتد ، ولكل واحد منا مزاج خاص ولكل كاتب انطباع معين عن الحدث الواحد .

ولكي نصل نحن إلى الحقيقة التاريخية من الأصل المكتوب ، لا بد أن نتعرف على مختلف العوامل التي دفعت الكاتب إلى كتابته ، لا بد أن تمتثل شخصية الكاتب ، وأن نضع أنفسنا في بيئته وزمانه ، ووسط الظروف التي احاطت به .

هذه هي البداية في عملية نقد الأصل التاريخي ...

وفور وصول الأصل إلى يد المؤرخ ينبغي عليه أن يتأكد أولاً من كل ما جرى عليه من أحداث : أهو بنفس حالته يوم دون ؟ ألم تتآكل بعض أجزائه ، ألم تفقد بعض فقراته ، ألم تطمس بعض سطوره ؟ ألم تضاف إليه فقرات جديدة ؟ ... ذلك كله يعيننا على ترميم الأصل وإعادته قبل البدء في نقده ، إلى حالته الأولى ...

والنقد نوعان ، هما النقد الخارجي أو الظاهري ، وهدفه دراسة مدى الأصالة في المصادر ؛ والسبيل إلى ذلك هو التثبت من صحة الأصل التاريخي ومعرفة نوع الورق المدون عليه الأصل ، واسلوب الخط الذي كتب به ، وكذلك معرفة المؤلف ، ومكان التدوين وزمانه .

ثم النقد الباطني أو الداخلي ، ويهدف إلى الوقوف على حقيقة شخصية المؤلف بدراسة حالته النفسية والعقلية أثناء قيامه بالكتابة ، ومحاولة الكشف عن أهدافه من الكتابة ، وهل كان واثقاً من صدق ما كتب ؟ وهل كانت لديه الأدلة والبراهين الكافية التي تجعله واثقاً من هذا الصدق ؟

والإساس الذي يبنى عليه النقد بنوعيه هو الشك فيما ورد في الأصل التاريخي ، ثم الدراسة الواسعة المتعمقة لكل ما نقرأ فيه لاستخلاص الحقائق ، وتلك مهمة بالغة العسر ، لأن المرء بطبيعته يميل إلى تصديق كل ما يصادف في نفسه ، بينما يميل بنفس الدرجة إلى تكذيب كل ما يصطدم برغباته وميوله ، ونحن لا نستطيع أمام هذه الحقيقة أن نأخذ كل ما يصادفنا من مدونات على أنه حقيقة خالصة ، لأن الناس يختلفون في ميولهم ونزعاتهم وأهوائهم وما يعتنقون من قيم .

والنتيجة التي لا شك فيها هي أن المؤرخ لن يستطيع أن يصل إلى الحقيقة إذا لم يمارس عملية النقد في كل أصوله ، وقد يتطلب ذلك جهداً ووقتاً طويلاً ، ولكنه أمر لا مندوحة عنه ، وليس ثمة ما يحمل المؤرخ على العجلة ، ولهذا قلنا فيما سبق أنه ينبغي على المؤرخ إذا أراد أن ينتهي إلى بحث علمي دقيق أن يختار موضوعاً محدداً .

وأول خطوات النقد الخارجي هي التثبت من أصالة المصدر وصحته ، لأن التزييف والانتحال شائعان ، ودوافعهما قائمة وكثيرة رغم أن عملية التزييف في المصادر والأصول قد غدت اليوم صيرة .

وكثيراً ما زيفت الآثار المادية - ولا سيما الصغيرة - بهدف تحقيق كسب مادي ، وأغلب القائلين بهذه العمليات ممن يعملون في خدمة رجال الآثار أثناء عمليات التنقيب ، وكذلك انتحلت أصول عديدة ، وظل الاعتقاد قائماً بأنها حقيقية إلى درست دراسة علمية دقيقة فتب أنها منتحلة .

وفي كتاب مصطلح التاريخ للدكتور أسد رستم (١٦) مثال للعمالة التي لاقاها حين

كلف بفحص احدى الوثائق المكتوبة - وكانت عبارة عن رسالة من عهد محمد علي - للوقوف على مدى صحتها ، وكيف اضطر الى فحص نوع الورق الذي دونت عليه الوثيقة وفحص نوع المداد ، ومقارنتها بمثيلاتها من الوثائق في اماكن مختلفة ، ودراسة عادات المراسلة والاسلوب واللغة وتاريخ ومكان الكتابة واتفاق ما جاء بها مع الظروف التاريخية ، وذلك كله يبين لنا مدى الصعوبة التي يجب على المؤرخ ان يواجهها ويتغلب عليها ليصل الى الحقيقة .

فاذا اطمان الباحث الى ان الاصل الذي بين يديه صحيح غير مزيف او منتحل ، فثلك كما ذكرنا هي الخطوة الاولى فقط ، ثم نأتي بعد ذلك خطوات اخرى لنقد الاصل بعد ان بين لنا صدقه ، لأن صدق الاصل لا يعنى بالضرورة اهمية المعلومات التي وردت به .

لدينا اصول كاملة مستوفاة ، بمعنى انها تحمل اسم المؤلف ، ومكان تدوينها وزمانها ، ولكن اصولا اخرى تصلنا غير مستوفاة على هذا النحو ، الامر الذي ينقص دون شك من قيمتها التاريخية ...

ذلك لأن الباحث لا يستطيع ان يقدر قيمة الاصل الذي بين يديه دون ان يعرف صاحبه ، وبالتالي فانه لن يعرف مدى علاقته بالاحداث التي دونها ، فهل ياترى شهدا بعينه ؟ ام انه سمعها ثم دونها من روايات المشافهة التي وصلته ؟ ومتى دونها ؟ اوقت وقوعها ام بعده ؟ وما هي المدة التي تفصل بين وقوع الحدث وتدوينه ؟ ثم اين تمت عملية التدوين ؟ افى مكان الاحداث ام في مكان آخر غير مسرحها ؟

وكل اولئك امور بالغة الاهمية لا مفر من الوقوف عليها : **فكيف ؟**

ان صاحب المصدر هو الوسيلة بيننا كمؤرخين وبين الحقيقة التاريخية التي نريد الوصول اليها ، فاذا كان رجلا متزنا واهلا للثقة ، كانت المعلومات التي نستقيها منه اقرب الى الصحة وادعى للاطمئنان بصفة عامة ، والعكس صحيح .

من هنا تتضح اهمية الوقوف على اسم صاحب الاصل ، لأن القيمة العلمية للاصل ترتبط كل الارتباط بصاحبه ومدى فهمه للاحداث ، ومدى وقوفه على الظروف التي واكبتها ، والمعلومات التي يدونها امير او حاكم او زعيم سياسي او قائد عسكري تختلف اختلافا كبيرا عن تلك التي يدونها عن الحدث نفسه واحد من عامة الشعب ، فالأخير يكتب متحررا من كل قيد او التزام ، بينما يكتب الأول وهم مقيدون باغلال مناصبهم راغبين في تبرير تصرفاتهم وموافقم اذا كانوا ضالعين في الاحداث .

فاذا عجزنا عن معرفة صاحب الاصل والوقوف على أكبر قدر من المعلومات عن شخصيته ، فليس معنى ذلك ان نهمل الاصل ونستعيده ، فلعله الوحيد في بابهِ ، وكم من معلومات استقيناهم من مصادر لا نعرف اصحابها ، وكم من اصل لا يعرف صاحبه .

ولكن واضحا ان وجود اسم شخص على مصدر او اصل لا يعنى بالضرورة انه صاحبه او حتى صاحب بعضه ، ولذلك ينبغي ان نأخذ جانب الحذر ، ونمضي في البحث حتى نقف - قدر المستطاع - على كاتب الاصل الحقيقي بدراسة نوع الورق والخط والمداد واللغة والاسلوب والمصطلحات الواردة فيه ، ثم بدراسة المعلومات التي يحتويها دراسة متأنية واطمة .

فإذا ضاع عبثا كل جهد بذله الباحث لمعرفة صاحب الأصل ، ووجد نفسه مضطرا الى الاحد منه ، فلا بد من أن يشير الى ذلك في بحثه، وحسبه اجتهدا المصادف في دراسة المعلومات الواردة في نطاق العصر .

وكثيرا ما يكون بعض الاصول والوثائق منقولة جزئيا أو كليا عن أصول ووثائق سابقة ، وذلك يستدعي بدل الجهد لتعقب هذه وثائق حتى نصل قد المستطاع الى الأصل الأول .

كذلك قد يكون الأصل التاريخي من عمل أكثر من كاتب واحد ، نتيجة لما أدخل عليه من اضافات وتعليقات في كثير من المواضع ، فإذا طبع هذا الأصل بعد ذلك بما جد عليه من اضافات وتعليقات ، طبع كأنه من عمل كاتب واحد ، وهنا لا بد أيضا من الاجتهاد لكشف الحقيقة ، ولعلنا نعثر على الأصل المخطوط فنميز المتن عن الإضافات والتعليقات بسهولة نامه ، اما اذا لم نوفق في العثور عليه ولم نجد امانا الا المطبوع ، فليس هناك بد من دراسة اللغة ، والاسلوب لنرى هل هذه وثائق واحدة ، أم هناك اختلاف ، كذلك علينا ان نتيين ان كان الأصل سوده فكرة واحد وروح واحده أم ان هناك فجوات وتنفضات في سلسل الأفكار .

ونابي بعد ذلك في عملية النقد الظاهري لمشكلة الزمن الذي دون فيه الأصل ، ومدى فربه أو بعده من الزمن الذي وقعت فيه الأحداث المدونة . ولك مشكله تختل عن مشكلتي صدق الأصل ومعرفة صاحبه ، فقد يكون الأصل غير مزيف وغير منسلح ، وقد يكون صاحبه معروفا تماما ومن المشهود لهم بتحرى الدقة وبوخس الحقيقة والبعد عن الهوى ، ومع ذلك فان قيمة الأصل تضاقل بسبب بعد زمن تدوينه عن الأحداث التي يتناولها ، ففي هذه الحالة سوف يعتمد صاحب الأصل على الروايات التي تحكي له، وحتى لو كان من معاصري الأحداث ومساعدتها فان ذاكرته قد نبوئه فلا تسعفه بدقائق ما وقع ، لان ذاكرة الانسان لا تعي كل شيء ، وهنا لن نستطيع الا ان يجعل ولا يفصل برغم رغبته الشديدة في قول الصدق واجتهاده في استرجاع الماضي .

ان صاحب الأصل يريحنا كل الراحة اذا هودون على أصله تاريخ تدوينه ، ولكن ماذا لو لم يفعل ؟ فعلينا نحن كباحثين ان نحاول تحديد هذا التاريخ تحديدا يكون اقرب ما يكون الى الواقع : فكيف ؟

في وسعنا بسهولة ان نضع حدين لبدا كتابة الأصل والانهاء منها ، لانا بعد دراسة محتوياته نستطيع ان نحدد التاريخ الذي لا يمكن أن تكون الأحداث قد وقعت قبله ، وكذلك التاريخ الذي لا يمكن ان تكون الأحداث قد وقعت بعده .

وهذا بطبيعة الحال لا يتأتى الا استنادا الى ثقافة واسعة والمأم شامل ودقيق بالعصر الذي بناوله الأصل ، ومن البديهي ان الأصل التاريخي لا بدون الا بعد وقوع آخر حدث ذكر فيه ، غير اننا لا نعرف دائما متى حدث هذا التدوين ، أبعد آخر حدث بزمان طويل أم بزمان قصير ؟ لكننا مع ذلك نستطيع ان نستعين بالصبر والاجتهاد لنحدد تاريخ التدوين تحديدا شبه مضبوط . فإذا كنا حبال اصل من الأصول ، ورأينا صاحبه يهتم اهتماما بالغا بآليات كل الأحداث، كبيرها والصغير، ولا يهمل أبدا واحدا منها مهما صغر شأنه ، ثم رأينا ينتهي عند حدث بعينه نعرف نحن من دراساتها واطلاعنا الواسعة تاريخه المضبوط ، ثم عرفنا ان حدثا مماثلا في الأهمية والقيمة قد وقع بعد ذلك بشهر واحد مثلا ، ولكن صاحب الأصل لم يذكره من قرب أو بعيد ولو بمجرد

التلميح ، فاننا نستطيع عندئذ ان نحدد التهور الذي انتهى فيه صاحب الأصل من كتابته تحديدا مضبوطا ، وهكذا بالنسبة لتاريخ البدء في التدوين .

وبعد ، فان عملية النقد الخارجى للأصول التاريخية عملية ساقية عسيرة تستنفد وقتا طويلا وتتطلب قسطا كبيرا من المثابرة ، ولكنها عملية ضرورية لا يمكن اغفالها بحال من الأحوال ، وهي السبيل الوحيد للانتهاء الى بحث تاريخى علمى .

ولنتنقل الآن الى النوع الثانى من أنواع النقد ، وأعنى به النقد الباطنى أو النقد الداخلى .

النقد الباطنى

وأول ما يقال في هذا الصدد هو أن النقد الباطنى عملية تستهدف الوصول الى الحقيقة التاريخية من خلال الوثائق والأصول، ونحن نعرف أن الأصل التاريخى يصل البناء وقد مر بعدد من العمليات التى لا يوضحها لنا صاحبه، فهو لا يقول لنا كيف لاحظ الوقائع ، ولا كيف جمع معلوماته ، ولا كيف دونها ، وتلك كلها أمور تهمنا كل الأهمية ولا بد من الوقوف عليها .

والسبيل الى ذلك هو تحليل الوثيقة أو النص التاريخى تحليلا دقيقا ، والتحليل هو أول عمليات النقد ، ولا يمكن أن يكون هناك نقد بدون تحليل .

ويمكن أن نقول أن عملية التحليل تمر بمرحلتين ، المرحلة الأولى نحاول فيها أن نتحقق من معنى الألفاظ وقصد الكاتب ، وذلك نسميه « النقد الباطنى الإيجابى » ، والمرحلة الثانية نحاول فيها أن نتبين مدى الصحة فى المعلومات المدونة بالنص ، عن طريق نمحيصه واستبعاد الزائف منه ، وذلك نسميه « النقد الباطنى السلبى » .

النقد الباطنى الإيجابى

وقارئ النص التاريخى أو الوثيقة الذى لا يهتم كثيرا بفهم محتوياته فهما عميقا يعرض نفسه للوقوع فى خطأ فاحش ، وقد يصور بعض هذه المحتويات وفق مزاجه الخاص ، ومن ثم يبعد - دون أن يشعر - عن الواقع التاريخى ، والسبب فى ذلك هو أن الباحث حين يقرأ النص قد يجد فيه بعض العبارات التى تتفق مع آراء مسبقة له فى الموضوع ، وهنا يجد نفسه تلقائيا ميلا الى استخراج هذه العبارات والتركيز عليها تركيزا شديدا حتى ليصبح آخر الأمر أمام نص جديد خيالى من وضعه هو ، وذلك أمر بالغ الخطورة .

ولقد يقوم الباحث ببخته وهو متبوع بفكرة « معينة » من موضوع ما ، أو من انجاء ما فى النواحي السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية أو الدينية ، وتسيطر عليه هذه الفكرة سيطره كاملة فإذا هو يدرس ويكتب تحت تأثيرها فخرج بحثه رجمة لهواه الشخصى ، لا ترجمة لما جاء فى النصوص والأصول ، لأنه يرفض تلقائيا كل ما يتعارض مع الفكرة التى تسلطت عليه ، والنتيجة أن الباحث قد يظن أنه يضع تفسيرا جديدا للأصول بينما هو فى الحقيقة يخضعها لفكرته الخاصة .

هذا كله يبعد الباحث من الحقيقة التاريخية المنسودة ، ولذلك ينبغى عليه أن يتحرر تماما من كل رأى مسبق يكون قد كونه فى الموضوع، وأن يبدأ فى دراسة النصوص والأصول متحررا من كل هوى، وأن يحاول فهمها فهما عميقا يعتمد على ما فيها من عبارات ، دون أن يضيف شيئا من عنده أو

يحذف شيئاً موجوداً ، وهذا يصل بنا الى قاعدة عامة في منهج البحث التاريخي وهي أن دراسة الأصل ينبغي أن تبدأ بتحليل محتوياته للوصول الى المعنى الذي قصده صاحب الأصل نفسه .

ويحسن أن يجرى الباحث تحليله في صفحات من حجم الفلسكاب يجعل لكل منها هامشين أحدهما يمين الصفحة والثاني يسارها وذلك بشئ جانبيها تنبأ متوازياً على مسافة معقولة ، والا يكتب شيئاً في ظهر الصفحة ، وفي بحر الصفحة يكتب التحليل الذي يهتدى اليه وفي هامشها بدون ما يمين له من ملاحظات .

ويشمل التحليل دئماً النقاط الآتية :

- ١ - المعنى العام للوثيقة أو الأصل .
- ٢ - مجمل محتويات الوثيقة أو الأصل .
- ٣ - تفصيل هذه المحتويات .
- ٤ - وجهة نظر صاحب الأصل .
- ٥ - رأى الباحث وتعليقاته .

وللوصول الى هذه النقاط نمر بمرحلتين ، في الأولى نفسر ظاهر الأصل ونحدد معناه الحرفي ، وفي الثانية نصل الى معناه الحقيقي ونذكر هدف صاحبه .

ونلاحظ ان المرحلة الاولى عملية لغوية في جوهرها ، تتطلب من الباحث معرفة اللغة التي كتب بها النص ، وتستلزم الاناخذ النص بمفرده أو بعباراته ، ونحدد معاني هذه وتلك بعيداً عن السياق العام ، وانما ينبغي ان يتم التفسير في نطاق هذا السياق .

اما المرحلة الثانية ، مرحلة الوصول الى هدف صاحب النص ، فالسبيل اليها هو قراءة ما بين السطور حين يضطر صاحب الأصل الى عدم الافصاح عما في ذهنه لسبب من الأسباب ، او حين يتضمن النص عبارات تتطلب قسطاً من المماناة لتفسيرها .

وحين ينتهي الباحث من ذلك كله ، تكون عملية البحث الباطني الالجابي قد تمت ، ويصبح الباحث على بينة من المعلومات التي أوردها صاحب الأصل ، ومن أفكاره الخاصة عن الموضوعات والأحداث التي تناولها .

النقد الباطني السلبي

رأينا النقد الباطني الالجابي لا يعطينا - كباحثين - المعلومات الضرورية عن الوقائع التاريخية في ذاتها ، انما فقط بمدى فهم صاحب الأصل ونصوره لتلك الأحداث ، حتى وان كان ممن شهدوا هذه الأحداث بانفسهم .

وفوق ذلك فلعل صاحب الأصل لم يدون كل ما عرفه أو اعتقده ، ولعله يكذب علينا لسبب أو لآخر ، أو - اذا نحن احسنا الظن - لعله اعتقد غير الواقع من قبيل الخطأ .

من أجل ذلك كله كثيراً ما نجد الأصول التاريخية التي تحدثنا عن موضوع واحد ، تختلف عن بعضها اختلافاً كبيراً .

وهذا يقضى الى وجوب قيام الباحثة بتحديد ما لديه من أصول تاريخية كي يستبعد منها الزائف أو الكاذب حتى يصل الى الحقيقة ، فما السبيل الى ذلك ، ان تلك في التساؤل المتعارضة والمتضاربة ، والتسليم مقدما بإمكان وجود خطأ أو كذب في الأصل ، هما السبيل الأول الى ما نريد .

والتخصص الدقيق للأصول التاريخية هو النقد الباطني السلبي الذي يهدف الى تصفية المعلومات وغربلتها حتى نستخلص منها الصواب وحده ، وتلك في حد ذاتها عملية شاقة عسيرة ، لعلها أشق وأعسر من عملية النقد الباطني الإيجابي .

والنقد الباطني السلبي يؤدي بنا الى قاعدتين هامتين :

القاعدة الأولى هي ان التثبت اليقيني من أية حقيقة تاريخية لا يمكن ان يستند الى الرواية التي يرويها صاحب الأصل ، بوصفه شاهد عيان أو بوصفه معاصرا ، وانما لا بد ان تتوفر لدى الباحث كل الأدلة التي تسلمه الى اليقين .

والقاعدة الثانية هي ان الأصل لا يجوز ان نقد كوحدة عامة وبكتفي بذلك ، وانما لا بد من ان ينقد كل جزئياته وتفصيله واحداثه المفردة .

ولا يجوز أبدا ان يخدمنا طابع الصدق الذي قد يبدو في أصل من الأصول ، فنستند اليه ، ونثق في صدقه ، لأن طابع الصدق في بعض الأحيان قد يكون مظهرا خادعا من انسان اعتاد الكذب والتضليل والتلفيق ، فنفتقر بالمظهر الذي يخفي وراءه أهدافا هي أبعد ما تكون من الصدق والحقيقة .

ان مهمة النقد الباطني السلبي هي تمحيص الظروف التي واكبت سلسلة العمليات العقلية التي مر بها الأصل حتى دونه صاحبه ووصل الى الباحث ، ولا تلك ان معرفتنا بصاحب الأصل تكشف لنا عن بعض هذه الظروف ، لأن نشأة صاحب الأصل وبنيته وعاداته ومستواه ، كلها من الأمور التي يعيننا على الكشف عن دوافع الكذب أو الخطأ أو الخداع أو الصدق أو الصواب أو المصارحة عند هذا الكاتب أو ذلك من أصحاب الأصول التاريخية .

فواجبنا اذن ان نتثبت قدر المستطاع من صدق صاحب الأصل وعادلته ، وأن نتثبت من صدق المعلومات التي أوردتها ومدى دقتها ، وهل أخطأ صاحب الأصل وخدع بشأنها أم لم يخطئ ولم يخدع (١٧) .

وهناك مسألة تتصل بموضوع النقد الداخلي السلبي اتصالا وثيقا ، وهي علاقة المرجع الثانوي بالأصل .

ان واجب المؤرخ هو الاعتماد أولا على الأصل أو الدليل الأولي ، ونعني بذلك ما قام عليه شاهد عيان ، لكنه قد نعجز ولا نجد هذا الأصل ، فماذا يفعل ؟ عليه ان يلجأ الى أفضل شاهد ثانوي

Langlois et Seignobos ; op.cit. pp. 166-167.

(١٧)

حيث يجد القارئ مجموعتين من الأسئلة يرى المؤلفان انه لا بد للباحث من ان يوجهها لنفسه وان يجيب عنها قدر طاقته ، وان يدرس في غرويهما الأصل التاريخي كوحدة كما يدرس كل حادث على حدة .

يكون في منازل يده ، وفي مثل هذه الحالة فإن المؤرخ يضطر الى اعمال بكرة وتامله وهو يأخذ عن هذا الدليل الثانوى ، وإذا كان عليه أن يصدر في بعض الأحيان احكاما ، فواجبه أن يتأني كثيرا ويتأمل كثيرا قبل اصدارها ، والا يصدرها اذا حصل على أكبر قدر ممكن من الأدلة المقتنعة ، لأن اصدار الاحكام دون تثبيت واقتناع ينطوى على ظلم فادح للحقيقة .

وحسنا أن نذكر في هذا الصدد قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

اثبات الحقائق وترتيبها

تلك هي المرحلة قبل الأخيرة في منهج البحث التاريخي ، وهي مرحلة واسعة تتصل بعملات كثيرة ، نحاول أن نوجزها فيما يلي :

ذكرنا عند حديثنا عن النقد أننا نصل عن طريق الممارسة الى المعلومات والآراء الى نردها لبحثنا ، وهذه المعلومات قد تكون مطابقة للواقع وقد لا تكون .

وإذا فإن عملية النقد وحدها لا تكفى لإثبات الحقائق وإنما هي خطوة في السبيل إليها ، فما هي الخطوات الأخرى التي ينبغي أن نتخذها لنصل الى نتائج محددة وحقائق ثابتة نخرج بها من دائرة الشك الى دائرة اليقين ؟

أول ما يقال في هذا الصدد أن يقوم الباحث بتصنيف النتائج التي أوصلته إليها عملية النقد ، بمعنى أن يجمع كل المعلومات التي لديه عن حادث واحد الى بعضها ، ثم يقارن بينها ويصل الى رأى نهائي فيها .

ولكننا أحيانا قد لا نجد غير رأى واحد في موضوع بعينه ، لأن هذا الموضوع لم يرد الا عن طريق راو واحد أو مؤرخ واحد ، وفي هذه الحالة ينبغي أن ننظر بعين الشك والحذر الى تلك الرواية المفردة ، التي يحسن ألا نعدها حقيقة نهائية ، وحسبنا أن نستعين بها مشيرين الى صاحبها لأنه هو وحده الذي يتحمل مسئوليتها .

أما اذا تعددت الروايات في حادث واحد ، وعارضت بصدها الأصول والمصادر ، فإنه يتحتم على الباحث أن يتتبع بعض القواعد التي تعينه على الوصول الى الحقيقة التاريخية والخروج بها من بين هذه التناقضات ، ويمكن تلخيص هذه القواعد فيما يلي :

١ - لا يجوز للباحث أن يقوم بعملية توفيق بين الآراء المتعارضة ، وإنما ينبغي السعي للكشف عن الصادق منها ، فإذا فشل في ذلك فيجب أن يعترف بفشله ولا بد من إثبات الآراء المتعارضة دون ترجيح واحد منها على الآخر .

٢ - اذا اتفقت الآراء في عدة أصول على رأى بعينه ، وشذ عن هذا الإنفاق رأى واحد مخالف ، فليس معنى ذلك أن الآراء المتفقة هي الأصوب ، وربما يكون العكس هو الصحيح ، والنقد وحده هو الذي يفصل في الأمر .

٣ - اذا أراد الباحث أن يرجح رأيا على آخر ، فعليه أن يلجأ الى عملية النقد ، فإذا عجز رغم ذلك ، فعليه أن يمتنع عن اصدار حكم قاطع ، وواجبه أن يستمر في البحث لعله يعثر على أدلة جديدة تنس له الطريق .

الإفادة من المصادر والمراجع

تدوين الملاحظات

الواقع أن المهمة التي تثقل كاهل المؤرخ الباحث في بحه هي نقل الملاحظات من المصادر والمراجع المختلفة ، ولهذا يحسن أن نعرف كيف ندون الملاحظات التي نستمدّها من مصادرنا ومراجعتنا ، ومتى ينبغي أن ندونها ومتى لا ندونها ... أعني هل ندون الملاحظة حين يكون ذلك لازماً ، موجزاً مختصرة ، أم ندونها وافية دون اختزال .

هناك عدة اعتبارات عامة ينبغي أن نراعيها في هذا الصدد :

أولها : أن المادة التاريخية الواردة في مصدر من المصادر قد تكون من الطرافه بحيث تفسر الباحث على نقلها نقلاً كاملاً برغم عدم ارتباطها ارتباطاً وثيقاً بموضوع دراسته ، وهذا يؤدي إلى ضياع وقت ثمين يمكن أن نفيده منه في تدوين الملاحظات التي تتصل بالموضوع اتصالاً مباشراً سواء أكانت طريقه أم غير طريقه ... وإذا فلا مفر من أن يضع الباحث لنفسه مقاييس دقيقة بين له مدى ارتباط المادة المنقولة بالموضوع . أعني أن هذه المقاييس نعينه على احتيار ما يدون وما يدع من المصدر أو المرجع .

ثانيها : أنه ينبغي ألا ندون ملحوظات كاملة وافية لمعلومات عادية أو غير موثوق بها إلا إذا أردنا أن ننعدها ونبين وجه الفساد فيها ، وكذلك ينبغي ألا ندون ملاحظات عما يسهل تذكره ... مع التحذير من أن المؤرخ - ولاسيما المبتدئ - كثيراً ما يحسن الظن في ذاكرته فيعتقد أن ذاكرته تعي الكثير ، ثم يهمل التدوين ، ولكنه لا يلبث بعد ذلك أن يكتشف أنه قد نسى الكثير ، ويبدأ من جديد في انفاق ساعات طويلة لينذكر شيئاً هاماً جدياً بالنسبة له .

ثالثها : إذا أراد الباحث أن يدون ملاحظات أحد المصادر أو المراجع بحرفيتها ، أي يقتبسها اقتباساً كاملاً كما هي ، فلا بد أن يضع ما اقتبس بين قوسين ، ومثل هذه الملاحظات ينبغي أن تدون في البطاقات بلفها ، ولا نترجم إلا عند تحرير البحث تحريراً نهائياً ، أعني حين يتوفر الوقت الكافي للترجمة الدقيقة ، ثم نردف الترجمة بكلمة (sic) اللاتينية التي تعني « هكذا في الأصل » وإذا أراد الباحث أن يسقط بعض الكلمات من الملحوظة المقتبسة ، فعله أن يضع بضع نقاط محصل كل كلمة ، وإذا كانت المادة المراد نقلها طويلة تمتد لبضع صفحات ، فلا بأس من استخدام التصوير بطريقة الميكروfilm .

وحيث يدون المؤرخ ملحوظة موجزة (المجرد التذكير) فإنه يكفي بالإشارة إلى مصدرها دون نقلها حرفياً ... وقد تكون هذه الملحوظة موجزة للغاية إذا كان المصدر أو المرجع ملكاً خاصاً للباحث ، أو إذا كان موجوداً بمكتبة يستطيع أن يتردد عليها كثيراً وبسهولة ، وأحسن وسيلة لهذا التدوين الموجز تتم على البطاقات ، فيثبت الباحث اسم المؤلف واسم الكتاب والصفحات التي تعنيه ، وما تضمنه هذه الصفحات ، وذلك كله فيما لا يزيد على سطرين أو ثلاثة ... وذلك لأن الباحث مطمئن إلى وجود المصدر أو المرجع تحت يده حينما يريد .

أما إذا كان المصدر أو المرجع صعب المنال لنعاذ طبعته أو عدم السماح باستعارته أو لوجوده في مكتبة نائية ، فيحسن أن يؤخذ منه الملاحظات معصلة وافية .

وبالتجربة والمران ، ومع الأيام تتعلم الباحث/لغائيا كيف يوفر على نفسه كثيرا من الجهد والوقت ، من ذلك مثلا أن يشير عند بدء تدوين الملاحظات أو عند الانتهاء من تدوينها الى سبب قيامه بالتدوين ... وذلك خشية أن يتعذر عليه بعد ذلك تتبع نقطة من نقط بحه بدت له لأول وهلة انها واضحة تماما ، ثم اذا هذا الوضوح يزول بعد فترة من الزمن .

وكثيرا ما يحدث - حتى بالنسبة للمؤرخين المتمرسين - أن يواجه المرء شعورا بالخبه حين يجد بين يديه ملاحظات بذل كثيرا من الجهد والوقت في تدوينها ، فلنا منه انها مفيدة لبحنه ، ثم يتكشف الأمر عن عدم جدواها ، فيسأل الباحث نفسه ، فيم اذن أضعب كل هذا الوقت والجهد ؟؟؟ ولو انه منذ البداية أنسار الى سبب التدوين لما داخله هذا الشعور المرير .

وهناك ملاحظات يدونها الباحث للاستفادة الشخصية ، وهذه لا يستقيها من مصادر وانما تأتيه عفوا ، فقد يحدث بعد عمل مجهود متصل ، وبعد أن يأوي الباحث الى فراشه ، أو حتى وهو على مكتبه ، أن يقترح على نفسه بعض الأسئلة أو الزيادات أو الفروض أو مقارنة مصدر بآخر ، أو يهبط عليه رأي لامع قد يتلاشى مع طلوع الشمس ، هذه كلها ينبغي أن يدونها فوراً على بطاقات ، وتكون منفصلة عن بعضها ، كي يضعها بعد ذلك في المكان المناسب بين الملاحظات التي استقاها من المصادر .

الملاحظات الخاصة بالمصادر

هناك نوعان من الملاحظات التي ندونها لتسجيل أسماء الكتب والمقالات التي تتصل بموضوع بحثنا . النوع الأول يتعلق بالكتب والمقالات التي سوف نرجع اليها مستقبلا ، أما الثاني فخاص بما فرغنا منه فعلا من الكتب والمقالات .

والأول نأخذه مستعينين بمختلف المصادر ، فنحن كلما قرأنا مصدرا أشار الى عناوين مصادر أخرى ومقالات كثيرة استقى منها معلوماته ، أو ناقش ما فيها من معلومات ... وفي هذه الحالة نجد بين أيدينا المعلومات التي تمكننا كباحثين من تشخيص نقط البحث والتثبت منها ، ومن ثم فلا داعي لأخذ ملحوظة طويلة عن العنوان ، الذي ربما ثبت لنا بعد فحصه أن قيمته نافه ضئيلة . أما اذا نحن فحصنا المصدر أو المرجع أو المقال فحصا دقيقا وتبين لنا قيمته وفائدته ، فمن الأفضل ان ندون ملحوظة مطولة تتضمن كل المعلومات التي نحتاج اليها في كتابة هامش واضح ، أو في كتابة عرض تحليلي للمصدر .

وهذه الملاحظات سواء أكانت من النوع الأول أو من النوع الثاني لها أهميتها الكبرى حين نكتب الفصل الخاص بالمصادر والمراجع وترتيبها .

ويجب أن تكتب الملاحظات الخاصة بالمصادر على بطاقات مساحتها ٣×٥ سم ، لأن هذه البطاقات سهلة التداول ، ولأن الملحوظة المصدرية - أعني التي تتضمن اسم المصدر - لن تزيد عما تتسع له بطاقة بهذه المساحة ، ثم بعد ذلك نرتب هذه البطاقات ترتيبا إبداعيا في ملف خاص ، ثم نضعها في صندوق مقاسه ٣×٥ سم أيضا ، وكلما انتهينا من دراسة أحد المصادر ، نقل البطاقة من المجموعة الموضوعية في صندوق « مصادر للمراجعة » الى صندوق « مصادر روجعت فعلا » .

الملاحظات الخاصة بالمادة المنقولة من المصادر والمراجع

هذه لا ندون على بطاقات من النوع السابق، لأنها تكون صغيرة جدا وسيكة أيضا فضلا عن ثمنها الباهظ ، والأفضل أن نستخدم وريقات جيدة لا تشغل حيزا كبيرا ، ويمكن تداولها ونقلها من مكان الى آخر دون تعريضها للتلف ... كذلك ينبغي أن تكون البطاقة هنا ذات اتساع معقول بحيث يمكن استخدامها في أية مكتبة يعكف فيها الباحث على بحثه .

وأفضل نوع هو المعتدل السمك بمساحة لا تزيد على ٨×٥ سم فعمل هذه البطاقة تكون عادة كافية لتدوين الملاحظة اذا ما استخدم وجهها .

ولا ينبغي أن نضع للملاحظة الواحدة في أكثر من بطاقة حتى لا نضطر الى استخدام المشابك والدبابيس المعدنية ، لأن هذه مزعجة حقا ، قد تمزق البطاقات وتسبب تشابكها في بعضها .

وينبغي أيضا أن ننظم البطاقات في صفوف ، وعليها السنة تكتب عليها العناوين .

والترتيب المفضل عادة هو الترتيب الزمني في المراحل المبكرة من البحث والاستقصاء ، ولا بأس من التزام هذا الترتيب اذا كان البحث سيخرج آخر الأمر في شكل متسلسل زمنيا .

هذا ولا شك أن الترتيب الزمني يسهل على الباحث مشكلة ضبط المصادر ومقارنتها ببعضها ، خصوصا حين تكون نفس الملاحظة متصلة بأكثر من مكان واحد في سياق البحث ، فمن اليسير عندئذ أن نضع للملاحظة تحت أول تاريخ يتصل بها ، ثم ضبط بعد ذلك في سياق البحث منسوبة دائما الى ذلك التاريخ .

ومما لاشك فيه أن مشكلة ضبط المصادر ومقارنتها تزداد صعوبة اذا رتب المصادر حسب الموضوع ، لأن الموضوعات دائما تتغير أثناء عملية البحث والاستقصاء ، مع أن الترتيب حسب الموضوعات يكون أجدي وأفضل اذا قررنا أن يخرج بحثنا في شكل جدلي .

والترتيب حسب الموضوعات يكون عادة تابعا للأشخاص الذين يتناولهم البحث أو الجماعات أو المجموعات البشرية ... الخ ، ثم إن الموضوعات بدورها قد تأتي الى حد ما مرتبطة ارتباطا زمنيا ، وهذا الأمر يصدق بصفة خاصة حين تكون دراستنا متصلة بالتطور في مجتمع أو في منطقة لفترة زمنية محددة .

والمسألة آخر الأمر متروكة لاختيار صاحب البحث متعاوننا مع المشرف عليه اذا كان طالب دراسة عليا .

على أن الملاحظ أن الترتيب الموضوعي يعين صاحب البحث على التغلب على الصعوبات الزمنية (التاريخية) وعلى التكرار وعدم التماسك الذي يفقد البحث وحدته الموضوعية ويجعله أقرب الى مجموعة من الدراسات المتراصة .

تقييم الكتابة التاريخية

يجد المؤرخ نفسه في أوقات الأزمات القومية كتلك التي يمر بها العرب الآن ، أو في فترات التكيف التي تعقب الحروب ، يجد نفسه مدفوعا الى ادخال العاطفة كعنصر أساسي في قصة تقدم بلاده وأمجادها ، ولقد يتناسى الحقيقة جزئيا اذا دامت الضرورة القومية الى ذلك ... والهدف من

ذلك هو عادة تنشئة مواطنين مخلصين إذا كانت قصة تاريخ الوطن من الفصص التي يستطيع المواطن أن يفخر بها ... وهذه نزعة يؤيدها ويشجعها الدكتورون والسطحيون من رجال السياسة في البلاد الديمقراطية ، لأنهم ينظرون الى التاريخ لا بوصفه نوعا من أنواع المعرفة لها منهجها الخاص ، بل على أنه وسيلة لإذكاء الروح الوطنية واشغال الحماس القومي .

ولهذا ينبغي دائما أن تظل الوطنية - كمعيار لتقدير الكتابات التاريخية - موضع نك القارئ الناقد .

ولما كانت هناك طرق مختلفة لعرض الحقائق التاريخية ، فإن الحقيقة لا تظل وحدها أساس حكمنا على الكتابة التاريخية ، وإنما يشترك معها - كمعيار لهذا الحكم - عامل آخر هو ما تنطوي عليه هذه الكتابة من فلسفة نابعة من بصرية الكاتب ، ذلك أن المؤرخ لا يستطيع أن يتجنب فلسفة ما في كتابته ، ومن الخير أن يتبنى تلك الفلسفة بصراحة تامة ... يجب عليه أن يفصح عن ذاته خلال تلك الفلسفة ، فيبين ما إذا كان رجلا مثاليا أو ماديا ، محافظا أو حرا ، شكاكيا أو مؤمنا ، الى غير ذلك من الأقيسة والمبادئ ، والواقع أن المؤرخ الذي ليست لديه مبادئ فلسفية أو أخلاقية لا تكون لديه أسس يقيس بها التغيير أو الاستمرار ، ومن ثم يعجز عن الحكم على عمليات التطور أو الظهور أو السقوط أو النمو أو الانحلال ... وبدون مثل هذه الأحكام يتعلم جوهر التاريخ .

ونحن نلاحظ أن المؤرخين القدامى والمحدثين على السواء قد تبنوا لأنفسهم فلسفات معينة ، فقد كتب **ثوكيديدس** و**تاكيتوس** و**قوتسبروجيون** و**ماكولي** من أجل هدف محدد، وبمقاييس محددة للأحكام ، ونحن لا نستطيع أن نقدر قيمة مقاييسهم إلا إذا كانت لنا مقاييسنا الخاصة بنا ... أن المؤرخ منا يحتاج دون شك الى بعض القواعد الفلسفية والأخلاقية لا ليضع تاريخا وحسب ، وإنما أيضا لستطيع أن يحكم في فطنة وذكاء على كتابات غيره من المؤرخين .

ومسألة أخرى في تقييم الكتابة التاريخية ، وأعني بها الأسلوب الأدبي ، فلا بد للمؤرخ من أن يخرج كتابته في أسلوب أدبي ممتاز ، ذلك لأن بلاغة الأسلوب وانعدام الطلاوة فيه ، قد تؤدي الى الوقوع في الخطأ وتشويه المضمون التاريخي المستهدف .

والمؤرخ الذي يكتب تاريخا لا يلد للقارئ ، يعتبر مؤرخا رديئا باعثا على الملل ، وهو مسئول دون شك عن عمليات بحث الماضي في إطاره وجوه الذي اكتنفه ، وإذا فشل في ذلك فإنه يعتبر مؤرخا فاشلا مضجرا وباعثا على الملل بل وعلى كراهية التاريخ .

ومع ذلك فنحن نعرف بأن التزام الدقة التاريخية واتباع قوانين المنهج التاريخي قد يحدان كثيرا من سهولة القلم الموهوب ... ولكن نقاد الأساليب التي يتبعها المؤرخ الأكاديمي يدركون ذلك ، ولا ينتظرون منه أن يكتب كما يكتب الأدباء المحترفون ، وكل ما يطلبونه منه هو أن يكتب ببساطة في أسلوب سهل متنعم متجنباً الشرود والإبهام بالمعرفة .

ومشكلة الأسلوب آخر الأمر يمكن أن تحل - ولو جزئيا - بشيء من التعاون ، فبوسع المؤرخ بعد أن يفرغ من كتابة بحثه معتمدا على المادة التي استقها من مصادرها ، بوسعه أن يدفع بهذا البحث الى زميل أو صديق يتمتع بأسلوب أدبي رفيع ليعيد له صياغة ما كتب ، ولا عيب في ذلك على الإطلاق ، شريطة ألا يكون هذا الأديب ممن يؤثر على الأسلوب الجذاب على الحقيقة التاريخية .

الهوامش

للهمامش فائدة كبرى فى الكتابة التاريخية ، ولعلها أداة الحكم على أصالة هذه الكتابة وجدواها ، ولهذا يعتبر المؤرخ الذى يهملها أو يتخلى عنها تماما فى أى مؤلف يضعه ، كأنما تخلى عن أهم وسيلة يستطيع بها غيره أن يفحص ما وصل إليه من نتائج ، والملاحظة الهامشية هى التى تهىء للقارئ فرصة الاستدلال على صدق المؤلف ، كما تهىء له فى نفس الوقت فرصة الحصول على مزيد من المعلومات التى قد تستهويه أو تهجه أهمية مباشرة .

وأهم سبب يدعو المؤرخ الى التهميش فى كتابته أو حين عرضه لنص من النصوص ، هو الإشارة الى النصوص التى استمد منها هذه العبارة أو تلك ، وهكذا تصبح الملاحظة الهامشية شاهدا على الكاتب ، ومن الخير أن تكون فى هذه الحالة موجزة . . . فإذا كان هناك تضارب فى المصادر التى يستعين بها المؤرخ فإنه يجد نفسه مضطرا الى الإطالة فى الملاحظة الهامشية ، حيث يشير فيها الى مختلف الآراء ، ويحاول أن يحسم مادة الخلاف برأى من عنده .

وأحيانا تكون الملاحظة الهامشية متضمنة لاقتراسات حرفية توضع بين أقواس ، وتلك طريقة مفيدة جدا للقارئ المهتم الذى يستطيع حينئذ أن يقارن بين ما جاء فى عدة مصادر دون الرجوع الى هذه المصادر ذاتها .

على أننا نحذر فى هذا الصدد من التعسف والتخللق عند تدوين الملاحظات الهامشية ، كتلك التى يريد المؤلف من رثائها أن يبين للناس وفرة مصادره ، وسعة اطلاعه باللغات الأجنبية ، أو تلك التى يحشرها حشرا نتيجة لمعلومات جديدة صادفته بعد أن فرغ من كتابة بحثه ولم يعد قادرا على ادماجها فى المتن ادماجا سليما .

وينبغى أيضا أن ننبه الى وجوب اتباع الاختصارات العالمية التى يستخدمها الكتاب فى كل أنحاء الأرض مع ملاحظة أن يدون اسم المصدر أو المرجع بالأحرف المائلة ، والا فيمد من تحته خطأ ، وبالنسبة لاسماء المجلات العلمية ينبغى اتباع الاختصارات الدولية أيضا . وهذه الاختصارات مدونة فى معظم المراجع . وتكتب الهوامش فى أسفل الصفحات أو فى نهاية الفصل أو فى نهاية الكتاب ، والطريقة السليمة هى أن يكتب أولا اسم المؤلف (اللقب أولا ثم الاسم الأول (أو الحرف الأول منه) ثم بعد ذلك اسم الكتاب بحروف مائلة ، ثم رقم المجلد إذا كان الكتاب متعدد المجلدات ، ثم رقم الصفحة أو الصفحات .

وحيث يكون الكتاب نادر الوجود ، فيحسن ذكر مكان وجوده ورقمه ، وكذلك إذا كان المصدر الذى اعتمد عليه الباحث وثيقة مخطوطة ، فينبغى ذكر الأرشيف أو الكتبة التى توجد بها هذه الوثيقة ورقم المجلد ورقم الملف ورقم الورقة أو الصفحة وتاريخ الوثيقة ومكان تدوينها وعم صدرت والى من أرسلت ، وبيان ما إذا كانت ورقة رسمية أو غير رسمية أو مسودة .

وحيث نورد فى الهامش نصا مقتبسا فينبغى كما ذكرنا أن نضعه بين قوسين ، ولا بد أيضا أن نورد بلغته الأصلية دون ترجمة ، لأن هذه قد تغير المعنى .

وأحيانا يرى الباحث ان يكون الهامش مكان مناقشة او نقد نص من النصوص ، او نقد رأى عدة مؤلفين في موضوع ما ، او التوفيق بين عدة آراء متناقضة في حادث معا ... ولا بأس من ذلك كله على ان يورد الباحث في المتن ذاته الرأى الذى يرجحه هو مع الأدلة التى استند إليها في هذا الترجيح ، ثم يفترض في الهامش على عرض الآراء المتناقضة وإدائها ، وناقشتها بعد ذلك .

على اننا نقول انه ليس هناك رأى قاطع او اصطلاح عام فيما يجب ان يكون مكانه الهامش وما يجب ان يكون مكانه المتن ، والمسألة في النهاية متروكة لتقدير الباحث نفسه .

اللاحق

بعد ذلك تأتى ملاحق البحث ، وهي التى يقدم فيها الباحث بعض الاصول التى اعتمد عليها او مختارات منها ، وهي عادة مراسلات سياسية من سفراء لحكوماتهم وبالعكس ، او معاهدات مختلفة الطابع ، او وصف لتشهد عيان عن حادث معين .

ومن الخير نتر هذه الاصول بلغاتها الاصلية مع سرح الفاظها الفريية ونصحح ما قد يكون بها من اخطاء مع التعليق اللازم .

وفي النهاية يثبت الباحث اسماء الاصول والمراجع التى اعتمد عليها ، وقد يعقد لها فصلا كاملا يناقش فيه كل مرجع ومصدر مناقشة معقولة ، وينبغي ان تكون هذه وتلك مرتبة ترتيبا ابجديا حسب اسم اصحابها ، ومن الواجب ايضا تصنيفها وفق القاعدة المتبعة ، فاولا المصادر بانواعها ثم المراجع ثم الدوريات ، وينتهى الحديث عن كل مصدر ومرجع ببيان عن مكانه ورقمه وناريخه وعدد مجلداته ... ولا يخفى ان هذا الجزء من البحث يعتبر جوهريا واساسيا ، فهو دليل على الجهد الذى بذله الباحث ، كما انه يعين الباحثين من بعده .

مشكلة التعليق

يحاول المؤرخ دائما معرفة الأسباب والدوافع التى ادت الى الحقائق التاريخية ، اعني انه يحاول ان يرد كل معلول الى علته ، وهذه العملية بالذات هي التى تضيف على الدراسات التاريخية كثيرا من المتعة ، وبسط الحقيقة مجردة لا يمكن ان يكفى الفارئ ويقنعه ، وانما الذى يقنعه ان يجد سبب هذه الحقيقة مبسوطا امامه في وضوح ، فيعرف مثلا لماذا ازدهرت امة من الأمم ولماذا انحلت وبدهورت ، ولماذا تفوق حضارة من الحضارات ثم لماذا هبطت وسقطت ، ولماذا كسب احد الفادة معركة من المعارك ثم لماذا خسر معركة اخرى وهكذا .

وقد ذكرنا ان بعض المؤرخين يحاولون ارجاع سبب كل حدث من الأحداث التاريخية الى الإرادة الالهية ، الإرادة العلوية التى تسيطر على كل شيء وتوجه كل شيء نحو هدف محدد لا يدركه البشر ، وذلك تسليم بالالهيات يخرج عن دائرة البحث العلمي المرتجى من المؤرخين كما اوضحنا من قبل .

وثمة فريق آخر يحاول ان يرد الأحداث الى علل عقلية او كما يقول الفلاسفة الى اصل

ميثافيزيقي، ويمثل هذا الاتجاه الفيلسوف الألماني **هيجل** (١٨) وتلاميذه الذين كان **مومسن** (١٩) و**ميشليه** (٢٠) من أبرزهم، وخلاصة رأيهم في التعليل أن كل حادث تاريخي هو في نفس الوقت حادث عقلي، يقع وفقا لمنطق عام ثابت، وأن لكل حادث مبرراته ودوره في تقدم المجتمع البشري... فملا النظم بأشكالها حادث عقلي وجد لفائدة المجتمع وتلبية حاجاته، ولو لم تكن هناك تلك النظم، لما تمت المجتمعات ولا تطورت.

ولكننا لا نستطيع أن نخرج من هذا المذهب في التعليل بفاعدة ثابتة، لأن حوادث التاريخ لم تقع دائما بطريقة عقلية منطقية، ولم تكن دائما محققة لفائدة المجتمع البشري.

وتطبيقا لهذا المذهب، نشر **ميشليه** - في فرنسا - النظرية الهيجلية المعروفة بنظرية «الصور»، والتي عرفت في ألمانيا باسم «الرسالة التاريخية» للأفراد والمجتمعات، وخلاصتها أن المجتمع في تقدم مطرد بفضل أدوار متتابعة يقوم بها الأفراد والجماعات، لكن هذه النظرية لا تطابق الواقع تماما، فالمجتمع البشري في تغير وتطور وتحول مستمر بصورة عامة، لكن ذلك لا يؤدي دائما إلى التقدم، فأحيانا بل كثيرا تأتي فترات انحلال وهبوط بعد فترات التقدم والازدهار، وبالتالي فنحن لا نستطيع تطبيقا لهذه النظرية الهيجلية - أن نخرج بأسباب ثابتة تؤدي حتما إلى نتائج معينة.

وفريق آخر من المؤرخين حاول أن يعرف أسباب الأحداث التاريخية عن طريق مقارنة مجموعات من الحقائق، بهدف الوقوف على نوع الحوادث التي تقع في وقت واحد، في أماكن متباعدة، فيدرس الباحث مثلا جانباً من تاريخ النظم أو تاريخ العقائد، ثم يقارن بين أوجه تطورها في عدة مجتمعات لكي يحدد اتجاه تطورها العام بقصد معرفة السبب المشترك الذي أدى إلى ذلك التطور... وكانت نتيجة هذا المذهب أن ظهرت أنواع من الدراسات التاريخية المقارنة كدراسة فقه اللغة المقارن، والقانون المقارن والنظم المقارنة... الخ، وهذه الطريقة بدورها لا تؤدي دائما إلى معرفة الأسباب الحقيقية للحوادث لأنها قد تنطبق على حالات مفردة، أو قد تشابه ظاهريا، خصوصا وأن الحالات لا يمكن أن تتشابه تشابها مطلقا، ولا بد من تفاوت واختلاف ولو قليل... كذلك قد لا يستطيع الباحث أن يحيط بكل الظروف التي اكتنفت الأحداث موضع المقارنة.

(١٨) George Wilhelm Freidrich Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) فيلسوف ألماني، ولد في شتوتجارت، وكان من أنصار حرية الفكر، درس المسيحية الأولى وذهب إلى أن المسيح ابن إريم ويوسف النجار... اشتغل بالتدريس في كثير من جامعات ألمانيا ومن أهم مؤلفاته «أصول القانون وفلسفة الدين وعلم المنطق وفلسفة التاريخ» ورأيه أن التاريخ هو تاريخ الفكر الإنساني، وقد قسمه إلى مراحل ثلاثة: الشرقية والكلاسيكية والجرمانية، ولكل مرحلة رسالة تؤديها.

(١٩) Theodor Mommsen (١٨١٧ - ١٩٠٣) مؤرخ ألماني، ولد في شلزويج، درس في ألمانيا وإيطاليا، ومارس التعليم في ليبزج ثم رحل من ألمانيا لأنه كان من مؤيدي الملكية، عاش فترة في سويسرا ثم عاد إلى برلين، ومن أهم آثاره - تاريخ روما والقانون الدستوري الروماني - امتاز بدقة كبيرة في البحث والاستنتاج وفي تتبع آثار الفكر للإنساني على الحياة السياسية والاجتماعية، حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٠٢.

(٢٠) جول ميشليه Jules Michlet (١٧٩٨ - ١٨٧٤) مؤرخ فرنسي، كان استاذاً للتاريخ والكوليج دي فرانس، ألف تاريخ الثورة الفرنسية، ولم يكن محايدا في كتابته، وقد كانت آراؤه الحرة المتطرفة سببا في تعطيل محاضراته بعض الوقت.

وقد يستطيع الباحث أن يصل الى ما يمكن اعتباره قوانين تجريبية تفعل بمقتضاها حوادث متتابعة ؛ بيد أن هذه القوانين لا تفسر دائماً سبب وقوع هذه الحوادث نفسيراً مقنعاً صحيحاً ... ذلك أننا نعرف أن الأحداث التاريخية هي آخر الأمر أحداث إنسانية ، ومن ثم فإنه في حقائق التاريخ - بعكس حقائق العلوم الطبيعية - قد تتضافر عدة أسباب للوصول الى نتيجة ما ... لكن نفس هذه الأسباب قد لا تؤدي الى نفس النتيجة في ظروف أخرى ... كذلك فإن سبباً ما قد يؤدي الى نتيجة ما في مكان ما ثم يؤدي هو بعينه الى نتيجة أخرى في مكان آخر ، والسبب في ذلك كله هو تدخل العامل البشري .

ولقد يضع الباحث فروضاً يراها متمشية مع الحقائق التي تعرض له في سياق التاريخ ، ثم يحاول أن يعلل هذه الفروض واحداً بعد الآخر حتى يصل الى النتيجة التي ترضيه وتقتنع قارئه، لكن ينبغي هنا أن يتعدى نفسه عن الالتزام بنظرية محددة ، ويقوم بعملية التعليل على أساسها ، كما يفعل أحياناً بعض المتحمسين لفكرة سياسية بعينها أو للمذهب الاقتصادي أو ديني معين ، وبالتالي فإنه يصل الى علل لا تعبر عن الأسباب الفعلية للحقائق وإنما تعبر عن لون تفكيره هو .

ومهما يكن من أمر فإن أسباب بعض الأحداث التاريخية تكون واضحة لنا في بعض الأحيان وضوحاً كاملاً أو جزئياً ، إذ نجد على هذا النحو أو ذاك في المصادر التي بين أيدينا ، لكن ينبغي أن ندرك أن الوصول الى الأسباب ليس دائماً يسيراً سهلاً ، بل أنه أحياناً يكون عسيراً قريباً من المستحيل بسبب اختلاط الروايات واضطراب الأصول .

إننا آخر الأمر نجتهد ، وحسبنا هذا ، ولا يتوقع أحد من المؤرخ أن يدرك أسرار الوجود كافة ...

الاستدلال والتاريخ

التاريخ دراسة تقوم أولاً وقبل كل شيء على الاستدلال ، فما معنى هذه العبارة ؟

الواقع أن التاريخ كغيره من الدراسات العلمية لا يستطيع أصحابه ادعاء صدق ما يكتبون إلا إذا استطاعوا تبرير ذلك ...

ولا يمكن أن يعتبر المرء مؤرخاً إلا إذا أدرك تماماً ما يمكن أن تتمخض عنه المادة التاريخية المطروحة أمامه من براهين وأدلة تفسر الأحداث التاريخية ... فلو فرضنا أن إنساناً استطاع أن يحصل على هذا الإدراك نفسه عن طريق الذاكرة مثلاً ... فإن هذا الإدراك أو هذه المعرفة ليست من قبيل المعرفة التاريخية ، لأنها لم تأت عن طريق الاستدلال من مادة تاريخية اعتمد عليها ... وهذا الطريق هو وحده الطريق العلمي ، فلو قلت مثلاً أنني رأيت فلاناً منذ أسبوع على ما أذكر ، فتلك عبارة غير تاريخية ؛ ولكن لو أضفت إليها قولي « وذاكرتي في هذا لا تخونني ولا تخدعني لأنني تسلمت منه هذه الرسالة التي كتبها أمامي » كان ذلك بمثابة دليل استندت إليه لإثبات صدق عبارتي الأولى التي قلتها عن الماضي ... وهنا تصبح العبارة تاريخية لأنها تعتمد على الاستدلال ، ولأنها كتبت أو قلت تبعاً لسلوك أو لمنهج البحث العلمي . فالاستدلال إذن هو الأساس في صياغة التاريخ والاعتماد عليه هو الذي يعطي الباحث صفة المؤرخ .

فما هي أنواع الاستدلال ؟

الواقع أن الصلة التي تربط بين المعرفة وبين الاسس التي تستند اليها ، تختلف باختلاف فروع هذه المعرفة ... والمناطقة الاغريق هم أول من صنف لنا انواع الاستدلال ، وعلى رأسهم الفيلسوف ارسطو ... لكن التقدم الذي احرزوه في هذا الميدان كان منحصرًا في العلوم الرياضية ، فلما بدأت العلوم الطبيعية الجديدة - التي تقوم على الملاحظة والتجربة - تتبلور منذ اواخر العصور الوسطى ، نشأ تدريجيا منطق جديد للاستدلال ، يقوم على تحليل الطريقة المتبعة في دراسة تلك العلوم الطبيعية الجديدة .

وهناك على كل حال نوعان من الاستدلال - الاستدلال الاستنباطي ، والاستدلال الاستقرائي . أما الاول فهو المتبع في علوم الرياضيات البحتة ، وهو وع من الجبرية المنطقية التي تلزم الشخص الذي يضع بعض الافتراضات العلمية أن ينتهي منها الى افتراضات اخرى ما دام قد التزم بالاولى ... والذي يضع هذه الافتراضات يتمتع بحرية الاختيار بين اتجاهين : اولهما انه لا يلتزم بمقدمة معينة او افتراض علمي معين يبدأ به ، وبانيهما انه اذا النزم بمقدمة معينة فهو لا يزال حراً في عدم الاسترسال في التفكير ، اما الذي لا يستطيع ان يفعلها فهو ان ياتي بمقدمة الاستدلال ثم يسرسل في التفكير حتى ينتهي الى نتيجة لا تتفق مع ما يجب ان ينتهي اليه القياس من نتيجة علمية .

أما الاستدلال الاستقرائي فليس فيه هذا الاجبار او تلك الجبرية المنطقية ، لأن جوهر عملية الاستقراء هو اننا نجمع الظواهر التي شاهدناها الى بعضها ، ثم ننهي منها الى نتيجة معينة ، وبالتالي نستطيع ان نطبق هذه النتيجة في آفاق غير محدودة .

أي اننا هنا وكما يقول المناطقة ننقل من المعروف الى غير المعروف او من الجزئيات الى الكليات .

هذا هو التفكير الاستقرائي ، وجوهره اننا لا نستطرد فيه بحكم الضرورة المنطقية ، ونحن حين نمارسه نكون احرارا من وجهة النظر المنطقية .

والخطوة الاولى في النوعين ، الاستنباطي والاستقرائي ، متى كنا بصدد موضوع نريد التدليل على صحته وصدقه ، هي ما اصطلح على تسميته « بالمقدمات » ، والذي يحدث في الحالين هو ان المقدمات تثبت صحة النتائج .

لكن هناك نقطة خلاف جوهرية ، هي أنماجد المقدمات في علوم المنطق والرياضة البحتة نفرض النتيجة فرضا بحيث تبدو شيئًا لا محبص عنه ، بينما نجد في العلوم الطبيعية التي تقوم على الملاحظة والتجربة ، تبرر هذه النتيجة فقط دون ان تفرضها فرضا ، أي انها تخول الانسان حق الاعتقاد في صدقها متى اراد ذلك دون ان تكون ضرورية من الوجهة المنطقية ... كل ما في الامر انها نتيجة مستساعة يمكن الأخذ بها .

وهنا في هذا المجال حديث ينبغي ان يقال عما يسميه المؤرخون « الشهادة » .

فالتاريخ كبقية الدراسات العلمية ، درأسه مستقلة ، بمعنى أن المؤرخ ملزم أن يفكر في الحل الصحيح لكل مشكله تعترضه عن طريق إبحاه العلمية استنادا الى منهج البحث الذي يلتزم به ، ولا يجوز له أن يسمح لأى إنسان آخر أن يحمل عنه عبء هذا التفكير مهما كان هذا الإنسان ... مؤرخا شهيراً حاذقاً أو شاهده عيان أو ثقة من الثقات ولو فعل ذلك لانتفت عنه صفة المؤرخ ، وقيام الغير بهذا التفكير ، تم قبول المؤرخ المضطلع بالبحث له ، معناه قبول شهادة الغير ...

وليس معنى ذلك أن نهمل شهادات الغير إطلاقاً ، إنما الذى نريد تأكيده هو أن قبول هذه الشهادة مشروط بأن يكون مدعمة بأسس تستند اليها وتقوم عليها ، أعني أن الشهادة لا تقبل من كائن أيا كان إلا اذا استندت الى دليل .

التحرير أو العرض

تلك هي المرحلة الاخيرة من المنهج التاريخي، وأول ما يقال فيها أنه ينبغي على المؤرخ الذى يهيمه رد الفعل لدى قرائه أن يتجنب افتراض معرفة واسعة لدى هؤلاء القراء ، وهذه مسألة هامة على وجه التخصيص بالنسبة للمبتدئين فى التحرير ، ذلك أنهم يتصورون عادة أن قارئهم هو فى الغالب استاذ على قدر كبير من المعرفة بموضوعهم ... وهنا ينبغي على الأستاذ المشرف أن يذكر تلميذه دائماً بالقراءة العادى .

وينبغي على المؤرخ ألا يذكر اسم عظم دون أن يقدمه فى اطار معقول من التعريف دون محاولة الاستعلاء على القارئ ، أعني دون محاولة التحذلق .

كذلك لا يجوز للمؤرخ المبتدئ أن يعتمد الى الاقتباس الطويل او الاقتباس الذى تكرر كثيراً ، ومن الخير اذا لم يكن هنالك بد من الاستشهاد بنص طويل ، أن يفرد له ملحقا فى آخر البحث ، حيث يستطيع صاحب البحث أن يقدم للنص بضعة أسطر توضح قيمته .

ولا بد أن يذكر المؤرخ المبتدئ أيضاً أن الأساليب البيانية المصطنعة لا تساعد على تحسين أسلوبه ، وبحسبه أن يحاول جعل أسلوبه حيا .

وقبل أن يبدأ الطالب المؤرخ فى كتابته ، يجب عليه أن يخطط المقالة او الفصل ، ليعرف بدايته ونهايته ، وما سوف يقول بين البداية والنهاية ... بعد القيام بهذا التخطيط يبدأ الباحث فى الكتابة مستعيناً بما لديه من ملحوظات دونها فى بطاقاته ، ومن كتب ومجلات علمية مما ينبغي أن يكون دائماً تحت يده .

وبهذا الأسلوب العلمى ينتهى من المسودة الأولى لبحثه ، والتي قد تبدو وكأنها ملحوظات موضوعية ومصنوفة كقوالب الطابوق ، لا حياة فيها ، ولقد يكتشف الكاتب أن فكرته من أساسها كانت خاطئة ، وأن النتائج (التي وصل اليها) لا تتبع من حوادته ... وهنا ينبغي عليه أن يبدأ الكتابة من جديد .

وبعد ذلك يعيد الباحث قراءة مسودته الأولى ليضيف اليها ما قد أفلت أثناء التسويد من المعلومات .. وفى هذه المرحلة - مرحلة القراءة الثانية - يحسن البدء فى تنظيم الهوامش .

وثاني الخطوة التالية وهي كتابة المسودة الثانية ، وفيها تكون المادة قد استكملت ، والحواسي قد دونت ، ولكن تعوزها سلاسة الأسلوب وحسن الانتقال من نقطة الى أخرى ، والتنظيم بوجه عام ... وربما يبدو فيها بعض الكرار ، ومن ثم يبدأ الباحث في قراءة هذه المسودة لتفقيتها من تلك التاليل والعيوب ، فيصقل الفقرات ويسلسل الأفكار ، وينقل من مكان الى مكان ما يقتضي الأمر نقله من عبارات وجمل ، ويحذف ما يراه زائدا من مجازات ومرادفات ، ولا بأس بعد ذلك كله من إعادة النظر في عنوان البحث .

ويأتي بعد ذلك دور المسودة الثالثة التي لا بد أن تكون على أحسن حال يمكن أن يصل اليه المؤلف الباحث ... وهذه هي التي تقدم للمطبعة .

ولا ينبغي عن البال أن كثيرا من الأبحاث يخرج سيئا بسبب عدم التروى ... أعنى بسبب السرعة الكبيرة في كتابة المسودات وفي قالة هذه المسودات نفسها ... وهذه مساوئ يقع فيها المبتدئون بصفة خاصة ، لأنهم يتوقون بشوق منقطع النظر الى رؤية أول بحث مطبوع لهم ، ولا ينبغي أن ننسى أبدا أن الأشياء الصغيرة هي التي تصنع الكمال ، وأن الكمال نفسه ليس بالشئ الصغير .

بعد هذا الإيجاز الشديد الذي التزمناه في الحديث عن التحرير ، أعنى عن انشاء الصيغة التاريخية ، يحسن أن نتناول بعض نقاط بعينها بشيء من التفصيل :

فحقائق التاريخ متنوعة ومعقدة ولا يمكن أن نعرضها عرضا مركزا كالحقائق الكيميائية أو الفيزيائية ، وإنما نحن في حاجة الى أسلوب وصفي نعبر به عن هذه الحقائق وظواهرها المختلفة .

والقاعدة الأولى في هذا الصدد أن تكون الصيغة التاريخية مختصرة ، وفي نفس الوقت دقيقة ... ولكن الاختصار قد يتعارض أحيانا مع الدقة ، أعنى أن الاختصار حين نلزمه كإعادة في الكتابة التاريخية قد يسبب عدم فهم المراد ... فهل نلجأ في هذه الحالة الى التطويل ؟ أن التطويل قد يسبب الانتقاص من قيمة الحقائق التاريخية اذ يفرض على القارئ ما هو في غنى عنه ، وما هو غير ضروري .

ولهذا فإن الطريقة المثلى هي اتباع طريق وسط بين الإيجاز والتطويل ، فنضبط الحقائق أولا ، ثم نحذف كل ما نجده غير ضروري لايضاها .

ثم ماذا يفعل الباحث المؤرخ لانشاء الصيغة التاريخية التي نعبر بها عن الحقائق الخاصة والحوادث المفردة ؟

في الحالة الأولى - أعنى حالة الصياغة المتعلقة بالحقائق العامة - يستعين المؤرخ بما وصل اليه أثناء العمل في بحثه من تعرف على طبيعة هذه الحقائق ومدى انتشارها ، ثم يجمع كل الظواهر المتصلة بها ويركزها وينظمها في بنائه التاريخي .

اما في الحالة الثانية - اعنى حالة الحقائق الخاصة بمعظم من العظماء ، أو حالة حادثة مفردة - فان المؤرخ مسئول حين يحدث الناس عن هذا العظيم أن يبين لهم الظروف التي اكتنفت حياته واثرت فيها ، وكونت له عاداته ، ودفعته الى اعمال وتصرفات بعينها اثرت في مجرى تاريخ مجتمعه الخاص أو في المجتمع البشرى كله ، وبالتحديد التفاصيل المتعلقة بذلك كله ، وبآراء هذا العظيم ومعلوماته وذوقه وخلقه ، يستطيع الباحث أن ينشئ الصيغة التاريخية المطلوبة .

اما الحادث المفرد فلا بد من تبين طبيعته ومداه وما خلفه من آثار ، ونعنى بطبيعة الحادث المظاهر الخاصة التي تميزه عن الحوادث الأخرى .

وينبغي على الباحث أن يعطى الناحية التاريخية التي يعرضها ، التلوين المناسب الذي يجسمها للقارئ ويجعلها نابضة بالحياة ، وهذا امر لا يمكن أن نضع له قواعد معينة ، وانما هو متروك لذوق الباحث وتقديره .

والصفة الوصفية التاريخية ليست الهدف النهائي للباحث ، لأنها لا تعدنا الا بالصفات الخاصة بكل مجموعة صغيرة من الحقائق... وعليه بعد ذلك أن يحدد العلاقات المتبادلة بين الحقائق ، وأن يربط ويفارن بين تلك المجموعات الصغيرة ، وأن يحدد مميزاتها ومدى انتشارها واستمرارها وأهميتها .

وكلما مضى الباحث في هذا العمل تكونت لديه مجموعات أوسع وأعم ، وهنا يستطيع أن يسقط الصفات التفصيلية المتغيرة ، ويستبقى الصفات العامة المشتركة .

ونتيجة ذلك كله هي تركيز الحقائق العديدة ووضعها في صيغة عامة سواء اكانت هذه الحقائق متعلقة بالدين أم بالسياسة أم باللغة أم بالفن أم بالاقتصاد أم بالاجتماع... وهكذا يربط الباحث ما لديه من حقائق ، وتصبح معدة للعرض التاريخي بطريقة توضح مضمونها المشترك .

وحين يأخذ الباحث في عرض ما انتهى اليه من دراساته ، يلاحظ احيانا أن ما قدمته له الاصول التاريخية لا يكفي لإفاء موضوع بحثه كل حقه ، اعنى أن الحقائق التي استمدتها من مصادرها ومراجعتها قصرت دون تغطية موضوع البحث تغطية شاملة... فان الحقائق تكثر احيانا بالنسبة لفترة معينة وموضوع معين ، بينما تندر بالنسبة لفترة أخرى في نفس الموضوع ، أو لعلاها تنعدم تماما... وتكون النتيجة أن الباحث يجد امامه فجوات في السرد المطرد لا يستطيع أن يعلاها مستندا الى المصادر والمراجع ، فماذا يفعل... ؟ هنا لا مفر من محاولة سد هذه الفجوات بالاجتهاد ، اعنى عن طريق العقل والقياس ، وكان علماء المسلمين من ابرز وأفضل من لجأ الى الاجتهاد في احكام الشريعة ، ولكن الاجتهاد لا يستخدم اعتباطا ، وانما هناك قواعد ينبغي أن يراعيها الباحث حتى يكون تعرضه للوقوع في الخطأ اقل ما يمكن ، ويمكن تلخيص هذه القواعد في النقاط الآتية :

١ - لا يجوز للمجهذ أن يسرف في تحليل الاصول التي بين يديه بحيث يحملها أكثر من محتواها الحقيقي ، الأمر الذي قد يؤدي الى اضافات ليست حقيقية .

٢ - لا يجوز الخلط بين الحقائق التي توصل اليها الباحث من وثائقه وتلك التي توصل اليها بالاجتهاد ، بل لا بد من الاشارة الصريحة الى كل ما توصل اليه صاحب البحث باجتهاده وقياساته .

٣ - لا يجوز ان يحاول الباحث القيام بعملية قياس الا اذا كان متفرغا لها تماما مركزا ذهنه فيها كل التركيز ، متبعيا اصول المنطقة في الاجتهاد .

٤ - النتائج التي يتوصل اليها الباحث عن طريق الاجتهاد ، ويعتقد هو انها موضع شك ، لا بد من ان يقرر ذلك صراحة لقرائه ، وليس له ان يضعها في موضع النتائج الثابتة الاكيدة .

والاجتهاد كما هو معروف نوعان : سلبي وايجابي ، فاما السلبي فهو ما يعبر عنه المنطقة بعبارةتهم المشهورة « السكوت حجة » والمقصود هو ان سكوت المصادر عن ذكر واقعة او خبر يؤخذ دليلا على انه لم يحدث ... والا لما سكنت عنه المصادر ... لكن هذا الحكم قد يكون جائرا ، فكم من اصول تاريخية تعرضت للتلف والضياغ وكم من احداث اُفُلتت من التدوين لشيوعها وذوبوعها بحيث يرى الكاتب انه لا داعي لذكرها ... وكم من احداث اخرى لم تدون لان السلطات ارادت لها ذلك ، فلم تسجل في الاوراق الرسمية .

وهكذا لا نستطيع ان نأخذ بعبارة « السكوت حجة » . اما الاجتهاد الايجابي فهو الذي يهدف الى استنتاج حقيقة او مجموعة حقائق بمجرد التثبت من وقوع حادثة بعينها ... بمعنى ان يبدأ الباحث بحادث ما اتفقت الاصول على وقوعه ، ثم يحاول استنتاج حوادث اخرى لم تذكرها هذه الاصول التي بين يديه ، مستعينا على ذلك بالمقارنة بين حوادث الحاضر وحوادث الماضي ... فما دام هذا الحدث المعين قد وقع ، فهو يستنتج وقوع حادث آخر لترتب هذا على ذلك ، او لكونهما معا نتيجة لسبب واحد .

وهذا النوع من الاجتهاد ينطبق على الحقائق التاريخية كافة ، فهو يسرى على العادات والتقاليد وعلى عمليات التطور والتفسير في المجتمعات ، وعلى الحوادث الفردية ، وعلى الشؤون السياسية والدينية والاقتصادية والأدبية .

وعلى أية حال ، فالاجتهاد كله - السلبي منه والإيجابي - لا يؤدي دائما الى نتائج ثابتة قاطعة ، وانما الى نتائج تقريبية . تلك حقيقة ينبغي الاتنى .



خاتمة

وبعد فتلك هي أسس كتابة التاريخ العلمي ، وذلك هو المنهج السليم الذي ينبغي ان يتبعه كل من يريد ان يكتب بحثا في التاريخ تكون له اهميته وقبيلته ، أما الكتابات التقليدية التي تكتفي بسرد الاحداث وحسب ، فهذه لا تدخل في نطاق التاريخ ، وانما هي كما قلنا مجرد قصص قد يتسلى بها الانسان .

ولا بد لكل من يتصدى لكتابة التاريخ أو يدرسه أن يلم بهذا المنهج وقواعده المأما تماما
دقيقاً ، ومدرس التاريخ إنما يقوم بمهمة جليلة لأنه بتدريسه يضع عنصراً جوهرياً من عناصر
الثقافة التي ننشدها كل أمة من الأمم لبنيتها .

ويحسن أن يكون مدرس التاريخ متخصصاً في الفرع الذي يقوم بتدريسه ، فلا يدرس التاريخ
التقديم إلا من تخصص فيه ، وكانت دراسته العليا مقصورة عليه ، وكذلك الحال في بقية فروع
التاريخ ، وهذا يصدق بصفة خاصة على مدرس المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية وعلى المدرس
الجامعي بطبيعة الحال .

وليعلم مدرس التاريخ أنه يقوم بتعليم طلابه وطلابه دروساً لها قيمتها الكبرى في بنائهم
العقلي ، وأنه أيضاً ينمي فيهم ملكة التنظيم في العمل ، ويديريهم على النقد والتحليل ومناقشته
الآراء مناقشة منطقية سليمة ، فضلاً عما يقوم به من إذكاء الروح القومية في نفوسهم ، وتعويدهم
الصبر والدأب على البحث والدرس .

أن التاريخ هو الحياة بذاتها ، هو الإنسان منذ وجد على ظهر هذه الأرض وياشر فوفها
نشاطه ، ولهذا فإن كتابته هي السجل البشري الكامل ، ونحن لا نستطيع أن نعيش حياتنا
مقطوعين عن هذا السجل الحافل .



المصادر والمراجع

- حسين محمد احمد : الوثائق التاريخية . القاهرة ١٩٥٤ .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ولي الدين : المقدمة . القاهرة . ١٩٣٠ .
- الدوري ، عبد العزيز : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب . بيروت ، ١٩٦٠ .
- رستم ، اسد : مصطلح التاريخ . بيروت ١٩٣٩ .
- زريق ، فسطاطين : نحن والتاريخ . بيروت ١٩٥٩ .
- ابو زيد : حكمت : التاريخ تعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٦١ .
- السخاوي ، ممد بن عبد الرحمن شمس الدين : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . القاهرة ١٣٤٩ هـ .
- شليبي ، احمد : كيف نكتب بحثا او رسالة . القاهرة ١٩٥٤ .
- صفوت ، محمد مصطفى : التاريخ ، اهميته وطرق تدريسه . مستخرج من مجلة العلوم . القاهرة ١٩٤٢ .
- لانجلو ، ش . وسينيويوس ، ش . : المدخل الى الدراسات التاريخية ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ضمن كتاب « النقد التاريخي » الذي ينقسم كذلك ترجمة « نقد النص » لبول ماس وترجمة نصوص فلسفية في التاريخ لكات وديكارث وبول فاليري القاهرة ١٩٦٣ .
- لوبون جوسناف : فلسفة التاريخ ، ترجمة عادل زعير . القاهرة ١٩٥٤ .
- هرنشو ، ف . ج . : علم التاريخ ، ترجمة وتعليق واضافة بقلم عبد الحميد العبادي . القاهرة ١٩٢٨ .
- وولش ، و . ه . : مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة احمد حمدي محمود . القاهرة ١٩٦٢ .
- Carr, E. H. : What is History. London, 1961.
- Clark, G. K. : Guide for Research Student Working on Historical Subjects. Cambridge, 1958.
- Collingwood, R. G. : The Idea of History. Oxford, 1946.
- Fling, F. M. : The Writing of History, An Introduction to Historical Method. New Haven, Yale University Press, 1926.
- Freeman, E. A. ; The Methods of Historical Study. London, 1886.
- Garrghan, G. J. : A Guide to Historical Method. Fordham University Press 1951.

- Grousset, R. : L'Homme et son Histoire. Paris, 1954.
- International Bibliography of Historical Sciences, Washington, 1926
- Langlois, Ch. V. and Seignobos, Ch. : Introduction Aux Etudes Historiques. Paris, 1898.
- Oman, Sir Ch. : On the Writing of History. London, 1939.
- Plekhanov, G. V. : The Role of the Individual in History, (Eng. trans.) London, 1941.
The Materialist
- Conception of History, (Eng. trans.) London, 1950.
- Renier, G. J. : History, Its Purpose and Method. London, 1950.
- Rowse, A. L. : The Use of History. London, 1946.
- Taylor, H. : History as a Science. London, 1933.
- Woods, F. A. : A Statistical Study in History and Psychology. New York, 1906.

شكر مصطفى *

التاريخ هل هو علم ؟

« لأن السماويين لا يتدبرون على كل شيء »
« ألا بد أن يسبقهم القانون إلى الهاوية »
« هكذا يتغير حال مؤلاد .. »
« طويل هو الزمان ، لكن الواقع يتحقق »

.....

« ولهذا كانت قمم الزمان »
« متراصة هنا وهناك »
« وأحب الإحباب يسكن بعضهم قرب بعض »
« منهكين فوق جبال منفصلة »
هولدرين

من قصيدته (فيموزينة = ذكرى) و (باطموس)

قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة ، اشتهر في الاوساط الثقافية كتاب أعطاه صاحبه **الكسيس كاديل** عنوان : **الانسان ذلك المجهول** . كان الكتاب محاولة للاحاطة في نظرة شاملة بانورامية بما نعرف وما لا نعرف في العلم والحياة والانسان ، كان جرد حساب سريع ، وكانت خلاصة الحساب هي العنوان .

✻ الدكتور شاكِر مصطفى استاذ التاريخ الاسلامي والمصور الوسطى في جامعة الكويت . مؤرخ واديب له عدة مؤلفات آخرها دولة بني العباس كتاب ضخيم في مجلدين .

والآن ، وبعد أكثر من ثلث قرن ، يبدو أن العنوان ما يزال صحيحا . هذا الحيوان العجيب الذي استقام على ساقين ، وحول مركز ثقله من وسطه الى ما تحت قدميه ، وتضخمتم الفقرة العليا من عموده الفقري حتى اصبحت علبة عظيمة واسعة ، ودماغا متعبا افرز مع الزمن ما يسمى بالحضارة الانسانية .. هذا الحيوان هو في الواقع النقطة العمياء في مجموعة المعارف التي يزورها هو نفسه . لقد يكون عرف عن الطبيعة الجامدة اشياء . انتصر عليها في عدد من الميادين ، فيزيائيا ، كيمائيا ، رياضيا ، بيولوجيا ، اخترق الفضاء الى كوكب آخر .. هذه الكتلة من الاخلاط البيو - كيميائية التي يكون الماء نلثي تكوينها ، والتي لا يزيد وزنها عما بين ٧٠ - ٨٠ كغم في المتوسط ، ولا طولها عما بين ١٦٠ - ١٨٠ سم .. ملكت قدرة عجيبة للقفز فوق الارض وغير الفضاء بقوى خارقة .. على انها على المستوى نفسه تعقدت داخليا بقدر ما جهلت ذاتها ، اضحك الجهل .. وهكذا لقد نعرف عن الطبيعة الكثير لكن ما ان نصل الى الانسان وعلاقته الانسانية ، اذن فهى الاذلال المشتبكة ، وهى الله الاكبر .. من الدهايلز المعتمدة ، والانفاق العجيبة ، والمشارع الخفية ، والعواطف والارادات والافعال والانهيارات والبنى المستمرة حيث لا ضوء وحيث الف مفاجأة .. فان القى الضوء منها شيئا في الأيدي فكما القى شعب **بوان** في ثياب **المتنبى** ذات يوم .. « .. دنائرا تفر من البنان » .

واذا كان التاريخ احدى الكوى التي طالما حاول الانسان أن يطلُّ من خلالها على ذاته ، أعماق ذاته ، فإن عفوية هذه « المعرفة » من المعارف الانسانية ، بديهية وجودها تصطدم اليوم مع تعقّد الحياة والفكر - بالف عقبة . الف ريبة تحوم اليوم بالضباب من حولها ، وبدل ان يتحول التاريخ « علما » يحل - مع العلوم الأخرى - مشكلة « اللفز » الأوديبى الذى هو الانسان ، اصبح هو نفسه مشكلة ... قصة الحضار الانسانية رغم كثرة الاضواء التي القيت عليها لم تفعل أكثر من زيادة الادراك لتعقّد الحياة الانسانية وتشابك عناصرها الخفية وتراعى ابعادها ..

دعونا نسرع أولا فنحدد المقصود من كلمة « التاريخ » فقد اصبح مالوفا شائعا التفريق بين التاريخ كمسيرة للانسانية History وبين علم التاريخ ، Historiography كفاعلية فكرية انشائية . ولعلنا نستطيع أن نستعير هنا كلمة سانتيانا التي يقول فيها : « .. بين المعاني الكثيرة التي تعنيها كلمة التاريخ يجب ألا نخلط بين معنيين هما : أولا : سياق الحوادث كما تقع فعلا ، وثانيا مشاهد هذه الاحداث الذى يلتقطه المؤرخ ويضمنه كتابه . والتاريخ في المعنى الاول دقيق هائل وفي الثاني تأليف محدود .. » (١) .. ولا نعني في بحثنا هذا المسيرة الانسانية . « هذا الدقيق الهائل » من الاحداث والاعمال والافكار الذى ينساب في استمرار واطراد بدون فترات ولا عصور ولا فصول او اقسام ، وينساب في حركة مستمرة لا يحيط بدقائق احوالها وقوانينها عقل بشري ، ولا يستطيع التكنن بمسارها او مصيرها ، انما يقع الآن على الطرف الاخر من اهتمامنا الذى يتركز خاصة حول **المعنى الثاني** ، حول « التاريخ » (٢) كفاعلية فكرية تتناول ذلك

(١) انظر جورج سانتيانا - مولد الفكر (بالانجليزية - طبع جامعة كولومبيا سنة ١٩٦٨) مترجم للعربية - طبع بيروت ص ١١٩ .

(٢) لعلنا نشير بالمناسبة الى ان كلمة تاريخ في اللغة العربية تأخذ معاني اربعة بل خمسة فقد استعملت في التراث العربى الاسلامي بمعنى : ابعاد القوم وخلاصة شيماتهم فيقال : فلان تاريخ فومه . واستعملت بمعنى تراجم الرجال (بيوجرافيا) ومن ذلك تاريخ البخارى وتاريخ الخنابلة لابن ابى عمير ، واستعملت بمعنى رواية اخبار الناس كمنابى : تاريخ الطبرى وابن الاثير والذهبي وغيرهم . وتستعمل اليوم ايضا بمعنى : سيرة البشر فيقال : جرى ذلك في التاريخ او في تاريخ العرب ، كما تستعمل بمعنى كتابة التاريخ ودراسته .

الدقق الهائل نفسه بالتنظيم والدرس والتقسيم والتحليل واستخلاص النتائج .. انما نقصد نحن الى هذا الجهد العقلي والعملية الانشائية والتكوينات الثقافية المتزايدة السعة التي تمتلئ بها كتب الاطفال الصغار امتلاء اسماء الكبار ، وتثقل رفوف المكتبات كما تثقل جماجم العلماء البيضاء ، وقد تسكر او تعربد او نهذى على اسنة اصحاب العقائد ، هذيانها في منابر المؤتمرات وبين ابدى الاعميين بمقدرات الناس ومصائرهم على السواء .. وايا كانت - من خلال مختلف الآراء - تفسيرات التاريخ وفلسفاته واهدافه الاخيرة فان نمة سؤالاً مزدوجاً يفرض نفسه عند مطلع كل بحث ويقطع الطريق على كل باحث : ترى ما قيمة هذه « المعرفة » الفكرية « حقيقة موضوعية » من جهة ؟ وما قيمتها « كفاعلية » تخدم الانسان او تستأثر على الاقل بجانب من جهده الفكري . من جهة اخرى ؟ ونستطيع ان نضع السؤال المزدوج في صيغة ثانية اكثر تبسيطاً ان قلنا : انه ينتهي الى اسؤالين التقليديين هل التاريخ علم ؟ وما هي فائدة هذا العلم ؟ .. وبين هذا وذاك ما مكانه بين العلوم الانسانية الاخرى ؟ (١)

هل التاريخ علم ؟

سؤال ليس بالجديد . منذ انصرت « تفاحة » نيوتون ، وشكوكية ديكارت ، وتجريبية بيكون ، وهذا السؤال يلاحق ، كالغواء الزرع ، ابراج المؤرخين . يشد ثيابه ويمزق الكتب .. وبينما لجأ بعضهم مرغمين ، الى قبة « العلم » الكبرى يحتضنون بها ويعلنون حرمة « الوثائق » وعلمية التاريخ على اساس من الآثار ، وموضوعية ما تكشف عنه البقايا الانسانية .. بقي آخرون يجهدون انفسهم لايجاد « الصيغة » التي يدخلون بها « علم » التاريخ الى حرم العلوم ويكرسون واحداً منها عن طريق التزمّت وشدة التدقيق والتفكير واصطناع الاستقراء والاستنتاج والتحليل ...

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم
ان التشبه بالكرام فلاح

المشكلة اذن قائمة منذ عهد بعيد ، تاريخها يكشف انها قد اوضحت ، على التداول والجذب والدفع ، جزءاً من مشكلة « المعرفة » الكانتية التي تبحث : ضمن اي الشروط تكون « المعرفة » التاريخية ممكنة وصحيحة ؟ انها هي نفسها مشكلة « الحقيقة » في التاريخ . والى اي مدى يمكن ان ندفع « علميتها » وموضوعيتها وهي لذلك انما تمس مباشرة طبيعة الفكر التاريخي . حتى تدخلت القضية التاريخية والقضية الفلسفية وفتح الباب بين الاولى والاخرى وحتى اضحى التساؤل : ما التاريخ ؟ بلقينا فجاء في قلب الفلسفة مرغمين ، وفي قلب المشكلة الفلسفية للانسان . واذا كانت فلسفة التاريخ تطلق في الواقع على مجموعة مزدوجة من المشكلات الفلسفية فلها جانبان : تأملي (يتصل بغايات التاريخ ومعانيه) وتحليلي (يتصل بنوع وقيمة المعرفة فيه) (٢) واذا كان الكثير من الباحثين يرفضون الجانب التأملي او يعتبرونه من ميدان الميتافيزيك فكلهم في الواقع يقولون البحث في الجانب الآخر التحليلي . وبالرغم من اننا لا نرفض الرفض المطلق الجانب الاول ، الا اننا سوف نقصر على بحث مشكلة المعرفة التاريخية من

(١) نتناول في هذا البحث السؤال الاول فقط على ان نشرق عدد قادم بقلته الباقية في الجواب على السؤالين الآخرين بعنوان التاريخ بين العلوم .

Marrou : De la Connaissance Historique p. 32.

جانبها الثاني : التحليلي . وبديهي انا لسنا بأول من يفتح ابوابها ، فقد اتعب الكثيرون جباههم في تحليلها ورسم حدودها المتوجة الرواضة . وساءلوا عن « امكان » وجود علم تاريخي يجمع الناس على قبول انتاجه ونتائجه وحدوده ، وبأى مقياس تكون موضوعية هذا العلم ؟ وهكذا فان اعدادا من الكتب قد تطوعت لبحث هذه المشكلة منذ القرن الثامن عشر على الاقل . ومن ذلك كتاب فيكو : « علم جديد » ، ومحاولة كانت : « فكرة التاريخ العالمي » ، و « محاضرات هيجل في فلسفة التاريخ » ، وكتاب هرد : « افكار » ، واباحات انجلز حول « المادية التاريخية » ، وكتابات زميله ماركس حول « تفسير التاريخ » وكتابات ويلهلم دلتاي Dilthey منذ سنة ١٨٧٥ حول دراسة التاريخ . . ومعظم هذه الكتابات كان لها المفعول الانفجاري الثوري في الفكر كله ، وبخاصة منها ذلك الخط الممتد من هيجل الى ماركس وانجلز .

وقد اضيف اليها منذ مطلع هذا القرن عددا من الكتب الاخرى حمل في عنوانه المشكلة التي اصبحت تدعى بالفلسفة النقدية للتاريخ . ومن هذه الكتب على سبيل المثال :

- مشكلة المعرفة التاريخية من تأليف Mandelbaum (نيويورك سنة ١٩٢٨)
- نظرية وتاريخ التاريخ الذى وضعه كرونشه B. Croce (سنة ١٩٣١)
- مقدمة لفلسفة التاريخ - بحث في الموضوعية التاريخية لريمون آرون (١٩٢٨ باريس)
- ابعاد الضمير التاريخي لآرون نفسه (باريس سنة ١٩٥٦)
- وظيفة القوانين العامة في التاريخ من كتابات Hempel (مجلة الفلسفة لندن - ١٩٤٢) (وقد أعيد طبعه سنة ١٩٤٩ في كتاب : قراءات في التطليل الفلسفي) Rea. in Phil. Analy.
- فقر المذهب التاريخي Poverty of Historicism من تأليف K. R. Popper (سنة ١٩٤٥) وهو مترجم للعربية بقلم عبد الحميد صبرة (الاسكندرية ١٩٥٩)
- فكرة التاريخ : Idea of His. من كتابات Collingwood نشر سنة ١٩٤٦ .
- طبيعة التفسير التاريخي The Nat. of His. Explanation من تأليف P. Gardner سنة ١٩٥٢
- القوانين والتفسير في التاريخ Laws and Exp. in His. من وضع Dray (سنة ١٩٥٢)
- The Whig Interpretation of History من كتابة H. Butterfield طبع سنة ١٩٣١ ثم طبع ثانية سنة ١٩٧١
- مدخل لفلسفة التاريخ من وضع و. ه. وولش W. H. Walsh (وقد ترجم للعربية) (ترجمه احمد حمدى محمود - ونشر في القاهرة سنة ١٩٦٢)
- من المعرفة التاريخية وقد كتبه الباحث الفرنسي H. I. Marrou سنة ١٩٥٢ وترجم الى العربية من قبل جمال بدران (القاهرة سنة ١٩٧١) .

- كيف نفهم التاريخ : مدخل الى تطبيق المنهج التاريخي من وضع L. Gottschalk (نيويورك سنة ١٩٥٠) وقد ترجم الى العربية من قبل عائدة سليمان عارف « طبع بيروت ١٩٦٦ » .
- قيمة التاريخ . وضع جوزيف هورس (بالفرنسية) وقد ترجمه الى العربية نسيب الخازن (بيروت ١٩٦٤) .
- تطور النظرة الواحدة الى التاريخ وضعه G. Plekhanov وترجمه الى العربية محمد مستجير مصطفى (القاهرة سنة ١٩٦٩)
- هذا بالإضافة الى عشرات الابحاث التي نشرت في المؤتمرات والمجلات من مثل :
- ابحاث B. De Voto, A. Nevins بعنوان : ما المشكلة في التاريخ ؟ في مجلة SaturdayR. of Lit. سنة ١٩٣٩ ومجلة Harpers Mag. سنة ١٩٣٩ .
- بحث E. W. Strong بعنوان الواقعة والفهم في التاريخ . في Fact and Underst. in His. مجلة الفلسفة العدد ٤٤ سنة ١٩٤٧ .
- بحث مؤتمر الدراسات الفلسفية المسيحية سنة ١٩٥٣ حول مشكلة التاريخ .
- بحث Pasmore بعنوان الموضوعية في التاريخ (مجلة الفلسفة نيسان سنة ١٩٥٨) .
- بحث K. Blake : هل يمكن ان يكون التاريخ موضوعيا ؟ في مجلة Mind (كانون الثاني سنة ١٩٥٥) .
- وبحث الاستاذ Dray بعنوان Historical Underst. as rethinking (دورية جامعة تورنتو - كانون الثاني سنة ١٩٥٨) Toronto Quarterly
- والقائمة بعد طويلة طويلة . وهي اوسع من ان يحيط بها الحصر والتعداد .
- وليس اللاحق في بحث المشكلة ناجما عن انها ، في الاعماق والجذور الخفية ، جزء من تفكيرنا في مشكلة معنى الوجود او سبب الوجود ومحاولة بالمواربة ومن طريق جمع الاحداث والتجارب وتنامي الخبرات المتطورة للوصول الى « منطق » معين يكشف او يضع الهدف المنطقي للوجود الانساني .. ولكن ذلك اللاحق انما يشتدل الان بقسوة نتيجة مستوى آخر من العوامل الجديدة الملحة التي يمكن ان نسميها « بثورة التاريخ » .
- بلى ! هذه الثورة التي حققتها المعارف الانسانية في ربع القرن الاخير ، والتي جاءت للانسان من المعرفة خلال السنوات العشر الاخيرة فقط باكثر واوسع مما عرفه خلال تاريخه الاطول كله منذ ثمانية او عشرة آلاف سنة ، سواء في الكم او في النوع او في التعقيد والتشابك ، هذه الثورة مست بدورها التاريخ بالمعنيين . اكثر بكثير جدان من استيعاب المؤرخين ، هذا الذي ينهال عليهم من المعلومات . واكثر بكثير جدا من قدرتهم على اللحاق به هذا الذي ترمي اليهم به المطابع من الكتب والابعاد والافات .. المؤرخون يلهثون اليوم دهشة وعجزاً وفرقا .. ينوعون او تختنق انفسهم ، كما اختنق الجاحظ ذات يوم ، تحت اكداس الكتب التي وقعت عليه ! ...

وتورة التاريخ اليوم ، رغم انها تجرى في الصمت الاخرس ، تسهم في الانسلاخ الجذري للفكر الانساني . انها فاعلة متفعله ، بهذا الانقلاب في وقت معا . ابعادها تتناول مادة التاريخ تناولها لمتناهيته ومساره في العمق والشمول .. انه يركض ويركض حتى كانه اخذ يعيش في المستقبل او يعيش عصر نمو « بالوني » مات فيه الزمن .

فاما في المادة فالتضخم الهائل الريب في الكمية وعن طريقتين في وقت معا :

— طريق زيادة فروع التاريخ واحتوائها بجانب كل ما كانت تحتوى من قبل ، على تواريخ العلوم والفكر وتواريخ التطورات الاجتماعية ، وتواريخ الحياة الاقتصادية ، وتواريخ الفنون والتواريخ المعاصرة .. وغيرها . واحمال المعلومات التي تأتي بها الى سوق التاريخ .

— وطريق زيادة الشعوب المشاركة في كتابة التاريخ والاضافة اليه . كان التاريخ من قبل ملكا للشعوب الحضارية القديمة . حول البحر المتوسط ، ثم ملكا للشعوب القريبة . اكثر من نصف أو ثلثي سكان هذا الكوكب كانوا يعيشون على هامش التاريخ . لا يهتمون به ولا يهتم بهم ، فهم في العتمة والظلال . يكتب عنهم الآخرون ما يريدون ومن وجهات نظرهم وهم في غياب مطلق عما يسيطرون .

وفجأة ومنذ عقد وبعض العقد من السنين دخلت — وما تزال تدخل — تلك الشعوب الغائبة الى حلبة التاريخ . تدخله لا مشاركة في صنعه فقط — كما قد شاركت فيه دوما من قبل — ولكن مشاركة ايضا في كتابته وتصحيح احداثه وتقييم تلك الاحداث وآثارها وازافة الكثير جدا من الجديد عليه ومن الخطر ايضا . تواريخ شعوب افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية والكشوف عن الحضارات المغمورة والنسية (حضارة خمير ، واتكوفات في كمبوديا ، وحضارات وادي السند والارتيك والانكا .. الخ) .. تصب الآن ، ولاصبيب الروافد الامازونية على تيسار المادة التاريخية ، وتقوم من اعماقه ومسيره وسعته في الزمان والمكان .. المعطيات الاولى في التاريخ تبدلت التبدل الجذري ، الثورة الفرنسية التي ثارت تحتل اوسع الصفحات مثلا في الكتب التاريخية عادت الى حجمها الطبيعي النافه . فضائح تجارة الرقيق الغربية فتحت ملفات الواسعة . النهب الاستعماري الغربي انكشف كالجرائم النتنة في تواريخ العشرات من الشعوب . ابعاد حضارات خمير والارتيك والانكا ، وقصص الفتح الاسباني والبرتغالي والانكليزي والهولندي لأمريكا وجنوب شرقي آسيا اخذت مكانها من ثقافة الناس . تزييف القيم واحتمار الابداع بدا يتهاوى كالفشور الفارغة امام العيسون الجديدة المتفتحة للنور بكل مكان . انه عصر جديد من التاريخ وليست يد واحدة على اى حال ومن جهة واحدة فقط هي التي تسطر سطوره ... السعة الافقية في المادة التاريخية أضحت من الامتداد بحيث شملت اليوم كافة نواحي الحياة الانسانية من جهة ، وكافة شعوب الارض من جهة اخرى ... وهات عقولا انسانية — الكترونية تستوعب كل اولئك .

اما في النهج فقد دخل على اساليب التاريخ بدورها مجموعتان مساعدتان :

— جاءت من جهة معطيات العلوم والبحوث الجديدة لتفتح في التاريخ كوى ومسارب ما كان له من قبل ان يطرقها . علم النفس اضاف اليه استياء ، والبحوث الجنسية (انغرويدية خاصة)

أضافت إليه أشياء أخرى . وبينما أعطته علوم الاقتصاد إبعادا جديدة ، أضافت إليه علوم الاجتماع إبعادا أخرى ، وجاءت الإحصاءات ، بل جاءت الرياضيات إليه بأمور وأمور ، وجاءت الأنثروبولوجيا في الوقت نفسه بمنهلا وبأكثرمهنا .

— وجاءت من جهة أخرى طرق الإحصاء الرياضية وتطبيقاتها ، ودخلت العقول الإلكترونية لخيرن وفرز ومقارنة المعلومات وأدوات التحليل الطيفي والكيمائي في الوثائق والآثار . وأدوات التنقيب الجيوفيزيائي في الأراضي التاريخية . (وهي أدوات كهربائية ، وكهرومغناطيسية) وتصوير أعماق التربة . وكان استخدام هذا ذلك من مبتكرات العلوم ، مدھش النتائج في كثير من الأحيان .

وأفاد التاريخ في الحالين م معطيات العلوم الأخرى ، ومن المبتكرات التقنية للعلم الحديث ، فإذا مناهجه تتنوع من جهة وتعتقد من جهة أخرى ، وإذا هو على الطريق نحو أساليب جديدة يأمل أن يستطيع معها احتضان تلك التحولات المتشابكة العديدة ، التي لا بد من حساب أثرها في توجيه التاريخ وصنعه . ديناميكية التطور المتحول باستمرار لم تعد تخيف المؤرخين كثيرا وتقطع أنفاسهم لهلا وبأسا .

وأما في **الاتجاه والشمول** : فقد أخذ التاريخ طريقه سرياً في العمق التساقولي في اتجاهين أيضاً ، وإيضاً :

— صار يهتم بالشعوب لا الأفراد . بالكتل الجماهيرية والقواعد الشعبية الواسعة لا القمم والملوك . كان في القديم ملكي القاعدة يدور حول العروش ، ويمسح باعتباره ثم اضحى في القرنين الآخرين بوجوازى المطلق ، وقد تحول الأمر فصار بالضرورة شعبياً . اهتماماته ضربت الجذور في الجموع الواسعة التي تصنع في الصمت التاريخ الحقيقي . دخل عليه أخيراً ما سماه **(لين وإيت)** بحق « ما تحت التاريخ » أي أخبار الطبقات الدنيا المسحوقة التي كانت وما تزال تشكل تسعة أشرار البشر .

— وصار التاريخ من جهة ثانية يهتم بالعوامل والتيارات التحتية والخفية . الماركسية والفرويدية والدوركانية دفعته دفعا إلى الفصوص وراء الجذور الاقتصادية للأحداث ، وأخذ النوازع الجنسية والأشعرورية بعين الاعتبار ، وأدخل هزات المجتمع وعقائده ، وقوى تقاليده ونفسيات جموعه في الميزان .. صار « الحادث » التاريخي مركبا لا كيمابيا فيزيائيا رياضيا فقط ولكن ببولوجيا — سوسولوجيا وغريزيا أيضا .. بالإضافة إلى أنه لم يعد ذلك « الحادث » السكوني الثابت . اضحى في ديناميكية تحويلية متصلة الحلقات ما تعاقب الجديدان .

على أن ثورة التاريخ الجذرية ، واتساعه عمقا وامتدادا ومنهجيا ، لم تمنحه ما يمكن أن نسبجه بالاطمئنان العلمي أن لم تزد بالمعكس في « الريبة » القديمة التي تحيط به . أزمة « الحقيقة » فيه ازدادت حدة والحاحا بشكل طردى مع ازدياد الثورة الانقلابية . وظل الباحثون في علمية التاريخ وموضوعيته عند مواقع التسلسل الأولى يتساءلون : ترى إلى أي مدى اقترب التاريخ بها من حرم « العلم » أو ابتعد عنه ؟ .. ولقد سئل الفيلسوف البريطاني **جود رود** في برنامج إذاعي سنة ١٩٤٠ : هل التاريخ علم ؟ فكان جوابه أن ذلك يتعلق بماذا نعني من كلمة « علم » . وقد نستطيع التحديد أكثر من هذا أن قلنا أنه يتعلق بالمفهوم الخاص الذي نعمله في أذهاننا عن « العلم » .

ولعلنا نحتاج قبل الجواب على هذا السؤال الى ان نعرف ايضا : ما هو التاريخ ؟ وما هو التاريخ لا كاحداث تعبر الزمن ولكن كممارسة فكرية وجهد تكويني ؟ نحتاج ان نحلل هويته كمعرفة بين المعارف الانسانية . ان تحديد هذه الهوية قد يكشف الكثير من نقاط اللقاء والافتراق لا بين « علم » التاريخ وعلوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ولكن بينه وبين كل ما ينتهي بكلمة « لوجيا » . اننا اذا اتفقنا على ماهية التاريخ سهل علينا ان نتفق على حدود علميته .

وفي هذا الصدد تنبدي لنا ضرورة الوقوف بالتحليل عند ثلاث نقاط :

موضوع التاريخ ؟ مسلماته الاولى التي يستند اليها ؟ وعملية التاريخ ؟ او بكلمات اخرى : ماذا يحاول المؤرخ ان يبحث ؟ ما هي المعطيات المبادئ التي يقيّمها اساسا لعمله ؟ واخيرا كيف يعمل ، وما ميكانيكية العملية الفكرية التي يقوم بها ؟ مجموع التحاليل لهذه النقاط هو الذي يحدد ، من زوايا ثلاث ، حجم هذا العلم وماهيته وعمله وطبيعته التكوينية .

اولا : يقولون بكل سهولة فيما يتعلق بموضوع التاريخ انه « معرفة الماضي الانساني » (٤) مادته اذن هي ما جرى في الزمن السالف . واذا شئنا ان نكون اكثر دقة استعرضنا تعاريف بعض كبار العلماء في هذا الميدان :

— الفرنسي **جوستاف مونو** يقول : ان غاية التاريخ المثلى انما هي « اعادة تمثيل الحياة البشرية السابقة كما هي ، واعادة رسم مظاهر النشاط الفكرى بتطوراتها وتقدمه وتتابع مراحلها وتناسبها .. » (٥) .

— **الامريكي هنري جونسون** يقول في الكلمة الاولى من كتابه تدريس التاريخ : « التاريخ بمعناه الواسع هو كل شيء حدث في الماضي . انه الماضي نفسه مهما يكن هذا الماضي .. » (٦) .

— الفرنسي الآخر **ه. مارو** يقول : « التاريخ هو المعرفة بالماضي الانساني ، المعرفة بالانسان او بالناس من امس ، من قديم الزمان ، عن طريق انسان اليوم ، انسان الغد الذي هو المؤرخ » (٧) .

— **الانكليزي وولش** يقول : « من المتفق عليه ان الماضي الانساني هو الهدف الاول لدراسة المؤرخ .. » (٨) .

— **الالمانى وانكه** اعلن انه في التاريخ لا يقصد الا ان يصور ما حدث بالضبط في الماضي .. فاشتهرت كلمته في القرن الماضي حتى اصبحت شعار علم التاريخ ..

(٤) (الترجمة العربية - ص ٢٦ وقد اهللنا وسوف نهمل فيما بعد هذه الترجمة لانها سيئة جدا) .

(٥) G. Mounod — La méthode dans les sciences p. 367.

(٦) هنري جونسون - تدريس التاريخ (الترجمة العربية) ص ١ .

(٧) مارو Marrou حول المعرفة التاريخية (النص الفرنسي) ص ٢٢ و ٢٧ .

(٨) وولش - المدخل الى فلسفة التاريخ (الترجمة العربية - لاجمى حمدي محمود - القاهرة سنة ١٩٦٢) ص ٣٩ .

— حتى الانكليزي **كولنغود** حاول ان يجدد في الفكرة نفسها حين نظر الى التاريخ « كاستحضار للتجربة الماضية » .

وليست هذه النظرة بالحدیثة فما من مؤرخ في التاريخ الاسلامي الا وعبر عنها بشكل او بآخر فكان التاريخ عندهم « مرآة الزمان » (**سبط بن الجوزي**) و « وقائع الدهور » (**ابن وصيف شاه**) و « خبر من غير » (**الذهبي**) (**وابن اياس**) و « اخبار من ذهب » (**الحنيلي**) و « اخبار الزمان » (**المسعودي**) و « تجارب الامم » (**مسكويه**) الخ ..

ولن نقف بالطبع عند هذه التعاريف فان خطوات كثيرة من التحليل والتحديد والإيضاح يجب ان تتم وراءها : .. ولعلنا نكون اكثر دقة ان لم نواجهها بتعريف مضاد شامل — واین منا التعريف الشامل ؟ — ولكن نطوفها بالتحديد عن طريق « النفي » والابعاد والإيضاح .. انه لمن السذاجة ان نتخيل تعريفا متقنا نظريا ومطروحا كذلك بشكل مسبق . يستطيع الاحاطة بالجواهر والماهية في التاريخ » (٩) .

وهكذا فاذا كانت المسئلة الاساسية والتي لا خلاف عليها هي ان « الماضي » هو موضوع التاريخ . فان تحديدات عديدة تدخل على هذه المسئلة الاولى مقصرة من ذيولها الفضفاضة الواسعة: بعض هذه الحدود يتصل بالمدى الزماني لهذا الماضي ، وبعض يتصل بنوع المعرفة الممكنة له . وهذه وتلك على السواء تقتطع من ابعاد التاريخ في الزمان او تلفي من فعاليته الناجعة في ميدان الفكر ما يجعل مداه الحيوي محدودا من جهة، وقاصر الاداة الفكرية من جهة أخرى قصورا كبيرا .. انها تضعه في اطاره الحقيقي .

١ — فاما في **الزمان** فالتحديد الاول اوردته الكثيرون من الباحثين والمؤرخين ، فقد اضحى الان بديهيا ان التاريخ لا يعنى بكل الماضي ولا بآي ماض : انما ميدانه الماضي الانساني فقط . علوم كثيرة غير التاريخ ميدانها دراسة الماضي وليس الحاضر : الجيولوجيا ، الباليثولوجيا ، التاريخ الطبيعي ، الانثروبولوجيا ، الانتولوجيا كلها بدورها تدرس الماضي القديم وليست من التاريخ في شيء .. ماضي الكائنات الانسانية وحده يهم التاريخ . ونستطيع القول في صيغة اخرى انه لا تاريخ فيما وراء الانساني الى تاريخ قبل الانسان زمنا ، ذلك ما قبل التاريخ ، ولا تاريخ لغير الانسان موضوعا ، ذلكم التاريخ الطبيعي للنبات والحيوان والجماد . ولا تاريخ فيما وراء اهتمامات الانسان ، ذلكم هي الجيولوجيا والباليوتوجيا .. الخ . « الانسان هو الوحيد بين الكائنات الحية الذي يعي الزمن » كما يقول **دلتاي** ولهذا فهو الوحيد ذو التاريخ بيننا . وهو يصنع التاريخ، والتاريخ بدوره يصنعه في جدلية حياتية لا تنتهي.

والواقع انه ليس من تاريخ مضطرب ان يبدأ صفحاته بالحديث عن اصل الكون والوجود . او يعد تقصا فيه ان يفلل ظفرات انواع النبات والحيوان منذ ظهرت الحياة على هذا

الكوكب» (١٠). مدى التاريخ الحقيقي اقصر من ذلك بكثير جدا في الزمان واضيق في الموضوع . فماضي الارض في صخورها وطبقاتها وتكوينها السحيق في القدم لا يرد ابدا ضمن نطاق الاهتمام التاريخي : ذلك ميدان الجيولوجيا . وماضي الكائنات الحية من نبات وحيوان وتطور الانواع يدخل نطاقا آخر هو التاريخ الطبيعي . بل ان تينتشيه قد لاحظ منذ سنة ١٨٧٤ « ان حياة الحيوان ليست تاريخية. انها لا تعرف الامس ولا اليوم » هي يوم واحد مكرور ابدا . وليست فيه خيالات من الاحوال الماضية .

عنابة المؤرخ محصورة اذن في الانسان . في تجارب وافعال البشر فقط ولئن سجل بعض المؤرخين في القديم والحديث بعض الاحداث الطبيعية كالزلازل والقيح والخسوف وانفجارات فانما يأتي على ذكرها لما تؤثر في حياة الانسان ، لا لذاتها او لمكانها الخاص من التاريخ .

ولا يهتم التاريخ من جهة اخرى بماضي الانسان كله ، لا يهتم بالانسان كنوع ، تاريخه البيولوجي السابق للانسان الحالي تطارده علوم اخرى : احدها يعكف على الحفريات (الباليونتولوجيا) والاخر على التاريخ الطبيعي للانسان (الانثروبولوجيا) كما ان ماضي العربي يدخل في اطار علم ثالث (الانثولوجيا) يدرس العروق والاجناس في تكوينها وفروعها وتاريخ ذلك التكوين والتصالب العرقي .. فهذا تحديدان للتاريخ في الماضي الزمني .

ومن ناحية ثالثة فان التاريخ انما يبدأ مع بدء الانسان نفسه في كتابة هذا التاريخ. منذ اخذ يسجل ، بشكل او بآخر ، اى شيء عن ماضيه ، ابتكر معرفة جديدة ، تشترك في بناء الفكر الانساني وحضارة الانسان . من المصطلحات الشائعة اصطلاح « ما قبل التاريخ » تلك المنطقة الزمنية الممتدة ما بين ظهور الانسان الحالي والمجتمعات الانسانية وما بين بدء الكتابة هي ميدان خاص من المعرفة ، عنوانه نفسه يضعه خارج نطاق التاريخ . انا نتقرا باللمس والحفر والمخلفات ، وفي الرسوم والعظام وبقايا الادوات الحجرية ، ونقسمه عصورا وحقبا ، ولكنه ليس من التاريخ . التاريخ انما بدأ مع الكتابة ، فهذا تحديد ثالث .

على ان الانسان من ناحية رابعة ، حين كتب واريخ لم يكن واضح « الوعى التاريخي » ادراك كل من « الزمن » و « الحقيقة » كانا ابعد ما يكون عن قلعه الحديدي او الخشبي ، الف باء المعرفة التاريخية هي ان تسجل حقيقة او واقع التجربة الانسانية التي مرت في الزمان . ولكن التسجيلات الاولى (سواء منها ملحمة جلجامش الاكادية - البابلية او تخيلات المهرين القدماء ، او تصورات رج فيدا الهندية ، او افكار الكنعانيين - الفينيقيين التي نقلها العبريون ، كما تدل نصوص راس شعرا او غيرها ..) كانت من الضبابية والافئال في التخيل بحيث كانت اوسع واجرا الاساطير .. الفكر التاريخي انما ولد في الواقع من ضلع الفكر الاسطوري . طبعت الاسطورة الخطوات الاولى

(١٠) يعنى مؤرخينا الاسلاميين القدامى بدأوا تواريخهم العامة بذكر التكوين والوجود وخلق السماوات والارض والانسان كالطبري واليعقوبي والمسعودي وابن الاثير وابن كثير الذي (سمي تاريخه البداية والنهاية محاولا ان يتناول اول الضلوع ثم آخره قبل القيامة) كما ان بعض الفلاسفة المحدثين مثل (ويلز) وغيره في مختصراتهم التي قدموها لتاريخ الانسانية حاولوا ان يجعلوا كتاباتهم تبدأ بخلق الكون وتطوره الطبيعي ثم الانساني . ولكن مؤرخينا القدماء كانوا يصعدون من دغية دينية في البدء بتاريخ آدم وحواء (كالطبري وابن كثير) او نظرة فلسفية تراصفها (مثل اليعقوبي) او موسوعية (كالمسعودي) كما ان المحاولات الحديثة نابعة من موقف فلسفي فكري لا علاقه له بتاريخنا وانما يتصل بالرغبة في القضاء القسوة على الطبيعة البشرية ، من خلال تكوينها الاول .

كلها للتاريخ فمطالع التاريخ موصوله بأواخر عصور الاسطورة التي حاولت - وكانت وظيفتها الفكرية - الاجتماعية في الواقع - ترقيع النقص والنسيان في الماضي الانساني من جهة وأن تغدم من جهة اخرى « المحاولات الاولى لتبين الترتيب الزمني (للخلق) وللأشياء والاحداث اى ليجاد علم كوني وعلم انسب للالهة والناس .. ولكن هذا العلم الكوني وعلم النسب لا بدلان على تمييز تاريخي بالمعنى الصحيح ، لان الماضي والحاضر والمستقبل فيها مرتبطة معا وهي تكونن جميعا وحدة لا تمايز بين اجزائها ، وكلا لا انفصام بين مفرداته .. وليس للزمن الاسطوري مبنى محدد ، وانما هو زمن أزلي ، لأن الاسطورة ترى ان الماضي لم ينته بل ما يزال مستمرا (ايدا) .. » (١١) .

وهذا ينقطع الافكار التاريخية الاولى عن التاريخ لتدخل باب الميثولوجيا ، او باب علم الاديان ، او باب المورفولوجيا الاجتماعية لكنها على اى حال لا تدخل باب التاريخ الذي يتصل اساسا بظهور ما يمكن ان نسميه « بالوعى التاريخي » اى الوعى المزودج الزمن والحقيقة .. ومتاخرا جدا وصل الانسان الى هذا الوعى . وان كان قد صاد في العصر الحديث فرم ، بالاستناد الى الآثار والنقوش والبقايا ، بعض ذلك الماضي الذي غلفته الاسطورة ، ومبدأ معارفه التاريخية بعض الامتداد الى الوراء ، الا أن ذلك انما كان في بعض المناطق فقط ولدى بعض الشعوب .

وبقيت الكتابات حول مطالع المهور التاريخية الاولى متداخلة ، في كثير من الاحيان مع ميادين الوهم والاسطورة هنا وهناك .. وهذا في الزمن التاريخي هو التحديد الرابع .

ب - وأما في **امكان المعرفة للماضي** : فثمة ايضا حدود اخرى ليست أقل شأنا . ان الدعوى بان التاريخ يكشف ماضي الانسان - حتى منذ الفترة المحددة القريبة الى اليوم - ليس دعوى عريضة فقط ولكنها ايضا دعوى نظرية .. التاريخ الذي يحيط بالماضي الانساني كله ، لكل نواحيه وتفصيله ، هو تاريخ نظري ، لم يكتب قط وتكاد تؤمن انه في الاحوال الحاضرة للفكر وللوقى العلمية على الأقل - لن يكتب قط .

فالمعرفة في التاريخ ليست اولا معرفة مباشرة .. واى مؤرخ يجزؤ على القول ان معرفته بالماضي هي معرفة مباشرة ؟ الذين سجلوا ما سجدوه من الاحداث كانوا دوما « شهداء » لا مؤرخين . والمعرفة التاريخية هي دوما وبصورة اساسية : معرفة بالواسطة او هي تصور وجود من خلال معطيات لغوية وثائقية ، واذا نحن بجاوزنا الحاضر المتشوه قبل ان يتحول الى ماض - فانا لا نستطيع ابدأ الحديث عن « معرفة » مباشرة للماضي ضمن الشروط التجريبية والمنطقية . انما هنالك هناك فقط بالضرورة تصور ، من خلال شهادة الغير ، ومن خلال الوثيقة والاثار لما كان .. وينطبق التصور على الحقيقة بمقدار ما تنطبق اى شهادة على الواقع وما تعطي الوثيقة او الاثر من امكان الاستنتاج الصحيح . العالم بالنسبة للعلماء ظاهرة طبيعية صرفة ، مشهد مبسوط للملاحظة العقلية ، أما احداث التاريخ فانها سطور أو آثار ينظر المؤرخ من خلالها الى سعي آخر نسميه الماضي ، السطور والآثار هي المنظار السحري الذي يصبح المؤرخ بدونه اعمى يخط في الظلام .

(١١) ارنست كاسير - الدخلى الى فلسفة الحضارة الانسانية (الترجمة العربية - احسان عباس - بيروت ١٩٦١) ص ٢٩٥ .

والمعرفة التاريخية ليست ثانيا بالصحيحة. ان الماضي كان بالضرورة حركيا تطوريا. ومعرفتنا عنه هي بالضرورة سكونية تراكمية . هو حياة أخذت حدودها الكاملة في التنامي والتطور والهمود وهي ، معلومات كمية وصور مقطعة .. مجرد جثث . وشتان بين حى وميت !

ثم ان كل معرفة انما هي تاريخ . مجرد ظهورها كحادث يدخلها في نطاقه . وقصه تكاملها عملية تراكمية تسلكها ، بالرغم منها وبالرغم منه ، في عداد سطوره ويجعلها مؤثرة متأثرة به . الذين يدرسون الاسمنت المسلح يدرسون بالضرورة تاريخ تطوراتهم . والذين يتفنون بطابع البريد او « بمودة » التسعر او زراعة الارضين ، انما يعملون بالضرورة ايضا وايضا - من خلال تاريخ طويل . المجولون الذين ابتكروا دحرجة الانتقال على « العجلة » لبسوا أآقل نحولا للتاريخ من الذين وصلوا القمر . والذي كتب « البيان الشيوعي » ليس بأقل اثرا في حياة الناس ممن ابتكر شكل الهرم في البناء . كل لونية صغيرة من المعارف تضيف جديدا وهاما الى الحقيقة التاريخية ولا يقوم غيرها مقامها . ونقص اى جانب من هذه اللونيات ، نقص في الصورة الكلية ليس بالإمكان تلفيقه وترقيع ثفرته . فمن ذا الذى يستطيع ان يؤكد وانما من اننا المنما على الأقل - ان لم يكن أدركنا او عرفنا - بالعوالم الصغرى والكبرى في التاريخ ؟ باللونيات الظاهرة والخفية في نسج أحداثه ؟ بالنسب الحقيقية للأحداث بعضها الى بعض فيه ؟ ومن ذا الذى يستطيع ان يجزم ان قانون النسبية أقل أو أكثر قيمة في التاريخ من ابتكار الحرف ؟ أو ان ارسطو أكثر شأنا فيه من صانع أول حربة ؟

ونسأل السؤال الأهم ثالثا وأخيرا : هل معرفتنا بالماضي الانساني كاملة او شبه كاملة على الأقل ؟ وإذا لم تكن فما الذى بقي في أيدي التاريخ والمؤرخين بالفعل من الماضي لاهادة بنائه ؟ الواقع ان الماضي الذى يسقط في هاوية الأبد باستمرار والى غير رجعة لا يترك لنا في معظم الأحيان الا أطلال الملامح والآثار في الأيدي : أسطراً حول ما سترعى الانتباه صدفه او عن عمد ، انرا سلكم بالصدفة عن عوادي الزمن ، ثم ... لا شيء غير ذلك ! « ان قدرا فقط مما لوحظ في الماضي قد تذكره أولئك الذين لاحظوه وان جزءا فقط مما تذكر سجل ، وان جزءا فقط مما قد سجل حفظه التاريخ ، وان جزءا من ذلك الذى وصل يمكن تصديقه . وان جزءا من ذلك الذى يمكن تصديقه هو الذى حفظ وان جزءا من ذلك الذى حفظ يمكن ان يوسعه المؤرخ او يقصه ... ان تاريخ الماضي بأكمله (وهو ما يسمى بالتاريخ الواقع) لا يعرفه المؤرخ الا بواسطة السجل المحفوظ اى التاريخ المسجل . ومعظم التاريخ المحفوظ هو الجزء الباقى من الجزء المسجل من الجزء التذكر من الجزء الملاحظ من ذلك الكل .. وحتى حين يكون الماضي مأخوذا مباشرة من المخطوطات الأثرية او الانثروبولوجية فهذه هي فقط الأجزاء التي اختارها العالم من بين الأجزاء المكتشفة مما ساعد الحظ على بقاءه من مجموع الماضي كله .. » .

« وبالنسبة لما قد يدرسه المؤرخ من امر متعلق بموضوع خارجي فان التاريخ الذى انقضى ليس هو الذى حدث (التاريخ الواقع) وانما هو السجلات الباقية لما حدث (التاريخ المسجل) والتاريخ لا يمكن ان يروى الا من التاريخ المسجل المكتوب ، وهذا هو فقط الجزء الذى شرحه المؤرخون من الجزء المفهوم الذى أمكن تصديقه من الجزء الذى اكتشف من التاريخ المسجل .. وليس هناك ما يضمن ان ما تبقى هو اهم جزء وأكبره وأقيم وأفضله وأخلده » (١٢) .

(١٢) انظر غو تشالك - كيف نفهم التاريخ (الترجمة العربية - عائدة سليمان عارف ، بيروت ١٩٦٦) ص ٦٠ .

ومن زاوية أخرى من النظر نجد أن المعلومات التاريخية نفسها ليست متوفرة كلها وعلى الدوام وعلى مستوى واحد من الكثرة ، ومن الوضوح ، لا جغرافيا ولا زمنا ولا موضوعا . انها تتناقص طردا مع ابتعادنا عن منطقة جغرافية معينة ، ومع انقائها سرياً متزايداً في الماضي ، ومع انتقالنا من موضوع السياسة والملوك الى الاهتمامات الأخرى . فالمعلومات التاريخية عن أوروبا وحوض المتوسط ، في القديم ، هي أكثر بكثير من معلوماتنا عن الهند أو الصين ، وهذه وتلك على أي حال أكبر بكثير جدا من معارفنا عن إفريقيا ، أو أواسط آسيا التركية .. ثم إن ما نعرف عن القرن التاسع عشر هو بكل تأكيد أوسع بكثير جدا مما نعرف عن القرن الثالث أو الثاني الميلادى ، ولا يقاس غزارة بما نعرف عن القرن التاسع قبل الميلاد .. ثم إن أحداث السياسة خاصة ، والحروب وأخبار الملوك والطبقات العليا ، كانت دوما هي الطاغية وهي المسنثرة بأقلام المؤرخين ، بينما حشرت في العتمة أو النسبان المطلق أخبار الفن ، وجذور الأديان ، وفاعليات الاقتصاد ، وملامح الطبقات المسحوقة أو تطور اللغات أو تنامي الهندسة أو ابتكار النار .. فما لنا فيها سوى الرجم بالغيب والظن .

ولقد يأخذ عمل المؤرخين في لمس الماضي ، أحيانا ، شكل الأحكام التي تطلقها مجموعة العميان على الفيل الذى يجاهلون : يتلمس أحدهم أذنه فهو مروحة ، والثاني قدمه فهو عمود ، والثالث ذنبه فهو بعير ، والرابع خرطومفه فهو أنبوب ، والرابع بطنه فهو يرميل .. والفيل هو الفيل وقد افلت من كل الأحكام التي يطلقون !

وقد حسب بعض الباحثين أن بإمكانه الحرب من هذا النقص الحتمي والمتعادي في معرفة الماضي بجعل « الفكر » هدفا للتاريخ . هم فرع من المدرسة المثالية أولئك الباحثون من أمثال دلتاي ، وكولنجوود Diltthey, Collingwood ... التاريخ مثلاً لدى كولنجوود هو تاريخ التفكير . يبدأ المؤرخ بالأمر الطبيعي الصرف الذى هو الفعل أو الحدث التاريخي ولكن الهدف هو النفاذ إلى ما وراءه ، أى إلى الأفكار الكامنة خلف هذا الطبيعي « أو الحدث » . هو الانتقال من « خارج » الواقعة التاريخية إلى « داخلها » يقول : « بالنسبة للتاريخ فإن الموضوع الذى يكتشف ليس الواقعة الصرفة بل الفكر المعبر عنه فيها . واكتشاف هذا الفكر يعني فهم الواقعة .. » (١٢) .. على أن هرب المؤرخ من « نقص » الوقائع بالجوء إلى دنيا الأفكار لا ينقذ الواقع الأساسي ، وهو أن الماضي هو : أحداث وأفعال أولا ، وإن ما وصلنا منها هو أقل من القليل ، وليس ثمة ما يؤكد أن هذا الذى وصل يمثل « كل » الأفكار ولا « أحسن الأفكار » ولا « الأفكار » « الغالبة » أو « الائدة » .

وهكذا فإن ما نعرفه من حقائق التاريخ جزئى ومحدود على تفاوت الجزئية والمحدودية فيه ، وقد يكون بإمكاننا أن نعرف أشياء (أخرى) عن الماضي الإنساني لكننا لا نستطيع بالتأكيد معرفة كل شيء فيه ، بوسائل المعرفة التي نملك الآن على الأقل . ونمة استحالة نظرية أكيدة لكتابة ما يمكن أن نسميه (التاريخ الكلي) أى تاريخ الإنسان كله ، بكل تفاصيله وكل نواحيه ، وبجميع

(١٢) انظر وولش - من فلسفة التاريخ (الترجمة العربية - أحمد حمدي محمود - القاهرة ١٩٦٢) ص ٦٨

Collingwood, Idea of History p. 214.

وانظر

دخاله او بما نسميه (ما وراء التاريخ) وبجميع طبقات البشر فيه (او ما نسميه ما تحت التاريخ) . ان المؤرخين هم على اى حال استندواضعاً من ان يطمحوا الى مثل هذا المطلب المربع . انهم يرفضون ان يحملوه على كواهلهم كما يحمل اطلس الكرة الارضية ، ويفتخرون تعميق ونوسيع السور الغلل من المعرفة المتاحة .

ويتبدى عمل المؤرخ في وصف الماضى وكأنه عملية ترميم مسكينة ، وفي الفكر فقط ، لانساء اترى رائع الهندسة كثير التهاويل والصور ، ممتلىء الجوانب بالحياة من كل لون وفتح .. ولكن لم يبق منه سوى بعض الفتات الهامد !

واذا ما انتقلنا الآن من « موضوع » المؤرخ ومن أداة عمله التي هى اخبار الماضى الى عمله نفسه وجدنا انه يستند من جهة الى اسس فكرية ، بعضها من قبيل المسلمات المسبقة ، وبعض من قبيل المعطيات الاولية . كما يتبع في عمله من جهة اخرى مبكباته ومناهج فكرية معينة ، وهذه تلك تحتاج بدورها الى وقفة تحليل .

ثانياً : فاما المسلمات المسبقة والمعطيات الاولية في التاريخ متعددة . المؤرخون يؤمنون بها كبدليات في خلفياتهم الفكرية ، دون ان يهاوكتيرا بتفحصها او بالتعبير عنها في صفة او اخرى . وتذكر ان ناقشنا حتى الباحثون في فلسفة التاريخ .

من المسلمات :

— **وحدة الطبيعة البشرية** : التر يكونون في طبيعة تكوينهم « نوعاً » منسابها واحدا . وان قومياتهم واجناسهم لا ترسم بينهم من الفروق الا القليل . والاختلاف العرقي ، الثقافي ، البيئي (الجغرافي) والاجتماعي (وهي اختلافات بعيدها بعض النظريات الى الجذور الاقتصادية ، وبعضها الى العرق ، وبعضها الى الفكر) واختلاف المواقف النفسية والمادية ببقى دوما قابلة للادراك والكشف والفهم والتحليل ، وتطويق الاثر من قبل البشر اللاحقين . انها صدى لوحدة « الطبيعة » وخضوعها لقوانين واحدة هذه الفكرة في وحدة البشر .

— **تعقد الطبيعة البشرية** : فهذه الطبيعة المتشابهة بين البشر ليست بسيطة التكوين . تعقدتها الداخلي لا يوازيه الا تعقد التفاعلات التي تكون بينها وبين العوامل الاخرى المؤثرة فيها ، من ارض وجو وبشر آخرين ، وهي بدورها عوامل معقدة كل التعقيد ، ومن هذا وذلك كله ، من محصلة التجاذب والتصادم بين هذه القوى المشتبكة يكون التاريخ .

— ثبات السنن الطبيعية وتطور الظواهر الحية في وقت معا . جدلية الاصرار على ان في التكوين سننا لا بد بالغة غاياتها ، وان الكائنات الحية وبخاصة منها الانسان في تطور متما لا يقف ، وان ذلك الثبات وهذا التطور مترابطان معا ، متزاوجان في تسنن ومسيره جدلية يسير في هديرها واطارها معظم المؤرخين وان كانوا يتفاوتون في تحديد ذلك السر ، وفي وعى تلك الجدلية .

— ان اخبار الانسان اى تجاربه الماضية وافعاله وذكرياته جذرية بان بروى وتفهم ودرس . على هذه السلمة يقوم التاريخ . ان رفضنا هارفضنا الاساس والقاعدة الواسعة التي يقوم عليها هذا النوع من المعرفة الانسانية .. عيشنا تضخم المجلدات على الرفوف وتكاثرت ان لم يكن لها من معنى انساني محدد يدور الفكر من حوله في تحويم لا ينتهي ابدا .

— ان التاريخ ليس مجرد أحداث طافية على سطح الزمن كما يطفو قطع الاختساب المنفصل بعضها عن بعض على وجه النهر . ولكنه يستند كالعلوم الأخرى تماماً — الى فرضية مسبقة هي ان ثمة قوانين تدير هذا النظام من الأحداث على الشكل الذي يجري فيه لو كانت هذه الأحداث حرة من الترابط والاتصاف والتشابك الخلفي المحتوم بعضها مع بعض، لو كانت مظلة السير والاصطدام والفرف والركض لأخذ التاريخ وجهاً آخر . لعله الوجه الشيطاني ، وجه التفكك المدمر لكل شيء . ولو آمننا بانفراط عقد الأحداث بلا ترابط لها ، بلا انصافها العميق فان ذلك ينافض مع مسيرة الكون في الأمور الأخرى كلها التي نجد الترابط فيها صارماً واضحاً نهائياً وحسياً . وإذا كانت القوانين المبسطة او المعقدة تسيّر هذا النظام الكوني كله ، وكانت صحيحة الوجود بالنسبة لكل شيء في الكون والحياة ، فمن غير المنطقي ان لا نفترض ان الانسان بدوره خاضع لهذه القوانين نفسها ، او لقوانين مشابهة في أفعاله . . . إذن فهناك سنن تجري في اطارها الأحداث ، ولو انا نجهل تلك السنن . ولولا ذلك لم يكن للتاريخ معنى أو قيمة فكرية . ونستطيع ان نمشي بالتحديد خطوة أخرى ونقول : انه مادام الأمور والأحداث في الماضي قد جرت في هذا المنحى دون المناهى الأخرى ، وعلى هذا الاتجاه دون الانجاهات الأخرى الممكنة ، فلا بد إذن من سبب خاص لذلك ، ولا بد من علل معينة جعلتها تسلك هذا التطور دون التطورات الباقية . لا بد من منطقي سببها فيه لا في غيره . التاريخ انما هو حصيلة « الممكنات » التي تحققت ضمن ظروف وحدود معينة ، ما كان يمكن أن يحدث غيرها . ولعل غاية ما يحلم به المؤرخون ليس اكثر من كشف المنطق الذي يحكم ما « يحدث » . . .

ومن المعطيات الأولى :

— ان التاريخ فعل أولاً ثم كلمة . « حادث » يطفو من الأعماق الى سطح الحياة ، ثم تسجيل له قبل ان يفوس في هوية العدم الى الأبد . في البدء كان « الفعل » حسب منطق التاريخ لا كما جاء في سفر التكوين « في البدء كان الكلمة » . . . وهذا الفعل تلقائي يظهر من نفسه على شكل من الاشكال ، ولا يكون إلا مرة واحدة لا غير ، ثم لا يكون أبداً . ويبقى على المؤرخ ان يعرفه أولاً ، ثم ان ينسج كل التساك الخلفي التي سبقتها وأعقبه ، وان يرسم كافة الدوائر التي انداحت على السطح بسبب ظهوره وغيباه . والفعل التاريخي ليس من صنع العقل . أولئك الذين يتصورون ان العقل الانساني يصنع التاريخ مخطئون ، لأن هذا العقل نفسه ما هو الا من بعض صنع التاريخ . ولأن الوافعة التاريخية فعل فهي ليست معطاة لنا كما تعطى التجربة الفيزيائية نتائجها ، ولكنها قيد التكوين دوماً بالنسبة للمؤرخ ، المواد الأولى التي يبني منها عمله وعلمه هي دوماً مواد أولية تنتظر مكانها في البناء . اما البناء التاريخي نفسه ففعل آخر مختلف ، ويحتاج الى مخطط وفلسفة ومنطق استثنائي وجه طويل قبل ان يكمل .

— ان التاريخ علم « متزمن » هو الوحيد بين العلوم (١٤) الذي يفوم الزمن في قاعده . التاريخ ليس تبييناً سوى اضافته الزمن الى الحدث لتلاصيح اقصوصة او اسطورة . الحدث خلال الزمن هو الاسم البديل الممكن لكلمة تاريخ . دون زمن ، نمة كيمياء وبيولوجيا وسوسولوجيا وما شئت من عائلة « اللوجيا » ولكن ليس نمة تاريخ . انه يسير في فلك ذي ثلاثة حدود :

(١٤) باستثناء علم الموسيقى الذي يفوم بدوره على وحدات زمنية محدودة ومقاسة آتيا .

الانسان والمكان والزمان . تلك هي ثلابة التاريخ الرئيسية التي تدخل على موضوعه المتحولات الواسعة المدى . كافة العلوم لا يدخل الزمن في حسابها ، ولا يلعب بقوانينها الا عند حساب المتحولات . كلها تسير في الابعاد المكانية الثلاثة الا التاريخ فانه لا يعيش ولا يوجد دون البعد الرابع : الزمن . كلها تسير في اطار مقولتين : الواقع والمنطق اما التاريخ فيضيف اليهما ، مرغما المقولة الثالثة : الزمن التي تلعب بالمقولتين الآخرين . على ان الزمن التاريخي سلبي . وهو الزمن الذي انقضى ، وليس الايجابي الآتي الذي تعيش فيه باقي العلوم وتنطور . وعلى هذا الاساس فان كافة العلوم تنطور وتنمو في فمها الا التاريخ فانه ينطور وينمو في اواخره . وكل العلوم تطورها يأخذ شكل القفزات والتطور الكيفي الا التاريخ فانه ينمو بشكل متمدد رتيب يومي ، ويؤدي تراكم التطورات الكمية فيه الى السطور الكيفي ، والى القفزات التاريخية .

« لو جردنا التاريخ من عنصر الزمن الحسي لوحدنا ان مادته نفسها . اعنى التاريخ الخالص المؤلف من الوقائع فحسب ومن وقائع لا جدال فيها ، غير ذات معنى . الوقائع ليس لها في نفسها معنى . . » (١٥) انما يأتيها المعنى من الزمن الانساني الذي يتصل بها فيعطيه مكانها من ماضي الانسان .

والزمن التاريخي اشبه بتبار الشعور عند **برجسون** . هو دفق مستمر حي ، ديمومة متصله بالحركة ، الانسان وحده بين الكائنات هو الذي يعي الزمان والديمومة ، فلا الطبيعة تشعير بالزمان ولا الكائنات الحية الاخرى بالقادرة على تمييز آتات الزمان الثلاثة بين ماض وحاضر ومستقبل . **الديمومة** هي المقولة الاولى في الزمن التاريخي اما النائية فهي **التغير المستمر** . واذا كان كل كائن حي في تجدد دائم فالانسان هو الوحيد في الكائنات ، الذي يشعير بذلك التغير ويسجله ويعطي الحياة البشرية بذلك وحدتها ما بين الامس والغد . اما المسئلة الثالثة في الزمن التاريخي فهي **التنوع** ، تنوع الافعال وردود الافعال . الحياة الانسانية لا تتغير فقط ولكن تخصص باستمرار . تزداد غنى وتنوعا وتعقد وتركيبا بالتأثير والتأثير المرتد ، وتنامي المعرفة ، وتشعب الفكر والعمل . مجموع هذه المقولات الثلاث المميزة للزمن التاريخي هي ما يمكن ان نسميه بحس الماضي او الحس التاريخي ، فالانسان كائن تاريخي بقدر ما هو كائن عاقل او ناطق او كاتب او مفكر . . ولهذا فان حاضر دمشقون بالماضي بقدر ما هو مشحون بامكانات المستقبل . الماضي موجود فيه بالفعل بشكل فكر وانظمة وتراث وتقاليد ، والمستقبل موجود بالقوة بشكل امكانات تستعد للتحقق .

والتاريخ ، لانه صورة الانسان ليس مرتبطا بالزمن فحسب ولكن بمقولاته الثلاث ايضا من ديمومة وتغير وتنوع . وسير الانسان في الزمن يضيف اليه باستمرار جديدا في المسيرة . ان تاريخ البطل او الصالح او النخل او البقول لا يضيف اليها اي شيء . الوحيد بين الكائنات الذي يضيف اليه التاريخ « جديدا » هو الانسان . ومن هذا الجديد المستمر يتكون « التراث » الانساني الذي لا تملك جماهير الابل او السمك او جموع شجر التفاح وجذور البصل شيئا من مثله . . . اربط هل للطير من تراث ام لاطنان القمح ؟

— ان التاريخ على المستوى نفسه ، علم « متمكن » او مكاني ، ارتباطه بالمكان لا يقل عن ارتباطه بالزمان . ان احداثه انما تتم بالضرورة في مسرح هو « الارض » وفي مكان محدد منها ، وتنحكم معطيات ذلك المكان (الطبيعية والاقتصادية والبشرية والسياسية) في حدة واهمية وتوتر الحدث وتعطيه ابعاده التي تناسب معها . الجغرافيا هي احدى حقائق التاريخ واحدى مقولاته واحدى العوامل الكبرى المؤثرة فيه . بحكمته في ظهور المدن في مواقع محددة كما منعها الظهور في مواقع اخرى . وتحكمت في اتصالها وصدامها وتفاعلها في اقاليم اختارتها الجغرافيا ولم يخترها التاريخ ولا الانسان ... للدرجة التي كان فيها بعض من اعظم النظريات في تفسير التاريخ ذا اساس جغرافي .. ليست نظرية التحدى لوينيبي كذلك ؟ ليست النظرية المادية التاريخية ذات جذور اقتصادية في الانتاج وفي المجتمع ؟ بدون المكان الجغرافي يقف التاريخ في الفراغ . وليس من حدث يجري في فراغ .

— ان التاريخ حركة مستمرة وتغير دائم في احجامه والوان وآثار وتاثيرات الاحداث وفي اعمارها وعمقها وهذه الحركة ليس بذات وتيرة بسيطة . او مسار وحيد معروف ، ولكنها ذات الفراس والف ذبل والف مسار . والتاريخ في التعبير عن تلك الحركة انما يعتمد على اللفظ اللغوي . اللفظ ، بجانب كونه سكنيا ، ذو ابعاد محدودة في المدى التعبيري امتدادا وعمقا وانصالا .. نمة هوة واسعة وتفاوت كبير اذن بين الواقع والصورة . ولقد نكتشف الهوة ان نحن مشينا بعض الخطى وراء الحركة التاريخية وابعادها المتشبكة ومنطقها المعقد في العمل .

حركة التاريخ لا تسير اتفاقا في الكون ، ولكن لها دون شك فلكها المحدد . وليس هذا الفلك على شكل خط مستقيم ممدود بين الازل والابد ، ولا شكل دائري مغلق ، ولقد يكون على شكل لولبي ، ولكن فيه آلاف المسارات معا ، وفيه آلاف الخطوط المتشابكة المتدفقة تدفق النهر والسييل . وفيه الكثير جدا من التشعب والتراجع والاضطراب والتحول ، ومن البطء والسرعة في وتيرة السير . لا يحضن كل اولئك الا الزمن ، والا الارض كمكان (حتى الآن على الاقل) . وكما تمشي الافلاك في فضاء لا نهائي كذلك يمشي التاريخ في فضاء من الامكان لا اوسع ولا ابعد .. ويمشي لمستقر له او لا مستقر له ... (١٦) .. المسيرة التي يمكن ان نسميها بالمصير .

وفي هذه المسيرة المتعددة الخطوط والاتجاهات والاعمق تتفاعل الوان العوامل في صياغة الاحداث ، فللمسيرة مكانها ودورها ، ولجذلية التناقضات مكانها الآخر ، وللعناصر المادية اتانها ، كما للمثالية والميتافيزيك . وللتحدى دوره كما للهايات النفسية او للخبر او للاسطورة ادوارها الفاعلة . نمة تيه واسع من العناصر المتفاعلة التي تلعب كلها معا ، في رحاب القوانين القديمة التي تحكم حركتها الحركية لتنتج ! اخطر محصول انتجته كيمياء العقل « فقط ، كما قال فاليري (١٧) ولكن بكل تأكيد اعقد مادة انتجتها تلك الكيمياء وهي : احداث التاريخ .

وفي منتهى نفاذ الفكر واشراقه الشفاف على الماضي بكل عناصره وتعقده باخذ التاريخ في نظرية الالاعاب هذه ، التي نعرض لها عابرين ، شكل نسيج هائل التعقيد من العوامل التي تلعب

(١٦) في الآية القرآنية الكريمة : « والشمس تجري لمستقر لها » . وفي قراءة ثانية « ... لا مستقر لها » .

(١٧) انظر : Valéry, P. : Regards sur le monde actuel (Ed. stock, 1931, P. 63).

— وليس بمة كلمة أخرى يمكن أن تكون أحسن وصفا لحركتها الحرة المقيدة من كلمة لعب — بعضها مع بعض ضمن قوانين بالغة الصرامة ولكنها في الوقت نفسه بالغة الحرية لعب الكروموزومات في نواة الخلية الحسية (أو الالكترونات حول نواة الذرة) وبهذا الشكل يصبح الكون والحياة مشحونين بعدد لا ينتهي من الأحداث الممكنة التي يتجدد إمكانها في كل لحظة والتي قد تقع كل لحظة ولكنها لا تتحول لسبب أو لآخر إلى واقع أي إلى حادث تاريخي إلا في بعضها فقط . والحادث التاريخي الذي يظهر نتيجة لذلك اللعب ليس أكثر من « مكان » واحد من ملايين الامكانات التي كانت قابلة للوقوع وأجهد إمكانها فلم تقع .. كما أنها في الوقت نفسه نتيجة تفاعل عدد من العوامل الحية الخبيثة التي لا يكاد يظهر منها للباحثين — مهما دفعوا البحث والتدقيق قدما وسرياً — إلا بمقدار ما تظهر الجملديات الطافية فوق سطح الماء من كتلتها الكبرى الغاطسة تحت السطح الأزرق .

وإذا كان التاريخ لا يسجل من « الأحداث » الإنسانية التي تقع بالفعل إلا النزر اليسير اليسير ، فإنه في الوقت نفسه إنما يسجله من الخارج وبالتصوير الوصفي القوي ... وذلك النزر وهذا الوصف هما أقصى ما يملك المؤرخ من عدة علمه .. وهما وحدهما معطياته الأولى ، ونقطة انطلاقه دون كل الخلفيات السابقة .

ثالثاً : ميكانيكية العملية التاريخية :

وعملية التاريخ هي في الأصل ممارسة فكرية عفوية لحد كبير ، ولم ينخل عنها البشر منذ عرفوها أول مرة . ولعلها كانت موجودة فيهم بشكل شفهي قبل أن تقيدها أنواع النسخ والتكاتب من جيل إلى جيل ، أنها عملية مستمرة لم تهدأ منذ وجدت أول مرة ، وليس الذين يقومون بها هم المؤرخون فقط ولكن بمة جمهوراً واسعاً جداً من « الهواة » يعمل عليها (أصحاب المذكرات . الباحثون الاجتماعيون والسياسيون . الأدباء .. الخ) بل إن الناس جميعاً يؤرخون — ولو بإحاديث في الهواء — ولا يدرون تماماً أنهم يؤرخون ... مثل جوردان في ملهاته **موليسير** (البورجوازي المتمدن) الذي كان يقول الشرط طول عمره ولا يدري ! .. الخطوة البدائية في التاريخ مرض واسع الانتشار هو نوع من الأدب أو حديث السَّمَر . ما أكثر المتطوعين فيه ! .. ولكن هذا التاريخ العفوي ، رغم أنه بشكل جانبا من مادة التاريخ ، ليس هو التاريخ الذي نفصده والذي يقوم على عملية فكرية هدفها الملمة الماضي ، ومعرفته وإعادة تكوينه وتحليله على أساس منهجي .

وميكانيكية هذه العملية يمكن أن نلاحظ فيها عدة ملامح :

١ — « .. أي محاولة للنظر إلى التاريخ كشيء يماثل في بساطته للأدراك الحسي يجب أن تكون خاطئة .. » (١٨) .

إن بساطتها على أساس سلسلي تكتشف في صلبها أربع مراحل منعقدة من التاريخ بأخذ مخططاتها الهيكلية الشكل المبسط التالي :

الحادث التاريخي ————— شهادة (على شكل رواية أو وثيقة أو أثر) ————— تصور وجود سابق (على شكل استعادة فكرية متصورة للماضي) ————— معرفة لاحقة (تنظيم فكري

منخل للماضي في إطار المفولة) « تاريخ مكتوب (من خلال قدرة المؤرخ الذاتية على التعبير) . . . فكأنما يصنع التاريخ تم يصنع أربع مرات على الأقل ما بين حده الأول الذي هو « الحدث » او الواقعة التاريخية وما بين شكله الأخير الذي هو التاريخ . وما من احد بالطبع يستطيع ان يؤكد ان « الحقيقة » التاريخية قد حافظت على صفاتها وذاتها عبر هذه المراحل .

ب - ماذا ما نظريا الى العمله من زاوية « النوعية » وجدنا انها في جوهرها انما هي نقلة في طبيعة المعرفة التاريخية ذاتها من مرحلة الادراكات البسيطة الى مستوى « الفقه » الواسي للواقعة والاستيعاب العلمي ، من الوصف التاريخي البسيط والاشارات الى التحليل والاستنتاج والتركيب ، من المشاهدة العادة السلبية الى حدود العقولة والمنطق التنظيمي . وهنا ايضا لسنا ندري بالضبط نصيب الواقع ونصيب الاضافة الفكرية الى الحادث التاريخي اناء هذه النقطة !

ج - ثم ان المؤرخ من حيث فلك العملية التاريخية لا ينطلق من الحدث التاريخي وانما ينطلق من الحاضر ، نعتي مما يعرف الحاضر عن الحدث . وبمنظار الحاضر وعدته يسير ليعود في النهاية الى الحاضر ايضا . خط حركته يسير من الحاضر الى الحاضر ، كل بحث تاريخي فانما هو رحلة الى الماضي تنتهي بنقطة الانطلاق نفسها . وينطلق المؤرخ بعده من نص تاريخي او وثيقة او اثر ليعود من مغارة الماضي السحرية الملى الغرائب والمجهول بكشف جديد يضبطه الى المعرفة المتوفرة في الحاضر . وهكذا يبدو عمل التاريخ نوعا من اعمال الريادة والاكتشاف المستمر لسمات زمنية جديدة فيها كل ما في اعمال الارتداد من معنى الرعب وتلمس الطريق والمفاجأة والضلال . . والوقوع احيانا على كنز او في كمين لصيد الوحش !

د - والعملية التاريخية ، الى هذا او ذاك من حيث اتجاه الفكر ، عملية استحضار تراجعية ، فيها الكثير من الكشف : **فريدريك شليجل** يطلق على المؤرخ العظيم اسم « النبي الاسترجاعي » لان عمله نبوءة الماضي . نحن نتمثل التاريخ في رحلة تصورية ذهنية تجرى بعكس الزمن . العلوم كلها - عدا ما يتصل منها بماضي الارض وجدور الانسان - متجهة دوما من الحاضر الى القدر . تفتش عن القانون والتنبؤ لأن القدر نبؤ ، اما التاريخ فهو متجه بالعكس من الحاضر الى الماضي يفتش عن النور والكشف لأن الماضي يحتاج الى النور والكشف . ومن الكليات المضللة ما قد يقال من انه « لا جديد تحت الشمس » فمئذ زمن طويل عرفنا ان في كل لحظة جديد يولد وقديما يموت ، في ملحمة تجديد لا نهائية الفعالية والحدود .

« وان ما يحدث في الزمن ز . ب ١ مختلف عما حدث في الزمن ز . الحدث لا يتكرر لان الزمن لا يرجع القهقري . . والزمان (التاريخي) سلسلة من الاحداث » كما يقول **ميهل** (١٩) . . واذا كان ليس نمة بيئة طبيعية حول المؤرخ كالتى كانت في أمس الغابر وليس نمة من انسان من ذلك الماضي لانه في الوقت الذى صنع فيه التاريخ صنعته التاريخ بدوره وغیره من طبيعته ، وليس نمة من زمن طبيعي مع تطور الحياة في دورانها الرهيب الحديث ومع تعدد الازمان بين زمن فلكي ميكانيكي وفيزيولوجي وتاريخي ونفسي . . اذا كان كل اولئك فان عملية الاستحضار التراجعية التي نسميها التاريخ معرضة للكثير من المجازفة والتهيه . . انها بشكل

من اشكال التشبيه عملية تنقيب انرى تأخذ شكل الحزبون المخروطي في الاتجاه نحو الماضي المطور بالانتقاض . وميدان الحفر ووسائله في هذا المجال ليست مادية ولكنها فكرية . وتجرى عمليات السبر والحفر والكشف وجميع الفئات والبقايا والملاحع لاعادة تكوين الحقائق الضائعة التي يريد مجموعها ان يقول : هذا هو الانسان في بقعة كذا زمن كذا ، طبقة كذا . . . وقد تكون العملية حتى هذا الحد المادى صحيحة ممكنة ولكن اركانها تضطرب متى وصلت ميادين الفكر والتطورات الاجتماعية وحدود الفن والاقتصاد واللامادة . وتصبح عملية التنقيب ، في كثير من الاحيان - ويسبب ندرة الوثائق مجرد مفامرة تأملية - او شطحة من التصور الذاتي - ولكن في الفراغ !!

وليست عملية الاستحضار المذكورة هذه مع ذلك عملية بسيطة ، ليست حركة ذهنية في اتجاه واحد وتحقق مرة واحدة ولكنها اشبه بعملية « المكوك » في النول لا يتم النسج الا بحركتها الجدلية الدائبة التي لا تقف بين حدى القماش : الحاضر والماضي . وقد اشار (مارو) الى ديناميكية الفكر هذه (التي تجرى ايضا في غير مجال التاريخ) بقوله : « . . ان المؤرخ يبدأ بأن يطرح سؤالا م يكون ملغا من الوثائق المختصة به يؤدى التحليل المبدئي الى اعطاء كل منها درجة ما يمكن ان تحويه من امور قابلة للتصديق . انهامع ذلك صورة اولية جدا : فالتقدم بالمعرفة (التاريخية) يتحقق بهذه الحركة الجدلية الدائرية ، او بالاحرى الطولية التي يمر فيها عقل المؤرخ بالتتابع والتبادل من موضوع بحثه الى الوثيقة التي تشكل الاداة فيها ثم بالعكس . . . والسؤال الذى اتار الحركة لا يظل هو نفسه لانه لا يكف عن التغير ازاء معطيات الوثيقة . . » (٢٠) . ويتعلق تغير السؤال في الاتجاه الصحيح ، ومدى صحة الاجوبة المستخلصة عليه بقدرات المؤرخ الفكرية والثقافية ، وبكفاية الوثائق تحت يده . . . وكثيرا ما يضطرب احد هذه الحدود ، او ندر الوثائق فتكون الحقائق التاريخية المستخلصة بنت وجهة نظر شوهاء ، اشبه بالصورة في مرآة سيئة الزجاج او طولانية التقعر .

هـ - ولا يعني هذا ان التأمل الشخصي ليس من عملية التاريخ . انه يقوم في اساسها . ان ميدانها الرحب ليس الطبيعة كما في العلوم الباقية ولكن في الفكر وما وراء الجبين . لكن التأمل لا يجرى في غيبات الميتافيزيك او نزوات الخيال . ان عمله لدى المؤرخ يقتصر على ادراك المعلومات من جهة ، والخروج بها نفسها من دائرة الوعي الى دائرة التحليل والبناء والتعبير . هو تأمل يخرج من الواقع ليعود اليه . متى فقد الارتباط به استطاع ان يكون كل شيء الا ان يكون تاريخا . ويدخل في نجاح هذه العملية ، وفي فشلها في وقت معا ، اختيار المؤرخ للمعلومات والوثائق والاشارة الاولى ، وتقييمها وتفصيل بعضها على بعض من جهة كما يدخل في ذلك بشكل طردى موهبة المؤرخ الفكرية واستعداده العقلي من جهة وثقافته الشخصية ومدى ابعادها من جهة اخرى . وهذا ما دعا باحثا مثل مارو Marrou لأن يضع هذه العلاقة بين التاريخ

$$(ت) \text{ والماضي (م) والحاضر (ح) بشكل رياضي مبسط : } ت = \frac{ح}{ح}$$

ويقول : « . . انني اريد بكل بساطة عن طريق هذه الصورة ان اوضح واقعة هي انه كما ان كبر العلاقة في الرياضيات هي شيء آخر مختلف عن كل حد من الحدود فيها فكذلك

الامر في التاريخ . أنه العلاقة والانصال اللذان يقومان بمبادرة من المؤرخ بين مستويين للانسانية : الماضي المرمي بواسطة الناس القدماء ، والحاضر الذي يبذل فيه الجهد لاستعادة ذلك الماضي ، وذلك لمصلحة الانسان ، والبشر الآتي .. » (٢١) .

و - والتاريخ اخيرا من حيث الاداة عملية وصف عقلى لا سرد وقائع ولا إعادة حياة . هو نظرة في الفكر من كلام سكوني الى كلام سكوني (والأثر الأخرس نوع من الكلام والشهادة الحكما) للتعبير عن حدود حياتية حركية . وما يقال عن « إعادة الماضي » و « ذكر ما حدث بكل دقة » و « تمثيل الحياة البشرية كما كانت » وما اليها من تعاريف العلماء للتاريخ ليس أكثر من مطامح النمل في بناء قبة فلك ... ان التاريخ انما يعتمد في الواقع في كمال الصورة وصحتها على قدرة الكلمات وعلى مدى ابحاثها بالصور . والكلمات ليست بالنسبة الى الواقع الحي أكثر من وسائل سكونية محدودة المدى والامكان ، ان الماضي كحياة يتجاوز طوق كل مؤرخ . وقصارى ما يستطيعه انما هو الوصف التصوري في حدود ما قد يكون وصل بالصدفة الى علمه وبده ...

اما اليقين فلا يقين وانما اقصى اجتهادى ان اظن واحدسا

على حد قول المعرى القديم .. وينتهي التاريخ باعادة تكوين الماضي بشكل منطقي ولكن في اطار ادبي . واذا كان بعض المؤرخين ينتهي بالاجابة على « كيف ؟ » وكان لدى الكثيرين الطموح للاجابة على الـ « لماذا ؟ » فليس بمؤرخ ذلك الذى يكتفي برصف جداول السنين والوقائع . وقوائم الاسماء والوفيات ! تلك الهياكل العظمية للأحداث التاريخية ما من مؤرخ يعتبرها اليوم تاريخا لأن « الادب التاريخي » هو لحم التاريخ ودمه وان كانت ثمة مسافة من البعد أو هوة سحيقة غير قابلة للاجتياز - حتى الآن على الأقل - ما بين هذا الشكل الادبي وبين الماضي الحي .. يضاف الى هذا ان التاريخ يخضع اثناء النقلة من لفظ الى لفظ لما تخضع له الاستخدمات القوية والتقنية والمنطقية من تحول عند إعادة البناء ومن غموض يعرضان الصورة الاصلية لالوان الإبهام والتفكير ...

كان التحليل السابق كله منصبا على نوع التفكير التاريخي وطبيعته المخالفة لطبيعة المعارف الاخرى ، وكان رغم طوله ، ورغم طابعه النقدي التحليلي ضروريا لنستطيع الاجابة على السؤال الاساسي الذى طرحناه في مطلع البحث : هل التاريخ علم ؟ وهل من الممكن وجود علم تاريخي ؟ واين ينتهي حدود هذا الامكان ؟ لقد حمل التحليل السابق في الواقع نصف الجواب ، اما النصف الثاني فبحث عنه في المقارنة بين العلم والتاريخ .

رابعا : بين العلم والتاريخ :

يقول المؤرخ بيوري ، وهو آخر سلسلة المؤرخين « العلميين » الذين انتجهم القرن التاسع عشر ، قرن التاريخ : « التاريخ علم لا اكر ولا اقل » وقد كرر هذا التأكيد قبل بيوري وبعده جميع اولئك المؤرخين الذين اصروا امام انتصارات العلوم الطبيعية وفوزها بتسليم الجميع وبقيادة الرفاء الانساني ، على الصاق التاريخ بالعلم الطبيعي ووضع عنوان « العلم » على بابهم بالمسامير . كانوا يريدون من خلال التأكيد المتكرر على عملية التاريخ نفي تلك الريب التي تلاحقهم حول قيمة

« التاريخ » العلمية . . لم يكن السؤال - المشكلة موجودة قبل القرن الماضي . اربعون قرنا ظل التاريخ قبل ذلك ، اما سجلا لاعمال الملوك او فنا من فنون الادب يروى القصص للتسلية او للاعتبار الخلقي او ملحقا بالمعارف الدينية اقصى همه البرهان على قدرة الخالق الباري .

وحين اعلن رانكه الالماني سنة ١٨٢٤ كلمته التي اشتهرت فيما بعد من ان التاريخ هو « تصوير ما حدث بالضبط » . . ثم اعلن ميشليه الفرنسي انه « بين بوصوح وبساطه كيف انبثقت الاشياء » . . اعتبر المؤرخون انهم ظفروا اخرا بمنتهى الموضوعية التي يطلبها العلم . وان رانكه انما اعلن ميلاد « التاريخ العلمي » ولم يبق عليهم الا تحديد الطريق الذي يصلون به الى « ما حدث بالضبط » اذن فهي العملية التامة والموضوعية الكاملة . . لم يتنبه احد منهم الى ان كلمة « ما حدث بالضبط » هي المشكلة ، ومع انهم ما يزالون الى اليوم يبدؤون تعريف التاريخ بعبارة « التاريخ علم . . الا انهم منذ زمن طويل قد كفوا ، في الواقع ، عن طموحهم الرانكاوي (نسبة الى رانكه) واصبحوا اكثر تواضعا بكثير مما كان . المؤرخ هنري ت . باكل H. T. Buckle - قرب الهدف قليلا حين قال في مقدمة كتابه تاريخ الحضارة في انكلترا ، بعد ان انتقد اخفاقي المؤرخين وعجزهم عن السمو فوق الحقائق الجزئية وعن استنباط القواعد العامة ، انه يامل « ان يحقق لتاريخ الانسان شيئا يساوي او تقابل . . (ما حققه) الباحثون الآخرون في مختلف فروع العلم الطبيعي » (٢١) م .

تم لما فقت نظرية التطور ، مع داروين ، الى مركز الاهتمام الفكري ، جاء كارل لامبرخت الالماني في اواخر القرن الماضي بقتراح ان يحل محل كلمة « رانكه » شعار آخر هو ان عمل المؤرخ ان يعرف « كيف تطورت الامور بالضبط » . وظهر اثر ذلك اصطلاح « التاريخ التطوري » في محاولة للحلول محل التاريخ العلمي .

وظن فوستيل دي كولانج انه عثر على مفتاح اللفظ العلمي في التاريخ حين اكتشف ان في التاريخ وثائق ونصوصا اثرية وسجلات ووثائق يمكن ان تكون منطلق البحث التاريخي وهكذا كان يردد دوما على تلاميذه سؤاله الشهير : « هل لديكم نص ؟ » معتبرا انه « لا تاريخ بدون نصوص » لانه - كما قال - « علم لا يتخيل بل يرى . وهو نظير كل علم . ينظر الى الاحداث ويحللها ويقارن بينها ويحقق الروابط القائمة بينها . والمؤرخ يبحث عن الحدث ويدركه . بدراسة النصوص بامعان ودقة . والطريقة واحدة في كل علم مؤسس على الملاحظة الدقيقة . . » (٢٢) . وبلغ هذا الاتجاه الوثائقي اوجه على يد لانجلوا Langlois وسينيويوس Seignobos اللذين اعتبرا ان « التاريخ انما يصنع من النصوص » واصرا في كتابهما الذي اشتهر في اواخر القرن الماضي (المدخل الى الدراسات التاريخية) بأن « التاريخ هو علم دراسة الوثائق واستعمالها » (٢٣) . ومنتهى طموح المؤرخ ان يتناول الوثيقة . « فيبحث في كيفية صياغتها وفي مصدرها لاعادتها الى اصلها وهذا ينطبق على الخط واللغة والشكل والمصادر وهذه كلها اعمال « النقد الخارجي » اما النقد الداخلي فيدور على التعليل والقياس التشبيهي المبنيين على اساس نفسياني يصور لنا نفسية

(مكرر ٢١) انظر باكل
— His of Civ in England (Oxf. Univ. Press, London, New York 1903-1904) Vol. I, p. 3-4.

(٢٢) انظر جوزيف هورس - قيمة التاريخ ص ١٥٦ الذي نقلنا عنه النص .

(٢٣) انظر
Langlois et seignobos : Intr., aux Et. His. p. 1 et 275

كاتب الوثيقة وما عني من قوله . وهل هو مقتنع بما كتب وهل هو محق في اعتقاده .. » (٢٤) وينتهي المؤلفان كتابهما بتأكيدات قاطعة تقول : « ... ان الشكل العلمي للعرض التاريخي يكون وببت منذ خمسين سنة وهو يتفق مع الفكرة العامة التي نضع للتاريخ هدفا واحدا هو المعرفة لا المتعة ولا وصف العلاجات ولا اسارة العواطف ... » .

ونقول : « .. وسياتي يوم نجلى فيه جميع الوثائق القديمة وترتب بفضل تنظيم العمل وتثبت الحوادث التي لم يعرف ارضا . عندئذ يتكون التاريخ ولكنه لن يكون مع ذلك راسخا اساسيا موطن الاركان اذ ان ذلك يستلزم توحيد الابحاث التركيبية الافرازية على يد خبراء يقيمون منها عملا اثباتيا شاملا . فاذا خلصت من هذا العمل بنتائج واضحة وحجج دامغة ففسر تطور المجتمعات الانسانية وتبين مراحل تاريخها كان ذلك فلسفة للتاريخ قائمة على قواعد علمية .. » (٢٥) .

واذا سجل كتاب **لانجلوا وسينيوبوس** اوج الخط العلمي التاريخي في المدرسة الفرنسية فقد ظهر كتاب من مثله يسجل اوج « العلمية » التاريخية لدى الالمان حين اصدر **ارنست برنهام** كتابه : « تعلم المنهج التاريخي والفلسفة التاريخية » (٢٦) . ولحقته بالكتابين من بعدهما كتب مماثلة في انكلترا وامريكا منها كتب **جونسون ونيفينز** Nevins وغيرها .

على انه لم يكد ينتهي العقدان الاولان من هذا القرن الحالي حتى اهتزت هذه الثقة المطلقة وبدأت الفلسفة النقدية حين بدأ يتكشف للباحثين مدى السذاجة الكبيرة وبساطة الفكر في هذه الدوغماتية العلمية التي كانت تلهب هوس الباحثين في القرن الماضي . عدد من مفكرى المابا خاصة وفرنسا وانكلترا فيما بين الحربين تقبوا هذا النسيج الرقيق الذي نسجه اولئك المفكرون السابقون وكتشفوا تهافتة الساذج . ابحاث **سيميل** Siemmel و**لهلم دلتاي** Dilthey ، **فييفر** Febvre و**كولنجوود** Collingwood ، **آرون** Aron ، **ريتشي** Ricci و**كروتشيه** Croce خلقت في موقف التاريخ « العلمى » نوعا من الازمة وفضحت الثغرات هنا وهناك فيه ، لا في محاولة لهدم علميته في الفسالب ، لكن لتحديد مداها وحدودها على الاقل . اضحى التأكيد على علمية التاريخ ، على اساس الشعارات العلنة في القرن الماضي كقطعة النقود البالية ، يهزها التداول بعد ما تحاول الابدى في الوقت نفسه ان تنخلص منها . ان العلوم الاجتماعية والتاريخ واحد منها ، لا يبدو الى الآن انها وجدت « جاليلها » او « نيوتنها » الذي يكشف لها الفتحاح الذي كشفه غاليلو ونيوتن للعلوم الطبيعية . واذا صادفت بعض المناهج العلمية بعض النجاح في بعض العلوم الانسانية تعلم النفس متلاوا بعض العلوم الاجتماعية النظرية كالاقتصاد ، فان الفشل كان الطابع العام لتلك المحاولة التي حاول بها العلماء غزو العلوم الاجتماعية والتاريخ في اولها ، بالآلات ووسائل العلوم الطبيعية . وكان الفشل من القسوة والتكرار بحيث عادوا مضطرين ، الى التساؤل عما اذا كان من الصحيح قياس الانسان بمقاييس الطبيعة نفسها او اصطناع وسائل العلم الطبيعي

(٢٤) اخذ النص عن جوزيف هورس - قيمة التاريخ ص ٦٠ .

Langlois et seignobos .

(٢٥) انظر

— Introduction aux études historiques pp. 263 et 277

(٢٦) ظهرت الطبعة الاولى من كتاب Ernest Bernheim في ليزرغ سنة ١٨٨٩ .

في ميدان العلوم الانسانية . على ان المشكلة المركزية في الحوار وهي « علمية التاريخ » بقيت معلقة بين جميع اطراف الحوار . والجدل من حولها بقى قائما لا ينقطع ما بين مؤيد ورافض ويبحث عن طريق جديد .

ليس بالامكان اليوم رفض علمية التاريخ عن طريق اتهامه بالفيبية وبملاحقة آفاق الميتافيزيك الرتبكية . منذ زمن طويل ودع التاريخ هذا الطموح « الفراغي » . وكما استبعد العلماء الاسباب الملية الاولى ، او النهائية للوجود والاحداث . ليتوقفوا عند الطبيعة ذاتها والمحسوس المقاس من احداثها ويقيموا « العلم » الخالص كذلك فعل التاريخ . كان هذا العبء الضبابي اول ما لاقاه عن كنفه من الانتقال والمهام . اضحى كشف اسباب الوجود والعلل الاولى ، وميتافيزيك الحياة ، من خلال احداث التاريخ واستخلاص قاعدة حياتية يمكن فرضها ، فوقيا او غيبيا على المجتمعات والافراد ، خارج نطاق التاريخ . كان ذلك على الاقل لان المقدمات المنطقية والاساسية لمثل هذه الشطحات غير كاملة فيه . انه لا يملك منها الا العرض المتحول . اما الجوهر والثابت فلا . اقصى الازل وابعد الابد اصبحا اليوم وراء حدود الطموح التاريخي باتفاق المؤرخين ، يقول دلتاي : انها لخرافة تلك التي ترى في عمل المؤرخ سرا شبيها بسر الابحاث السيميائية التي كانت ترمي الى معرفة سر الكون في محاولة تحويل المعادن الى ذهب خالص . كيف للمؤرخ ان يستخرج من المادة الصماء والحوادث السامطة ذهب التجريد والسببية ويصل الى سر الحياة الانسانية ؟ « (٢٧) » .

ان آفاقا اخرى من الجدل العلمى بين الباحثين الى اليوم حول علمية المعرفة التاريخية . ولعل بالامكان ان نللم ذلك الحوار الواسع الممتد على مدى قرن ونصف القرن وان نضيق آفاقه ونضعه ضمن اطاره ان نحن حللنا عمل المؤرخ نفسه اولاف هذا العمل في واقعه يتألف من عملية او مرحلتين اثنتين ، تختلف احدهما من الاخرى اختلافا كبيرا في الطبيعة والهدف . ولعل القفز الفكرى بينهما هو الذى يوقع الكثيرين في الالتباس ويجعل من « الحوارية » حول علمية التاريخ حوار الطرشان :

المرحلة الاولى من عمل المؤرخ : تتناول تنظيم الوقائع وكشف تفاصيلها وتثبيت الحقائق المتصلة بها وبظروفها . وهو عمل « وصفي » ولكنه في الوقت نفسه عمل علمي دقيق ، وعن هذا العمل بالذات تتكلم سلسلة المؤرخين العلميين الممتدة ما بين رانكه الى سينيويوس . ولكن المؤرخ اذا اكتفى بهذه المرحلة فانه لا يعدو ان يكون آلة تسجيل كرونولوجي . وفي احسن الاحوال مصورا فوتوغرافيا سكوبيا للمادة الهامدة . ولا قيمة للتاريخ الذى يعطيه مثل هذا العمل الا من حيث كونه مادة اولية للمرحلة التالية .

المرحلة الثانية : وعملها تحليل الوقائع وتعليلها وبيان ترابطها السببي . وهذا العمل فكري تجريدي ، ولكنه في الوقت نفسه ليس بعلمي تماما ، لانه وان اشبه العلم في البحث عن السببية ، الا انه يعتمد على الاجتهاد الشخصي والاحكام الذاتية والتخمين ، لان الاحاطة بالاسباب تفوق الطرق .

والمرحلة الاولى رغم علميتها المتمثلة في دقة الارتباط بالواقع ليست بعمل علمي كامل لان اساس العلم كشف السببية والمقامة التسلسل الزمني لا يكفي لمعرفة السببية ، اما الثانية فان السببية التي تنكشف فيها لا تعدو ان تكون « فرضيات » وفقرات في المجهول لا تخضع لاي برهان حاسم سوى المنطق والإمكان .. ونستطيع القول ان الوظيفة العلمية الحقيقية في التاريخ تبدأ حيث تنتهي الوظيفة الوصفية ، وهذا يعني انها تبدأ حيث تنتهي التسلسلات الزمنية والوصف في المرحلة الاولى ويأتي التفسير والتعليل في الثانية .

وهكذا تبقى مشكلة « العلمية » او « الموضوعية » في التاريخ اذن متصلة بأمرين هما اليوم اساس « علمية » العلوم كلها :

الاول : ضرورة التطابق الكامل ما بين « حدود » التاريخ وصفاً وتسلسلاً ، وبين حدود الحقيقة أو الواقع ، بحيث تمر المعرفة التاريخية في غرابل المنهج العلمي ، وتكون نتيجة مباشرة له ، وبحيث تطرد « الذاتية » بمواصفها واهوائها خارج السطور .

الثاني : امكان وضع القانون التاريخي ، اى وضع علاقات الاحداث ضمن صيغة رياضية كلية تفسر الواقع التاريخي وتعلله سببياً وتسمح - بالنتيجة - بالتنبؤ وبأن نصبح - على حد قول ديكارت - « اساياداً ومالكين للطبيعة ... » وللمستقبل !

ان علمية التاريخ انما تنوس في الواقع ما بين هذين القطبين . واذا نحن استخدما الاصطلاحات المدرسية ، ولنا ان العلم هو المنهج وهو السير من الجزئي الى الكلي ، ومن الفردي الى العام ، ومن الشخصي الى الموضوعي ، ومن المحسوس الى المجرد ، والانهاء بكشف العلاقة السببية الكلية ضمن مبدأ الحتمية .. الخ . فالسؤال يتحول عند ذلك الى ان نعرف اين تقع عملية التاريخ المزدوجة الحد في هذا المنهج المتعارف عليه للمعرفة العلمية ؟ .

قبل ان نطلق في تلمس الجواب نقف عند راي يجعل نقص « العيار » العلمى في التاريخ من ذنوب المؤرخين . يجعل ضعف الموضوعية نتيجة للذاتية المؤرخ الباحث . المؤرخ « هالكين » حاول ان يلخص مشكلة التاريخ العلمية في تلك العلاقة الذاتية القائمة بين « الحدث » وبين « المؤرخ » قائلاً : « التاريخ لاسف غير منفصل عن المؤرخ » (٢٨) . وتابعه في ذلك الكثيرون ومنهم مثلاً « مارو » Marrou الذى قال « لو انا القيناعن الفلسفة النقدية للتاريخ مبالغاتها الجدلية وصيغها المتناقضة فانها تؤول في النهاية الى توضيح الدور الفعال الذى يقوم به المؤرخ في فكره وشخصيته في تكوين المعرفة التاريخية » (٢٩) . والواقع ان المشكلة انما هي في « طبيعة الموضوع التاريخي » وفي « نوعية المعرفة التاريخية » وليست في المؤرخ الذى يحتال لفزوها في مستقرها العميق ويصطنع اقصى ما يطبق هي نفسها من وسائل الاستكشاف ، لبيان الحقيقة فيها ولاصطياد العلاقة الثابتة الكلية . . بالقدر الذى تسمح هي نفسها ايضا بالكشف عنه :

نحن مضطرون بمبدئياً ان نقرر ، دون ظل من اسف أو غضب أو مرارة ، ان « نوعية » او « طبيعة » المعرفة التاريخية ليست مطابقة لنوعية وطبيعة المعرفة في العلوم لان « الحدث » التاريخي في

Marrou : De la connaissance His. p. 51. (٢٨)

Halkin, L. : Initiation à la critique historique (2 éd. Paris 1953) p. 860. (٢٩)

الأصل - وهو موضوع تلك المعرفة - ليس مشابهاً للحدث الفيزيائي أو الكيميائي المبسط ولا البيولوجي أيضاً ، أنه من التعقيد الخفي بحيث تصبح الحادثة الفيزيائية بعلاقتها الرياضية لعبة أطفال أمام تشابك القوانين في أي حدث تاريخي صغير . ما من شك في أن المؤرخ يلعب دوره الفعال العميق في إعطاء التاريخ طابعه الذاتي ، وما من شك في أن التاريخ غير منفصل (حتى الآن على الأقل) عنه ولكن المشكلة لا تبدأ عنده وإنما تبدأ على الطرف الآخر من المعرفة : طرف « الموضوع » الذي يسهل على كل فكر أن يدرك أنه - لاتصاله بالطبيعة والإنسان والحياة - فإنه أعقد بكثير وأوسع بكثير ، وفي كل الاتجاهات من أن تلملمه أو تحيط به الوسائل العادية المتداولة حتى اليوم للمعرفة العلمية . يقول سانتيانا وهو من هذه المدرسة نفسها التي تنحى باللائمة على المؤرخين : « المؤرخ المثالي يتناول قطعة واسعة من القماش وهو مستعد لرسم كل شيء عليها ولكنه وهو يرسم ينتحل كل شيء ويضمره إلى مقومات لوحته . وتنقل عينه البشعة المليئة بالأفاعي كل ما تنظر إليه ، ليس لأنه يختار أو يؤلف فذلك كسبب للعقل ، ولكن لأنه يعزو إلى لوحته التدريجية سحراً خلافاً وكأنه قد كشف العصب الحقيقي للحدث . غير أن العصب الحقيقي أو بالآخر الديناميكية الكاملة للحدث ليست هي على نطاق إنساني ، أنها ليست رائعة ولا يمكن إدراكها بالتخمين ، أو بالتكهن المثير ، أو بالعبارات الأخلاقية . إنها الحياة الخاملة المعقدة في الطبيعة ، تلك العقدة الكبرى لكل الأصول والمشتقات » (٢٠) . المشكلة الحقيقية إذن هي في تعقد الموضوع في جذوره وهوامله وفي بساطة (أو أحياناً سذاجة) الوسائل المصطنعة للوصول إلى الرؤية الواضحة فيه .

وإذا كانت الصفحات السابقة تحليلاً أو نوعاً من التحليل لطبيعة ونوعية المعرفة التاريخية البالغة التعقيد . فيبقى أن نتمم الصورة اذن بتحليل المنهج الذي يصطنعه المؤرخون في البحث التاريخي مقارناً بما اتفق العلماء على تسميته بالمنهج العلمي .

١ - الموضوعية العلمية في مرحلة جمع الوثائق :

لقد يكون من السهل بعض السهولة أو كلها السير بالمرحلة الأولى من عمل المؤرخ ، مرحلة الجمع الوثائقي على أسس دقيقة التزمّت للدرجة التي يمكن معها أن توصف بالعلمية . ولقد يكون من السهل أيضاً إعادة بناء بعض وقائع الماضي : بتزجيها الزمني وتفصيل الأحداث فيها بالاستناد إلى ما بقي منها بشكل شهادات وآثار . . الطريق في هذا السبيل ممدد . وعلى هذا النحو من الفهم للتاريخ بنى لانغولا وسينيوبوس ، بين البناة الآخرين ، مفهومهم لعملية التاريخ ورسوموا لها المنهج على الشكل التالي :

- بحث عن « الوثائق » لأن « التاريخ يصنع من الوثائق أي الآثار التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم » .

- ثم تأتي العمليات التحليلية للوثائق أي :

= النقد الخارجي لها : نقد التصحيح ونقد المصدر والترتيب النقدي للمراجع .

= والنقد الداخلي (الباطني) لها : نقد التفسير ، والنقد لأمانيها ودقتها ، وتحديد الوقائع الجزئية فيها .

— ثم تأتي العمليات التركيبية اى : تجميع الوقائع والبرهان البنائي فيها وتشبيد الصيغ العامة منها .. ثم العرض التاريخي الاخير (٢١) .

وتنامي « منهج البحث التاريخي » بعد ذلك وتوطد حتى اضحى من المعارف التقليدية الكلاسيكية التي تدرس لطلاب الجامعات المبتدئين بالتأريخ ... يعلمونهم (٢٢) :

— كيفية جمع الاصول والمراجع (وائاق ، مذكرات ، آثار ، نصوص تاريخيه .. الخ) .

— ثم نقد الاصول : نقد صحتها خوف الزيف والانتحال . ونقد شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه وتحري نصوص الاصول وتحديد العلاقة بينها .

— ثم النقد الداخلي (الباطني لها) نقدا ايجابيا بالتحليل . وتحديد معاني الالفاظ وفرض الكاتب وطرق كشف المعاني الخفية ونقدا سلبيا لثبوت من صدق المؤلف وعدالته وعدم وقوعه في الخطا او في الانخداع .. او في الكذب .

— ثم اثبات الحقائق التاريخية التي تتضح بعد ذلك ومقارنتها بالروايات الاخرى .

— ثم تنظيم تلك الحقائق قبل تركيبها على اساس الاجتهاد والتعليل والايضاح في صيغة تاريخية محددة .

ان مزالق الذاتية واللاموضوعية محدودة في هذه المرحلة الاولى التي تعتمد الاستقراء والتحليل والاستنتاج في مادة هامة . ولو ان التاريخ كان مجرد تنظيم الوثائق والنصوص والآمار وربط بعضها ببعض لأضحى التاريخ منذ زمن طويل مقبول العلمية والموضوعية دون كبير جهد او جدل .. لولا ما يثور من الريب حول صدق النصوص والشهادات الاولى ومدى الموضوعية فيها . هنا نقطة الريبة الاساسية في العملية . المشكلة ليست في منطق التاريخ ولكن في موضوعه ومادته . فاذا عرفنا الصدق التاريخي بانه المطابقة للحقائق *Adaequatio res et intellectus* فان هذا ليس حلا مقنعا للمشكلة لانه قضية دور لا حل . نعم ان التاريخ يجب ان يبدأ بالحقائق وهذه الحقائق ستكون غاية لا بداية فحسب ذلك هو الف باء المعرفة التاريخية ولا ينكر احد هذه الحقيقة . ولكن ما الحقيقة التاريخية ؟ كل صدق حقاقي يتضمن صدقا نظريا .. الحقيقة المادية والحقيقة التاريخية كلتاهما تعتبر جزءا من الواقع التجريبي والى كليتهما ننسب صدقا موضوعيا ولكننا حين نريد ان نعين طبيعة الصدق نسير في طريقتين مختلفتين . اما الحقيقة المادية فمبنها بالمشاهدة والتجربة . وهذه العملية من الاخراج الى حيز الموضوعية تبلغ غايتها اذا نحن نجحنا في وصف الظواهر المعطاة لفة رياضية اى في لغة الاعداد . فكل

(٢١) انظر لانجلوا وسينيويوس - المدخل الى الدراسات التاريخية (ترجمة عبد الرحمن بدوي في النقد التاريخي) ص ٢٢ - ٢٥٤ .

(٢٢) انظر من نماذج هذه الكتب في النهج التاريخي كتاب : حسن عثمان - منهج البحث التاريخي (الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٦٥) .

ظاهرة لا يستطيع وصفها أو ردها إلى عملية قياسية لا تكون جزءاً من عالمنا المادى .. الحقائق المادية مرتبطة دائماً بقوانين علية إلى ظواهر أخرى يمكن مشاهدتها وقياسها مباشرة . وإذا كان عالم الطبيعيات في شك من النتائج في إحدى التجارب فإنه يستطيع أن يعيدها ويصححها إذا أنه يجد مواد جاهزة لديه في كل حين .. إلا أن حال المؤرخ مختلفة عن ذلك لأن حقائقه تنتمي إلى الماضي وقد ذهب الماضي إلى غير رجعة . ونحن لا نستطيع أن نعيد بناء ذلك الماضي ولا أن نوقظ فيه حياة جديدة بمعنى مادی موضوعي . وكل ما نستطيعه هو أن « نستذكره » أن نمنحه وجوداً مثالياً (كتركيا) جديداً قابلاً للمشالي - من جديد - لا المشاهدة التجريبية هو الخطوة الأولى في المعرفة التاريخية .. المؤرخ لا يستطيع أن يواجه الأحداث نفسها .. ليس لديه إلا سبيل غير مباشر يؤدي إلى مادته . عليه أن يرجع إلى مصادره . إلا أن هذه المصادر ليست أمورا مادية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة .. نعم أن المؤرخ كالعالم الطبيعي يعيش في عالم مادی ولكن ما يجده عند بدء البحث ليس عالماً من الأشياء المادية وإنما يجد عالماً رمزياً - أو عالم رموز - وعليه أن يقرأ هذه الرموز . وكل حقيقة تاريخية مهما بدت بسيطة - فلا يمكن أن تعين أو تفهم إلا بتحليل أولي للرموز . فالواد الأولى المباشرة في المعرفة التاريخية وثائق وآثار لا أشياء وحوادث .. ولا تقع على المعلومات التاريخية .. إلا بواسطة وتدخل من هذه المعلومات الرمزية .. » (٢٣) .

« على التاريخ أن يبدأ بذلك الآثار لأنه لا يستطيع دونها أن يخطو خطوة واحدة .. وعلى المؤرخ أن يتعلم كيف يقرأ ويفسروا ثقته وعادياته (الأثرية) باعتبار أنها رسائل حية من الماضي . رسائل تخاطبنا بلقنها الخاصة لإباعتار أنها بقايا ميتة منه .. ولا يكون المحتوى الرمزي في هذه الرسائل ملحوظاً على التو . وعلى العالم اللغوي والفيلولوجي والمؤرخ أن يجعلوها تنطق وأن يجعلونها تفهم لفتحها . وإذا عجز المؤرخ عن أن يفك معنى اللغة الرمزية في آثاره بقي التاريخ كتاباً مغلقاً مختوماً .. » (٢٤) .

ويجب أن نسد إلى هذا نفرة أخرى في موضوعية الوثائق والآثار هي مدى صدقها وصدق أصحابها الأول ومدى تمثيلها الحقيقي للواقع . أن أقصى ما يستطيع جامع الوثائق ومستنطق الآثار أن يقول في موضوعية نتائجها أنها هي « الحقيقة التاريخية » لا الحقيقة المطلقة . وهي الحقيقة لكن في حدود ما تسمح به ما تعطيه وما تصدق فيه الوثائق والآثار . أنها إذن الموضوعية النسبية والعلمية « المشروطة » .

ب - الموضوعية العلمية في مرحلة التركيب والتعليل التاريخي :

هذا على الأقل في العملية الأولى من التاريخ عملية الجمع للمادة . على أن مشكلة « العلمية الموضوعية » تأخذ أبعاداً أخطر وأقوى في المرحلة الثانية من عمل المؤرخ : مرحلة التركيب والتعليل وكشف السببية فيما بين الوقائع . المنطق الذاتي وحده هو الحكم ، في هذه المرحلة الثانية . أعمال المؤرخ السابقة ليست أكثر من وسيلة لجمع المادة الأولى وجعلها على مستوى من التصفية والتنقية والموضوعية يسمح بصفة التحليل والاستنتاج . لا بد من صحة المقدمات لتصح النتائج . والتاريخ

(٢٣) انظر كاسيرز - مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية (الترجمة العربية) ص : ٢٩٦ - ٢٩٨ .

(٢٤) المصدر السابق ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

الحقيقي إنما يبدأ عند محاولة استخلاص هذه النتائج ، يبدأ مع مرحلة التركيب والتعليل . وهنا تتدخل عناصر كثيرة من الذاتية والحكم الحدسي والشخصي لتلقي ظلا من الريبة على موضوعية المؤرخ الذي لا يستطيع الانفصال - ولو حرص - على موضوعه . وإذا شئنا كشف حدود تلك الريبة فلعلنا نستطيع ذلك بتتبع العملية التركيبية التاريخية خطوة خطوة :

الفرضية وامتحان الفرضية في التاريخ :

العالم - فيما يقولون - يبدأ بحثه العلمي بفرضية Hypothèse يضعها موضع البحث والتجربة والاستقراء والاستنتاج والتحليل . الخ حتى إذا صمدت لكل أولئك تحولت الى نظرية علمية Théorie أو مبدأ Principe أو قانون أو صيغة رياضية ثابتة الحدود . هذه الفقرة في المجهول لاكتشاف المجهول بالاستناد الى المعلوم تقوم هي نفسها في اساس العمل التاريخي التركيبي ايضا . ان دور الفرضية في التاريخ ليس بمختلف من حيث المبدأ عن دورها في العلم ، ولكن الخطوات التالية هي المختلفة لأن « مادة » التاريخ هي التي تتأبى على الوسائل العلمية « البدائية » للعلوم . .

أ - ففي العلم يتحدثون بصورة اساسية عن المشاهدة و « التجربة » وهما مستبعدتان كطريقة في البحث التاريخي لا لشيء الا لانهما مستحيلتان (٢٥) . . فميدان العلم هو ما يمكن ان يحدث في المستقبل وأما التاريخ فله ما حدث وانتهى . الوقائع التي عرفها الماضي من المستحيل توفير كافة الشروط اللازمة لاعادة حدوثها كآخرى - حتى ولو توفرت الشروط فان « ما يحدث في الزمن ز + ١ ليس ابدا هو ما كان حدث في الزمن ز » لا لأن الزمن اختلف فقط ، ولكن لأن الانسان في الزمن الثاني اختلف ، ولانه تعلم من التجربة في الزمن ز وتأثر بها ايضا . . ان الحادث التاريخي كمود الكبرى او بعض مصابيح التصوير لا يتقد الا مرة واحدة . . وتجدد وتفرد الحادث التاريخي (وهو ما يسمى احيانا بجزئته) هما بعض ميزاته الكبرى وبعض مصائبه ايضا .

والواقعية التاريخية لا تقع ابدا تحت المشاهدة الدقيقة الشاملة والكاملة للمراقب العلمي . ليست معطاة لنا كما في الواقعية الطبيعية - خارج الذات ولكنها تنامي وتتكمال في الواقع داخل الفكر ، وإذا كان الاساس في الحادث الطبيعي هو « الكم » وامكان القياس فليس في التاريخ من كمية . ووقائعه تتأبى على أى قياس . . والتاريخ بالضرورة إنما يصاغ على اساس النصوص لا اساس التجارب . يضاف الى هذا وذاك اننا نستطيع في الغالب عزل عنصر عن آخر في العلوم ومعاملة تركيب كيماوى او حتى بيولوجي على حدة للدراسة نقالة وردود فعله وليس ذلك ممكنا في التاريخ لأن نسج الاحداث متماسك بعضه مع بعض ، متحول دوما من لحظة الى لحظة ، كالنول الابدى الضخم . وانتزاع الحادث التاريخي لعزله ودراسته عمل نظري اولا غير قابل للتحقيق بالاضافة الى انه عند تحقيقه يكون ، عمليا ، قد النى تاريخية الحدث وحوله الى مجرد قشور .

ويتفرع عن هذا الغاء طريقة من طرق العلم في التاريخ ، هي الكشف بالمقارنة ، ان المؤرخ لا يستطيع تفسير حادث تاريخي بآخر ، ولا تحليل واقعة او موقف بالرجوع الى وقائع ومواقف من

(٢٥) يجب ان نستثنى هنا ما يسجله المؤرخ من مشاهدته الشخصية لبعض الاحداث التي يعيشها . وهي حالة خاصة جدا . وليس لمة ما يفسمن ابدا ان هذه « المشاهدة » تتم ضمن الشروط العلمية الكاملة . بالاضافة الى انها ، في عرف المؤرخين الاخرين لا تعدو ان تكون مجرد شهادة تستحيل على معاودة المشاهدة .

النوع نفسه . القياس المنطقي عليه شبه معطلة في التاريخ المائل بين يديه . لقد يستطيع ان يشير الى التشابه . ولقد يجزؤ فيبحث عن بعض التماثل ولكنه محكوم حتما بأن يقف فلا يصل الى التطبيق الذي يصل اليه - لو شاء - كل عالم طبيعي . لو فعل اذن الفئ عامل الزمن في الحادث التاريخي وتجاوز على خصوصيته وعلى فرديته التي تجعله حادثاً من التاريخ .

التجربة المستحيلة : اى عدم التكرار . التفرد . غياب الكم والقياس . عدم امكان العزل . عدم امكان المقارنة .. هي اذن التحديات التي تواجه المؤرخ لأنها - وهي ممكنة دوماً في ميدان العلم الطبيعي - تشكل ميزات الحدث التاريخي .. ومشكلاته أيضاً في وقت معاً .

ب - وفي العلم ينتقل الباحث من الجزئي الى الكلي . ومن الفردى الى العام ومن المحسوس الى المجرد والصفة الرياضية . ان عمل المؤرخ يكاد يكون بالضبط عكس الطريق . ان الجزئيات في صورة الماضي هي الاساس ، والفردى له قيمة العام والمحسوس هو الدائرة التي لا مجال لتجاوزها حتى لقد سمى « دارديل » التاريخ علم المحسوس (٢٦) كل حالات التاريخ « حالات خاصة » لا يمكن ان تتحول عامة ، وهنّ العلم هو العام . كل وقائمه فردية في اطار زمانها ومكانها واسبابها ، ولا علم الا بالكلي . وقد فشلت حتى الآن على الاقل جميع الجهود في ادخال الفعالية التاريخية ضمن اطار اى قانون تجريدى اورياضي لأن تجريدها يلقي على الفور طابعها التاريخي ويخرجها من نطاق التاريخ الى نطاق الدراسات الاجتماعية التي تنظر في الحاضر والمستقبل . لا كليات ولا تجريد في التاريخ .

الذاتية في التاريخ :

والعلم يرفض « الذاتي » . الاحكام الشخصية في العلم هي اشبه بمحرّمات الدين . كنهان التقاليد العلمية ما ان يلاحظوا ظل الذاتية في عمل علمي حتى ثور تآثرهم بالطبول والعصي ، ويطردوا هذه المادة الحرام المسكرة خارج الابواب ويكسروا معها الدنان . والتاريخ كله لحسن حظه او لسوءه - يقوم على « الذاتي » . الذاتية قائمة في جلدور التاريخ لانه في تكوينه ليس الا علم « الانسان » .

« واذا تذكرنا هذا الطابع للمعرفة التاريخية سهل علينا ان نميز الموضوعية التاريخية عن الموضوعية التي ينتجها العلم الطبيعي . لقد وصف ماكس بلانك وهو عالم طبيعي عظيم كل عملية الفكر العلمي بانها جهد مستمر لنزع كل العناصر « الانثروبولوجية » واقتضاها ... اى علينا ان ننسى الانسان لندرس الطبيعة ولنستكشف القوانين الطبيعية ونصوغها وما يزال العنصر الانثروبولوجي في تطور الفكر العلمي يضطر الى التراجع للمؤخرة تدريجياً الى ان يختفي في النهاية من البنى الكامل المثالي للطبيعات . اما التاريخ فيمضي في اتجاه مختلف . انه لا يستطيع ان يعيش ويتنفس الا في العالم الانساني . فهو ، كالفن واللفة ، انثروبولوجي في اساسه . فاذا طمست معاملة الانسانية حطمت فيه شخصيته وطبيعته الخاصتين به . الا ان الانثروبولوجية في الفكر التاريخي ليست قصورا او عفة في طريق صدقه الموضوعى . لان التاريخ ليس معرفة الحقائق والاحداث الخارجة وانما هو صورة من المعرفة الذاتية واذا اردت ان اعرف نفسى لم أستطع ان احاول الابتعاد عنها اى ان اتجاوز مدى ظلى بل علي ان اختار السبيل المضاد . ففى

التاريخ يعود الإنسان دوما إلى نفسه (٢٧) ... » (بعكس العلم الطبيعي الذي هو خروج مستمر من الذات ..) .

وقد أشار كاسيرر صاحب هذه الفقرة السابقة إلى ملاحظة دقيقة هامة تقوم في جذور الذاتية في التاريخ هي « أن الذات التاريخية ليس ذاتا فردية . هي انثروبومورفية . لكنها لا تتمركز حول « الأنا » . وإذا اخترنا تعبيرا فيه صورة الناقض قلنا ان التاريخ يجهده وراء انثروبومورفية موضوعية » . ونحن نعرفنا التاريخ ان الوجود الانساني متعدد الاشكال (بولغورمي) بحررنا من أهواء اللحظة الفردية الخاصة ونزواتها . فغاية المعرفة التاريخية اذن هي هذا الانراء والنوسيع للذات ، لأنا العارفة المحصه ، لا طمسها وإزالتها .. » (٢٨) .

ونستطيع ان ننسى مؤقتا من جهة هذا التصعيد الذي يحول به كاسيرر الذاتية التاريخية إلى « انثروبومورفية » كما نستطيع ، من جهة أخرى ، ان ننسى بالمقابل إلى حين ، ذلك « التحامل السخيف على المعرفة الذاتية الذي يجعلها دون مستوى المعرفة الموضوعية .. باعتبار ان كلمة ذاتي أيضا الحكم المبني على الاعتبارات الشخصية على التصور الشخصي .. ومن هنا فهو غير صحيح او على الأقل متحيز (٢٩) .. نستطيع ان ننسى هذا الحكم وذاك ، لنقرر ان ذاتية المعرفة التاريخية ليست نقضا فيها ولعلها بالعكس من ميزاتها . وهي تأتي من منبعين :

أولا : ذاتية المصدر : فالتشهادة الشخصية التي يحويها المصدر أو النص التاريخي هي حقل من مشاعر لا متناهية التعمد تتداخل فيها مجموعة متشابكة غائبة أو واضحة من العلل والمعلولات والأهواء . والوئمة (وهي بدورها شهادة) والأثر قد يشكلان أحيانا ركيزة موضوعية من الدرجة الأولى ولكن من ذا الذي يستطيع ان يقطع انهما التعبير الوحيد ، أو الكاشف الأحسن عن الماضي الذي يخلف عنه ؟ ان صدقنا بقائهما لانعنى انهما الحقيقة الموضوعية التي لا حقيقة تناقضها في عصرها نفسه ، ولا تعنى انهما لامتلائن أذواق أو مصالح أو ثقافة أو علافه الاشخاص المحدودين الذين تتعلق بهم الوثيقة أو الأثر في ذلك المجتمع القديم .. ولا تعنى أخيرا أن ما يستخلص منهما هو الحقيقة الموضوعية الأكيدة والنهائية .. والاذانية أيضا . كل شهادة إنما هي انقضاء واع أو غير واع للحقيقة . وهي انتقائية بالضرورة لأنه لم يثبت حتى الآن ان مشاهدا تاريخيا واحدا استطاع ان ينقل الحقيقة الكاملة . ولم يتبين حتى الآن تطابق كامل واحد لشهادتين . ذاتية النص التاريخي كمصدر أنسبه بالظلم للملازم لا فكاك منها . فان كانت في نظر المعلمين « لعنة » فانها « اللعنة » الأبدية التي لا بد من قبولها على علانها وإلى الأبد ...

ثانيا : ذاتية المؤرخ نفسه فإذا كان حقيقيا ان التاريخ غير منفصل عن المؤرخ « فانه من الصحيح أيضا » أنا لا نستطيع الا عن طريق تمييز شكلي ان ننزل الموضوع وهو الماضي في جانب ، وصائفه ، وهو المؤرخ في جانب آخر (٣٠) . ذلك ان احدهما لا يتحقق وجوده الا

(٢٧) انظر كاسيرر - مقال في الحضارة الإنسانية (الترجمة العربية) ص ٣٢٣ .

(٢٨) المصدر السابق ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٢٩) انظر غو تشالاك - كيف نفهم التاريخ ص ٥٧ (الترجمة العربية) .

Marrou : De la connaissance His. P. 37.

(٣٠)

بالآخـر . وبالرغم ان الماضي قد وجد ولو لم يكتب احد عنه او يسجله فانه لا وجود له كمعرفة الا من خلال المؤرخ الذى يصسوغه . ولا عمل للمؤرخ ، ان لم يكن ثمة ماض محدد يفتح له ، مثل مغارة علي بابا ، مغاليقه . ليس ثمة وجود منفصل مستقل للماضي الا من خلال وفي اطار النص التاريخي او الاثر ، وهما بدورهما من عمل المؤرخ نفسه .

وقد حاولت مدرسة « الوثائق » ان تطرد « الذاتية » خارج الابواب عن طريق التقييد بالنصوص والوثائق فقط لكنها سرعان ما فشلت لانه من المضحك والسقيم حقا اعتبار التاريخ مجرد فعالية فكرية سجيئة في وعاء الوثيقة اودهليز النص كالخفافيش ومن حقا ان نسخر مع كونه موجود من هذا « التاريخ العمول بالقلص وانااء القراء » ومن « هذه المعرفة التاريخية المصنوعة من قبل والتي ليس فيها سوى الابتلاع ثم القىء .. » (٢١) .

واذا كان عمل التاريخ اوسع بكثير من حدود الوثيقة والنص بشموله كل الماضي بما فيه ، فهما واعادة تكوين ، فان هذه الشمولية نفسها تفرض على المؤرخ موقف الانتقاء الذاتي للاحداث خلال ذلك الماضي . انها تفرض عليه وضع سلم للاهمية النسبية بينها . واختيار « الحادث » المعبر . الناس كل الناس متفقون ان معركة الزاب جرت سنة ١٣٢ هـ ، فاتتهت بها الدولة الاموية ولكن هل كانت هذه المعركة هي السبب في سقوط تلك الدولة وولوب العباسيين على الخلافة خمسة قرون بعد ذلك . والناس كل الناس متفقون ان الرشيد توفي سنة ١٩٣ هـ ولكن هل كان هو المتوفي الوحيد تلك السنة ؟ وهل كانت الوفيات هي الاحداث الوحيدة فيها .. لقد وقع سواء في سقوط الامويين او في سنة ١٩٣ هـ من الامور الاخرى ما يحتاج تسجيله الدقيق « الى ما لا نهاية له من الكلمات والكتب والمكتبات » ولا بد ان الاختيار ، اعنى الاتفاق ليس فقط على وجود الواقعة (التاريخية) بل ايضا على اهميتها .. ولما كنا لا نقدر على الاحتفاظ بكل شيء ولا بد من التخلص من خضم الوقائع اللامتناهى بواسطة حكم على اهميتها النسبية فيما بعد ، فان تقرير الاهمية (هو من عمل المؤرخ) ويدخل العمل التاريخي من جديد فيما يحاول اجتنابه واستبعاده ولا مفر من ذلك . والاهمية هنا ذاتية خالصة .. (٢٢) .

وهكذا فان ذاتية النص التاريخي او الاثر كمصادر للتاريخ تقابلها ذاتية اخرى يقوم بها المؤرخ بدوره من خلال انتقاليته المقصودة او غير المقصودة ، ومن خلال مصالحه ومعتقداته وقيمه ومعارفه .. وعملية التاريخ معلقة بين هاتين الذاتيتين على الاقل . واذا كانت الموضوعية تعنى الخروج الذاتي من الموضوع والحياد المطلق تجاهه والنظر اليه من خارج فان هذا النوع من الموضوعية غير ممكن التطبيق في التاريخ لان اساس النظر اليه انما هو من داخل ، ومن خلال الذات . ويتدخل هنا بعد ذلك المنظور الوجودي للمؤرخ ، تتدخل تقديراته الفكرية ، لتزيد في شأن حادث او ناحية دون اخرى وتبرز قيمة نص دون آخر . كما تتدخل سعة ثقافته وعمقه لتكشف هذا الامر او تعقد هذا التحليل او تلك المقارنة او تنبه الى عامل دون نان . ثم تأتي ميوله الفكرية والسياسية فللماركسي تفسيره وللديني جوه ، وللملكى رأى لا يتفق مع

Collingwood, Idea of History, pp. 246, 257.

(٢١)

Valéry P. — Variétés (Vol. IV) P. 128-129.

(٢٢)

الجمهوري ، ويستخرج الليبرالي من الافكار والدلائل ما لا يستخرج الاشتراكي .. وليس في العلم موقف ماركسي أو سيمى أو لاهوتي أو برجوازي .. فان برى المؤرخ من كل اولئك وكان الفع في الموهبة وسعة الثقافة واللامبول .. امليس هو ابن عصره ؟ وتأتى ها هنا نظرية **كروتشه** لتكشف ان « كل تاريخ إنما هو تاريخ الحاضر » (٤٣) أو على الاقل كما قال Ch. Beard « ان تاريخا مكتوبا لا معدى له من ان يعكس فكر مؤلفه في اطار زمانه ومحيطه الثقافي » (٤٤) وهكذا فان « حياة حقائق الماضي ومعناها لا تستنبط من المراسيم والنقوش أو غيرها من مخلفات الماضي وإن مصدرها جميعا هو شخصيته نفسه .. » (٤٥) وتكشف امام هذا الحيدالمستحيل سداجة الفكرة التي دفعت اللورد **آكتون** الى ان يسجل بين تعليماته الى المساهمين في سفر (تاريخ كمبريدج الحديث Cambridge Modern History هذه التوصية « ان تكتب كما لو انك كنت قائما على خط الطول ٣٠ غربا .. » اي في وسط المحيط الاطلسي ، في عزلة اجتماعية كاملة عن كل شيء » (٤٦) ... مثل هذه العزلة النظرية موقف لا يمكن للمؤرخ تحقيقه لانه حتى في وسط المحيط إنما يكتب من خلال الشهادة الذاتية للآخرين من جهة ومن خلال ذاته من جهة اخرى . الحيد ، الانفصال عن موضوع المعرفة ، المراقبة « للحدث » من عل كما لو كنا نطل من قبة الفلك قد يكون بامكان الفيزيائي أو رجل البيولوجيا أو الاقتصاد الاحصائي تحقيقه .. اما المؤرخ فان انفصاله نفسه يعنى الفناء موضوعه .

« وعينا - **كما يقول فاليري** - ينمو المجهود، وتنوع المناهج ، وينسج ميدان الدراسة او يفتق ، وتدرس الامور بنظرة عالية جدا او ينفذ المرء الى نسج العصر الدقيق ، ويستقصي الوثائق المحفوظة عند الاشخاص ، والاوراق البالية عند الاسر ، والشئون الخاصة وصحف العصر والقرارات المحلية . فهذه التوسعات المتعددة لا تتلاقى ابدا ولا تنتهي عند فكرة واحدة تفضى اليها بل ينتهي كل منها الى طبيعة مؤلفها واخلاقهم ولا ينتج عنها ابدا سوى نتيجة بينة واحدة هي استحالة فصل المشاهد عن المشاهد والتاريخ عن المؤرخ .. » (٤٧) . جميل جدا ان نضع مبدا « الحيد » المطلق هدفا للمؤرخ ولقد تكون الموضوعية صحيحة من حيث المبدأ ، ضرورة جدا من حيث استهداف الحقيقة ولكنها تنعثر فوراً عند اول خطوات التطبيق العملي . وفرق كبير بين ما هو كائن وما نتمنى ان يكون . ان النقلة بين الحدين هى التي تورط العديد من المتظرين لمناهج التاريخ في الخطأ .

ولعلنا نستطيع ان نضع لمحيي الصبغ الرياضية، صيغة تربط ما بين الداتية والموضوعية في التاريخ في العلاقة المبسطة التالية :

$$C = \frac{T}{T + M}$$

حيث C = الحقيقة التاريخية ، و T = التاريخ المكتوب ، و M = شى هي الشهادة أو ال اثر و م هو

(٤٣) Croce, contribution (trad. fran. Paris 1949) p. 100.

(٤٤) انظر جونسون - تدريس التاريخ ص ٣٣ .

(٤٥) Gentile, G., Philosophy and History p. 104.

(٤٦) انظر غو تشالك - كيف نفهم التاريخ ص ٣١١ نقل عن : محاضرات في التاريخ الحديث .

Lectures on Modern History, (London, 1906) p. 318.

(٤٧) Valéry P., Variétés (Vol. IV) p 128.

المعادل الشخصى للمؤرخ . وكما ان الشهادة قد تتعدد لدى المؤرخ (بشكل نصوص عديدة وآثار متنوعة ، متفاوتة القيمة من الناحية الموضوعية) كذلك فان المعادل الشخصى متعدد العناصر : فيه العديد من العواطف (ع) التفاوت الحدة (ونرمل للحدة بالاس أو القوة) وفيه العديد من المواهب (م) التي تتفاوت في القوة وفيه الثقافة (ق) المتفاوتة ايضا والتي تتضمن تمثيل المعاصرة (ولهذا تختلف في الاس أو القوة) مما يجعل المقام في العلاقة الماضية على الصيغة التالية :

$$C = S_1 + S_2 + S_3 + S_4 + S_5 + S_6$$

حيث ترمز س الى عدد الشهادات او العواطف . . الخ وحيث يمكن للاس التربيعى أن يتقدم أحيانا وان يصبح من الدرجة الثالثة او السادسة . . . أو ان يلقى . . .

ونتيجة لهذا كله فان المناهج العلمية اذا كانت تسير بالتعدد الى التوحد ، وبالمحسوس الى التجريد ، فان التاريخ بالعكس يسير ، بالضرورة الى التعدد والى المزيد من التفاصيل المادية والمعنوية ودقائق المحسوس من الاحداث وهكذا اذن تتعدد التواريخ بتعدد المؤرخين وبتعدد مناحي الفكر الذاتى . وهذا ما يضيف بعدا جديدا الى الابعاد التي تفصل ما بين « العلمية » الرسمية ، وعلمية التاريخ .

ستان بين مشرق ومغرب !

سارت مشرقة وسرت مغربا

ليس من أحد المؤرخين أو في غيرهم يعتبر التاريخ مجرد نسخ حَرْفِيٍّ لأقوال الآخرين ، كما ليس من أحد يقبل ان يكون التاريخ مجرد ستوات ولادة ووفاء وحروب متفق على موعدها واسمائها . هموم المؤرخين مرتبطة دوما بالتعدد ، موصولة دوما بالمزيد من الجزئى والفردى ، هاربة ابدا من التجريد لانه يقطع فورا ما بينها وبين منبعها الحي في الواقع ، وذلك شرط اساسي في الادراك التاريخي .

السببية في التاريخ :

المنهجية في العلوم نفضي بعد ادراك « الحدث » بادخاله في حدود المعقولة . بجعله منطقي الحدوث ، قابلا للادراك والفهم والتوازن الفكرى ولتطبيق حيل العقل عليه . ذلك هو الاساس في ما سموه منذ اكثر من قرنين « السيطرة على الطبيعة » عن طريق فهم قوانينها . ولعلنا ننكر الواقع ان قلنا ان المؤرخين لا يبذلون اقصى ما لديهم من قوى الفكر لاختضاع التاريخ الى المعقولة . والتقاط منطقته النظم للاحداث . الفزو في هذا الميدان مستمر ، لم يهدأ منذ ظهر التحدى العلمي . . ولكن اين وصل ؟ واين يمكن ان يصل ؟

ان المعقولة في التاريخ هي بالضرورة اكثر تواضعا من معقولة الحدث الطبيعي . لان الحقيقة هنا غير الحقيقة هناك في النوعية . الحقيقة العقلية في التاريخ ليست تنصل بالتاكيد الرياضي العقلي ولا بالاحتمالية التجريبية من فيزيائية وكيمائية . . حيث تجرى المعقولة في حدود المنطق الارسطى ، واللاتناقض والسببية المباشرة ومبدأ العلاقة الخنمية . اما في التاريخ فليست المعقولة على الاطلاق اكثر من الاحتمال العقلي للحدث ، وان لا يكون تمة من سبب كاف

لرفضه أو انكاره (٤٨) . فكانها هي ما يسميه **البرجماتيون** : « الكفاية العملية A practical satisfactoriness هذا المبدأ الاساسي من نظرية التاريخ قد انضج تماما منذ **ليبنتز** الذى اشار اليه حتى **ريمون آرون** الذى كتب : « ان كيفية الاحكام التاريخية هي الامكان » (٤٩) . . . والاحتمال الذى لا علاقة له لا بالاستنتاج الرياضي وبالتجربة المادية .

ويمكننا ان ننقل القضية الى مستوى آخر لنرى فيها قضية السببية في التاريخ : فهي الوجه الآخر التقليدى لعملية « تعقيل » التاريخ وربطه بالمنطق سببا بحدث ، وواقعة باخرى . وعملية التاريخ العملية ليست في الواقع شيئاً آخر سوى تفسير المجهول بالعلوم وتعليل الحدث بما يوازيه من الاسباب وبما يمكن ان يكون منطقياً دافعا من دوافعه وعنصرا من مكوناته . هي كشف التسيج الذى يكون ماضى الانسان في دوافعه وروابطه .

واذا كان جميع المادة التاريخية هو الخطوة الاولى في العمل التاريخي فان التعليل المنطقي هو الخطوة الحاسمة والاخيرة في كتابة التاريخ « (٥٠) . سرد الاحداث واحدة بعد اخرى مهما بلغ من الدقة والوضوعية ليس اكر من تقويم كرونولوجي ولاعتبر ، في نظر المؤرخين ، اكثر من نصف العملية التاريخية التي لا تكتمل الا بادخال المعقولة والروابط المنطقية بين حدودها . والسببية في التاريخ هي اليوم مظلته العلمية . هي الركن الاساسي ان لم نقل الوحيد الذى يقيم عليها موضوعيته ودعواه للحاق بالعلوم . ندر في المؤرخين الآن من يفتش عن الغائبة الاولى ، او يبحث عن الاخلاق والعبرة او يلاحق الامتاع الادبي . ان التاريخ محصور الهم الآن في « فقه الماضي » في فهمه ودراسة الاسباب والنتائج والروابط في الاحداث بعضها مع بعض . ان عمله هو التحليل المستمر افقيا وعموديا .

لقد وضعت في المتاحف منذ زمن طويل تلك المفالطة القديمة التي كان يعبر عنها بالعبارة اللاتينية Post Hoc, ergo propter hoc اى جاء هذا الامر بعقب ذلك اذن جاء بسببه . ان نوالى الوحدات الزمنية (من ايام وسنين) ليس يعطي الاحداث التاريخية اكثر من التوالى الكرونولوجي . انه اشبه بالترتيب الابجدي - على حد قول فاليري - فاما العلوية والسببية الحقيقية ما بين سائق ولاحق فيجب ان نفتش عنها في مسنويات اخرى تذهب عمقا وجلودا وحجما الى ابعاد قد لا نخطر للوهلة الاولى في بال .

ومسلمة السببية في التاريخ تستند الى مسلمة سابقة عامة ، تقرر ان مسيرة الحياة (والبشرنة جزء منها) تخضع لنظام شامل يربط بين الاجراء ويقود النوع الانساني (كما يقود غيره) وان بإمكان العقل البشرى ان يصيب بعض التوفيق في محاولة الكشف عن علل الحوادث وترباطها .

واذا كانت كلمة « سبب » (وهى الكلمة التي تقف الى جانبها كنتيجة لها كلمة الحتمية) كثيرة الاستعمال بصيغة المفرد في العلوم الطبيعية فيبدو اننا لا نستطيع ، في التاريخ ، ان نستعملها الا بصيغة الجمع . ليس بمة من « سبب » مفرد لاي واقعة تاريخية مهما صغرت . تمتد دوماً اسباب وعلل وعوامل ودوافع وبنى وتركيب والكثير منها يعمل على طريقة كرات « البليارد » عن

(٤٨) انظر مارو - من المعرفة التاريخية ص ٩٤ - ٩٥ .

Aron, R. — Introduction à la Phil. de l'His. p. 196

(٤٩) انظر :

Carr. E. H. : What is history p. 86.

(٥٠) انظر

طريق التأثير المثلث أو المربع عبر عدد من التأثيرات السابقة .. « ومنذ امد قصير ، اعلنت مجموعة من المؤرخين الامريكيين في مجموعة رسمية من المقترحات للحكومة .. ان مصطلح « سبب » حسما يستعمله المؤرخون يجب ان يعتبر مجازا لقويا ملائما لوصف الدوافع والتأثيرات والقوى وتداخلات سبابة اخرى لا تزال غير مفهومة تماما . ويمكن تعريفه كاي حادثة سبابة تجري فيما هو مفترض ان يكون مركبا نتاجيا متشابكا . ويترتب على هذا التعريف ان اى سبب لا يعمل مطلقا الا كجزء من مركب او سلسلة » (٥١) .

ويدهي ان الاسباب في التاريخ تتفاوت حجما ونوترا وحدة وعدداً . والعوامل المحركة الكبرى ليست دوما محركا ولا كبرى وبعضها انما يستمد قوته من الظروف التي احاطت به ، ولو جاء في ظروف اخرى لكانت فاعليته الى الخمود وربما الى الانعدام . وهكذا فليس من الضروري ان تكون العوامل المحركة في التاريخ دوما عوامل ضخمة او متعلقة بعدد كبير من الناس او بمشاعر ايمانية شاملة او مواقف مصيرية ولعل العكس احيانا هو الصحيح . ان زلة لسان او كوة فرس او عضة قرد او ناخر قائد في النوم او مرض عالم لها - عند التقائها ببعض الظروف والعوامل - ما للعوامل الكبرى من الانر في انعطاف التاريخ ليس من الضروري ان نفتش عن صراع الطبقات ، او ظهور البطل او انبثاق الافكار الایمانية لنجد « محركات » واسباب بعض وقائع التاريخ التي تدور .. لمجرد لحظة جنون ، ثم تأتي مركبة الاسباب الاخرى على الاتر .. اليس هذا ما يسمونه بالاصطلاح التقليدى بالاسباب المباشرة وغير المباشرة ؟

وهكذا فالسببية في التاريخ هي في الواقع محاولة الكشف لا عن « السبب ولكن عن تلك المجموعة المركبة من الاسباب والعوامل الكامنة في كل حدث . وقد دخل مفهوم السببية في السرد التاريخي بشكل اصبح كتابة التاريخ بدون مجرد فهرسة او تخطيط زمني للسنين » (٥٢) . ارتبطت في الواقع ، علمية التاريخ الى حد كبير بهذه المحاولة الفكرية لتلمس الاسباب . ومع ان المؤرخين قد حققوا - فيما يبدو - جانباً من النجاح في هذا الميدان فانه من الواجب ان نعرف ان مشكلة السبب التاريخي ما زالت في جوهرها دون حل . واهم مشاكلها ليس الغموض فحسب وتركيز بعض المؤرخين على اسباب دون اخرى ولكن ايضا تحديد الفترة الزمنية التي يجب ان نفتش فيها عن الاسباب والبنى المتشابهة للاحداث اللاحقة ثم معرفة العوامل الباقية والمتحولة في كل حدث : عددا ونوعا واترا (٥٣) . مع الاخذ بعين الاعتبار ان بحث العلل الاولى هو مشكلة غيبية تخرجنا من ميدان التاريخ الى رحاب الميتافيزيك . واذا كانت عملية التاريخ مرتبطة بخططين من الاعمال : كيف حدث ؟ (الوصف) ولماذا حدث ؟ (التعليل) فقد يكون الجواب على (كيف ؟) حتى بالشكل الدقيق المنطقي اسهل بكثير من الجواب على ال (لماذا ؟) التعليلية . واذا كانت (كيف ؟) قد تفر الى السؤال عن اى الطرق وبأى الوسائل وضمن اى الظروف من اجتماعية او طبيعية او دينية او نفسية ، ثم ذلك الحادث المركب الذي تحقق في وقت ما وفي

(٥١) انظر غو تشالك - كيف نفهم التاريخ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ (الترجمة العربية) .

(٥٢) المصدر نفسه ص ٢٥٦ .

(٥٣) انظر المصدر نفسه ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

مكان ما من التاريخ فان مشكلة الـ (لماذا ؟) ترتبط بعملية غوص بعيدة الاغوار عن العوامل السيكولوجية والاقتصادية والجغرافية والمناخية والفكرية والاجتماعية التي اثرت في تكوينه واخراجه على السكل الذي خرج فيه. وقد اقترح **غوتشالك** الافلال من استعمال كلمة سبب واسباب لدى المؤرخين والاتجاه الى كلمات اكثر دقة .. بلى اكثر دقة لان كلمة الاسباب قد توحى بالسببية المباشرة بينما يتصل بتكوين الحدث التاريخي دوافع واهداف ومناسبات وسوابق ووسائل قريبة وبعيدة لا تكاد تحصى معرفة .

ونصل اخيرا في مجال بحث السببية التاريخية الى مشكلة هامة تقطع الطريق على الاسباب المعقولة هي مشكلة الاحتمال والصدفة . المؤرخون يلاحظون احيانا ان ثمة امورا وحوادث في التاريخ تتأبى على « المعقولة » . وتسير في ما وراء السببية التي نفهم ونصطنع .. فكان المعقولة ليست وحدها التي تحكم قوانين التاريخ ومسيرته ... بلى ! ثمة في حدود ما نعرف من احداثه وعوامله عنصر من العيب absurd واللامعقول ليس له اى معنى ولا اى تفسير او غاية ، ولكنه مع ذلك واقع تاريخي قائم . يقول المؤرخ فيشر : « لقد حرمت من لذة فكرية هي اننى لا افطن الى ما فطن اليه من هم اكثر منى علما وحكمة ، اذ يرون في التاريخ حكمة مرسومة مجبوكة وبقاما منظوما وقدرنا محتوما للوقائع ، سابق التقدير .. اننى لا ارى الا مفاجأة تتلوها مفاجأة كموجة تلاحق موجة » .

ولا تعنى اللامعقولة في بعض التاريخ انه مضاد للعقل او مناف له . انها لا تعني اكثر من ان مظاهر الوجود الانساني كما تتجلى في التاريخ تحتاج الى نظرية اشمل من النظام العقلي التقليدى لاستيعاب حدوده ، كل الحدود . وبرز ما يتجلى العيب واللامعقولة في هذا العنصر الذى نسجيه في الاصطلاح الدارج « بالصدفة » او الاحتمالات . والصدف في التاريخ — كما في حياة الافراد العادية — ليس اكثر منها . المؤرخ **فانديرياس** وضع كتابا حول قضية الاحتمال والصدفة في التاريخ (٥٤) . ودرس فيه ، بين ما درس ، حملة نابليون على مصر وكشف بشكل واضح غرابة بعض المواقف ودور الصدفة في ذهاب **نابليون** وعودته في البحر ، وفي كارثة نابي قير البحرية (٥٥) .. ويمكن ان نأتي بالف مثل من كل تاريخ على « الصدفة » التي حولت مجارى التاريخ . ان نجاة صلاح الدين مثلا ثلاث مرات من خناجر الاسماعيلية التي لم تكن تخيب مرة واحدة مع غيره .. صدفة لو انها نجحت فماذا كان يتحول في التاريخ ؟ وهروب المتحالفين السلاجقة امام انطاكية سنة ١٠٩٧ دون حرب صدفة لو لم تقع فماذا كان يبقى من الحروب الصليبية ؟ ولو ان معاوية كان اقصر عمرا فمات في خلافة علي فأتين كان يتجه التاريخ الاسلامي ؟ ويتحدثون بالنتكة التاريخية التى اطلقها **باسكال** حين قال : لو كان انف **كليوپتره** اقصر لتغير وجه العالم . ولكنها قد لا تكون مع ذلك مجرد نتكة او مبالغة . فان التاريخ ملئ بالمفاجآت والصدف التي تغير سير الامور دوما ، ومن ذا الذى كان يستطيع ان يقدر مثلا في صيف سنة ١٩٢٠ ان عصبة فرد مدلل في خريف تلك السنة لملك اليونان سوف تؤدى الى سلسلة من الحوادث المفجعة يموت فيها ربع مليون انسان . او من ذا الذى لا يرى الصدفة في نجاة عبدالرحمن الداخل من القتل والسهام لتلاحقه وهو سابح في

الماء ليكون منه ومن اولاده قسمة اعالم الاسلامي. وقيام دولة الاندلس ؟ .. ان من الصعب جدا ان نقدر ماذا كان عليه تاريخ الشرق الاسلامي لولا صدفة انتصار الكمين الذي اقامه قطز للغول في عين جالوت ، وماذا كان عليه تاريخ فرنسا واوروبا لولا خوف اصحاب الغافقي على متاعبهم في معركة بلاط الشهداء وتراجعهم لحمايته .. وبالمقابل فانا نعرف الى حد ما ماذا فعلت صدفة الحصول على الفلبلة الذرية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية لا بعدها ، وصدفة وجود الجمل مع العرب ايام الفتح ، ووجود الفوس البعيدة المرمى في ايدى السلاجقة . كما نعرف ماذا فعلت صدفة ابتكار اينقاد النار ، واستخدام العجلة من ثورة كورنيكية في تاريخ الانسانية ؟ وماذا فعل اليوم صدفة ابتكار الترانزستور سنة ١٩٤٨ لاسنة ١٩٧٣ . وابتكار نظرية النسبية في مطلع هذا القرن لا وسط القرن الماضي . وصدفة مقتل ولي عهد النمسا سنة ١٩١٤ لا سنة ١٩١٥ او ١٩١٠ . وصدفة تاخر (غروشي) في الوصول الى ميدان واترلو في الوقت المناسب وهزيمة نابليون التي غيرت وجه التاريخ الاوروي بعد ذلك .. وصدفة اصابة الاسكندر المقدوني بالملاريا وموته المفاجيء وهو في اروع الشبَاب وتمزق الامبراطورية من بعده .. الواقع انا نحن مضطرون لان نعترف بان في مسيرة التاريخ (وبالتالي فيما يمكن ان تكون عليه قوانين التاريخ) جانباً واضحاً متروكاً للفعل الحر ، جانباً لا نحدد زمانه ومكانه وابعاده الاسباب التي تقع تحب معقوليتنا . وان افعال الانسان في الماضي وان كانت تخضع الى حتمية معقدة الحدود ، فانها في الوقت نفسه كانت تحوي عناصر من « حرية » التصرف ، تفاجئنا في كثير من الاحيان اذا ما نحن استعنا على كشفها بهذا الحرف الصغير « لو » وبدأنا التساؤل : « لو ان .. » . وبالرغم من انه ليس من التاريخ ان نبحث في هذه « اللوات » التي تحمل معنى القلق (٥٦) - كما يقول فاليري - والتي نضعنا فيما وراء التاريخ الا اننا لا نستطيع ان نمنع انفسنا ونحن في اطار السببية الحتمية فيه ، من ان نضع مبدا الاحتمال في موضعه من سلم العوامل والاسباب ، ومن ان نقرر ان سمة امكانيات معقولة كثيرة في عدد كبير جدا من الاحداث لم تحدث رغم معقوليتها . واحدة فقط حدثت بفعل الصدفة . احتمال واحد جرى وماتت الاحتمالات الباقية فكيف تقوم العلاقة السببية الحتمية ما بين الواقع وبين الاحتمال العشبي الرواغ ؟

ان **فيبيغر** يكتب في هذا الصدد : « ليس تمة ضرورات حتمية تمة دوما امكانيات فقط . والانسان باعتباره سيد امكانياته هو الحكم الذي يحدد استخدامها .. (٥٧) » .

وقد حلل الباحث الفرنسي **شولفين** (٥٨) مشكلة الصدفة في التاريخ . ذكر الآراء فيها . قال : « ان العلم ومعظم الفلاسفة يرفضونها » . « ليس تمة من صدفة . هناك ما يعادلها وهو جعلنا لاسباب الاحداث » - كما يقول دافيد هيوم - ولكن التاريخ هو الوحيد الذي يقبل بشكل واسع وجود الصدفة . ومن يرفض الصدفة - على حد قول - **ادوار مير** Meyer

(٥٦) انظر فاليري - خطبة في التاريخ (ترجمة عبد الرحمن بدوي - في « النقد التاريخي ») ص ٢٠٢ .

(٥٧) Febvre L. A Geographical introduction to History (London 1925) p. 236.

(٥٨) Choulguine, Alexandre : L'Histoire et la vie
Ch. IV, le hasard pp. 69-82 et Ch. IX le probleme des lois et du hasard pp. 187-207

او دور الارادة الانسانية في التاريخ او يقلل من اهميتها يلغي منه كل خصبه ، كل ما يمثل النقطة الاساسية في الدراسات التاريخية . . « ويدكر شولفين : بجانب الصدفة التي هي تعبير لفظي عن جهل الاسباب صدفا من نوع آخر : صدفة تقاطع وقائع مستقل بعضها عن بعض . والصدفة البسيطة العمياء كلعب الحظدون اى قانون ودون اى سبب في وقت واحد . . . » كل ذلك يقع في التاريخ . . وكثيرا ما تحرك الصدوف القوانين الكبرى فيه . . ان وجود الصدفة غير قابسل للانكار. حتى في العلوم الطبيعية وفي علاقات المادة ليس من مكان لقانون الاحتمالات ؟ اليسوا يتحدثون عن التشوؤذ عن القانون ؟

بلى قد لا تكون « الصدفة » نوعا من فوضى العلافة . قد لا تكون - وهو الأرجح - نوعا من الهوى العشوائى الاعمى لقوى غيبية عابثة . . . ولقد تكون بالعكس هي الاسم المبهم الذى نطلقه على مجموعة تلك البنى التكوينية والاسباب والعوامل الدقيقة المعقدة الخفية التى نجعل ونجعل حدنا من الاحداث يقع كنتاج منطقية لها بينما لا تقع في الوقت ذاته او بدلا منه احداث اخرى من مسله ليست اقل منطقية ولا معقولة ولا قابلية للحدوث منه . . وهذا يعني ان «العينية» قد تكون ظاهرية فقط ، وقد تكون اللامعقولة نسبية وعارضة تمتد بمقدار ما يدوم جهلنا لتلك العوامل والبنى المشتبكة والمتفاعلة وراء الحدث، والتي لم نطأها حتى اليوم المغائيس والمناهج والمعارف المتوفرة في ايدينا . . . ولكننا حتى كشف تلك العوامل سنظل ، في السببية التاريخية ، مضطرين لافساح مجال كبير جانبي . . لمفاجآت الصدوف . وهو ما لا تقبل به العلوم ولا ترتضيه مبادئ السببية العلمية المتزمتة . انه يقع خارج نطاقها .

القانون في التاريخ :

ونصل اخيرا الى متسكلة « القانون » في التاريخ والناموس الشامل . ان نهاية المسيرة في المنهج العلمي هو الوقوع على القانون ، على الصيغة الرياضية التي تحكم علاقات الاحداث ونسمح بالتحكم فيها وتكرارها. العلماء الطبيعيون منذ كشفوا بعض هذه القوانين ، شطح بهم الامل الى أن يتصوروا ان الطبيعة أضحت « لعبة » العالم . . رغم انهم لا يفقهون « سر » اللعبة . هوس الصيغ الرياضية بلغ قمته مثلا في قوانين النسبية البالغة التجريد والتعقيد . على ان هذه القوانين نفسها ليست - فيما يبدو - اكثر من لعب اطفال امام تعقيد « قوانين » التاريخ التي نفترض وجودها عقليا من خلال آثارها . . . ولسنا اكثر من فرائس يحوم دون هدى كثير من حولها .

واذا كان « التفسير في التاريخ هو الكشف، الإدراك ، التحليل لالف رباط يوحد بطريقة قد تكون غير قابلة للتعبير الرياضي او اللغوى ، الوجهة الكثيرة للواقع الانساني » (٥٩) فان البحث يجب ان يتركز حول هذا « القانون » المفترض الذى يمكن ان يجمع في حدوده الف رباط تعمل معا على تركيب « الواقع » الهاوى باستمرار في هوة العدم والماضي . .

ان السؤال هنا يصبح ذا شقين : هل القانون في التاريخ ممكن ؟ واذا كان ممكنا فما شروطه والحدود ؟

لعمل الصيغة التي صاحباها **«ادوار شيني»** E. P. Cheyney في خطابه امام الاتحاد التاريخي في امريكا في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٢٣ والتي قال : « يجب ان تكون هناك قوانين للتاريخ » ، واحدة من آخر الصيحات التي اطلقها جيل العلميين من مؤرخي القرن الماضي ، مصريين فيها على دفع التاريخ الى حظيرة العلوم الطبيعية ولو بهدم شيء من « اسوار » العلوم او اقتطاع شيء من ابعاد التاريخ في الطول والعرض والنزوات .. لقد قوبل خطابه بالترحاب الشديد يومذاك ، وبالإعجاب والموافقة على القوانين التاريخية التي قدمها للناس .. فما هي تلك القوانين ؟ « ذكر شيني بكثير من النواضع ولكن بكثير من الشجاعة صيغ قوانين ستة سماها مجرد حدس او تخمين . القانونان الاول والثاني وهما قانونا الاستثمار والتعبير .. (ويتعلقان) بحقيقتين اساسيتين من حقائق مفهوم التطور . اما القوانين الاخرى فهي قانون النكافل ومعناه ان الامة تنهض او تضمحل كوحدة . وقانون الديمقراطية ومعناه ان ضبط حياة الجماعة يتجه نحو الديمقراطية وقانون حرية الاختيار ومعناه ان الضغط يولد الانفجار والكثافة . وقانون التقدم الخلقي ومعناه ان المؤثرات الخلقية تميل لان تكون اقوى من المؤثرات المادية » (٦٠) .

والمستعرض لهذه « القوانين » سرعان ما يلاحظ انها لا مجال للمقارنة بينها وبين القوانين العلمية ، حتى ولا تلك القوانين التي ترك الصيغ الرياضية الدقيقة لتكتفي بالنسب والارتباطات العامة . واذا كانت « القوانين الطبيعية » على اربعة ضروب : فمنها القوانين الكونية العامة ، ومنها القوانين الجبرية المتعلقة بزاوية من زوايا الطبيعة . ثم هناك القوانين المطلقة وهناك القوانين النسبية الاحتمالية .. فاي نوع من القوانين هي هذه « التعميمات » التاريخية التي تدفع بالجهد الارادي الى دنيا القوانين ؟ لقد زرع ناريسخ « فلسفة التاريخ » زرعاً بقوانين اعداد واشتات من مثل هذه التعميمات التي لا تكاد احيانا تحقق حقاً ولا تفسر ملاحظة ولا تسمح باى تنبؤ .. ولو من قبيل التنجيم ! منذ **ابن خلدون** مثلاً الذي وضع ما يزيد على عشرة قوانين من هذا النوع قال فيها قبل خمسة قرون : بجدلية التاريخ وديناميكيته وقيام الدول ثم تماسكها بالعصبية . وان الاجتماع الانساني يتطور من البداوة الى الحضرة في سنة طبيعية دائمة وان الدول كالشجر تولد وتمنو وتكبر ثم تضمحل وتموت . وان الحضارات تتعاقب عليها ثلاثة اطوار : بداءة ثم حضرة ثم اضمحلال اقتصادي وخلقي . وان الاقليم والعوامل الجغرافية تؤثر في التاريخ وان العمران مرتبط بالاقتصاد واختلاف الاجيال انما باختلاف نحلتهن في العاش وان .. وان جاء بعد ابن خلدون كثيرون حاولوا وضع هذا النوع من القوانين ... منهم هيجل ومنهم ماركس ومنهم اللورد آكتون ومنهم .. ومنهم .. فهل هذه هي القوانين التي يبحث عنها التاريخ لتكون جواز مروره الى ارض « العلم » ؟

الواقع ان محاولة شيني « القانونية » والإعجاب الشديد بها لم يكونا نتيجة القناعة بالوصول اخيراً الى قوانين التاريخ ولكنهما كانا يعبران عن الحرة البالغة لدى انصار التاريخ « العلمي » لانهم ، في الحقيقة ، لم يستطيعوا الوصول الى اكثر من « التعميمات » التي لا تصل حتى الى درجة الكليات المقبولة .. انهم كانوا يتعلقون باى طيف « للعلمية » قبل ان تفرق نظريتهم في موجة النقد العلمي والرفض .

والآن وقد اضحى العلماء والباحثون أكثر فأكثر اطلاعاً على دخائل الكائن البشرى وعلى ابعاد تاريخه وعلى عمق الآثار وتعدد المركبات التي يحملها ضمن اهابه من ذلك التاريخ ، فانهم قد امسوا أكثر تواضعاً في طلب العلمية الموضوعية للتاريخ ، وأكثر سعة فكرية في فهمها .. كما باتوا ايضاً ، وفي الوقت نفسه ، أكثر ياساً من الوصول .. الى « الناموس » الاكبر الذي يحكم التاريخ .

ان امكان « القانون ، او عدم امكانه ، يجب ان يفتش عنه في المقولات الاساسية التي تحكم المسيرة في التاريخ . ان سلسلة المقولات التي يستند اليها العالم الطبيعي للوصول الى القانون وتحقق صيغته الرياضية وقوته في التنبؤ يمكن ان يختصر في الحدود التالية وكلها حدود سكوتية:

المادة (الثابتة) ← العلية (كعلاقة) ← الكلية او القانون (كحتمية مجردة عن الزمان والمكان) . اما سلسلة المقولات في التاريخ فمختلفة تمام الاختلاف وكلها حدود حركية :

الانسان (الدائم التحول بيولوجيا ونفسيا ومعرفه واجتماعيا ومعيشة) ← الزمان والمكان (التبدلان) ← العلية (كعلاقة) ← الصيرورة (كحتمية للتحويلات) .

ان الحد الوحيد المشترك بين السلسلتين هو وجود العلاقة السببية ولا يمارى فيها احد من الباحثين . ولكن التشابه ينتهي عندها بعد ذلك فالانسان ليس مادة فحسب ولكنه مادة حية وواعية وهو يتغير دون انقطاع لا من عصر لآخر ولكن من مكان لآخر ومن تكوين عرقى الى تكوين آخر ويتغير باستمرار بيولوجيا كما يتغير نفسيا ويتغير في المعرفة ونتائجها وفي البنى الاجتماعية والتكوينات الاقتصادية ، وتختلف آثار الزمان فيه واثرائات المكان في رواسب وردود فعل وارتكاسات ومواصفات لا تنتهي حدة وعددا وتوترا واستمرارا . ولعل فقر العلاقة الرياضية، في العلوم الطبيعية ، وبساطة حدودها تبدى هناعند المقارنة ... فان العلم الطبيعي - بالمقابل - انما يتعامل مع مادة هامة ثابتة الكم والحجم والوزن والصفات ، خارجة عن حدود الزمان والمكان ! . واذا شئنا ان نضيف بعض الايضاح قلنا :

١ - ان المعرفتين العلمية والتاريخية تنتمي الى الواقع الى موضوعين مختلفين :

الطبيعة والانسان . وتتناول الاولى العلاقة الثابتة ، الكمية ، القابلة للتجلى بشكل قانون رياضي . بينما تناول الثانية العلاقة المتحولة دوما الى تحليل التغير وضبط حدوده في الصيرورة .. ان تحول الانسان و **زمانيته** التاريخ ومكانيته هي التي تمنع من الوصول الى قوانين انسانية **ثابتة لا زمانية ولا مكانية** .

ب - وليس في التاريخ ، الى هذا ، اطار طويل الامد يصلح لتعميم القانون بالمعنى الرياضي الحتمي . نفرد الحادث التاريخي، جذته المستمرة، جزئيته كلها ترسخه لرفض القانون . بالشكل الذي يأخذه في علوم الطبيعة على الأقل . انها تلج الى الوصول الى قانون ذي شكل آخر مختلف تمام الاختلاف ... لعل من المؤسف ان العلماء لم يصلوا بعد الى تطوير المقولات الاولى التي يمكن ان تحتوى كافة حدوده . لم يصلوا الى ان يضعوا فيه بديهية كبدئية اقليدس او مبدا من نوع مبادئ ديكارت في المنهج . او مقولة في المنطق التاريخي من نوع مقولات ارسطو في المنطق .. علماء الطبيعة طوروا مع العصور وسائل وطرقا في البحث، وانفقوا على مبادئ وفرضيات اقاموا على اساسها العلوم الطبيعية ، ولعل تعقيد العلوم الاجتماعية الانسانية هو الذي منع من تطوير الوسائل المماثلة فيها ... ولعل من ضيق الفكر ان نحدد مفهوم العلم في اطار العلوم الطبيعية

ذات القوانين الرياضية ، وهي ليست أكثر من زمرة محدودة من المعارف الإنسانية . ومن الظلم للتاريخ (وللعلوم الاجتماعية الإنسانية معه) أن تقصره على الخضوع لوسائل المعرفة المبسطة والحدود الرياضية السكونية التي تصطنعها المادة الهامدة في تلك العلوم ... ليس هذا من نوع التحيز للفلسفة المثالية ضد الفلسفة الوضعية التي ترى أن « العاوم » وحدها هي مستودع المعرفة الإنسانية الوحيد ... ولكنه نتيجة الضرورة في إقامة التوازن في الفكر الإنساني ما بين مختلف الكشف والمعارف التي وصل إليها حتى الآن ... وخاصة في عالم هذا « الإنسان المجهول » والمحدد في وقت معاً .

ج - ثم أن « التاريخ الإنساني في سيره يتأثر تأثراً قوياً بنمو المعرفة الإنسانية ... ولا يمكن لنا بالطرق العقلية أو العلمية أن نتنبأ بكيفية نمو معارفنا العلمية .. واذن فلا يمكننا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني » (٦١) . ضمن قانون حتمي . وهذه الملاحظة الهامة التي لخص فيها يوبر بنفسه كل فكره حول « عقم المذهب التاريخي » يمكن لنا أن نعممها فنقول أن التاريخ يتأثر أيضاً بتطور المجتمعات ، وتغير طرق المعيشة وتطور البنى النفسية للإنسان بل وبتأثيرات التاريخ العكسية فيه .. فلا يمكن التنبؤ فيه بالمستقبل بشكل يقيني ولا شبه يقيني ما دامت المعطيات الأولى لتلك التحولات المؤثرة فيها كقبض الريح ، تفر من بين الأصابع حتى الآن في اللجة الواسعة للحياة .. منذ مائة سنة أي في سنة ١٨٧٤ كانت شوارع أعظم المدن الأوروبية الراقية مملوءة بحيوانات البر ، وكانت السماء ملكاً للطير وحده . وكانت الاجسام الصلبة العتمة صلبة وعتمة . وكان الساعات كلها سواسية أمام الكون ، وكان المكان يتمتع بالتجانس والانهائية . وقوانين نيوتن وغاليليو وديكارت هي اليقين العلمي الذي لا يقين بعده .. من ذا الذي كان بإمكانه أن يتنبأ ، لو كتب التاريخ تلك السنة أو من ذا الذي كان بإمكانه أن يضع القانون الذي يعرف ولو على الظن والحدس وحتى الحلم البعيد (غير الروائي) أن الآلة سوف تطرد الإنسان والحيوان من العمل ، وأن الجو سيصبح للطائرات والصواريخ والأقمار والمركبات النازلة على القمر ، وأن كل ما كان يطمئن إليه العلماء كحقائق أبدية من مفاهيم وقوانين في الزمان والمكان والطبيعة سوف تنسفه من جذوره مفاهيم أخرى تغير وجه التاريخ ؟

د - وفي التاريخ احتمالات وصدف تشكل - ضمن حدود المعرفة الإنسانية الحالية - نوعاً من الانسلاخ ، ضمن منطوقية السير الكوني له . إنها تمتد لسانها لكل قانون . وإذا كان حساب الاحتمالات ممكناً في النطاق الرياضي والطبيعي فمثل هذا الحساب يتأبى ، حتى الآن ولعله سيظل طويلاً على التأبى - على كل قانون .. على الأقل لكثرة ما يتصل به من حدود روافدة أو مجهولة . أن كلمة « لو أن .. » كاشف كبير في التاريخ له مفعول السحر الفكري . انه على الأقل يكشف أن منطق « الحتمية » غير مطرد أبداً في التاريخ . يكشف أن سبيل الاختيار لم تكن كلها مغلقة في الحدث التاريخي وأن السبيل الذي سلكه ذلك الحدث لم يكن السبيل الوحيد . أن هذا وحده يكفي لإيقاف أي « قانون » حتمي .. مشلولاً وخارج التاريخ . من ذا الذي مثلاً كان يستطيع ، حتى لو ملك جميع المعارف اللازمة لوضع القانون التاريخي ، أن يضع الصيغة التي تتنبأ بانتهاء اليابان أمام القنبلة الذرية سنة ١٩٤٥ لو أن عبقرية **أوبنهايمر** صانع هذه القنبلة تأخرت في

كتشفها سنة أو سنوات ؟ ومن ذا الذي كان يعرف ماذا سيكون عليه تاريخ أوروبا الحديث لو أن خنجر سليمان الحلبي أصاب نابليون في مصر بدلا من كليبر ؟ ولو أن أم المعتصم التركية كانت أرمنية أو فرنسية فماذا كانت عليه علاقة الترك بالخلافة العباسية ؟ ولو لم تفشل خنجر الاسماعيلية ثلاث مرات في إصابة مقتل من صلاح الدين وهي التي لم تكن تفشل مرة في مثل ذلك . فإين كانت حطين من التاريخ ؟

وإذا كان لآثر « الأفراد الإبطال » في التاريخ نظرية واسعة ، ومؤيدون كثيرون ليس كاوليل بأولهم ولا بأخرهم ، فإن الاحتمالات المؤثرة في التاريخ أضيق من ذلك بكثير .. لقد تكون لا حياة فرد ولكن مجرد تصرف صغير غير مسؤول من حيوان أو مجرد صدفة ... وعندها : فإى قانون يمكن أن يحكم كل أولئك ؟

هـ - ان التاريخ لا يصل الى العقلية (وبالتالي الى القانون) الا حين يصبح قادرا على اثباتها بشكل يقيني ونهائي ، اى على كشف كافة الروابط التي تربط كل حدث من المصير الانساني بسابقه وبتناجه . والتاريخ ، في حدود المتوفر من الوثائق والآثار والاخبار اليوم لا يشكل نسيجاً كاملاً للماضي الانساني كله . ان النقص فيه لا يتشكل تروخاً فقط في ذلك النسيج ولكن لا يكاد يكون أكثر من مرق ووقع من الرداء الذى يلف الأرض طيات بعد طيات . الكثير من مادة التاريخ ضاع الضياع الابدئ ولو كان الامر يتعلق بالمادة الهامدة كان من السهل ان يدل الجزء على الكل اما والامر متعلق بالمادة الحية الواعية التى هى الانسان فانه بكل تأكيد يصبح مختلفاً جداً . وإذا كان التتابع الزمني في المادة يمكن ان يكشف عن العلية وحدود القانون . فانه حتى وضع السلاسل الزمنية الدقيقة للأحداث لا يشكل في التاريخ اى كشف للنواميس المحركة . وما يحاوله بعض المؤرخين من وضع نظريات يبدو ان الوقائع تؤيدها ليس أكثر من محاولات مسكينة « ولو دققنا النظر في هذه الوقائع لتبين لنا انها اختيرت في ضوء النظريات عينها التي نريد اختبارها بها .. (٢٢) » . ولا تكون النظرية التاريخية صحيحة ان وجدنا الوقائع التي تدعمها فقط ، ولكن ان عجزنا عن العثور على الوقائع التي تدحضها .. وهذا العجز لم يحدث بعد بالنسبة لاي نظرية .. ونحن في كثير من الاحيان نستطيع ان نبرهن ان النظريات المستخرجة من حالات « التعاقب التاريخي » ليست أكثر من تعميمات تجريبية Empirique ومن الخطأ ان نخلط ما بينها وبين القانون بمعنى الناموس العام الحتمى الشامل ، بل ان « هيوم » الذى تحدى المدرسة التجريبية منذ قرنين بطل ها هنا برأسه من جديد ، من خلال متشككي القرن العشرين الذين قد يرون معه ان التحليل السببي التاريخي ، في نهاية الامر لم يكشف أكثر من ان امراً يحدث في اعقاب آخر .. دون اى يقين في السببية والقانون .

و - وأخيراً فتمه ثلاث صعوبات كبرى تقف بين التاريخ وبين الوصول الى القانون ، وهي تقف في الواقع ، عامة بين كل بحث اجتماعي وبين تقنيته في صيغة رياضية او رمزية مجردة :

الاولى : صعوبة التعبير بالكمي عن الكيفي . ليس ثمة من وحدة قياس كمى أو رقمى تقيس الظواهر والعلاقات التاريخية . لا وزن ، لا قياس ، لا كيلا للحجم . الأبعاد والارقام تنتمي الى عالم

آخر من المعرفة لا يمر بالتاريخ الا لما . لقد نستطيع ان نحصى بعض اعداد الجيوش والسكان او عدد المدارس او الكتب ولكن كيف نعبّر رقما او ابعادا عن معركة عين جالوت او مصرع كتيدي او نكبة البرامكة ؟ وهي وقائع ذات ثبوت نفسي وامتداد زمني واتصال بما لا ينتهي من الاسباب والعوامل المكونة والنتائج ؟

الثانية : صعوبة المزج في العمل التاريخي بين الدراسة الساكنة (ستراتيك) والحركية (ديناميك) في وقت معا . صعوبة بحث الواقعة التاريخية بحالاتها من عناصر الاستمرار وعوامل اتغير في صيغة جدلية واحدة . ان بحث « الحدث » التاريخي سواء كان واقعة فردية او ظاهرة حضارية عملية تشريحيه لحد كبير . واذا حددت الظروف المختلفة مكانه وزمانه وابعاده الا انه كظاهرة تاريخية انسانية يعبر التاريخ في العمق ويتحرك خلاله ويؤثر فيه ويتأثر باستمرار . بجانب دراسته في ذاته اذن هناك دراسة اخرى له في حالة التحرك والتفاعل والتطور المتماضي ، ونحن نقوم بالعملين معا دون ان ندري احيانا . ولا بد في القانون المفروض ان يجمع بين جدلية الساكن والمتحرك ، بين الثابت المستمر والطارئ المحول في صيغة واحدة . ولقد يكون ذلك سهلا في العلوم الطبيعية المعروفة الحدود والتي نستطيع بسهولة في قوانينها ان نجعل بعض حدودها صفرا او ان نرسم لها الخط البياني المتحول . . اما في التاريخ فكيف تلتقي الواقعة ؟ وكيف تصور الخطوط الذاهبة في كل الاتجاهات ؟

الثالثة : صعوبة التمييز بين الروابط السببية في وقائع التاريخ ، والعلاقات الوظيفية والبنائية . الترابط بين ظاهرتين في التاريخ توجدان معا وتتغيران التغير النسبي طردا او عكسا بحيث تصبح الواحدة شرطا للآخرى ليس بمعنى ان الاولى سبب للثانية ولا ان الثانية نتيجة للاولى . مثل هذا النوع من العلاقة قد يكون نتيجة الترابط الوظيفي ، او البنائي في تكوين الوقائع التاريخية وليست كذلك العلاقة السببية او العلبة . نمة مثلا ، علاقة العلة والمعلول بين الفقر وظهور الاوبئة والطواغين في بعض حقوب التاريخ ، او بين التكاثر الديمغرافي والهجرات الفاتحة . اما علاقة انتشار الورق في العصر العباسي الثاني مع نمو الفكر وامتزاج الثقافات فعلاقة وظيفية . ومن مثل ذلك : العلاقة البنائية بين الهجرة الريفية الى المدن مع كثرة الزواج في جنوب العراق في اواسط القرن الثالث للهجرة . ان التغير التكنولوجي في الاولى وتبدل البناء الاجتماعي في الثانية قد اديا بين ما اديا اليه من امور كثيرة ، الى الخصب الفكري والى ثروة الزواج المدمرة . . دون علاقة العلة بالمعلول . لنسم ذلك بالاصطلاح الدارج المعروف : الاسباب المباشرة وغير المباشرة ان شئنا ، ولكن المواجهة المباشرة لها ولطبيعتها لا تسمح ببناء القوانين .

وهكذا لم يظهر حتى الآن اى قانون في التاريخ . لان « مشكلة السببية في الاصل ما زالت غير محلولة في جوهرها » (١٢) . ما ظهر ليس اكثر من تعميمات ، اوسع ما تتناوله في المدى مجموعة تكثر او تقل من القرون . وفي المكان منطقة تتسع او تضيق من الارض . وفي الوان الحضارة والحياة لون واحد لا يريد . . ومن ذلك نظرية بيورى حول التقدم ونظرية ربنان في التغير الديني . ونظرية ويبر Weber و Sombart حول اصل الرأسمالية ونظرية ماركس في صراع

الطبقات ، وتؤنبني حول دور التحدى والاستجابتي خلق الحضارات وتعميم اللورد آكتون بأن كل سلطة تفسد والسلطة المطلقة تفسد فسادا مطلقا. والاقوال الأخرى الشائعة من أن الظلم يولد الثورة وأن الثورة أول ما ناكل اولادها

هذه التعميمات وامثالها وإن كانت تتراوح ما بين درجة النظرية التي تحاول تفسير التاريخ كله وبين درجة الافكار التي تعكس بعض تجارب التاريخ ودروسه إلا أنها في كل الاحوال اشبه بمرحلة الحكمة من الفلسفة قد تحمل النظرة التجريبية الصائبة ولكنها لا تصل مستوى النظرية الفلسفية التي تحل مشكلة الكون ولا درجة القانون الذي ينتظم علاقات الوجود .. ولعل من الاصح ان نقول مع شولفين « انه بسبب وجود الإرادة الانسانية (وغيرها ايضا) في الحدث التاريخي هذه الإرادة التي قد تتعارض نظريا مع وجود قواعد ثابتة ، أو مع خلق قواعد جديدة فانه لا يمكن من حيث المبدأ أن تكون القوانين في حياة الناس قوانين مطلقة ثابتة ... » بل ان « قوانين » التاريخ أو ما ندعوه بالقوانين هي امور موجودة ولكنها تنتمي الى طبقة قوانين الاحتمالات ولا يمكن لها ان تكون نظرية - كالقوانين الرياضية أو الفلكية أو الميكانيكية - ولا يمكن لها خاصة أن تكون مطلقة ... (٦٤) » .

وقليلة جدا هي تلك الفرضيات العظيمة في التاريخ (كنظرية صراع الطبقات ، ونظرية التحدى .. وغيرها) التي تعدل في القيمة والشمول تلك النظريات الكبرى في علوم الطبيعة (ابتكار الجبر على يد **الخوارزمي** . تطبيق الرياضيات في الفلك على يد **جاليليو** . نظرية حركة البخار ، النظرية الكهرومغناطيسية ، النسبية) . ومع أن هذه الفرضيات المشابهة للقوانين تسهل عمل المؤرخ بجمعها آلاف الدقائق والوقائع المتناثرة وبإضاءتها الدائمة كزوايا مغلقة عتمة من الحقائق ، إلا أنها تتحجر وتفقد دقتها الخلاق أحيانا على يد انصارها انفسهم . تصبح مع التعصب آلة « دوغانية » جامدة للدرجة التي تعمى معها عن وجهات نظر أخرى لا تقل عنها واقعية وصحة ، وتوهم وجود « بنى » اجتماعية وتاريخية وعوامل ونتائج ما أن لها من وجود ، وذلك لمجرد أن النظرية فقط تفترض وجودها ، وأن المنظور الفكري لا يتم وينطبق إلا بذلك الافتراض . ولعل هذا ما دفع الكثير من المؤرخين الى التحرر من الارتباط بأى نظرية أو قانون والاكتفاء عن صياغة « النواميس » أو متابعتها بالشرح والتفسير الجزئي طبقا لمعطيات كل واقعة على حدة (٦٥) . بل أن الكثيرين اليوم يدعون الى إلغاء فلسفة التاريخ ويتجنبون الوصول الى نتائج عامة تستخلص من التجارب التاريخية ويرفضون الاعتراف بوجود قوانين موضوعية تحكم التطور الاجتماعي من أمثال **هورتون** وإيت استاذ الفلسفة في هارفارد ، وممثل البراغمية الحديثة الذي

يقول في كتابه : (أسس المعرفة التاريخية) « أن فلسفة التاريخ التي تزعم أنها تدرس التطور الاجتماعي وقوانين نشوء الحضارات وتطورها ومستقبلها ، إنما هي فلسفة « تقديرية » . ورجل العلم المعاصر الذي يحاول أن يضع فلسفة للتاريخ إنما يوجه أكثر اهتمامه الى تحليل الفكر التاريخي واللغة التاريخية .

هل يعني هذا كله ان « القانون » غير موجود في التاريخ ؟ بعيدا عن الوصول الى مثل هذه النتيجة العلمية التي تجعل الوجود كله مجرد زوابع من الصدف العمياء في الفراغ اللانهائي ، فانا بالعكس نؤمن ان الوجود جميعا - بما فيه الوجود الانساني - يخضع لآدق وأعمق وأخفى القوانين . لا أسهل من البرهان المنطقي على وجود « قوانين » تحكم التاريخ ولكن كشف هذه القوانين هو المشكلة . هو المستحيل حتى الآن بوسائل ورموز وطرق المعرفة التي نتداول ونستطيع . ولعل التعميمات الكبرى إنما هي بعض الدلائل والمؤشرات على ما وراءها من ناموس يمشي بقدر ويقف بقدر . وإذا كنا لا نستطيع ان نفعل عامل « الجديد » و « الصدفة » والقفزة النوعية التطورية في التاريخ لنقول مع أوغوست كونت في يقينه الدوجماتي « من يعرف الماضي جيدا يعرف المستقبل » فلعلنا نستطيع ان نقول باطمئنان مع (كانت) : « لو امكننا ان يكون لنا بصر نافذ عميق في الطابع العقلي للانسان كما تدل عليه الاعمال الداخلية والخارجية . أى بان نعرف كل دوائفه حتى اصغر دافع فيها . ونعرف كل الظروف الخارجية التي تستطيع ان تؤثر فيها .. لو امكننا ذلك لاستطعنا ان نحسب سلوك الانسان في المستقبل بمثل اليقين الذي نحسب به خسوف القمر او كسوف الشمس . ومع ذلك سنظل نؤمن بأن الانسان حر .. » (٢٦) . بمعنى ان ثمة دوما هامشا من المنطقة الحرة متروكا لفعالية الحياة الانسانية المتجددة بين العبودية لعوامل الماضي ومقتضياته وبين ما يحققه الانسان من عمل خلاق في المستقبل . وهذا الهامش هو الذي سيظل العنصر الأبقى المتمرد على أى قانون وتنبؤ .

ويسألونك بعد عن التاريخ هل هو علم ؟ قل : قد رأيت ...

انه ليس بعلم ان شئنا ان نفهم من الكلمة المعنى الكلاسيكي لها : معنى العلوم الطبيعية وما تصطنع من وسائل منطقية ومن معالجة وضعية للمادة تكشف بها علاقاتها حتى تتحول تلك العلاقات الى قوانين رياضية . التاريخ ليس من هذا ابداً أنه من ميدان آخر بعيد .

ويسألونك اذن فهل هو ثقافة ؟ بلى ! على ألا نفهم من الكلمة انها عكس العلم او أدنى درجة منه . ولا انها المعرفة التطوعية او الأفاقية غير ذات اليقين . ولا انها نوع من الترف الفكرى الذى يزين بعض الجماع . انه ثقافة بمعنى اعطاء الانسان ابعاده كائن .

ويسألونك اذن فهل هو دراسة اجتماعية ؟ لقد تكون الدراسة الاجتماعية بعضا منه . لانه

أوسع منها في المدى الأفقى بتنوع نواحيه وأبعد منها في المدى الزمنى بما يضم من العصور الغابرة .

ان التاريخ علم إنسانى (فى مقابل العلم الطبيعى) . انه معرفة مختلفة فى الطبيعة والميدان والموضوع عن العلوم الطبيعية . وعدم علميتها حسب مناهج هذه العلوم لا يعنى عدم علميتها المطلقة . ولا ينقص من قيمتها كمعرفة إنسانية . ولكنه يعنى ان العلماء لم يصلوا بعد الى المقولات والوسائل والمناهج التى تتناسب فى التعقيد مع مادة التاريخ والتى تستطيع ان تضم بين حدودها الشاملة آفاقه اللامتناهية .

اساس المشكلة يقوم فى ما يمكن ان نستعير من اقوال اورتيجا اى كاسيه J. Ortega y Gasset : « الطبيعة شيء . بل شيء عظيم مؤلف من عدة اشياء صغيرة ومهما تكن الفروق بين الاشياء فان لها مظهرا واحدا مشتركا هو انها .. ذات وجوداى ذات مبنى وتركيب محدد . اى لها طبيعة ثابتة .. (ولكن) عجائب العلم الطبيعى ستظل دوما تقف (مبهورة) امام حقيقة الحياة الإنسانية الغريبة .. فلم يقف هذا السر وحده امامها مطلقا ؟ لعل التفسير هو ان الانسان ليس شيئا . وانه من (الزيف) ان نتحدث عن « طبيعة » إنسانية . ان الانسان لا « طبيعة » له .. الحياة الإنسانية ليست شيئا . وليس لها طبيعة واذن فعلينا ان نوطن النفوس على ان نتصورها من خلال المصطلحات والمقولات والافكار التى تختلف جذريا عما يبطرنا بظواهر المادة .. ليس للانسان « طبيعة » انما له تاريخ .. » (٦٧) . ولعلنا نستطيع ان نستبدل بكلمة تاريخ القول : « ان له طبيعة زمنية متطورة دون انقطاع . وهنا يكشف « ان العقدة الاساسية فى فلسفة العلوم الاجتماعية (عامة وفى التاريخ خاصة) هي هذه : هل بالمستطاع دراسة الانسان بالوسائل نفسها التى تطبق على الكائنات الدنيا والطبيعة الصماء ؟ » (٦٨) . فالتاريخ ، كعلم إنسانى اذن ، له (او يجب ان يكون له) علميته الخاصة اى طرائقه ومنطقه فى فهم الموضوعية الزمنية التطورية ، وفى الوصول اليها ، عبر متحولاته الثلاث : الزمان والمكان والانسان . على ان عدم وصول التاريخ الى القوانين التاريخية حتى الآن :

١ - لا يعنى انه ليس باستطاعته الوصول اليها ، بقفزة نوعية فى الفكر التاريخي تشبه قفزة نيوتن ورعيله المعروف فى العلم الطبيعى ، متى توفرت المعطيات الاولى والمقولات التى لا بد منها لمثل تلك القفزة .

٢ - لم يمنع التاريخ كمعرفة إنسانية من الدرجة الاولى ، من التقدم والتوسع . العمل التاريخي اليوم ناشط جدا فى نطاق توفير المادة الاولى وجمعها وتنسيقها ، وهو نصف العلم .

(٦٧) اورتيجا اى كاسيه - التاريخ كنظام . نقلا عن كاسير - مقال فى الحضارة الإنسانية (الترجمة العربية)

ص ٢٩٢ .

(٦٨) جون كيميني - الفيلسوف والعلم (الترجمة العربية - امين الشريف - بيروت ١٩٦٥) ص ٢٥٢ .

٣ - لم يبلغ قيمة التعميمات والتفاسير التاريخية التي اخذت احيانا شكل القواعد العامة والنظريات الكبرى والتي كانت نتيجة مقارنات عرضانية وطولانية عبر مجرى التاريخ . انها مرتسمات القياس التاريخي، من خلال الحضارات المتعددة (التاريخ الساكن) . ومن خلال مسيرة التاريخ (التاريخ المتحرك) . فالديالكتيك الهيفلي ، رغم ميتافيزيكية صاحبه ، أخصب التاريخ اوسع الخصب ، بقدر ما زادت المادية التاريخية مع فيورباخ وماركس ، من عمقه ، وما قدمت فيه الآراء منذ ابن خلدون حتى توينبي من زاد انساني .

★ ★ ★

عبد الرحمن بدوي

أحدث النظريات في فلسفة التاريخ

حين نتحدث عن فلسفة التاريخ نقصد تاريخ الانسان ، لانه الكائن الواعي الوحيد بين الموجودات ، ولا فلسفة حيث لا وعى ، ولهذا فلامحل للحديث عن « فلسفة » التاريخ بالنسبة الى غير الانسان .

والانسان بدوره تاريخى ، لانه انما يعمل فى الزمان ، ولا تاريخ الا بالزمان . ومن هنا ارتبطت كل نظرية فى التاريخ بنظرية فى الزمان :

١ - هل للزمان بداية ونهاية ؟

من اجابوا بالإيجاب انقسموا الى فريقين :

١ - فريق حسبوا هذه المدة وفقا لاحداث ومقاصد معينة ، وهو فريق اصحاب النظرات الدينية فى الزمان وفى التاريخ ، الذين ربطوا الزمان بالخالق الاول وبمصير الانسان فى الدنيا

وبنهاية يرتبط بها حساب وعقاب ونواب . ومن أبرز مثليه **فيلون** (حوالى ٢٥ ق.م - ٥٠ بعد الميلاد) بالنسبة الى اليهودية ؛ **والقدس أوغسطين** (٣٥٤ - ٤٣٠) بالنسبة الى المسيحية وابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) بالنسبة الى الاسلام .

ب - ونرى ربطوا تلك المدة بأحداث فلكية كونية ، بمعزل عن كل المعاني الدينية ، كما هو الشأن لدى علماء الفلك والاثروبولوجيا الفلسفية وعلماء الحساء ، ومن هذا حظوهم من المؤرخين المتأثرين بالعلوم الفيزيائية والطبيعية ، مثل رنهاز (١٨٢٣ - ١٨٩٢) **Renan** و **أرنست هكل** Ernst Haeckel (١٨٣٤ - ١٩١٩) .

٢ - هل التاريخ مسار واحد ، أو التاريخ دوائر ؟

فمن قالوا بالأولى تصوره معرضا للروح المطلقة وهى بغض مضمونها على مر الزمان اللامتناهى ، وأبرز ممثل هذا الاتجاه **هيجل** (١٧٧٠ - ١٨٣١) . ومن قالوا بالثانية تصوره دوائر اما مغلقة هي الحضارات المختلفة - اودوائر يفضى بعضها الى بعض ولها عودات **Ricorso** : وبالفكرة الاولى قال **اسبينجلر** (١٨٨٠ - ١٩٣٦) ، وبالثانية قال **فيكو Vico** (١٦٦٨ - ١٧٤٤) .



وفى داخل هذه الاطارات العامة استمرت مشكلة فلسفة التاريخ :

١ - وأولها مشكلة النسبية فى التاريخ وبخاصة ما يتعلق منها بالقيم . فافضب الى نظريات **دلتاي** فى نقد العقل التاريخى (١٨٣٢ - ١٩١١) وبدلتاي تبدأ فلسفة التاريخ المعاصرة ، ونظريات **اسبينجلر** فى نسبية القيم الى الحضارة المبنية فيها ، وآراء **ماكس فيبر Weber** (١٨٦٤ - ١٩٢٠) فى الربط بين التاريخ والاجتماع ، وما ذهبت اليه المادة التاريخية عند **كارل ماركس** (١٨١٨ - ١٨٨٣) و **فريدريش انجلز** (١٨٢٠ - ١٨٩٥) من الربط بين الاقتصاد المادى والتاريخ ، وما قال به **كارل مانهيم** من اجتماع المعرفة ، وآراء **بندتو كروسه** (١٨٦٦ - ١٩٥٢) فى التاريخية المطلقة .

٢ - وتأتينا مشكلة العلية فى التاريخ - وتندرج تحتها الاسكالات والخواطر التى حفلت بها دراسات **توينبى** (ولد سنة ١٨٨٩) و **كارل پوپر Karl Popper** .

٣ - وبالثا مشكلة التقدم والخلف فى مجرى التاريخ : هل هناك خط للتقدم ستمر قدما ؟ أو نم تقدم وتخلف دون قاعدة ولا قانون ؟ وما من فيلسوف فى التاريخ الا وتعرض لهذه المشكلة اما لماما واما تفصيلا .

٤ - وارباعا امكان التنبؤ بما سيكون عليه التاريخ . وفى هذا ذهب البعض الى التفاوض ، والبعض الآخر الى التشاؤم ، والبعض الثالث زعم انه بمعزل عن كليهما ، وانه تنبأ تنبؤات موضوعية غير تقويمية . ومن الذين برزوا فى هذا المجال : **توكفيل** (١٨٠٥ - ١٨٥٩) و **بيلقوب بوركهوت** (١٨١٨ - ١٨٩٧) و **فريدريش نيتشه** (١٨٤٤ - ١٩٠٠) وآخرها **كارل يسيبر** (١٨٨٣ - ١٩٦٩) .

وفيما يلي نعرض لآراء طائفة من فلاسفة التاريخ المعاصرين * .

١ - فلهم دلتاي

ونبدأ بفلهلم دلتاي Wilhelm Dilthey لأنه رائد التيارات المعاصرة في فلسفة التاريخ في ألمانيا .

هدف دلتاي إلى أن يقوم بالنسبة إلى التاريخ بما فعله كانت (١٧٢٢ - ١٨٠٤) إلى العقل الإنساني المجرد ، وذلك بأن يقوم « بنقد للعقل التاريخي » هو بمثابة تكملة « لنقد العقل الحس » كانت Kant .

وإبتداء من هذه الحقيقة وهي « ضرورة فهم الإنسان بوضعه موجودا تاريخيا في جوهره ، وأن وجوده لا يتحقق إلا في جماعة » (١) . وراح يدرس « علوم الروح » على أساس تاريخية الوجود الإنساني ، بمعنى أن الإنسان بعدا أساسيا هو التاريخ ، فينبغي دراسة العقل الإنساني من زاوية التاريخ . فالطبيعة غريبة عن الإنسان ، ويستطيع المرء إدراكها بواسطة الملاحظة الحسية ، أما العالم التاريخي الاجتماعي فهو عالم الإنسان ، ولا يمكن إدراكه إلا من الداخل (٢) . ولهذا فإن العلاقة بين الإنسان والموضوع . في العلوم الروحية ، علاقة مباشرة ، لأن هذا الموضوع هو التجربة الإنسانية الحية . ومن هنا فإن الأساس في العلوم الروحية هو التجربة الحية Erlebnis ، ويقصد بها الأحوال والعمليات والنشاطات الباطنة كما نستشعر . ونحيها ونعيها .

ويعرف دلتاي العلوم الروحية Die Geisteswissenschaften بأنها « مجموع الدراسات التي موضوعها هو حقيقة التاريخ والمجتمع » (٣) ، وتسمى بالفرنسية « العلوم الأخلاقية » Sciences morales .

وعلى الرغم من أن العلوم الروحية قد تتناول بعض الأشياء والعمليات الفيزيائية فإنها إنما تتناولها من حيث هي أثار أو ذات علاقة بتحقيق الأغراض الإنسانية ، أو نفيد في التعبير عن الأفكار والمشاعر الإنسانية . « وادن لا يهتم الدراسات الإنسانية (= العلوم الروحية) بالظواهر الفيزيائية إلا من حيث صلتها بالوعي الإنساني ، وخصوصا من حيث هي تعبيرات من خلالها يمكن فهم هذا الوعي .

وهذه العلوم الروحية متنوعة جدا : إذ تشمل علوما فنية مثل النحو والخطابة ، وعلوما معيارية مثل الأخلاق والنظريات السياسية والنقد الأدبي ، وعلوما تجميعية مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد ، وعلوما تاريخية بالمعنى الضيق مثل التراجم والتراجم الذاتية والتواريخ .

* نقرأ إلى أننا ألفنا كتابا عن اشبنجر (ط ١ سنة ١٩٤١) فلن نذكره هنا مكتلين بالاحالة إلى كتابنا .

(١) Der Junge Dilthey, p. 124. Leipzig & Berlin, Teubner, 1933.

(٢) راجع لدلتاي : « مجموع مؤلفاته » ج ١ ص ٣٦ - ٣٧ Gesammelte Schriften .

(٣) دلتاي : « مجموع مؤلفاته » ج ١ ص ٤ .

والدراسات (٤)، الإنسانية تجمع بين ثلاثة أصناف متميزة من الغريزات . فصنف منها يقرر حقائق موجودة في الإدراك الحسي : وهذا يؤلف العنصر التاريخي في المعرفة . وصنف يوضح العلاقات المترددة بين أجزاء من هذه الحقيقة ، يميزها بالتجريد : وهذا يؤلف العنصر النظري . والصنف الثالث يعبر عن الأحكام التقويمية والقواعد المفروضة : ويتضمن العنصر العملي في الدراسات الإنسانية . وعلى هذا فإن العلوم الروحية (= الدراسات الإنسانية) تتألف من أقوال تعبر عن وقائع ونظريات وأحكام تقويمية وقواعد .

وملكة المعرفة في الدراسات الإنسانية هي الإنسان كله والأعمال العظيمة التي يمت نبها لم تنشأ عن العمليات العقلية وحدها ، بل عن قوة الحياة الشخصية .

تاريخية الإنسان :

والإنسان الفرد تاريخي في جوهره ، لأنه يعيش في الزمان، ويتجدد بأحوال وظروف معينة، ووجوده عملية زمنية تتحدد بال ميلاد والموت ، وتتألف من سلسلة متصلة الحلقات تتألف من ماض وحاضر ومستقبل ، ونجرى هذه العملية في إطار علاقاته مع الآخرين ، وعلاقاته مع الطبيعة . ولما كان الفرد كذلك ، فإن العلاقات بين الأفراد هي أيضا علاقات تاريخية . وحياة الإنسان حياة تاريخية ، وعالم الإنسان اذن هو عالم التاريخ .

واساقا مع هذه التاريخية ، يرفض دلتاي المبادئ المطلقة والقيم المطلقة ، وينكر النظرة التي « ترى مهمة التاريخ في التقدم من قيم والتزامات ومعايير وخبرات نسبية الى قيم والتزامات ومعايير مطلقة ... صحيح ان التاريخ يعرف اقوالا مفادها وجود قيمة او معيار او خير مطلق وهذه الاقوال تظهر في كل مكان في التاريخ - مرفعى ان ذلك صادر عن ارادة الهية ، ومرة اخرى بالاستناد الى نظرة عقلية في الكمال ، او الى نظام نمائي للعالم ، او الى معيار - مقبول قبولاً كلياً - لسلوكنا القائم على أساس عال على الوجود . بيد ان التجربة التاريخية تعرف العملية فقط ، عملية اصدار هذه الاقوال : ولكنها لا تعرف شيئاً عن صحتها المطلقة (الزعومة) . ولما كانت تتابع عملية تشكيل مثل هذه القيم المطلقة والخبرات والمعايير ، فانها تلاحظ بالنسبة الى كثير منها كيف انتجت الحياة ، وكيف ان التقدير المطلق أصبح هو نفسه ممكناً بفضل تحديد أفق العصر . ومن هناك ننظر الى جماع الحياة في ملاء تحقيقاتها التاريخية . وتلاحظ الكفاح السجل بين هذه الاقوال المطلقة بين بعضها وبعض . والسؤال عما اذا كان يمكن ان يوضع ببنية منطقية ، ان اندراج التجربة تحت امثال هذه المبادئ المطلقة - وهي من غير شك حقيقة تاريخية ، يجب ان يرد الى عامل في الانسان كلى وغير محدود زمانياً - هذا السؤال يفضى الى الاعماق النهائية للفلسفة المتعالية ، التي تقوم وراء الدائرة التجريبية للتاريخ ، مما لا تستطيع حتى الفلسفة نفسها ان تنتزع منه جواباً أكيداً » (٥) .

(٤) راجع دلتاي : « مجموع مؤلفاته » ج ١ ص ٢٦ - ٢٧ ، الفصل السادس من « الدخلى الى العلوم الروحية » .
وستستعمل احياناً كلمة « الدراسات الإنسانية » - بوصفها الاستعمال الأكثر شيوعاً اليوم . بدلا من كلمة « العلوم الروحية » التي استعمالها دلتاي ويكثر استعمالها في اللغة اللاتينية .

(٥) دلتاي : « بنوع العالم التاريخي في العلوم الروحية » ، مجموع مؤلفاته ، ج ٧ ص ١٧٢ .

ولهذا نرى دلتاي يفرض كل محاول لتفسير التاريخية بواسطة اللجوء الى اى مبدأ غير متروك ، سواء كان ذلك بمعنى عال او بمعنى محايث ، لأن عالم الانسان هو من عمل الانسان ، أى من عمل الافراد فى علاقاتهم مع بعض ، والتاريخية تنسب الى العالم الانسانى وحده ، ومجرى التاريخ يرجع الى النشاط الانسانى ، فلا مجال اذن الى الاهابة بمبدأ فوق انسانى .

ومن نتائج هذه النسبية المنبثقة عن التاريخية ان قرر دلتاي ان الفلسفة مشروطة تاريخيا ، وان ماهية الفلسفة لا تتجدد بطريقة قبلية ، بل على اساس تحليل الطرق المختلفة التى نجلت عليها الفلسفة فى التاريخ ، مما سيظهر منه ان وحدة الفلسفة لا تقوم فى وحدة الموضوع أو المنهج ، بل فى وحدة الموقف الذى يعبر مختلف الاشكال التاريخية للفلسفة . « وكل حل للمشاكل الفلسفية ينتسب - من الناحية التاريخية - الى زمان معين وإلى موقف معين فى ذلك الزمان : ان الانسان ، وهو من صنع الزمان ، طالما يعمل فى الزمان ، يجد امان وجوده فى هذه الحفظة وهى انه يرفع مخلوقاته من مجرى الزمان بوصفها اشياء دائمة : وهذا الوهم يوجب عمله الإبداعي مزيدا من السرور والقوة . وهنا يقوم التناقض المستمر بين العقول الخلاقة وبين الوعى التاريخي . انه طبيعى بالنسبة للمهم ان ينسوا الماضي ، وأن يفضوا النظر عن المستقبل الأفضل الآتى : لكن الوعى التاريخي يعش فى فهم كل العصور ، ويلاحظ فى كل ابداع الافراد ما يصاحبه من نسبة وزوال . وهذا التناقض هو الاضطراب الخفى الذى تحمله الفلسفة اليوم فى صمت . اذ فى فيلسوف اليوم يتجمع ابداعه مع الوعى التاريخي ، لأن اليوم بالنسبة الى الغد يجعل فلسفته لا تؤلف غير شذرة من الواقع . ولا بد لنشاطه المبدع من أن يعى انه حلقة فى النسق التاريخي الذى فيه يشعر بأنه اثنى نسبى . وهناك يقدر على حل هذا التناقض ، وذلك بأن يسلم نفسه بهدوء الى سلطان الوعى التاريخي ، ويستطيع ان يرى عمله اليومى من ناحيه (او زاوية) النسق التاريخي الذى منه ماهية الفلسفة تحقّق نفسها فى تنوع مظاهرها (٦) » .

٢ - جورج زمل

ونسبية المعرفة التاريخية

ومن تأثروا بدلتاي فى فكرة نسبية المعرفة التاريخية جورج زمل (١٨٥٨-١٩١٨) خصوصا فى كتابه « مشاكل فلسفة التاريخ » * وقصده ان يبين ان التاريخ ليس مجرد ترجمة بسيطة للواقع المعاشى مباشرة ، بل ان المعرفة التاريخية تخضع لامور قبلية . وقد قسمه الى ثلاثة اقسام : الاول خاص بالشروط الباطنة للبحث التاريخي ، والثاني يدرس قوانين التاريخ ، والثالث يفحص المعنى الفلسفى للتاريخ .

تساءل زمل أولا عن ماهية المعرفة التاريخية ، فيقرر ان المعرفة التاريخية موضوعها هو الامتتالات والارادات والحساسات الخاصة ببعض الاشخاص ، أى ان مضمونها الموضوعية هى نفوس . « وكل الاحداث الخارجية والسياسية والاجتماعية ، والاقتصادية ،

والدنيوية ، والتشريع والصناعية لا يمكن أن تكون شائعة ولا مفهومة لنا إذا لم يكن مسمدة من حركات النفس وإذا لم تحرك النفس . وإذا كان لا ينبغي أن يكون التاريخ لعبة عرائس ، فإنه إذن تاريخ أحداث نفسيه ، وكل الأحداث الخارجية التي يصنعها ليست إلا الجسور بين الاندفاعات والأفعال الإرادية من ناحيته ، وبين الأفعال المنعكسة العاطفية التي نبرها هذه الأحداث الخارجية . وهذه الملاحظة لا يفندوها المحاولات التي أجريت لرد الحدث التاريخي ، في تعييناته الجزئية ، إلى أحوال فزيائية . وطبيعة الأرض والجو لا أهمية لها بالنسبة إلى مجرى التاريخ ، كما لا أهمية لأرض وجو نجم الشعري العبور ، إذا لم تؤثر هذه الطبيعة - مباشرة أو بطريقة غير مباشرة - في التركيب العضائي للشعوب . ولهذا فإن الطابع النفساني للبحر التاريخي يبدو أنه يفرض عليه أن يكون مثله الأعلى هو أن يكون تطبيقاً لعلم النفس ، بمعنى أنه يرد إلى علم النفس ، أو وجد علم نفس يحدد قوانين ، كما يرد علم الفلك إلى الرياضيات » (٧) .

ومع ذلك ينبغي ألا نخلط بين وجهة نظر المؤرخ ووجهة نظر عالم النفس . ذلك لأنه بينما عالم النفس يوجه اهتمامه إلى عمليات المعرفة ، غامضا النظر عن مضموناتها ، فإن ما يهم المؤرخ « ليس نمو المضمونات النفسية بقدر ما هو النمو النفساني للمضمونات » (٨) ووجهة نظر التاريخ « بسيطة بين وجهة نظر التحليل المحض ، التحليل المنطقي لمضمونات الشعور ، ووجهة نظر علم النفس أعني التحليل الديناميكي للحركات النفسية للمضمونات » (٩) . ويريد زمل في تحديد الفارق بين التاريخ وعلم النفس يقول : « وكل واحد من هذين العلمين يضع وحدة الواقع والتغير النفسانيين ، تلك الوحدة التي لا نفعل غير أن نعيشها في مباشرتها ، لكننا لا نملك إدراكها في النور الساطع . ونحن نقسم هذه الوحدة ، لدراستها عقليا ، إلى عمالية ومضمون ، ونقسم العمل العلمي يخلق ، من ناحية ، علم النفس ، من أجل بناء العملية ، والقوانين التي تحكمها - « على النحو الممكن لتعيينها - ، ومن ناحية أخرى يخلق علوم المنطق والإدراك الموضوعي ، ابتغاء البحث عن المضمونات بغض النظر عن العملية التي بها تتحقق هذه المضمونات نفسانيا ، وأخيرا يخلق التاريخ ، وموضوعاته لا يتحدد . . . إلا بأهمية ومعنى حقيقيين ، أيا كانت طبيعتها وتصبح ، في النمو الذي يعاينه العمل النفسانية ، المضمونات التي اختارتها وفقا لهذا الطابع الأساسي » (١٠) .

ذلك أن نفس الأحداث النفسية ، مثل الحب ، الكراهية ، الخ يمكن أن تكون لها هي نفسها نتائج خارجية شديدة التفاوت . ولنضرب على هذا مثلا ما حدث في الثورة الفرنسية بين حزب هيرت (١١) Hèbert وبين روبسبيير : فبعد أن عاونوا روبسبيير على اغراضه ، انقلبوا عليه في

(٧) زمل : « مشاكل فلسفة التاريخ » ط ٢ ، الفصل الأول ، ص ١ .

(٨) زمل : الكتاب المذكور ، ص ،

(٩) زمل : الكتاب المذكور ، ص ،

(١٠) الكتاب نفسه ، ص ٥ .

(١١) جاك دينيه هيرت ، الذي كان وكيل النائب العام للكومين ، وكان من الحرفيين على مذاهب سينتير (التي قتل فيها السجناء السياسيون في سجون باريس وبخاصة في سجن « الديري » وسجن « القوة ») ، وذلك في أيام ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٢) ، وكان ذا نفوذ هائل على كومين باريس حتى اعتزل وشق هو وكثير من أنصاره في سنة ١٧٩٤ .

اليوم الذي صارت له السلطة العليا فهذه الوقائع التاريخية يُؤلف سلسلة تفهم جيدا إذا فسرها على ضوء هاتين القاعدتين النفسائيتين وهما: إذا ساعد المرء أغراض حزب كسب رضاه ، وإذا سيطر على هذا الحزب اجتلب كراهيته وغيرته . وفي التاريخ السياسي المعاصر نواهد كثيرة عليه في الصراعات بين الأحزاب المتألفة قبل الوصول إلى الحكم والمتعادية المتطاحنة بعد هذا الوصول . غير أن هاتين القاعدتين مع ذلك ليست لهما غير قيمة نسبية واحتمالية . إذ قد تحدث على العكس من ذلك أن يرى أحد الحزبين المتحالفين قبل الحكم في وصول أحدهما إلى السلطة فرصة لارتداد قوته هو ووسيلة للمشاركة في السلطة . . . لكن الذي يفسر ما حدث لانصار دبرت هو طبيعة الأشخاص الذين شاركوا في هذا العمل . ومعنى هذا أن الأحداث النفسية الواحدة في الظروف الواحدة قد تنتج نتائج متناقضة ، إذا اختلف طبائع الأفراد . ومن هنا كان علينا ، ونحن نفسر وقائع التاريخ ، أن ندخل في حسابنا عامل الفروق الفردية والخصائص الشخصية ، والا تقتصر على المعاني العامة مثل الحب والكراهية ، أو التده ، أو المكر أو الذكاء ، الخ .

فزل إذن يؤكد أهمية القواعد النفسية ، كما يعترف من ناحية أخرى بطابعها الافتراضي الاحتمالي .

وهذا الطابع الافتراضي الاحتمالي يزداد بانه وضوحا حين تكون الأسباب التي يبدأ منها الحدث التاريخي أسبابا لا شعورية ، كما هي الحال في أعمال الجماهير والدهماء . ويلاحظ **فزل** « أن التبرير باللاشعور ليس في نظارنا غير تعبير عن كون الأسباب الحقيقية غير معروفة لنا ، ويعني فقط أن معرفة الأسباب الشعورية ليست في متناول أدينا ، وكوننا نحمل من هذا الشيء السلبى الخالص أمرا إيجابيا ، ونحمل الأمر غير المشعور به إلى أمر لا شعوري ، سيكون شكلا معيناً من الحياة العقلية - هذا النحو هو وسيلة للتعبير فقط عن الحاجة إلى ملء فراغ العالم في العمل الإنساني بواسطة دافع نفسي (١٢) » .

وتحديد الدور النفسي في التفسير التاريخي لكل من التبرير الشعوري والتبرير اللاشعوري - أمر يتوقف على الشخص المؤرخ . والمشهد هو أننا نفضل اللجوء إلى التبرير الشعوري حين يبدو لنا أن أسباب الأحداث راجعة إلى إرادة الأفراد ، وإلى الرجال العظام خصوصا ، بينما نلجأ إلى التبرير اللاشعوري حينما تبدو لنا الأسباب راجعة إلى ميسول الجماهير . وإيثار المؤرخ لأحد التبريرين على الآخر يرجع إلى رأيه الخاص في أيهما الأهم في أحداث حوادث التاريخ : الأفراد ، أو الجماهير . وكذلك الحال في مسألة إرجاع التأثير إلى القوى الاجتماعية أو النظم أو العادات والتقاليد أو التنظيم الاقتصادي أو إرجاعه إلى الأفراد - هذا أيضا يتوقف على مزاج المؤرخ ونظريته في الوجود والحياة .

وهنا يزداد الأمر تعقيدا حين نريد تفسير تأثير الأشخاص . إذ علينا أن نحدد الطابع العام للتخصبة من تصرفاتها الجزئية ، ونحدد التصرفات الجزئية استنادا إلى الطابع العام للشخصية - وفي هذا دور فاسد ، لكن لا سبيل إلى التخلص منه . كما كان المؤرخ في تفسيره للشخصية المؤثرة في مجرى الأحداث ، يستنتج من تصرفاتها السابقة أماكن تصرفات أخرى .

ولكن هذا الاستنتاج تعوزه الدقة المنطقية . ويواصل زميل ايضاح هذه المعنى فيقول : « من الموضوعات ذات الهمية الكبرى في فلسفة التاريخ تحديد المعايير التي تتخذها قواعد لتوحيد الطبايع ، ومعايير للواقع المعطى ، ووسائل للعرض ، مما يمكن من تكوين صورة سابقة لما ينبغي ان يقوم في تشكيل هذه الشخصية ، ومن هذه الموضوعات كذلك تحديد الهامس الذي في داخله نتصور امكان الافعال التي تنحرف عنها ، وتحديد الوان النمو والتحول التي تغلبها نتائج ناشئة عن المبدأ الباطن للشخصية ، وما نعتقد ان تفسيره ينبغي ان يلتصق في الظروف الخارجية . اذ ما من شك في وجود قواعد محدده لهذا التفسير ، قواعد يفرض وجودها المؤرخ والقارئ على السواء ، وان لم نتحدث بعد بوضوح (١٢) » .

وحين يتعلق الامر بجماعات ، فان وحدة الجماعة في نصرافها يرددها المؤرخ اما الى الاحداث النفسانية التي جرت في نفوس زعمائها ، او الى نمط نفساني وسط ، او الى مشاعر الاغلبية فيها . ويشير زميل هاهنا الى ما فعله **ماكولي** (١٨٠٠ - ١٨٥٩) المؤرخ الانجليزى الشهير ، حينما اقترح عشرة اسباب ودوافع لتفسير تحمس حزب الهيونج لمشروع قانون معين ، ويعلق قائلا : « من الواضح انه ، في شعور كل واحد من أعضاء الحزب لم يوجد هذه الدوافع العترة كلها معا ولا بنفس القوة . والحزب الذى انتجت وحدته النفسانية هذه الدوافع ليس الا صورة متالية ، وهما ناشئا ومتولدا في مخ المؤرخ بوصفه مربا للوقائع المعطاة (١٤) . ومن هذا يظهر دور المؤرخ في تشكيل الاحداث التاريخية وتصور دوافع الجماعات والافراد . والحق اننا لو تتبعنا ما يقوم به المؤرخ في ذهنه حين يفسر احداث التاريخ لوجدناه يستخدم عمليتين اساسيتين : **الاولى** تقوم في بذل مجهود بتولاه الخيال والتعاطف ، بواسطته يضع المؤرخ نفسه في روح الشخصيات او الجماعات التاريخية . وعلى المؤرخ ان يستعيد في نفسه المضمونات النفسانية التي انتجت في الشخص الذى يدرسه . ويبدوان هذا لا يكون ممكنا الا اذا كان المؤرخ نفسه قد عاش تجارب ومضمونات مماثلة ، وهو ما يتارعة تحت مشكلة : من هو الاقدر على فهم التاريخ : من عاش احداثا تاريخية وشارك فيها واسهم في صنع التاريخ ؟ او من لم يشارك فيها ، وكان مشاهدا محابدا « موضوعيا » لها ؟ وهى من عصر المشاكل القديمة في فلسفة التاريخ .

والعملية الثانية ان تضع المضمونات المعاشة على انها خارجة وراجعة الى الغير .

على انه يلاحظ انه ليس من الضرورى ان تتميز هاتان العمليتان نميزا بارزا اد الغالب ان يترابطا وان يتكاملا .

وهنا يتطرق زميل الى فكرة الموضوعية في المعرفة التاريخية فبين ان المعرفة التاريخية شأنها شأن اية معرفة انسانية ، تنقل المعطيات المباشرة الى لغة اخرى ونخضعها لاشكالها ومقولاتها ومقتضياتها الخاصة . ففي الترجمة الذاتية لا بد ان يترجم لنفسه ان يختار بين الاحداث وان يربتها ترتيبا جديدا . وهذا عينه يصدق على التراجم او السير وكل انواع الكتابة

(١٣) زميل : مشاكل فلسفة التاريخ ، ط ٢ ص ٢٤ .

(١٤) زميل : « مشاكل فلسفة التاريخ » ، ط ٢ ص ٢٦ .

في التاريخ . اذ يضع المؤرخ اطرار وانصالات لوجود لها في الواقع التاريخي . والمؤرخ لا يأخذ من المعطيات النفسانية عبر جزء ، ينظمه وفقالمقولاته هو .

وفي هذا مغرب بين الفكر التاريخي والفكر الجمالي . فكما ان الفن يقتضى ترتيبا للاحداث وفقا لفكرة معينة ، كذلك الفكر التاريخي لا يستطيع ان يركب الاحداث التاريخية الا وفقا لمنظور معين من وضعه هو .



هل توجد قوانين لسير التاريخ ؟

وهذا يفودنا الى التحدث عن مشكلة أخرى تناولها زمل ، وهى امكان وجود قوانين تحكم سير التاريخ .

ان القانون قصية نعب عن العلاقة الثابتة بين مجموعة من الوقائع السابقة التى نلونها بالضرورة وقائع لاحقة لا تتخلف عنها أبدا . ولتقرير هذه العلاقة لا بد من الفصل بين الوقائع السابقة والوقائع اللاحقة من ناحية ، وبين مجرى العوامل والاحداث الأخرى وهى عديدة جدا ومستتبكة كل الاستبائك . فاذا ما نظرنا الى الاحداث التاريخية ، وجدناها فى غاية التعقيد والتركيب والاستبائك بحيث يصعب جدا استخلاص العلاقات الثابتة بين مجموعات منها ، كما هى الحال فى الظواهر الفيزيائية . وهذا يفسران من المسحيل على المؤرخ ان يقرر روابط ثابتة بين الاحداث التاريخية بحيث تفغ النتائج بالضرورة كلما تحققت الاسباب . ولهذا لا نجد فى التاريخ حوادث متسابقة تماما ، والاحداث التاريخية الواحد لا نكرر أبدا .

وما زعم من وجود قوانين تحكم التاريخ هو محض تخرص ، ومن امثالها : « الحرية تنتشر تدريجيا من قلة من الافراد الى الجماهير » ، « الجماعات تنتقل تدريجيا من حالة الشباب الى النضوج ، الى الشيخوخة » ، « أسكن الانحاض اقتصادى فى عصر ما تتحد بقوى الانتاج فى ذلك العصر » .

لكن هذا لا يعنى مع ذلك ان الواقع التاريخي يتأبى على كل تحديد عام . فثم طريقتان أمام الفكر الفلسفى لإيجاد تفسير عقلى للاحداث التاريخية ووضع صيغ عامة لهذا التفسير . **والطريق الاول** هو القول بان قيمة معرفة القوانين التاريخية هى قيمة نسبية وموقنة ، وان الملاحظات العامة على مجرى التاريخ ، وان لم نعب عن قوانين بالمعنى الدقيق ، فانها « اعدادات لقوانين » *Vorbereitungen Auf Gesetze* على حد تعبير زمل . وهذه الملاحظات كلما تزومت وقورن بعضها ببعض ادت الى مزيد من التدقيق ، وبالتالي الى مزيد من الاقتراب من القوانين . ولهذا يفيدنا كثيرا فى هذا المجال استقصاء الاحداث ومقارنتها واجراء التحليل الدقيق العميق عليها .

والطريق الثانى عكس الاول : فبدلا من التحليل الى عناصر ، نقوم بالتركيب بين المعانى اكثر فأكثر « حتى تكون التركيبات الاصلية والتصورات المركبة » ، والمجموعات التى تندرج فيها الاحداث - بمثابة وحدات ، لاجابة التى تحليلها الى اقل من ذلك « (١٥) . فمثلا لفهم

معركة ماراثون (٤٩٠) يمكن أن تصرف النظر عن معرفة حياة كل محارب اشترك فيها ولا كيف تصرف هذا اليوناني أو ذاك ، بل علينا ان نعرف كيف تصرف اليونانيون عموما ، وهكذا لا يهتم المؤرخ بالافراد منزهين ، بل بالمجموع ، وليس المجموع ناتج جميع الافراد ، لانه الى جانب الطباع المشتركة بين الافراد هناك طباع خاصة لا تعرف الا بالتركيب والتكامل .

والخلاصة انة : « سواء اتجه التطور التاريخي الى مزيد من التفاضل للافراد ، او الى مزيد من التشارك ، وسواء قامت الثقافة الاخلاقية على الثقافة العقلية او على العكس كانت لها قوانينها الخاصة للتطور ، وهى قوانين عرضية بالنسبة الى الثقافة العقلية ، وسواء ذهبت الحرية الاجتماعية للافراد جنبا الى جنب مع تكوين روح موضوعية وكنز من النتائج فوق الشخصية للحضارة ، فى الميادين العلمية والفنية والتكنيكية . فان كل هذه التوكيدات وامثالها يمكن ان تعد ، من ناحية ، كارهامسات وتحضيرات لروابط معلومة بدقة ومحكومة بقوانين عقلية ، ولكن من ناحية اخرى فانها - على مستوى التركيبات التصورية - هى اسقاطات للحدوث مرضية بذاتها : فالقولات المجردة الظاهرية ، التى من زاويتها تضع المعرفة أسئلة من هذا النوع ، لا تستطيع ان تظهر باجابات اكثر دقة ، او تتعلق بحقائق وباسباب فردية . صحيح ان هذه القولات يمكن كثيرا ان تدرك على انها خاطئة ، لكن ما يحل محلها ليست ابدا غير تحقيقيات اخرى لنفس اشكال المعرفة ، تظل على مسافة مساوية من المثل الاعلى للعلية فى العلوم الطبيعية . وهكذا يتكشف ان هاتين الطريقتين فى الوجود الخاصتين بالقوانين التاريخية هما اسلوبان مختلفان يتخدما العقل فى وضعه للسئلة ، ووجهان يرتفع اليهما فوق حقيقة الاشياء ، بسبب تفاوت الحاجات النظرية : وهذا من شأنه ان يبرهن مرة اخرى فى مواجهة الواقعية التاريخية الساذجة ، على ان هذين المظهرين لا بعينان ابدا نسخة من الواقع ، بل تشكيلا داخل العقل لهذا الواقع . وتبعاً للطابق الذى نضعه فيه ، يتخذ الواقع تنظيمًا خاصًا ، بلانم هذا الطابق وحده . لكن هذا التنظير بين القوانين التاريخية وبين التأمل ، فى إيقاع المعرفة ، لا يعنى ابدا ان التاريخ قد صار من اختصاص الفلسفة ، وانما يعنى ان مقتضيات المعرفة ومقولاتها - وهى تعبر عن علاقاتنا النموذجية مع الواقع ، تؤدي ، فى كلا الميادين ، الى تكوينات مناظرة لمادتيهما » (١٧) .

هل فى مجرى التاريخ غائية ؟

تم ينتقل زمل الى البحث فى نوعين من المشاكل الفلسفية المتعلقة بفلسفة التاريخ :

١ - الاول هو مسألة معرفة ما اذا كان « كل » التاريخ ، وهو ليس الا مجموع الجزئيات التجريبية ، يمكن ان يظهر بماهية ومعنى لا تملكه هذه الجزئيات ، وما هو الوجود المطلق ، او الحقيقة العالية التى تقوم وراء الطابع الظاهري للمعطيات التجريبية للمعرفة التاريخية » (١٨) .

(١٦) قرية فى إقليم اتيكا فى اليونان اشتهرت بالمعركة التى انتصر فيها ملبتاوس ، القائد اليوناني ، على الفرس فى سنة ٤٩٠ قبل الميلاد .

(١٧) زمل : « مشكلات لفلسفة التاريخ » ص ١٢٠ - ١٢١ .

(١٨) زمل : « مشكلات لفلسفة التاريخ » ، ص ١٢٥ .

ولا يمكن حل هذه المشكلة إلا بتحويل السلسلة العليا للظواهر التاريخية إلى سلسلة غائية تملك، بما هناك من غائية باطنة تحكمها، وحدة عضوية . وهذا التحويل لا يمكن حدوثه إلا بافتراض أنه ، وغاية الهيئة تعين مجرى التاريخ .

ب - والثاني يتعلق بالقيم والمعاني التي تتلقاها المعطيات التاريخية من الاهتمامات غير النظرية . وفي هذا يقول زمل : « أن الانعكاسات التي تلقينا اهتماماتنا التاملية وغير النظرية على معطيات علم التاريخ هي عناصر ميتافيزيقا التاريخ ، وهذه الميتافيزيقا تتوجه على نحو مختلف تماما عن التكيف النظري للحادث ، وفي هذا التمييز الدقيق بينها وبين هذا الأخير تجد تلك الميتافيزيقا حقا في الوجود . بيد أن النظرية المحض هي مثل أعلى لا يتحقق أبدا ، وبظل يؤثر فيها فعل المقولات الميتافيزيقية . والتسامل في التاريخ ليس ، في شطره الأكبر ، غير الاستخلاص والانمام والتنسيق الثلاث مع مبادئ وفروض وقوى فعالة في تركيب مادة الحادث ، كما يتصوره التاريخ الدقيق » (١٦) .

وبفحص زمل عن هذه الاهتمامات فوق النظرية التي تحكم فلسفة التاريخ فيجد في مقدمتها الميل إلى المعرفة . ويتلو رد الفعل العاطفي نحو المضمونات الكيفية للأحداث ، وذلك في الأحداث التي تثير فينا تشويقا خاصا . ولا يهم هل الأحداث حدثت بالفعل ، أو فيها جانب من الخيال أو كلها من نسج الخيال . وهذا امر ذاتي خالص ، يتوقف على مزاج المؤرخ .

ولإيضاح هذه النقطة الثانية ، ننظر في معنى يلعب دورا كبيرا في اهتمام المؤرخ ، وهو فكرة التقدم . فمن الواضح أنه لا يمكن تصور التقدم إلا بالنسبة إلى فكرة سابقة عن الغاية ، وإلا فكيف نعرف أن محدث بعد نقدا وليس تأخرا أن لم تكن ثم غاية محددة من قبل ؟ وفي هذا يقول زمل : « كوننا ندرك ، أولا ندرك ، تقدما في التاريخ - هذا يتوقف على مثل أعلى قيمته ، بهذه المثابة ، لا يصدر عن توالي الوقائع ، بل تنضاف إليها بفعل الذاتية » (٢٠) ، ولا يمكن أن يعترض على هذا بالقول بتقدم صوري خالص ، من نوع الاخلاص الصوري عند كانت Kant ، فانه من المستحيل تصور تقدم صوري محض ، لأن فكرة التقدم يدخل فيها عنصران أساسيان هما : وجود تفرق في الأحوال ، ووجود نماء في القيمة من الحالة الأولى إلى الحالة التالية . وهذا العنصر الثاني هو بطبعه متغير .

لكذلك يلاحظ أنه لكي يكون ثم تقدم معان عصر تاريخي إلى آخر ، فلا بد أن يبدو العصر التالي محددا في جوهره بالعصر الأول ، في السلسلة الغائية ، مهما يحدث من انقطاعات في السلسلة تحت تأثير ظروف طارئة عارضة : وهذا لا يتم إلا إذا تصورنا ، في الأحداث التي تؤلف نسيج التاريخ ، وحدة وتوترا باطنين . ولا يمكن أن يكون ثم تقدم إذا لم يكن هناك وحدة جوهرية هي الحامل للظواهر .

ولهذه الاهتمامات يختلف المؤرخون في تقويم العوامل التاريخية ، مما يجعل المؤرخ يقوم « باختيار » في الواقع التاريخي ، وينتخب بعض العوامل على بعض ، كما هو مشاهد بكل جلاء في نظرة انصار « المادية التاريخية » الذين يفلتون عوامل الاقتصاد ، أو على حد تعبير زمل عامل « الجوع » على سائر العوامل .

(١٦) الكتاب نفسه ، ص ١٢٥ .

(٢٠) زمل « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٥٦ .

والحق أن الواقع ملء بالاهتمامات من كل نوع . « والمادية التاريخية بسبب روح الاصرار التي تميزها في اتباع هذا المبدأ ، لاتفعل إلا ارتتين » بطريقة متيرة ، تلك المتأفيزات التي تتضمنها كل نظرية تاريخية أخرى لان امكان النفوذ في التأثير المتبادل لكل العوامل التاريخية امر غير ميسور لنا ، وبينما هذا وحده هو الذى يستطيع ان يجعلنا نتصور الوحدة الفعلية للتاريخ ، فان كل صورة تيسر لنا تكوينها عن مجموع الاحداث لا يمكن ان يتم رسمها الا بتركيب من طرف واحد « (٢١) ، أى من وجهة نظر واحدة . » وهكذا يخلط المادية التاريخية بين صورة الحادث كما صورت بفضل اهتمامات المعرفة ، وبين الحادث المباشر كما يتحقق في الواقع ، وكذلك يخلط بين مبدأ له أهميته بوصفه مبدأ للبحث ، ولا يمكن تطبيقه ، من جميع الاعتبارات ، الا على سبيل المحاولة - وبين مبدأ تكوينى يوضع مقدما وعنه تصدر كل الوقائع « (٢٢) . وهذا يقضى بالمادية التاريخية الى مأزق لا سبيل الى الخروج منه : « لانه اذا صح ان تطورات العادات والقانون والدين والادب تسلك منحى التطور الاقتصادي دون ان تؤثر في هذا الاخير تأثيرا جوهريا ، فاني لا استطيع ان افهم كيف تحدث التحولات في الحياة الاقتصادية » (٢٣) . وبعبارة أبسط : لماذا نتصور تأثير القانون والعرف والدين والادب في الحياة الاقتصادية ، دون ان نتصور تأثير الحياة الاقتصادية في الاخرى بالقانون والعرف والدين والادب ؟ ان ما تقوم به المادية التاريخية من اختيار في نسج الواقع التاريخي ينطوى على اهتمامات ميتافيزيقية ، وعلى ميول وامانى ذاتية . ذلك اننا لو قلنا الاسباب التي من اجلها اختارت المادية التاريخية الاهتمامات والقيم والمصالح الاقتصادية وحكمتها في تفسيرها لجرى الاحداث التاريخية ، فاننا نجد مصدر ذلك النزعة الاشتراكية ، التي ترى ان المصلحة الاقتصادية هي العامل المشترك بين كل العناصر التي تحكم في الجماهير ، لان الاشتراكية تنحون نحو التسوية بين المستويات ، ولا يمكن الطموح الى التسوية الا في الميدان الاقتصادي . ولهذا فان الاشتراكية ليست النتيجة المنطقية للمادية الاقتصادية ، بل على العكس من ذلك الاشتراكية هي السبب النفساني المؤدى الى اعتناق المادية الاقتصادية والمادية التاريخية اساسا لتفسير مجرى التاريخ .

٣ - بندتو كروتشه

وننتقل الآن الى فيلسوف ومؤرخ كان من اشد الفلاسفة والمؤرخين اهتماما بمسألة العلاقة بين الفلسفة وبين التاريخ ، الا وهو بندتو كروتشه (١٨٦٦ - ١٩٥٢) .

والغريب انه ينكر « فلسفة التاريخ » لسبب بسيط وهو ان الفلسفة تاريخ ، والتاريخ فلسفة !

ويشرح كروتشه رايه هذا فيقول (٢٤) ان من المعروف ان « فلسفة التاريخ » كانت تعنى

(٢١) : « امشاج من الفلسفة النسبية » ، ترجمة فرنسية ، ص ٢٠٧ ، باريس سنة ١٩٦٢ .

(٢٢) زميل : « مشكلات فلسفة التاريخ » ص ١٦٦ .

(٢٣) الكتاب نفسه ، ص ١٦٧ .

(٢٤) داجع كتابه La Storia Come Pensiero e come azione الطبعة الثانية ص ١٣٦ - ١٤٢ باري ، سنة ١٩٢٨ .

أحدث النظريات في فلسفة التاريخ

— في معناها الأول الذي كان شائعاً في القرن الثامن عشر — « تأملات في التاريخ » ، أو كتابه التاريخ مرتبطاً بفكرة الانسانية والحضارة أى على نحو أقرب إلى الفلسفة مما كانت الحال عليه عند المؤرخين الذين خضعوا لسلطان العقائد الدينية العتيقة . ولكن هذا التعبير « فلسفة التاريخ » لو حملناه جيداً لوجدناه ينطوي على تكرار وعدم تلاؤم ، لأن « التفكير في التاريخ هو في ذاته تفلسف » ، ولا يمكن التفلسف إلا بالرجوع إلى الوقائع ، أى إلى التاريخ (٢٥) .

ولكن التأملات العامة غير المقرونة بالوقائع تؤدي إلى صيغ جوفاء ، هي ما آلت إليه كتب « فلسفة التاريخ » . ويكفى المرء أن يطالعها لينبئ له في الحال ما فيها من خلط وهوى . ففى بعضها نجد مثلاً أن الشرق هو « الشعور المباشر » بينما اليونان هي « حربة الفرد » ، وروما هي « العموم المجرد » أو « الدولة » ، والعالم الجرمانى هو « وحدة الفردى والكل » . وفى كتاب آخر نجد أن الشرق هو « الامتناع » ، والحضارة اليونانية الرومانية هي « المتناهى » ، والعصر المسيحى هو « التركيب المؤلف من المتناهى واللامتناهى » . وفى كتاب ثالث يقال إن التاريخ القديم يقوم على فكرة « المصير » ، والعصر المسيحى في فكرة « الطبيعة » . وبالمثل تسلك فلسفات التاريخ التى تستخدم معانى أو شبه مقولات مادية ، كما هو شأن الفلسفة الماركسية فى التاريخ : إذ هي تقول إن العصر القديم يقوم على معنى « الاقتصاد القائم على الرق » ، والعصر الوسيط يقوم على « الاقتصاد المستعبد » ، والعصر الحديث يقوم على « الاقتصاد الرأسمالى » ، والعصر المقبل سيعوم على « اشتراكية وسائل الإنتاج » . وهذا هو الشأن كذلك فى فلسفات التاريخ القائمة على العنصرية فى الاجناس ، فهى تحول المجتمعات الجغرافية واللغوية للشعوب إلى اجناس نفية دائمة مستمرة ، وبعد ذلك تقسمها إلى اجناس منحلة وأخرى سامية ، وتربط بينها وبين الفضائل والذائل ، والقوى الروحية أو النقاظ الفكرية ، والتسجاجة والتدين والقدرة على التفكير والإبداع الفنى ، أوالانحطاط والخسة وانعدام التدين والتخلف الفكرى ، وهكذا .

وتم فلسفات فى التاريخ تنطلق من فكرة أحوال بدائية ، تلقائية ، بريئة ، من نوع من الفردوس الأرضى ، الذى فقد فيما بعد ، ثم تعرّب ذلك بجحيم ومظهر العصور التالية ، ثم تكسب بصورة أعلى وتسترد ذلك الفردوس الذى أن نفّده مرة أخرى . وهذا النمط هو الأكثر شوعاً ، ويوجد أيضاً فى المادية التاريخية بما تقول به من جنة الشيوعية الأولى ، وما تلا ذلك من فترة وسطى قاسية سيتلوها مستقبل عقلى سعيد .

وتم فلسفات أخرى فى التاريخ ترسم الصراع بين مبدئين أحدهما الخير والآخر الشر ، أحدهما للسعادة والآخر للشقاء والألم ، مع القول بأن الانتصار النهائي سيكون لمبدأ الخير والسعادة ويتحقق الجنة على الأرض أو فى السماء . وهناك أخرى تصور التحرر فى الحصول الشاق على الشعور المتزايد بالشقاء الإنسانى ، مما سيقود إلى إفناء كل إرادة عن طريق الزهد أو إلى الانتحار الكلى الواسع (شوبنهاور) .

ويرى كروتشه أن طابع الأسطورة يسود كل فلسفات التاريخ ، لأنها تريد إلى الكشف عن « خطة فى العالم » Weltplan من ميلاده إلى فناءه ، أو من دخوله فى الزمان إلى دخوله فى الأبدية ،

ويشيع فيها لاهوت أو عالم من الجن . وليست القرابة بين الاسطورة وفلسفة التاريخ بعيدة ، اذ ليست قرابة مثالية فحسب ، بل وقرابة تاريخية يتضح ذلك ان يتأمل في هذه الحقيقة وهى ان فلسفة التاريخ - وقد ادعى الالمان زمتا انها علم جديد والماني - كان لها رواج وازدهار في البيئة التى هياها البروتستنتية والكتاب المقدس بما فيه من حلم نبخذ نصر وتاويل دانيال بان سيكون بم توالى لممالك : مملكة الذهب ، مملكة الفضة ، ومملكة النحاس ، ومملكة الحديد ومملكة الطين .

وبهذه المناسبة ينفى كروتشه ارتباط ما يذهب اليه البعض من جعل أعمال فيكو Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤) على رأس « فلسفة التاريخ » الالمانية من حيث ان هذه كانت في جوهرها اسطورية التكوين ، بينما كانت ابحاث فيكونقدية .

وبالمثل يهاجم كروتشه « فلسفة الطبيعة » ويرى فيها تاويلات رمزية Allegorismo « والتاويل الرمزي Allegoria لا يضع وحدها عليا ، بل هو كتابة بولج حروفها بين اسطر كتابة اخرى ، وهو كتاب اقحم في كتاب آخر ، كتاب يمكن ان يكون جيدا او رديا ، وان يقول اشياء معقولة او غير معقولة » (٢٧) .

ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر فيقول : « ان علو فلسفة التاريخ مثله مثل اى علو Trascendenza آخر ، يساوى علو فلسفة الطبيعة ، التى ازدهرت واضمحلت معها . ومثل اى علو نراه نبخذ تشكيلين : احدهما شكل الاسطورة والاخر شكل الميتافيزيقا ، التى لا يمكن تمييزها بدقة من المنطق ، لان كل ميتافيزيقا فيها نصيب من الاسطورة ، اعنى انها تحتوى على عنصر امثالى ، وكل اسطورة فيها نصيب من الميتافيزيقا ، اعنى انها تحتوى على عنصر منطقي ، بفضلها هى اسطورة وليست مجرد خيال شعري » (٢٧) .

ويرى ارهامسات فلسفة التاريخ في التصورات المهدوبة عند العبرانيين وفي الكونيات الشرقية ، ثم اتخذت شكلها الواضح لأول مرة في المسيحية وخصوصا في عصر اباء الكنيسة ، ودخلت فيها بعض التنوعات خلال العصور الوسطى ، على يد رجال مثل يواقيم الفلورى Gioacchino di Fiore (حوالى سنة ١١٣٠ - ١٢٠٢) . فلما جاء عصر النهضة قامت حركة لكتابة التاريخ لا تعتمد على الاسطورة . وادخلت المعانى الجديدة في العصور الحديثة ، واخيرا دخلتها النزعة العقلية ونزعة التنوير ، هنالك انحصرت فلسفة التاريخ في دائرة الكنائس (الكاثوليكية والانجيلية على السواء) وتجاهلتها كتابة التاريخ ذات النزعة العلمانية ، ولم يدخل في صراع معها لانها لم تجد نفسها في مواجهة خصم مستبكر ومنافس . وفيكو Vico نفسه لم يحسب لها حسابا . والقرن الثامن عشر لم يفهم من « فلسفة التاريخ » غير التاريخ المروى بروح تنويرية واصلاحية .

لكن حينما استأنف المثاليون النالون « لكانت Kant والرومنتيك في المانيا - وكانت جامعاتها قد حافظت على التقاليد المتحدرة من العصور الوسطى - نقول حينما استأنف هؤلاء منهج فلسفة التاريخ المسيحية العنيفة المنسية في كل مكان غير المانيا ، وبلغت هذه الحركة اوجها

(٢٦) كروتشه : « التاريخ فكرا وفلا » ، ط ٢ ص ١٤٠ . بارى ، سنة ١٩٣٨ .

(٢٧) كروتشه : « فلسفة - شعر ، تاريخ » صفحات ماخوذة من كل مؤلفاته ، ص ٥٩ ميلانو - نابلى ١٩٥٢ .

في فلسفه هيجل ، وجنبا نمت هذه الحركة وصارت البدع السائد — حدث ان تحول عدم الاكثراك الغدم نحو فلسفه التاريخ الى رفض عنيف وتهكم ساخر . ولنضرب امثلة على مبالغات هذه الحركة بما فعله **فريدرش اشليجل** (١٧٧٢ — ١٨٢٩) من النظر الى التاريخ العالى على انه سقوط من حالة براءة اولية وحكمة عالية ، بسبب النزاع بين ابناء شيث و ابناء قابيل ، سقوط في حالة اعدام الدين والالحاد ، وما فعله **جورس Görres** (١٧٧٦ — ١٨٤٨) من تقسيم تاريخ العالم بحسب سنة ايام موسى ، وجاء **شليجل** (١٧٧٥ — ١٨٥٤) في طوره الثانى فقال بالانتقال من حالة اولية نسيم بالتوحيد الى حالة تتسم بالترك وذلك بالسقوط في التمر ، وسبه هذا « بالاباظة » التى سنتلوها « اوديسا » عوذة الانسانية الى الله . وصارت خصائص العصور المختلفة والشعوب اكثر غرابة : ففى كب فلسفة التاريخ التى كتبها هؤلاء نقرا ان العالم القديم هو الجانب الواقعى او الطبيعى للتاريخ ، ومقامه مقام الطبيعة بازاء الروح (او العقل) ، والمنهاهى بازاء اللاتنهاى ، بينما العالم الحديث هو الجانب المثالى والروحى . او نقرا كذلك ان مبداء العالم القديم هو الاحساس ، بينما مبداء العالم الحديث هو العقل ، وان الشعوب تتميز بقلية احدى الملكات او الصفات : فالصينيون يتميزون بالعقل ، والهونود بالخيال ، والمصريون بالوجدان النافذ ، والعبرانيون بالارادة .

لكن المؤرخين الوضعيين الذين خسروا من تهاويل هؤلاء الفلاسفة في التاريخ لم يوفقوا في نقد هؤلاء الآخرين ، لانهم رفضوا الفلسفة نفسها كما رفضوا فلسفة التاريخ ، فحرموا انفسهم من السلاح الصالح الوحيد للقيام بعملية النقد ، واحلوا محل المثالية الميتافيزيقية نزعة طبيعية ليست اقل ميتافيزيقية من متالبة اولئك ، وجعلوا الغائية الباطنية التى قال بها كانت Kant واحلوا محلها الميكانيكية الحتمية ، وبهذا لم يحطوا بفلسفة التاريخ ، بل التاريخ نفسه .

ولا سبيل الى تنفيذ فلسفة التاريخ ، وكذلك الحتمية التاريخية التى نلتها ، الا بالخصص الدقيق عن فعل الفكر الذى يولد كل قضية تاريخية ، وهو فعل يقوم به المؤرخون الحقيقيون ، وهو يقوم على اساس ان الفعل التاريخى ينولد من حاجة واضحة الى الفعل ، او الى التهيؤ للفعل ، ابتغاء الخروج من الموقف الذى يوجد فيه المرء ، وبالتالي ادراك هذا الموقف ، موقفنا نحن في العالم المحيط بنا ، ثم هذا العالم نفسه ، اعنى القوى الفعالة فيه . وكل قول في التاريخ محدود اذن بالحاجة التى تدفع اليه ، ولا يمكن الخروج من هذه الدائرة دون السقوط في الخواء . » ان الحكم التاريخى (اى الذى يصدره المؤرخ ، هو دائما جواب عن سؤال تصدره الحياة ابتغاء توليد حياة جديدة ، حتى اذا ما عرف ما يراد معرفته ، وانضح ما ينبغى ايضاحه ، لا يبقى ثم وجه للسؤال ، فاذا حصل هذا الصباح المنير ، ينبغى العمل ، ولا يمكن ان يكون ثم سؤال آخر وجواب آخر تاريخى الا اذا نكون موقف جديد وانبنفت حاجة جديدة . والتواريخ العارية عن المشاكل العملية التى تتطلبها وتقودها ما هى في قصارى امرها غير نهاويل ومماحكات ، وليست ابدا بوارىخ حقيقية .

« ومن التهاويل والمماحكات في المقام الاول . ادعاء فلسفة التاريخ وضع تلك الاجابات فلسفيا ، وهى في ذاتها فلسفة تتضمن معرفة مقولات العقل (او الروح) التى لا تحيا ولا تقوم الا فيما هو حكم تاريخى عيى : وفي هذه النقطة يرتبط ما نذهب اليه من ان كل الفلسفة تحيا قنط في

التاريخ بوصفها تاريخاً ، وأن الفلسفة والتاريخ يتطابقان وهما شيء واحد . وهذه حقيقة لمحا أو استثمارها هيجل ، لكنه سرعان ما أخساعها حينما تصور « تطبيق » الفلسفة على التاريخ ، تطبيق فلسفة جميلة ممتسقة على تاريخ جميل مشوق ، الواحدة بغير تاريخ ، والآخر بغير فلسفة . والذين يقولون اليوم أو يعتقدون أن النظرية المشار إليها - والقائلة بالهوية فيما بين التاريخ والفلسفة - ليست غير تكرار للنظرية الهيجلية ، هؤلاء لم يتأملوا في كتب هيجل ولا في النظرية الجديدة ، أو هم مخطئون في إدراك الفوارق بين الكلمات التي تتشابه في الرنين ، وهي كلمات لا تأخذ معناها الحق إلا في ملابس تاريخية وحضارية مختلفة . وأقول هذا مرة واحدة وإلى الأبد ، انى لا أقر هذا عن نفاخر بالاصالة ، بل من أجل فهم المعاني التي ذكرناها » (٢٨) .

ويكفي هذا بياناً لمؤلف كروتشه من « فلسفة التاريخ » بالمعنى الذى فهمه هو من هذا التعبير ، وهو معنى محدود لا يفره عليه أصحاب فلسفة التاريخ ، ولا ينطبق على نظريات كبار فلاسفة التاريخ : مثل هيجل ودلتاي وزمسل واشبنجلر ويسبيرز . وبعبء المرء من موقف كروتشه هذا ، ويتساءل : بأى حق قصر معنى فلسفة التاريخ على ما أشرنا إليه هاهنا ؟ إن هذا بحكم منه لا مبرر له .

لعل ما دعا كروتشه الى الوقوف هذا الموقف الغريب من « فلسفة التاريخ » هو ايمانه بأن الفلسفة تاريخ ، والتاريخ فلسفة كما صرح بذلك مراراً وتكراراً . ولهذا رأى أنه لا محل : لفلسفة التاريخ « لأن ذلك - في نظره - تحصيل حاصل .

التاريخية المطلقة

وهذه النظرية هي ما يعرف بالتاريخية المطلقة عند كروتشه ، وقد كرس لها بحثاً في سنة ١٩٣٩ بعنوان « معنى الفلسفة بوصفها تاريخية مطلقة » (٢٩) .

في هذا البحث يحاول كروتشه ان يبين قضيتين :

الاولى ان الفلسفة لا يمكن ان تكون رليست هي في الحقيقة ، الا فلسفة للعقل (أو الروح) .

والثانية ان فلسفة العقل لا يمكن ان تكون ، وليست هي في الواقع الغيبى ، ولم يكن أبداً حماً ، الا تفكيراً تاريخياً أو كتابةً للتاريخ ، الفلسفة تمثل في عملياتها لحظة - التأمل المنهجي ، التي يمكن ابراز جانب أو آخر منها ولكنها لا تنفصل عن العملية الوحيدة للتفكير التاريخي .

ويلاحظ في تاريخ الفلسفة صراع متفاوت ولكنه متواصل تقوم به المعرفة النقدية أو فلسفة العقل ضد طريقتين معارضتين لها في القضاء الضوء الذى تحتاجه الحقيقة . والطريقة الاولى منهما ليست الشعر كما رأى افلاطون ، بل الاسطورة : الاسطورة التي ليست مجرد صورة مثالية أو غنائية مثل الشعر ، بل الصورة التي تقوم بدور الحقيقة التصورية وبدون تفسير الاشياء والاحداث . والطريقة الثانية هي الميتافيزيقا . والميتافيزيقا تتولد من الانفصال عن الاساطير

(٢٨) كروتشه : « فلسفة - شعر - تاريخ » ، ص ٤٧٠ - ٤٧١ ، ميلانو - نابلي ، سنة ١٩٥٢ . وهذا البحث نشره كروتشه في سنة ١٩٤٢ .

(٢٩) انظره في : كروتشه : « فلسفة - شعر - تاريخ » ص ١٢ - ٢٩ .

وحقائق الوحي ، ابتغاء البحث في المقولات التي يفكر بها في الواقع . ويتم ذلك حين لا تجد طريقها الحق فتأخذ بمنهج العلوم الطبيعية أو التجريبية، مما يضطرها إلى القول بمقولات فنسفيه ، وتصورات تجريبيه هي بصورات محضه ، وموضوعات أو قوى مادية هي في آن واحد روحية ومنطقية . والطابع الطبيعي النزعه في التأملات الميسافيزيقية يتضح في محاولتها إكتناء السبب أو أسباب الواقع ، لأن مبدأ السببية من شأن العلوم الطبيعية . والطابع المعنوي يتجلى في ادعائها البحث في السبب ، والأسباب النهائية أو « العالية » ، وهذا تناقض في الحدود لأن الأسباب ليست أبداً نهائية ولا عالية ، إذ هي مجرد علاقات بين وقائع جزئية . واسم « الميتافيزيقا » نفسه ، في انتقاله من معنى إلى آخر ، ومن ال **بعد Post** إلى **عبر trans** ، يدل على محاولة زائفة للارتفاع من عالم الموضوعات إلى عالم الكيانات **entita** ، وبهذا تضع الفلسفة في وضع زائف ، واضعة « نفسها ((كفلسفة أولى)) أو ((فلسفة عامة)) . والميتافيزيقا نعلو - أو تسمى في البعد - على التاريخ ، ابتغاء الوصول إلى عالم خارج التاريخ أو فوق التاريخ .

وفي مقابل ذلك نجد فلسفة الفعل (أو الروح) - وهي التي يدعو إليها كروتشه - قد انتجت وتنتج دائماً كل المآني والتصورات التي بواسطتها تحكم الإنسان على الحياة وعلى الواقع وتفهمها . ومنهجها ليس التجريد والتعميم ، بل التفكير في الكلي الحايث في الفردي ، وليس ضم الكليات إلى الكليات ، بل إدراك العلاقات بين الكليات في داخل الكل الذي يتألف منها . وليس رد الوقائع الجزئية إلى أصناف ، بل فهم الوقائع الجزئية بوصفها الكلي المتحقق عينيا .

إن الحكم التاريخي وحدة بين الفردي والكلي ، بين الموضوع والمحمول ، بين الإدراك الحسي والتصور . ولا يوجد حكم حقيقي ومعنى إلا إذا كان تاريخياً . وتاريخية أيضاً هي الحلول والتعريفات الفلسفية ، إذ هي تميل دائماً إلى موقف تاريخي معين يوجد فيه المفكر . « إن الفلسفة الحققة » ، وهي تختلف تماماً عن مباحث المدارس الفلسفية الهزيلة الشاحبة ، حافلة بالحياة الوجدانية والأخلاقية التي تزخر بها والتي تنبع الرغبة بازاحة ألوان القموض العقلية التي تعانيتها وتضعها في مواجهة الموقف التاريخي ، ممهدة السبيل إلى الإشباع اللاحق الذي هو الفعل العملي .

وهنا نصل إلى مبدأ مهم وصفه كروتشه للفهم التاريخي ، وهو مبدأ المعاصرة **contemporaneità** بوصفه الأساس في كل كتابة حقيقية للتاريخ . فهذه تضع نفسها على أنها في جوهرها معاصرة . ذلك أن الحكم التاريخي في لحظة تولده يتبدى أنه يتولد من « اهتمام بالحياة الحاضرة » ، والآن لم يتولد . ولهذا كان على كتابة التاريخ بالضرورة أن تولد من اهتمام بالحياة الحاضرة . وواقعة التاريخ الماضي يجب أن تشيع فيها روح الحياة الحاضرة حتى تتخذ صورتها الحقيقية . ولهذا ينبغي رفع التاريخ إلى الشعور بالحاضر الأبدى .

وهنا يميز كروتشه بين « التاريخ » و « الأخبار » ، فيقول « إن التاريخ **storia** هو في جوهره فعل للفكر ، بينما الأخبار **cronaca** هو فعل للأرادة . والتاريخ **storia** فعل للفكر ، فعل نظري لأنه وصفت مقولي **categoriale** للأحداث التي أحدثتها الروح الإنسانية في الماضي ، وبوصفه فعلاً نظرياً فإنه فعل « تركيب تاريخي » و « الأخبار » **cronaca** فعل ارادة ، لأنها يجب عليها ألا تحكم أو تصف ، بل فقط عليها أن تسجل أمثي أن تحفظ . إن فعله شبيه بفعل العالم الطبيعي الذي لا يحكم على التجارب الجديدة المختلفة التي يشاهدها بل يعمم فيها من أجل تصنيفها ، ويقوم بعمل وصف اعتباطي أو ميسر . إن الأخباري يسجل ما يحدث بترتيب رمي ، أنه

لا يتلقى الحياة التاريخية في ميلادها ونموها من الداخل ، بل يرصدها من الخارج فحسب ، ولهذا فإن الأخبار cronaca لا تنفذ الى الفردية المميزة للوقائع التاريخية .

ان الأخبار والتاريخ لا يتميزان بوصفهما شكلين للتاريخ ، يكمل كل منهما الآخر ، او يخضع أحدهما للآخر ، بل هما موقفان روحيان مختلفان . « ان التاريخ storia هو التاريخ الحى ، والأخبار هي التاريخ الميت ، والتاريخ هو التاريخ المعاصر ، بينما الأخبار Cronaca هي التاريخ الماضى ، والتاريخ هو أساسا فعل الفكر ، بينما الأخبار فعل الإرادة . وكل تاريخ بصير أخبارا اذا لم يعد مفكرا فيه ، بل مذكورا فقط في كلمات مجردة ، كانت حينما ما عبية ونعبر عن التاريخ . وحتى تاريخ الفلسفة هو أخبار ، كتبها غير الفاهمين للفلسفة ، او قراها هؤلاء ، وتاريخ هو ذلك الذى تكون على استعداد لقراءته على أنه أخبار ، الا وهو تاريخ الراهب في مونت كاسينو الذى وقع ما بلى : « ١٠٠١ : دومينيك الطوباوى رحل الى المسيح ١٠٠٢ : في هذه السنة جاء الترقين (= المسلمون) الى كابوا . ١٠٠٤ : زلزال هائل هو هذا الجبل ، الخ ، وكانت هذه الوقائع جاهزة في ذهنه ، وبكى على رحيل دومينيك الطوباوى ، وتحزن على المصائب الانسانية والطبيعية التى هزت بلاده ، وأبصر في توالي هذه الحوادث يد الله ممدودة . وهذا لا يمنع من كون هذا التاريخ ، بالنسبة الى نفس الراهب الذى من مونت كاسينو ، امكن ان يتخذ شكل الأخبار ، حينما سطر صفيها الباردة دون ان يمثل بعد مضمونها ويعبر فيه ، ولم يكن همه غير ان يحفظ هذه الأخبار لأولئك الذين سيقيمون بعده في مونت كاسينو » (٣٠) .

والتاريخ ، اذا فصل عن الوثيقة الحية وصار أخبارا ، لا يعود بعد فعلا روحيا ، بل شيئا ، ومركبا من أصوات او من علامات أخرى . وبالمثل الوثيقة اذا فصلت عن الحياة لا تعود غير شيء ، شبيه بأى شيء آخر ، ومجموعة من الاصوات او من العلامات الاخرى .

والتاريخية storicismo بالمعنى العلمى سهكذا يقول كروتشه (٣١) - هي القول بأن الحياة والواقع تاريخ ولا شيء غير تاريخ . وفي نفس الوقت هي تنكر النظرية التى تقسم الواقع الى « فوق تاريخ » ، و « تاريخ » الى عالم الصور والقيم ، وإلى عالم سفلى يعكسها او عكسها حتى الآن على نحو ناقص عابر وينبئ ان نضع مكان التاريخ الناقص او التاريخ واقعا عقليا كاملا . ولما كانت هذه النظرية تعرف باسم « النزعة العقلية المجردة » او « التنوير » فان التاريخية - تسير في معارضة ونزاع ضد « التنوير » وترتفع فوقه .

ويقوم هذا النزاع على أساس ان الصور والقيم ، التى عدت نماذج ومعايير للتاريخ ، ليسبورا ولا قيما كلية ، بل هي وقائع جزئية وتاريخية هي الأخرى ، رفعت خطأ الى مستوى القيم والصور الكلية . فمثلا فكرة الجمال التى كانت مقياسا للحكم على الأعمال الفنية كانت مستمدة من خطوط الجمال الخاصة عند فرجيل ورفائيل ، وافكار القانون الطبيعى كانت فى أساسها هي النظم القانونية التى وضعت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، والأفكار الاخلاقية وقواعد السلوك والفضائل هي تلك التى صورتها الحضارة القديمة او المسيحية القديمة او الحديثة . بينما الانكار (أو الصور) والقيم الحقيقية ذات الطابع الكلى تملك تلك القدرة على فهم مختلف الأعمال فى الحياة الفنية والاخلاقية والقانونية ، من أشدها سذاجة وبساطة الى

(٣٠) بندقو كروتشه : فلسفة - شعر - تاريخ « ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٣١) بندقو كروتشه : « فترا وفلا » ص ٥١ وما يتلوها . ط ٢ ، بارى ، سنة ١٩٢٨ .

أكثرها دقة وتركيباً ، وهى إذن ليست نماذج وتعميمات تجريبية ، بل صور محضة ومقولات ، مبدعة وحاكمة دائمة على كل تاريخ .

ومذهب كروستشه فى التاريخيـة يقوم على المبادئ التالية :

١ - إنكار بقاء الطبيعة عالماً قائماً بذاته ،

٢ - الاعتراض بالطابع الروحى (العقلى) للواقع ، كل واقع .

٣ - تفسير الروح (العقل) على أنها عملية تطورية دياكتيكية ، أى عملية لها فى ذاتها مبدؤها الخاص فى المهم .

٤ - رفض كل نوع من العلو البعد تاريخي Trascendenza metastorica وتوكيد محايدة الروح فى التاريخ - وبعبارة أخرى توكيد الهوية بين العقل (الروح) وبين التاريخ .

٥ - رد المعرفة الى معرفة تاريخية ، ورد الفلسفة الى لحظة منهجية فى التاريخ (٢٣) .

والروح - عند كروستشه - تطور ، (والتطور هو تغلب مستمر على الذات وتجاوز لها ، وهو فى الوقت نفسه محافظة مستمرة عليها) (٢٣) . الروح (أو العقل - والمعنى دائماً واحد عند هيجل وعند كروستشه وفى المثالية بعامة) تقدم ، وكل لحظة من لحظاته لها قيمة إيجابية . وفى داخلها سدرج وقائع الطبيعة كما نندرج وقائع الحياة الإنسانية ، لأن الطبيعة ، تكوين وحياة تاريخية « و » الواقع الوحيد (الذى يشمل فى داخله الإنسان والطبيعة وهما لا ينفصلان إلا تجريبياً وتجريداً فقط) كله تطور وحياة « (٢٤) »

٤ - كارل يسبيرز

وأخيراً نصل الى الفيلسوف الوجودى المعاصر **كارل يسبيرز** Karl Jaspers (١٨٨٣ - ١٩٦٩) الذى أودع آراءه فى فلسفة التاريخ فى كتاب بعنوان : « فى أصل التاريخ وغايته » (٢٥) .

يرى يسبيرز أن « التاريخ حدث وشعور بالحدث ، تاريخ ومعرفة بالتاريخ . إنه محاط بما يشبه الهاويات . فان تردى فيها ، لم يعد بعد تاريخياً . علينا أن نفلقه دائماً على نفسه ، وأن نفتحه للعلو .

« أولاً : للتاريخ حدود تعزله عن كل واقع آخر : طبيعة كان أو كونا . وحوله ينتشر المكان الامتناهى للوجود بوجه عام .

Pietro Rossi : Storia e Storicismo nella filosofia contemporanea, p. 288 (٢٢) داجع
Milano 1960.

(٢٣) كروستشه : « نظرية وتاريخ كتابة التاريخ » ، ص ٧٢ .

(٢٤) الكتاب نفسه ص ١١٨ .

Karl Jaspers : Von Vrsprung und Ziel den Geschichte

(٢٥) .

« فانيا : للتاريخ تركيب باطن ، يرجع الى بحول الواقع البسيط للظواهر الجزئية ولكن ما يمشى دون توقف . وهو لا يصير تاريخا إلا بانحداء الكلى مع العردى ، لكن بحسب في ضوءه العردى ، في كل صفاته ، يخذ أهمية لا يمكن الاستغناء عنها وبصير كلسا على نحو ما . انه عبور يتحقق فيه الموجود .

« ثالثا : بصير التاريخ فكره سمولية حين نضع السؤال : اين تقوم وحدة التاريخ ؟

« ورؤية هذه الهاويات : الطبيعة الخارجيه من التاريخ التى هى بمثابة تربته السفلى البركانية ، والواقع الذى يتجلى فيها بصورة عابرة فانية ، والتستتت اللانهائى الذى تحاول التخلص منه وحدة اشكالية دائما - ان رؤية هذه الهاويات يسمو فنيا بمعنى ما هو تاريخى حقا » (٢٦) .

في هذه العبارات فحص يسهز منساكل فلسفة الماريخ ، وعقد لها فصولا عنوانها كما يلي :

(١) حدود التاريخ .

(٢) التراكيب الاساسية للتاريخ .

(٣) وحدة التاريخ .

(٤) الشعور بالتاريخ لدى الانسان اليوم .

(٥) العلو على التاريخ .

فلنأخذ في بيان المعانى الرئيسية التى عرضها يسهز في هذه الفصول الخمسة .

حدود التاريخ

ان الحياة على الأرض ظهرت قبل الانسان . وتاريخ الانسانية ، وهو لا يرتفع الى اعلى من نهاية العصر الثالث ، قصير المدى جدا لو قورن بعمر النبات والحيوان ، وهو عمر يتجاوز عمر الأرض بما لا نهاية له من الزمان . والمستون فرنا الذى توضحها لنا النقول التاريخية ، لا تمثل غير فترة ضئيلة لو قورنت بما قبل التاريخ .

لكن التاريخ هو نحن وفارق هائل بين التاريخ الطبيعى وتاريخ الانسانية . ذلك ان التاريخ الطبيعى غير مشعور به : انه « جرد صيرورة بسيطة محضة ، الانسان وحده هو الذى يعرفها ، ولا يتوقف على أى قصد شعورى .

وبحسب مقاييسنا الانسانية فان مجرى هذا التطور للتاريخ الطبيعى بطيء جدا ، ويبدو لنا لأول وهلة انه تكرر مستمر . وبهذا المعنى فان الطبيعة ليست تاريخية . واذا كنا نقيم تناظرا بين تاريخها ، فما ذلك الا لأن فكرنا قد تعود على هذه المقولات :

١ - فنحن نتمثل لانفسنا ذهاب وعودة دائمين ، واختفاءات متلوة بديايات ، وفي لانهاية الزمان يمكن ان يحدث كل شئ ، لكن ليس به معنى ثابت . ومن هذه الناحية ، فان التاريخ بالمعنى الحقيقى غير موجود .

٢ - والعملية الجبوية لا يظهر في الإنسان إلا على نوع حيواني ينتشر على سطح العالم مثل أشكال حية أخرى .

وتطور الإنسانية في مجموعة يتصور على أنه عملية واحدة ، ان الإنسانية تنمو ، وتزدهر ، وتنضج ، وتشيخ ، وتموت . ومع ذلك فنحن نتصور ذلك لا على أنه عملية لن تتكرر أبدا ، بل على أنه تطورات متوالية او متواقتة ، هي الحضارات المختلفة . فمن المادة الإنسانية الهلامية تتولد الحضارات ، كأنها « أجسام » تاريخية خاضعة لقوانين تطورها، ولا وجه حياتها : من الميلاد الى الموت . انها بمثابة كائنات عضوية لها حياتها الخاصة ، وعلى الرغم من استقلالها فانها يمكن ان تتصل بعضها ببعض وان يعدل بعضها بعضا او يضر بعضها ببعض .

الورثة والمقول

نحن طبيعة ونحن تاريخ . والطبيعة فيناتجلى في الورثة ، والتاريخ يتجلى في المنقول
tradition .

والنمو التاريخي يمكن ان يحدث له انقطاع بسبب النسيان او ضياع التراث المنقول .
ولكننا أناس بالمنقول أكثر منا بالورثة . ففي الورثة يجد الإنسان عنصرا لا يمكن تدميره ، ولكن في المنقول عنصر يمكنه ان يفقده نهائيا .
ان المنقول Tradition يصعد في الماضي السابق على التاريخ، ويشمل كل ما ليس وراثيا ، بل ما هو مادة تاريخية للإنسية (= الوجود الإنساني) .

وعلى وصية التاريخ ، وكأنه تراث خلفه ما قبل التاريخ ، يوجد رأس مال إنساني ليس وراثيا بالمعنى البيولوجي ، ولكنه جوهر ما هو تاريخي ، ويمكن الإنسان ان يستشعره او ان يبده . وهذا الواقع يوجد قبل كل فكر ، ولا يمكن خلقه ولا صناعته صنعا . ولا يمكن ان يكتسب ملاءة ووضوحه الا في الحركة الروحية التي تتم خلال التاريخ . والإنسان يجري فيه تحولات . وربما انبثقت بناييع جديدة هي بدورها مقدمات (وأكبر مثال لهذا : العصر الحوري ، وستحدث عنه تفصيلا فيما بعد) . ولكن ليس ثم جماعات ، بل أشخاص سامية منعزلة ترسل شعاعها ولكن الناس ينسوتهم وينكرونهم ولا يرونهم .

وفي التاريخ ميل الى الانفصال عن المنقول وعن قيمه الجوهرية للأفلات الى الفكر المحض ، وكان من الممكن ان يولد شيء في التجريد المطلق للعقل .

التاريخ والكون

لماذا نحن موجودون على الأرض ؟ ولماذا نعيش قسطنطين من التاريخ في هذه البقعة من المكان اللامحدود ، وعلى هذه الجنة غير المرئية من التراب الملقى في ركن من الكون ، وفي هذه اللحظة بالذات ، ضمن لا متناهي الديمومة ، تلك أسئلة لا جواب عنها ، ولكنها هي التي تجعلنا ندرک وجود لفر .

وشعورنا بأننا بمنزلة في الكون هو معطى جوهري في حياتنا . وفي صمت الكون نحن وحدنا

المزودون بالعقل والكلام . وكان في تاريخ النظام الشمسى لحظة عابرة فيها على الارض حصل اناس على فكرة الوجود ووجودهم هم . وهناك ، وليس في مكان آخر ، حدث هذا الكشف للذات عن نفسها ، كشفا باطنيا خالصا . وفي الكون الهائل ، وعلى كوكب صغير جدا ، وفي تلك القطعة الصغيرة من الزمان التي تؤلف بضعة عشرات من القرون ، حدثت ظاهرة يبدو أنها تجل للشامل . وفي هذا المكان الضئيل القيمة جدا بالنسبة الى الكون استيعظ الوجود مع الانسان .

لكن الكون هو ظلام الوجود الشامل ، انه عندنا هو المكان والينبوع والواسطة « لكل تحقيق شخصي أصله لا يمكن فهمه . غير ان الكون هو ايضا ما يخلق ويفدى الكشف التدريجي للتاريخ الانساني .

ولقد كان المكان يبدو للانسان قديما شيئا لا يحد . ولكنه اليوم يحس بأن مسكنه على الارض قد انحصر وضاق : لقد مرت كل اجزائه وصار في وسعه ان يشمله بنظره . وكان من أثر هذا ان تكثف وجود الانسان على الارض . وصار ما حوله أشبه ما يكون بصحراء لا تسكنها الروح ومحجرة على الانسان . وفي هذه العزلة لا تفهم الانسانية - وقد انطوت على نفسها ، غير واقعتها هي .

وهذه العزلة في وسط الكون تكون الحد العملى للتاريخ . انه ليس بم دليل على وجود كائنات اخرى في عوالم اخرى غير عالم الارض . ولا يهمننا من هذا الامر شيء ، طالما كنا لا نحس بأثر لهذه الكائنات المزعومة .

الفردى والكلى

وإذا حاولنا حصر التاريخ في قوانين عامة ، فلن نستطيع ادراكه ابدا ، لان خاصيته هو انه ظاهرة فريدة .

وإذا نظر اليه من خارج ، فان ما نسميه « تاريخا » هو ما يحدث في نقطة محددة من المكان والزمان . لكن هذا يمكن ان يقال عن كل واقع . فالعلوم تسجل كل تطور طبيعى وفقا لقوانين عامة ، لكنها لا تقول لنا لماذا - مثلا - الكبريت يوجد بكميات كبيرة في صقلية ، ولا تذكر لنا السبب في التوزيع المحلى للمواد الاولية بوجه عام .

والتحديد في المكان والزمان لا يكفي لبيان خصائص ما هو فردى في التاريخ . وما يتكرر وما يمكن استبداله بوصفه ظاهرة خاصة ، كل هذا هو في ذاته ليس تاريخا . فالظاهرة لكى تكون تاريخية ، يجب ان تكون فريدة لا يمكن استبدال غيرها بها ، ولا يمكن تكرارها .

وطابع التفرد والتأحد هذا لا يتحقق الا في الانسان وفيما يبدعه ، ولا نجد الا حيث يمكن ان تقوم علاقة بين الانسان والظاهرة : بأن يكون واسطة ، او تعبيرا ، او فرضا ، الخ . « ان الانسان ليس تاريخيا الا باعتباره موجودا مزودا بعقل ، لا بوصفه موجودا طبيعيا . ونحن ، بوصفنا اناسا ، لا نكون ميسورين لانفسنا الا في التاريخ ، لكن فيما هو جوهرى لنا ، لا بوصفنا موضوعا للبحث ، فنحن لا نصير موضوعا للبحث الا بوصفنا طبيعة ، وقانونا عاما ، وحقيقة واقعية تجريبية خاصة . وفي التاريخ نحن نلقى انفسنا بوصفنا حربة ، ووجود ، وعقل ، وجادين في

إسخاذ القرارات ، وذوى استقلال عن العالم . وما يواجهنا في التاريخ ، لا في الطبيعة ، هو هذا السر المزجج : الانتقال المفاجيء الى الحرية وانكشاف الوجود في الشعور الانساني (٣٧) .

وما هو تاريخي هو الوحيد ، الذي لا يمكن استبدال غيره به ، وليس تلك الواقعة الجزئية التجريبية التي سينفذ فيها ويمتصها ويحولها العنصر التاريخي ، وليس أيضا المرد بوصفه حابوا أو « رمزا » للكل ، وإنما هو بالأحرى ذلك الواقع الذي يهب الحياة لذلك الكلي .

« وهذا الموجود الجزئي في التاريخ ، لا يدرك إلا بالحب والوجدان المتنبه الذي يولده الحب . أنه حاضر بالنسبة الى من يحب ، وفردته ينكشف حين يلهم الحب الرغبة في المعرفة . وهو يتجلى في ظواهر يمكن أن تتنوع الى غير نهاية . وهو واقع بوصفه جزئيا تاريخيا ، وغير واقعي في الوقت نفسه بالنسبة الى المعرفة التجريبية . وحينما لوجود تاريخي جزئي يجعلنا نستشعر الاساس الانطولوجي الذي يربط به هذا الموجود . والعالم ينكشف في لا متناهي الفرد حينما نحبه . ولهذا فان الحب الحقيقي يتسع ويرفع من تلقاء نفسه ، وينتشر على كل ما هو تاريخي ، ويتحول الى حب للكل في ذاته ومنذ اصله . ومن يحب يعرف ، بنوع من الوجدان الكاشف ، كيف ان الموجود ، هذا المفرد الفريد الرائع ، هو تاريخي في العالم . لكنه لا يتجلى الا في تاريخية حب موجود مفرد لوجود آخر .

« وينظر موجود التاريخ الجزئية العينية للمعرفة التاريخية . والتوثيق (جمع الوثائق واستعمالها) وهو يجمع الوثائق الحقيقية ، يقدم المقدمات ، ويفضل هذه يفتح ، على حدودها ، ما يفلت من البحث التجريبي ، لكنه يرشده في اختيار موضوعاته وفي التمييز بين الجوهرى والعرضي . والبحث ، وهو يتجاوز الطابع العام للمعرفة ، يبين ، عند حدوده ، ان العنصر المفرد الذي لا غنى عنه للتاريخ ، ليس ابدا قانونا عاما . ولما يتجلى لنا هذا العنصر المفرد فانه يربطنا بذاته على مستوى قائم خارج مجال المعرفة ولكنه غير ميسور الا بالنسبة اليها . وما نتمكن من اكتسابه على انه مفرد تاريخيا يمكننا من التوجه صوب تاريخ كلي سيكون بمثابة موجود مفرد ووحيد . وكل تاريخية تفرز جذورها في ارض هذه التاريخية الوحيدة العالية » (٣٨) .

والتاريخ لا يمحو الطبيعة ، بل تظل هذه الحقيقة الحاملة الثابتة . وكل ما يبقى ولا يتحول الا ببطء شديد هو الطبيعة . لكن بالروح يبدأ الشعور والتأمل والحركة المتصلة والعمل المتواصل من الذات في الذات ، بينما تفتح ابعاد الممكن اللامتناهية .

وكلما تأكد جانب التفرد في الظاهرة ، انعدم التكرار ، وصارت تنتسب الى التاريخ الحقيقي اكثر . وكل ما هو عظيم هو ظاهرة انتقال .

والموجود يتجلى تدريجيا خلال التاريخ . والحرية ، وان كانت موجودة في كل مكان في التاريخ ، فانها لا تكون تامة ابدا ، بل تظل دائما في حركة . وهي تصنع اذا ما اعتقد المرء انه

(٣٧) يسبرز : « اصل التاريخ ولغايته » ص ٢٠٢ من الترجمة الفرنسية ، باريس سنة ١٩٥٤ .

(٣٨) كارل يسبرز : « اصل التاريخ ولغايته » ص ٢٠٤ - ٢٠٥ من الترجمة الفرنسية .

امتلكها نهائيا . وكلما كانت الحركة جذرية ، كانت الحقيقة ، المتجلية ذات جذور اعمق . ولهذا فان اعظم اعمال الروح (العقل) اعمال انتقال على حدود عصر ، وهاك امثلة لذلك :

١ - ان الماساة (التراجيديا) اليونانية انتقال من الاسطورة الى الفلسفة . فمؤلفو المآسى قد استمدوا من المادة الاولى للتقاليد القديمة جدا وصاروا مبدعين في عالم الاسطورة . لقد عمقوا الاسطورة بواسطة الخيال ، ولكنهم كانوا يعيشون بين المشاكل والتفسيرات . وهم نخموا مضمون الاسطورة وصاروا على الطريق الذى ستضيق فيه . ولهذا فانهم يمثلون انحلالها ، في الوقت الذين فيه يمثلون انحلالها .

ب - واذا كان تصوف السيد **اكرت** (حوالى ١٢٦٠ - ١٣٢٨) كان جريئا ساذج الجراة ، فما هذا الا لانه صار الشيوخ لديانة جديدة متحررة . وبفضله امكن تعميق الرؤية ، وفي الوقت نفسه بدا المتحول في التفكك .

ج - وفلسفة المتالية الالمانية ، من فشته : **وهيجل الى شلنج** ، تقع في نقطة الانتقال بين الايمان والاحاد . وفي عهد **جيته** كان للدين طابع جمالى ، في اللعنان الباهر لعقل فادر على فهم كل اعماق الروح .

د - كذلك ينبغي ان ننظر الى **افلاطون وشيكسبير . وروبرنت** على انهم شخصيات انتقال . ولم قرون بأكملها تمثل انتقالا ، خصوصا القرون من سنة ٦٠٠ الى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ، وهى التى يطلق عليها **يسبرز اسم « العصر المحورى »** .

فمن الخصائص الاساسية للتاريخ اذن انه انتقال اساسا . وما يدوم لا ينتسب اليه ، انه مجرد اساس ومادة ووسيلة عنده .

ومن هنا تلج علينا فكرة ان تاريخ الإنسانية لا بد له من نهاية ، كما كانت له بداية . غير ان الحد النهائي - سواء اكان بداية أم نهاية - هو بالنسبة اليها من البعد بحيث لا يمكن ادراكه . لكن هذه الحقيقة لا بد ان تلقى ظلها على كل شيء .

وحدة التاريخ

هل هناك وحدة للتاريخ ؟

سؤال يطرحه **يسبرز** ، كما طرحه كل الباحثين في فلسفة التاريخ . واسباب النفي لهذه الفضية عديدة : واولها ان الظواهر التاريخية مستتة الى غير نهاية : فهناك شعوب وحضارات عديدة ، وفي كل منها قدر لا يقينها من الوقائع التاريخية الجزئية . وحيثما سمح اقليم في الارض بالعيش ، نظم الانسان جماعة .

ويرد **يسبرز** على هذه الحجة قائلا ان النظر الى الانسان من هذه الزاوية معنا ، تصنيفه على نحو ما يفعل علماء النبات في تقسيمه الى انواع واسر نباتية . وهذا معناه الافتقار الى ادراك ما يميز الانسان حقا الا هو انه على الرغم من تشتت الجماعات الإنسانية فان الناس لا يظنون في عزلة ، بل حيثما التقوا تبادلوا اشياء فيما بينهم : معارف أو افكارا . وفي هذا اللقاء يستشعر كل واحد منهم نفسه في الآخر ويستشعر انه مدعو لاتخاذ موقف بارائه . فهو يحس اذن انه يستهدف شيئا فريدا لا يملكه ولا يعرفه ، ولكنه مع ذلك يدنعه دون ان يدري .

ومن وجهة النظر هذه يمكن عد مظاهر التشتت في التاريخ حركه تنحو نحو الوحدة ، وربما كانت تصدر عن اصل مشترك .

وبيحث سبسنز في دواعى هذه الوحدة فيبدأ باستبعاد الاعتبارات البيولوجية والنفسانية لكي يتلمس الوحدة ودواعيها فيما ينساهد في مجرى التاريخ من تطور نحو الوحدة في المعرفة ، ونحو الوحدة في الاصل : وهذا يبين من الفسلمات التالية :

أ - ان وحدة الانسان ، من خلال حركة تحولاته ، ليس لها ثبات الطبائع الثابتة التي سحقيق كل بدورها . ان الانسان صار ما هو خلال التاريخ ، بواسطة حركة ليست ففط طبيعية . انه بوصفه موجودا حيا ، هو مجموع استعداداته الفطرية في تنوعها ، وبوصفه موجودا تاريخيا ، وصادرا عن اصله ، فانه يجاوز هذا المعطى الطبيعي . وهذا الاصل يحمله على الاتجاه دائما نحو الوحدة التي تربطه بأماله من الناس . وتلك مصادرة : اذ بدون هذه الوحدة لن ينيسر الفهم ، وسيكون نم هوات بين طبائع مخلقا اختلافا جوهريا ، وان ينيسر اى تفسير تاريخي .

ب - كل فردية ، بوصفها حقيقة محددة ، لها طابع استيعادى : فلا انسان قادر على ان يجمع كل الامكانيات التي تنسب اصلا الى الانسان بما هو انسان ، ولا بد من الانتخاب ، فاما القديس او البطل مثلا . ان الانسان يوجه عام وكذلك الفرد ، من حيث اصله الذى صدر عنه ، بشنل على كل الممكنات ، ولكنه في الواقع الفعلى ليس الا فرديا . والفرد ليس ابدا انسانا كاملا مطابقا لمتل اعل . ولا يمكن وجود انسان كامل ، لأن لم شقا وبفرة في كل ما يحققه .

ج - ومن اللافت للانباه ، ان تم وحدة انسانية فيما يتجلى من مشابهاة في القسمات الاساسية ، سواء في الاديان ، وفي اشكال الفكر وفي النظم الاجتماعية .

د - والعلم والقدرة التي يمد بها التكنيك الانسان يزيدان في تقدم الانسان خطوة فخطوة ، وفي تاريخ الحضارة يرسم خط يصاعد دائما ، بيد ان الوان التقدم هذا محصورة في ميدان العلم والتكنيك ، وهما عاربان عن الشخصية . ومن هذه الناحية يمكن تصور التاريخ على انه تصاعد مستمر . صحيح ان فيه مع ذلك رجعات وتخلفات وتوقفات ، لكن بوجه عام يمكن القول بوجود تزايد في الخبرات التي يسهم فيها الجميع والتي هي مبسرة للجميع . ونستطيع ان نستقرى مراحل التقدم هذه على مدى التاريخ .

غير ان الانسانية في ذاتها ، واخلاق الانسان ، وطيب ذاته ، وحكمته — كل هذه لا تقدم . نم اذن تقدم علمى وصناعى (تكنيكى) يوسع من ممكناتنا ، ولكن ليس هناك تقدم بالنسبة الى جوهر الانسان . واعلى الحضارات قد غرقت في هاوية العدم ، وخضعت لفهرها من الحضارات التي كانت احط منها . وبعض الحضارات دمرها المتبربرون — حتى لا يخطئ المرء كثيرا ان قال : « كل ما هو عظيم ينهار ، وكل ما هو منحط يدوم » .



على انه اذا لم تكن الوحدة واقعة ، فيمكن النظر اليها على انها غاية ، وهذه الغاية يمكن ان تعد معنى خفيا . فلنحاول ان نفسر التاريخ من حيث النهاية : —

١ - ان الغاية هي المدنية ، هي تأسيس الانسان ، وما نقصده من هذا ، وراء التنظيم المادى للحياة ، لم يتحدد نهائيا ، ولكنه ينتسب الى التاريخ . وعلى مستوى هذا التنظيم ، فانه

النظام القانوني للعالم . ان حركة التاريخ تسير من التشتت الى حياة مشتركة على الارض في وحدة قانونية ، بعد الازمنة التي كانت الاتصالات الوحيدة فيها هي اعراض السلام والحرب . وهذه الوحدة بتنظيمها للحياة العملية ، تترك المجال حرا لكل الامكانيات الروحية والمعنوية للمبدعات الانسانية .

٢ - **الغاية هي الحرية** ، الحرية الواعية . ويمكن تصور كل ما جرى حتى اليوم على انه محاولات لاكتساب هذه الحرية والظفر بها . لكن ماهيتها حقا لن تتجلى الا في اللامتناهى .

وارادتنا في تنظيم عالم مؤسس على القانون لا يضع لنا كفاية مباشرة الحرية العالية ، بل الحرية السياسية ، وهذه الاخيرة تهيب للانسان الحد الاقصى من الامكانيات لتحقيق الحرية العالية .

٣ - **الغاية هي انسانية عليا** ، وعملها الروحي هو ميلاد مدنية في الجماعة المتحققة انها العبقريّة .

ان الدافع الباطن فينا يدفعنا الى شعور متزايد في الوضوح . ووحدة المبنى نابينا من النقطة التي فيها الانسان ، في المواقف الحدية ، يستشعر نفسه بأوضح ما يكون ، وفيها يضع لنفسه المسائل الجوهرية ، ويجد الاجابات الخلاقة التي سنفود حياتنا وتطبعها بطابع نهائي حاسم . وهذه الوحدة المتحققة في العظمة لا تقوم في ان تنسج الانسان في علمه ووسائله التكنيكية ، ولا في غزو مزيد من الامكنة وتنظيمها بطريقة اميربالية ، كذلك فان النظم التربوية المتخصصة الى اقصى درجة ، والتي لا تكون غير زهاد خارجين عن تيار الحياة او انكسارية ، لن يجعلوا هذه الوحدة تتخذ شكلها ، وليست تقوم ايضا في ثبات الانظمة والمذاهب ، وانما لنقوم في تلك اللوامع التي فيها يكشف الانسان عن نفسه ، في كشف جوهرى .

وربما لا يكون هذا غير نقطة فرار في مدى التاريخ الهائل . ولكنه سيكون بمثابة حميرة في مجموع الصيرورة . وربما يكون الاثر سريعا ، وربما كان هذا الكشف - الذي يبقى اولا في عمق ذكرى الناس ، مستعدا للعمل - مجرد سؤال يوضع للمستقبل ، او الا لتلتقط هذه القوة في العالم ، والا تترك اى اثر في رد الناس ولا تبقى الا امام العلو .

فاذا كانت هذه القيم في نظرنا لا يمكن ان يحل محلها غيرها ، فهذا مرجعه الى انها ترجع الى وحدة مفترضة دائما ولكنها غير مملوكة ابدا ، هي الغاية والاصل والمصير في التاريخ .

٤ - **الغاية هي الوجود المتكسّف في الانسان** ، وحينما يتأحد الانسان مع الوجود في اعماله ، فهذا هو الكشف عن الالهية » (٣٦) .



وعند يسبرز ان ادراك الوحدة في التاريخ ، اى تصور التاريخ العام على انه يؤلف كلا ، هو ما تصبو اليه المعرفة التاريخية التي تبجح عن معناه الاسمى .

والمؤرخون الذين أرادوا تصور التاريخ الكلى قد ضيقوا من وحدته بسبب ضيق آفاقهم : ففى أوروبا كان التاريخ هو تاريخ الغرب ، وفى الصين كان التاريخ هو تاريخ امبراطورية الوسط . وما كان خارج هذا النطاق لم يكن فى نظرهم موجودا بوصفه تاريخا ، بل كان حياة التبريرين والبداليين ، ولا قيمة له الا من ناحية علم الأجناس . وكانت فكرة الوحدة قائمة على أساس ان كل هذه الشعوب المجهولة لا بد لها ذات يوم ان تشارك فى المدنية الحقيقية وستنضم الى النظام الذى كان يعد وحده الصالح .

ولما اراد الايمان ان يميز فى التاريخ بين عله وغاية ، وجدهما فى الواقع . وادى ذلك الى تصور اله يوحى للانسان بوجود هذه الوحدة ، او يعلم عقلى بمدى برؤيا واضحة لها :

الغرب رأى عمل الله فى التاريخ ، وابصر سلسلة من الافعال الالهية : الخلق ، عقاب الانسان المطرود من الجنة الارضية ، التنبؤات التى تعلن عن ارادات الله ، الخلاص المتحقق بظهور شخص الهى على الارض ، حتى نهاية الزمان ويوم الحساب المقبل . وما تصوره الانبياء اولا شكله **أوغسطين** (٣٥٤ - ٤٣٠) فى صورة مسيحية تم تكرر وتعدل خلال القرون ابتداء من **يوأقيم الفلورى** حتى **بوسويه** (١٦٢٦ - ١٧٠٤) ثم عبر عنه فى صورة علمانية الفلاسفة من **لانسج** (١٧٢٩ - ١٧٨١) و **هسردر** (١٧٤٤ - ١٨٠٣) حتى **هيجل** . وكلها محاولات استهدفت الى تصور التاريخ فى وحدته ، حيث يجد كل شىء مكانه . لكن **يسيرز** يبدى على هذه المحاولات الملاحظات التالية :

أ - لو عرفت مجموع الاشياء ، فان لكل حياة انسانية مكانها المعلوم فى هذا التاريخ . انها فى ذاتها ليست شىء ، لكنها مجرد وسيلة . وهى ليست على علاقة مباشرة بالعو (transcendence) ولكن من طريق محلها فى الزمان ، مما يحد منها ويمنع من ان تكون شمولاً **totalité** . وكل شكل من اشكال الحياة ، وكل عصر ، وكل شعب قدرد الى مجرد وسيلة . بيد ان فكرتنا عن وجود علاقة اصيلة مع الله ، وعن لامتناه شامل يمكن فى كل لحظة ان يكون كلا ، تحتج من هذا التصور .

ب - والمعرفة الشاملة يمكن من افلات الشطر الاكبر من الوجود الانسانى ، اذ تنحى جانباً شعوب بأكملها هى وحضاراتها وتعدم عرضية ومجرد مصادفة فى التطور الطبيعى .

ج - والتاريخ لم ينته ولا يمكننا من ادراك اصله . ومع هذا فان هذا التصور - وحدة التاريخ - يبدى انه يحيط به . وبدايته ونهايته تستخلص بواسطة وحى مزعوم . والواقع اننا بآراء نظريتين فى التاريخ متعارضتين وتستبعد كل منهما الاخرى :

١ - **فاما ان نقول ان التاريخ امامنا بوصفه كلا** : انه مجموع التطور المعروف او القابل ان يعرف من اوله الى آخره . ونحن وعصرنا موضوعون فى نقطة محددة من هذا المنحنى ، ونعد هذه اللحظة بمثابة اوجه أو احط نقطة فيه .

٢ - **او نقول ان التاريخ واقى وغير تام بالنسبة الى شعورنا** . ونحن متاهبون بالنسبة الى ما يمكن ان يحدث . وهذا الموقف موقف تبرص ، وبحث عن الحقيقة ، وتحسوت ونحفظ فطن ، لا يدعى ولا معرفة الحاضر ، لأن هذا لن يفهمه الا المستقبل . ومن وجهة النظر هذه ، فان الماضي نفسه ناقص ، لم يتم ، انه لا يزال يحيا ، والقراءات التى اتخذت سابقا ليست نهائية ، بل نسبية ، يمكن تعديلها وتفتيحها واعادة النظر فيها باستمرار ، ويمكن اعادة تفسير الاحداث الماضية وثاويلها من جديد . وما بدا انه تقرّر قد اعيد وضعه موضع التساؤل .

وعلى هذا النحو يتبدى لنا التاريخ كأنه مجال للمحاولات ، ووحده تضيع في لا نهائية الممكن . والموقف الدائم هو التساؤل .

والخلاصة « أن وحدة التاريخ ليست موضوعا للمعرفة . ولا يمكن أن نميز فيها وحدة أصل بيولوجي للإنسان . ويوصفها وحدة كوكبية ، محددة في المكان والزمان ، فانها ظاهرة فحسب . ولا يمكن البرهنة على وحدة غائية عالية . وتصور نظام عالمي مؤسس على القانون يقوم على أساس افكار انسانية ، لا على معنى التاريخ في مجموعه ، ولا يزال تصورا احتماليا . وهذه الوحدة نحن لا نستطيع أن نقول انها حقيقة واحدة كلية ، لأن هذه الهوية لا تقوم الا على الذهن . ووحدة التاريخ ليست تقدما نحو غاية ، وليست أيضا المنحنى الصاعد لعملية لا متناهية . ولا توجد بالنسبة الى الشعور الواضح ، ولا تنزع عليها . فوق أعالي الخلق الروحي . وليست معنى يصدر عنه كل شيء او يجب أن يصدر عنه كل شيء . ولا يمكن عدها تركيبا صنعتته الانسانية في مجموعها . وشمول التاريخ ليس حاضرا حقا في رؤيتنا التاملية : لا كواقع ، ولا كمعنى (٤٠) .

أن كل قول بوحدة التاريخ هو تبسيط خاطيء اذا كان يرى أن يفسر التاريخ في شموله . وانما الواجب علينا أن نحافظ على الجزيئات والتفاصيل العديدة ، وفي نفس الوقت نعترف بأن ثم شيئا يتجاوزها ويعلو عليها ، ولا بد إذن من أن يظل العقل متاهبا ومتفتحا لادرلك نوع من الوحدة .

ذلك « أن فكرة الوحدة تستمر في فرض نفسها علينا . ومهمتنا هي تحقيق التاريخ الكلي :

أ - فنحن نرتفع على الأقل الى الحصول على « نظرة شاملة للتطور الانساني في العالم بأسره . ونرفض في وقت واحد كلا طريقتي التبادل الذي يقوم في الاختيار بين تفتيت للوقائع المشتتة وبين تركيب ذي نزعة مركزية ، اننا نبحث بالاحرى عن نظام ملائم للتاريخ في مجموعه . وحتى لو كان تشبيدنا للوحدة التاريخية يجب دائما أن ينبه معرفتنا الى هوات الجهل ، فمن الممكن مع ذلك القول بنظام تسوده فكرة الوحدة .

ب - وهذه الوحدة عليها أن تستند أولا على هذه الواقعة وهي أن كوكبنا جسم متناه ويمكننا امتلاكه كله ، وثانيا على تسلسل زمني معين ، في حضن قطعة من المرة - مهما يكن من تجريد هذه الفكرة - ، وأخيرا تستند على الجذر الوحيد الذي ولد الانسانية ، لأن ثم خصائص متجانسة تجعلنا نفترض اصولا لنا مشتركة .

ج - والسبب الجوهرى للاعتقاد في هذه الوحدة هو أن الناس يلتقون في تفاهم كلى ، ويلتقون في روح تشمل الجميع ، روح لا يستطيع أحد ان يدرك مداها ، لكنها ترحب بنا جميعا . وهذه الوحدة يعبر عنها على أدق وجه في تصوره واحد .

د - وفكرة الوحدة حاضرة عينييا في الشعور الذي يدرك الامكانيات الكلية للانسانية . ومتى ما كان المرء مستعدا ، فان الفكرة القائلة بأن كل شيء يمكن أن تكون له أهمية كلية ويتبرد بمجرد وجوده - هذه الفكرة تفرض نفسها اقوى واقوى ونحن نشعر بأننا نعيش على مستوى لاشيء فيه

يبدو غير مهم ، ويشف لنا من أماكن بعيدة وفي نفس الوقت يبين لنا أن كل دقيقة في الحاضر تقتضي منا قراراً ، في الطريق الذي نسلكه . وأن نظرة تلقفها على هذه البدايات الأولى للإنسانية - وهي بعيدة مع ذلك عن الأصول الأولية - ونظرة على المستقبل - ولا يزال دائماً مفتوحاً - سيمكثنا من إدراك الامكانيات المتضمنة في مجموع لا يمكن الإحاطة به ، حتى أن وحدة الكل تنكشف في التحديد الباطن الذي يجعلنا تؤدي مهمتنا المباشرة .

هـ - وإذا كان علينا أن نتخلى عن تكوين صورة متسقة تامة للكل ، فقد بقيت لنا على الأقل أشكال تمكسها . وهذه الأشكال هي : التاريخ يتربط وفقاً لسلم من القيم ، منذ أصوله وحلال مراحله الحاسمة . والواقع ينقسم إلى جوهري وعرضي .

والتاريخ يتوقف على كل سمي : العناية ، وإدراك فيما بعد على أنه القانون . وحتى لو كان الإنسان قد أخطأ في التمسك بتلك الفكرة ، فإن فكرة الكل هذه تبقى تصوراً حديداً . نحن لانستطيع أن نرى الكل ، بيد أننا نعيش فيه ، ونحن لانستطيع التصرف فيه كما نهوى ، ولكننا نرتب فيه حياتنا . والتاريخ ، في مجموعه ، لا يتكرر ، أنه تاريخي حقاً ، وليس طبيعياً . وتبقى الفكرة القائلة بوجود كل منظم ، فيه لكل ظاهرة مكانتها الخاصة بها . وليس ثم في هذا مجموع من الصدف ، بل كل الخصائص الأرضية تندرج في الوحدة الأساسية » . (٤١)

ليس ثم وحدة في التاريخ العام . وإنما يشهد الإنسان الوحدة دون أن ييلفها أبداً . ومزج الإنسانية كلها في وحدة هو حد التاريخ ، بمعنى أن هذه الوحدة لو تحققت لانتهى التاريخ .

لكن يسبرز لا يقف عند هذا المعنى ذي النعمة الحزينة ، بل نراه - على عادته دائماً في كل ما يكتب - يختم بنبرة حارة سخية فيقول : أن الوحدة النهائية ستشرق في منطقة لا يمكن بلوغها من الملوكت التي فيها تتلاقى الأرواح وتتأخى ، أنها الملوكت السمور الذي فيه ينكشف الوجود في اجتماع النفوس . لكى يبقى شيء تاريخي ، ألا وهو الحركة التي فيما بين البداية والنهاية لاتبلغ أبداً معناها الخاص اللهم إلا اذالم يكن ثم غيرها هي » .

ويبدو أن شعورنا بالتاريخ بسبيل أن يتطور . وأعمال الباحثين المخلصين في التاريخ تتوالى ولا تزال لها كل أهميتها . وفي وسعنا أن نحدد بعض نقط هذا التطور للشعور بالتاريخ :

أ - أن الجديد هو **كيفية مناهج البحث ودقتها** ، وإحساس بالتنوع اللانهائي للأسباب ، وإرادة للفحص الموضوعي عن التاريخ بمساعدة مقولات أخرى غير مقولات السببية : التراكيب المورفولوجية ، معاني الكل ، الأشكال النمطية .

ب - لم يعد من حقنا اليوم ادعاء أن نرى في التاريخ **كلاً يمكن إدراكه في مجموعه** . ولم يعد في وسعنا أن ننساق وراء الرؤى الشاملة . ولانجد في أى موضع كشفاً تاريخياً محدداً للحقيقة المطلقة . ولا يوجد في أى مكان ما يمكن أن يتكرر هو نفسه .

ج - ولنترفع الآن فوق **التأمل الجمالي للتاريخ** . فلا ننساق وراء دعوى أن كل ما في التاريخ جميل ، يجذبنا . ذلك أن علاقتنا الحقيقية بالتاريخ ليست علاقة استمتاع وتأمل

جمالى ، بل هى صراع : ذلك أن التاريخ يهمنان نحن باشخاصنا ، وما يهمننا فيه يزداد اتساعا كل يوم . « وكلما كان التاريخ حاضرا لنا ، قل نظرنا اليه على انه موضوع للتأمل الجمالى » (٤٢) .

د - وما نحن اولاء مدفوعون نحو وحدة انسانية بمعنى اوسع واكثر عينية مما كانت الحال عليه من قبل . ونحن نعرف السرور العميق الذى تحدثه فينا النظرة التى نلقيناها على اصل الانسانية . ولا يقصد من هذا معنى « الانسانية » ، فان كلمة « انسانية » تصور مجرد يضيع فيه الانسان . ولقد تخلينا عن هذه الفكرة الغامضة . ان فكرة الانسانية لا تصبح عينية وقابلة للاحاطة الا فى جماع التاريخ الفعلى .

ولقد يبدو التاريخ الكلى خليطا من الاحداث العرضية ، التى تدور فى دوامة اعصار . انه يجرى دائما من اضطراب الى اضطراب ، ومن شر الى شر ، مع فترات تهدئة بسيطة ، وجزر صغيرة تطفو على الامواج العاتية المضطربة ، امواج الاحداث التاريخية ، حتى ليكاد يصدق قول ماكس فيبر Max Weber « ان التاريخ الكلى طريق رصفه الشيطان بقيم محطمة » .

ولو نظرنا الى التاريخ من هذه الزاوية ، لما كانت له وحدة ، ولا تركيب ، ولا معنى - غير التسلسل المتوشت الاسباب والاشكال ، منلما يحدث فى الطبيعة على نحو اكثر انتظاما . « لكن مهمة فلسفة التاريخ هى البحث عن هذا المعنى ، وهذا التركيب اللذين لا يمكن ان يهما غير الانسانية فى مجموعها » (الكتاب نفسه ، ص ٣٣٩ من الترجمة الفرنسية) .

هـ - والتاريخ والحاضر يصيران بالنسبة البنا غير قابلين للانفصال الواحد عن الآخر . ان شعورنا بالتاريخ مندرج فى استقطاب : ففي وسعى ان اعود كيما انامل التاريخ من بعد ، وان اراه كموضوع باذاتى ، او كجبل فى البعد ، يمكن ان يدرك كله فى خطوطه العامة وفى تفاصيله . وفى وسعى ايضا ان ادمج نفسى فى الحاضر الابدى : فى اللحظة التى انا فيها ، والتى تنحفر ، وهنالك يصير التاريخ فى نظرى ذلك الحاضر الذى هو انا .

على ان النظرتين ضرورتان : موضوعية التاريخ بوصفه حقيقة اجنبية عنى ، مستقلة عن ذاتى ، وذاتية اللحظة الحاضرة ، التى بدورها لن يكون لتلك الحقيقة اى معنى عندى . وعلينا ان نفدى الواحدة بالاخرى : نفدى الصورة الكلية للتاريخ بالشعور بالوقف الحاضر . فاعانى الحاضر وفقا لطريقتى فى رؤية جماع الماضى . وكلما نعدت فى الماضى ازادات مشاركتى فى المجرى الحاضر لاشياء جوهرية واهمية .

« اين مكانتى ، ولماذا احيا ، هذا امر لا افهمه الا بفضل مرآة التاريخ . ومن لا يحسب حسابا للثلاثة آلاف سنة التى سبقتة يظل فى الظل ، انه كمن خلا من التجربة ويعيش ليومه » .



لقطات علمية من تاريخ الطب العربي

توفيق الطويل

اعتمد على المشاهدة الحسية منهجا ، واقتصر على الوقائع الجزئية موضوعا ، واستهدف تفسير الواقعة وتقنينها (أو تفصيلها) غرضا ، ومن هنا كانت هذه اللقطات وشبهاتها تشكل الطب العربي علما طبيعيا بمفهومه عند المحدثين من الغربيين ، برغم أن التطور الذي صاحب هذه المرحلة من حياتهم ، لم يزودهم بما يعرف الآن من صنوف الآلات والأجهزة وغيرها ، مما

تمهيد

لقطائنا من طب المشرق والمغرب العربيين^(١)، في عصر الإسلام الذهبي الذي امتد من منتصف القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر لميلاد المسيح .

أما الإطار العلمي الذي سنتحرك فيه ونحن نتخير هذه اللقطات ، فيضم كل تفكير طبي

(١) كان يطلق المشرق العربي على العراق وسورياومصر ، ويطلق المغرب العربي على إسبانيا أو بلاد الأندلس (وهي ما دان لحكم العرب من شبه جزيرة إيبيريا) .

**قفز بتقدم الطب العلمى فى عصرنا الحاضر
أوسع القفزات .**

ويخطئ من يستبعد من علماء العرب كل من انحدر من أصل غير عربى ، فقد حدد مفهوم العالم العربى الذى نقصده فى هذا البحث المتصفون من المستشرقين (من أمثال ف . بارتولد Barthold ، وكارلو الفونسو نالينو Nallino ، والد ميلى Aldo Mieli) فقالوا أن علماء العرب فى هذا المجال هم كل من أسهموا فى تقدم العلم ممن كتبوا بالعربية من أهل العصور الوسطى ، وعاشوا فى بلاد عربية ، أو تدين لسلطان العرب ، يجمعهم تراث واحد ، ويربطهم مصير واحد (٢) .

وهذه دراسة لا تدفعنا إليها الرغبة فى تمجيد الأجداد ، والإشادة بترائهم ، لأن مثل هذه الرغبة لا تتماشى مع منهج البحث العلمى الذى يقتضى الباحث أن يتوخى النزاهة ويلتزم الموضوعية فى بحثه ، وإنما نقرنا بهذه الدراسة أنها تكشف عن حقائق مطبورة ، أو مجهولة للكثيرين منا ، ممن لا يعرفون نصيب العرب فى حلبة الصراع مع الآفات والأمراض .

وفى الحق لقد كانت المعرفة منذ فجر التاريخ مطلب الشعوب التى اخترعت الحضارات ، أو أسهمت فى بنائها بنصيب ملحوظ ، وباستثناء المعرفة التى تزيد التجربة الدينية قراء ، أثرت هذه الشعوب من مجالات المعرفة ما تيسرت الإفادة منه فى خدمة الحياة العملية وتحقيق مطالبها ، ترحب به حين تسلمها إليه خبرتها ، وتسمى إليه فى مظانه إذا لم تدركه فى بيئتها .

وكان أول شيء أثار اهتمام الإنسان الأول : الدين والطب، أثارت القوى الطبيعية مخاوفه ،

فاستعان على مقاومتها بآلهة تصورها، واشفق على نفسه من مسببة المرض ، وافترعه آلام المصابين به من أهله وذويه ، فنزع إلى صناعة الطب ، واستعان - أول الأمر - فى محاربة المرض بالتعاويد والأحجية والرقى السحرية ، حتى إذا استقام أدراكه ونضج وعيه ، ارتفعت بالأديان المنزلة أساليب تدنيه ، واستقامت بالخبرة والوعى طرق المحافظة على صحته ، وسُئما بالعلاج الطبى إلى مستوى يشرف إنسانيته .

وكان العرب ، وخاصة فى عصورهم الوسطى ، من أشد شعوب الأرض طلبا للمعرفة ورغبة فى الإفادة منها فى حياتهم ، وكان فى مقدمة العلوم العملية التى ظفرت بنصيب ملحوظ من اهتمامهم : الطب ثم الفلك وسائر فروع المعرفة التى تقوم على خدمتهما .

والآن ننبه - بعد هذا التمهيد - إلى أننا سنضمن هذا المقال ثلاثة فصول خاطفة ، نتناول فى أولها آفاق الطب العربى وقائما وعلاجيا ، ونعرض فى ثانيها لتطور هذا الطب عبر تاريخه الطويل ، ونبين فى ثالثها مظاهر النضج فى دراساته .

آفاق الطب العربى

نحدد فى هذا الفصل إطار الطب العربى ، ونتتبعه موجزين فى حقله الوقائى ، ثم فى مجاله العلاجى ، ونستكمل صورته بالإشارة إلى العلوم المساعدة له ، ومجال تطبيقه فى المستشفيات التى كانت دورا لعلاج المرضى ، ومعاهد لتعليم الطب، وتدريب الأطباء ، ونلفت النظر - مع هذا - إلى آداب الطبيب والتزاماته .

علم الطب ، عند مؤرخيه من الغربيين المحدثين ، يضم فن الوقاية من الأمراض ، وكفالة الصحة عند الأفراد والجماعات ، ثم

وارتبط الطب بحياة الناس ، وكان متار اهتمام العرب ، فجدوا في ارتياد مجاهله والكشف عن حقائقه (٤) .

فلنقف الآن عند :

(١) الطب الوقائي :

تهتم الأمم المتقدمة في أيامنا الحاضرة بالطب الوقائي ، لأنه يكفل لمواطنيها الخدمات الصحية التي تقيهم شر الامراض والاوبئة قبل وقوعها ، ويهيئهم للعمل ويمكنهم من الانتاج ، ويوجه الجهود الى العناية بحالة المساكن ونقاء الهواء ، ومستوى الغذاء ، ونشر الوعي الصحي ، وانشاء المعامل التي تساعد على كشف الامراض في بواكيرها ، وصنع اللقاحات والامصال الوقائية ... وغير ذلك مما احتل مكان الصدارة من اهتمام الحكومات ومؤسساتها في أيامنا الحاضرة ، فلا تقتنع بالطب العلاجي ودراساته الاكاديمية مكتفين باستخدام السماعة وميزان الحرارة وأنبوبة الاختبار !

وقد بدأت فتوحات الطب الوقائي في الغرب منذ ان وضحت العلاقة بين الفقر والمرض ، واقتنع البرلمان الانجليزى بأن يعتمد عام ١٨٤٨ م قانونا يكفل المحافظة على صحة الشعب ، وينظم اول مجلس عام لتحسين موارد الحياة ، ويقوم — بمشاريع المجارى وتنظيف المدن الكبرى ، ونشأ في الولايات

الكشف عن الامراض في بواكيرها ، وتدبير العلاج الكفيل بتخفيف آلامها ، والقضاء عليها عند استفحالها ، ومن الضلال ان ينظر طائفة ان وظيفة الطب لا تعدو علاج الامراض ، فان الطب الوقائي اسبق من الطب العلاجي مهمة واعظم خطرا ، وهذا معنى لا يتبادر الى الازهان ، لان الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الا المرضى !

وقد فطن الى هذا المعنى مؤلفو العرب في عصورهم الوسطى ، فكان الطب عندهم وقائيا يستهدف حفظ الصحة ، وعلاجيا يقصد الى شفاء المرضى ، والوقائي اجل من العلاجي وأكثر نفعا ، لان الصحة في الاصحاء موجودة ، وفي المرضى معدومة ، والمحافظة على الموجود ، اجل من طلب المفقود — فيما يقول علي بن عباس المجوسى (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) في كتابه « الكامل في الصناعة الطبية — او الكناشة الملكية » وشاعت هذه النظرية عند اطباء العرب ومؤلفيهم ، فعبّر عنها « ابن سينا » شعرا في ارجوزة من اراجيزه الطبية حين قال :

هذه ارجوزة قد اكتمل
فيها جميع الطب علم وعميل
الطب حفظ صحة برء مرض
من سبب في بدن منذ عرض (٣)

(٣) الأرجوزة الكبرى (الالفة في الطب) وهي تتألف من ألف ولألف سنة عشر بيتا ! وقد شرحها كثيرون في مفتحهم ابن رشد ، وترجمت في القرن الخامس عشر الى اللاتينية (لغة العلم في اوروبا اذ ذاك) .

(٤) لا يمنع هذا من ان تشير الى طائفة آثرت ترك التداوى عند الإصابة بمرض ، انكلا على الله ، قال شاعرهم :

لا يستطيع دفء امر قشرا
قد كان يبرى قبله مستظورا
حلف الدوا وابتمامه ومن اشترى

ان الطبيب بطبعه ودوائه
ما للطبيب يموت بالداء الذى
هلك المداوى والمداوى والذى

وينظره فلسفية رفض بعض كبار الأطباء علاج أنفسهم ! فالرازى رفض معالجة عينيه بحجة انه رأى من العالم ما يكفي ! وابن زهر رفض اى اسعاف قاتلا لولده الذى كان يقوم على خدمته انه على من الحياة ما يكفي ! وابن سينا رفض ان يتشامى السموات ، وياع ممتلكاته ووزع ثمنها على الفقراء !

والحلوى ... وعرض للأسباب التى تفسد الاستعراء مع جودة الطعام ودفع كل منها ... الى آخر ما تناوله في ذلك الكتاب .

وخصص تلميذه « علي بن عباس » في كتابه السالف الذكر « الكامل في الصناعة الطبية » واحدا وتلاتين فصلا في علم الصحة ، تحدث فيها عن حفظ الصحة وتدبيرها بالرياضة والاستحمام والغذاء والشراب والنوم والجماع ، وعرض لحالات الهواء في كل فصل من فصول السنة ، وتدبير من ناله اعياء ، ومن في أعضائه آفة ، ومن أصيب بهزال ... وحذر من الامراض الوبائية ونبه الى الاعراض المنذرة بها ، ولم يفته ان يتحدث عن الامراض النفسية وغيرها مما يدخل في علم الصحة .

وزاد « ابن سينا » فعرض في قائلونه للحديث عن اختيار المرضعة ، والوقاية من حرارة الشمس ، وعوامل البيئة من طقس وتربة وغذاء وشراب .. ونحو ذلك مما تناوله في الفن (الباب) الثانى من كتابه .

وكان للعرب في أسباب الصحة والمرض لفتات طبية تقتبس منها نموذجاً من مقدمة ابن خلدون ، اذ تحدث فيها عن أهمية الهواء والغذاء ومكانتهما من حياة البدو وسكان الحضر ، فقال ان مرد الامراض في اغلب الحالات الى التغذية ، وهى تصيب اهل الحضر والامصار اكثر مما تصيب اهل البدو « لخصب عيشهم وكثرة ماكلهم » وتنوع اصنافها واقبالهم على تناولها ، مع خلطها بالتوابل والبسول والفواكه وطبا وياسا ، الى جانب طبخها والاكثر من صنفها حتى تبلغ في اليوم الواحد اربعين نوعا من النبات والحيوان ... يزيد هذا ان الهواء في الامصار تفسده الأبخرة العفنة والناشئة عن كثرة الفضلات ... وإن اهل الامصار لا يزاولون الرياضة الا نادرا .. واما اهل البدو فيقبل عليهم الجوع لقلّة ما لديهم من حبوب ، حتى صار الجوع عادة ظنها البعض جبلة فطرت عليها طبائعهم ، وبكاد طعامهم يخلو من الدسم ، ولا يعالج بالطبخ ولا يزود

المتحدة عام ١٩٠١ معهد روكفلر للأبحاث الطبية بمعاملة وآلاته وأجهزته العلمية والباحثين المتفرغين به ، وفي العام التالى وافق الكونجرس على قانون يحرم غش الاغذية والادوية .

ولكن العرب في عصورهم الوسطى قد
توصلوا الى الكثير من اسس الطب الوقائي
ومقوماته ، فتوصلوا الى الوقاية من الامراض
بدراسة الجسم ووظائف اعضائه ، وحاولوا
الكشف عن اسباب الامراض واعراضها وطرق
انتشارها ، لمعرفة اساليب الوقاية منها دفعا
لوقوعها ، واهتموا بما نسميه اليوم بعلم
الصحة (Hygiene or Hygenics) وحرصوا
على وضع القواعد التى تكفل العافية وتحول
دون الوقوع في المرض ، ومعرفة الوسط الذى
يعيش فيه الانسان ، كما يبدو في الهواء الذى
يستنشقه ، والغذاء الذى يطعمه ، والماء الذى
يشربه ، والسكن الذى يقيم فيه ، والعمل
الذى يقنات منه ... بل كان بين اطباء العرب
من اضافوا ضرورة الاهتمام بالحالات النفسية
التي تتمثل في الخوف والفصص والحزن
والفرع ، واليابس والامل ... وغير هذا من
اتفاعلات لها تأثيرها البالغ في صحة الانسان
ومرضه .

وكرت مؤلفات العرب في المحافظة على الصحة واتقاء الامراض ، تكتب الرازي كتابه « منافع الاغذية ومضارها » وجرى على نهجه الكثيرون ، وأرسلوا اهتمامهم كتباً او ابواباً في كتب ، وتناول الرازي في كتابه السالف الذكر منافع الحنطة والخبز ومضارهما ، والطرق التى تستخدم في دفع هذه المضار ، وعرض لمنافع الماء بارداً وحاراً ، والشراب المسكر ومضاره ، ومنافع الحوم والاسماك ووجه الاذى من تناولها ، والكواشيخ والزيتون والمخللات ونحوها ، ومنافع البيض والبقول ، النوى منها والمطبوخ ، والتوابل والفواكه

وتدبير البدن بما ينبغي ، فتصلح بذلك الأسباب الضرورية ، ولا يسرع الى الجسم الفساد ، وهذا التدبير هو حفظ الصحة على الأصحاء وردها الى المرضى ، وحفظ الصحة أعظم من علاج الأمراض ، لانه الفرض الذى تقصد اليه صناعة الطب .

وفي تراث الطب وصايا هدت اليها خبرة الطبيب العربى ، فمن أقوال العرب ليس أضر على الشيخ من طبخ حاذق وجارية حساء ، لانه يستكثر من الطعام فيسقم ، ومن الجماع فيهرم ... يقول « ابن سينا » :

اجعل غذاءك كل يوم مرة
واحذر طعاما قبل هضم طعام
واحفظ منك ما استطعت فانه
ماء الحياة يراق في الأرحام (١)

ومثل هذا في تراث الطب العربى أكثر من أن يحصى ، وهو يكفى إبطالا للزعم القائل بأن عقيدة القضاء والقدر قد صرفت أهلها من المسلمين عن الالتزام بقواعد الصحة ، ونسى أصحاب هذا الزعم ما فطن اليه بعض الغربيين - من أمثال ول ديورنت - من أن من مستلزمات الاسلام أن النظافة من الإيمان ، وأن الشرب المسكر حرام ، وميل سكان المناطق الحارة الى إيسار الطعام النباتى على الحيوانى ، والدعوة الى الاستحمام وخاصة عند الإصابة بالحُميات ، والدعوة الى استخدام حمامات البخار وغيرها مما لا يزال يتبناه الطب الحديث .

قد لا يجد قارئ اليوم شيئا غريبا فيما اسلفناه عن موقف العرب في عصورهم الوسطى من الطب الوقائى ، ولكنه اذا وضع هذا الموقف في إطاره الزمنى ومجاله الحضارى ، كان خليقا

بالفواكه ، ... وأما الهواء الذى يستنشقه فتنقى قليل العفن ، مختلف ان كانوا طواغن ، وهم يزاولون الرياضة بحكم حياتهم ، ويكثرون الحركة وركوب الدواب ومباشرة الصيد ونحوه مما يساعد على هضم الطعام وتغادى البردة (ادخال طعام الى المعدة قبل أن يهضم ما فيها) وبالتالي تقل حاجتهم الى الطب ... سنة الله التى خلت في عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا (هـ) .

وحديث علي بن عباس المجوسى عن **خطر الوقاية** من الأمراض ، يستحق أن نقف عنده قليلا :

يقول ان الأجسام من شأنها أن تغير وتستحيل ، لأن مصيرها الفساد والفناء ، وهما يعرضان للأبدان اما ضرورة واما غير ضرورة « ويعرض أولهما بسبب الجفاف الذى يصير به النبات الى الذبول ، والحيوان الى الهرم ثم الى الموت ... وقد يعرض الفساد بسبب الفضلات التى تتولد عن الأطفعة والأشربة ، أما ما يعرض من الفساد الضرورى من خارج فيكون بسبب الهواء المحيط به ، أما الفساد الذى يعرض للأجسام من غير ضرورة ، فيبدو فيما يلحق بالإنسان من خارج ، كصدمة الحجر أو قطع السيف أو لدغ الهوام ونهشها ، وإذا كان الأمر على هذا فان الأجسام تغير دوما ، ولا تثبت على حال ، ومن هنا مست الحاجة بالضرورة الى تدبير يصلح ذلك التغير ويمنع الأجسام من الفساد ، ويحفظها على حال صحتها الى وقت الهرم والموت الطبيعى ، ان منع الفناء مستحيل لانه ينشأ عن طبيعة الأبدان ، ولكن الطبيب يتعين عليه ان يصطنع التدبير الذى يمنع الأسباب الداعية الى فساد الجسم وفنائه ، حتى لا يسرع اليه الهرم ، وذلك بالمبادرة بالتحفظ من الأسباب المفسدة غير الضرورية ،

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٢ - ٩٣ .

(٦) وان قيل ان ابن سينا قد مات بسبب الافراطى اشباع شهوته !

وكميته ونحو ذلك من أساليب العلاج الطبيعي، تم باستخدام الدواء والعقاقير أو بإجراء الجراحة التي أسماها العرب « العمل باليد أو بالحديد » ، ولتلق عند بعض فروع الطب في ترانهم :

في طب العيون وغيره :

امتد الطب العلاجي الى أمراض العيون والنساء والتوليد والأطفال والأمراض العصبية والنفسية وغيرها مما يقتضى التخصص وسنلزم التعرق في الدراسة ، فازدهر طب العيون على أيدي العرب لنشوء أمراضه في بلادهم الحارة ، ويرجع الفضل في ووقنا على براعتهم فيه الى « يوليوس هيرشبرج » J. Hirschberg . استاذ طب العيون بجامعة برلين سابقا ، اذ أفرد لتاريخ طب العيون سبع مجلدات استغرق أعدادها الإكباب على الدراسة الآمنة الواعية خمسة وعشرين عاما ، خصص سبعا منها لمجلد عن طب العيون عند العرب والمسلمين .

ومن خير ما وضع في طب العيون كتاب « دغل العين » ليوحنا بن ماسويه + ٨٢٧ م - وشهرته عند الفرنجة Mesue Maior ويسمى أيضا يوحنا الدمشقي - وهو من السريان والنساطرة الذين تولوا التدريس في مدرسة جند يسابور ، وقد عهد اليه الرئيد برياسة دار الحكمة ، ويقول «ماكس مايرهوف» عن كتابه السالف الذكر أنه أول كتاب عربى منظم في علم الرمد ، بل يقول أنه اقدم الكتب التي وضعت في طب العيون في مختلف اللغات القديمة ، لأن ما وضع في هذا الباب في السريانية قد فقد، والكتاب حافل باصطلاحات فنية وفارسية ، وإن كان أسلوبه العربى رديئا ، وبعض مؤلفاته الطبية مزود برسوم الأعشاب الطبية ، وعلى نهجه سار كثيرون من العرب في تزويد كتبهم بالرسوم .

وبلغ طب العيون كماله بكتاب حققه حنين ابن اسحاق + ٨٧٧ م - وشهرته عند الفرنجة Johannitus - هو كتاب « العشر مقالات

بأن يجد فيه سبعا لعصره بمئات السنين ، ويراه أهلا لأن يمثل مكانه من هذه اللقطات .

(ب) الطب العلاجي :

التشخيص والعلاج : اهتم العرب بتشخيص المرض ومعرفة أعراضه وطرق علاجه ، فكان الطبيب يستفسر من مريضه عن مأكله ومشربه ومكانه وأسرته وحالته الصحية والاجتماعية ونحو هذا مما لا يزال طبيب اليوم يتوخى معرفته ، وكان للعرب فضلهم في الكشف عما سموه بالأسباب والعلامات ، أى اسباب الأمراض وأعراضها ، وكان الرازى يرتبها طبقا لأهميتها ، وهذا هو ما يسميه أطباء اليوم بهيكلية العلامات ، وقد أشار الرازى الى اختلاف العلامات باختلاف الوقت الذى تحدث فيه عبر تاريخ المرض ، فكان العرب أول من ابتدع استقصاء العلامات وتدوين المشاهدات بدقة بالغة ، مع استنباط نتائجها التى تلزم عنها بالضرورة .

واهتم الطبيب العربى بفحص البول وجس النبض ، وعرض مؤلفهم لبيان هذا في مئات الكتب ، وسعوا الاستنتاج من فحص البول بالتفسر ، ولم يكن يعالج مريض الا بعد فحص بوله ، وله عندهم علامات تميز السليم من المريض ، وكان النبض يشير الى حركة القلب ومدى حيويته ، فكان رسولاً صادقاً ومناذياً يكشف بزعم خرسه عن أشياء خفية فيما يقول « علي بن عباس » .

وساعدهم هذا على وضع قواعد التشخيص ، والتفرقة بين الأمراض المتشابهة في أعراضها ، ففرق « الرازى » بين الجدرى والحصبة ، وميز « ابن سينا » بين الالتهاب الرئوى والتهاب السحايا الحاد ، وبين الغصص المعوى والغصص الكلوى ، وبين حصاة المثانة وحصاة الكلية .. وغير هذا مما سنعرض له في « كشوف طبية عربية » .

اما العلاج فكان - فيما اشار « ابن سينا » وغيره - بممارسة الرياضة ، ونوعية الغذاء

« الكافي في الكحل » وزوده برسوم لآلات تستخدم في جراحات العين ، ومن فرط ثقته في قدرته على إجراء جراحة ماء العين كان لا يتردد في إجرائها للمريض ولو كان بعين واحدة !

وفي ذلك السيل من مؤلفات العرب في طب العيون عرفت دراسات عميقة في تشريح عيون الحيوانات وعضلاتها ، مما أعانهم على تشخيص أمراض العيون وطرق علاجها على أحسن وجه يتيسر لمن تنقصه الآلات والأجهزة الحديثة التي يستخدمها المعاصرون من أطبائنا .

وبرع العرب في الجراحة بأوسع معانيها ، ومنها جراحات النساء والتوليد ، وقد قام « خلف أبو القاسم الزهراوى » (ت ١٤ هـ / ١٠١٣ م) - وشهرته عند الفرنجة Abulcasis - بجراحه فتفتت رأس الجنين متى كان ضخما ، واخترع منظار المهبل ، وكتب مع غيره من المؤلفين - من أمثال « ابن سينا » و « ابن زهر » - في الأورام الرحمية ، والعنق وتقرحه ، وشرح « علي بن عباس » طريقة توليد الجنين الميت دون إيذاء المرأة الحامل ، وتحدث عن الأدوية التي تعوق الحمل ، وإن آثر عدم ذكرها خشية أن يستخدمها من لا يحتاجها بالضرورة ، وذلك تمشيا مع تقاليد الدينية من ناحية ، ولوائه لقسَم « إبقراط » الذى اخلص له أطباء العرب - وسنعود إليه عند الحديث على « التزامات الطبيب وآدابه » ، كما أوصى الطبيب أن يشير بدواء ينفع في احتباس الطمث ... وغير هذا مما يدخل في أمراض النساء والتوليد .

في العين « على ما بينه وشرحه جالينوس الحكيم - فيما يقول حنين في مقدمته - وهو أقدم كتاب مؤلف على الطريقة العلمية في طب العيون - فيما يقول ناشره ومترجمه الى الانجليزية ماكس مايرهوف (٧) - وقد زوده مؤلفه برسوم شائقة للغاية ، وهى أول رسوم عرفت في تشريح العين ، ثم هى أدق من كثير من مثيلاتها في الكتب الاوربية في القرون الوسطى ، فيما يقول الباحثون المحدثون من اطباء العيون انفسهم - وقد جرى على نهجه في تزويد الكتب برسوم ايضاحية بعض خلفائه من المؤلفين ، وفي مقدمتهم ابن اخته حبش بن الاعثم .

وانضج من هذا كله كتاب « تذكرة الكحالين الذى صنفه « علي بن عيسى » في القرن العاشر - وشهرته عند الفرنجة Jesu Haly - وهو بين الكتب العربية يعد اكملها جميعا في هذا المجال ، ولا يفضلته حتى بين الكتب الاوربية كتاب آخر حتى القرن التاسع عشر - فيما يقول الدومبيلي وماكس مايرهوف (٨) .

وعلى هذا المستوى نفسه كان كتاب « المنتخب في علاج امراض العين » « لعمار بن علي » الموصلى بالقاهرة - وشهرته عند الفرنجة Canamushi (٩) ويتفق ماكس مايرهوف مع هيرشبرج في أن عمارا كان مجددا في تصور طريقته ، وبخاصة لازالة ماء العين (الكتاراكتا Cataracta) وهو الذى اخترع الابرة المجوفة التى تمتص هذا الماء .

وقد صنف « خليفة بن أبى المحاسن » في النصف الثانى من القرن الثالث عشر كتابه

(٧) مقدمة العشر مقالات في العين لناشره ماكس مايرهوف - الطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٢٨ .

(٨) الدومبيلي : العلوم عند العرب ص ٢٥١ - ولم ينشر نص الكتاب العربى كاملا ، ونشر ماكس مايرهوف نص بعض فصوله ملحقا بكتابه عن تاريخ التراکوما وعلاجها قديما وعند العرب (بالانجليزية) وللكتاب ترجمة المانية .

(٩) لم ينشر نصه العربى ، وترجمه الى الانجليزية هيرشبرج مع آخرين ، ونشر ماكس مايرهوف المؤلف نفسه كتابا آخر عن عمليات ماء العين .

في الامراض المتعدية

وامتد طبعهم العلاجي الى الامراض المعدية ، وكانوا يسمونها بالامراض السارية ، فتحدث « ابن سينا » عن عدوى السل الرئوي ، وسبق الى وصف داء الفيلاريا وسريانه في الجسم ، والى وصف الجمرة الخبيثة التي اسماها النار المقدسة ، كما سبق « الرازي » الى وصف الجدري والحصبة والتفرقة بينهما ، والقول بالعدوى الوراثية ، وسبق « علي بن ريان الطبري » (الذي لم نحو سنة ٨٥٠ م) الى الكشف عن الحشرة التي تسبب داء الجرب ، وسبق « ابن ماسويه » الى وصف الجذام ...

وكان العرب - فيما روى مؤرخو الطب العربي - اول من قرر ان الوبئة تنشأ عن **التعفن ، وتنتقل بالهواء والمخالطة ،** وأشار « ابن النجيم » الى استخدام التدخين لتطهير الهواء أثناء انتشار الوباء ، وأثبت « ابن الخطيب الاندلسي » وجود العدوى **والاحفظ مراداً ان من خالط مريضاً مصاباً بمرض سالم (اي معد) او ليس من تيابه ابتلى بالمرض ، ومن لم يخالطه نجا من العدوى .** وقد تحدث في رسالته « مقنعة المسائل عن المرض الهائل » - ويقصد الطاعون - فيقول : « فان قيل كيف نسلم بدموى العدوى وقد ورد في الشرع ما ينفي ذلك (١٠) قلنا وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والعص والمساهدة والاخبار المتواترة ، وهذه مواد البرهان ، وغير خفى عن نظر في هذا الامر او اراد ادراكه ، هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالباً ، وسلامة من لا يباشره كذلك ، ووقوع المرض في الدار والمحلة لثوب او آتية ، حتى ان القرط اطف من علق باذنه وابدأ البيت بأسره ووقوعه

في المدينة في الدار الواحدة ثم اشتعاله فيها في افراد المبشرين ، ثم في جيرانهم واقاربهم ووزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق ، وفي مدن السواحل المستصحية حال السلامة الى ان يحل بها من في البحر من عدوى اخرى قد شاع عنها خبر الوباء ... وصح النقل بسلامة أهل اليهود والرحالين من العرب بافريقيا وغيرها لعدم انحصار الهواء ، وقلة تمكن الفساد منه » .

وأشار « ماكس مايرهوف » في فصل الطب في كتاب تراث الاسلام: **The Legacy of Islam** الى ان الطاعون كان موضع دراسات علمية عربية في مقدمتها دراسه « ابن الخاتمة » (ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م) وكان قد اجتاحت بعض المدن الاسبانية في عصره .

ولا عجب في هذا كله ، فقد فطن الى العدوى نبى الاسلام (ص) في القرن السابع للميلاد فمما اثر عنه قال : « اذا وقع الطاعون بأرض فلا تقدموا عليها ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » فلا غرابة ان قيل ان العرب كانوا اول رواد الحنجور الصحي .

كان هذا عند العرب في عصورهم الوسطى ، بينما كانت اول دراسة علمية في أوروبا عن العدوى والامراض المعدية عام ١٥٤٦ م وكانت أوروبا تجهل أسباب الأمراض المعدية عند فشو الطاعون عدة مرات في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، وعده الغربيون قضاء من الله لا يرد !

وقريب من هذا كله يمكن ان يقال في براعة العرب في طب الامراض العصبية والنفسية والعقلية ، وطب الاطفال والاسنان و البيطرة وغيرها من فروع الطب المختلفة .

(١٠) الاصل ان رسول الله (ص) قال : لا عدوى ولا طيرة ، وقال : لا يورد مريض على مريض ، اي مريض على صحيح ، فالحديث يجب ان يحصل على التمسك وليس على النفي بمعنى : تجنبوا العدوى واتقوا شرها وعندل يكون الحديث : لا يدخل مريض على صحيح ، مفرداً للحديث : لا عدوى .
* انظر النصوص القيمة التي جمعها اوتوشيس من (طب الانسان عند العرب) وترجمها عن الالمانية الدكتور حسين مؤنس ونشرها في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمريد مجلد ١٢ عام ١٩٦٨ .

المجال ، في ضوء خبراتهم الشخصية ، ومن الأدلة الناطقة على صدق هذا أن « ابن النفيس » (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) برغم أنه كان يجاهر بأنه لا يقوم بشرح الجثث استجابة لتعاليم الشريعة ، كان في كتابه « شرح تشریح القانون » ينقد « الفاضل جالينوس » ويقول : « والتشريح بكلبه ! » وفي ضوء خبرته الذاتية كشف الدورة الدموية لأول مرة في تاريخ الطب ، كما سنعرف عندما نتحدث عن « كشوف طبية عربية » .

وكان « عبد اللطيف البغدادي » (ت ٦٢٩ / ١٢٣١ م) وهو يصف رحلته الى مصر في كتاب « الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر » يصرح بأنه وجد تلا من الهياكل البشرية في إحدى المقابر بمصر القديمة وتبين بخبرته خطأ « جالينوس » الذي باشر التشريح بنفسه وجعله ذأبه ونصب عينيه !

هذا عن التشريح عند العرب في عصور رات فيه أوروبا أن فن التشريح امتهان للجسم الذي خلقه الله ! وقد أجريت أول عملية تشريح في باريس اواخر القرن الحادي عشر ، أي بعد وفاة « ابن النفيس » بنحو قرنين ! وفي مونبليه بفرنسا أجريت عام ١٥٥١ م في بازل بسويسرا عام ١٥٨٨ وفي بولونيا عام ١٦٣٧ ! ولم تنشأ نواة فن التشريح الوصفى الا اواخر القرن الخامس عشر بإذن من البابا سكستوس الرابع ، ولم تنشأ مدرجات للتشريح في أوروبا الا في القرنين السادس عشر والسابع عشر - فيما اشار الدكتور غليونجي .

وفي ظل التشريح عند العرب تقدمت الجراحة ، وكان امامها « أبو القاسم الزهراوى » (ت ١٤١٤ هـ / ١٠١٣ م) - وشهرته عند الفرنجة Abulcasis . وبكتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » احتل مكان

في التشريح والجراحة :

اما الجراحة ، فانها لا تستقيم بغير ممارسة التشريح ، والمحدثون من المستشرقين على اتفاق في أن الشريعة الإسلامية قد حرمت تشريح الجثث ، انسانية كانت او حيوانية ، واستندوا الى هذا في القول بتأخر الجراحة والطب العلمى عند العرب ، ومن ثم كان اعتمادهم على ما كتبه « جالينوس » ٢٠١ م في هذا المجال ، مع أنه اقتصر على تشريح جثث القردة وغيرها من الحيوانات ، وحتى « ادور جورج براون » E. G. Browne قد اعتمد على مؤرخ الطب العربى « ابن أبى أصيبعة » ومعجم ايرانى وضعه أربعة من العلماء أجابة لطلب الشاه ، وذكر ان « ابن ماسويه » ٨٢٧ م كان يميل الى التشريح ، ولا يستطيع أن يحصل على جثث انسانية ، فعمد الى تشريح قردة في غرفة خاصة اقيمت على شاطئ دجلة ، وقد اعد له امير النوبة بمصر - بامر من الخليفة المعتصم - نوعا من القردة تشبه الانسان شيها قويا ليمارس تشريحها ، ومع هذا يزعم براون - مع السدو ميبلى A. Mieli وول ديورنت Durant وغيرهما - أن ليس لديهم دليل يثبت به على ممارسة التشريح - لجثث انسانية او حيوانية - في مدارس الطب العربى : واشارة « ابن أبى أصيبعة » الى ما سلف نفى الزعم الذى رده بعض الغربيين من أن التشريح كان محرما في الشريعة الاسلامية ، والراى عندنا ان الوقوف على ما كتب اطباؤهم يشهد بأن الكثيرين منهم قد زاولوا التشريح وان لم يجزوا على الجهر بما فعلوا مخافة ان يتعرضوا لسخط المتزمتين من رجال الدين .

لم يفتح العرب بالالام بما كتبه الاقدمون ، ولا سيما امامهم جالينوس - في مجال التشريح ، بل نبهوا الى الكثير من اخطاء اسلافهم في هذا

دراساته ، وفي مقدمتهم ديسقوريدس + ٦٠م
Dioscorides الذى كان كتابه في
الحشائش مرجع خلفائه من بعده ، وكان يضم
أكثر من ستمائة عشبة مع أدوية وعطورات
وأدهان وصمغ وأنواع شراب وأدوية معدنية .
وقد وضع ابن جليل في مطلع القرن الحادى
عشر ذيلًا لترجمة هذا الكتاب استكمل فيه
مافات ديسقوريدس من أسماء العقاقير
الطبية ، بل أضاف العرب الفى نبات السى
ما كان يعرفه اليونان .

وفي أواسط القرن السابع أخذ « ابن
البيطار » (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٩م) يطوف البلاد
للملاحظة النبات ومشاهدته في منابته ، وعين في
بلاط الملك الكامل الأيوبي نقيب العشابين
(الصيدلة) في الديار المصرية .

وفعل ما يشبه هذا « رشيد الدين الصورى
(ت ٦٦٩هـ/ ١٢٤١م) زاد فاصطب معه في
رحلاته مصورًا مزودًا بأصباغ والوان ،
وأطلعه على النبات في منابته ليتوخى الدقة
عند رسمه في تعيين لونه ، وحجم أوراقه ،
وأغصانه وأصوله - على نحو ما يفعل علماء
النبات في أيامنا الحاضرة .

أما الكيمياء فإن مؤرخيه على اتفاق في أن
نشأته علماء تجريبيا ، كان مقدرا لها أن تكون
على يد علماء العرب ، ومن أكثر منهم -
مستشرقين كانوا أو عربا - وجود « جابر بن
حيان (ت ١٩٨هـ/ ٨١٣م) كشخصية تاريخية،
رد نشأة هذا العلم إلى عالم عربى آخر هو
(أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (ت ٣١٤هـ/

٩٢٦م) - شهرته عند الفرنجة Le Razes
فيما يرى الدومبيلي بوجه أخص ، فالعرب
هم الذين أزالوا عن الكيمياء السرية والغموض
والرمزية التي لازمتها عند أسلافهم، واصطنعوا

الصدارة بين جراحي العصور الوسطى ، وقد
قدره الفرنجة أكثر مما قدره بنو وطنه ، وكان
كتابه دائرة معارف طبية ، تناول في قسمها
الأول الطب الباطنى ، وفي الثانى الأقباضين
(الصيدلة) والكيمياء ، وفي الثالث الجراحة ،
وهو أهمها وأخطرها ، عرض فيه للعلاج
بالكي ، وآثره على المشرط ، وأوصى به في
فتحخراجات واستئصال السرطان ، وقد
زود كتابه برسوم مجموعة ضخمة من الآلات
المستخدمة في الجراحة ، نورد هنا نموذجا منها
نقلا عن مؤرخ الطب العربى « لوسيان لوكليير »
+ ١٨٩٣ .

وكان « الزهراوى » السباق الى ربط
الشرايين في الجراحات ، ومعرفة الطريقة التى
تستأصل بها الحصى المثانية في النساء عن
طريق المهبل ، وقد وصف استعداد بعض
الاجسام للنزيف وعالجه بالكى ، وأجرى
جراحات ناجحة في شق القصبة الهوائية
ونفتيت الحصى في المثانة وغير ذلك كثير ، وقد
كان كتابه مرجع الدارسين في أوروبا ، والكتاب
المدرسى في جامعاتها حتى مطلع القرن
السابع عشر (١١) .

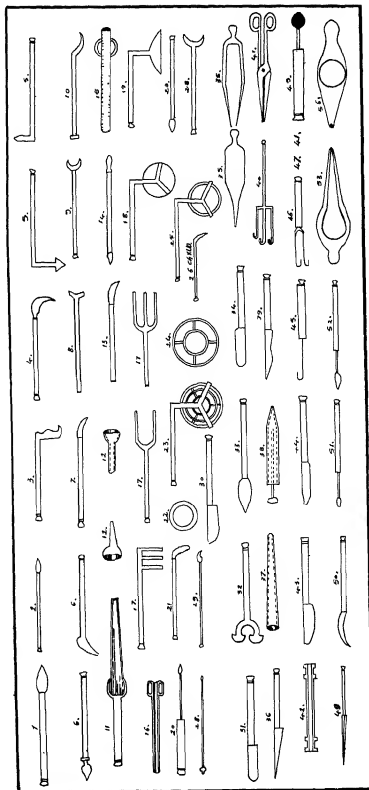
علوم مساعدة للطب :

اتصلت بالطب العربى علوم تجريبية أعانت
على تحقيق أغراضه ، في مقدمتها الصيدلة
التي أفادت من علمى النبات والكيمياء ، لأن
على الصيدلى أن يعرف حقيقة الأعشاب ،
ويقف على خصائصها ، ويقوم بتركيب المركبات
وأعداد المستحضرات وتحليلها ، فلنقف عند
هذه العلوم قليلا :

في علمى النبات والكيمياء :

اهتم العرب بالنبات من ناحية منفعتها في
علاج الأمراض منذ أن أخذت الدولة الإسلامية
في التحضر ، واتصلوا بتراث أسلافهم في

(١١) لا توجد طبعة كاملة للكتاب ولا لترجمته اللاتينية التى قام بها جيرار الكريمنى أو غيرها وللكتاب أو أجزاء منه
ترجمات مختلفة أشار إليها الدومبيلي ص ٢٥٥ - ٥٦ .

صور آلات الطب والجرارة والتمريض المأدب في كتاب التصريف للأبقار وكت
معداً عن نوخير

**في دراساتها منهاجاً استقرائياً تجريبياً ،
واستخدموا فيها الكايل والوازين وغيرها من
الآلات تحقيقاً للدقة والقبض .**

والى العرب يرجع الفضل في كشف الكثير من المركبات والمستحضرات التي لا تزال معتمدة في أيامنا الحاضرة ، ومن المركبات التي استحدثوها ماء الفضة (حامض النترك) وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) وماء الذهب ... وقد كشفوا البوتاسا والنشادر وملحه (نترات الفضة) والسليمانى (كلوريد الزئبق) وأكسيدته ، ونترات البوتاسا والزاج الأخضر (كبريتات الحديد) والكحول والزرنخ وغيرها من مستحضرات ومركبات لم يعرف بعضها في أوروبا إلا أواخر القرن الماضي .

في علم الصيدلة : تقول جمعية الصيدلة المصرية في العدد الأول من نشرتها ، ان الصيدلة فن علمي يبحث في أصول الأدوية - نباتية كانت أو حيوانية أو معدنية - من حيث تركيبها وتحضيرها ومعرفة خواصها الكيميائية والطبيعية ، وتأثيرها الطبى ، وتحضير الأدوية المركبة منها ، والعقار - بضم العين - يعنى الدواء، وكان يراد بالأقرباذين Pharmacology تركيب الأدوية المفردة وقوانينها فيما يقول حاجى خليفة ، وزاد المحدثون الأدوية المركبة فيما يقول الأب قنوائى في تاريخه للصيدلة .

والعرب هم أول من انشا صناعة العقاقير علماً تجريبياً ، وتمكنوا عن طريقه من ابتكار أدوية لم تكن معروفة من قبل ، وركبوها من اصول نباتية وحيوانية ومعدنية ، و اضافوها الى ما عرفوا من صنوفها عن اليونان والهند وغيرهم ، وكانوا بهذا السابقين الى ابتداء الأقرباذين على الصورة التي وصلت الينا .

وكان العرب أول من ابتدع حوائط العقاقير - الصيدليات - على الصورة التي نعرفها اليوم ، وعنهم اخذ الفرنجة ذلك ، ولا يزال هؤلاء يستخدمون الكثير من اسمائها العربية ،

كما كان العرب أول من ابتدع مدرسة للصيدلة ، ووضع المؤلفات القيمة في علم الأقرباذين وغير هذا مما استرعى نظر الغربيين من المؤلفين .

وكان للعرب الفضل في كشف الكثير من الأدوية، في مقدمتها الكافور والصندل والراوند والمسك والمر والتمر هندي والحنظل وجوز الطيب والقرفة وغيرها ، كما ابتدعوا صنوفاً من الشراب والكحول والمستحلب والخلاصة العطرية ونحوها ، وزادوا فاخترعوا آلات لتذويب الأجسام وتدبير العقاقير ، واستخدموا الكاويات في الجراحة وكان مما ساعدهم عليها تقدم الكيمياء التجريبية وعلم النبات المستند الى الملاحظة الحسية .

ولما كان الاشتغال بالصيدلة في ذلك العصر من عمل الاطباء ، كثر تناولها في كتب المؤلفين منهم ، وقد سبق الى ابتداء الأقرباذين « يوحنا بن ماسويه » ، وتابعه « ابن سهل » صاحب الأقرباذين الكبير ، وأمين الدولة « ابن التلميد » (ت . ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) و « حنين بن اسحاق » في العشر مقالات في العين ، و « الرازى » في الحاوى ، و « على بن عباس » ، في الكامل في الصناعة الطبية و « ابن سينا » في القانون . . وغيرهم كثيرون .

وكان « أبو جعفر احمد الفافى » (ت . ٥٥٠هـ / ١١٥٥م) بكتابه في الأدوية المفردة يتميز بالدقة البالغة في وصف النباتات ، ويعده « ماكس مايزهوف » أعظم الصيادلة أصالة وأرفع النباتيين مكانة عند المسلمين طوال العصور الوسطى ، واذا كان كتابه لم يصلنا كاملاً فان المتأخرين - من أمثال « ابن البيطار » - قد حفظوا عنه اجزاء وفيرة .

وقد وضع « ابن البيطار » (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٩م) - رئيس العشابين (أى تقيب الصيدلة) في مصر أكبر موسوعة في هذا المجال ، بكتابه الجامع في الأدوية المفردة ، وقد تضمن أكثر من ألف وأربعمائة صنف من الأدوية المختلفة مرتبة على حروف المعجم ،

المهنة لمن انكر الادوية الوهمية ، ونفى الباقين وكتب الى المعتصم يستأذنه في أن يوفد اليه صيادلة على دين وخلق وعلم ، وأجاب المعتصم طلبه فيما روى « ابن ابي أصيبعة » .

هكذا وجد الطب العربي في النبات والكيمياء والصيدلة غذاء ، زاده حيوية وخصوبة وثرأء، وكان اخصب مجال زاول فيه الاطباء مهنتهم هو مجال المستشفيات ، فلنقف عندها قليلا :

في المستشفيات :

حرص الخلفاء والأمراء وأهل اليسار من المسلمين على اقامة المستشفيات (البيمارستانات) (١٢) دورا لعلاج المرضى ، ومعاهد لتعليم الطب ، وإلى جانب العام منها مستشفيات خاصة ببعض الأمراض ، كالجذام والأمراض العصبية والعقلية وغيرها ، وأقام العرب الى جانب هذا مستشفيات متنقلة Ambulance وفقا لانتشار الأوبئة والأمراض، أو لتصحب الخلفاء والأمراء في تنقلاتهم ، وزودوها بالأدوية وأنواع الطعام والشراب والصيادلة والأطباء .

وأما المستشفيات العامة فكانت بفضل الأوقاف التي تحبس عليها ، والأموال التي ترصد لها وتنفق عليها بسخاء ، في وفرة من الغذاء والكساء والأثاث والأدوية والأطباء والصيادلة والخدم ، وفي كل منها ساعور (مدير) يعاونه رؤساء الأقسام المختلفة والأطباء .

وكان نظام المستشفيات العربية في عصورها الوسطى أشبه ما يكون بنظامها في أيامنا الحاضرة ، من حيث وجود أقسام تختلف باختلاف الذكور والإناث ، وتنوع بتنوع الأمراض ، ومن حيث استقبال المرضى ، والحقاقهم باقسامها أو علاجهم خارجها ،

منها ثلاثمائة لم يعرض لبحثها كتاب في الصيدلة من قبل ، وبرغم اعتماده على أسلافه ، فإنه يسجل - فيما يقول اللوميلي A. Miel - تقدما بعيد المدى، وأن لاحظ «جورج سارتون» G. Sarton أن تأثيره في أوروبا المسيحية لم يكن ملحوظا ، لأن كتبه قد نقلت الى أوروبا بعد أن فقد العلم العربي تأثيره في العالم الغربي ، ولكن تأثيره في العالم الاسلامي كان عظيما حتى أن كثيرين من الصيادلة قد سطوا عليه واستنسحوه .

وتشيا مع تعاليم الدين وتقاليده كان على من يلى أمر المسلمين أن يكفل قيام المصالح العامة ، ولما كان من الصيادلة من يلمس الربح الحرام بفش الادوية ، فقد نشأ نظام الحسبة الذي يفرض الرقابة لمنع الفش ، وتوقيص العقوبة على من يسيء الى مصلحة الجمهور ، ومن هنا افتضت المصلحة فرض امتحان ومنح ترخيص بمزاولة المهنة لكل من يريد الاشتغال بالصيدلة - كما كان الحال مع الأطباء - كما سنعرف عند الحديث على التزامات الطبيب وآدابه .

وخضعت المهنة للرقابة ، وتعرضت حوائيتها للتفتيش ، ذلك أن الافئتين أحد قادة « المعتصم بن الرشيد » (ت ٢٢٩هـ / ٨٤٣م) طلب الى طبيبه « زكريا الطيفوري » أن يعقد للصيادلة امتحانا لمعرفة « الناصح منهم » فقال الطبيب ان كيميائيا قال للعامون يوما ان آفة الكيمياء هي الصيدلة ، فما يطلب أحد الى صيدلي دواء الا قال انه في حاوته ! وطلب الى الامون أن يخترع اسما وهما ويرسل الى الصيادلة في طلبه ، فعاد الرسل ومع كل منهم دواء من بدور أو قطع احجار أو وبر حيوان أو نصوه ، وكرر « الافئتين » التجربة ، ثم استدعى الصيادلة جميعا ، ورخص بمزاولة

(١٢) كلمة فارسية . ييعار = مريض ، ستان = دار ولا افتتعت مواردها الفرت من المرضى الا المصابين بامراض عقلية ، واصبح المارستان مستشفى للمجانين وحدهم .

الناس ، في عصر كانت فيه أوروبا تحتقر الجراحين ، وتدخلهم في زمرة الجزائين والحلاقين (١٤) ويصدر البابوات بين الحين والحين منشورات بمنع مزاولتها ! وكانت مع الطب الباطني بمختلف فروعه تحارب من الكنيسة - ذات الحول والطول - بحجة انها تعاند قضاء الله !

وكان الطبيب عامة يدين بقيم ادبية يحسن بنا ان نقف عندها قليلا :

في التزامات الطبيب وآدابه :

كانت مزاوله الطب الى القرن العاشر لا تقتضى صاحبها اكثر من ان يقرأ الطب على طبيب نابه حتى يطمئن الى قدرته على امتهان الطب ، فيمارسه بغير قيد ولا شرط ، وشجع هذا على ان يباشر الطب من ليسوا من اهله ابتغاء الكسب الحرام ، ثم حدث عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م ان تسمع الخليفة المقتدر بنأ طبيب تسبب بجعله في موت مريض من عامة الناس ، فأمر المحتسب بمنع الأطباء من مزاوله المهنة ما لم يجتازوا امتحانا يعقده لهم « سنان ابن ثابت » (اوائل القرن العاشر الميلادي) وكتب له في ذلك بخطه ، وتقدم للإمتحان في بغداد وحدها ثمانمائة وستون طبيباً - فيما قيل - باستثناء المعروفين من الأطباء ، ومن كان منهم في خدمة السلطان . ومنذ ذلك التاريخ تعين على من يريد ان يمتحن الطب ان يتقدم الى نقيب الاطباء في القطر المصري ، وليتمس اليه ان يجيزه ويمنحه ترخيصا بمباشرة المهنة ، وكان سبيل هذا ان يتقدم برسالة الى الطب يكفل له النجاح فيها الحق في امتهان الطب .

والاشراف على غذائهم وراحتهم ، ونفاهتهم . . فكان المرضى يترددون على العيادة الخارجية ويعالجون بالجان ، يبقى منهم بالمستشفى من يتطلب علاجه البقاء بالقسم الخاص بمرضه ، فاذا اقام المريض بالمستشفى نزعته عنه ثيابه وحفظت عند أمين المستشفى ، ثم البس ثياب المستشفى وقدم له ما يناسبه من غذاء وعلاج ودواء حتى يبرأ من مرضه ، وكل هذا بغير أجر . . . ومن امكن علاجه خارج المستشفى صرف الدواء من صيدليته ، واذا اقتضى المرض استشارة طبيب من غير القسم استدعى الى ذلك ، وكان على الطبيب ان يمر بالقسم الذي ينتهي اليه ويتفقد احوال مرضاه ، ومن ورائه مساعديه من الأطباء والممرضين وغيرهم ، فاذا فرغ من هذا مضى الى مكتبه بالمستشفى متفرغا للقراءة وحده او مع زملائه وتلاميذه ، ويتبادلون النقاش في شتى الموضوعات التي يقرأونها ، وقد اسفرت مجالس الطب عن كتب قيمة يتناولها الأطباء وينتفع بها طلاب الطب . (١٢)

وعن المسلمين في عصورهم الوسطى اخذ الفرييون المحدثون نظام مستشفياتهم ، بل سبق العرب الى اقامة مستشفيات للأمراض العقلية في وقت كان المصابون بها في أوروبا يكبلون بسلاسل من حديد ، ويسامون العذاب الوانا ، واقام العرب أول مستشفى للجذام في مطلع القرن الثامن (٧٠٧ م) مع ان فيليب الجبيل أمر في مطلع القرن الرابع عشر باحراق جميع المجذومين في فرنسا !

وكان أطباء العرب وجراحوهم موضع التقدير البالغ من « الخلفاء » والأمراء وعامة

(١٢) من اراد مزيدا من التفصيلات فليقرأ : د . احمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الاسلام (١٩٢٩) .

(١٤) لا يزال الجراح في إنجلترا يخاطب بلقب : السيد Mr. وليس بالدكتور !

وأمرضها ، ويرعوا في تركيب الأكلان والعقاقير الضرورية لعلاج العيون ، وأن يستكملوا أدوات المهنة وآلاتها ، وأن يرعوا الله والضمير فيما يفعلون .

وهكذا التزم أطباء العرب في عصورهم الوسطى بقانون أخلاقي رفيع ، قوامه قسم « إبقراط » إبي الطب القديم ، وهو يتألف من قواعد صاغها وعاشها أطباء مصر القديمة (١٥) ، وتوارثها خلفاؤهم جيلا بعد جيل (١٦) ، وتبنى العرب عهد « إبقراط » فأوردته مؤلفهم في صيغ تختلف عبارة وتتفق جوهرها ، بعد أن أضافوا إليه عناصر استمدوها من تعاليم دينهم فمن ذلك ما رواه « ابن أبي أصيبعة » عن « علي بن رضوان » (ت ١٠٦١/٤٥٣ م) نقيب أطباء القاهرة من أنه لخص الخصال التي أوجبها « إبقراط » على الطبيب في سبع ، منها كمال الخلق ، وتوافر العقل والقدرة على التذكر ، والحرص على كتمان أسرار مرضاه ، والاعتدال في تقدير أجره ، وخاصة مع الفقراء - وطهارة البدن بحيث لا يطمع في شيء مما يراه في بيوت الأعداء من نساء أو أموال ، بل التعرض إلى شيء منها ، والتعفف عن وصف دواء قتال أو صنعه ، والعزوف عن إسقاط الأجنة ...

وقد تبنت كليات الطب هذا القسم في عصرنا الحاضر ، أوجزت صيغته وبترت منه ما لا يلائم روح العصر الذي نعيش فيه ،

وكان الذي يجيز الرسالة يبدأ بحمد الله وتكره ، ثم يعقب بامتداح الرسالة والثناء على الدراسة التي تضمنتها ، وتحديد فروع الطب التي يباح لصاحبها أن يشتغل بها ، فمن ذلك قول رئيس الجراحين بدار الشفاء المنصوري (قلاوون بالقاهرة) وهو يجيز في عام ١٠١١ هـ/ ١٦٠٢ م رسالة شمس الدين محمد : « فاستخرت الله تعالى وأجرت له أن يتعاطى من صناعة الجراح ما أنقى معرفته ، ليحصل له النجاح والفلاح ، وهو أن يعالج الجراحات التي تبدأ بالبط ، ويقلع من السنان ما ظهر له من غير شرط ، وأن يفصد من الأوردة ويتر الشرايين ، وأن يقلع من الإنسان الفاسدة ... » .

وكان المحتسب يأخذ على الأطباء عهد « إبقراط » ، وسنتحدث عنه عند الكلام على عصر الترجمة - وهو يحرم افشاء الأسرار ، أو تقديم السم لعدو ، أو الارشاد بأجهاض امرأة حامل ، أو إعاقة الرجال عن النسل ، كما يوجب على الطبيب مع مرضاه أن يفض الطرف عن المحارم ، وأن يستكمل آلات الطب التي تتطلبها هذه الصناعة ، وأن يلم بكتب الطب المعروفة ، ويقف على منافع (وظائف) الأعضاء ... ومما نلاحظه في هذا الصدد أن « حنين بن إسحاق » قد أوجب على أطباء العيون أن يجتازوا امتحانا في كتاب « العشر مقالات في العين » وأن يعرفوا تشريح العين

(١٥) يقول جارسون أن قواعد الاخلاق التي التزم بها أطباء مصر القديمة (قبل إبقراط بقرون) تشبه اعظم النشبة قسم إبقراط عاطفة وتعبيرا F. H. Garrison, Introduction to the History of Medicine, 1929, P. 57 وانظر W. Durant, The Story of civilization, Vol. I, p. 182.

وقد قال ما يشبه هذا مؤرخ العلم جورج سارون

(١٦) فمن ذلك أنهم أحسنوا معاملة المرضى بغض النظر عن طبقتهم الاجتماعية ، واخضعوا في العمل مهمة كان الخطر الذي يهدد حياتهم ، فكان من هؤلاء الأطباء المصريين من تطوع لمكافحة الطاعون في الجزائر وبغير أجر ، فإذا استشهد سارع غيره من زملائه المصريين إلى القيام بعمله .

كفرض مسئولية الطبيب المادية والأدبية كاملة
عن أبناء أستاذه ! (١٧)

ووضع العرب في آداب الطبيب مصنفات
مختلفة في مقدمتها : المدخل لابن الحاج
(١٣٣٦ م) ومعالج القريب في أحكام الحسبة
لابن الأخوة (١٣٢٠ م) ... والتزم بهذه
الآداب جمهرة أطباء العرب لأنها تسائر تعاليم
دينهم ولا تتعارض معها ، فمن ذلك أن « حنين
ابن اسحاق » قد رفض أن يصنع السم
استجابة لأمر المتوكل ، ولم ينفع معه ترغيب
ولا تهديد ، وعد ولا وعيد ، وكان هذا - فيما
قال هو نفسه - اذعاناً لما قضت به آداب
مهنته ، وتمسكاً بتعاليم دينه ، وسنرى
القصة كاملة في ترجمة حياته فيما بعد .

ولا يعني هذا أن الاشتغال بالطب قد خلا من
الدجل والاحتيال ، والا لما مست الحاجة الى
عقد امتحان للأطباء ، ومنح ترخيص بمزاولة
المهنة للصالح منهم ، ولا اقتضت الضرورة
فرض نظام الحسبة والرقابة على أعمال الأطباء
والصيدال (١٨) .

هذه لمحة الى آفاق الطب العربي ، في حقله
الوقائي ، وفي مجاله العلاجي ، مع إشارة الى
موقف أهله من بعض ميادينه ، ولا سيما طب

العيون والأمراض المعدية والتشريح والجراحة ،
ولفت النظر الى العلوم التي غذت تطوره ، من
نبات وكيمياء وصيدلة ، وحديث موجز عن
مجال مباشرته في المستشفيات العربية ، وما
التزم به الطبيب العربي من آداب في مزاولته
مهنته ... فلتكن الآن لقطاتنا :

٣ - من تطور الطب العربي عبر التواريخ

في هذا الفصل نتتبع - في لقطات خاطفة -
الطب العربي منذ نبت في عصره الجاهلي ، وهم-
بالنمو في صدر الاسلام ، وازدهر في عصر
الترجمة في مطلع العصر العباسي ، حتى بلغ
ذروة أصالته في المشرق والمغرب العربيين ، ثم
تركه متى اشرف على عصر التدهور
والاضمحلال .

إذا توخينا أن نخير لقطاتنا من ماضي الطب
العربي عبر تاريخه الطويل ، تبين لنا أن له
جذوراً تمتد الى ماضيه السحيق ، وأنه تعرض
خلال نموه للتأثر العميق بالطب الأجنبي
الدخيل ، واستمد منه الكثير من عناصر حيويته
ونضجه وتطوره ، فلتقف لبيان ذلك :

في الجاهلية

عرف العرب في جاهليتهم صنفين من

(١٧) صيغة القسم الذي يقسمه اليوم خريجو كليات الطب في الجامعات المصرية هي : « القسم بالله واشهد أن
أحترم مهنتي ، وأن اعتبر أساندي بمنزلة والدتي ، وأن اتبع في العلاج الطريقة التي أؤمن أنها مجدية ومفيدة ، وأن امتنع
عن كل ما هو ضار أو مؤذي ، ولا أعطي دواء قاتلاً أو أسدي نصيحة ضارة ، وسوف أفضي حياتي في ممارسة فني في ظهر
وقداسة ، وأن أحترم البيت الذي أدخله ، ولا أفشي سراطلعت عليه ، ولا أبوح بشيء يجب عدم الإجابة عليه مما أراه
أو أسمع من مرضى في نطاق عملي ، وأن اعتبر هذه الأشياء من الأسرار المقدسة » .

(١٨) من ذلك ما رواه ابن أبي أصيبعة أن « ابن التلميذ » أمين الدولة (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) - تقيب أطباء
بغداد - قد لاحظ وهو يمتحن الأطباء أن بينهم شيخاً وقوراً كان يلتزم الصمت طوال الجلسة ، فسأله ابن التلميذ عن
السبب في عدم مشاركته في المناقشة ، فادعى الشيخ أنه على علم بكل ما قاله زملاؤه ، فسأله عن قرأ عليه صناعة الطب ،
فقال : أن من بلغ من العمر ما بلغت ، لا يُسأل عن شيوخه الذين ماتوا منذ زمن طويل ، بل الأحرى أن يُسأل عن تلامذته ،
فسأله ابن التلميذ عما قرأ من كتب ، وكان على دراية بالعلاج دون معرفة يكتبه فقال : سبحان الله ، تسألني عما يُسأل عنه
الصبياء والصغار ، ألخير أن تسألني عن مؤلفاتي في هذه الصناعات ، لا بد أن أقدم نفسي اليك ، ثم نهض ودنا من ابن التلميذ
وقال له هاتس : يا سيدي قد كبرت سنني واشتهرت بهذه الصناعات ، وأنا أعول أسرة كبيرة ! فساتك بالله يا سيدي ألا
تفحصني أمام هؤلاء القوم ! فقال له هاتس : بشرط ألا تهجم على مريض بغر ما نعرف ، ثم التفت الى المتقدمين للامتحان
وقال بصوت مسموح : يا شيخ أظننا فما كنا نعرفك ، والآن قد عرفناك ، فامض فيما أنت فيه ، ولا جد عيارضك بعد
اليوم !

والعرفة ، اذ لا كهانة بعد النبوة ، ولم يكل صناعة الطب الى رجال الدين ، فبطل الطب الذي يمارسه الكهان ، وتمهد الطريق الى طب خيرة اكثر وعيا ، وامتدح القرآن الكريم الحكمة ، والطب من ضرورياتها ، وسلم النبي بطب الأبدان وحث على الاستئصال به لمن استطاع اليه سبيلا ، قال يا عباد الله : تداووا فان الله لم يضع داء الا وضع له دواء ، الا واحدا هو الهرم ، وورد في حديث نبوي ان العلم علمان ، علم الأديان ، وعلم الأبدان . فارتفع الطب بهذا الى مرتبة تدنو من مرتبة الدين .

ولكن العرب - فيما يقول « صاعد الاندلسي » (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) في طبقات الأمم : « لم يعنوا في صدر الاسلام بشيء من العلوم الا ما انصل بلفتهم واحكام شريعته مع استثناء علوم الطب ، فانها كانت معروفة لأفراد منهم ، غير منكورة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس اليها في حياتهم » ، فاستمر طب الأبدان قائما في ظل الاسلام وفي رعاية نبيه (ص) بل اثر من الرسول مجموعة من الأحاديث النبوية تبلغ نحو الثلاثمائة حديث ، شكلت ما سمي بالطب النبوي ، وكانت تنضم على قواعد للصحة ، وطرق لمعالجة بعض الأمراض ، واتخذ اكثر هذه الأحاديث صورة جوامع الكلم (٢٠) وقد اوصى النبي بالاعتدال في المأكول والمشرب ، واوجب الاستحمام وحث

الطب : طباً هيأته لهم معتقداتهم الدينية فنهض به الكهان والعرفان ، واستخدموا فيه الرقى والتعاويد وذبح الذبائح حول الكعبة ، والتوجه بالدعاء الى الآلهة التماسا للشفاء ؛ وتوصلوا مع هذا الى طب هدتهم اليه خبرتهم اليومية ، واستعانوا فيه بالعقاقير وكان اكثرها مستمداً من النبات ويؤخذ شرباً ، وكان العسل كثيراً ما يستخدم في علاج الأمراض الباطنة ، وفي الجراحة استخدموا الحجامة والفصد واكثروا من الكي بالنار ، فقامت النار عندهم مقام المطهرات في الطب الحديث ، وقد استعانوا بها في جراحات البتر وغيرها .

وأطلق العرب في جاهليتهم لفظ الحكماء على الاطباء الذين يعالجون ما يعرض للأبدان من امراض ، وعلى القضاة الذين يفصلون فيما ينشعب بين الناس من نزاع ، وكان الحكيم عندهم يجتمع بين العلم والتجربة والنفوذ ، وكان من هؤلاء « الحارث بن كلدة » (١٩) (ت ١٣ هـ / ٦٣٤ م) ومن جراحيهم « ابن ابي ربيعة » ، ومن بيطريهم « العاص بن وائل » .

في صدر الاسلام

وهكذا يبدو ان صناعة الطب لم تكن بمستكررة عند جماهير العرب في الجاهلية ، رعاية للصحة وعلاجاً للأمراض ، فلما اعتنقوا الاسلام لم يجدوا في الاشتغال بالطب خطراً يهدد عقيدتهم ، وأبطل الاسلام الكهانة

(١٩) من حكم الحارث المأثورة : دافع بالدواء ما وجدت مدفعاً ، ولا تشربه الا من ضرورة ، فانه لا يصلح شيئاً الا الفسد مثله ، وقال عند اختفاره : لا تتزوجوا النساء الا من شابة ، ولا تأكلوا الفاكهة الا في اوان نضجها ، ولا يتعاطين احدكم ما احتل بفساد الداء ، وقد نهى عن الاستحمام بعد الطعام ، واوصى بالتخلف من الديون والهجوم ، وسأله معاوية : ما الطب يا حارث ؟ قال الازم (الجوع) يا معاوية ، سأله عن الدواء قال : ما زلتك الصحة فانتبه ، فان حاج داء فاحصمه بما يردمه قبل استحكامه ، فان اليد بمنزلة الأرض اذا اصلحتها عمرت ، واذا تركتها خربت ... ويكفي هذا نموذجاً لطب الخبرة في الجاهلية .

(٢٠) منها : المعدة بيت الداء ، والحمية (الجوع) بيت الدواء ، اصل كل داء بالردة (اي ادخال الطعام في المعدة قبل ان يتم هضم ما فيها) - الافراط يسبب المرض ، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، واذا اكلنا لا نشبع ، اذا سمعتم بالطاعون ياربس فلا تقموا عليه ، واذا وقع ياربس وانتم بهافلا تخرجوا فراها منه ... وقد وضعت كتب في الطب النبوي منها كتاب الحافظ ابن عبد الله الذهبي ، وكتاب ابن قيم الجوزية الخبلى (ت ٧٥١ هـ / ١٢٥٠ م) وكتاب الاحكام النبوية في الصناعة الطبية لابن الحسن الحموي .

قائما طوال صدر الاسلام ، وفي العصر الاموى اتصل العرب بمدرسة الاسكندرية القديمة ، وكانت قد اسهمت في نقل العلوم اليونانية الى العرب ، وكان المؤلفات علمائها تأثيرهم الملحوظ في دراساتهم الاولى ، وفي مقدمتها كتب طبية ترجمت مبكرا الى السريانية والعربية .

لكن اول نقل في الاسلام - فيما يقول ابن النديم - كان في عصر خالد بن يزيد (ت ٨٥ هـ ٧٠٤ م) وقد أسلم الطبيب الاسكندراني « ابن ابر » على يد ائق بني امية « عمر بن عبد العزيز » (ت ١٠١ هـ / ٧٢٠ م) وصحبه واستطبه واعتمد عليه في صناعة الطب ، - فيما يروى ابن ابي اصيبعة - وقيل ان اول من اقام في الاسلام مستشفى هو « الوليد بن عبد الملك » (ت ٨٨ هـ) واشتهر في العصر الاموى اطباء من اشهرهم « زينب » طبيبة بنى واد ، وكانت خبيرة بالعلاج ومدواة امراض العين ، مع براعة في الجراحة .

واقبل عصر بني العباس في منتصف القرن الثامن للميلاد ، فكان فاتحة عهد جديد في اتصال الطب العربي بالطب الاجنبى - ولا سيما اليونانى والهندي ، ومن هنا كان تطوره ونضجه وازدهاره :

في عصر بني العباس :

(١) عصر الترجمة :

بدأ عصر النضج والازدهار في الطب ، وغيره من آفاق المعرفة ، بحركة ترجمة واسعة النطاق ، نقل العرب خلالها ثراث السابقين من الأمم المتحضرة ، من منتصف القرن الثامن حتى أواخر القرن التاسع للميلاد ، حين بدأ الانتاج الاصيل المبتكر على نحو ما سنعرف بعد . وكان « كسرى أنوشروان » بـ ٥٧٨ قد أنشأ في مدينة جند يسابور - بقرب الأهواز في

على النظافة لانها من الايمان ، وواصل ما كان معروفا في الجاهلية من استخدام العقاقير التي تؤخذ في العادة شرابا ، وقوامها المسسل ، وابقى على الكى والفسد والحجامة ...

ولكن الى اى حد يصدق الطب النبوى ؟
لقد كان النبي يصدر عن وحى فيما يتصل بشئون الدين ، وما ينطق عن الهوى ، ولكنه كان يفتى براه في شئون الدنيا ، ففتحتمل فتواه الصواب والخطا ، واذا اثبتت التجربة خطاه قال لحدثه : انتم اعلم بشئون دنياكم .

ويبدو ان الطب النبوى من هذا النوع الذى يحتل الصواب والخطا ، وقد فطن الى ذلك « ابن خلدون » (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) فاشار في مقدمته الى ان الابدابة طبائى بنى في غالب الامر على خبرة بعض الافراد ، ويتوارثه الناس عن مشايخ الحى وعجائزه ، وان هذا النوع من الطب يصدق احيانا ولكنه لا يجرى على قانون طبيعى ، ثم يقول ابن خلدون : « والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل ، وليس من الوحى في شئ ، وانما هو امر كان عاديا للعرب ، ووقع في ذكر احوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع احواله التى هى عادة وجيلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل ، فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث لبعثنا الشرائع ، ولم يبعث للتعريف بالطب ولا غيره من العادات ، وقد وقع له في شأن تلقيع النخل ما وقع ، فقال انتم اعلم بأمر دنياكم ، فلا ينبغي أن يحمل شئ من الطب الذى وقع في الاحاديث المنقولة على انه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه ، اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك ، وصدق العقد الايماني ، فيكون له اثر عظيم في النفع ... » (٢١)

والطب الذى عرف ايام النبي قد استمر

خلالها أطباء البلاط ومعلمى الطب ، وكانت أكبر خدماتهم للطب العربى أنهم نهضوا العرب الى علم لم يكن قد استكمل علميته بعد ، ولم يكونوا هم على دراية كافية به ؛ وأن مدرستهم قد خرجت من اعلام الطب في باكورة حياته عمالقة من امثال « يوحنا بن ماسويه » ، و « حنين بن اسحاق » .

وقد بولغ في شهرة جند يسابور في الطب (٢٣) ولعل مرد هذا الى أنهم اغربا على غير ملة اهل البلاد (٢٤) ، حتى اذا كان عصر الامون اخذت جند يسابور تفقد اهميتها كمدرسة للطب ، واذا كان القرن الثالث (التاسع للميلاد) هو العصر الذهبى للنصارى من المترجمين ، فقد كان القرن الذى تلاه العصر الذهبى لنشاط العرب .

وقد اوفد خلفاء المسلمين وامراؤهم واهل اليسار منهم يعوثا الى موطن الطب العلمى فى اليونان وغيرها لجمع المخطوطات الطبية ، وشجعوا على نقلها الى لغة العرب واجزوا للمترجمين العطاء - على نحو ما سنعرف فى سيرة « حنين بن اسحاق » .

ايران - مدرسة لتعليم الطب ، ومستشفى لعلاج الامراض ، تحت اشراف النساطرة (٢٥) ، واستقدم اليها الاساتذة من اليونان والهند ، واشترط فيمن يتولى التدريس بها ان يجيد اليونانية حتى يتسنى له الاطلاع على كتب اليونان فى صناعة الطب ، وكان الطب يدرس فى هذه المدرسة نظريا وعمليا فى مستشفى كان فيما بعد نموذج الدراسة فى العالم الاسلامى ، وفيها تفاعل علم اليونان والسرمان والفرس والهند ، وكان لهذا كله صدها فى الطب العربى فيما بعد .

واستطارت سمعة جند يسابور ، فلما اصيب المنصور (ت ١٥٩ هـ / ٧٧٥ م) ثانى خلفاء العباسيين بمرض افقده شهيته للطعام ، واخلق فى علاجه اطباء ، استقدم من تلك المدرسة الى بغداد عام ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م جورجيس بن يختيشوع ، ووفق هذا فى علاج المنصور فابقاه فى بلاطه طبيا له ، ومنذ ذلك الحين احتل ستة من اسرة يختيشوع مكانهم عند الخلفاء نحو ثلاثة قرون من الزمان ، كانوا

(٢٢) انشأها ملك الفرس شابور الاول + ٢٧١ م ، ولما اطلق جستنيان مدرسة آيينا عام ٥٢٨ م فر فلاسقتها وعلماؤها الى فارس ، واحسن كسرى استقبالهم وحظهم على التنايل والترجمة فى الطب وغيره ، وفتحا العرب عام ١٧ هـ / ٦٢٨ م . اما النساطرة الذين اشرافوا على هذه المدرسة فقد ترجموا الكثير من كتب اليونان من اليونانية الى السريانية ، وكانوا اكبر من نقلوا تراث اليونان الى فارس ، وحملوه الى دول الاسلام فى اول عهد المسلمين بالمعوم الدخيلة ، بقول القسطنطين فى اخبار الحكما : « ولم يزل امرهم يتقوى فى العلم ويتزايدون فيه ، ويروون قوانين العلاج على متنى امزجة بلدانهم حتى يربوا فى الفضائل ، وجماعة يفسلون علاجهم وطريقتهم على اليونانيين والهند ، لانهم اخذوا فصول كل فرقة ، فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، فرتبوا لهم دساتير وقوانين وكتبه جمعوا فيها كل حسنة » .

(٢٣) لم يستعد المنصور جورجيس الا بعد مشورة من اقباطه الذين قالوا عنه انه اقدر اهل زمانه ، وحينما استدعى الرشيد ابنه يختيشوع لعالمجته ، اوعز الى اقباطه ان يمتحنوه ، فقال له اكبرهم سنا ان احدا منهم لا يستطيع ان يناقشه فى الطب ، لانه سليل اسرة جميع افرادها فلاسله واطباء ، فهدم الخليفة الى امتحانه بنفسه ، وطلب الى احد اتباعه ان يجي ببول حيوان ، وزعم انه لاجد مخطاينه ، ففحصه يختيشوع جيدا ، ثم قال للخليفة : ان هذا ليس بول انسان ، الا اذا كان الانسان قد تحول الى حيوان ! ففحص الخليفة وساله عما ياكل الرضى ، فقال يختيشوع اماما للكتبة : الشجر يا سيدى ! وهكذا بولغ فى براعة هذه الاسرة .

(٢٤) روى الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م) فى كتاب البخله من الطبيب السلم اسد بن جاني انه قال معللا ما اسلمه من كساد ، ان الطبيب لا يكون (فى عصره وبلده) موضع ثقة من الناس ، الا متى كان مسيحيا ، يعامل اسما سريانيا ، ويتحدث بلهجة سريانية ، وليس رداء من الحرير (وهو معرم على المسلم) ويقوم بالتدريس فى المدرسة السريانية الفارسية المشهورة (جند يسابور) .. !

تشارلس سنجر Ch. Singer : « أن مؤلفات أبقراط وجالينوس لم يعد لها مكان في مقررات الطب في معاهد اليوم ، ولكن من يقف عليها يتبين أنها ليست سارية في طب الغربيين فحسب ، بل أنها لا تزال تشكل بطانة الطب في عصرنا الحديث ، ولا يزال المعاصرون من الأطباء الغربيين يستخدمون التعبيرات اليونانية كلما جلسوا على كتب من سرير مريض ، ومن الحق أن يقال إن الطب الحديث في جوهره من خلق اليونانيين (٢٥) وكانت أكبر مميزات الطب اليوناني في عصره الذهبي (ق ه ق . م) أنه رفض رد الأمراض إلى الشياطين، وتوخى البحث عن عللها الطبيعية ، فتأذى به هذا إلى دراسة أعضاء الجسم ووظائفها ، فتقدم بهذا علم الجراحة على يد اليونان فيما يقول العلامة الأثرى « برستيد » وارتفع الطب على يدهم إلى مستوى لم يتجاوزه في أيامنا الحاضرة إلا في الجزئيات والمعلومات الخاصة (٢٦) .

وعلى يد أبقراط - المؤيد بتأييد الهى فيما ظن ابن أبى أصيبعة - انسم الطب بالنزعة العلمية ، لأنه رفض الأوهام وشك في الخوارق ، وأبعد الطب عن الدين والفلسفة ، وتوخى الصبر في ملاحظة الحقائق والدقة في تسجيلها - فيما يقول جورج سارتون - وزاد فارتفع بمهنة الطب حين أكد جانبها الأخلاقي في قسم أشرنا إليه عند الحديث على التزامات الطبيب وآدابه .

وكانت الاسكندرية أعظم مركز للطب في العالم القديم وفي رحابها عاش « جالينوس » الذى سيطر على الطب في مشاسق الارض ومقارها ، حتى عصر النهضة الاوربية ، وكان ترانه دائرة معارف في كل فروع الطب والتشريح والجراحة والصيدلة ... وبسبب عكوفه على تشريح الحيوانات نضجت معرفته

ومنذ القرن الأول من خلافة بنى العباس اتجه المترجمون خاصة الى ترجمة الكتب الطبية (من اليونانية الى السريانية ، ومن السريانية الى العربية) وكان في مقدمة هؤلاء « جورجيس ابن بختيشوع » + ٧٧١ م) وحفيده جبريل + ٨٠٠ م « وتيوفيل بن توما » الرهاوى + ٨٧٥ م « وأبو يحيى البطريق » (ت ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م وبوحنا بن ماسويه + ٨٥٧ م الذى درس في جند يسابور ، وشارك في الترجمة من السريانية ، واسهم في التأليف ، ومارس الطب على طريقة آل بختيشوع .

وظهر شيخ الترجمين « حنين بن اسحاق » + ٨٧٧ م ومدرسته التى كان من اعلامها ابنه اسحاق وابن أخته « حبيش بن الأعمش » ، واصطفان بن بسيل الذى كان أول من ترجم كتب « ديسقوريدس » في الأقرباذين ، ونسبت إليه أول ترجمة لكتب اوريباسيوس (Oribaseus) الذى لع في النصف الثانى من القرن الرابع .

وكان أكبر نبع نهل منه المترجمون الى العربية طب اليونان ، ممثلا في تراث أبى الطب القديم « أبقراط » + ٣٧٧ ق م Hippocrates وإمام الطب في عصر الاسكندرية « جالينوس » + ٢٠١ م Galenus ، ولما كان الطب العربى - فيما يقول بعض المستشرقين - قد نما ونضج وتطور في جو من الإعجاب بأبقراط ، وبألهام مباشر من « جالينوس » ، كان اغفال الحديث عن تراثهما « يفضى الى الجهل بتأريخ الطب عامة ، والعربى منه بوجه خاص ، ولهذا وجب أن نقف عندهما قليلا :

نقل اليونان طب مصر وبابل ، وارتفعوا باضافاتهم له الى ذروة الطب القديم ، يقول

1. The Legacy of Greece, P. 248, Oxford Clarendon Press, 1921.

(٢٥)

(٢٦) الدومينيلى : العلم عند العرب ص ٥١ - ٢ .

عليها ، أكرهتهم على احترامه وتقدير جهوده ، وقد عينه المأمون رئيساً لبيت الحكمة الذي نهض بترجمة التراث الدخيل ، واضطلع حينئذ بترجمة مجموعة ضخمة من مؤلفات « جالينوس » وغيره ، فما كانت سنة ٨٥٦ م حتى كان - فيما يقال - قد ترجم خمسة وتسعين كتاباً إلى السريانية ، وتسعة وثلاثين كتاباً إلى العربية ، إلى جانب ما صححه وراجعته من ترجمات تلامذته ، وهي ست إلى السريانية ، ونحو سبعين إلى العربية ، بل راجع وصحح معظم الخمسين كتاباً مما ترجمه إلى السريانية « سرجيوس الراسعيني » وغيره ، وذلك إلى جانب تأليفه في طب العيون وغيره من فروع الطب ، وكان مثار اهتمام من كبار المستشرقين المحدثين من أمثال برجستراسر Bergstrasser وماكس مايرهوف ولويسيان لوكليير وهيرشبرج وغيرهم .

ولم تكن الترجمة إلى العربية بالأمر الهين اليسور ، إذ ضمت الكتب التي ترجمها مئات المصطلحات التي لم يكن يعرف لها في العربية مقابل ، ولهذا كان كثيراً ما يضع المصطلح بنصه الأصلي في العربية ثم يعقب بشرحه وتفسيره ، وأبدى في هذا تمكناً وقدرة على فهم المصطلحات ومعرفة معانيها ، وإن كان المتأخرون من الناسخين قد حرفوا الكثير منها ، لأن تنقيط الحروف لم يكن مستعملاً على الدوام في عصر « حنين » ، وفي القرون التي أعقبته ، وكان فوق هذا يلزم الدقة ويتوخى الأمانة فيما ينقل ، فكان يجمع كل ما تيسر له من نسخ المخطوط الذي يعتزم ترجمته ، ويصنفها ويقابل بين بعضها والبعض الآخر ، وقد يقارنها بترجمتها في السريانية ، ثم يستخرج مما تحت

بالجسم الإنساني ووظائف أعضائه ، وكان أكبر من أذاوعه علمه الطبيب البيزنطي أوريباسيوس Oribasius الذي لمع في النصف الثاني من القرن الرابع ، كما أشرنا من قبل ، وكان أعظم أطباء عصره ، وقد عاش تراث « جالينوس » في اللاتينية واليونانية والعربية (٢٧) ونقل العرب مؤلفاته فكانت المرجع الرئيسي المعصوم من الخطأ ! وكان بهذا أرسطو الطب في العصور الوسطى .

فلا عجب بعد هذا كله أن كان الطب اليوناني أعظم نبع نهل منه العرب في عصورهم الوسطى ، وكانت العلوم اليونانية قد شاعت قبل الإسلام في المنطقة التي تتكلم السريانية والفارسية الوسطى في مجموعة من المدارس ، منها مدرسة الرها ، ولما أغلقها إمبراطور بيزنطة عام ٤٨٩ م فر علماءها إلى فارس واستقروا في مدرسة جند يسابور (٢٨) التي عرفنا من قبل تأثيرها في الطب العربي .

هذه هي أكبر مصادر الطب العربي التي عكف على نقلها إلى العربية المترجمون منذ مطلع العصر العباسي ، ولزيد من الضوء على عصر الترجمة نفق قليلاً عند :

شيخ المترجمين حنين بن اسحاق : (٢٩)

درس الطب في مدرسة جند يسابور السالفة الذكر ، وتعلم على « يوحنا بن ماسويه » رئيس بيت الحكمة في ذلك الوقت ، وكان أساتذة جند يسابور يكرهون أن يزاول الطب إنشاءً للتجار من أمثال « حنين » ، ولكن مهارته في اللغات الأربع : السريانية والفارسية واليونانية والعربية ، مع حبه للدراسة ودأبه على العمل وقدرته على الترجمة التي مرن

(٢٧) جورج سارتون : العلم القديم والحديثة الحديثة ص ١٧٩ (ترجمة عبد الحميد صبره) .

(٢٨) بحث ماكس مايرهوف في انتقال التراث « من الإسكندرية إلى بغداد » ترجمة د . عبد الرحمن بدوي في كتابه « التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية » - القاهرة ، ١٩٤٠ .

(٢٩) ولد عام ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م ومات عام ٢٦٤/٨٧٧

يده نسخة صحيحة بنقلها الى العربية ، ويقول « وهذه عادت التي اتبعناها في كل ما ترجمته » .

وحين بلغ « حنين » الثلاثين من عمره ، ضاق بكل ما ترجم في صباه ، وعمد الى اصلاحه او اعاده ترجمته ، كما كان يفعل بترجمات بعض اقاربه ممن كانوا يترجمون تحت اشرافه ، وكان الامون قد عينه رئيسا لبيت الحكمة - الذي قيل انه انشئ عام ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م - وكان قد اوفده مع آخرين للبحث عن مخطوطات يونانية ، وكان الخلفاء وكبار رجال البلاط يتحملون في العادة نفقات هذه الرحلات ، ويدفعون في الكتب النادرة أغلى الامان ، وكان في مقدمة من عينهم الامون للترجمة تحت اشراف « حنين » : الحجاج ابن مطر وابن البطريق وغيرهما ، وجرى الحال على هذا بعد الامون ، فعين المتوكل مترجمين يعملون تحت اشرافه منهم اسطفان بن ياسيل وموسى بن خالد الترجماني ويحيى بن هارون ، وكان حنين يقوم بمراجعة ترجماتهم وتصحيح اخطائها .

وبرزت كفاءة حنين حتى اُخسرت حساده ، وردتهم الى الافراط في تقديره ، ونال حظوة عند جبرائيل بن بختيشوع واستأذنه يوحنا بن ماسويه ومنافسه عليا سلمويه بن بيان الذي عين بعد ممات الامون عميدا لأطباء المعتمد .

ومع استثناء محنتين تعرض لهما أيام المتوكل (٢٠) ، أصاب حنين حظوة عند الخلفاء

قبلهما وبعدهما بعشرين عاما (٢١) . وقد رله ان ينقل خلال هذا الزمن الطويل الحافل بالنشاط والعمل ، فيضامن الكتب التي ضمت تراث الطب القديم بوجه خاص ، وبمثل هذه الدقة والأمانة انتقل تراث اليونان الى العربية ، وما عرف في العربية من اخطاء في الترجمة مرده الى اخطاء وقع فيها المترجمون الى السريانية من غير العرب ، ولم يكن هذا حال الترجمة من العربية الى اللاتينية حين انتقل الى اوروبا تراث العرب ، تشهد بهذا الموازنة بين ترجمات حنين ومدرسته ، وترجمات « قسطنطين الافريقى » + ١٠٨٧ م اول رائد لحركة الترجمة من العربية الى اللاتينية في صقلية ، او « جيرارد الكريموني » + ١١٧٨ م أكبر وأشهر المترجمين في حركة الترجمة في بلاد الاندلس .

وقيل ان جالينوس كان يستهدف تحويل الطب الى علم دقيق (exact Science) شبيه بعلم الفلك والعلوم الرياضية ، وان « حنيناً » هو الذى طبع اللغة العربية ، الى حد ما ، بطابع الاسلوب العلمى على عهد العباسيين . وكان كتابه العشر مقالات في العين اقدم مؤلف اصطنع المنهج العلمى في طب العيون ، وقد زوده بأول رسوم شائعة عرفت في تشريح العين ، وكانت ادق من مثيلاتها في الكتب الاوربية في القرون الوسطى - فيما يقبول

(٢٠) اكتشفت غمته التى سنشئ اليها في الهامش التالى عام ٢٤٤ هـ ويضى بعدها موضع تقدير من الخلفاء : المتعمر بالله (٢٤٨ هـ) والستين بالله (٢٥١ هـ) والمعتز بالله (٢٥٥ هـ) والهندى بالله (٢٥٦ هـ) والمعتمد على الله (٢٦٩ هـ) وفى عهد مات حنين ٢٦٤ هـ على أرجح الأقوال .

(٢١) أراد المتوكل ان يعتبر امانته خشية ان يفدر به ، فخلع عليه ووعده باطعام ما يعادل خمسين ألف درهم ، ثم طلب اليه ان يُعِدَّ سماً يئلت به عدوا ، فأبى حنين ، ولم يردده عن امتناعه وعد ولا وعيد ، فحسبه الخليفة عاما قساة في البرس غير مكترث ، فاستنداه الخليفة وأوهمه انه مقبل على قتله ، فقال : لى رب يأخذ بعتى في اليوم الاظم ... فابتسم الخليفة وسأله عن سبب امتناعه ، فقال : الدين ، وقسم الأطباء - وبعد بضع سنوات ووشى به حساده فعذب الخليفة وصادر أملاكه واضلعه ستة شهور عذب خلالها بالسياط ، ومرض الخليفة فلم يطلع في علاجه سواه ، فضا عنه وعاقب حساده ، وود اليه املاكه وكافاه من أموالهم وأمواله بما يعادل أكثر من ربع مليون درهم ، ومنحه اطعاما وروايا شهريا بلغ خمسة عشر ألف درهم ، ورغم هذا كان حنين في مجده رحيما بخصوصه وحساده .

مجموعة أخرى من المؤلفات الطبية تتناول غذا المرضى الناقهين ، وأعراض الأمراض ، والنفس والبول والحمى وعلم الصحة وغير ذلك .

ولكن من هذا التراث الضخم كتب كثيرة نحتت عليه خطأ ، وكان كثير من مؤلفي الرسائل الطبية يعمدون إلى وضع اسم « حنين » عليها ترويحاً لها بين القراء .

وكان حنين مع هذا الفيض من مترجمات ومؤلفاته طبيباً ممتازاً وكحالا - طبيب عيون - لا نظير له ، وكان كتابه « العشر مقالات في العين » ، مرجعاً يمتحن فيه الطالب الذي يتقدم لاحتراز اجازة ، والحصول على ترخيص بمزاولة المهنة .

كان حنين حركة دائبة اتصلت بعد وفاته على يد تلامذته ممن غلوا النهضة العلمية وبعثوا فيها الحياة، وصديق المستشرق الفرنسي « لوسيان لوكليز » حين قال انه ربما كان أعظم شخصية أنجبها القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وأنه كان من أساطين الفكر الذين يتميزون بحدة الذكاء وسمو الخلق ، وإذا قيل ان النهضة العلمية في المشرق لا تدين بوجودها له ، لا كان أحد سواه أوفر منه عملاً على إيجادها .

وبانتهاء مدرسة حنين في الترجمة ، بدأ عصر الإنتاج الخصب في المشرق العربي منذ أواخر القرن التاسع حتى بلغ عصره الذهبي في القرن الحادي عشر ، ثم أخذ في التناقص من بدء القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر ، حين بدأت مرحلة تدهور واضمحلال افتقد فيه الإنتاج الأصالة والإبتكار، أما في المغرب العربي (بلاد الأندلس) فقد ازدهر الإنتاج في ميادين الطب وغيره إبان القرنين العاشر والحادي عشر ، وبلغ عصره الذهبي في القرن الثاني عشر للميلاد ، ثم أخذ في التناقص إبان القرن الثالث عشر ، وبدأت بعده مرحلة تدهور واضمحلال .

ناشره ومترجمه طبيب العيون « ماركس مايرهوف » .

وإذا كان من القناد - من أمثال سيمون - من زعم ان ترجمات حنين وحبش بن الأعمش مليئة بفقرات منتحلة غريبة عن الأصل ، وأن طريقتهما تفتقر إلى الأناقة أحياناً ، فإن برجستراسر Bergstrasser أستاذ اللغات السامية في جامعة ميونيخ ، وأعظم حجة في تراجم حنين العربية ، يصرح بأن حنيناً وحبشاً - وهو أحسن تلامذته - قد احتملا عناء كبيراً في التعبير عن المعاني اليونانية ، وحرصاً على أن يكون تعبيرهما واضحاً ، وتوخياً الترجمة الحرفية ولو جاء هذا على حساب الأسلوب الجميل ، حرصاً منهما على الدقة في نقل المعاني اليونانية ، وترجمتهما تشهد بسطرة كاملة على اللغة ، تعرب عنها القدرة على التوفيق بين العربية واليونانية ، والدقة في التعبير الموجز ، وهذا هو المشاهد على فصاحة حنين ، وقد اشرنا إلى صعوبة الترجمة في عصره .

وبرغم ما عرف عنه من أمانة وتعفف ، استغل سخاء المأمون مع المترجمين ، إذ كان المأمون يمنحه وزن ترجمته ذهباً ! فعمد حنين إلى كتابة ترجمته على ورق سميك ثقیل الوزن ، وتوخى أن يكتب الحروف ويوسع ما بين الأسطر حتى تعظم مكافاته من الذهب !

وكان حنين إلى جانب ترجمته مؤلفاً ممتازاً ، كتب كثيراً بالسرانية حيناً وبالعربية حيناً ، وذكر ابن أبي أصيبعة أن له في العربية أكثر من مائة كتاب في شتى فروع الطب ، ورد ذلك الفرجة من أمثال لوسيان لوكليز Leclere ، وفي مقدمة كتبه كتابان كانا أساس ما وضع في الطب العام من مؤلفات ، هما كتابا المسائل في الطب ، وطب العيون ، وكان أولهما مدخلا للطب العام في صورة أسئلة وأجوبة ، كما وضع

(ب) عصر الإنتاج الاصيل :

بحركة الترجمة السالفة الذكر ، تهاى للعرب تراث الطب القديم ، فمكفوا على دراسته حتى استوعبوه، ثم أخذوا في تنسيقه ابوابا وفصولا ، وزادوا فعرضوا للكتب التي ترجموها بالتفسير والتحليل ، وتولوها بالنقد والتمحيص ، فكشفوا عن الكثير من اخطائها ومواضع الضعف فيها ، وجاء هذا في ضوء فيض من الخبرات والتجارب التي عاشوها ، ولم تسلم من هذا التمهيص الواعي مؤلفات أئمة الطب القديم من أمثال إبقراط وجالينوس ، وخلال تفسير هذا التراث وتمحيصه والكشف عن مواطن القوة ومواضع الضعف فيه ، أضافوا اليه ثروة من الحقائق التي تكشف عنها دراساتهم التجريبية الواعية ، وكان في مقدمة هؤلاء الاعلام : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي - جالينوس العرب فيما كان يسمى - وقد كان من عادته ان يدون في أوراق كل ما يقتبسه من الكتب الطبية التي يقرأها ، ثم يدمجها - متى سلّم به - في فيض من خبراته الشخصية في مؤلفاته ، وفي مقدمتها «الحاوي» ، بل كان لا يفرق بين اقتباساته من الآخرين ، وملاحظاته السريرية التي استقاها من مرضاه وهم على أسرة المرض ، فكان معجزة الطب من أمهات مصادر الطب حتى العصر الحديث - وسنعود الى الحديث عن الرازي بعد قليل .

وكان من اعلام مؤلفي الطب الرئيسى « أبو على عبد الله بن سينا » (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) إبقراط العرب فيما كان يسمى - وقد استوعب تراث الاقدمين ونهض بتنسيقه وتبويبه ، وزاده خصوبة وفراء ، وخاصة في كتاب « القانون » الذي يعد معجما في مختلف فروع الطب ، ويتميز بالوضوح والدقة والخصوبة ، فكان أكبر مصادر الطب حتى

مطلع العصر الحديث في اوربا ، وقد سيطر « ابن سينا » على الطب في الشرق والغرب قرونا ، وجهد الطب بعده ولم يجازف أحد في اوربا بمناقشته زمنا طويلا ، وأن وجد بين اطباء العرب من أمثال البغدادي وابن النفيس (في القرنين الثاني عشر والثالث عشر) من ناقشه الحساب . وازدهر الطب العربى وتطور في المشرق على يد الرازى وتلميذه علي بن عباس المجوسى (٣٥٤ هـ / ٩٦٤ م) وابن سينا وفى المغرب على يد ابى القاسم خلف الزهراوى (ت ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م) أمير الجراحة في العصور الوسطى ، وأسرة ابن زهر التى مارست الطب نحو قرن ونصف قرن من الزمان ، وكان أكبر افرادها أبو مروان عبدالمك ابن زهر (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) وهو يعد اعظم طبيب سريرى - بعد الرازى - بياض علاج المرضى في المستشفيات .

وقد اعتمد هذا الطب العربى على تراث يونانى وهندى وإيرانى ، ولكنه كشف عن مصدره العربى الاصلى ، وواصل السير في آثاره الهامة في اتجاهه نفسه « وكان في كثير من الاحيان يوفق في تنمية النظريات والأفكار المستمدة من الآثار القديمة وشروحها ، وكان في الأغلب ينشئ صنوفا من الشروح ، ويوسع المبادئ والنظريات القديمة ويبسطها ، مع عرضها في أكثر الاحيان في صورة أكثر وضوحا وحذقا ، واعظم دقة وعمقا ... ومن الخطأ - فيما يقول الدوميلي - ان « نظن ان العرب لم يضيفوا شيئا جديدا الى العلم الذى كانوا اوصياء عليه ، بل على النقيض من ذلك ، واذا كانت خطوات التنمية والانضاج التى خطوها في هذا السبيل كثيرا ما ضاعت وتفرقت في الحشد الكبير من الكتب التى تركوها ، فليست تلك الخطوات اقل اصاله ولا أبعد عن الواقع

ضمنه فيضا من ملاحظاته السريرية (الايكلينيكية) جميعها بطريقته في مزاولة صناعة الطب ، وممارسته لعلاج مرضاه ، وهم على أسرة المرض - كما أشرنا من قبل - فكان إذا فحص مريضا شخص مرضه ، وحده علاجه ، وأخذ يلاحظ في دقة سير المرض وتأثير العلاج ، ويسجل ملاحظاته أولا بأول ، ومن أجل هذا قبل أن التعمق في دراسة الحاوي تقف الباحث على تاريخ العلاج العلمي في المستشفيات العربية ، ويؤيد هذا أن « الرازي » كان برغم تقديره للحكمة التي وعها بطون الكتب التي خلفها القدماء يؤثر عليها الخبرة الحسية ، ويرفعها فوق نتائج الاستدلالات المنطقية التي لم تمحصها التجربة (٣٧) .

وكانت طريقته تقتضيه أن يستقصى أعراض المرض في دقة وصبر ، ويحصر الاحتمالات التي تشير إلى حقيقته ، ثم يستبعد منها ما توحى خبرته وملاحظاته بضرورة استبعاده ، فإذا رجح عنده أن يكون مرضا بعينه ، وصف له العلاج ، وتبع سير المرض تحت تأثيره ، وكان التوفيق يحالفه في أكثر الحالات التي رويت عنه .

وتكفى دراسة الحاوي وحده للكشف عن مميزات صاحبه ، في مهارته الفنية ودقة ذكائه .

من أجل ذلك ... » (٣٨) وفي حديثنا عن
الكثوف الطبية العربية ما يشهد بأصالة الطب العربي ويؤكد وجه الجدة والابتكار فيه .

وقد يقتضينا سياق البحث أن نقف قليلا عند أكبر أئمتة :

امام الطب العربي : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٣٩) :

هو أكبر أطباء العصور الوسطى ، وامام الطب العربي غير منازع ، فيما قرر جمهوره المستشرقين (٣٩) وهو جالينوس العرب وطبيب المسلمين غير مدافع - فيما يقول مؤرخ الطب العربي « ابن أبي أصيبعة » ، وقد ظل في أوروبا الحجة الذي لا ينزع في الطب حتى القرن السابع عشر ، وذلك فوق أنه كان من أعظم الكيميائيين في العصور الوسطى ، أن لم يكن منشيء الكيمياء علما تجريبيا (٤٠) وقد تولى رئاسة بیمارستان الخليفة المقتدر بالله الذي أنشئ عام ٩١٨ م .

وكانت أهم مؤلفاته في الطب : الحاوي : الجامع الحاصر لمصنعة الطب ، وهو دائرة معارف ضخمة تختلف موضوعاتها وتصنيفها باختلاف مخطوطاتها ، لأنه توفي قبل أن يكملها ، فنهض باكملها تلامذته بعده (٤١) . وكان أكبر مميزات هذا السفر الضخم أن صاحبه قد

(٣٢) الأديميلي : العلم عند العرب ص ١٤٣ - ٤٤ .

(٣٣) ولد ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م ومات ٣١٤ هـ / ٩٢٦ (على غير اتفاق بين مؤرخيه) .

(٣٤) من ادورد براون ، وجورج سارتون ، والأديميلي، وجاريسون ، وأوسلر ، وأولري ... وغيرهم .

(٣٥) هذا رأى الأديميلي بعد أن سلم برأى جمهوره المحدثين من المستشرقين (من أمثال مارسيلان بيرتلو مؤرخ الكيمياء القديمة) في رفض القول بأن منشيء علم الكيمياء هوجابر بن حيان ، لأن جابرا في رأيه شخصية خرافية لا وجود لها في التاريخ . انظر ص ٩٩ وما بعدها في « العلم عند العرب » .

(٣٦) قيل أن ابن العميد طلب إلى أخت الرازي بدفواته أن تسلمه مخطوطة الحاوي ، وأغراها بالمال حتى استجابت له ، ثم اجتمع تلامذة الرازي وأكملوا الكتاب على النحو الذي ظهر فيه .

(٣٧) باستثناء قطع نشرها « ماكس مايرهوف » ، « أوترجمها » ادورد براون « أو غيره » يمكن القول بأن الحاوي لم يفسد له أن ينشر أو يترجم حديثا ، أما في العصور الوسطى فقد ترجم إلى اللاتينية ونشر عام ١٤٨٦ وأعيد طبعه أكثر من مرة في القرن السادس عشر ، وكان قد ترجمه فرج بن سالم .

ومعالجة الأمراض ، وتوابع ذلك ولواحقه مما لا يزال يحدث وتمس الحاجة إلى معرفته ، ويتسنى لأهل العقل والرأى أن يشاركوا فيه الأطباء ، وقد مهد له بمدخل في الطب ، وعقب بالحديث عن موضوعات أهمها حفظ الصحة وتدبير المسافرين ، وصناعة الجبر والجراحات والقروح ، والسوم ، والحميات ونحوها (٢٩) .

وكانت كتب الرازى مع كتب ابن سينا مراجع للتدريس في جامعة لوفان حتى القرن السابع عشر ، تشهد بهذا برامجها عام ١٦١٧ ، ومنها نرى أن حظ المؤلفات اليونانية حتى ذلك العصر كان ضئيلاً .

وفي الرازى أصالة لا تخفى ، وفي تراثه كشوف علمية كان السباق إليها ، وفي حديثنا عن « كشوف طبية عربية » نجد الكثير منها يشهد بوجوه الابتكار والأصالة في إنتاجه ، فليرجع إليه القارئ ليعرف مكانة الرازى طبيباً أصيلاً .

هذه لمحة خاطفة عن امام الطب العربى ، وأعظم اعلامه وأخصبهم إنتاجاً مبتكراً أصيلاً .

عصر التدهور :

أخذت الحركة العلمية تتدهور في المشرق العربى منذ مطلع القرن الثانى عشر - أى بعد نصف قرن من غزوات السلاجقة الأتراك للدولة

ومن أشهر رسائله التى أبدى فيها أصالة وابتكاراً ، رسائلته في الجدرى والحصبة ، وقد فطن الرازى نفسه إلى ذلك ، فأشار في مقدمتها إلى أن أحداً من القدماء ولا المحدثين - أى المعاصرين له - قد قال في هذا الموضوع قولاً مستقصى ولا كافياً ، فإن « جالينوس » وإن كان قد عرف الجدرى إلا أنه لم يذكر له علاجاً كافياً ، ولا سبباً مقنعاً ، ويقول نوبرجر M. Neuberger أن هذه الرسالة تعد من خير المؤلفات العربية ، وأنها احتلت برغم صغرها مكاناً ملحوظاً في تاريخ الأوبئة ، فوق أنها أول رسالة وضعت عن مرض الجدرى ، وهى تكشف عن الرازى طبيباً علمياً ذا ضمير حى متحرراً من المعتقدات القديمة ، وقد وفق في هذه الرسالة إلى التفرقة بين الجدرى والحصبة ، ووصف تشخيصهما وأبان عن أعراضهما ، وأوصى بفحص القلب والبيض والتنفس والبراز في دقة ، ولاحظ أن ارتفاع الحرارة من عوامل انتشار الطمع ... الخ وليس أدل على قيمة هذه الرسالة من مظاهر الاهتمام الذى صادفته في الأوساط الطبية في أوروبا حتى مطلع القرن العشرين (٢٨) .

ووضع الرازى كتاب المنصورى الذى أهداه إلى « المنصور بن إسحاق » أمير خراسان ، وهو يصغر الحاروى وإن فاقه شهرة ؛ وقد ضمنه فيما يقول في مقدمته حفظ الصحة

(٢٨) وقد نقل هذه الرسالة إلى الإنجليزية W. A. Greenhill ونشرها بلندن عام ١٨٤٨ تحت عنوان A. Treatise on the small-pox & Measles وكان قد ترجمها إلى اللاتينية في عصر النهضة E. Vallia ونشرها في الهندية عام ١٩١٨ ، كما نقلها إلى اليونانية Jacque Gompyl ونشرها في باريس ١٥٤٨ ، ثم نشرها مع ترجمتها اللاتينية عام ١٧٦٦ J. Channing وكذلك نقلها إلى الفرنسية في باريس عام ١٧٦٦ Jacques Paulet وأخرى في باريس عام ١٨٦٦ للمستشرق لوسيان لوكليز Leclerc و Lenoir وترجمها إلى الألمانية في ليبزيغ عام ١٩١١ Karl Opitz .. الخ . ويقول ول ديورنت مؤرخ الحضارات إن في وسعنا أن نتبين أهمية هذه الرسالة إذا عرفنا أنها طبعت بالإنجليزية وحدها أربعين مرة بين سنتي ١٩٩٨ و ١٨٦٦ .. !!

(٢٩) ترجم المنصورى إلى اللاتينية ونشر في العصور الوسطى وفي عصر النهضة الأوروبية عدة مرات ، وظل متداولاً في أيدي طلاب الطب في أوروبا حتى القرن السادس عشر ، ونشر الجزء الأول منه - وهو خاص بالتشريح - مع ترجمته فرنسية كوننج تحت عنوان P. da Koning., Trois Trantes d'Anatomie Arabe, Leiden, 1903 وترجم Brunner W. القسم الخاص بالرمد ، ونال بعد الدكتوراه من برلين عام ١٩٠٠ .

وأما « ابن النفيس » رئيس أطباء المارستان الناصري بمصر فقد تحرر من سيطرة جالينوس وابن سينا مع فرط إعجابه بأولهما ، وخطاه في زعمه أن بين البطين الأيمن في القلب والبطين الأيسر فتحة صغيرة أو فتحات ، وانتهى من نقده إلى وصف للدورة الدموية الصغرى على نحو لم يقل به أحد سابقه ، وسنرى بشيء من التفصيل معالم هذا الكشف العلمي الخطير في حديثنا عن « كشوف طبية عربية » .

والذي يلفت النظر في هذه الظاهرة أن يحيىء الاعتراض على جالينوس في عصر التدهور والاضمحلال من ناحية ، ثم في وصفه لحقائق التشريح - الذي كان يعد أمامه الأوحاد - من ناحية أخرى .

وبعد ، فهذه لقطات خاطفة من ماضي الطب العربي ، تتبعنا فيها بعض معالم تطوره منذ نبت طباً تجريبياً ، حتى اكتمل وازدهر على أسس علمية ، ثم أشرنا إلى تدهوره حين أدركه الهرم ، مشيرين خلال ذلك إلى العناصر التي تلقاها عن الطب الأجنبي الدخيل الذي اقتحم داره وعاش في كنفه ، دون أن نفعل العناصر التي استقفاها من بيئته ، واستمدتها من عبقرية أهله ، ولتقف الآن عند :

٣ - مظاهر التنجس في الطب العربي

شارك العرب في تطور الطب العالمي ، وأسهموا في العمل على انتشاجه ، وتركوا بصماتهم على طريق تقدمه وازدهاره ، ومن دلالات هذه المشاركة الإيجابية ما وفقوا إليه من كشوف علمية طبية ، وما حققوه له من شرائط « العلمية » بدراساتهم التجريبية، وما افاده الأوربيون الذين نهلوا من ثمراته ... فلتنقف قليلاً لبيان ذلك على قدر ما يسمح المقام :

الإسلامية ، ومكن لهذا التدهور نشوب الحرب الصليبية التي اندلعت نيرانها أواخر القرن الحادى عشر ، وحملات القبول المخربة الهدامة التي استولت على عاصمة الدولة الإسلامية عام ١٢٥٨ م فالقوا بالآلاف المخطوطات في نهر دجلة حتى اسودت مياهه من مدادها ، وشكلت جسراً يعبر عليه الناس ! وانهار العلم العربي بانهار السلطان السياسى للدولة .

وإذا كانت نهضة العلم في المغرب العربي قد تأخرت قرناً ، فإن تدهوره جاء بدوره متأخراً عنه في المشرق العربي قرناً من الزمان ، ومنذ منتصف القرن الثالث عشر توقفت أوروبا عن ترجمة التراث العربي ، إلا ما جاء منها على أيدي أفراد ، وسنعرض إلى هذا عند الحديث على « انتقال الطب العربي إلى أوروبا » .

ومع هذا فقد ظهرت في عصر التدهور ، على يد قلة من أفراده ، بوادر ثورة على تراث الفكر القديم ، نذكر في مجال الطب منها نموذجين كانا في مقدمة الثائرين ، هما « عبد اللطيف البغدادي » (ت ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) و « ابن النفيس » القسرى المصرى (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) .

فأما أولهما فقد استند إلى ملاحظاته الحسية في تكذيب سابقه من علماء التشريح ، وفي مقدمتهم شيخهم « جالينوس » الذي استبد بإعجاب أطباء العرب وإجلالهم ، ومنهم البغدادي نفسه ، ومن ذلك أنه رفض زعم « جالينوس » بأن الفك الأسفل عظمان بمفصل وثيق عند الحنك ، بينما دلت مشاهدانه على أنه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلاً ! وقد تحدثنا عن هذا بشيء من التفصيل في مقال سابق (٤) .

(٤) انظر مقالنا : خصائص التفكير العلمى بين تراث العرب وتراث الغربيين - في مجلة عالم الفكر (عدد يناير - مارس ١٩٧٢) .

(١) كشوف طبية عربية

العلاقة الذي يفر وجه العلم ويترك بصماته على تقدمه ، فإن تاريخه لا يعدم من الأسماء الالامعة من يرتفع بأصحابها الى مرتبة الأئمة الذين كشفوا عن صفحات مشرقة وضوء ، سبقوا بها زمانهم في الدنيا كلها بمئات السنين ، وكانت فاتحة عصر جديد في طريق التقدم والرقى .

وفي تاريخ الطب العربى فتوحات لا تخفى على مؤرخ ، الا اذا اضلته العصبية او اصماه الهوى ، فقد سبق العرب شعوب الأرض الى تأميم الطب بعلاج المرضى في المستشفيات بالمجان ، ومنحهم من المال والنياب بعد الشفاء ما يعينهم على دور النقاهة ، وكانوا اول رواد الحجر الصحى ، حين سبقوا الى الكشف عن الأمراض المعدية (وسموها بالسارية) والعمل على تفادى انتشارها ، ومعرفة الوباء والتوصية بحصار البلد الذى يظهر فيه ، فلا يخرج منه ولا يدخل اليه احد معافى غير مصاب .

وكان العرب اول من انشأ الصيدلة علما تجريبيا ، واستعانوا بالكيمياء والنبات اللذين تطوروا على ايديهم وتوافرت لها خصائص العلم ، في ابتكار ادوية لم تكن معروفة من قبل ، وتركيبها من اصول نباتية وحيوانية ومعدينة ،

في تاريخ العلم وثبات بدت في كشوف علمية اصيلة ، وكان كل منها حدا فاصلا بين عهدين ، وبداية لتطور ناصح ينبض حياة ، (٤١) وفي الطب العلمى الحديث عند الغربيين ، وهو وليد القرن الاخير بوجه اخص ، وثبات تحققت بفضل ما اسفر عنه من كشوف ، واختراع فيه من آلات واجهزة فتحت آفاق الطب ، ومكنت اهله من ارتياد مجاهله (٤٢) ولكن المصور الوسطى لم تكن لتتهىء لأهلها ، الا نادرا ، سبل الوثب السريع واسباب التطور المفاجيء ، واختراع الآلات والاجهزة التى تدفع عجلة التقدم في قوة وعنف ، بل ان الامة حتى في عصرنا الحاضر كثيرا ما تفتقد العمالة الذين يغرون وجه العلم باحداث انقلاب في تاريخه ، ولا يعوقها ذلك عن أن تكون في بقعة حية وازدهار علمى يشيع في الكثير من مرافق حياتها ، لأن الزمان لا يجود بالأئمة العمالة الا نادرا .

ومع ان العلم العربى عامة ، والطبى منه خاصة ، كان في عصره الوسيط ، الذى يعيننا في هذا البحث ، في ظروف لا تهى لظهور

(٤١) كقول جاليليو بدوران الأرض ، واسحاق نيوتن الجاذبية ، وتشارلس داروين بالتطور ، وكارل ماركس بالصراع الطبى ، واينشتاين بالنسبية الخ .

(٤٢) منها اختراع هنرى لينك السماعة الطبية عام ١٨٦١ وتوماس كليفورد اليات ميزان الحرارة الصغرى ، وهرمان فون هلمهولتز مرآة تثبت على راس الطبيب لفحص فاع العين عام ١٨٥١ فبدأ طب العين الحديث ، ومانويل جارسيا منظار الحجر عام ١٨٥٢ ووليم اينتهوفن جهاز رسم القلب وتخطيطه عام ١٩٠٤ ، وشيغالير جاكسون منظار الشعب الهوائية عام ١٩٥٨ وفرديريك باتينج كشف الانسولين لمرضى السكر عام ١٩٢١ وفيليب دينكر اول دلة صناعية عام ١٩٢٨ وفون لوفنهولم اختراع الميكروسكوب لرؤية الجراثيم عام ١٨٦٢ ولوى باستير نظرية الجراثيم عام ١٨٦٤ وويلهلم رونتجن اشعة x لرؤية العظام ومواقع الاجسام الغريبة والجسم عام ١٨٩٥ وفرديريك ويلهيلم شتورن لتسكين الآلام بالورلين مع ضبط جرعته عام ١٨٠٤ ووليم مورتن التخدير الذى يعطل الاحساس بالآلام عام ١٨٢٦ وتشارلس برافار ابرة الحقن لادخال الدواء الى تيار الدم عام ١٨٥٣ وجوزيفليستر التعقيم لقتل الجراثيم عام ١٨٦٥ ووليم هانتز الكعامة المعقمة عام ١٨١١ ، الى دى فورست السكين الكهربائى لاستئصال الرلة واودام الخ وتوقيع قرنية العين وغيرها . ودوبرت كوخ في كشفه لجرثومة الكوليرا في مصر في مطلع القرن العشرين ... وبمثل هذه الكشوف والمخترعات كان الطب العلمى الحديث عند الغربيين خلال مائة السنة الأخيرة بوجه اخص ، انظر في تفصيل ذلك :

Elizabeth Rider Montgomery, The Story behind Great Medical Discoveries, 1945.

ووصف جراحة استئخراج الماء الأبيض (الكتاركتا) واستخدام المحاجم في علاج داء السكتة ، ووصف الطاعون وما نسميه اليوم بحمى الدريس Hay Fever ، وأول من ميز في دقة بالغة بين الجدرى والحصبة ، وكانت رسالته في ذلك أول دراسة علمية في الأمراض المعدية ، وكان أول من أدخل في الصيدلية المليّنات ، وطبق في الطب المركبات الكيماوية ، واستخدم الزئبق في علاج الأمراض الجلدية ، وسبق إلى الاهتمام بالأحوال النفسية في تشخيص الأمراض الباطنية وعلاجها ، وكان مسن رواد الكتابة في أمراض الأطفال ، وكان أول من فطن إلى الإصابة بدودة Guinea Worm واستخدم الحزام ، وعده الحصى عرضاً لا مرضاً ، وأدخل في المداواة أساليب جديدة - كاستخدام الماء البارد في الحيميات ، وكان أول من كشف « البول السكري » إذ كان يطلب إلى المريض الذي يشتبه فيه أن يبول على رمل ، وينتظر قليلاً ، فإذا اجتمع النمل فوق الرمل دل هذا على أن البول سكري !

وقد أعاد الحياة إلى شخص فقد حسه في شارع في قرطبة ، وذلك بأن جلد جسمه ، ولا سيما قدميه ، ومع ذلك قال في رده على الخليفة الذي امتدح براعته انه تعلم هذه الطريقة من أمراء البادية ، وإن فضله لا يعدو تشخيص المرض ، الذي يرجح أنه كان ضربة شمس !

وكان فيما سجله في مشاهداته السريرية (الأكلينيكية) والطرق التي واجه بها صعوبات عمله ، أعظم - عند بعض مؤرخيه - من جميع سابقيه ، لا يستثنون من ذلك إبقراط وجالينوس !

وبرغم انه كان أعظم اطباء العصور الوسطى غير منازع ، برع في الكيمياء العلمية حتى عده بعض مؤرخيه منشئها علماً تجريبياً ، وفيها استحضرت حوامض لا تزال مستعملة حتى يومنا الحاضر (كحامض الكبريتيك) كما

وأضافوها إلى ما عرفوا من صنوفها عند اليونان والهنود ، فكانوا بهذا السباقين إلى ابتداء الأقرباذين Pharmacology الذي نعرفه اليوم ، كما سبقوا إلى انشاء الصيدليات ومدارسها .

وسبقوا الغرب في عصوره القديمة والوسطى في توفير الأطباء والجراحين ، وكفالة الحياة الكريمة السخية لهم ، بعد أن امتنهم اليونان قديماً وحديثهم الكنيسة في العصور الوسطى أطباء وجراحين حتى كانت تصدر بين الحين والحين منشورات تحقر من صناعتهم ، بحجة أنها تعاند قضاء الله ! وبصيانة المهنة وإبعادها عن الدجل والاحتيال سبق العرب شمعوب الأرض منذ النصف الأول من القرن العاشر إلى فرض امتحان يجتازه من يصلح طبيباً أو جراحاً ، ومنحه ترخيصاً بمزاولة المهنة ، وأنشأوا نظام الحسبة الذي يفرض الرقابة على الأطباء والصيدالة منعا للفسح ، وفاديا للكسب الحرام ، وصيانة لكرامة المهنة ، وقرروا توقيع العقوبة على من يسئ إلى مصالح الجمهور .

وكان لهم الفضل في تحسين المستشفيات ، ورفع مستوى خدماتها ، وفرض نظام دقيق حازم تجرى عليه ، حتى أضحت شبيهة في عصورها الوسطى بمشيلانها في أرفى دول الغرب في عصورها الحديثة ، وكانت لهم بها فتوحات في مجال الطب السريري (الأكلينيكي) الذي أنبنى على الملاحظة الدقيقة، وتنبع سير المرض، ورصد نتائج العلاج لمعرفة مدى نجاحه أو مبلغ إخفاقه .

فلتقف قليلاً عند نماذج من الفتوحات الطبية التي تحققت على أيدي اعلام الطب العربي :

فاما الرازي - جالينوس العرب وإمام الطب العربي - فمن كسوفاته العلمية أنه كان السباق إلى استخدام أمعاء الحيوان في التقطيب ، والاكتثار من استعمال الفتائل وخيوط الجراحة ،

جراحات ناجحة في شق القصبه الهوائية وفتحت الحصة في الثامنة بالثق والتفتيت ، واستئصال اللوز بسنارة ، ووصف استعمال الجفت لاستخراج المولودين ...

والى **ابن زهر** يرجع الفضل في جراحات فتح القصبه والكسر والانخلاع ... وقد كان بعد الراى اعظم اطباء العصور الوسطى اهتماما بالملاحظات السريرية (الاكلينيكية) وقد قيل انه احتل في الطب مكان الزهراوى في الجراحة .

ولنقف الآن قليلا عند اعظم كشاف علمى قدر له ان يكون على يد عالين عرييين :

كشف الدورة الدموية :

يقوم الطب الحديث على معرفة الدورة الدموية والوقوف على حركتها ، وقد وفق عالمان عرييان الى هذا الكشف الخطير قبل ان يعرفه الاوربيون ببضعة قرون من الزمان ، وهذان العالمان هما الطبيبان : على بن عباس المجوسى (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) وابن نفيس القرطى المصرى (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) .

تحدث « **علي بن عباس** » في الجزء الأول من « **كامل الصناعة الطبية** » عن الانقباض والانبساط في وظائف الجسم الحيوية ، فكشف الدورة الدموية في الاوعية الشعرية حين قال :

« وينبى ان نعلم العروق الضوارب في وقت الانبساط ، ما كان منها قريبا من القلب اجتذب الهواء والدم اللطيف من القلب باضطراب الخلاء ، لانها في وقت الانقباض تخلو من الدم والهواء ، فاذا انبسطت عاد اليها الدم وملأها ، وما كان منها قريبا من الجلد ، اجتذب الهواء من خارج ، وما كان منها متوسطا فيما بين القلب والجلد ، فمن شأنه ان يجتذب من العروق غير الضوارب الظم ما فيها من الدم ، وذلك ان العروق غير الضوارب فيها منافذ الى العروق الضوارب ، والدليل على ذلك ان

استخرج الكحول باستقطار مواد نسوية وسكرية مخمرة ، واستخدمه في تحضير الادوية ... ويطول بنا الشرح اذا توخينا ان نستقصى فتوحاته العلمية .

واما « **ابن سينا** » - ابقراط العرب في الطب ، وامامهم في الفلسفة - فقد تمكن بملاحظاته السريرية من ان يصف في دقة نفيح التنجيف البلورى ، وأن يميز بين الالتهاب الرئوى والالتهاب السحائى الحاد ، ويفرق بين الفص المعوى والفص الكلوى ، وبين تسلل الوجه الناشئ عن سبب مركزى في الدماغ ، وما ينشأ منه عن سبب محلى ، وحدد مختلف انواع اليرقان واسبابها ، وكان صاحب الفضل في علاج الفناء الدمعية باذخال مسبار معقم فيها ، وكان اول من شخص داء الانكستوما ، اذ يقول الأستاذ الدكتور « محمد خليل عبد الخالق » « استاذ الطفليات بطب القاهرة » ان ابن سينا هو اول من كشف الطفيلية الموجودة في الانسان المسماة بالانكستوما وكذلك المرض الناشئ منها المسمى بالرهقان (او الانكستوما) « كشف ذلك في الفصل الذى افرده للديدان المعوية في كتاب القانون ، ويقول الدكتور ان ما يقرب من نصف سكان المعمورة الآن مصاب بها ، وان مؤسسة روكفلر بالولايات المتحدة قد جمعت ما كتب عن هذا المرض حتى عام ١٩٢٢ فكان خمسين الف مرجع !

واوصى « ابن سينا » بتغليف الجيوب التى يعاطاها المريض ، وكشف في دقة بالغة عن اعراض حصة الثامنة السريرية بعد ان اشار الى اختلافها عن اعراض الحصة الكلوية .

وقد سبق **ابو القاسم الزهراوى** - اكبر جراحى العصور الوسطى - الى ربط الشرايين في الجراحات ، وفتتيت راس الجنين متى كان ضخما ، واخترع منظار المهبل ، وإبان عن طريقة استئصال الحصى المثانية في النساء عن طريق المهبل ، ووصف استعداد بعض الاجسام للزيف وعالجه بالكى ، واجرى

وتتبت كتاباته أنه مارس التشريح بالفعل ، واعتمد على خبرته في تخطيطه سابقه ، وفي مقدمتهم جالينوس وابن سينا ، وحديثه عن تشريح العظام والأربطة والقلب والرئة والعروق وغيرها من مكونات الجسم لا يكون بغير مباشرة للتشريح ، وبه كاد ان يتوصل الى علم لم يكن قد عرف بعد ، هو علم التشريح المرضي (الباثولوجيا) وذلك عندما لاحظ ان « تشريح العروق الصغرى في الجلد يعسر في الاحياء لتألمهم ، وفي الموتى الذين ماتوا من امراض تفتل الدم كالاسهال والدق والتزف ، وانه يسهل فيمن مات بالخنق ، لان الخنق يحرك الروح والدم الى الخارج فتفتح العروق ، على أن هذا التشريح ينبغي أن يعقب الموت مباشرة لتجنب تجعد الدم » .

وفي غمرة تفنيده لأقوال القدماء كشف الدورة الدموية ، ونفى نظرية جالينوس في حركة الدم ، وليس في دورته ، وهي النظرية التي اكملها ابن سينا وعاشت بعده حتى القرن السابع عشر ، وسجلها ليوناردو دافنشي + ١٥١٩ في لوحاته التشريحية ، أكد بطلان هذه النظرية لان « اتجاه الدم عنده ثابت يمر من التجويف الايمن الى الرئة حيث يخالط الهواء ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدي (الوريد الشرياني) الى التجويف الايسر » ، وبست الشرايين عنده منفصلة تماما ، لان العدسة المكبرة لم تكن قد اخترعت بعد ، ولم تكن الاوعية الدموية قد كشفت ، ولكن ابن النفيس قد مهد لكشفها الذي تحقق بعده بعدة قرون .

ومؤدى نظرية ابن النفيس انه « كان يرى ان الدم يأتي غليظا من الكبد الى التجويف الايمن حيث يلف ، ثم يمر في الوريد الشرياني (الشريان الوريدي) وهو وعاء غير نابض يتحرك بحركة الرئة حركة معتدلة ، هي سبب غلظ جداره ، ثم يصل الى الرئة حيث ينقسم

العرق الضارب اذا قطع ، استفرغ منه جميع الدم الذي في العروق غير الضواري » وهذا اقرب وصف الى الحقيقة فيما يقول الدكتور خير الله .

اما ابن نفيس فقد كان رئيسا لأطباء البيمارستان الناصري بمصر ، وقد استوعب قانون ابن سينا ومؤلفات جالينوس ، فمثل بهذا روح عصره ، ولكنه مع ذلك كان من الاعتزاز بالنفس واستقلال الفكر بحيث حرر نفسه من تفاليد عصره ، وجاهر بانكار كل مالم تدركه حواسه ، أو بقبله عقله ، ووضح هذا في كتاب له كان مفخرة العرب ، وان قبح منسيا في بطون الكتب ثلاثة قرون من الزمان حتى كشفه في مكتبة برلين شهاب مصرى كان يعد دراسة عنه للدكتوراة في جامعة فريبورخ الألمانية ، هو الدكتور محيي الدين التطاوى ، أما الكتاب فهو « شرح تشريح القانون » الذي نوصل فيه ، في أول ثورة حقيقية على تشريح جالينوس ، الى كشف الدورة الدموية .

ويزعم « ابن النفيس » انه لم يمارس التشريح اذ يقول « وقد حدثنا - منعنا - عن مباشرة التشريح وازع الشريعة ، ومافى اخلاقنا من الرحمة ، فلذلك رأينا ان نعتمد في تعریف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الامر ، خاصة الفاضل جالينوس ، اذ كانت كتبه أجود الكتب ... » وهو يقول هذا خشية أن يتعرض لسوء ، لأن التشريح في عصره كان يعد عند المتزمطين من رجال الدين انتهاكا لحرمة الجسم البشرى ، فهو يجاهر بأنه لم يعتمد على أقوال أسلافه ، وفي مقدمتهم جالينوس « الا في أمور ظننا انها من اغاليط النساخ ، أو ان اخباره عنها لم يكن بعد تحقق المشاهدة فيها ، وأما منافع (وظائف) كل واحد من الأعضاء فانها نعتمد في تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ، ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه !

لأول مرة في البندقية عام ١٥٤٧ وقد كان هذا على التحقيق مرجع هارفى الذى تعزى اليه اليوم هذه النظرية (٤٢) .

هذه نماذج من كشوف علمية سبق بها أطباء العرب زمانها بمئات السنين ، وبها تركوا بصماتهم على تقدم الطب وتطور الحياة العلمية فى تاريخ البشرية .

(ب) علمية الطب العربى متى وكيف نشأت ؟

استكمل الطب العلمى الحديث مقوماته حين أصبح فرعاً من العلم الطبيعى في مفهومه عند المحدثين ، وبهذا المفهوم لا تكون الدراسة علماً طبيعياً ما لم تتوافر لها هذه الأركان : أن تتخذ الظواهر الجزيئية المحسوسة موضوعاً لا تتجاوزها إلى ما وراءها ، وأن يصطنع فيها منهج تجريبي يستند إلى الملاحظة الحسية ، والتجربة العلمية أن كانت ممكنة ، وأن تستهدف هذه الدراسة التجريبية للظواهر الطبيعية وضع قانون عام يفسرها ، وقد اشتهر اهتمام المحدثين في الفترة الأخيرة من عصرنا الحاضر بصياغة القانون العلمى في صورة رياضية تتحول فيها الكيفيات إلى كميات عددية ، تحقيقاً للدقة والضبط - وذلك أمر كثيراً ما يشق على أهله في العلوم الإنسانية - وهذا إلى جانب خصائص أساسية يقتضيها هذا المنهج العلمى ، منها موضوعية البحث ونزاهة الباحث ونحو ذلك .

فهل توافرت هذه الخصائص في دراسات الطب العربى ؟ ومتى وكيف كان ذلك ؟

لقد ظل الطب العربى حتى أواخر العصر الأموى وليد خبرة عملية يزاوئها بعض الأفراد ويتوارثها بعدهم جيل بعد جيل ، كان مجرد

إلى قسمين : قسم رقيق يصفى من مسام الشريان الرئوى ، وقسم غليظ يتبقى في الرئة لتفقيتها ، أما القسم الرقيق فإنه يختلط بالهواء القادم إلى الرئة عن طريق القصبة الهوائية ويدخل الشريان الوريدي (الوريدي الرئوى) عبر جداره النحيف وعله هذه النحافة أولاً ضرورتها لتسمح بمرور الدم الرقيق تم كثرة حركتها ، إذ أنها كانت - في زعمه - نابضة تلقائياً ، بالإضافة إلى أنها متحركة تبعاً لحركة الرئة ، ثم يصل الدم الرقيق المخلوط بالهواء إلى التجويف الأيسر حيث تكون الروح التي تخرج منه إلى الأورطة فالشرابين فالانسجة ، أما غذاء القلب فيكون عن طريق أوعيه خاصة تمر في صميم عضلة القلب .

هكذا كشف ابن النفيس الدورة الدموية ، ولكن تعاليمه قد أهملت بعده ثلاثة قرون من الزمان ، ثم ظهر خلال واحد وستين عاماً من ترجمة كتابه (إلى اللاتينية (عام ١٥٤٧ م) ثلاثة من علماء أوروبا يصفون دورة الدم في الرئة بنفس الألفاظ التي استخدمها ابن نفيس ، هم : ميشيل سرفيتوس Servetus الأسباني الذي نشر عام ١٥٥٣ كتابه : Christianismi restitutio وقد أعلم بسببه حرقاً ! وريالدر كولومبو أستاذ التشريح في جامعة بادوا الذي نشر عام ١٥٥٩ م رأيه في كتابه De re Anatomica تم وليم هارفى Harvey (١٦٥٨) - والذي نشر عام ١٦٢٢ كتابه De Motu Cardis ونسبت إليه نظرية الدورة الدموية !

وقد أثبت البحث العلمى أن هؤلاء الرواد من الغربيين لم يهتدوا إلى النظرية مستقلين عن ابن النفيس ، ولا مستقلاً أحدهم عن الآخر ، فإن كتاب ابن النفيس قد ترجمه إلى اللاتينية طبيب إيطالى هو « الباجو » ونشرت الترجمة

(٤٢) عولنا فيما كتبناه عن ابن نفيس بوجه خاص على د. بول غليونجى في كتابه ، ابن النفيس ، وبحثه المنشور في المجلد الأول من التراث الإنسانية - القاهرة يناير ١٩٦٣ .

العباسيين ، قد اتجهوا الى ترجمة الكتب الطبية من اليونانية الى السريانية ، ومن السريانية الى العربية ، فكان طب اليونان وخاصة طب « ابقراط » و « جالينوس » أعظم نبع نهل منه أطباء العرب . وإذا كانت جند يسابور قد بدأت تفقد أهميتها كمدرسة للطب في عصر المأمون فقد كان خلفاء المسلمين وأمراؤهم وأهل اليسار منهم يوفدون بعونا الى مواطن الطب العلمي في اليونان خاصة لجمع المخطوطات الطبية وترجمتها الى العربية .

فماذا لاحظ قدماء مؤرخي العرب في ذلك ؟ وما الذي استرعى نظرهم مما كان غريبا على التراث العربي ؟ لاحظوا ما اشرنا اليه من قبل ، من أن هؤلاء كانوا يستخدمون المنهج العلمي الذي يمكن الباحث من أن يعلو فوق الوقائع الجزئية الى القانون العام . كانوا يتخطون الملاحظات التجريبية التي تؤدي اليها الحاجات العملية ، ويستهدفون المبادئ ويستندون الى البرهان .

يقول « حاجي خليفة » (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٨ م) في « كشف الظنون » أثناء حديثه عن النسابة الذين اشرافوا على مدرسة جند يسابور : « ولم يزل أمرهم يقوى في العلم ويتزايدون فيه ويربون « قوائين » العلاج على مقتضى امزجة بلدانهم ، حتى برزوا في الفضائل وجماعة يفضلون علاجهم وطريقتهم على اليونانيين والهنود لانهم اخذوا فضائل كل فرقة ، فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، فرتبوا لهم « دساتير وفوائين » وكتبوا جمعوا فيها كل حسنة » ولا نضيف الى هذا ما قاله الغربيون في نشأة « العلم » عامة عند اليونان (٤) وربما أمكن الاستشهاد على صحة هذا بما لاحظته بعض المستشرقين عما يميز التأليف في العصر العباسي ، فمن ذلك أن

ملاحظات ومعلومات متفرقة حول امثلة فردية معينة ، لا ترقى الى وضع قواعد عامة تندرج تحتها هذه الظواهر الفردية ، ولا يصطنع في دراستها منهج علمي تجريبي يمنع البحت فيما وراء الظواهر المحسوسة مما لا يدخل في نطاق العلم ، فلما انصل العرب بالطب الأجنبي الدخيل - ولا سيما ما كان منه عند اليونان في عصر بني العباس ، كان منهج الدراسة استقرائيا علميا ، وتحولت المعلومات الطبية - وكثير غيرها من المعارف - الى علوم لها مقوماتها وشرائطها ، وكثرت المؤلفات التي اصطنع فيها دارسوها المناهج العلمية ، فتجاوزوا عن طريقها الوقائع الجزئية الى وضع قواعد لتفسيرها ، وقد لفتت هذه الظاهرة انظار بعض القدماء من مؤرخي العرب ، ولو كان تقتين المعلومات المفرقة أو تعيدها مما عرفه العرب ما استرعت هذه الظاهرة انظار هؤلاء المؤرخين القدماء ، ذلك أن اتصال العرب بالطب الأجنبي الدخيل قد بدأ بأطباء منهم درسوا في مدرسة جند يسابور في فارس - منهم « يوحنا بن ماسويه » الذي كان أول من شرع جثث القردة في الاسلام ، و « حنين بن اسحاق » شيخ المترجمين ، كما بدأ هذا الاتصال باستقدام أساتذة من هذه المدرسة الى بلاط الخلفاء ، منذ أيام المنصور ثاني خلفاء بني العباس - كاسرة بختيشوع التي استمرت نحو ثلاثة قرون - وقد اشرنا الى أن أساتذة هذه المدرسة كانوا من اليونان والهنود ، وأنهم جميعا كانوا يجيدون اليونانية حتى يتسنى لهم الاطلاع على كتب اليونان في صناعة الطب ، وأن مستشفاهما بما كان يمارس فيه من علاج ودراسة وتدريب للأطباء كان المثل الأعلى لأطباء العرب منذ مطلع العصر العباسي ، وفي هذه المدرسة تفاعل علم اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأن هذا كله كان له صدها في الطب العربي فيما بعد ، كما اشرنا الى أن المترجمين منذ القرن الأول من خلافة

المرض كظاهرة طبيعية تنشأ عن علل طبيعية ولا ترد الى الشياطين أو الأرواح الخبيثة، كما يتوهم عامة الناس في الشعوب المختلفة بوجه أخص ، ولا ترجع ظاهرة المرض الى عقاب من الآلهة فيستحيل علاجها الا بارضائها ، أو يحرم علاجها لأن علاجها مقاومة لإرادة الله ، كما ظنت الكنيسة في أوروبا في عصورها الوسطى ، وقد تادى المنهج العلمي بالعرب الى استبعاد الخوارق والغيبيات في تفسير الأمراض والكشف عن أسبابها ، ووضعت الدولة نظام الحسبة لمحاربة الدجالين والمشعوذين الذين يعتمدون على الأوهام ويستقلون سسذاجة الدهماء ، وفرضت امتحانا يجتازه الطبيب ومنحت لمرألة الهيئة ترخيصا .

وفي هذا الطب العربي تميزت الصلات التي كانت تربطه بالفلسفة من ناحية وبالدين من ناحية أخرى ، وذلك من حيث انه اعتمد على الملاحظة الحسية وليس على مجرد التأملات العقلية والاستدلالات المنطقية ، وكان الاسلام منذ البداية قد حارب طب الكهانة ولم يجعل الطب من عمل رجال الدين ، وجاهر المستنبرون من المسلمين - من أمثال ابن خلدون - بأن الطب النبوي نفسه ، لم يصدر عن وحي الهى ، وإنما هو من رأى النبي (ص) فى تسان من شئون الدنيا ، ومن ثم تعرض للصواب والخطأ ، ولا يمنع هذا - عند ابن خلدون - من أن يستعمل « على جهة التبرك وصدق العقد الايماني ، فيكون له اثر عظيم النفع » وهذه ملاحظة طبية ، إذ أن المريض المؤمن الذى يستجيب لوصايا الطب النبوى ، يستعين على الشفاء بآيمانه ، والملاحظ أن الطب الحديث فى أيامنا الحاضرة يستعين فى علاج المرض بطرق سيكولوجية تستند الى الايحاء .

« ماكس مايرهوف » يقول عن كتاب « دغل العين » الذى صنفه « يوحنا بن ماسويه » انه أول كتاب عربي منظم فى علم الرمد ، مع أن العرب والسريران وغيرهم قد كتبوا الكثير من الكتب فى هذا المجال . وأوضح من هذا قوله عن كتاب « حنين بن اسحاق » « العشر مقالات فى العين » : انه أقدم مؤلف اصطنع المنهج العلمي فى طب العيون » .

وإذا كان جالينوس قد استهدف تحويل الطب الى علم دقيق ، شبيه بعلم الفلك والعلوم الرياضية ، فإن « حنين بن اسحاق » هو الذى طبع اللغة العربية بطابع الاسلوب العلمي على عهد العباسيين ... فيما يقول هذا المستشرق (٤٥) ، ويزيد « الدومبيلي » فيقول عن الكتاب السالف الذكر ان أهميته مردها الى أنه أول كتاب وصل الينا فى الرمد ، لا من الحضارة الاسلامية فحسب بل من العصر اليوناني القديم كذلك ، وليس أيضا لأنه يوضح لنا نظريات القدماء ، بل لأنه يردنا بجميع الموضوعات المتصلة بالعين وأمراضها على وجه التقريب (٤٦) .

والناظر فى المؤلفات الطبية فى ذلك العصر ، وخاصة فى مرحلة الانتاج الاصيل ، يجد فيها قيضا من الشواهد التي تشهد بصدق ما نقول ، وسنعرض بعض نماذج لهذه الظاهرة .

من هذا المنطلق بدأت دراسات العرب فى الطب وغيره من مجالات المرفه تتسم بطابع علمي ، باصطناعها منهجا تجريبيا يفرض قصر الدراسة على الوقائع الجزئية عن طريق الملاحظة الحسية ، ويستهدف وضع قاعدة عامة لتفسيرها ، وقد اقتضاهم هذا أن ينظروا الى

(٤٥) مقدمة ماكس مايرهوف لكتاب العشر مقالاتالعين وخاصة ص ٥٧ و ٦٢ و ٦٦ .

(٤٦) الدومبيلي : العلم عند العرب ص ١٤١ .

ومن شواهد الكتابات العلمية التي تعالت على الحالات الجزئية العينية ، واستهدفت تقعيد المعلومات المفرقة تقبّيس هذين النموذجين اللذين احتفظا بصواب حقائقهما حتى اليوم :

يقول « الرازي » في احتباس البول : « البول يحتبس إما لأن الكلى لا تجذبه ، وعلامته أن يكون البول محتبسا وليس في الظهر وجع ثقيل ولا في الخصرة والحالب ، ولا المثانة متكورة ، ولا في عنق المثانة ضرب من ضروب السدة على ما نستبين ، وأن يكون مع ذلك البطن ليئا ، وقد حدث في البدن ترهل واستسقاء وكثرة عرق » .

« وأما الذي يكون من الكلى فيكون محتبسا وفيها المرض ، وذلك إما لورم أو حجر أو علق دم أو مبدّة ، ويعتبه كله أن يكون الوجع في البطن مع فراغ المثانة ، إلا أنه إن كان حصاة ظهرت دلائل الحصاة قبل ذلك ، وإن كان ورما حارا كان مع الوجع شيء من ضربات » .

« وإن كانت أوجاع الكلى فانما هي بغل فقط ، وإن كان ورما صلبا لم يحتبس البول ضربة ، لكن قليلا قليلا وكان ثقل فقط ، وإن كان علق دم ومبدّة فيتقدمه قرحة ، وإن كان احتباسه من أجل مجارى البول من الكلى فتكون المثانة فارغة ، والوجع في الحالب ، حيث هذا المجرى ، مع نخس ووخز ، فإن وجع المجرى ناخس لا ثقيل ، وعند ذلك استعمل سائر الدلائل في الكلى » .

« وإن كان من قبل المثانة فاما أن يكون لضعفها عند دفع البول ، فعند ذلك فاعمر عليه والمثانة متكورة ، فإن لم يدرك فالآفة في رقة المثانة ، وحينئذ استعمل الدلائل المذكورة » .

« وإن كان الورم حادا في هذه المواضع بيع ورم المثانة حمى موصوفة ، وورم الكلى حمى

ولم يقتنع أطباء العرب باصطناع الملاحظة الحسية في دراساتهم الطبية ، وإنما زادوا فأجروا التجارب العلمية فيما تيسر فيه أجرأها ، ومن أمثلة ذلك : أن « ابن سينا » قد فطن إلى ما نسميه اليوم بكيس الثلج ، إذ أصابه ذات يوم ألم في رأسه تصور معه أن مادة توشك أن تهبط إلى حجاب رأسه ، وأنه لا مأمّن من ورم يدركه ، فطلب كمية كبيرة من الثلج ، وقام بدقه ثم لفه في خرقة وغطى بها رأسه فامتنع الألم وعوفي مما أصابه .

وتوصل « ابن زهر » إلى تجريبه يسر تعاطي المسهلات ، وذلك أن الخليفة عبد المؤمن كان في حاجة إلى مسهل ، ولكنه كان يضيق بشرب الادوية المسهلة ، فمضى « ابن زهر » إلى كرمة في بستان ، واكسب الماء الذي يستقيها قوة الدواء المسهل الذي وصفه له ، فلما انمرت عنبا كانت له قوة ذلك الدواء ، فأثاء بمنقود منها وطلب إليه أن يأكله ، فلما فعل قال له « ابن زهر » : حسيك هذا يا أمير المؤمنين ، فقد أكلت عشر حبات من العنب وهي تخدمك عشرة مجالس ... وكان أن استراح الخليفة مما به .

وكان أطباء العرب فوق هذا كله يتوخون الصبر في ملاحظة الحالات التي درسوها ، ويحرصون على الدقة في تسجيلها ورصد نتائجها ، ويلتزمون موضوعية البحث وتمسكون بنزاهة الباحث ، وفي ضوء هذا المنهج العلمي خلّفوا لنا وثائق سريرية اكلينيكية مستمدة من ملاحظاتهم لمرضاهم وهم على أسرة المريض ، وذلك كله بالرغم من جهلهم بنوعية الآلات والأجهزة التي اخترعت بعدهم ، وفتزت بالطب العلمي الحديث في أيامنا الحاضرة قفزات واسعة (٤٧) .

(٤٧) انظر نماذج منها في الهامش الذي كتبناه في مطلع حديثنا عن « كشوف طبية عربية » .

» ونقول ها هنا أيضا أن البول في حصاة المثانة إلى بياض ورسوب ليس بأحمر ، بل إلى بياض أو رمادية ، وربما كان بولا غليظا زيتي الثقل وأكثره يكون رقيقا وخصوصا في ابتداء ، ولا يكون إجماع حصاة المثانة كإجماع حصاة الكلية ، لأن المثانة مخلاة في فضاء الإند حبس الحصاة للبول ، فان وجعه يشتد عند وقوعها في المجرى ، والخشونة في حصاة المثانة أكثر لأنها في فضاء يمكن أن يتركب عليها ما يخشنها ، ولذلك هي أعظم لأن مكانها أوسع ، وقد يتفق أن يكون في مثانة واحدة حصيتان أو أكثر من ذلك ، فيتساجح ويكثر تفتيت الرمية ، وقد يكون مع الرمية تخالي لانجراد سطوحها عن الحصاة الخشنة ، ويدوم في حصاة المثانة الحكمة والوجع في الذكر ، وفي أصله وفي العانة مشاركة من القضيبي للمثانة ، ويكثر صاحبه العث بقضيبيه خصوصا إذا كان صبيا ، ويدوم منه الانتشار ، وربما تأدى ذلك إلى خروج المقعدة وإلى الحبس والعسر ، مع أن ما يخرج بقوة لانحفازه عن ضيق وعن حافز ثقيل وراءه . وربما بال في آخره بلا إرادة ، وكلما فرغ من بول يبوله ، انتهى أن يبول في الحال . والمتقاضى لذلك هو الحصاة المسندفة استدفاع البول المجتمع ، وكثيرا ما يبول الدم لخدش الحصاة خصوصا إذا كانت خشنة كبيرة ، وكثيرا ما تحبس ، فإذا استلقى المحصو وأشيل وركاه وهز ، زالت الحصاة عن المجرى ، وإذا غمز حينئذ في العانة انزرى البول ، وهذا دليل قوي على الحصاة . . . والحصاة الصغيرة أحبس للبول من الكبيرة لأنها تنشب في المجرى ، وأما الكبيرة فقد تروى عن المجرى بسرعة ، وأعلم أن حصاة المثانة تكثر في البلاد الشمالية وخصوصا في الصبيان .

موصوفة ، وقد ينضم مجرى رقبة المثانة من انضمام يقع له ، ويكون للبرد واليبس ، ومن تلول يخرج فيه ، ويكون قليلا قليلا ، وقد تفسد هذه المجارى بخلط غليظ ، وعلاج ذلك التدبير الغليظ .

هذه كلها قواعد عامة توصل إليها الرازي من غير شك بمشاهدات وتجارب استغرقت جهدا بالغا ، أما عن مدى صحتها من الناحية الطبية فنحسبنا أن نشر إلى أن الدكتور محمد كامل حسين الأستاذ بطب القاهرة قد نقل هذا النص وهو في معرض القول بأن العرب قد ابتدعوا في الطب علم التشخيص القانن الذي كان « الرازي » السباق إليه ، وعقب الدكتور على النص بقوله « وأكثر هذه الفقرة يفيد منه كل طبيب حتى الأطباء المعاصرون » (٤٨) .

ونسوق شاهدا آخر على « علمية » الدراسات الطبية العربية من « ابن سينا » ، إذ وصف في الجزء الثاني من قانونه حصى المثانة السريرية بعد أن أشار إلى اختلاف الأعراض في الحصى الكلوية عنها في الحصى المثانية ، فقال :

« يجب أن نتأمل ما قلناه في حصاة الكلية ، ثم ننقل إلى تأمل هذا الباب ، وقد علمت الفرق بين حصاة المثانة وحصاة الكلية في الكيفية والقدار ، وبالفرق بين الحصاتين كانت الكلوية ألين يسيرا ، وأصفر وأقرب إلى الحمرة ، والمثانية أصلب وأكبر جدا وأقرب إلى الدكنة والرمادية والبياض ، وإن كان قد يتولد فيها حصاة متفتنة ، والمثانية تتميز في الأكثر بعد انفصال . وأكثر من تصببه حصاة المثانة نحيف ، وفي الكلية بالعكس ، والصبيان ومن يليهم تصبيهم حصاة المثانة » .

في كنفها، إلا أن اتصاله بالطب الدخيل اليوناني والهندي والفارسي - في حركة الترجمة التي بدأت مع مطلع العصر العباسي - هو الذي أفاد أطباء العرب في اصطناع المنهج العلمي في دراساتهم، ورفع معلوماتهم الطبية إلى مرتبة العلم الدقيق، ومكنهم من أن يتجاوزوا في دراساتهم الحالات الجزئية المفردة إلى وضع قواعد عامة تندرج تحت كل منها مجموعة من الحالات المشابهة.

ولكن بين المعاصرين من مؤلفينا من يظن أن هذا التحول في الطب العربي شأنه فيها شأنه في العلوم الدينية واللغوية، كان وليد تطور طبيعي للفكر العربي دون تأثر بالثقافات الأجنبية الدخيلة (٥٠)، ونبادر فنقول أنه لا خلاف بيننا وبين أصحاب تلك الدعوة في أن العلوم العربية - الدينية واللغوية - بوجه أخص - قد نشأت ونمت في بيئتها قبل أن تؤثر الثقافات الأجنبية فيها - كما قلنا من قبل - ولكن الخلاف هو في «علمية» هذه العلوم، بالفهم الذي شرحناه فيما سلف.

هذا الفيض من الحقائق العامة تتجاوز فيه «أين سينا» الأمثلة الفردية إلى قواعد عامة، استغرق التوصل إليها سبيلًا من المشاهدات التجريبية، ويكفي في التدليل على دقتها الطبية البالغة أن يقول طبيب محدث وهو الدكتور خير الله تعليقًا على هذا النص «ويصعب علينا في هذا العصر أن نضيف شيئًا جديدًا إلى هذا الوصف» (٤٩).

ومثل هذين الشاهدين كثير، وكلها شاهدة على أن أطباء العرب قد اصطنعوا المنهج العلمي في دراساتهم، فاستندوا إلى الملاحظة الحسية والتجربة العلمية، وتوصلوا من دراسة الوقائع الفردية إلى قواعد عامة تندرج تحتها الحالات الجزئية، وتمكنوا بهذا من التوصل إلى حقائق يشهد التخصصون من المعاصرين بصوابها حتى اليوم.

وفي ضوء ما أسلفنا نستطيع أن نقول الآن أن الطب العربي وإن كان قد نشأ في بيئته العربية الإسلامية - واستقى من ينابيعها ونما

(٩٦) د. أمين أسعد خير الله : الطب العربي ص ١٥١ - ٥٢ .

(٥٠) فلننظر زميلنا الدكتور شوقي ضيف الذي يقول وهو يؤرخ لعلوم اللغة والدين (تاريخ الأدب العربي ج ٣ ط ٢ ص ١١٨ وما بعدها) : أن العرب قد أرسوا قواعد العلوم العربية والدينية بأصولها المستقرة ومنابعها الواضحة قبل أن يتصلوا بالثقافات الأجنبية . والدكتور محمد كامل حسين الذي يقول (أثر العرب في النهضة الأوروبية ص ٢٧٠ - ٧١) أن العرب قبل اتصالهم - بالثقافات الأجنبية « كانت لهم علومهم الخاصة بهم ، ساروا فيها سوطا كبيرا ، ووضعوا لها أصولا مستقرة ، ومناهج واضحة ، وكان هذا من علمهم وحدهم على غير مثال ... » ولتفنيد هذا الاتجاه نقف من الدكتور شوقي نفسه ، فوله أن الخليل بن أحمد مؤسس النحو العربي ، كان « يتقن المنطق الذي ترجمه صديقه أبن المقفع وما يتصل به من الفلاس ... » ص ١٢٢ - ١٢٣ وأن البصرة التي وضعت أصول النحو قد احتكمت في ذلك « احتكاما شديدا إلى القياس » ص ١٢٤ - ويقول أن الشافعي واضع علم أصول الفقه كان أول رائد « للاتجاه العلمي الذي لا يكتاد بعنى بالجزئيات والفروع ... بل يعنى بشفط الاستدلالات التفصيلية بأصول جميعها ، وذلك هو النظر الفلسفي » - وهو دخيل على العرب - وقد كان الشيخ الأكبر الاستاذ مصطفى عبد الرزاق يستعرض أحوال المستشرقين (من أمثال كارادى فو) وجوده تسيير) ومؤداه أن علم الفقه تأثر في تكوينه بعناصر أجنبية ، ثم يورد أحوال علماء الإسلام (من أمثال ابن خلدون وابن قيم الجوزية) في يرد هذا العلم إلى عناصر إسلامية دون ملاحظة التأثير الأجنبي فيها ، ثم يقول معقبا : « حتى لقد انتهى علم أصول الفقه بأن جمع من مسائل المنطق وأبحاث الفلسفة والكلام شيئا غير قليل ... على أن هذا لا يسع ما قرئناه من أن النظر العقلي نشأ أصلا من أصول التشريع في الإسلام يؤيده ويصميه . » (التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٣٠ و ٢٤٥ ثم ١٢٤ - ١٢٥) وفيما قلنا في متن الكلام ما يكفي تعليقًا على هذا الهامش .

صقلية ، وبحركة أخرى في بلاد الأندلس كانت أوسع مدى وأغزر مادة وأطول عمرا .

(١) في الحروب الصليبية

من الباحثين الغربيين من رد الى الحروب الصليبية بقطة الغرب التي تلتها في المحيط الاجتماعي والديني والسياسي والثقافي ، وكان من هؤلاء «هن أم راين» Henne am Rhyn وهانز بروتر Hans Brutz الذي رد الى هذه الحروب وحدها تقدم أوروبا في الفترة الواقعة بين عامي ١١٠٠ و ١٣٠٠ م (١) .

وحقيقة ان اتصال الغربيين بالشرق في الحروب الصليبية قد اثار دهشتهم بازدهار الحضارة العربية واعجابهم بتقدم العلوم ونضج أهلها ، ومكن من تأثير العلم العربي في قلة من المفكرين من امثال اديلار أوف باث الذي كان نشاطه بين سنتي ١١١٦ - ١١٤٢ م ونقل الى اللاتينية الكثير من كتب العرب ، لكن الواقع ان جمهرة المحاربين من هؤلاء الغربيين كان مهمم الانتصار على اعدائهم والاستحواذ على بلادهم ، ثم هم كانوا في الأغلب والأعم من أهل الحرف الذين تعوزهم الثقافة ، بل ان هؤلاء الصليبيين لم يفكروا حتى في اقامة مدارس يعلمون فيها أبناءهم، برغم الأمد الطويل الذي استغرقته حروبهم ! ومع انهم كانوا يدهشون لبراعة أطباء العرب ، ويستدعون منهم من يقوم بعلاج قادتهم ، فانهم لم يفيدوا من ازدهار الطب العربي أكثر من ذلك .

واقصى ما نستطيع افتراضه من تأثير الحروب الصليبية في مجال الطب هو ان نقرن قيام مدرسة الطب في مونبلييه بالتجارة التي تبودلت بين جنوبي فرنسا وسواحل بحر الروم الشرقي - فيما يقول باركر استاذ السياسة

ونقول اخيرا : ما الضيق في ان نعرف بأن العرب في مطلع نهضتهم الفكرية قد تلقوا عن غيرهم ، وافادوا مما اخذوا ؟ اننا نعلم ان العرب في العصر الذهبي لنهضتهم قد سدوا هذه الديون مضاعفة واعطوا أوروبا اضعاف ما اخذوا عنها ، فانتقل التراث العربي الى أوروبا في مطلع يقظتها منذ النصف الثاني من القرن الحادى عشر - كما سنعرف عندما نتحدث عن « انتقال الطب العربي الى أوروبا » وهذه هي طبيعة النهضة العالية ، يتفاعل بعضها مع بعض ويعيش كلها بين اخذ وعطاء ، تآثر وتأثر ... واستقراء تاريخها اعدل شاهد على صدق ما نقول .

(ج) انتقال الطب العربي الى أوروبا .

اجتاحت القبائل الجرمانية المتوحشة روما عاصمة الدولة الرومانية الغربية في اواخر القرن الخامس ، فانظما مشعل الحضارة في أوروبا بضعة قرون من الزمان ، بينما ظهر الاسلام في المشرق العربي ابان القرن السابع للميلاد ، ونشر طيلسانه على صقلية واسبانيا وغيرهما في العالم الأوروبي ، ومنذ منتصف القرن الثامن اتصل اهله في حركة الترجمة بتراث بناء الحضارة من الأمم القديمة ، وسرعان ما ازدهرت في ظله حضارة ناضجة كانت مركز الاشعاع الفكرى ومصدر النور في الدنيا كلها فترة طويلة من الزمن .

وقد عبرت الحضارة العربية الى أوروبا من ثلاثة طرق : احتكاك الغرب بالشرق في الحروب الصليبية ، وبحركة الترجمة التي نشأت في

(١) يأخذ المستشرق ارنتست باركر E. Barker على اصحاب هذا القول (١) خطأ الفول بملء مفردة واحدة نفس كل ما اعتقها من احداث مع اغفال تأثير صقلية واسبانيا على النحو الذى سنعرفه بعد قليل . (٢) وخطا الفول بان احادنا سابقا هو بالضرورة غلة ما بعده من احداث - وذلك في فصل كتبه عن الحروب الصليبية في كتاب تراث الاسلام ، وترجم الفصل دلى على احمد ميس .

جادة في أوروبا ! وتخصصت مدرسة سالرنو في الطب وأضحت كتب العرب الطبية مصادر دارسي الطب في أوروبا حتى مطلع العصور الحديثة .

وكانت صقلية تنهل من ينابيع عربية ولاتينية ويونانية ، لكن الصدارة في العلوم عامة وفي الطب خاصة كانت لثقافة العرب .

وجاء أول تأثير للطب العربي في أوروبا أواخر القرن العاشر في مدرسة سالرنو (٥٢) السالفة الذكر - موطن إبقراط أبي الطب اليوناني القديم ، ومن الطريف أن الطب العربي قد عرف طريقه إلى هذه المدرسة عن طريق تاجر عربي من قرطاجنة - بتونس - درس الطب العربي وجمع كثيرا من مخطوطاته ، وأبحر بها إلى جنوبي إيطاليا واستقر في سالرنو ، بعد أن غرقت بعض مخطوطاته في عاصفة هاجمته أثناء رحلته ، واعتنق المسيحية وأسمى نفسه « قسطنطين الأفريقي » + ١٠٨٧م (٥٢) واعتكف عام ١٠٥٦م في دير وانهمك في ترجمة مخطوطاته الطبية من العربية إلى اللاتينية - لغة أوروبا العلمية إذ ذاك - فكانت ترجماته نواة مدرسة سالرنو وتخصصها في الطب .

وعلى هدى ذلك الرائد سار تلميذه يوانس الفلاكوس + ١١٠٣م وغيره ممن حاولوا أن يعزجوا بين طب العرب والنصوص اليونانية الرومانية المتوارثة .

وانتشر خريجو سالرنو في أوروبا ، فحف

بجامعة كمبريدج - وسنعود إلى الحديث عن هذه المدرسة عندما نتحدث عن حركة الترجمة في بلاد الأندلس .

حركة الترجمة في صقلية :

أخذ العرب في غزو صقلية منذ عام ٨٢٧م واستولوا على الجزيرة كلها عام ٨٧٨م وأخذوا ينشرون حضارتهم في ربوعها حتى انحصر عنها سلطانهم عام ١٠٩٢م على يد ملوك النورمانديين الذين لم يكونوا أقل من حكام العرب تسامحا في الدين ، وكفالة للعلم ورعاية لأهله ، وفي مقدمة هؤلاء « روجار الثاني » الذي حكم بين سنتي ١١٣٠ و ١١٥٤م واقترن اسمه بأكبر جغرافي عربي هو « الشريف الإدريسي » ، ثم حفيده « فردريك الثاني » + ١٢٥٠م الذي استبد به الإعجاب بحضارة العرب فتشبه بهم في عاداته وأساليب حياته ، وكان يقرأ كتبهم في أصولها ، لأنه كان ملما بالعربية إلى جانب الألمانية والفرنسية والإيطالية واللاتينية واليونانية ! وقد أنشأ عام ١٢٢٤م **جامعة نابلي** لنقل العلم العربي إلى العالم الغربي وسرعان ما أضحت مركز الاهتمام بالثقافة العربية ، وفيها وضعت ترجمات مختلفة من العربية إلى اللاتينية والعبرية ، وبتشجيعه زار « ميخائيل سكوت » طليطلة عام ١٢١٧ ونقل الكثير من الكتب العربية .

واهتم فردريك الثاني **بمدرسة سالرنو** التي سنشير إليها بعد قليل ، ومن لها لائحة تفرض على الطبيب ألا يزاول الطب في مملكته بغير ترخيص رسمي منها ، فكانت هذه أول لائحة

(٥٢) قيل إنها نشأت على شاطئ صخى شمس ، وأن مستشفى قد أنشأه بها طائفة البندكت أواخر القرن السابع ، وأن مدرسة للطب قد نشأت بها في منتصف القرن التاسع ، وأن لم يعرف الطب الحقيقي طريقة إليها قبل مطلع القرن الحادي عشر ، وتميزت مدينة سالرنو من غيرها من المدن الأوروبية بحرية الفكر وعلمانية الدراسة والتحرر من قيود اللاهوت .

(٥٣) مع أن قسطنطين لم يكن عالما ولا ذا دراية كافية باللاتينية ، وكانت ترجماته أقرب إلى التلخيص منها إلى الترجمة الدقيقة ، وقد نقل من العربية قسما كبيرا من كامل الصناعة الطبية لعلى بن عباس ، وزاد المسافرين لابن الجزار ، وطب اليونانيين بن إسحاق ، وكثرا من كتب إسحاق الإسرائيلي في البول والحميات والأدوية المفردة وغيرها ، وترجم كذلك نصوصا عربية ترد إلى أصول يونانية .

ملوك الأسبان - حين استردوا بلادهم - حذو العرب في كفالة التسامح مع من ليسوا من أهل ملتهم ، وكانوا يقاتلون العرب وهم يجلسون علماءهم ، ويكونون الإعجاب بحضارتهم .

وقد بدأ اتصالهم بتراث العرب برحلة قام بها إلى قرطبة « جريرت » الذي ولي عرش البايوية باسم « سيلشتر الثاني » ، اذ قضى في إسبانيا ثلاث سنوات (٩٦٧ - ٩٧٠ م) استهوته خلالها أسرار العلوم العربية وكنوزها .

ومع ذلك فإن المحدثين من مؤرخي الأسبان يتكبرون اثر التراث العربي في إسبانيا ، ويخطئون الرأي الذي شاع في أوائل القرن التاسع عشر وبالع في خطورة الدور الذي قام به العرب في بلاد الأندلس ، وكان من أسباب هذا ميل الباحثين - تحت تأثير الجامعات الفرنسية والأمريكية - إلى الارتداد بكل شيء إلى أصول لاتينية ما أمكن ذلك ، ولم يوفق الباحثون - من أمثال « ميشيل آسين » Miguel Asin « وجوليسان ريسيرا » Julian Rebera بكل دراساتهم القيمة إلى تغيير هذا الموقف (٥٥) .

لكن يبدو أن الإسلام قد أقر في كل مرافق الحياة في إسبانيا إبان القرن العاشر ، ويسقط طليطلة - وسنتحدث عنها بعد قليل - أخذ يشيع تأثيره في كل أوروبا ، إذ كانت طليطلة مركز الثقافة الإسلامية في القرن الحادي عشر بعد أن خرب البربر قرطبة أوائل ذلك القرن ، واحتفظت بمكانها حتى بعد أن غزاها « الفونس السادس » عام ١٠٨٥ م فاصطبغ بلاطه بالثقافة الإسلامية كما كان بلاط « فردريك الثاني » في

فريق منهم عام ١١٦٠ م إلى جنوبي فرنسا واستقر كثيرون منهم في مونبيلييه التي خلفت سالارنو بفضل تحررها من سلطة الكتيبة ، ونزوعها العلماني ، ومنها تسلس الطب إلى باريس وغيرها من المدن الأوروبية .

وظلت مدرسة سالارنو قائمة حتى القرن الرابع عشر حين أخذ نجمها يأفل ، وفي مطلع القرن التاسع عشر اغلقها نابليون (٥٤) ، وخلفتها **پادوا** ، بفضل ما تميزت به من تسامح ديني وحرية فكرية فسيطرت على الطب في أوروبا إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

وبدأ بذلك تأثير الطب العربي في توجيه الطب الأوروبي وتجديد مصطلحاته ، كما تمثل في كتب التشریح في مدرسة سالارنو بوجه أخص ، وكما لوحظ في الأدوية التي كان للعرب فضل انتقاها ، بل بدأ في غير هذا من مجالات الطب وفروعه ، فاثرت جهود قسطنطين ومدرسة سالارنو وأتت أكلها في أنحاء أوروبا كلها .

٣ - حركة الترجمة في بلاد الأندلس

عبر العرب إلى إسبانيا عام ٧٠٩ م ولم ينحصر سلطانهم عنها إلا بسقوط آخر مملكة عربية في غرناطة عام ١٤٩٢ م - أي بعد خروج العرب من صقلية بأربعمئة عام تماما - وخلال هذه القرون الثمانية انتشرت حضارة العرب الزدهرة في ربوع البلاد ، وفرضت للغة العربية نفسها على الفكرين بوجه خاص ، وكفل حكام العرب التسامح الديني ، ويسلطوا رعائتهم على أهل العلم من جميع الملل ، وحذا

(٥٤) وكان من الكتب الطبية التي نقلت إلى اللاتينية حركة الترجمة في صقلية : كتاب الحاوي للرازي ، والطب التجريبي المنسوب إلى جالينوس - وكان قد نقله إلى العربية حنين بن إسحاق - وكتاب جراحة ماسويه وتقويم الأبدان في تدبير الإنسان لابن جرلة ، وإبغراط في الطب البيطري .

(٥٥) J. B. Trend في فصل عن إسبانيا والبرتغال في كتاب تراث الإسلام The Legacy of Islam الذي صدر عام ١٩٧٧ وترجمته إلى العربية لجنة الجامعيين لنشر العلم بالقاهرة عام ١٩٣٦ - وهذا الفصل من ترجمة د. حسين مؤنس .

الجزار ، « والأقرباذين وتدبير الصحة والأخلاق المنحول » لجاليوس ، و « طب العيون » لعمار بن علي وغير ذلك كثير .

ونشأت في أوروبا مدارس طبية تقيم دراساتها على الكتب العربية المترجمة الى اللاتينية ، ويبدو هذا في **مدارس مونلييه ، ونابلي ، وبولونيا ، وبادوا ، واكسفورد ، وكمبردج ،** وغيرها . وقد أسس اولها (مونلييه) اطباء العرب المطرودون من اسبانيا ، واصبحت معها للدراسات الطبية المؤسسة على تعاليم ابقراط وجالينوس ، وان كان المثلثون ان النصوص التي رجعوا اليها كانت في البداية مترجمة عن نسخ عربية ، ولم تستخدم فيها كتب الطب العربي الا في بداية القرن الرابع عشر . ففي عام ١٣٠٤ ترجم كتاب « قوانين الادوية السهلة » لابن رشد عن نسخة عبرية ، وفي عام ١٣٤٠ ادخل الشطر الاول من قانون « ابن سينا » في المنهج الرسمي المقرر على المرشحين للدرجات العلمية في الطب ، وعندئذ تضمنت المحاضرات الدراسات الطبية عند العرب ، ولبت هذا حتى عام ١٥٦٧ حين استبعدت كتب الطب العربي من قائمة الكتب المخرجة للامتحان في مدارس الطب ، على اثر شكوى تقدم بها الطلاب انفسهم ! وان كان المحاضرون قد ظلوا يعتمدون على قانون « ابن سينا » حتى عام ١٦٠٧م - فيما يروي ديلاس اولري O'Leary في كتابه عن « الفكر العربي ومكانه في التاريخ ».

وقريب من هذا يقال في اثر الطب العربي في المدارس التي نشأت في أوروبا وتشيعت للثقافة العربية وتأثرت بكتبها المترجمة عن العربية .

ومن طريف المفارقات ان يكون مقدرا للعلم العربي ان يسود أوروبا المسيحية على يد رجال دين من الكنيسة التي اشعلت في ذلك العصر

بالرمو بعد ذلك بقرنين ، بل أعلن الفونس هذا نفسه امبراطور العقيدتين ؛ ونشطت في طليطله حركة علمية جعلتها قبله طلاب العلم في كل انحاء أوروبا .

ووضحت الحركة العلمية في طليطلة منذ ان استدعى رئيس اساقفتها المونسنيور ريموند « ١١٢٦ - ١١٥١م) العلماء والمهرة في اللغات ، وأنشأ ديوانا لترجمة التراث العربي ليكون في متناول طلاب العلم من الأوروبيين ، وجعل على رأس المدرسة كبير الشعاسنة أرشيدوق سيجوفيا « دومنيك جنديسالفوس » Dominic Gundisalvus وزاد فأدخل الدراسة بالمدارس ، واستمرت حركة الترجمة نشيطة من العربية الى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر حتى الرابع عشر ، بل الى ما بعده ، وفيها نقلت أوروبا كتب العرب التي كانت تتضمن التراث اليوناني مع شرحه والتعليق عليه ، وزاد النور توهجا في عهد « الفونس الخامس » (الحكيم) + ١٢٨٤ م ملك قشتالة واكبر دعامة الثقافة العربية في اسبانيا المسيحية ، وزاد فاغرى المترجمين بان ينقلوا الى القشتالية التي اصبحت لغة اسبانيا الحديثة .

وكان اشهر المترجمين من العربية في طليطلة « جيرار الكويموني » + ١١٨٧م الذي خلف « جنديسالفوس » على رئاسة الديوان ، ويرجح « اللومبيلي » انه كان رئيسا معترفا به للمدرسة من المترجمين باثرت نشاطها في طليطلة تحت رعاية الحكومة ، وبهذه الجهود كلها اصبحت طليطلة مدينة العلم والنور .

وفي ظل هذه الحركة التي اتسعت آفاقها وعمق نشاطها وطال امدها ترجمت من العربية الى اللاتينية كتب طبية كثيرة لابن ماسوية والرازي وابن سينا ، وأبي القاسم الزهراوى وعلي بن يونس المصري وكثيرين غيرهم ، كما ترجمت من العربية الى العبرية او القشتالية « زاد المسافرين » تم « الأقرباذين » لان

ومن الحق ان نقول مع « الفرد جيوم A. Guillaume » لو ان العرب كانوا برابرة كالمفلول الذين اطفأوا جذوة العلم في الشرق اطفاء لم ينبعث بعدهم ابدا ، وقد لا ينبعث ابدا (٥٦) ، بسبب ضياع دور الكتب وفقدان الآثار الادبية ، لو انهم كانوا كذلك لتأخر عصر الاحياء في اوربا عن موعده باكثر من قرن . . . وسوف نرى عندما نخرج الى النور الكنوز المودعة في دور الكتب الاوربية ان تأثير العرب الخالد في حضارة العصور الوسطى ، كان اجل شأننا واكبر خطرا مما عرفناه حتى اليوم (٥٧) .

هذه لمحة الى اهم مظاهر النضج في الطب العربى اiban عصوره الوسطى ، بكشفه العلمية التى كان العرب فضل السبق الى ابتداعها ، وبالنزعة العلمية التى سرت في دراساته ، في عصر لم تكن علمية العلم قد استوفت شرائطها ، مما شد انتباه الغربيين فجدوا في نقل كنوزه الى لغاتهم ، واخذوا منه زادا لترانهم ، وسراجا يضيء مسيرهم في طريق التقدم .

نفسه نيران الحروب الصليبية ، باسم المسيحية التى كان اظهر واسمى مافيهاد دعوتها الى المحبة والسالة !!

وكان مرد حركة الترجمة عن العربية الى امرين : اولهما : ازدهار الحضارة العربية وتفوقها على امعناها في سائر انحاء اوربا في ذلك العصر - وهو امر كان من الواضح بحيث لم يستطع ان تتنكر له الكنيسة نفسها ، وكانت في ذلك الوقت ذات سلطان واسع التطاق ، ممدود الرحاب . وثانيهما : تطلع اوربا الى احياء تراث اجدادهم من اليونان ، وكانت اليونانية مجهولة في الغرب كله ، مع استثناء صقلية ومدن في الدولة البيزنطية - الرومانية الشرقية - الى ان استولى الأتراك على عاصمة الدولة البيزنطية - القسطنطينية عام ١٤٥٣ م ففر منها علماء اليونان الى شمالى اوربا مدعومين ، ومعهم مخطوطاتهم اليونانية ، واخذوا يعلمون طلاب العلم البونانية وثقافتها .

(٥٦) خيب الله توفعات هذا المستشرق ، فالفول اطفاء امصباح العلم في الشرق عام ١٢٥٨م عند استيلائهم على بغداد عاصمة الدولة الاسلامية حينذاك ، وشاء الله ان يظل مصباح العلم مضاء بعد ذلك في دمشق وفي القاهرة وفي كثير من حواضر الشرق ، حتى استيقظ الشرق كله واخبيثت فيه مصابيح العلم ، في عصرنا الحديث .

(٥٧) في فصل عن الفلسفة والالهييات في كتاب تراث الاسلام - السالف الذكر - والفصل من ترجمة توفيق الطويل .

مصادر البحث

- * ابن أبي أصيبعة (أبو العباس أحمد بن قاسم) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء - جزوان (نشرة ماكس ميلر - القاهرة ١٣٠٠ هـ) .
- * ابن جليل (سليمان بن حسان الأندلسي) : طبقات الأطباء والحكماء - تحقيق فؤاد السيد - مطبعة المعهد العلمي الفرنسي الآثار الشرقية - القاهرة ١٩٥٥ .
- * التفتي (جمال الدين بن يوسف) : أخبار العلماء بأخبار الحكماء - الخانجي - القاهرة ١٣٣٦ هـ .
- * ابن النديم (محمد بن اسحاق) فهرست العلوم (طبعة فلوجل) القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- * ابن البيطار (غيثة الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي) : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية - ٤ أجزاء القاهرة ١٢٩١ .
- * حنين بن اسحاق : العشر مقالات في العين - نشره وترجمه الى الانجليزية ماكس مايرهوف - الطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٢٨ .
- * ثابت بن قرة : الأخيرة في علم الطب - نشرة د . جرجي صبحي - الطبعة الاميرية بالقاهرة - الجامعة المصرية ١٩٢٨ .
- * عبد اللطيف البنادي - الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانيه بارض مصر - القاهرة .
- * علي بن عباس الجوسي : كامل الصناعة الطبية (أو الكناشة الملية - جزوان القاهرة - ١٨٧٧ م) .
- * ابن سينا : القانون في الطب .
- * الرشيدى : عمدة المحتاج في علمي الأدوية والعلاج - ٤ أجزاء - القاهرة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م .
- * د . التجاني الماحي : مقدمة في تاريخ الطب العربى - مطبعة مصر بالخرطوم ١٩٥٩ .
- * A. A. Khairallah, Outline of the Arabic Contribution to Medicine and the Allied Sciences, Beirut, 1946.
- ترجمة د . مصطفى أبو عز الدين : الطب العربى - بيروت ١٩٤٦
- A. Issa, Histoire de la Bimaristan Islamique.
- والنسخة العربية : تاريخ البيمارستانات في الاسلام - جامعة فؤاد الاول - كلية الطب - القاهرة ١٩٤٤ .
- * الطب والاقراباذين للدكتور محمد كامل حسين في كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية - باشراف اليونسكو - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة ١٩٧٠ .
- * د . بول غليونجي : ابن النفيس (العدد ٣٧ من سلسلة كتب اعلام العرب - بالقاهرة) (بغير تاريخ) .
- الكتاب الذهبي للمهرجان الاثني للذكرى ابن سينا - جامعة الدول العربية الادارة الثقافية . القاهرة ١٩٥٢ .
- George Sarton, An Introduction to the History of Science (Cambridge Institution of Washington — London, 1931).

المجلد الثاني من الجزء الثاني .

Aldo Mieli, La Science Arabe et son role dans l'evolution Scientifique Mondiale (Leiden, 1934).

ترجمة د . عبد العظيم النجار ، د . محمد يوسف موسى : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمى (القاهرة ١٩٦٢) .

ولعل هذين الكتابين (سارتون والنوميلي أقيم المصادر الأجنبية جميعها)

Will Durant, The Story of Civilization, Vol. IV (age of faith)

E. Broune, Arabian Medicine, University Press, Cambridge 1921.

وقد ترجمه الى الفرنسية H. P. J. Renaud تحت عنوان :

La Médecine Arabe, Paris, Larose, 1933.

D. Campbell, Arabian Medicine and its influence on the Middle ages, Kegan Paul, London, 1926.

Lucien Leclerc, Histoire de la Médecine Arabe, 2 Vols., Paris 1876.

Milton-Simpson, M. W., Arab Medicine and Surgery (Oxford University Press, London, 1922.

Castiglioni (Arturo), A History of Medicine

ترجمه عن الايطالية E. B. Krumbhaar طبعة ثانية لندن ١٩٤٧ .

Sigerist (H. E.), History of Medicine, N.Y. Oxford University Press Vol. I, 1951.

ارنولد توينبي

مدي عبته خطاب *

الكتب أهمها سفره الرائع «دراسة للتاريخ» وقد احصى الأستاذ السوفييتي كوسميشسكي في كتابه «فلسفة التاريخ عند الأستاذ توينبي» عدد صفحات المجلدات العشر الأولى من الكتاب فقال انها تبلغ ٦٢٩٠ صفحة فيها ٣١٥٠٠٠ كلمة ، فاذا اضفنا الى هذه المجلدات المجلد الحادي عشر الذي اصدره في عام ١٩٥٩ بالتعاون مع ادوارد مايرز وعدد صفحاته يربو على ٢٥٠ صفحة والمجلد الثاني عشر (١٩٦١) الذي تزيد صفحاته على ٦٧٤ صفحة (عدا عن الفهارس والبيليوجرافيا) لوحدنا ان هذا الكتاب الضخم يربو عدد صفحاته على سبعة الاف صفحة .

لعل خير مفتاح لشخصية ارنولد توينبي هو بيت من الشعر للكاتب المسرحي الروماني تيرنس (١٩٥ - ١٥٩ م) في روايته « معذب نفسه » رددته توينبي في كتابه « تجارب » ثلاث مرات في اماكن متفرقة من الكتاب وهو « انني انسان ، ومن ثم فليس هناك شيء انساني لا اشعر انه يهمني » . والحقيقة ان توينبي - ناجماع الاراء - بحر زاخر بالمعرفة الشاملة ، ومثل فريد في القرن العشرين ، قرن التخصص . ولا يقتصر الأمر في معرفة توينبي على الاطلاع الواسع وحده ، وانما هناك جانب آخر للمسألة وهي غزارة الانتاج . ولقد اصدر توينبي بضع عشرات من

* الأستاذ صدقي خطاب ، يعمل في المجلس الوطني للثقافة والعنون والآداب في الكويت . ترجم عددا من الكتب النقدية والمسرحية والمقالات .



ارنولد توينبي

مؤرخ لعصر متازم « لرونالد سترومبيرج » يقول في مقدمته :

« ان توينبي سمدكره الناس على اعتبار انه المؤرخ العظيم لعصرنا - حفة حروب القرن العشرين العالمية - وكما ان جيبون وماكولي وبيوركهارت منلوا عصورهم ، فان توينبي سيمثل عصرنا للاجيال القادمة . . لاس هناك من مؤرخ في هذا العصر منافسه في المجال الواسع وفي الاسلوب وفي الموضوع وفي المنزلة الرفيعة التي يحلها . ان اشغاله باصمحلل الحضارات ، وبمكنه المدهش من قدير كبير جدا من المعرفة ، حول جميع حضارات العالم جعل منه شخصه من شخصيات القرن العشرين حيث تقدر الكفاءة الفنية بالانتيار الاجتماعي . » (٢) ويرى باتريك جاردنر « ان نظام توينبي وهو فلسفته في دراسة التاريخ ، يمثل - بدون شك - اكبر اسهام فام به القرن العشرين في ميدان التأمل التاريخي . ومن ثم فقد اصبح مركزا للجلل والنقاس ، ومركز فيه الكثير من المعارضة العامة للمشروعات والخطط التاملية التي برزت بشكل واضح في السنوات الاخيرة » (٣) .

لقد سفل توينبي - وما زال - المؤرخين وعلماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ كثيرا : بما كتب (٤) ، ولقد كان سعيدا بكل ما كتب عنه من نقد ، فهو يقول في مقدمة كتاب صدر بعنوان « غاية تاريخ توينبي » ويضم عددا من الدراسات التي كتبها عدد من العلماء حول تاريخه « ان

ولقد لاقى ظهور هذا الكتاب وموجزه الذي وضعه سمرفيل حماسا كبيرا لدى جمهور المتفنيين وان كان قد لقي - المؤلف - عنتا كثيرا من عدد من المؤرخين . يقول كوسمينسكي عن ظهور الكتاب :

« لقد قابلت الصحافة البورجوازية ظهور « دراسة للتاريخ » و « الموجز » بحماس ، واصبح توينبي نبي الاذاعة والصحافة . وانارت محاضراته التي القاها في الاذاعة البريطانية في برنامج « محاضرات ريب » عام ١٩٥٢ ضجة . قام توينبي بعدد من الرحلات الى امريكا ليحاضر هناك . . واعتبرته مجلة لوك اعظم مؤرخ معاصر ، وان اسمه سم قائمة المؤرخين التي بدأت بهيرودوتس . وفارس حواريو توينبي « مكتشفاته » بمكتشفات كوبرنيكس وجاليليو ونيوتن ودارون . وشبهوا منهجه في دراسة التاريخ باكتشاف نظرية الكرم في الميكانيكا . واعتبر اليوم الذي نظهر فيه اية كتابات له « يوما متسهدوا في تاريخ الحضارة الغربية » وقد حيي توينبي لا على انه مبدع فهم جديد تماما للتاريخ فحسب ، وانما ايضا على اغنباره نبيا عظيما يرشد البشرية الى الطريق المؤدية الى مستقبل افضل » . (١)

واذا كان هذا ما لاقاه توينبي من حماس في الثلاثينات وفي الاربعينات وفي الخمسينات ، فان المتحمسين له لم ينتهوا ، فقد صدر في عام ١٩٧٢ كتاب بعنوان « ارنولد ج. توينبي :

- (١) Y. Kosminski, *Professor Toynbee's Philosophy of History crisis*, Moscow, 1965. pp. 3-4.
- (٢) Ronald N. Stromberg, *Arnold J. Toynbee : Historian for an Age in Crisis*, Southern Illinois University Press, 1972. p. XIII.
- (٣) Patrick Gardner, "Speculative Systems of History", *Encyclopedia of Philosophy* (Collier-Macmillan, 1967) Vol. 7, p. 521.
- (٤) خصص توينبي الجلد الثاني عشر من تاريخه - يقع في ٧٤٠ صفحة - لمناقشة لغاده ومراجعة آرائه . واورد في هذا الجلد الذي صدر في عام ١٩٦١ ببيليوغرافيا لكاتب من نقد لكاتبه الكبير يقع في ١١ صفحة . وصدرت في مجلة History and Theory المصدد الرابع (١٩٦٤) ببيليوغرافيا تضم عشرين صفحة عما كتب عن توينبي في اللغات الغربية ما بين ١٩٦٦ و ١٩٦٠ .

ولد ارنولد جوزيف توينبي في لندن في ١٤ ابريل (نيسان) ١٨٨٩ ، من أسرة تنتمي الى الطبقة الوسطى المثقفة ، فقد كان والده يعمل موظفا في شركة التلغراف ، وامه حصلت على درجة البكالوريوس في التاريخ من جامعة كيمبرج . اما جده لاييه فقد كان اول طبيب في لندن بتخصص في الاذن والحنجرة ، واول طبيب يأخذ جنينيه للاستشارة الطبية بدلا من جنينه واحد . وقد كان رائدا في الصحة العامة وفي التخدير . وقد مات في شرح سببها وهو يجري على نفسه نجارب التخدير ، ولم يترك وراءه مالا كثيرا . اما جده لأمه فقد كان مخترعا في مجال السلك الحديدية ، وحاول ان يجد مصدرا لتمويل مخترعاته ، الا انه فشل فاقب ذلك عليه ومات مبكرا دون ان يترك مالا كثيرا . ويحمد ارنولد توينبي المقادير التي جعلته يلد لآباء غير اغنياء ، لان ذلك كان سبباً في بينه وبين الانتاج الغزير ، فالطبيعة البشرية - كما يقول توينبي - حتى ولو توفرت لها نزعة اصيلة نحو فن من الفنون او حرفة من الحرف لا تميل عادة الى بلل جهد كبير اذا عرفت ان لديها من الامكانات المادية ما يجعلها تحيا حياة مريحة بدون مجهود . وصحيح ان الضمير والطموح قد يكونا حافزين بدليلين ، ولكن لا بد من ان يكونا قويين اذا اريد لهما ان يكونا حافزين فعالين ، وهذه حالات نادرة . فان وخز الحاجة - كما يرى صاحبنا - حافز لا يمكن الاستغناء عنه عند معظمنا (٧) .

المؤلف مدبر لكل ناقد ، حتى الناقد الذي يهدف الى سلخ فروه الرأس ولا يريد ريادة المعرفة . ان مثل هذا الناقد الذي يسعى الى سلخ فروة الرأس يقدم لضحيته على الافضل تحية عندما يعطي شيئاً من وقته واهتمامه لعمل هذا المؤلف ، فليس سلخ فروة الرأس اسوأ مصري يمكن ان يلقاه المؤلف ، ان تجاهله اسوأ بكثير من هذا المصري (٥) .

وعرف الفارسي العربي توينبي من خلال مواقفه المشرفة في تأييد القضية الفلسطينية ، والتدبير بالصهيونية ، ومما ترجم له من مؤلفات - وان كان عددها لا يتجاوز العشرة .

وسنحاول في هذا المقال اعطاء صورة عامة عن حياة توينبي ، وعن انجازاته الضخمة ، وعن مواقفه الانسانية .

بالرغم من اننا نجد تنافاً متناثرة عن حياة توينبي في كتبه الكثيرة ، الا ان هناك ثلاثه كتب منها نتحدث عن حياته : الاول من هذه الكتب هو المجلد العاشر من كتابه « **دراسة للتاريخ** » وهو بعنوان « **الهامات المؤرخين** » وفيه يتحدث عن المؤرخين الذين افاد منهم ، ومن هؤلاء **ابن خلدون (٦)** و**ابن القطيبي** من المؤرخين العرب . والكتاب الثاني هو كتاب « **معارف** » الذي صدر في عام ١٩٦٧ . والكتاب الثالث هو كتاب « **تجارب** » الذي صدر في عام ١٩٦٩ ، وهذان الكتابان الاخيران هما الاساس الذي اعتمدنا عليه في الترجمة لحياته .

Edward T. Gargan, ed., The Intent of Toynbee's History (Loyola University Press, Chicago 1961) p. iv. (٥)

(٦) يذكر توينبي ابن خلدون في مواضيع كثيرة من كتابه « **دراسة للتاريخ** » ويورد له في المجلد الثالث سبع صفحات (٣٢١ - ٣٢٧) وفي المجلد العاشر اربع صفحات (٨٤ - ٨٧) ويرى ان ابن خلدون قد « **صور** في مقدمته ووضع فلسفة للتاريخ هي بلا مراء اعظم عمل من نوعه ابتدعه عقل في أي مكان او زمان » المجلد الثالث صفحة ٣٢٢ .

Arnold J. Toynbee, Acquaintances (Oxford, 1967)

(٧) الصفحات ٣ ، ٤ ، ٥ .

للقى توينبي تعليمًا ممتازًا في الموضوعات الكلاسيكية (ونقصد بها التاريخ اليوناني القديم والتاريخ الروماني واللغتين اليونانية واللاتينية وآدابهما) وتلمذ على يد استاذ الادب اليوناني القديم **جلبرت هري** . وقد درس ارنولد اللاتينية وهو في السابعة من العمر ولمدة خمسة عشر عامًا ، ودرس اليونانية القديمة وهو في العاشرة ولمدة اثني عشر عامًا . وقد أثنى هابن اللغتين انشاها بما ، حتى انه نظم فيهما قصائد اوردتها في القسم الثالث من كتابه « **نحزب** » ، كما ان العبارات اللاتينية واليونانية ترد كثيرا في كتابه « **دراسة للتاريخ** » دون ان يحاول ترجمتها (وقد اخذ عليه بعض النقاد ذلك) . واستطاع ان يتعلم في المدرسة وفي الجامعة اللغات الفرنسية واللاتينية والابيطالية واليونانية الحديثة ، وان يلم بالتركية (وبالعربية فيما بعد) .

وتحدث ارنولد عن اثر هذه الثقافة

ويحدثنا توينبي عن فضل امه عليه ، التي جعلت منه مؤرخا عندما اذك فيه حب التاريخ (٨) ، وكانت صحبها له صحة فكره ساحره (٩) ، والف كتابا مدرسيا في التاريخ . وكان ثائر عمه هاري عليه قودا بأرائه المنحرة وشخصيته القوية .

درس ارنولد في مدرسة داخلية في ويون كورت ، حيث قضى فيها ثلاث سنوات ، ثم التحق بكلية وتنستتر ، حيث أمضى فيها خمس سنوات (١٩٠٢ - ١٩٠٧) وفاز في نهاية دراسته الثانوية بمنحة دراسية ، مكنته من مواصلة دراسته الجامعية في جامعة اكسفورد (١٩٠٧ - ١٩١١) حيث درس التاريخ القديم ، وعين في تلك الجامعة بعد تخرجه ، وارسلته جامعة اكسفورد للدراسة في المدرسة البريطانية للأثار في اثينا (١٩١١ - ١٩١٢) ف قضى هناك عاما واحدا ورجع بعد ذلك الى جامعته (١٠) .

M. F. Ashley Montagu, ed., *Toynbee and History . Critical Essays and Reviews* (Porter Sargent Publisher, Boston, 1956) p. 8 (٨)

راجع ايضا المجلد العاشر من « دراسة للتاريخ » صفحة ٢١٢ .

Arnold Toynbee, *Experiences* (Oxford, 1969) p. 194. (٩)

(١٠) يعطى توينبي اهمية كبيرة لهذه الفترة التي فضاها في اليونان ، ويستخدم في تسميتها الكلمة اللاتينية *Wanderjahr* - وتعنى سنة يتفقا المتدرب مسافرا لتحسين مهاراته قبل ان يشرع في عمله - ويتحدث عنها طويلا في كتابه « **نحزب** » (من صفحة ١٨ الى صفحة ٢٩) ويرى انها كانت تكملة للثقافة الاغريقية ، وانها كانت سببا في نقله من عالم اليونان والرومان القديم الى عالم القرن العشرين . يقول توينبي :

« كنت امشي من قرية لقرية ، وانفق الليل في قرية اخرى ، وامضى المساء - قبل ان آوى الى فراشي - في دكان القرية الذي كان بمثابة ناد للرجال يؤمنونه بعدعودتهم الى منازلهم اثر عملهم نهار يومهم في الحقول او المراعي . وكنت اصفى مساء اثر مساء الى الاحاديث التي كانت تدور في دكان القرية ، وفي النهاية بدأت اشارك في هذه الاحاديث بعد ان ازادت معرفتي بلغة الفلاحين اليونانية الحديثة تدريجيا . وفي هذا المكان حصلت على لغاتي اليونانية غير المنتظرة المتصلة بشؤون العالم المعاصر - وهي ثقافة حثنتي بعد ذلك الى مؤثري السلام في باريس ، واعلنتي لمدة ثلاث ولايتين سنة لان اكون احد مؤلثين تعاونوا في اصدار مسح للشؤون الدولية من دار شانان » « **تجارب** » صفحة ٢٩ .

ولقد ظل حب السفر صفة ملازمة لتوينبي طوال حياته ، لانه يرى ان السفر يجب ان يسبق كل شيء عند من يدرس الشؤون الانسانية . اذ ان الناس والمجتمعات البشرية لا يمكن فهمها بمعزل عن بيئاتها ، ولا يمكن فهم بيئاتها الجغرافية بطرق غير مباشر « **تجارب** » (صفحة ٩٩) وهو يرى ان امتع وسيلة للسفر أبطلها ، اى ان الحمار خير وسيلة لن يربد ان يعرف ما حوله من العالم ، وامتع الدروب اوغرها ، ولقد قال احدهم من توينبي انه رحالة دربه الفضل شعب الجبال التي تسلكها المافز . وقد اذنتوينبي عددا من الكتب يصف فيها اسفاره ، وهي من امتع ادب الرحلات .

جدا ، **واجنمبون** لاسخيلوس ، **وفاوست** لجيتسه (ومنه استوحى فكره النحلي والاستجابة في سيره التاريخ ونشوء الحضارات) كما تأثر بافلاطون وبشكسبير وملتون وشبلي ، وبالعالم النفساني يونج ، وبالفيلسوف الفرنسي بيرجسون ، وبفرد يونبي في المجلد العاشر من تاريخه بلايين صفحة (٢١٣ - ٢٤٢) تحت عنوان « اعتراف بالفضل وشكر » ورد فيها ذكر من استفاد منهم من المفكرين الكثيرين .

ولما نتسب الحرب العالمية الاولى لم يلنحج بالجيش لعدم لباقسه الطبية ، لاصابته بالذئبانيا في عام ١٩١٢ أثناء رحلة له في ريف اليونان (١٢) ، وهو لا ينفك يكرر في اكثر من كتاب من كتبه انه نجا من الموت بالصدفة ، ففد التهمت الحرب نصف اقرانه ، وكلما ذكر هؤلاء ابدى اسى وحسرة عليهم ، وبغضا للحرب وويلاتها . والتحق بدائرة الاستخبارات السياسية في وزارة الخارجية البريطانية ، وقد مكثه هذه الوظيفة من رؤية خلفية القرارات السياسية ، وتزوير الوثائق الرسمية التي يتلقفها المؤرخون وكل سذاجة فيكتبون منها تاريخ الافراد والتسعوب (١٢) . كما اشترك في مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، واشترك في مؤتمر عام ١٩٤٦ الذي عقد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . ويتحدث في كتابه « **تجارب** » (صفحة ٥٢) عن تجربته فيقول :

« وفي كل مؤتمر (من هذين المؤتمرين) لم تكن وظيفتي الا بائوية ولكنها كانت توصلي الى المقاعد الخلفية في قاعة المؤتمر ، وكتب

الكلاسيكيه عليه فيقول انها « منحتني موقعا غفليا خارج نطاق الزمان والمكان الذي صدف ان ولدت فيهما ، وقد اقلدني هذا من الافراط . في تقدير اهمية الحضارة الغربية الحديثة . كما اكتسبت من هذه التربية الكلاسيكية ايمانا دائما بان الشؤون الانسانية لا تصبح مفهومة الا اذا نظر اليها كوحدة ومن ثم كرسب حياتي كلها للوصول الى رؤية شاملة للشئون الانسانية » . . وبفضل تأثير هذا التعليم الكلاسيكي علي صار مذهب القرن التاسع عشر في التخصص لا يعنى لى شيئا . . وقد علمني تربيتي ان ارى الحضارة اليونانية الرومانية كوحدة ، وقد حاولت ان اوسع افقي التاريخي بانظام . وحاولت ان ادخل ضمن رؤيتي ضمن عملي جميع المجتمعات الاخرى . . وحاولت مثل ذلك في الفلسفات وفي الادبان العليا (١١) » (نجارب ص ١٠٦ - ١١١) .

ويرى فعاد توينبي انه ينطلق في دراسته للحضارات الاخرى ، ووضعه القوانين لنموها وفنائها ، من ثقافته الكلاسيكية ومن تجربة الحضارتين اليونانية والرومانية ، وهي تجربة محدودة زمانيا وجغرافيا ومن ثم فانها لا تصلح لان تكون المقياس الذي يقيس به الحضارات الاخرى او يصدر بوحى منها الاحكام حولها . غير ان توينبي لم يستعرض في دراسته الحضارتين اليونانية والرومانية وحدهما ، وانما تناول احدى وعشرين حضارة كما سنأتي الى ذلك فيما بعد .

ومن الكتب التي اشرت في ثقافته توينبي « الكتاب المقدس » وقد اثر فيه تأثيرا عميقا

(١١) يفصد توينبي بالاديان العليا : المسيحية والاسلام والبودية الماهايانية والهندوسية ، وقد اضاف الى هذه الاديان الاربعة في المجلد الثاني عشر من « دراساتي التاريخ » ص ٢١٨ البهوية والزرادشتية .

Ibid, pp. 37-38.

Acquaintances, pp. 117-118.

قارن هذا مع ما يورده ليدل هارت عن تزوير التاريخ في كتابه Why Don't We Learn from History (Allen & Unwin, London, 1971) pp. 27-30.

ويخرج توينبي من المؤتمر ويعود للعمل في الجامعة ، وفي هذه المرة يعرض عليه منصب استاذ في جامعة لندن لكرسي كوريس للدراسات البيزنطية واليونانية الحديثة ، وظل يعمل في هذا المنصب حتى اضطر الى الاستقالة منه في عام ١٩٢٤ . وسبب استقالة توينبي هو انه عندما انتهى مؤتمر الصلح كانت الاخطاء المتعمدة التي ارتكبها ساسة المؤتمر الكبار توحى بأن السلام لن يعمر كثيرا في بفاع كثيرة من العالم . وقد نسب الحرب فعلا بين اليونان وتركيا (١٩١٩ - ١٩٢٢) وارتكب اليونانيون جرائم كثيرة ضد الشعب التركي ، فلما ذهب توينبي في صيف عام ١٩٢١ لزيارة مناطق القتال كتبلجريدة المانتسستر جارديان عن تلك الجرائم ، ولم يابه توينبي لرد الفعل الذي اثارته مقالاته ضده لدى الاوساط الليبرالية البريطانية ولدى العالم الغربي ككل «حيث ظل التعصب المسيحي ، ضد المسلمين حيا في عقول كثيرين ممن نبذوا المسيحية نفسها» ، «(معارف)» صفحة ٢٣٠ . واصدر بعد ذلك كتابا بعنوان «المسألة الغربية في اليونان وتركيا» عام ١٩٢٢ ، اذان فيه الدبلوماسية الغربية والتنسوية السلمية ، واتخذ موقفا محابدا من تركيا ومن اليونان ، ولكن هذا الموقف لم يرق لليونانيين القيمين في لندن والذين يساهمون في تمويل الكرسي التي يحتلها ، فاضطروه الى الاستقالة .

وفي عام ١٩٢٤ عرضت عليه وظيفة مدير المعهد البريطاني للشؤون الدولية (الذي سمي فيما بعد بالمعهد الملكي للشؤون الدولية) او «دار شاتام» ليتولى اصدار حوية « مسح للشؤون الدولية » فقبلها ، وحتى ذلك الحين كان احسن ما يعرفه توينبي من التاريخ هو التاريخ اليوناني والروماني ، وان كانت اسفاره في بلاد اليونان واعماله المتصلة بالحرب قد

امسك بأوراقه قد تلزم وقد لا تلزم المندوبين الجالسين في الصف الامامي ، ولما كانت مسؤوليتي بالفعل ضئيلة فان فرصتي للمراقبة كانت جيدة . ان الساعات الكيرة التي انفقناها في المؤتمرين مصفا اصبح جزءا قيما جدا من ثقتاني » .

ويسرد توينبي في كتابه «معارف» (٢١١ - ٢١٢) القصة التالية التي توضح لنا ابعاد المؤامرة الاستعمارية على بلادنا ابان مؤتمر السلام عام ١٩١٩ :

« ذات يوم كان على ان اسلم بعض الاوراق الى **لويد جورج** (رئيس وزراء بريطانيا حينئذ) على اثر انتهاء أحد الاجتماعات الخاصة بالشرق الاوسط . انني كثيرا ما رايت لويد جورج وسمعته يتكلم ، ولكن هذه كانت هي المناسبة الوحيدة التي قابلته فيها ، ولقائي هذا معه لم يستمر اكبر من دقيقة او دقيقتين ، ولكنه كان كاشفا بشكل غير متوقع ، اذ انه عندما اخذ الاوراق وبدأ في تفحصها نسي وجودي - وهذا امرني - وبدأ يفكر بصوت مرتفع . (ما بين النهرين .. نعم .. نفط .. رى .. يجب ان نأخذ ما بين النهرين ، فلسطين .. نعم .. الارض المقدسة .. الصبونية .. يجب ان نأخذ فلسطين .. سوريا .. ماذا في سوريا ؟ لياخذها الفرنسيون) » .. ويعلق توينبي على هذه الواقعة فيقول : « ان حوار لويد جورج الذاتي اللاواعي قد كشف عن معرفة ذكية لمرانا الاقطار العربية العثمانية ، السياسية والاقتصادية ، ولكن لم يكن هناك ذكر مسموع للعامل الانساني الذي كان موضوع تحري وتقرير **لجنة كنج وكرين** . ان لويد جورج عندما عدد « النقاط » في الدول العربية اهل حقوق العرب انفسهم وامانيهم » .

الأول بحثافي الحاضر كان الثاني بحثا في الماضي .
وقد استفاد العلان من بعضها البعض .
ويروى لنا توينبي ان فكرة الكتاب قد جابه
كتعليق على الجسوفة الثانية في مسرحية
« انتيجونه » لسوفوكليس ، وانه كتب اناء
سفره بالقطار من اسامبول الى لندن في ١٧
ابول ١٩٢١ على نصف ورقة قائمة تضم نحو
اننى عشر عنوانا ، وقد ظلت هذه العناوين
- مع تغيير طفيف جدا - عناوين الاقسام
الثلثة عشرة في كتابه « التراسه » ، وبدأ
نكسو هذه الدراسة لحما في عام ١٩٢٧ ، غير
ان البداية الجديدة كانت في عام ١٩٣٠ . وفي
عام ١٩٣٤ اصدر المجلدات الثلاثة الاولى من
كتابه ، وقبل الحرب العالمية الثانية باحدى
واربعين يوما اصدر ثلاثة مجلدات اخرى ،
واستطاع ان يحتفظ بمذكراته الخاصة
بالكتاب في نيويورك اثناء الحرب العالمية الثانية ،
وشغل بالحرب فلم يبدأ بالعمل على اتمام
كتابه الا في عام ١٩٤٧ . وفي عام ١٩٥٤ اصدر
اربعة مجلدات اخرى هي تممة الكتاب . وعاد
واصدر في عام ١٩٥٩ المجلد الحادي عشر
ب عنوان « اطلس تاريخي ومعجم جغرافي »
بالتعاون مع ادوارد مايرز ، وفي عام ١٩٦١
اصدر المجلد الثاني عشر تحت عنوان
« مراجعات » واصدر سمريل موجزا للاجزاء
السة الاولى في عام ١٩٤٧ ، وموجزا للاجزاء
من ٧ - ١٠ في عام ١٩٥٧ . وقد ترجم هذا
الموجز ونشر في القاهرة . واصدر توينبي
طبعة جديدة مختصرة ومنقحة ومبسورة
لكتابه ، بالتعاون مع جين كبلان في مجلد واحد
عام ١٩٧٢ .

يقول البرت حوراني : « كان واضحا
منذ البداية ان الكتاب رائع ، حتى عندما ينظر
اليه من ناحية سطحية جدا كمخزن للحقائق .

ضمنت له موطن قدم في التاريخ المعاصر ،
ولكن هذا الوطن الذي عليه مهمة خطيرة وهي
كتابة مسح شامل للشئون الدولية الجارية (١٤) .
وقد امتاز هذا « المسح » بالموضوعية والدقة
العلمية والبحث الرصين ، حتى ان هلسر
استقبل توينبي في عام ١٩٣٦ لمدة ساعين
ونصف الساعه ، والقي عليه محاضره في
السياسة وذلك لان هلسر كان يدرك قيمة هذا
« المسح » (١٥) . وقد استطاع توينبي ان يكمل
عمله بالمسح بعمل آخر الا وهو كتابه الضخم
(دراسة للتاريخ) . ويقول توينبي ان عمله
ارضاء فكرا واخلاقيا . ويفسر هذا الرضاء
الاخلاقي على النحو التالي :

« كيف يمكن ان يكون هناك ارضاء
اخلاقي في عمل قصد به ان يكون « علميا »
بمعنى تناول دراسة الاحداث الدولية بطريقه
موضوعية غير شخصية ؟ اننى في كتابتي
« للمسح » بذلت اقصى ما استطعت لكي احول
دون آمالي الشخصية واحكامي بالخطأ
وبالصواب ، ودون تلويح سردي لهده
الاحداث ، وعندما كنت اشعر اننى لم احقق
هذه الغاية كنت ابدل قصارى جهدى في كشف
اوراقى امام القارئ لاساعده على ملاحظه
اهوائى واسقاطها » (١٦) .

وقد ظل توينبي يعمل في « دار شانام »
ثلاثة وثلاثين عاما ، وكانت تساعده في تحرير
« المسح » السيدة فيرونكا بولتر التي تزوجها
عام ١٩٤٦ بعد ان طلق زوجته الاولى روزلند
ابنة جيلبرت مسرى (من اولاده منها الناقد
الادبي فيليب توينبي) . كما ظل يعمل حتى
عام ١٩٥٥ استاذا باحثا للتاريخ في جامعة
لندن .

ان العمل الذى اقترن « بالمسح » - كما
قلنا - « هو دراسة للتاريخ » ، وبينما كان

Experiences, p. 75.

(١٤)

Acquaintances

(١٥) راجع الصفحات من ٢٧٦ - ٢٩٥

Experiences, p. 80.

(١٦)

دراسته نمائى لغات أو حضارات وانتهى في تحليله إلى أن الحضارة الغربية محكوم عليها بالاندثار ، وأن حضارات من الشرف ستحل محلها .

والى جانب تأثير اسبنجلر ، امارت الحرب العالمية الاولى في نفسه ما امارت الحرب البيولوجيوسيسية (٤٣١ - ٤٠٤ م.و.) التي قامت بين اينما واسبرطة وحلفائهما في نفس مؤرخ هذه الحرب نوسيديديز ، وهو الذى كان قد درس نوسيديديز لطلبة في كلية باليول في اكسفورد عام ١٩١٤ ، فرجع الى نوسيديديز واذابه يجد الكتاب مليئا بالمعاني الجديدة ، وانه ينطبق الى درجة مذهتة على الصراع المعاصر في أوروبا . وقد كتب توينبي نفسه يتحدث عن هذه التجربة فقال :

« .. وفجأة انير فهمي . ان التجربة التي مر بها الآن في عالمنا في نفس التجربة التي مر بها نوسيديديز في عاله .. وقد بدا الآن ان نوسيديديز كان فوق هذه الأرض من قبل . وقد سبقني وسبق جيلي هو وجيله في مرحلة التجربة التاريخية التي قد وصلنا إليها بعده .. ومهما تقل التواريخ فقد اثبت عصر نوسيديديز وعصرى انهما متعاصران فلسفيا . واذا كانت هذه هي العلاقة الصحيحة بين الحضارة الرومانية اليونانية والحضارة الغربية ، أفلا يمكن ان تكون العلاقة بين جميع الحضارات المعروفة لدينا هي على هذا الحال » (١٩) .

وتنمرد توينبي على منهج المؤرخين الغربيين حين اعتبر الوحدة الصالحة للدراسة التاريخ هي المجتمع أو الحضارة . وقد احصى توينبي

فهو يضم الوانا مختلفه من الحقائق الغربية والمشوقة حول العالم الانساني ، بل ان اكثر القراء عرضية اذا نظر الى صفحة هنا أو هناك في السير أو انشاء رحلة سيخرج منها وقد زادت حصيلته من المعرفة ، وقد تعمق احساسه بفرابة الحياة البشرية . واذا كان بعض الحقائق غير دقيق نستطيع ان نقول عنه ما قاله توينبي نفسه عن كتاب « **الموجز في التاريخ** » **تولان** : « مثل هذه الاخطاء شيء لا مفر منه ، ويمكن اغتفارها بسهولة في كتاب ، حاول ان يحيا من جديد البشرية كلها كتجربة خيالية واحدة » (١٧) .

واذا كان اى عمل فكرى هو وليد العصر الذى كتب فيه ، فان كتاب « **الدراسة** » هو وليد العقدين الثانى والثالث من هذا القرن ، حيث طرحت الحرب العالمية الاولى تساؤلات قوية وملحة حول مستقبل الحضارة ، قام الشاعر الانجليزى **البيوت** (كان امريكا حينئذ واحد الجنسية البريطانية عام ١٩٢٧) والف فيصيده « الأرض الخراب » عام ١٩٢٢ في تعليق قاتم على الحضارة الغربية ، واتى **اوزفالد اسبنجلر** الالماني فنشر في عام ١٩١٨ كتابه « **سقوط الحضارة** » . ورأى اسبنجلر ان التاريخ يتألف من وحدات ثقافية مستقلة بداتها . وان كل ثقافة كالنبته ، لها دورة حيث تزدهر هذه الثقافة وتنمو ثم يصيبها الانحلال ثم تندثر . وقد قرأ توينبي كتاب اسبنجلر عام ١٩٢٠ . وتساءل في كتابه « **الحضارة على الحلك** » (١٨) . اذا كان منهجه في النظر الى ان اصغر وحدات البحث التاريخى هي المجتمعات أو الحضارات وليست الدول القومية ، وان هناك معاصره بين هذه الحضارات ، لم يتأثر برأى اسبنجلر . وكان اسبنجلر قد تناول في

(١٧) Albert Hourani, *A Vision of History* (Khayats, Beirut, 1961) p. 1.

(١٨) A. Toynbee, *Civilization on Trial and the World and the West* (Meridian Book, New York, 1958) pp. 20-21.

Ibid pp. 18-19.

(١٩) انظر المجلد العاشر من دراسة للتاريخ صفحة ٩٤

التاريخ ، مستقبل الحضارة الغربية ، الهامات المؤرخين . ونلاحظ انه قد عدل في هذا التقسيم في موجزه الذي اصدره في نهاية عام ١٩٧٢ . اذ ضم الموجز احد عشر قصفا هي : سكل التاريخ ، وتكوين الحضارات ، ونمو الحضارات ، وانهيار الحضارات ، والدول العالمية ، والكنائس (الاديان) العالمية ، وعصور البطولات ، والاتصالات بين الحضارات مكانيا ، والاتصالات بين الحضارات زمانيا ، ولماذا بدرس التاريخ .

ولعل اشمل تلخيص موجز لنظام بوبني - فيما قرأت - هو ما بسطه البرت حوراني في كتابه الذي اشترنا اليه فيما سبق . يقول الاسناد حوراني (٢٠) :

« ونطلق هذه النظرية من ممييز بين حالتين انسانييتين يرمز لهما عند توينبني بالمصطلحين الصينيين Yin (السلب) و Yang (الايجاب) (٢١) : حالة من الخمود والمحافظة السلبية على تماثل مدرك ، وحالة من التقدم الابداعي الى المجهول ، وتحول عن عادات السلف الى اسلوب في الحياة جديد ، وغير رسمي ولم يرسم بعد . وهذه هي الازدواجية النهائية في الحياة الانسانية ، والمبدأ الاول في التفكير التاريخي . ان مسرات التاريخ ينبع من انتقال مجموعة من الناس من السلب الى الايجاب . وكل ما يستطيع التفكير التاريخي

في تاريخه احدى وعشرين حضارة درسها واستنتج قوائمه منها . وهذه الحضارات هي : المصرية والسومرية والبابلية والحيثية والسريانية والمينية والهيلينية والايوانية والعربية والهندوسية والهندية والصينية وحضارة الشرق الاقصى والاندية واليوكاتيكية والمابانية والمكسيكية والمسيحية الارثوذكسية البيزنطية والاورثوذكسية الروسية ، وقسم حضارة الشرق الاقصى الى حضارة صينية وحضارة كورية يابانية ، ثم الحضارة الغربية . وقد ابتلعت مسيره التحضر جميع هذه الحضارات الا سبع حضارات هي : الاورثوذكسية المسيحية ، والارثوذكسية الروسية ، والاسلامية (التي يضم الحضارين الايرانية القديمة والعربية) والهندوسية والصينية والكورية اليابانية والغربية . وبالرغم من ان توينبني يتفق مع اشينجلر في ان الحضارة الغربية تمر في ازمة حرجة ، الا انه يختلف معه في انه يرى ان بالامكان اتقاذها بسلوك السبيل الروحي .

وقد قسم توينبني كتابه الى ثلاثة عشر قصفا هي : المقدمة ، تكوين الحضارات ، نمو الحضارات ، انهيار الحضارات ، انحلال الحضارات ، الدول العالمية ، والكنائس (الاديان) العالمية ، عصور البطولة ، الاتصالات بين الحضارات مكانيا (المجابهات بين الحضارات المعاصرة) والاتصالات بين الحضارات زمانيا (عصور النهضات) ، القانون والحرية في

(٢٠)

Op. Cit. pp. 4-7.

وقد نشرت مقالة الأستاذ حوراني "Toynbee's Vision of History" لأول مرة في مجلة The Dublin Review العدد (٧٠) لندن - ديسمبر ١٩٥٥ من ص ٣٧٥ - ٤٠١ .

(٢١) (الين وآليانج - في الفلسفة الصينية - مبدآن للسلب والايجاب على التوالي في الكون ، او دور الانثى السليبي ودور الذكر الايجابي وهما متناقضان دائما ولكنهما متكاملان . وهما موجودان ايضا ومثلان في السماء والارض ، وفي الرجل والمرأة ، وفي الشمس والمطر ، وفي الخير والشر . (ص . ح)

M. Rosenthal and P. Xudin, eds., A Dictionary of Philosophy.
(Moscow, 1967)

D. D. Runes, ed., Dictionary of Philosophy (Peter Owen, London, 1970).

و

يصدر عن المحاكاة غير ثابت لانه ليس تلقائيا . ويتضح هذا بشكل خاص في مجتمع متحرك حيث لم يعد رباط السحر يوثقه رباط العاده . وقد يحدث « انهيار » ان عاجلا او آجلا : اى فقدان الانسجام - بشكل او بآخر - بين مؤسسات المجتمع القديمة وبين افكارها الجديدة مثلا ، او بين الاكثرية والاقلية . وقد نسحب هذه الفئة الاخيرة من مسئوليتها نحو المجتمع الى حياة سرية غامضة ، او ربما فعلت عكس ذلك ، فغضب ارادتها بكل فوه حتى تفسد بذلك المجتمع كله . فاذا سلكت احد السبيلين ربما اصبحت عاجزة عن الاستجابة المبدعة للتحديات الجديدة ، بل ان نجاحتها نفسها في مواجهة تحد قد يجعلها عاجزة عن معالجة التحدى التالى .

« فاذا حدث هذا (ونقول « اذا » لانه ليست هناك اشارة الى ان العملية كلها يجب ان تحدث بل ان الامر على عكس ذلك ، فهناك اصرار على ان الانسان يستطيع دائما - اذا اراد - ان يحطم الاغلال الذى يبدو انها يفيد) فان الحضارة ستنتقل من « الانهيار » الى « الانحلال » . ونفس هذا التحدى الذى لا يجابه بنجاح ابدا ، ومن ثم يعيد نفسه مرات ومرات بنفس (الرنابة الفاسية) يصير التنافر الى شرخ وهوة تتسع ببطء في جسم الجماعة . وقد تظهر هذه الهوة بين الجماعات المحدودة التى تقسم اليها الحضارة (كالجماعات القومية التى تكون الحضارة القريبة) ، وقد تكون هوة بين « العناصر » المختلفة او « الطبقات » التى تكون الحضارة . وتقسّم الحضارة الى ثلاث طبقات مستقلة ، تصبح الاقلية المبدعة فيها - بعد ان توقفت عن الاستجابة المبدعة للتحديات - اقلية مسيطرة ، تظن ان مركزها فى القيادة هو امتياز لها ، وتتشبث به بطرف لا تساعد الحضارة على التغلب على مشاكلها ،

ان فعله هو متابعه الظروف التى حصل فيها التغير والنتائج التى تمخضت عنه ، اما لماذا حصل هذا التغير فى هذه الظروف فهو لفز يخفى فى حرية الاستجابة الانسانية (يمكن ان نلاحظ بشكل عابر ان هذه الازدواجية - السلب والايجاب - التى تعبر عن نفسها بصور متعددة - فى الانسحاب والعودة ، وفى التحدى والاستجابة ، وفى التبدد والحشد - هى مثل واحد على ولع توينبي بالازدواجية » .

« وتنمو الحضارات بمل هذا الانتفال ، ويعني النمو نقل ميراث العمل والحدى من التحدى الخارجى الى الداخلى ، وهو تقدم نحو تقرير المصير ، واتجاه تصبح فيه شخصية الحضارة هى ميدان عملها . ويحدث هذا عندما تواجه الحضارة تحديا فتعالبه باستجابة ناجحة ، وهى عندما تفعل هذا لا تقتصر على امتصاص ذلك العنصر الذى يتسكل عدم امتصاصه نفسه تحديا ، وانما تولد فى نفسها طاقة لمجابهة تحد آخر . ولكن كيف تستجيب احدى الحضارات للتحدى بينما تعجز حضارة اخرى عن ذلك ؟ الجواب على ذلك هو وجود اقلية مبدعة فى الحضارة الناجحة - فرد او نفر قليل من الناس او جماعة كاملة - وعندما تتحمل هذه الاقلية عبء التحدى اثناء عزلة انسحابها من المجتمع تعود الى صميمه وقد حلت المشكلة ومن ثم تخرج وراءها كل الجماهير غير المبدعة بقوة التقليد او المحاكاة .

« ولكن قوة المحاكاة هذه التى تيسر نقل الافكار او المهارات الجديدة من الاقلية الى الاكثرية ، ومن ثم تعطي قوتها للمجتمع النامي ، هى ايضا نقطة الضعف فى الحضارات كلها ، اذ لا يمكن زعزعة الاكثرية غير المبدعة من حالة السلب الا بقوة السحر ، فاذا ما انتهى معقول السحر انحلت حالة التعايش ، ان كل عمل

مجتمع متداع تلقى امام الروح الفردية تحدياً . ان الانقسام في المجتمع يؤدي الى انقسام الروح ، وقد يبرز قائد من طراز جديد بين كيف يداوى هذا الانقسام ، وهو المنع الذي يقود من يتبعه ويخرجه من مجتمع محكوم عليه بالهلاك . اما من يتخلف عن هذا العائد ، فان مصيره التردى في سراك الانحلال الى تأخذ الشكل التالي : تبديد - حشد - انهيار . وعند حافة الهزيمة يحاول المجتمع المنهار ان يضم صفوفه ، ويبدو وكأنه قد استعاد فوه ، ولكنه سرعان ما يسمع اصرار التحدي العائد القاسي . ومن اقوى محاولات خداع هذا الموت تلك المحاولة التي تتمخض عنها الدولة العالمية ، وعندما تتداعى الدولة العالمية تموت الحضارة اما بالعناء في حضارة اخرى واما بالدوبان في الفوضى ، وقد نشأ عنها في الوقت المناسب حضارة جديدة » .

وهكذا فان الحضارة في رأى توينبي تنسأ عندما يواجه شعب تحدياً فيستجيب لهذا التحدي بقوة اكثر من التحدي نفسه ، ويرى توينبي ان افضل تحد هو الذي لا يقتصر على دفع المتحدى الى تحقيق استجابة ناجحة واحدة ، وانما يدفعه ايضا الى الوصول الى حركة تدفعه الى الامام فننتقل من الانجاز الى كفاح جديد ، ومن حل مشكلة الى طرح مشكلة اخرى ، ومن راحة آتية الى حركة متكررة (٢٤) . ومن شروط هذا التحدي ان لا يكون مغرطاً في قوته ، والا فقد يؤدي الى

وتبرز مقابلها بروليتاريا (٢٣) داخلية ، وهي جماهير لم تعد مرتبطة بالقلية بالمحاكاة ، وقد قامت بعمل انفضالي ، ولا تعتبر نفسها منتمة للحضارة ، تم بروليتاريا خارجية مكونة من عناصر جذبها قوة الى نجوم الحضارة ابان نمو هذه الحضارة ، ولكنها لم تعد تقبل الدور الذي خصصته لها الحضارة .

ويتقدم الانحلال .. تتحول العلاقات بين هذه العناصر من الانسجام الى القوة ، وبذلك الاقلية محاولة يائسة للمحافظة على مركزها فترد عليها البروليتاريا بالعنف . وليست هذه هي كل القصة : اذ في اللحظة التي تدمر فيها الطبقات الثلاث انفسها ، ودمر الحضارة ككل نتيجة صراعها العنيف ، ينفق الطبقات الثلاث عن اعمال ابداعية تضيء العالم المحتضر . وقد نتج الاقلية المسيطرة - وهي في الرمق الاخير - دولة عالمية ، ومنتج البروليتاريا الداخلية كنيسة عالمية (٢٤) ، وتتمخض البروليتاريا الخارجية عن دول بربرية وآلهه حرب وبطولات وشمع حماسي .

« والكنيسة العالمية هي الوحيدة من بين هذه ، هي « المتطلعة الى الامام » وهي شرفة حضارة جديدة ، وهي ايضا الطريق الذي يستطيع ان ينقذ الناس به انفسهم من موت الشيخوخة . لقد خلقت الكنيسة من قبل اقلية جديدة ظهرت في صفوف البروليتاريا ، وهي اقلية من نوع جديد ، ان تجربة الحياة في

(٢٢) ان استخدام توينبي لكلمة بروليتاريا هو استخدام خاص ، ويعني بها جميع الذين يشعرون بانهم لا ينتمون الى المجتمع الرتبين به عضواً . وتتسم هذه الطبقة بسخطها وبشعورها بخرمانها من المكان الطبيعي و مجتمعتها . وتعيش « البروليتاريا الداخلية » ضمن المجتمع اما « البروليتاريا الخارجية » فتعيش خارجه وان كانت ضمن نطاق اشعاعه . وتظل المجتمعات البربرية ضمن نطاق حضارة معينة وتحت التأثير الروحي لتلك الحضارة ما دامت هذه المجتمعات في حالة نمو . وعندما يبدأ الانهيار تفقد الحضارة سحرها ويصبح البرابرة اعداء لها ويشكلون بروليتاريا خارجية . (ص ح)

(٢٣) كلمة كنيسة عالمية « يعني بها توينبي ديناعاليا ، وليس الاستعمال مقصوراً على الكنيسة المسيحية وحدها » . (ص ح .)

وهاجمه المؤرخ الهولندي بينرجيل ، واتهمه بانتخاب التواهد التي تناسب حجته ، أو بعرض هذه الحجج بالطريقة التي يروق له : ورأى ان نظامه لافائدة منه : فان المفارقات يجب الا يعتمد عليها ، لان لكل واقعه ظروفها التي تحول دون تكرارها بالصورة التي تمت فيها . وسلم جيل بتاعريه بوينبي وغرارة معرفته ولكنه ينكر عليه منهجه التاريخي (٢٥) .

وبعد أن انكر ولش على بوينبي ان يكون مؤرخا في كتابه « **الدراسه** » تساءل هل سيوجد هذا لمن سيفرا « **دراسة للتاريخ** » بعد خمسين سنة ؟ وان كان قد اعترف ولش بفضل بوينبي باحراجة المؤرخين من حظيرة التخصص الضيق الى آفاق أوسع . « ان المؤرخين المحترفين غالبا ما يكونون على حق في نفذه ، ولكن كثيرا منهم بحاجة الى شيء من كبر عقله » (٢٦) .

وبسلكه باتربك جاردنر في عداد فلاسفة التاريخ التأملين في المقال الذي كتبه منه في « **موسوعة الفلسفة** » في المجلد الخامس (١٥١ - ١٥٣) ، وكذلك في مادة « أنظمة تأملية للتاريخ » في المجلد السابع من الموسوعة .

وانكر عليه المؤرخون فرضه قوانينا لتفسير التاريخ تفسيرا حتميا ، وراوا ان هذه القوانين ليست سوى فرضيات حلا لتوينبي ان يختارها ، وقالوا انه اتخذ الحضارة اليونانية الرومانية المعيار الذي قاس به حضارات العالم كلها ، ووضع بوحى من تجربة هذه

الموت ، وان لا تكون مغرطا في ضعفه والا فانه لن يستخلص الاستجابة الفعالة . وهكذا طرح توينبي قانون الوسط الذهبي في مبدأ التحدى والاستجابة . ويظل المجتمع متماسكا ما دام في حالة نمو ، ويتميز بأقلية مبدعة تقود هذا المجتمع ، ونجاحه النحدرات بنجاح ، وتبدأ الحضارة في الانهيار عندما معجز الاقلية المبدعة عن مجابهة التحديات وتحول الى اقلية حاكمة ، ومن ثم لا يعود هناك مثل أعلى تغلده الجماهير ، فتتفرط لذلك وحدة المجتمع .

لقد هاجم المؤرخون بوينبي هجوما سديدا على اختلاف المدارس والمذاهب التي ينتمون اليها ، فالاستاذ الماركسي كوسمنسكي الذي اشترنا اليه فيما سبق - انكر على توينبي ما سماه بالجانب الصوفي - او الخرافي - في فلسفته ، واعتبر توينبي أحد المفكرين الغربيين الذين وضعوا نظما او فلسفات لمحاربة « الاشتراكية العلمية » ، وانكر على توينبي رجوعه الى الاساطير في دعم فلسفته وهو - اى توينبي - الذي يزعم انه انخل لنفسه مبدأ التجريبية في بحثه ودراسته .

وانكر على بوينبي منهجه في اعتبار الافراد العظام ، ولست الشعوب ، القوى الرئيسية المحركة في تطور المجتمع ، وفي ان الصانع الحففي للتاريخ هو الشخصية الفردية المبدعة ، وان تجربة هؤلاء الافراد الداخلية هي مصدر طافهم الابداعية ، سواء اكان هؤلاء الرجال صوفيين ام انبياء ام سعاء ام رجال سياسة ام قادة عسكريين ام مؤرخين ام فلاسفة .

(٢٥) Pieter Geyl, Debates with Historians (Fontana Library, London, 1970).

راجع المصباح ١١٩ ، ١٦٩ ، ١٧٠ . افرج جيل في هذا الكتاب نعي مائة صفحة لمناقشة نظام توينبي .

(٢٦) W. H. Walsh, An Introduction to Philosophy of History (London,

1970) pp. 160-165

العشرين المؤرخ فيشر في مقدمته لكتابه « تاريخ أوروبا » الذى قال - ويتواضع العلماء - انه لم يستطع ان يرى في التاريخ نسقا مطردا ، وان كان قد رأى هذا النسق رجال اكثر منه علما واغزر حكمة . ويناقتس بوينبي رأى فيشر « دراسة للتاريخ » المجلد الخامس ٤١٤ - ٤١٥) ولا يسلم به .

وناصب النقاد اليهود بوينبي العداء ، لمواقفه العادلة من قضية فلسطين ، فمثلا بدا خصام المؤرخ الصهيونى لويس نامير له في عام ١٩٢٩ وكان سبب هذا الخصام كما يرويه توينبي في كتابه (معارف) صفحة ٦٩ - ٧١ :

« وكان خصام لويس معي حول ما كنت اكتبه في مسح دار شامام حول تاريخ فلسطين تحت الانتداب البريطانى، وقد عارض معالجتى لهذا الموضوع الشائك والمثير للجدل ، لانه كان قد اصبح في ذلك الوقت صهيونيا متحمسا ، بينما اصبحت انا اثناء تكتشف الاحداث في فلسطين ازداد شكاً في امكانية نجاح السلطة المتدبيرة في التوفيق بين التزاماتها نحو الفلسطينيين العرب ونحو التزاماتها في فلسطين مع اليهود . وقد خستيت من ان العرب سيلاقون معاملة ظالمة ، ومن ثم جعلت همي التاكيد من ان اسجل في سردى الحقائق التى بدت لى وكأنها تعطى للعرب سببا معقولا للقلق ومن ثم للسخط » . ولم يحفل بوينبي بهذه المعارضة واستمر في موقفه النزيه . ولما صدر الجزء الثامن من كتابه « دراسة للتاريخ » (٢٩٨ - ٣١٣) في عام ١٩٥٤ اذان بشدة وحزم الغرب والصهيونية في جريمتها في

الحضارة قانونا فسر فيه او رسم به مسار الحضارات الاخرى ، وان كان هناك من النقاد من دافع عن توينبي ونفى عنه الحمية (٢٧) . ويرد توينبي على هذا الاتهام بقوله عن نفسه « انه ليس حتميا في قراءاته لالغاز الحياة البشرية . فهو يعتقد انه حيث توجد حياة يوجد أمل ، وان الانسان - بعون الله - سيد مصيره ، او على الاقل الى حد ما في بعض الاعتبارات (٢٨) .

وياخذون على توينبي غيبته ، ويرون فيها ضبابية في التفكير . ونحن نلاحظ ان تأثير الدين عليه لم يكن ضعيفا في يوم من الايام ، وان كان قد زاد في الاجزاء الاربعة التى اصدرها عام ١٩٥٤ ، كما اصدر في عام ١٩٥٦ كتابا بعنوان « سبيل مؤرخ الى الدين » . وفي عام ١٩٥٧ كتابا آخر بعنوان « المسيحية بين اديان العالم » . وهو يردد - وفي اكثر من موضع في كتبه - ان طريق الحضارة الغربية سيؤدى بها الى التهلكة مالم ترجع الى الله نادمة وتائبية .

ان الاديان - في رأى توينبي - قد ولدت من تلاقى او تجابه الحضارات . « ومستقبل البشرية - اذا قدر للبشرية ان يكون لها مستقبل في هذا العالم - هو - كما اعتقد - في هذه الاديان العليا .. وليس في الحضارات التى وفر تلاقياها الغرض ليلاد الاديان العليا « الحضارة على المحك » صفحة (١٤٣ - ١٤٤)

ويرفض توينبي رأى المؤرخين الذين يرون ان كل ما في التاريخ صدفة ، هذا الرأى الذى ولد في اقرن التاسع عشر ، ومير عنه في القرن

(٢٧) Oscar Halecki, " The Validity of Toynbee's Conception of the Prospects of Western Civilization," The Intent of Toynbee's History, p. 202.

Civilization on Trial, p. 38.

نمت في الولايات المتحدة ما بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٣٨ عندما سلبت أراضي السكان الاصليين (لخمس ولايات وبمساعدة الجيش الامريكي) لقد كان هذا الاستعمار الامريكي في القرن التاسع عشر جريمة ، والاستعمار الاسرائيلي الذي ينفذ الان في وقت كتابة هذه السطور (عام ١٩٦٩) هو جريمة ومغارقة تاريخية اخلاقه .

وتحدث عن القضية في كتابه « بين النيجر والنيل Between Neger and Nile » الذي صدر عام ١٩٦٥ (٨٦ - ٩٠) . وكان من آخر ما نشر توينبي حول القضية الفلسطينية حوار جرى بينه وبين الصحفي البريطاني لويس أيكس ونشر في مجلة Palestine Studies دراسات فلسطينية عدد الربيع لعام ١٩٧٣ وكان مما قاله لما سأله ايكس : « هل تعتقد ان بلغور كان اعمى عن رؤية مرامي التصريح ؟ »

توينبي : كلا . لقد كان يفهما . وهناك مذكرة منه الى زملائه في الوزارة يقول فيها : « لا استطيع ان افهم لماذا جعلتم هذا انتداب حرف « أ » ، الذي يعني حق تقرير المصير ، اذ اننا لا ننوي ان نعطي هؤلاء حق تقرير المصير » (وهو يعنى « هؤلاء » الفلسطينيين العرب) . واذن فقد كان يعرف ما يفعل . انني اقولها لك صريحة : لقد كان بلغور رجلا

فلسطين . وقام اليهود والصهاينة يردون على توينبي اما بالدفاع عن الصهيونية واليهود . واما بنحريف آرائه (٢٩) . وجرت بينه وبين السفير الصهيوني ناكوف هيرزوج في كندا في ٣١ يناير ١٩٦١ محاوره انتقد فيها سياسة اسرائيل وتدد بها .

وفي كتابه « **نجاوب** » يتحدث في اكر من موضع عن قضيه فلسطين ، يقول في صفحة (١٣٥ - ١٣٦) :

« لسب اؤمن ان اليهود شعب الله المختار . ان اعتقاد المرء بان قبيلته هي شعب الله المختار هو خطأ القومية . انه خطأ اخلاقي وفكري » . ويدافع في الصفحات من ٢٤٤ الى ٢٦٤ عن حق الفلسطينيين في وطنهم ، ويندد بجريمة اسرائيل ومواقفها اللااخلاقية ، ويقول في موضع آخر من الكتاب (صفحة ٢٦٦) :

« ان الاستعمار الاسرائيلي منذ انشاء دوله اسرائيل هو احد اسوأ حالتين في جميع تاريخ الاستعمار في العصر الحديث ، ويزيد من سنده سواد الصورة تاريخها . ان الصهاينة من اوربا الشرقية يزاولون الاستعمار في فلسطين على شكل طرد السكان العرب المواطنين ، وسلبهم ممتلكاتهم في الوقت الذي ترك فيه الاوروبيون الغربيون حكمهم المؤقت للشعوب غير الاوروبية . . (والصورة الثانية من الاستعمار

(٢٩) من الكلب التي صدرت في هذا المجال كتاب :

M. Samuel, The Professor and the Fossil (New York, A. Knopf, 1956).

وهو رد على اتهام توينبي لليهود بانهم شعب متحجر . ومقالة ابا ايبان بعنوان « هرقة توينبي » (المنشورة في كتاب Toynbee and History) من صفحة ٣٢ - ٣٢٧ .

كما يحتوي هذا الكتاب على مقالة بعنوان « المتحجروالاستاذ » لفرديك روبن من صفحة ٣١٦ - ٣١٩ . ويقول سنرومبيرج في كتابه عن توينبي (صفحة ٥١) « ان دفا كبيرا يمكن ان يعلا بما كتبه اليهود في الهجوم على توينبي .

مشغوله بصورة رئيسيه بواجبات - جردا من الفراغ لاستغلاله في الاقتراب من هدف فكرى بعيد ، وذلك بتعليم أنفسهم كيف تقصدون في وقتهم ، وكيف يخططون له على أحسن وجه في مجرى حياتهم اليومية » (المجلد العاشر صفحة ١٥٣ - ١٥٤) أو ليس من بين هؤلاء الرجال مؤرخنا العظيم الذى يضع في صام ١٩٢١ مخططا لسفره الضخم ، ويظل منصبا على اتجاذه قرابة أربعين عاما ، دون أن ينحرف عن الخطوط الأولى التى وضعها للكتاب ، بل وانه ليشير في المجلدات الأولى الى موضوعات سيتطرق اليها في مجلداته التالية محددا مكانها ، وكان هذه المجلدات تستصدر غذا أو بعد ، وكأنه فرغ لونه من كتابتها . وهو الذى يقول عن نفسه (الاوبرفر اللندنية ١٢ مارس ١٩٧٢) وقد بلغ الثمانين « الآن - فجأة - بدأت الشيخوخة تتطلب منى أن اسرخى » وبدأ يستيقظ في الثامنة والرابع صباحا بدلا من السادسة الا ربعا .

وستنخدع بعض هذه القضايا ، ونمر بها مرا سريعا ، بلا استقصاء أو تفصيل ، ولعل أكثر كتبه تناولت القضايا العامة كتبه « تجارب » ، و « الحضارة على المحك » و « العالم والغرب » « البقاء في المستقبل » (٢٠) « انشغال الإنسان بالموت » (٢١) (شارك توينبى بذلك مادة هذا الكتاب) .

ليس هناك امر ابغض الى نفس توينبى من الحرب ، ومن الغومية باعتبارها سببا رئيسيا من أسباب الحروب . فالحرب عند توينبى هي أم الكبارى ، وهى إحدى أعراض ونتائج فشل الانسان الخلقى ، وقد بدأت مع بداية حضارة الانسان ، ولعلها بدأت عند السومريين ، وقد ولدت الحروب عندما أصبح لدى الانسان فائض من الوقت ومن الطاقة ومن الاناج فوفى ما يحتاجه ليقيم اوده ، « وعندما استطاع أن

شربا . . . كان بلغور يعرف (كل التعبيرات) الفاضلة مثل تعبير وطن قومي - وكانت هذه متمعدة في تصريح بلفور . وكذلك قوله « الحقوق المدنية والدينية » وليست « الحقوق السياسية » للجماعات غير اليهودية الاخرى في فلسطين . انني اعتقد ان كل كلمة قد كتبت بعناية لتكون غامضة . وهذا امر سيء جدا » .

ان موقف توينبى من القضية الفلسطينية تابع من ايمانه بالحق العربى فيها ، ومن كراهيته للحركة الصهيونية المتمثلة في احياء قومية بفيضة لديه ، بل انه يرى ان الصهيونية خيانة لليهودية الحقنة ، ويرى المؤرخ الصهيونى **نامير** في كتابه *Avenues of History* ان كراهية توينبى للصهيونية لا تنطوى على كراهية لليهود ، ويعزو هذه الكراهية الى موقف توينبى المتسامح للاسلام منذ عام ١٩١٩ . ويرى لويس ميفورد ان تناول توينبى لليهود هو « زلته الكبرى » .

وليس من شك في أن محاولة استعراض جميع القضايا الهامة التى تناولها توينبى في كتبه الكثيرة في مقال واحد عمل مستحيل ، فلقد كان اتجاذه غزيرا واهتماماته واسعة ومتشعبة ، وما اظنه وهو يتحدث في المجلد العاشر من كتابه « **دواصة للتاريخ** » عن المفكرين الذين انتجوا كثيرا الا يتحدث عن نفسه :

« النظام - في الحقيقة - هو مفتاح حياة جميع هؤلاء الرجال الناجحين من ذوى العمل الفكرى ، ويظهر هذا في ابلغ صورة في استخدامهم النظم لاوقاتهم . فقد اظهروا مقدرة على المشاركة في متابعة اهداف فكرية طويلة المدى في فترات تبلغ نصف أو ثلاثة ارباع حياتهم العملية العادية ، وفي هذه الانتشاء انتزعوا من الحياة العملية - التى كانت

(٣٠)

Surviving the Future, London, 1971.

(٣١)

Man's Concern with Death, London, 1968

٣٠٤

للاحاساس فحسب ، وانما يجعله متحجر القلب » (انشغال الانسان بالوت ص ١٤٩) .

وطريق الخلاص عند توينبي هو ان نغلب بعدد من التغييرات الاقتصادية والسياسية التى لن يستسيغها الكثيرون ، ومنها خضوع جميع دول العالم لحكومة واحدة لديها القوة لكبح جماح الدول من اللجوء الى الحرب . ومنها توزيع جذرى لخيرات العالم بين الاقطار الفنية ، والاقطار الفقيرة ، بل وتوزيع الخيرات فى البلدان الفنية بين الاكثرية الفنية والاقلية الفقيرة . ويتساءل توينبي : « هل يستطيع اى نظام ان يحقق هذه الاصلاحات الضرورية دون سلطة دكتاتورية مسلحة ؟ » ويعترف بان هذه مسألة سياسية كبيرة تواجهنا الان (**البقاء فى المستقبل** صفحة ١١١) ولكن ليس من المستحيل ايجاد هذه الحكومة بالاتفاق المتبادل دون ان تلجأ اقلية الى فرض حكم دكتاتورى على اكثرية سكان هذا العالم ، نتيجة لما تملكه هذه الاقلية من المعرفة التقنية (**البقاء فى المستقبل** صفحة ١٣٩) . ويتطلع توينبي الى الزمن الذى يصبح فيه كل انسان عضواً فى ثلاث مجتمعات ، فهو عضو فى مجتمع عالمي ، ومواطن فى دولة عالمية ، وهو عضو فى جماعته المحلية ، وهو عضو فى جماعة صغيرة متفرقة فى أرجاء العالم تشاركه فى التفكير وتبادل الراى (**البقاء فى المستقبل** ١٤٣ - ١٤٤) . ويرى توينبي ان هذا المجتمع الفاضل يحتاج حتى يتحقق الى ثورة روحية عالمية (**البقاء فى المستقبل** ص ٦٦) ، كما يحتاج الى تربية جديدة نبذ التعصب القومى ، وتواخى بين الناس (المصدر السابق صفحة ٩٦) ، والى ثقافة عالمية تختار افضل ما فى الثقافات المحلية وتجعله ملكاً مشتركاً لجميع الناس (المصدر السابق صفحة ١٤٩) ، ويمكن ان تستخدم التكنولوجيا لتحقيق بعض هذه الغايات ، كما ان الشباب والاجيال الصاعدة هى التى عقد عليها توينبي آماله فروح الشباب هى روح الكرم والاستعداد للتغيير والمثالية والنزاهة والفتح العقلى ، ومن ثم فهو يطالبهم بتحمل مسئوليتهم التاريخية فى احداث هذا التغيير المنشود ،

بحصل على مايكفيه من قوة التنظيم والادارة والمهنية لتدريب أعداد من الناس على العمل ، متكاتفين لقتل اناس آخرين بشكل منظم ، وكذلك لتكبيف هؤلاء لمحاولة ان يقتلوا (يفتح الباء) والتعرض لان يقتلوا (يضم الباء) دون ان ترتعد فرائصهم من هذه المحنة المزدوجة . واخترعت الحرب لها تقاليداً كان منها الا تستترك المرأة الا فى حالات محدودة فى الحروب ، وان كان ذلك لم يعفها من نتائج الحروب وويلاتها . ومن تقاليد الحروب الزى الذى يتخذ لها ، ويرى توينبي ان هذا الرى « الصبيانى » له وظيفتان الاولى نفسية اذ انه يمثل نقض التحريم العادى لقتل الانسان لايخيه الانسان ليحل محله واجب قتله ، والوظيفة الثانية لتمييز الجنود عن المدنيين . ويلاحظ توينبي ان وسلات الحروب تزداد بالرغم من ادعاء الانسان بانه اكثر مدنية وحضارة من اجداده ، بل ان احساس هذا الانسان وتورته عليها اضعف من ذى قبل ، بل ان اهتمامه بها محدود مالم تكن وسائل العنف فيها جديدة . وعلق توينبي على جرائم الولايات المتحدة فى فيتنام فيقول : « وتشاهد بانتظام فى برامج التلفاز فى الولايات المتحدة اليوم مشاهد من الحياة الواقعية ، حى الجنود يقتلون ويجرحون بعضهم بعضاً فى فيتنام . وقد تعود الاطفال الصغار عليها . وكان يجب ان يكون رد الفعل على هذه المشاهدة المباشرة لوقائع الحرب الشنيعة اصراراً من الامة كلها على ايقاف الحرب فوراً فى فيتنام . ولكنه قيل لى ان مشاهدة وقائع الحرب على شاشة التلفاز بدلا من ان تقرب الناس من هذه الوقائع ، جعلتهم يشعرون انها غير حقيقية ، وذلك لربط العقل الباطن هذه المشاهد التلفازية بالتمثيل وليس بالحياة الحقيقية . فمشاهد المعارك التى ينقلها التلفاز تتحول فى عقول المشاهدين وقلوبهم من واقع الى وهم . فكل طفل يعلم ان القتل عند « الغربيين » غير حقيقى ، ومن هنا يصبح القتل الحقيقى - عندما يقدم كغربى - وكأنه ايضا غير حقيقى ، وهذا لايجعل المشاهد فاقدا

ويرفض توينبي نظرية التفوق العرقي ، ويقول انه ليس هناك اى دليل علمي على ان الفروق الجنسية في لون البشرة مثلا او في شكل الشعر او الانف مرتبطة بالقدرات والصفات . فلعل جميع الاجناس متساوية في نسبة من فيها من عباقرة وبلهاء ومجرمين وقديسين (**تجارب** ص ٢٥٠) . ولا يتردد توينبي في نعته الغرب بانه المعتدي الاول في العصور الحديثة ، وأن الغرب اذا كان قد بدأ يقاسى على يد الامم الاخرى ، فلطالما قاست أمم العالم منه قرونا عديدة (**الحضارة على المحك** ٢٣٥ - ٢٣٧) .

ويتحدث توينبي عن الآثار العميقة التي تنجم عن استعارة شعب من الشعوب للتكنولوجيا الغربية . فيقول ان التكنولوجيا تعمل على سطح الحياة ، ومن ثم يبدو ان من المناسب علميا تبني تكنولوجيا اجنبية دون ان يتعرض (الشعب) لخطر فقدان روحه . ولكن هذا خطأ في التقدير ، اذ ان العناصر المختلفة في اية ثقافة مترابطة ترابطا داخليا ، فاذا هجر الشعب ما لديه من تكنولوجيا ، واصطنع بدلا منها تكنولوجيا اجنبية ، فان اثر التغيير هذا على سطح الحياة التكنولوجية لن يظل محصورا في السطح ، بل سيبدأ في التسرب تدريجيا الى الاعماق حتى تصدع جميع ثقافة هذا الشعب التقليدية وتدخل اليه جميع الثقافة الاجنبية شيئا فشيئا عبر الثغرة التي صنعها اسفنين التكنولوجيا الاجنبية في حصون ثقافة الشعب . ان لكل اطار ثقافي تاريخي وحدته العضوية الكاملة تستند اجزاؤها الى بعضها البعض ، فاذا فصل اى جزء من مكانه فان الجزء المفصول والكل المشوه يسلكان سلوكا مغايرا لسلكهما يوم ان كانا في اطار متماكس . ان دمارا عظيما يمكن ان ينشأ عن نزع فكرة او تنظيم أو أسلوب ، من مواطنها الاصلية وزرعها في بيئة اجتماعية اخرى

وهو يسألهم ان يتحلوا بالصبر وان يجتنبوا اللجوء الى العنف ، وان يقتدوا برجال الاديان الكبرى والفلسفات العظيمة . (المصدر السابق ١٥٢ - ١٥٤) . وهو يعتقد ان الجنس البشرى يواجه اختياريين وكلاهما سيء : الاول افناء نفسه بحرب ذرية ، والثاني - وقد يكون اهُون الشرين - تجنب الحرب بتوحيد العالم تحت حكم ديكتاتوري عالمي ، حيث تخضع فيه اقلية قوية وغنية اكثرية فقيرة ومتاخرة ، ودور الشباب هو في محاولة الخروج من هذا المازق بايجاد وحدة عالمية تمكن الجنس البشرى من البقاء ومن الازدهار دون اضطهاد واستعباد .

وقد تنبأ توينبي في كتابه « **التغير والعادة** » صفحة ١٥٨) بأن الصين وليست الولايات المتحدة او روسيا هي التي ستكون نواة وحدة سياسية على مستوى عالمي ، ويستندها في ذلك وحدتها الداخلية وكثرة عدد سكانها وتاريخها .

ويقف توينبي في كتابه « **العالم والغرب** » عند الوحدة الاسلامية ، ويعيب على الاتراك والعرب وغيرهم من الشعوب الاسلامية ، تبنيهم للقومية الغربية تلك « المتسل الأعلى السياسى الغربى الضيق القلب » رغم ان لهم برائا يجعل من جميع المسلمين اخوة بفضل دينهم المشترك ، بالرغم من اختلاف اجناسهم ولغاتهم واطنائهم . ويرى ان هذا التراث الاسلامي ، الذى يعتبر المسلمين اخوة ، افضل كمثل أعلى في تلبية حاجات العصور الاجتماعية من التراث الغربي الذى ينادى باستقلال عدد من القوميات . ويرجو توينبي ان يتوقف انتشار هذا الوباء السياسى الغربى فى العالم الاسلامي على الاقل - بفضل الشعور الاسلامي التقليدى بالوحدة . (**الحضارة على المحك والعالم الغرب** ٢٥٣ - ٢٥٥) . وتستمرى اهتمام توينبي جامعة الازهر حيث الثقافة الاسلامية الواحدة ، التي تقدم باللغة العربية لجميع الطلاب على اختلاف اجناسهم ولغاتهم (**البقاء في المستقبل** ص ١٧) .

التمييز بين ما هو حقيقي وبين ما هو غير حقيقي ، وأقل حرية في اختيار ما يريد من القارئ ، فهو مكيف (يفتح الياء) لأن يسلم بكل ما تريد المؤسسة التي وراء التلفاز منه أن يسلم به . ويروي أن من الأشياء التي كان بعض الفرنسيين ينكرونها في نظام ديشول أن الحكومة قد احتكرت التلفاز ، ومن ثم فهم لا يستطيعون أن يروا إلا ما يريد ديشول أن يروه ، ومن ثم حرموا من رؤية الواقع بأنفسهم وبالتالي حرموا من أن يقرروا بأنفسهم ما يريدون أن يفعلوه . وقد أوردنا من قبل أثر التلفاز على الجمهور الأمريكي . غير أن توينبي في بحثه عن وسائل لتحقيق الحكومة العالمية يفتن إلى التلفاز فيعتبره أداة قيمة - ولكنه يبعثها - لتحقيق قبول من يكرهون احتمال الخضوع لحكومة ديكتاتورية عالمية ، بل أنه أكثر قيمة في ترويض الجماهير لتقبل النظام الذي يمكن أن تفرضه مثل هذه الحكومة العالمية عليهم . **(البقاء في المستقبل ٧١ - ٧٢ ، ١١٥ - ١١٦)** .

والعقل الإلكتروني لا يقل خطرا عن التلفاز في تحطيم مبدأ « عمله بنفسك » التروبي . لقد خطا العقل الإلكتروني خطوات سريعة في السيطرة على العالم ، بما يقدمه من حلول لمشكلة معالجة الكميات والحجوم ، التي يتسم بها مجتمعنا المعاصر . فهو يستطيع أن يتناول كميات هائلة من المعلومات بسرعة البرق ، ومن ثم يُعدها ويضعها في متناول الإداريين والمدراء والحكومات . بل أنه يستطيع أن ينظم العلاقات البشرية على نطاق هائل ، ولكن ذلك على حساب سلب الإنسان إنسانيته . ويعترف توينبي أنه (وقد بلغ الشكائين) في هذه السن لا يحب التلفاز أو العقل الإلكتروني لانهما يقيدان حرية الإنسان في الاختيار ، ولكنه يعترف بأنه قد يكون متحملا ضد اختراعات جديدة ، وقد يكون باخسا لقيمة هاتين الوسيلتين بالنسبة للمجتمع . **(البقاء في المستقبل ١١٧)** .

نتعارض فيها مع الإطار المحلي التاريخي للحياة الاجتماعية . وإذا أخذ جزء من ثقافة ما ، وأدخل في جسم اجتماعي أجنبي ، فإن هذا الجزء سيسحب وراءه عناصر أخرى من النظام الاجتماعي الذي جاء منه هذا الجزء . **(الحضارة على المحك ، الصفحات ٢٧٠ ، ٢٨٢ و ٢٨٣)** .

ومن الأمثلة الطريفة التي يقدمها توينبي على هذا الغزو الثقافي ، القصة التالية : لما أراد محمد علي أن ينشئ أسطولاً بحرياً قوياً ، رأى أنه لا بد من أن يصنع سفنه بأيدٍ مصرية وفي أحواض مصرية . ومن ثم أعلن عن حاجته إلى خبراء غربيين ، فاشتراط هؤلاء الغربيون احضار عائلاتهم معهم ، كما اشتراطوا توفير رعاية طبية لهم ، ومن ثم تعاقد محمد علي مع عدد من هؤلاء الخبراء الغربيين ، وكذلك مع بعض الأطباء الغربيين . وفي عام ١٨٣٩ أنشئ مستشفى للولادة إلى جانب دار الصناعة البحرية في الإسكندرية ، غير أن علاج هؤلاء الأطباء لم يقتصر على زوجات الموظفين الأجانب ، وإنما امتد ليشمل أيضاً عدداً من السيدات المصريات . وقد لا يكون هذا الأمر مثيراً لنا في الوقت الحاضر ، ولكنه في ذلك الحين كان خروجاً على تقاليد كانت تفصل المرأة فصلالكلها عن أي رجل أجنبي ، ومن ثم كانت له آثاره العميقة على إطار حياة المجتمع المصري التقليدية . (المصدر السابق ٢٨٣ - ٢٨٥) .

ويتحدث توينبي عن آثار التكنولوجيا في العالم وعن تغييرها لكثير من الأنماط التقليدية ، وبعض هذه الآثار قد يكون ضررها أكبر من نفعها . ومن الأمثلة التي يعطيها التلفاز والعقل الإلكتروني وآثارهما السلبية على عملية التربية والتعليم . فشاهدة التلفاز - عند توينبي - نشاط سلبي يعارض مبدأ « عمله بنفسك » وهذا المبدأ هو - في رأيه - أساس التربية ، كما أن المشاهد أقل قدرة على

الاسئلة ليست هى اهم الاسئلة . وبالرغم من ان نجاح العلم والتكنولوجيا كان مدهشا ، الا ان هناك حدودا لما يمكن ان يقدمه الانسان . ان حاجتنا الكبرى هى لتحسين روى فى انفسنا وفى علاقاتنا باخواننا من بنى البشر ، وهذه حاجة لا يمكن ان يلبسها العلم او التكنولوجيا . ان المعروف ان الطبيعة لا تقبل الفراغ المادى ، ومثل هذا يصدق عن الجانب الروحي فى هذا العالم . ان العلم والتكنولوجيا قد يخلقان فراغا روحيا عندما يكذبان الاديان السابقة ، ولكنهما لا يستطيعان ملء هذا الفراغ ، فلا بد من ملء هذا الفراغ باديان من نوع ما . ان الشعور بالتقديس والرهبة غرائز فطرية فى الانسان ، وان الانسان الذى لا يشعر بدينه فى الظروف العادية يشعر بالحاجة اليه عندما يمر بأزمات فى حياته . (**البقاء فى المستقبل** ٤٤ - ٤٥ ، ٤٧) .

ومن الموضوعات الشيقة التي يتطرق لها توينبي ابحاث اكتشاف الفضاء ، وهو لا يشارك التحمسين فى حماسهم لهذه الاكتشافات ، لانه يرى ان اتخاذ اى قرار يحدد بالاولويات هو قرار اخلاقي ، ومن ثم فان اعطاء الاولوية لباحث الفضاء هو قرار اخلاقي ، ولكنه قرار لا يمكن الدفاع عنه لان ابحاث الفضاء اعطيت الاولوية على اطعام واسكان وكساء الغالبية الفقيرة من سكان هذا العالم . ويرى توينبي ان هذه الحاجة الصارخة يجب ان تحتل المركز الاول فى الاستفادة من مصادر البشرية وطاقتها ومهارتها . ثم يقول « واشك فى ان حكومتي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ما كانا ستنفقان على برنامج الفضاء هذه المواد الطائلة النسب انفاقها فعلا عليه لو لم تكونا تنافسان على الارتقاء السياسي والعسكري فوق هذا الكوكب . اننى اعتقد ان المنافسة صيبانية فى حد ذاتها ، وعمل غير اخلاقي فى عصر معظم

لقد مكنت التكنولوجيا الانسان من السيطرة على الطبيعة ، ولكن ذلك جعل منه عبدا لبيئة جديدة مصطنعة ومن صنعه . وهذه البيئة اكثر استبداداً واقل ملائمة ، واكثر ازعاجاً نفسياً من بيئته القديمة ، وهو بهذا الاستبدال أضحي وكأنه قد فتح غطاء صندوق بندوق ، الذى تزعم الاسطورة الاغريقية انه كان مليئاً بكل شروء الدنيا ، وهذا ما نراه من عدم استقرار وعنف وصراع . (**البقاء فى المستقبل** صفحة ٣٠) .

وكان من نتائج هذا التقدم التكنولوجي ان اختل بوازن التزوة فى العالم ، كما لم يخل منله فى اى وقت من الاوقات فى التاريخ . ان اغنى البلدان الصناعية اليوم الولايات المتحدة ، ولكن عشر سكانها وربما خمسه يعيشون عيشة ضنكا ، وحظهم من الرعاية ضئيل . كما ان البلدان التى استغنى جزء من سكانها لا تشكل الا اقلية بين بلدان العالم كله . وما زال ثلاثة ارباع سكان العالم فلاحين ، يعيشون فى مستوى لا يفوق كثيرا مستوى انسان العصر الحجري الحديث . (**البقاء فى المستقبل** صفحة ٢١) . بل ان هذه الاقلية التى اصبحت غنية قد حققت ذلك على حساب فقدانها لحررتها ولسماعاتها . وقد اصبح الانسان سجيناً للانجازات والخطوات التقنية التى خطاها . وانفصل العمل فى حياته عن الحماس له ، ولم يعد يجد فيه ما كان يجد من رضا روى .

وفى محاولة العلم والتكنولوجيا للحلول محل الدين فشلا فى اسعاد الانسان . ان العلم لم يحل فى يوم من الايام محل الدين ، ويعتقد توينبي انه لن يحل محل الدين فى المستقبل ، وذلك لان العلم يتطلب اجوبة محددة ولا تغبل الجدل ، ولكن الاسئلة التى تههم البشر كثيرا جدا لا يمكن ان تجاب اجابة يقينية . ولعل سر نجاح العلم فى الاجابة على اسئلته ان هذه

من الجنس البشرى فوق سطح هذا الكوكب
الى مستوى الاقلية الفنية « (البقاء في المستقبل
١٢٨ - ١٣٩) .

لقد شغل توينبي نفسه بكل ما يهم الانسان،
وانتج انتاجا غزيرا جدا ، تناول فيه جوانب
كثيرة من المعرفة ، وكتب بوحى من مسؤوليته
كمؤرخ وكإنسان .

فتحية لؤرخنا العظيم في عيد ميلاده
الخامس والثمانين الذى يصادف صدور هذا
العدد من مجله عالم الفكر .

الناس فيه فقراء ، وهو عمل اجرامى في زمن
تسلحت فيه الدولتان الكبيرتان المتنافستان
بالاسلحة الذرية . ولهذه الاسباب فأننى لو
كنت حاكما دكتاتوريا لهذا العالم ، ولدى قوة
لا تقاوم - وهذا لحسن الحظ غير محتمل -
لاوقفت جميع برامج الفضاء الحالية فورا .
اننى لن احذف هذه البرامج عن جدول اعمالى،
ولكنى سأعطيهما مكانا متاخرا جدا في قائمة
الاولويات عندى ... ولنؤخر برنامج الفضاء
الى ان نرفع مستوى الاكثرية الساحقة الفقيرة

* * *

مراجع مختارة

اشرنا في المقالة الى عدد من الكتب والمقالات ، وقد رجعنا الى كتب ومقالات لم نشر اليها ومنها :

1. Arnold Toynbee The Impact of the Russian Revolution 1971—1967 (London, 1967).
2. — The Economy of the Western Hemisphere (London, 1962).
3. — America and the World Revolution, (London, 1962).
4. — „Technical Advance and the Morality of Power “, Can We Survive Our Future ? A Symposium edited by G. R. Urban, London, 1971.
5. — Cities on the Move, London, 1970.
6. — East to West, London, 1956.
7. — Between Oxus and Jumna, London, 1961.
8. — Hellenism, London, 1959.

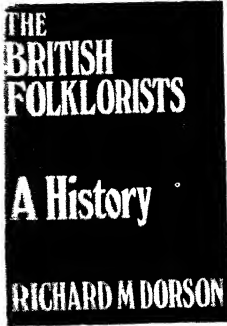
(٩) محاضرات آرنولد توينبي - نص المحاضرات التي القاها آرنولد توينبي للجمعية العربية المتحدة في

ابريل عام ١٩٦٤ .

10. “ The Argument between Arabs and Jews : An Exchange between Arnold Toynbee and J. L. Talmon”. The Israel-Arab Reader edited by Walter Laques, New York 1968 pp. 260-272.
11. H. E. Barnes, An Intellectual and Cultural History of the Western World, Vol. 3, New York, 1965.
12. — (ed.) An Introduction to the History of Sociology, Chicago, 1965.
13. E. H. Carr, What is History, London, 1962.
14. R. G. Collingwood, The Idea of History, London, 1946.
15. Mark Krug, History and the Social Sciences, Walthaw, Mass., 1967.
16. P. W. Martin, Experiments in Depth : A Study of the Works of Jung, Eliot and Toynbee, London, 1955.
17. Ved Mehta, Fly and the Fly-Bottle (Penguin, Middlesex, 1965)
18. George E. Mosse, The Culture of Western Europe ; the Nineteenth & Twentieth Centuries, London, 1963.

(١٩) الدكتور حسين مؤنس « آرنولسد توينبي ونظرية التحدي والاستجابة » مجلة العربي يناير ١٩٧٤ ،

ص ٩٩ - ١٠٥ .



الفولكلوريون البريطانيون دراسة تاريخية

عرض تجليل: الأستاذ صفوت كمال

البريطانيين تناول الأستاذ ريتشارد دورسون تاريخ حركة الفولكلور البريطانية منذ بداية الاهتمام العلمي بمواد المآثورات في العصر الفكتوري إلى الحرب العالمية الأولى . متتبعا في دراسته الجهود العلمية والاهتمامات الادبية بمواد التراث الثقافي الشفاهي للمجتمع باعتبار ان مواد التراث الثقافي الشعبي هي جانب مكمل للدراسة التراث الثقافي لأي مجتمع . .

فدراسة الفولكلور ، كمادة . . وعلم ، ارتبطت في بداياتها بالدراسات التاريخية ،

منذ ان استخدم الأثرى البريطاني **وليام جون تومز** William John Toms (١٨٠٣ - ١٨٨٥) مصطلح فولكلور Folk-lore (١) ليدل على مواد التراث الثقافي الشفاهي . شاع استخدام هذا المصطلح ليدل على المآثورات الشعبية التي تتناقل شفاهة عبر الاجيال ، وتؤثر في أنماط الممارسات اليومية وتوأمين التفكير ، وتشكل حكمة الشعب The Lore of the People .

وفي هذه الدراسة التاريخية للفولكلوريين

* Richard M. Dorson, the British Folklorists A History, Routledge & Kegan Paul, London 1968.

(١) استخدم تومز هذا المصطلح في مقال نشره في مجلة الاثنيوم

The Athenaeum, No. 982 (August 22, 1846), 826—63.

ووقعه باسم مستعار هو امبروز ميرتون Ambrose Merton

التي تحتويها هذه المكتبة ، ثم تابع بعد ذلك زيارته لانتجرا خلال عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٦٣ . ثم عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ - بهدف استكمال جمع مادة هذا الكتاب الذي نشر عام ١٩٦٨ .

الكتاب :

والكتاب يقع في ٥١٨ صفحة من القطع الكبير وينقسم الى أحد عشر فصلا غير المقدمة والخاتمة والفهرس التفصيلي والبليوجرافيا التي تشغل وحدها ١٩ صفحة .

والفصل الاول يخصه المؤلف لمجموعة الاثريين الذين اهتموا بجمع مواد من الأناورات الشعبية وسجلوها في دراساتهم التاريخية عن الحياة القديمة قبل حياة التمدن والمدنية . ومن بين هؤلاء **وليام كامدن** William Camden (١٥٥١ - ١٦٢٣) الذي جمع خلال جولانه العلمية نماذج عديدة من عادات وتقاليده الايرلنديين القدامى ، ومعتقداتهم الشعبية وكذلك بعض الممارسات الطقوسية التي يمارسونها خلال حياتهم اليومية لجلب الحفظ ، او لدرء الشر وكف الحسد .

وبعد وفاة كامدن بثلاث سنوات ولد **جون أوبري** John Aubrey (١٦٢٦ - ١٦٩٧) الذي أكد أهمية الجانب الشفاهي في دراسة التراث ، ونظر الى الناس باعتبارهم مركز حفظ التقاليد وحفظ التراث . وربط أوبري في دراساته اواخر الصلة بين دراسة الموروثات القديمة وعلم التاريخ الطبيعي . كما اهتم بمادات وتقاليده الجنائز والدفن ، من حيث انها اشد العادات احتفاظا بالآثار التقليدية ، كما اهتم بالحكايات الخرافية بما تحمل من تصورات وأوهام قديمة .

والاهتمام بالموروثات القديمة والعادات المتوارثة ، قبل أن ترتبط بدراسة ثقافة التسوب والاهتمام بالاساطير ودراسة العناصر الأسطورية التي عاشت عبر العصور في الممارسات الطقوسية والحكايات الشعبية .

ومؤلف هذا الكتاب ، الاستاذ ريتشارد

دورسون هو أحد أساتذة الفولكلور الأمريكيين المعاصرين ، ممن لهم مكانة علمية دولية . فهو استاذ للتاريخ ، والفولكلور ، ومدير معهد الفولكلور في جامعة انديانا ، الذي يعتبر من أنشط المعاهد العلمية المتخصصة في الدراسات الفولكلورية . كما يشغل الاستاذ دورسون منصب رئيس جمعية الفولكلور الأمريكية ، ونائب رئيس هيئة الاثنولوجي والفولكلور الدولية . كما انه يشرف على سلسلة الكتب التي تنشرها دار روتلج وكيجان بول Routledge & Kegan Paul عن الحكايات الشعبية ، والتي يختص كل عدد منها بدراسة عن حكايات بلد من البلاد . كما يدرس نحت انرافه حاليا عدد من الدارسين العرب الذين يستكملون دراساتهم العليا في الفولكلور .

وقد نشر الاستاذ دورسون في نفس تاريخ صدور هذا الكتاب كتابا آخر يعتبر مكملا لهذا الكتاب يتناول فيه عادات الفلاحين واساطير البدائيين (٢) اقتبس مادته العلمية من دراسات الفولكلوريين البريطانيين الذين تناولهم في دراسته التاريخية هذه عن الفولكلوريين البريطانيين وقد بدأت فكرة تأليف هذا الكتاب كما يقول المؤلف ، في صيف عام ١٩٤٨ حينما زار انتجرا زيارة شخصية لشقيقته التي تقيم في لندن . وفي أثناء زيارته لها زار مكتبة جمعية الفولكلور ، فتعرف على غزارة المادة العلمية

المبرزين في هذه المجموعة حينما نشر عام ١٨٢٥ مجلدا عن الخرافات والحكايات الخيالية والتقاليد في جنوب أيرلندا (٥). وقد صدر هذا الكتاب بدون اسم مؤلفه ولا في نجاحا كبيرا. فطلب الناشر (Murray) من كروكر ان يجمع مادة أخرى من أيرلنده. وفي سنة ١٨٢٨ نشر كتابين آخرين وقد ترجم الاخوان جريم (Wilhelm & Jacob Grimm) هذا العمل الى الألمانية بعد صدوره بعام واحد.. كما ترجم الى الفرنسية أيضا بعد ثلاث سنوات. وقد كتب وليهام جريم خطابا رقيقا الى كروكر وجهه الى « الرجل صاحب المجموعة القيمة من الحكايات والاساطير الأيرلندية ، الذي شغلنا بعمله عدة شهور ... » وتابع **كروكر** جمع الحكايات والاساطير الأيرلندية ولكن **توماس كيتلي** " Thomas Keightley " (١٧٨٩ - ١٨٧٢) انتقد عمله فقد افترض ان بعض الحكايات التي اوردتها كروكر هي حكايات مزيفة غير أصيلة مما اضطر كروكر بعد ذلك الى اختصار الحكايات التي نشرها من خمسين حكاية خرافية الى أربعين . وتعاون مع كيتلي Keightley في جمع ودراسة الاساطير والحكايات الخرافية . وأصدر كيتلي كتابين هامين هما الاساطير الخيالية (١٨٢٦) ، وحكايات وروايات شعبية (١٨٣٤) The Fairy Tales and Popular Fictions و Mythology ثم تحدث المؤلف بعد عرض جهود كروكر وكيتلي عن **فرانسيس دوس** Francis Douce الذي كان ، رغم انتاجه (١٧٥٧ - ١٨٤٣) الذي كان ، رغم انتاجه

وقبل وفاة اوبري بثلاث سنوات ولد هنري **بورن** Henry Borne (١٦٩٤ - ١٧٣٣) الذي اهتم ايضا بحياة الناس العاديين وما تتضمنه من موروثات ثقافية (٦) وعاداتهم وتقاليدهم بجانب اهتمامه الاصلى بالتاريخ ، ويتابع المؤلف في هذا **الفصل الاول** من كتابه ذكر جهود هذا الجيل من الرواد الذين اهتموا بالتقاليد الشعبية والمتوارثة بين الناس مثل **جون براند** John Brand (١٧٤٤ - ١٨٠٦) الذي اهتم بالأعراف السائدة في التجارة وتقاليد البيع والشراء والعادات ، وطقوس الحصاد التي وضع لها **جيمس فريزر** James Frazer فيما بعد نظرية خاصة عنها في كتابه **الفنن الذهبى** The Golden Bough .

وقد جمع براند مادة غزيرة ، اوضحت الكثير من جوانب الحياة البريطانية. كما اوضح المؤلف جهود **فرانسيس جروس** (١٧٣١ - ١٧٩١) Francis Grose واهتمامه باللهجات الشعبية (٧) ودراساته عن تاريخ الجيش البريطاني وتاريخ إنجلترا وويلز وكذلك عن اسكتلندا وأيرلنده .. كما ذكر المؤلف الباحثين الآخرين الذين اهتموا بجمع مواد الحياة القديمة وذكريات الأسلاف والموروثات الباقية من عصور سابقة وما زالت حية في الحياة اليومية يمارسها الناس تلقائيا ..

وفي الفصل الثاني ، قدم المؤلف مجموعة أخرى من جامعي الموروثات القديمة الفولكلوريين **توماس كروفتون كروكر** Thomas Crofton Croker (١٧٩٨ - ١٨٥٤) أحد الاعلام

- (٢) Henry Borne, *Antiquitates Vulgares, or the Antiquities of the Common People* (Newcastle : J. White, 1725).
- (٤) Francis Grose, *A Provincial Glossary*, London, 1970.
- Francis Grose, *A Classical Dictionary of the Vulgar Tongue* (1785)
- (٥) *Fairy Legends and Traditions of the South of Ireland*, (John Murray, 1825).

للكتبات العامة ، وعددا من الكتب عن الاغانى القصصية ، والنوادر ، والمعتقدات الخيالية . كما نشر دراسة أعدها لجمعية شكسبير سنة ١٨٤٥ عن التصورات الاسطورية في حلم ليلة صيف *Illustrations of the Fairy Mythology of Midsummer Night's Dream* والتي أورد فيها ٣٩ فقرة مقتطفة من الاداب الشعبية الشائعة في عصر شكسبير او سابقة له .

وفي نهاية هذا الفصل الذي افردته الاستاد **دورسون** عن الاثرين الفولكلوريين ، قدم لنا عالم الآثار الانجليزى **وليام جون تومز** *William John Thoms* (١٨٠٣ - ١٨٨٥) صاحب مصطلح الفولكلور ، والذي فرق فيه بين الموضوعات التى يتناولها المؤرخون بالدراسة من حياة الشعوب . . فقد اهتم وليام تومز بالخرافات والمعتقدات وما تتضمنه الاغنيات الشعبية واغانى الاطفال من عناصر اسطورية ومعتقدات خرافية . كما ان باب « ملاحظات واستفسارات » الذى اشرف عليه لمدة خمسة وعشرين عاما في مجلة الاينينيوم (٩) كان له اهميته في جمع مواد فولكلورية مفيدة للدارسين ، كما ساعد على نشر مصطلح *Folklore* .

وجهود تومز العلمية كان لها اكبر الابر في تنمية وتنشيط حركة الفولكلور العلمية والاهتمام بالمأثورات الشعبية ، داخل انجلترا وخارجها . . حتى اصبح الفولكلور علما قائما بذاته له مادة دراسته ، وطرق ومناهج بحثه العلمية مستقلا عن العلوم الانسانية التى ارتبط

القليل ، مرشدا لكثير من الدارسين ، فمعلوماته الموسوعية الغزيرة ساعدت كثيرا من الباحثين في التعرف على مصادر مواد بحوثهم . كما ان ملاحظات دوس على اعمال شكسبير كانت لها أهمية بالغة في القضاء الضوء على المؤثرات الثقافية التقليدية التى تار بها شكسبير في اعماله (٦) . كما يعتبر دوس من اوائل الذين اهتموا برمزية الرقص الشعبي ودلالاته الفولكلورية .

بعد فرانسيس دوس تناول المؤلف حياة واعمال **توماس رايت** *Thomas Wright* (١٨١٠ - ١٨٧٧) الذى يعتبر واحدا من الثقات في ادب العصور الوسطى ومن شاركوا العالمين الالمانيين الاخيرين جريم ، يعقوب (١٧٨٥ - ١٨٦٣) وويلهيلم (١٧٨٦ - ١٨٥٩) في اهتماماتهما بالتقاليد والاداب الشعبية .

واهم اعمال رايت ، كتابه عن موضوعات ترتبط بالادب والخرافات الشعبية ، وتاريخ انجلترا في العصور الوسطى (٧) . . الذى يتناول في حوالى ٢٠ مقالا من مقالته التقاليد الشعبية الشائعة في ذلك الوقت ورددها الى اصولها التاريخية التى ترجع الى القرنين الثانى والثالث عشر .

كما له غير ذلك عديد من المؤلفات ذكرها الكاتب وعرض لها في ايجاز .

ومن الذين تعاونوا مع رايت جيمس أورشارد هاليويل فيليبس *James Orchard Halliwell Phillipps* الذى اهتم بجمع اغاني تهنين الاطفال (٨) كما نشر قاموسا

Illustrations of Shakespeare, and of Ancient Manners.

(٦) -

Thomas Wright, Essays on Subjects Connected with the Literature, Popular Superstitions, and History of England in the Middle Ages, London : John Russell Smith, 1846.

(٧)

James Orchard Halliwell, The Nursery Rhymes of England, 4th edition (London : John Russell Smith, 1846).

(٨)

(٩) مجلة اسبوعية تختص بالاداب والعلوم والفنون .

أوروبا كما ساعدت دراسات الأخوين جريم في ألمانيا على نشر الاهتمام بالمووروثات الثقافية والأدب الشعبي ، وشاعت هذه الحركة الأدبية الرومانسية القومية في كثير من البلدان وبخاصة في ألمانيا والنرويج وفنلندا والمجر والصرب .. ومن الشعراء الذين اهتموا بالأغاني الشعبية وجمعها **يوهان جوتفريدفون هيردر** Johann Gottfried Von Herder .

هذا الاتجاه الرومانسي أثر على الاتجاه العقلي والمنهج الوضعي في مناهج البحث ، فأنجبه الاهتمام العلمى بالمواد الفولكلورية وجهة أدبية ، كما أن ظهور مجموعات من الحكايات الشعبية وخاصة مجموعة الحكايات التي جمعها الأخوان جريم ، أثرت في اتجاه الكتاب الروائيين من **أوفيد** Ovid الى **بوكاتشيو** Boccaccio (١٠) كما أثار هذا الاتجاه اتجاهها آخراً فرعياً أعطى لجامع الحكايات الشعبية حق إعادة صياغة المادة الشفاهية بأسلوبه الشخصي .

مع هذا الاتجاه ظهرت مجموعة من الأدباء الذين يهتمون بالتراث الشعبي الذين يسميهم دورسون الفولكلوريين الأدباء The Literary Folklorists ، مثل **روبرت سوزي** Robert Southy (١٧٧٤ - ١٨٤٣) و **الروائية أنسا براى** Anna Eliza Bray (١٧٩٠ - ١٨٨٣) التي كتب لها **سوزي** في إحدى رسائله قائلاً ، انه كان يود ان يحفظ كل ما كان يرويهِ أقاربه المسنون من ذكريات عن حياتهم وتقاليدهم ، وما كانوا يقصونه من قصص وسواف عن أقاربهم وأسلافهم ، تصف حياتهم القديمة وعاداتهم ، وما كان شائعاً في زمانهم السابق والأزمان التي سبقتهم .

بها في بداياته .. مثل علم التاريخ .. وعلم دراسة الانسان .. وعلم الاجتماع . وان كان مازال وثيق الصلة بطرق ومناهج بحث علم الانولوجيا والدراسات الميدانية الانوجرافية .

ولا يذكر مصطلح فولكلور في أى لغة الا ويذكر اسم تومز ، كما يرجع لتومز فضل تأسيس جمعية الفولكلور الانجليزية التي تعتبر من أقدم الجمعيات الفولكلورية في العالم .. ودوريتها التي أصدرتها في أول عام من تكوينها ١٨٧٨ مازالت تصدر للآن وتعتبر مرجعاً علمياً للدارسين والباحثين الفولكلوريين .

ومنذ تكوين هذه الجمعية Folklore Society وصدور دوريتها Folklore ١٨٧٨ اخذ مصطلح فولكلور ينتشر الى ان أصبح مصطلحاً علمياً عالمياً متعارف على دلالة العلمية ومادته .

وفي الفصل الثالث يتناول المؤلف مجموعة أخرى من رواد الحركة الفولكلورية البريطانية .. يسميهم الفولكلوريين الأدباء .. ففى أوائل القرن التاسع عشر حينما أخذت روح الاهتمام بالتراث الشعبي تنتشر أخذ الرومانسيون أيضاً ، وخاصة الشعراء ، بحكم اهتمامهم وميلهم وحبهم لحياة الريف وبساطة النظرة الطبيعية ، يتجهون أيضاً الى إبداع الفلاحين البسطاء ، ويهتمون بأغانيهم وفنونهم وعاداتهم وتقاليدهم التي توارثوها .. وأهتم الشعراء الرومانسيون مثل وردزورث Wordsworth وكوليردج Coleridge بالحياة الريفية .

هذا الاتجاه الرومانسي الذى ارتبط في نفس الوقت بالروح القومية ، شاع في مختلف بلدان

(١٠) لم يشر المؤلف الى اثر حركة ترجمة التراث العربى مثل الف ليلة وليلة والمقامات في هذا الاتجاه الرومانسي وخاصة عند بوكاتشيو في عمله Decameron وكانديد Candid لقتلوي وظهر في الرواية السمي اصطلاحاً Novels Picaresque .

من بين مجموعة الفولكلوريين الاسكتلنديين الذي اشار اليهم **دورسون** في هذا الفصل من كتابه ، هـ . **ميل** Hugh Miller (١٨٠٢ - ١٨٥٦) الذي لم يكن مجرد جامع او مسجل للسوالف والعادات ، بل كان يتمتع بقدرة كبيرة على تمثيل هذه المأثورات الشعبية ، وقدرة ملاحظة واستيعاب لكل ما يحوطه من موروثات نغافية قديمة ، وقد نشر دراسات عن الخرافات الشائعة في شمال اسكتلندا Scenes and legends of the North of Scotland (١٨٣٥) كما نشر ترجمة ذاتية لحياته .

ومن بين هذه المجموعة من جامعي المأثورات القديمة الباحثة **آن جرانت** Anne MacVicar Grant (١٧٥٥ - ١٨٣٨) التي أصدرت دراسة عن الخرافات الشعبية في مرتفعات اسكتلندا Essays on the Superstitions of the Highlanders of Scotland و **وليام جرانت ستيوات** (١١) .

وليام جون جراهام دالييل John Graham Dalyell (١٧٧٥ - ١٨٥١) الذي اهتم بجمع الخرافات الشعبية من الكنب القديمة والمخطوطات وكذلك ممن خلال الممارسات اليومية .

The Darker Superstitious of Scotland
Illustrated from History and Practice (1834)



وبعد ان تناول المؤلف في هذا الفصل من كتابه أعمال أهم الفولكلوريين الاسكتلنديين مع برحمة موجزة لحياتهم واهتماماتهم قدم في **الفصل الخامس** جماعة الفولكلوريين الذين

وقد أصدرت السيدة **براى** كتابا من ثلاثة أجزاء (١٨٣٦) اشتهر بعد ذلك (١٨٧٦) بعنوان The Borders of the Tamar and the Tavy يتضمن وصفا للتاريخ الطبيعي والصادات وأنماط السلوك والخرافات والموروثات الثقافية في ديفونشير Devonshire مع ترجمة بعض الشخصيات الهامة الفاطنة هذه المنطقة التي تقع بالقرب من تاماروتاقى .

هذا الاتجاه الأدبي ، في رصد الظواهر الفولكلورية استمر عند **جون روبى** John Roby (١٧٩٣ - ١٨٥٠) الذي وضع ١٨٢٩ كتابا عن تقاليد لانكشير Lancashire (١١) ، وغير ذلك من مجموعات قصصية ، كما سار **صمويل لفسر** Samuel Lover (١٧٩٧ - ١٨٦٨) على نهج خطى روبى ، وأصدر مجموعات من القصص الشعبي الإيرلندي .

أما الفصل الرابع من الكتاب : فيخصه المؤلف للفولكلوريين الاسكتلنديين الأوائل مثل **والتر سكوت** Walter Scott (١٧٧١ - ١٨٣٢) الذي اهتم بالمعتقدات الخرافية والأسباح وأنواع الجنيات وشخصيات الساحرات التي ترد في الحكايات والمعتقدات الشعبية . كما اشترك **الآن كنجهام** Allan Cunningham مع سكوت في دراسة الخرافات الشعبية وجمع الأشعار الشعبية ، وعلى نهج سكوت سار أيضا **روبرت تشامبرز** Robert Chambers (١٨٠٢ - ١٨٧١) الذي جمع مادة عن التراث الثقافي في ادنبرج Traditions of Edinburgh (١٨٢٤) وكذلك أشعارا غنائية من اسكتلندا Popular Rhymes of Scotland (١٨٢٦) وحكايات ونوادر اسكتلندية (١٨٣٢) .

(١١) John Roby, Popular Traditions of Lancashire, 3 Vols. (3rd edition, London, Henry G. Bohn, 1843.

(١٢) Stewart, William Grant, The Popular Superstitions and Festive Amusements of the Highlanders of Scotland (1823).

بوعى أكبر إلى ما وعد إليهم من شواطئ الفرات والتيل (١٢) وكما حاول مولر أن يبين الصلة بين آلهة اليونان وآلهة الهند كما ورد في نصوص الفيدا ، فقد حاول براون المتخصص في التراث المصري والآشوري أن يربط اليونان بثقافة وأساطير الشرق الأدنى .

والواقع أن المدرسة الأسطورية في الفولكلور لعبت دورا كبيرا في موضوعات الدراسات الفولكلورية ، وأوجدت نوعا من العلاقة بين دراسة الحكايات الشعبية والخرافية منها بخاصة والأساطير . فكثير من الحكايات الشعبية تحمل في مكوناتها عناصر أسطورية ، كما تداخلت عناصر من الأساطير والتصور الأسطوري مع بعض عناصر المعتقدات الدينية . ورغم الاستقلال العلمى الذى يتميز به علم الفولكلور - حاليا - يوجد صلة وطيدة بين علم الأساطير ومباحث الحكايات الشعبية والممارسات الطقوسية . فالباحث الفولكلورى يجد نفسه دائما في حاجة إلى معونة تفسيرات علماء الأساطير (١٤) مثل حاجته إلى معونة الدراسات الأنثولوجية . (١٥)

وكما طالب مولر دارسى الأساطير بمعرفة السنسكريتية ، وطالب لانج دراسة الأنثولوجى ، فإن براون طالب بضرورة أن يتعرف الدارسون للأساطير على آخر الدراسات عن الحضارات الكلدانية والآشورية والفينيقية والعربية والفارسية ، والمصرية . فالتقافات

اهتموا بالجانب الأسطوري في التراث الشعبى . وهو في تتبعه التاريخى لمختلف المراحل التى مرت بها حركة الفولكلور البريطانية يتابع في نفس الوقت الاتجاهات العلمية التى ساعدت على تحديد مفهوم الفولكلور .

ومن أهم اعلام المدرسة الفولكلورية الأسطورية **ماكس مولر** Max Müller و **لانج** Andrew Lang وقد ولد مولر في ألمانيا عام ١٨٢٣ ، ثم انتقل إلى إنجلترا ١٨٤٦ . وعمل استاذاً في جامعة أكسفورد منذ ١٨٤٦ إلى أن مات سنة ١٩٠٠ . ودراسات مولر في علم الأساطير الفارن، وتاريخ الادب والمعتقدات عديدة . وعرض المؤلف لأعمال مولر العديدة في إيجاز . ونظرياته التى وضعها عن الأساطير الهندية واليونانية والأساطير الهند - أوروبية . كما عرض المؤلف للنقد الذى وجهه مولر للأنج ، وكذلك نقد لانج لمولر . . كما تناول في هذا الفصل علماء الأساطير الآخرين المعاصرين لكل من مولر ولانج مثل العالم الألمانى **ادلبرت كون** Adalbert Kuhn و **ويليام جل** William Gill و **ولتر كيللى** Walter K. Kelly وغيرهم من أسابده علم الأساطير مثل **روبرت براون** «الصغير» Robert Brown ، « Junior » (١٨٤٤ - ١٩١٢) الذى بين أنس التقافات السامية القديمة على الأساطير الهلينية الدينية . وقد أشار براون إلى أنه يجب على هؤلاء المشغولين بميدان الدراسات الآرية أن ينهوا

(١٢) Robert Brown, The Great Dionysiac Myth, 2 Vols. (London 1877 — 78) (١٣) 1—162.

(١٤) راجع ، الدكتور عبد الحميد بونس ، الفولكلور والأنثولوجيا ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، إبريل - مايو - يونيو ١٩٧٢ ، الكويت ، ص ١٥ - ٥٤ .

(١٥) Smith Thompson, Advances in Folklore Studies, in Anthropology Today, An Encyclopedic Inventory, The University of Chicago Press, 1953.

انظر ترجمة هذه الدراسة (التقدم في دراسات الفولكلور) للكاتب - مجلة « المجلد » القاهرة - سبتمبر ١٩٦٤ .

السامية الاسيوية قد اضافت آلهة عديدة الى آلهة اليونان القديمة التي كان اصلها هنديا آريا (١١) .

ثم في **الفصل السادس** يتناول المؤلف الفولكلوريين الذين اهتموا بالحياة البدائية . ورائد هذه الجماعة هو **ادوارد برنت تايلور** Edward Burnet Taylor الذي يعتبر ابا لعلم الانسان Anthropology وعربا Godfathre مدرسة الفولكلوريين الانثروبولوجيين . فدراسات تايلور الرائدة عن التاريخ المبكر للانسان : (١٨٦٥) *Researches into the Early History of Mankind* اوجدت الحد بين الفولكلور وعلم الاساطير . كما ان تايلور وضع تعريفا او تفسيراً جديدا للفولكلور بمعنى « الثقافة الحية » وقد استلهم هذا التعريف من ملاحظاته ودراساته لثقافة الشعوب البدائية .

وقد عرض المؤلف اعمال تايلور ونظرياته بتوسع اكثر من غيره من العلماء ، نظراً لأهمية تايلور في تحديد المفهوم الثقافي للفولكلور . . كما اوضح جهود الذين عاونوا تايلور في دراساته مثل **جون لوبوك** John Lobbock الذي نشر عام ١٨٦٥ كتاباً نفذ فور صدوره *Pre Historic Times, as Illustrated by Ancient Remains and the Manners and Customs of Modern Savages.*

وفي **الفصل السابع** ، يقدم المؤلف المجموعة العظيمة من الفولكلوريين مثل اندرولانج (١٨٤٤ - ١٩١٢) أحد اعلام المدرسة الفولكلورية الاسطورية التي سبق الإشارة الى جهوده مع ماكس مولر في دراسة

الاساطير والذي حدد مناهج البحث الفولكلورية في كتابه الذي تضمن مقالات عن العادة والاسطورة Custom and Myth (١٨٨٤) . وقد تناول الاستاذ دورسون حياة واعمال اندرولانج لا باعتباره عالماً من علماء الانثروبولوجيا بل كعالم اتنروبولوجي فولكلوري ، وكذلك موقف لانج من الحكايات والقصص الخيالية . كما ان اهتمام لانج بالحكايات والقصص الشعبية قد وجه تفكيره نحو « دراسة الطابع القومي في الحكايات الشعبية » ، كما انه رفض فكرة تبعية الفولكلور للدراسات اللغوية ، وربط الفولكلور بالدراسات الانثولوجية (١٧) .

اما اول من نادى بأن الفولكلور هو علم قائم بذاته فهو **جورج لورانس جوم** George Laurence Gomme (١٨٥٣-١٩١٦) الذي يعتبر الرجل المنظم لمجموعة الفولكلوريين الانجليز ، والذي لعب دوراً فعالاً في نشاط جمعية الفولكلور الانجليزية ، ونشر عدة دراسات عن تاريخ لندن . وهو الذي نبه الى ان الحكايات الشعبية تحتوى على عناصر تاريخية ، وعناصر اسطورية ، كما تتضمن الحكايات ايضاً نماذج من النظم السياسية البدائية . كما اصدر دراسات عن الامثال والعادات والتقاليد. وحث جمعية الفولكلور على المشاركة في جمع مواد المأثورات الشعبية ونشرها . . واول كتاب اصدره عن الفولكلور كان عن المجالس التي تعقد خارج البيت في بريطانيا (١٨) .

ومن العلماء الذين شاركوا بجهودهم في جمعية الفولكلور الانجليزية **الفردنت** Alfred Nutt (١٨٥٦ - ١٩١٢) فهو بجانب انه

Robert Brown, op, cit 1. Vi ; II 334.

(١٦)

(١٧) في ٢١٧ من الكتاب .

Primitive Folk-Moots, or Open Air Assemblies in Britain, London 1880.

(١٨)

1. Ethnology in Folklore 1892)

ومن مؤلفاته ايضاً :

2. Folklore as an Historical Science (1908).

أولا : المعتقدات الخرافية والممارسات
الطفوسية والسحر .

ثانيا : الاحتفالات التقليدية والألعاب .

ثالثا : المرويات التقليدية وتتضمن الحكايات
الشعبية وقصص الإبطال وحكايات الحيوان
والقصص الفنائية .

رابعا : الأقوال السائرة وتحتوى على أغاني
نهين الاطفال والأمثال والالفاظ والأسماء
المستعارة .

وقسم هذه الاقسام الى اقسام فرعية ،
كما احتوى الكتاب على ٧٨٤ سؤال حول هذه
الموضوعات تساعد الجامع على جمع مادة بحثه
بدقة وترتيب ، كما تضمن الكتاب فصلا عن
تعريف الفولكلور « الفولكلور ما هو » ،
و « السبيل الى جمع الفولكلور » و « العمل
في المكتبة » . وقد أثمر هذا الكتاب في تكوين
مجموعة من الباحثين الميدانيين ، الذين جمعوا
موادا من المانورات الشعبية الشعبية جمعوا
أكثر منهجية . . وقد أورد الأستاذ دورسون
في هذا الفصل قائمة بأسماء هؤلاء الباحثين
الميدانيين وأعمالهم (٢٠) . وتحدث عن بعض
هذه الاعمال بإيجاز بنفس الطريقة التي
انتهجها في مختلف فصول هذا الكتاب في
عرضه التاريخي لتطور حركة الفولكلور
البريطانية ومؤثراتها وتأثيرها بحركات
الفولكلور في بلدان أخرى وخاصة في ألمانيا .

ثم في الفصل قبل الأخير تناول المؤلف حركة
الفولكلور عبر البحار . . والفولكلوريين الذين

أحد العلماء الاتنولوجيين العظام ، ينضم أيضا
الى جماعة الفولكلوريين العظام الذين دفعوا
بحركة الفولكلور الى مجالها المتميز في
الدراسات الإنسانية . . وقد تناول المؤلف
أعمال هذه الجماعة العظيمة The Great
Team of Folklorists الذين تعاونوا معا
في الكشف عن الموروث الثقافي الانساني وبلورة
الدراسات الفولكلورية مثل **هارتلاند**
Edwin Sidney Hartland (١٨٤٨ - ١٩٢٧)
و**ادوارد كلود** Edward Clodd (١٨٤٠ -
١٩٣٠) و**وليام كلوستون** William Alexander
Clouston (١٨٤٣ - ١٨٩٦) الذي نشر
مجموعة من الاسعار العربية سنة ١٨٨١ (١٩)
وقصة سندباد .

كما تناول المؤلف حياة وأعمال غير هؤلاء من
الفولكلوريين الرواد ، واعضاء جمعية الفولكلور
الانجليزية .

وقد خصص المؤلف **الفصل الثامن** من كتابه
لعرض جهود هذه الجمعية وما ناولته من
دراسات ، ودورها التي مازالت تصدر الآن
ربع سنوية تتضمن دراسات فولكلورية .

بعد ذلك تناول المؤلف عمليات الجمع
الميداني التي قام بها الباحثون الفولكلوريون
في الأرباب . والتي يرجع الى **جوم** Gomme
فضل الريادة في وضع الأساس المنهجي لها
حينما أصدر كتاب « دليل الفولكلور »
Hand Book of Folklore لجمعية الفولكلور
عام ١٨٩٠ . وتعاون معه مجموعة من الباحثين
الفولكلوريين . وقد أوضح جوم في هذا الكتاب
الموضوعات التي تتكون منها المانورات الحية
التي تسمى Folklore والتي تقسم الى :

وفي الواقع ان هذا الكتاب رغم غزارة مادته وتنوعها قد قدمه المؤلف في أسلوب ونهج واضحين .. كما ان المنهج الذي اتبعه في وضع كتابه يعتبر نموذجاً يحتذى به في تاريخ حركة الفولكلور العربية .. في مختلف اقطار الوطن العربي . فرغم ان حركة الفولكلور العربية لم تنخد شكلها الرسمي تحت هذا المصطلح الا في بداية النصف الثاني من هذا القرن ، فان الجهود العلمية العديدة والمتنوعة لجمع مواد التراث الشفاهي العربي امتدت في عمر الزمان الى عشر قرون خلت حينما سجل الرحالة والمؤرخون العرب مشاهداتهم عن الحياة اليومية للمجتمع العربي ، وانماط السلوك والاعراف الشائعة والعادات والتقاليد بجانب رصدتهم لمختلف الظواهر الفنية في مختلف العصور .

والاستاذ **دورسون** بطبيعة تكوينه العلمى كاستاذ للتاريخ .. واستاذ للفولكلور قد امكنه بطواعية شديدة وضع تاريخ دقيق وواضح لحركة الفولكلور البريطانية ، كما حدد في نفس الوقت التطور العلمى لعلم الفولكلور كمادة ، وموضوع بحث .

جمعوا مادتهم من الدول التي استعمرتها الامبراطورية البريطانية .. في الهند وافريقيا .. وكذلك لحركة الفولكلور في أوروبا والمواد التي جمعت منها ..

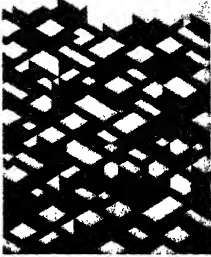
ثم في **الفصل الحادي عشر والاخير** ، تناول الفولكلوريين الكلتيين The Celtic Folklorists واستهل حديثه في هذا الفصل بمباردة للفردنت قالها عن **كامبل** J. F. Campbell الذي تعلم منه الفردنت حب التراث الكلتى .

وتناول المؤلف الحركة الفولكلورية في اسكتلندة وايرلندة ثم اختتم كتابه بخاتمة مختصرة عن اثر الحرب العالمية الاولى في توقف النمو الطبيعى لهذه الجهود العلمية .. ففى ١٩١٤ توفى اندرو لانج والفردنت وجيمس وهاجر جوزيف يعقوب الى امريكا احد مؤسسى جمعية الفولكلور ، وساد الاهتمام بالدراسات الانثروبولوجية اكثر من الاهتمام بالفولكلور ..

ولكن منذ اوائل الخمسينات في هذا القرن بدأ الاهتمام الجاد بالانثورات الشعبية يظهر من جديد وبشكل اكادemy .. وصدرت عدة دراسات عن اغاني الاطفال وعن الحكايات الشعبية .

URBAN POLITICS

Murray S. Stedman, Jr.



السياسة الحضرية

عرض تحليلي: الدكتور عبد الله سيدي محمد

اختلاف تخصصاتهم - إلى دراسة ظواهر الحياة السائدة في المجتمعات الحضرية ، والكشف عن المشكلات التي تواجهها ، والوقوف على الصلات التي تقوم بينها وبين غيرها من المجتمعات المحلية في إطار المجتمع القومي العام .

والكتاب الذي نعرض له في هذا المجال واحد من الكتب التي تتخذ من المجتمع الحضري ميداناً للدراسة ، وتجعل من النظام السياسي موضوعاً للبحث ، فيناقش المؤلف الأسس النظرية لفلسفة الحكم في الولايات المتحدة ، والمبادئ العامة التي تركز عليها الديموقراطية الأمريكية ، ويركز على مبدئين أساسيين هما : مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلي ، ومبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء إلى أي منها من غير قهر أو إكراه ، ثم يعالج قضايا الديموقراطية في مجال التطبيق العملي ،

تميز العصر الحديث بزيادة عدد المدن في العالم ، ونموها مساحة وسكاناً ، ووصول كثير منها إلى مرتبة المدينة المتروبوليتانية (المائة ألفية) ، ثم المدينة العملاقة التي تضم عدة ملايين من البشر ، وقد ترتب على ذلك نمو التجمعات الحضرية الكبيرة بصورة لم تكن عاروفة من قبل ، وزيادة معدل التحضر ، وانتشار الحضرية كاسلوب للحياة ، ونمط للمعيشة يؤثر في سلوك الناس وتفكيرهم ، ويطبعمهم بطابع خاص متميز .

ولما كانت عملية التحضر في المجتمعات المختلفة تصاحبها تغيرات في البناء الاجتماعي ، وتنشأ عنها أنماط مستحدثة ، وقيم اجتماعية جديدة ، وترتبط بها مشكلات اقتصادية وسياسية واجتماعية وحضارية متعددة ، فقد اتجهت جهود الباحثين والمفكرين - على

فيه الاقتصاد القومي يعتمد على الانتاج الزراعى ، كانت الولايات المتحدة تنقسم الى مناطق لزراعة القطن والذرة والقمح ، وكانت اعداد كبيرة من السكان نشغول فى الزراعة أو فى الاعمال الاستخراجية البسيطة ، غير انه بعد حدوث الثورة الحضرية ، ونمو المراكز الصناعية ، ظهرت وحدات ايكولوجية جديدة ، ووجدت طبقات جديدة لم تكن معروفة من قبل ، واصبح العمال ينتظمون فى نقابات تدافع عن مصالحهم المشتركة بغض النظر عن المناطق الجغرافية التى يعملون فيها ، كما تغير الاساس الطبقي للتنظيمات السياسية ، فاصبحت الاحزاب تعتمد على تأييد فئات جديدة غير الفئات التى كانت تساندها من قبل ، وليس ادل على ذلك من ان الحزب الديموقراطى اصبح يعتمد اعتمادا اساسيا على سكان الحضر بعد ان تزايدت هجرة الزنوج واهل بورتوريكو الى المدن الكبيرة ، كما اصبح لقادة الحزب الديموقراطى فى المدن الصناعية مثل نيويورك وبوسطن وشيكاغو دور كبير فى تصريف امور الحزب على المستوى القومى .

وبالنسبة للاتجاه النظرى الذى يتبناه « ستيدمان » فى دراسته يقول :

لقد كان الاتجاه السائد بين المؤرخين فى الولايات المتحدة هو تصوير التاريخ الأمريكى كما لو كان يسير نحو خلق وحدة داخلية بين الجماعات غير المتجانسة .

وكان الشعار السائد هو : من الكثير الى الواحد (١) .

وقد أخذ علماء السياسة هذا المفهوم عن المؤرخين الأمريكىين فى تفسيرهم لاتجاهات التطور السياسى ، فكان ينظر الى عمليات المنافسة والصراع السياسى على انها وسائل للوصول الى قدر من الاتفاق ، وليست غايات

والممارسة الفعلية ، ويظهر بوضوح ان « جماعات المصالح Interest Groups » تدخل فى دائرة الصراع ، وتؤثر على بناء القوة فى المجتمعات الحضرية ، ويصبح لها الدور الرئيسى فى صنع القرارات ، وصياغة المستقبل ، بحيث تنحرف الديموقراطية عن مسارها الطبيعى ، وتتحول من حكم الاغلبية الى « احتكار القلة Oligopoly » ومن نظام يقوم على التوفيق بين المصالح المتعارضة Compromise الى نظام يجعل من « الصراع Conflict » ركيزته الاساسية فى السياسة والحكم .

ومؤلف هذا الكتاب هو « مرى ستيدمان » استاذ العلوم السياسية بجامعة « تمبل » فيلادلفيا بولاية « بنسلفانيا » . وله مؤلفات كثيرة فى مجال تخصصه ، من اهمها :

- الدين والسياسة فى امريكا .

- تصدير الاسلحة .

- عدم الرضا امام صناديق الاقتراع (بالاشتراك) .

- ديناميات الحكم الحديث (بالاشتراك) .

- تحديث الحكومة الامريكية : متطلبات التغير الاجتماعى .

وقد اختار « ستيدمان » المجتمع الحضرى بالذات ليكون ميدانا لدراسته لاحتباسه بتعاظم الدور الذى تقوم به المجتمعات الحضرية فى المجالات السياسية والاقتصادية والحضارية ، ولادراكه مدى التأثير الذى تحدثه تلك المجتمعات على غيرها من البنيات المحلية فى اطار المجتمع الكبير . وفى رأيه ان النظام السياسى فى الولايات المتحدة كان من اكثر النظم تأثرا بعملية التحضر . وفى الوقت الذى كان

تعريف للسياسة الجديدة ، تم محاولة تحديد خصائصها المميزة .

فبالنسبة للنقطة الأولى ، يمكن تعريف السياسة الجديدة بأنها « سياسة لا تعتمد على التكيف Accomodation الذى يتم عن طريق المساومة أو الوساطة أو السمسرة ، وإنما تعتمد على الصراع بين قوى متعددة بحيث يستطيع صاحب القوة الأكبر ان يفرض رايه ، ويملى قراراته على الآخرين دون أن يتمسك كثيرا بالمبادئ والقيم الاخلاقية (٢) » .

أما من ناحية الخصائص ، فيمكن تحديد معالم السياسة الجديدة فيما يلى :

١ - اتساع نطاق الصراع السياسى ، وامتداده الى كثير من مجالات الحياة .

٢ - تزايد حدة الصراع السياسى ونفقله فى كثير من المسائل التى لم تكن تلقى اهتماما سياسيا كبيرا .

٣ - زيادة عدد الافراد والجماعات الذين دخلوا دائرة الصراع السياسى .

٤ - اتساع دائرة المشاركة فى المسائل السياسية نتيجة لتزايد عدد المشتركين فى النشاط السياسى .

٥ - اخضاع القوانين والاجراءات الحكومية للمناقشة للتأكد من مدى التزامها بمبدأ الشرعية ، بعد أن كانت القوانين تغطا وتنفذ فى الماضى من غير مناقشة أو اعتراض (٣) .

ويقع الكتاب فى ثلاثمائة وتسع وعشرين صفحة من القطع المتوسط ، منها ثلاثمائة

فى ذاتها . وهذه النظرة كان يطلق عليها فى مفهوم الفلسفة السياسية « اصطلاح التعدد Pluralism » ، وكان يطلق عليها فى مجال المنافسة الحزبية - اصطلاح « سياسة المساومة أو السمسرة Brokerage Politics » . غير انه فى السنوات الاخيرة اثرت تساؤلات كثيرة - من جانب المؤرخين وعلماء السياسة - حول صحة هذا الاتجاه ، وظهرت نظرية جديدة تركز على « الصراع » كعملية أساسية فى توجيه السياسة الأمريكية (٢) .

والاتجاه الذى يتبناه المؤلف هو : نغدير أهمية الصراع كعنصر أساسى فى فهم السياسة الأمريكية لاعتقاده فى فشل مفهوم « التوفيق Compromise » أو « الإجماع Consensus » فى تفسير العلاقات والاموضاع السياسية السائدة .

ويذهب « ستيدمان » الى أن نموذج الصراع الذى يستخدمه فى تفسير السياسة الحضرية له جذوره فى الفكر القديم ، كما انه يعتمد - الى حد ما - على آراء كارل ماركس التى تؤكد دور الصراع الطبقي بين القوى الاقتصادية والاجتماعية القائمة فى المجتمع ، غير انه فى أساسه مستمد من واقع الخبرة بأساليب السياسة الحضرية فى المجتمع الأمريكى خلال العشرين عاما الماضية .

ويقول « ستيدمان » :

قد يتساءل البعض : لكن ما هو الجديد فى هذا التفسير لمعالم السياسة الحضرية ؟ وردا على هذا التساؤل فاننى اقول : ان الجديد هنا ينحصر فى نقطتين هما : محاولة الوصول الى

Ibid., p. 12.

(٢)

Ibid., p. 12.

(٣)

(٤) الكتاب : ص ١٢ .

الاتجاهات الجديدة في السياسة الحضرية ، والتي تركز في أساسها على الصراع بدلا من المساومة والتوفيق ، كما يعمد الى تحديد المصطلحات التي يستخدمها بكثرة في دراسته وهي : العلوم السياسية ، والصراع السياسي ، والشرعية ، والمنطقة الحضرية ، والمدينة ، والمنطقة المتروبوليتانية ، والسياسة الحضرية .

وفي القسم الاول من الكتاب - الذى يشتمل على فصلين - يعرض المؤلف للوضع الحضرى العام في الولايات المتحدة ، ويبدأ بتحديد الخصائص المميزة للحياة الحضرية ، وينتقل الى تحديد مصطلح « الايكولوجيا » ، ويعتمد في تحديده للمفهوم على قاموس التراث الامريكى الذى يُعرِّف الايكولوجيا بأنها « العلم الذى يدرس العلاقة بين الكائنات العضوية وبين الظروف البيئية المختلفة » (٥) ، ثم يعرض لنظريات ثلاث تفسر النمو العمرانى في المدينة وهي « نظرية النموذج الدائرى المتمركز Concentric Zone Theory » التى ترى ان المدينة تنمو بفعل حركة الطرد المركزية من الداخل الى الخارج في شكل حلقات دائرية حول المركز بحيث تختص كل دائرة بنوع معين من انواع النشاط ، « ونظرية القطاع Soc oi Theory » التى تقول بان المدينة لا تنمو في شكل دائرى وانما تنمو في شكل قطاعات تبدأ من الداخل وتتجه نحو الخارج ، « ونظرية النوايا المتعددة Multiple Nuclear Theory » التى تقول بوجود عدد من المراكز في كل مدينة بخلاف النظريتين السابقتين (٦) . وبعد ذلك يعرض المؤلف لنمو المناطق المتروبوليتانية في المجتمع الامريكى ، ثم يوضح العلاقة بين الجانب الايكولوجى والجانب السياسى .

واحدى عشرة صفحة لملحق للمتن ، وتعماني عشره صفحة للتعليقات والتذييلات . وينقسم الكتاب الى مدخل وخمسة اقسام وخاتمة ، تضم اثني عشر فصلا يعالج فيها المؤلف موضوعات لها اهميتها من الناحيتين النظرية والتطبيقية .

ففى مدخل الكتاب - الذى يشتمل على فصل واحد - يتحدث المؤلف عن الوضع الحضرى في العالم بصفة عامة ، وفي الولايات المتحدة بصفة خاصة . فيعرض لنشأة المدن في العالم وتطورها ، ثم يعرض لنشأة المدن الامريكية والمراحل التى مرت بها ، والمشكلات التى اعترضت سبيلها منذ منتصف القرن التاسع عشر ، والعوامل التى ادت الى فشلها في مواجهة تلك المشكلات ، وما ترتب على ذلك من انتشار التشاؤمية لدى جماهير الشعب الامريكى التى اصبحت اقل ثقة في مستقبل مدينتها مما كانت عليه منذ ستين عاما مضت . ومن اهم النقاط التى ناقشها المؤلف في هذا الفصل التأثيرات التى احدثها النمو الحضرى السريع في الولايات المتحدة من حيث زيادة معدلات الهجرة الى المدن المتروبوليتانية ، وظهور جماعات المصالح ، وتفسير الاساس الطبقي للتنظيمات السياسية، وظهور متغيرات جديدة لها وزنها في العمل السياسى ، مثل التركيب العمرانى والنوعى والعنصرى للسكان ، وارتفاع مستوى التعليم ، وتنوع المهنة ، وارتفاع متوسط الدخل الفردى ، وحدوث التفاوت الكبير بين الطبقات الاجتماعية ، وعدم التجانس الشديد في بناء المجتمع .

وفي ختام هذا الفصل يناقش المؤلف

(٥) الكتاب : ص ٢٢ .

(٦) الكتاب : ص ٢٢ ، ٢٣ .

مستمدة من علم النفس والاجتماع . فلما قامت الحرب العالمية الثانية ، اهتمت هذه العلوم بالجوانب التطبيقية ، وبدأت تستخدم أساليبها واجراءاتها المنهجية في الصناعة والحرب وفي غيرها من مجالات الحياة . وكان للنتائج العملية التي توصلت اليها أثر كبير في تقدم علم السياسة الذي كان يمر في تلك الآونة بمرحلة حاسمة من مراحل تطوره ، فكان عليه ان يكيف نفسه لنمط التفكير الذي تأخذ به العلوم السلوكية . وخلال حقبتين من الزمان بدا واضحا ان علماء السياسة تأثروا بالعلوم السلوكية تأثرا كبيرا . وكانت « نظرية العمل السياسي The Theory of Political Action » التي عرفت باسم « نظرية الجماعة في المجال السياسي Group Theory of Politics » من النظريات التي تركت بصمات واضحة في مجال العلوم السياسية . وتذهب هذه النظرية الى ان العلاقات السياسية الرئيسية هي التي تنشأ داخل الجماعة ، او تقوم بين الجماعات بعضها وبعض . ويعنى هذا ان ما يحصل عليه الفرد انما يتم عن طريق تفاعله مع غيره من الناس . ويتطلب هذا وجود نوع من التنظيم . ولذا فان دراسة سلوك الافراد يمكن ان تتم من خلال الانشطة التي تمارسها الجماعات . ويهتم عالم السياسة بالدرجة الاولى بالجماعات التي لها تأثير حقيقي او فعال في العملية السياسية ، وهي التي تعرف باسم « جماعات المصالح » ، وهي جماعات يجمع بين افرادها مشاعر واتجاهات مشتركة ، وتسعى الى فرض سيطرتها ، واملاء رغباتها واتجاهاتها على غيرها من الجماعات الموجودة بالمجتمع (٩) .

ونظرا لاهمية الجانب السياسي في هذه الدراسة ، فان المؤلف يخصص فصلا كاملا يعالج فيه النظم والعمليات السياسية في البيئات الحضرية ، فيعرض بالتفصيل للآثار القانونية للحكم المحلي ، ولأشكال الحكم في المدينة ، والتي تتمثل في اشكال ثلاثة هي : نظام حكومة المحافظ والمجلس ، ونظام المجلس والمدير ، ونظام اللجنة ، ويناقش مزايا وعيوب كل نوع ، ثم يعرض للعلاقات المتبادلة بين حكومات المدن ، ومدى تدخل الدولة في شؤون الحكم المحلي .

والقسم الثاني من الكتاب عبارة عن فصل واحد ، يعتبر من أهم فصول الكتاب . يعرض فيه المؤلف لتطور النظرية السياسية في الولايات المتحدة ، ويحاول ان يستفيد من فكرة اقامة « النماذج Models » في تأصيل نموذج نمطي للسياسة الأمريكية .

اما عن تطور النظرية السياسية في الولايات المتحدة فيقول :

« لقد كان هناك شبه اتفاق بين علماء السياسة حول طبيعة الديموقراطية الأمريكية، والخصائص المميزة لها، ولما نشر مكيفر - عالم الاجتماع الأمريكي (٧) - كتاب « تكوين الدولة » في سنة ١٩٤٧ ، وعرض فيه للصلة بين الدولة والمجتمع المحلي ، والخصائص التي تتميز بها النظام الديموقراطي عن غيره من النظم السياسية ، زاد اتفاق المجتمع الأكاديمي حول مفهوم وخصائص الديموقراطية الأمريكية (٨) .

ومما هو جدير بالذكر أن الكتابات السياسية في الولايات المتحدة - قبل الأربعينيات - كانت تعتمد على تفسيرات مستمدة من التاريخ والقانون والفلسفة ، ولم تكن هناك نظريات

(٧) وهو من أصل اسكتلندي .

(٨) الكتاب : ص ٧٩ .

(٩) الكتاب : ص ٨٤ .

منها من غير قهر أو اكراه . ومن شأن المبدأ الأخير ان يضيق نطاق الصراع السياسي ، ويحصره في دائرة محدودة .

وقد ناقش « ستيدمان » هذا النموذج ، وأبدى بعض التحفظات على المبادئ والأسس النظرية التي يستند إليها .

اما القسم الثالث من الكتاب ، فيشتمل على فصول ثلاثة ، يعالج فيها المؤلف الاسلوب التقليدي في الحكم ، وقد اتخذ له مصطلحا خاصا هو « أسلوب الوساطة او السمسة Brokerage Style » . وقد عرض « ستيدمان » في الفصل الخامس للأسس التي يقوم عليها هذا الاسلوب ولانماطه الرئيسية ، ويحددها في نمطين هما : النمط الآلي Machine Type ، والنمط الاصلاحي Reform Type . وقد ناقش مزايبا وعيوب كل نمط ، ثم حاول تطبيق النموذج الديمقراطي على اساليب الحكم التي كانت سائدة في البيئات الحضرية في المراحل التاريخية السابقة . وكان هدفه من وراء ذلك ان يختبر مدى صحة النموذج وصلاحيته من الناحية العملية .

وفي الفصل السادس من الكتاب عرض للاتهامات التي وجهت الى أسلوب الوساطة ، وأوضح انه فشل في تحقيق العدالة بين المواطنين ، وفي ترتيب اولويات العمل ، وفي الاعتماد على التخطيط العلمي في تحديد الاحتياجات الفعلية للمواطنين ، وتعبيث امكانياتهم ومواردهم وقفا لاستراتيجية واضحة المعالم ، محددة القسمات ، كما انه فشل في ايجاد فلسفة تعبر عن المصالح المشتركة للمواطنين (١١) .

وفي سنة ١٩٥١ نشر « ترومان » كتابا بعنوان « العملية الحكومية » ، وقد اعتبر انجيلا لأصحاب نظرية الجماعة ، ومرجعا أساسيا للمشتغلين بالعلوم السياسية . ويمكن القول بان نظرية الجماعة ساعدت على ظهور وتدعيم الاتجاهات الامبيريقية في علم السياسة ، كما ساعدت على فهم وتفسير الصراع السياسي ، ومن ثم أصبحت نظرية الجماعة جزءا من النظرية الرسمية للسياسة الأمريكية .

اما عن النموذج النمطي للسياسة الأمريكية ، فيقول « ستيدمان » : « من المفيد في العلوم الاجتماعية والطبيعية بناء نماذج تفيد في تحليل وفهم العمليات التي تدور داخل الانساق الكبيرة . وقد حاول أفلاطون في جمهوريته ان يضع نموذجا لدولة مثالية ، كما قدم « هوبز » نموذجا آخر في كتابه « Leviathan » ، وبالمثل يمكن بناء نموذج لدولة شيوعية مستمد من كتابات « ماركس وانجلز ولينين » ، ونماذج أخرى لدول دكتاتورية وأوليغاركية وديموقراطية (١٠) .

والنموذج الأمريكي يمكن تأصيله بالرجوع الى القرارات الحاسمة التي اتخذها القادة الكبار الذين ساهموا في ارساء دعائم الديمقراطية الأمريكية ، والى الكتابات التي تناولت هذه القرارات بالدراسة والتحليل ، بالإضافة الى ما كتبه « الصفاة المفكرة » في هذا المجال .

ويشير « ستيدمان » الى ان النموذج الأمريكي في الحكم الديمقراطي يعتمد على مبدأين أساسيين أشار اليهما مكينفر هما : مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلي ، ومبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى أي

(١٠) الكتاب : ص ٨٥ .

(١١) الكتاب : ص ١٢٧ .

أما عوامل الجذب فتتمثل في الرغبة في امتلاك مسكن تحيط به أرض فضاء ، وفي الحصول على خدمات تعليمية وصحية كافية ، بالإضافة إلى أن هناك شيئا آخر يغري الناس بترك المدينة ، وهو - على حد تعبير مفورد - أن تتوافر لهم الحرية في أن يفعلوا ما يشاؤون وهذه هي النعمة الحقيقية لصوت الضاحية ، ويمكن تلخيصها في أن يعتزل المرء الناس كراهب ، ويعيش كأمر .

وقد ركز « ستيدمان » بعد ذلك على دراسة جوانب السلوك السياسي في الضواحي ، وحاول الإجابة على السؤالين التاليين :

١ - هل الإقامة في الضواحي تساعد على الاحتفاظ بمنصر المنافسة الذي يقوم عليه النموذج التعددي في السياسة ؟

٢ - هل تختلف نظم الحكم وأساليب السياسة في الضواحي عن النظم والأساليب المستخدمة في المدن المركزية ؟

وانتهى من دراسته إلى وجود اختلافات أساسية في أساليب العمل السياسي بين الضواحي والمدن المركزية . ففي الضواحي تسود سياسة التوفيق والاجماع ، كما أن عنصر المنافسة يكاد ينعمد نتيجة لتجانس السكان من النواحي الاقتصادية والاجتماعية ، بعكس الحال في المدن المركزية ، بالإضافة إلى أن سكان الضواحي يتعاونون فيما بينهم ليواجهوا الضغوط التي تقابلهم ، وليحصلوا على أكبر قدر ممكن من الخدمات من جانب الهيئات الحكومية والاهلية ، وليحققوا لأنفسهم نوعا من الاستقلال الذاتي (١٢) .

وفي القسم الرابع من الكتاب الذي يشتمل على فصل واحد - يناقش المؤلف بناء القوة في المجتمع المحلي باعتباره موضوعا أساسيا في السياسة الحضرية ، وي طرح تساؤلات كثيرة

وفي الفصل السابع من الكتاب ناقش المؤلف أساليب الحكم والسياسة في « الضواحي Suburbs » ، على أساس أنها أصبحت مركزا لتجمعات سكانية كبيرة ، فوفقا لتعداد السكان لسنة ١٩٧٠ ظهر أن أكثر من نصف سكان المناطق المتروبوليتانية بالولايات المتحدة يعيشون في ضواحي ، بالإضافة إلى أن سكان تلك المناطق لهم خصائص اقتصادية واجتماعية وثقافية تميزهم عن سكان المدن المركزية .

وقد أشار « ستيدمان » إلى أن الفكرة الشائعة عن الضواحي أنها مجرد أماكن لسكنى المبررين الاغنياء الذين يعملون في المدينة المركزية ، وإنها لا تزيد عن كونها أماكن للمبيت ، أو حسب التعبير الشائع « مجتمعات غرف النوم Bedroom Communities » غير أنه يعارض هذه الفكرة ، معتمدا على النتائج التي أسفرت عنها البحوث السوسولوجية الحديثة والتي تقول بتعدد أنماط الضواحي واختلافها فيما بينها من حيث التركيب الاقتصادي والاجتماعي ، ومن حيث الأساليب المعيشية السائدة .

وقد عرض للعوامل التي تدفع الناس إلى الانتقال إلى الضواحي ، وأشار إلى وجود عوامل طاردة وأخرى جاذبة . فعوامل الطرد تتمثل في ارتفاع معدلات الجريمة في المدن المركزية ، وفي عجز المؤسسات والهيئات القائمة في المدينة عن تقديم الخدمات المتعلقة بالإسكان والتعليم والصحة ، بالإضافة إلى أن المدينة المركزية - كما يقول مفورد - تفقر إلى الأرض الفضاء التي تلزم لإقامة الحدائق العامة وساحات الألعاب . فالإنسان لا يرى فيها سوى حركة العمل ولا يشعر إلا بزعمة الحياة ، ولا يسمع إلا ضجيج الآلة ، أما ضوء الشمس ونور القمر ، فلا يراه الإنسان إلا من خلال ناطحات السحاب والمباني العالية .

طبقات . وليس ثمة شك في أن نوع النشاط الاقتصادي في المجتمع له صلة بتوزيع النفوذ في المجتمع . ففي المدن الصناعية مثلا يزداد عنصر المنافسة بين أصحاب المصانع بحيث يحاول كل منهم أن يكون له التأثير الكامل في مختلف السياسات والقرارات التي تتخذ على المستوى المحلي . أما المدن التي تعتمد على التجارة أو الخدمات فإن توزيع القوة يأخذ نمطا مغايرا . ويمكن القول أيضا بأن اختلاف المناهج والأساليب التي استخدمها الباحثون في دراساتهم كان لها أثر كبير في اختلاف النتائج التي توصلوا إليها (١٤) .

أما القسم الخامس من الكتاب فيشتمل على فصول ثلاثة يناقش فيها المؤلف قضايا : التعليم ، والاسكان ، والقانون والنظام ، وكان يهدف من وراء دراسته إلى اختبار أحد المبادئ الأساسية التي يتألف منها « النموذج التعددي للديموقراطية » ، وهو مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلي . وقد توصل إلى أن هذا المبدأ لا وجود له من الناحية العملية ، ذلك لأن عنصر « الصراع » هو الذي يؤثر في رسم السياسات المتعلقة بالتعليم والاسكان والأمن ، وأن هناك اتجاهًا متزايدًا نحو « تسييس Politicization » هذه القطاعات (١٥) .

أما خاتمة الكتاب ، فقد اشتملت على فصل واحد ، جعله بعنوان : نحو أسلوب سياسي جديد ، حاول فيه أن يقدم نموذجًا سياسيًا يتماشى مع التغيرات الجديدة التي يشهدها المجتمع الأمريكي المعاصر ، ويهدف إلى تحقيق الديمقراطية الكاملة ، وتكون قادرًا في الوقت نفسه على تحديد الاحتياجات ، وترتيب الأولويات ، واقتراح السياسات وتنفيذها ، مع ضمان المشاركة الكاملة من جانب المواطنين في اتخاذ القرارات ورسم السياسات .

تتعلق بطبيعة القوة السياسية وأهدافها وتوزيعها في المجتمعات المحلية . وقد عرض لنظريات « الصفوة Elite » التي تقول بأن كل مجتمع يشتمل على فئتين أساسيتين : فئة حاكمة قليلة العدد ، وأخرى محكومة كبيرة العدد . وبمقتضى ذلك تتولى الفئة الأولى مقاليد القوة في المجتمع بحيث تصبح صاحبة السلطة النهائية في إصدار القرارات الأساسية ، بينما تنحصر مهمة الفئة المحكومة في طاعة الفئة الحاكمة وتنفيذ قراراتها . وقد عرض للنظرية الماركسية التي تقول بأن علاقات الإنتاج تمثل الأساس الضروري لفهم كل الجوانب السياسية في المجتمع ، كما عرض لنظرية « ماكس فيبر » التي تفسر بناء القوة في التنظيم البيروقراطي ، ثم عرض لكثير من الدراسات التي اهتمت بدراسة بناء القوة في المجتمعات المحلية . وأشار إلى أن دراسات « دومهوف Domhoff » وليند Lynd وهنتر Hunter تؤكد وجود طبقة تمتلك مقاليد القوة في المجتمع ، وتتمتع بالهيبة Prestige ، والمكانة Status ، وتستأثر بالسيادة والسيطرة Dominance ولها القدرة على التأثير Influence (١٦) . وفي الجانب المقابل توجد دراسات أخرى تقول بتعدد مراكز القوى والتأثير ، ونرفض القول بوجود فئة واحدة تسيطر على الحكم في المجتمع .

ويختتم « ستيدمان » مناقشته لهذا الموضوع بقوله :

« أن بناء القوة ليس واحداً في كل المجتمعات . ففي الوقت الذي تسيطر فيه طبقة واحدة على مقاليد الأمور في مجتمع ما ، نجد مجتمعا آخر تتوزع فيه القوة بين عدة

(١٣) الكتاب : ص ١٨٧ .

(١٤) الكتاب : ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(١٥) الكتاب : ص ٢٩٠ .

نرايدا مستمرا في عدد السكان منذ سنة ١٩١٠ باستثناء الفترة ما بين ١٩٣٠ ، ١٩٤٠ حيث كانت نسبة الزيادة متساوية بين سكان المناطق الريفية والمناطق الحضرية (١٧) .

وليس من شك في أن ارتفاع معدلات التحضر في المجتمع تؤثر الى حد كبير في خصائصه البنائية والوظيفية . وقد اهم « ستيدمان » بتحديد الخصائص المميزة للحياة الحضرية ، فاشار الى أن نمط العلاقات الاجتماعية في البيئة الحضرية يأخذ طابعا جديدا ، اذ تحل العلاقات الثانوية محل العلاقات الاولى . ويحدث ذلك نتيجة لكثره التحركات الجغرافية والمهنية في المدينة ، بحيث لا يجد الفرد وقتا كافيا ليدخل في علاقات دائمة مع كل الناس الذين يتصل بهم او يتعامل معهم ، سواء في محيط العمل او في نطاق الجيرة . كما انسار الى ضعف الضوابط الاجتماعية غير الرسمية ، وتحرر الأفراد من سيطرة القيم الجماعية التي كانت تفرضها المعايير الثقافية في المجتمعات التقليدية ، وإلى ضعف الروابط القرابية . وهذا من شأنه ان يؤدي الى احساس الانسان في المدينة بالفرديّة، والاغتراب ، وعدم الانتماء الى المجتمع (١٨) . ومن الخصائص الاخرى للحياة الحضرية - وبخاصة في المدن الامريكية - انفصال أماكن العمل عن مناطق الإقامة . وقد ساعد على ذلك سهولة المواصلات وسرعتها مما أدى الى نزوح السكان من وسط المدينة الى الضواحي بعيدا عن حركة العمل ، وزحمة الحياة . وتتميز حياة المدينة ايضا بكثرة الحراك

وقد ناقش اساليب المشاركة في الجماعات والتنظيمات القائمة في المجتمع ، ولم يتمكن من وضع نموذج سياسى محدد . فاكتمى بتحديد بعض الخصائص والانجازات الموقعة ، وأشار الى أن اساليب العمل السياسي في المستقبل سوف تتركز حول القضايا السياسية ، ويهوم على مبدأ الصراع ، وتعتمد على العواطف الشعبية في التنظيمات الحزبية ، وسوف ينسج نطاق الحركات المطالبة بحق تقرير المصير والحكم الذاتي داخل المدن (١٩) .

ونعرض فيما يلي لبعض القضايا والاكار الرئيسية التي عالها المؤلف ، وإلى نحتاج الى مزيد من المناقشة .

١ - الوضع الحضري العام في الولايات المتحدة وعلاقته بالوضع السياسي :

اذا رجعنا الى الاحصائيات المختلفة - التي تنشر عن التوزيعات السكانية في الولايات المتحدة ، وعن نسب سكان المناطق الحضرية الى جملة السكان ، فاننا نجد ان عدد السكان في الولايات المتحدة قد تضاعف في الفترة ما بين ١٨٧٠ ، ١٩٠٠ تم تضاعف مرة أخرى فيما بين عامي ١٩٠٠ ، ١٩٥٠ . وقد اظهر احصاء ١٩٧٠ أن العدد الكلي لسكان الولايات المتحدة بلغ ٢٠٤٧٦٥٧٠٠ نسمة ، ومن المتوقع ان يصل العدد الى ٣٠٠ مليون نسمة في نهاية هذا القرن .

وتشير الاحصاءات المختلفة الى أن نسبة السكان في المناطق الريفية قد انخفضت من ٥٤٣٪ في سنة ١٩١٠ الى ٢٥٪ في سنة ١٩٧٠ . وبالنسبة لسكان الحضر ، فان هناك

(١٧) الكتاب : ص ٣١٠ .

(١٨) الكتاب : ص ٩ .

(١٩) الكتاب : ص ٢٠ .

الجغرافي مما تتسبب عنه مشكلات شخصية واجتماعية .

ويتساءل « ستيدمان » : ما هي الاهمية السياسية للخصائص الاجتماعية التي تميز اسلوب الحياة في البيئات الحضرية عن اسلوب الحياة في البيئات الريفية ؟

ويجب على هذا التساؤل بقوله : ان من الصعب ان نعطي اجابة دقيقة على هذا السؤال ، فما تزال الحاجة ماسة الى مزيد من الدراسة والبحث ، غير ان من الممكن القول بان مثل هذه الاختلافات من شأنها ان تؤدي الى تغير نظرة الناس الى الحياة السياسية ، وإلى تغير اتجاهاتهم وافكارهم وطريقة تصرفهم في المواقف المختلفة (١٩) .

وبالنسبة للعلاقات بين الجانب الايكولوجي والجانب السياسي يقول ستيدمان :

ان دراسة ايكولوجيا المدينة تفيد من الناحية السياسية ، حيث ان كثيرا من جوانب الصراع السياسي في البيئات الحضرية تتسبب عن الارض وتوزيعها وطرق استخدامها ، ولا يقتصر الامر على الافراد ، وإنما يتسع ليشمل الجماعات العنصرية والعرقية والاقتصادية ، وفي كل مرة يحدث فيها صراع بين هذه الجماعات تجد الهيئات الحكومية نفسها في دائرة الصراع (٢٠) .

وبالنسبة لنمو المناطق المتروبوليتانية وتأثيرها على الجوانب السياسية يقول ستيدمان :

ان اى دراسة للنمو الحضري في الولايات المتحدة ، وانعكاساته السياسية ينبغي ان تأخذ في الاعتبار نمو المناطق المتروبوليتانية وتوزيعها (٢١) . ولعل من اهم النتائج التي تربت على نشأة هذا النوع من المناطق الحضرية تركيز الزوج والطبقات الفقيرة في المناطق المركزية ، ونزوح اصحاب الدخول المرتفعة - وغالبيتهم من البيض - الى الضواحي والمدن التابعة . ويشير الجدول التالي الى هذا التوزيع :

المدن المركزية		
الزواج	البيض	
٨٠ مليون	٧٥٣ مليون	١٩٦٠
١٠٨ مليون	٣٣٨ مليون	١٩٧٠

الضواحي		
الزواج	البيض	
١٨ مليون	١٦ مليون	١٩٦٠
٢٦ مليون	٥٤ مليون	١٩٧٠

ويقول « ستيدمان » : لقد ترتب على حركة الهجرة الداخلية الى المدن ان اصبح غالبية السكان في المدن الكبيرة من الزوج ، بينما بقي العنصر الابيض متفوقا في الضواحي . وتشير الاحصاءات الى انه من بين المدن الكبرى الخمسين في الولايات المتحدة يمثل الزوج اكثر من ٥٠ ٪ من نسبة السكان في ثلاث مدن كبرى هي : واشنطن ، واطلنطا ، ونيويورك ، كما ان مدينة جارى باندانا بها اقلية سوداء .

(١٩) الكتاب ص ٢١ .

(٢٠) الكتاب : ص ٢٤ .

(٢١) الكتاب : ص ٢٤ .

٢ - أشكال الحكم في المدينة :

نوجد ثلاثة أشكال لحكومة المدينة في الولايات المتحدة . وهذه الاشكال هي :

١ - حكومة المحافظ والمجلس Mayor-Council

ب - اللجنة Commission

ج - حكومة المجلس والمدير
Council-Manager (٢٢) .

ونعرض فيما يلي لهذه الاشكال الثلاثة بشيء من التفصيل .

١ - حكومة المحافظ والمجلس :

يعتبر هذا الشكل اقدم الاشكال لحكومة المدينة وأكثرها انتشارا في الولايات المتحدة ، وبالرغم من منافسة الاشكال الجديدة ، إلا أن ما يزيد على نصف المدن - التي يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة - تستخدم هذا النظام . وهو في أساسه مقتبس من النظام الانجليزي ، غير أن تطورا بالغ الأهمية قد حدث بالنسبة لهذا النظام في الولايات المتحدة بحيث أصبح يختلف كليا عن النظام الانجليزي . فبينما نجد أن منصب المحافظ فخرى في النظام الانجليزي ، نجد أن المحافظ في الولايات المتحدة يتمتع بسلطات ضخمة ، بحيث فقد المجلس أهميته الى المدى الذي أصبح فيه المحافظ أكثر أهمية من المجلس في كثير من المدن . ويلاحظ أن بعض المدن أعطت محافظيها سلطات تشريعية أوسع من غيرها من المدن ، بحيث أصبح من المعتاد ترتيب المدن على

ويختم ستيدمان عرضه لاتجاهات التطور العمراني في المناطق المتروبوليتانية بقوله : أن السياسة في المناطق المتروبوليتانية يمكن النظر إليها على أنها مجموعة من المشكلات التي تتعلق بصنع القرارات . وفي داخل هذا الإطار تتور تساؤلات كثيرة أهمها :

١ - من الذي يقوم بصنع القرارات في المنطقة المتروبوليتانية ؟

٢ - هل تتمسك الجماعات التي تقوم بصنع القرارات بمبدأ الشرعية ؟

٣ - ما هي الجماعة أو الجماعات التي تمسك في يدها زمام السلطة في المنطقة المتروبوليتانية ؟

٤ - كيف تحل الخلافات والصراعات التي تنشأ بين مختلف الجماعات في المنطقة المتروبوليتانية ؟

ثم يقول : أن كثيرا من الدراسات التي أجريت في المجتمعات المحلية المختلفة تشير الى أن التنظيمات السياسية في تلك المجتمعات تسيطر عليها صفوة من الناس . وهذه الصفوة قادرة على توجيه تلك التنظيمات لتحقيق أغراضها الخاصة . ويقول أيضا : أن ثمة اعتبارا آخر ينبغي الإشارة اليه وهو أنه حينما تحدث خلافات محلية حول اتخاذ القرارات المتعلقة بالمشكلات المتروبوليتانية ، فإن الحكومة المركزية تتخذ القرارات التي تراها مناسبة لحل المشكلة (٢٢) .

(٢٢) الكتاب : ص ٢٩ .

(٢٣) الكتاب : ص ٤٦ .

ب - نظام اللجنة :

يعتمد هذا النظام على مجموعة من الاعضاء يتراوح عددهم ما بين ثلاثة أعضاء وسبعة ، ويتم تعيينهم بالانتخاب لمدة سنتين أو أربع سنوات ، ويختار منهم واحد لشغل منصب المحافظ ، وإن لم يكن لهذا المنصب في ظل نظام اللجنة أهمية حقيقية .

ويقوم أعضاء اللجنة كمجموعة بوضع السياسة العامة ، وفرض الضرائب ، وإعداد الميزانية ، وتعيين الموظفين وفصلهم ، وإصدار اللوائح التنفيذية كما أن لهم الحق في الإشراف على الإدارات المختلفة بالمدينة .

وقد ظهرت عيوب هذا النظام واضحة خلال السنوات الأخيرة ، فتقسيم المسؤولية بين أعضاء اللجنة كان يمنع اتخاذ قرارات موحدة ، يضاف الى ذلك أن غالبية الأعضاء ليست لديهم الخبرة الإدارية اللازمة لممارسة العمل في الأقسام المختلفة . ومن الملاحظ أن الأخذ بهذا النظام بدأ يقل بشكل ملحوظ ، وأصبح الانجلاء الآن نحو الأخذ بأحد النظامين الآخرين (٢٦) .

ج - حكومة المجلس والمدير :

استخدم هذا النظام في أوائل القرن الحالي في كثير من المدن للتغلب على نقاط الضعف الموجودة في نظام اللجنة ، وأصبح يحتل المركز الثاني بعد نظام حكومة المحافظ والمجلس .

ويشبه هذا النظام التنظيم الموجود في الشركات الخاصة ، ويعطى أهمية خاصة للعلاقة الوثيقة بين الأقسام التشريعية والتنفيذية ، فبينما يقوم المجلس بالجوانب

أساس أنها مدن لها محافظ قوى Strong Mayor Type ، أو مدن لها محافظ ضعيف Weak Mayor Type (٢٤) .

ويتم اختيار المحافظين في الولايات المتحدة بواسطة الناخبين لمدة سنتين أو أربع سنوات ، ومن المفروض أن يتم انتخاب المحافظ دون التقيد بانتماء الحزبي ، غير أن القاعدة العامة في أغلب المدن هي انتخاب المحافظ على أساس انتمائه لأحد الحزبين الرئيسيين في الولايات المتحدة .

وتختلف وظائف المحافظ باختلاف المدن ، ففي المدن الصغيرة تكون مسؤوليات المحافظ ومهامه محدودة ، بعكس الحال في المدن الكبيرة حيث تنوع اختصاصاته ، وتكثر الأعمال والواجبات الملقاة على عاتقه . وللمحافظ عادة سلطات تشريعية وأخرى تنفيذية ، وهو يتمتع في أغلب المدن بحق الفيتو في مجال السلطة التشريعية (٢٥) غير أن من الممكن أن يبطل المجلس اعتراضاته بأغلبية ثلثي الأصوات . وفي أغلب المدن يقوم المحافظ بتعيين رؤساء الأجهزة الإدارية وأجهزة الخدمات (البوليس والحريق والصحة العامة) .

أما مجالس المدن فتقوم بإصدار اللوائح الخاصة بتنظيم الصحة العامة والأمن والآداب العامة في المدينة ، كما تقوم بفرض الضرائب ، وتخصيص الأموال لمختلف المشروعات . وإذا لم توجد نصوص رسمية تحدد حق الانتفاع بالملكيات العامة فإن المجالس يكون لها الحق في منح امتيازات الى شركات المنافع العامة التي تروغب في استخدام الشوارع أو الملكيات العامة الأخرى ، كذلك العقود الخاصة بأقامة المباني وتمهيد الطرق وتعبيدها .

(٢٤) الكتاب : ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢٥) الكتاب : ص ٤٨ .

(٢٦) الكتاب : ص ٥٠ .

مكييف في كتابه « تكوين الدولة » ، وهذا المبداء هما :

١ - مبدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المحلي .

٢ - مبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى أى منها ، من غير ضغط أو اكراه (٢٨) .

وقد ركز مكييف في بفرقته بين الدولة والمجتمع المحلي على النقاط التالية :

١ - بنى الإنسان لنفسه عالما غير مرئي من النظم والمؤسسات ينقل عبرها تراث ماضيه الى حاضره ، ولولاها لكانت حياته فوضى وفراغا ، ولظلت محصورة في المستوى الحيوانى .

٢ - المجتمع المحلي وليس الدولة هو الكيان الكامل الذى نحيا ونتحرك في اطاره . والإنسان يقضى حياته كلها داخل مجتمعات محلية .

والمجتمع المحلي تنشأ فيه اشكال للقرابة ليست كلها اشكالا حكومية ، وتتكون فيه تجمعات ليست كلها تجمعات سياسية ، وتتواتر فيه أعراف ومستويات للسلوك ليست كلها من خلق الدولة ، وليست كل قوانين المجتمع المحلي من صنع الدولة ، بل ان المجتمع المحلي قانونا ينمو وراء قانون الدولة ، وتكون له حرمانه قبل ان تنشأ الدولة ، ونظا له هذه الحرمان بعد ان تنشأ الدولة .

٣ - الديموقراطية وحدها هى التى تعترف به اشكال الحكم الاخرى اعترافا ضمنيا .

٤ - الديموقراطية وحدها هى النظام الذى يجعل من الحكومة وكيلا ، ومن الشعب سيديا يسأل وكيه الحساب ، والمجتمع المحلي يراقب

التشريعية ، يقوم المدير بتنفيذ القرارات ، ويتولى اختيار رؤساء الأقسام ويشرف على اجراءات التنفيذ .

والمدير هو الذى يقوم بالاشراف على الجوانب الادارية للحكومة، كما يحدث بالنسبة لمدير الشركة ، فهو يراقب كل مرحلة من مراحل العمل ، ويعين رؤساء الوكالات الادارية، ويقوم بالتنسيق بين مختلف الوكالات والاقسام .

وفى ظل هذا النظام يقوم المجلس بوضع السياسة العامة ، وللمدير الحق في تقديم مقترحاته وتوصياته الى المجلس ، وهو يشترك عادة في مناقشة السياسة العامة مع المجلس بالرغم من عدم وجود صوت له بالمجلس . ويقوم المدير بتقديم تقارير الى المجلس عن سير العمل في الادارات المختلفة ، كما يعد الميزانية ويعرضها على المجلس ، ومتى وافق عليها يقوم بالاشراف على عمليات التنفيذ .

وقد ثبت ان لهذا النظام مزايا عديدة . فهو يتنجع على وجود مدير واحد توضع في يده المسؤولية ، ويكون مسئولاً بمفرده عن اجراءات التنفيذ ، وهذا من شأنه ان يوفر الوقت والجهد بعكس ما هو موجود في نظام اللجنة . ومن عيوب هذا النظام انه نظام غير ديموقراطي . كما انه لا يسمح بقيادة سياسية على مستوى عال من الكفاءة كما هو الحال في منصب المحافظ (٢٧) .

٣ - النموذج الرسمي للسياسة الحضرية :

يقوم النموذج الرسمي للسياسة الحضرية على تطبيق « النموذج التعددى للديموقراطية Pluralistic Model » ، ويعتمد هذا النموذج على مبدأين أساسيين اشار اليهما

(٢٧) الكتاب : ص ٥٢ .

(٢٨) الكتاب : ص ٧٩ .

الحكومة في النظام الديمقراطي ، ولكن هذا لا يعنى ان الشعب يمارس بكنيته هذه الرقابة ، ولا سبيل للشعب بكامله لان يقرر من هم حكامه الا بالاعتماد على الراى العام والاعتماد على صناديق الاقتراع ، والديموقراطية تقوم على حكم الراى ولا تفضل ابدا اصطناع القوة ضد الراى .

٥ - تقوم الديموقراطية على الاستجابة الحرة بين الدولة والمجتمع المحلى .

٦ - القانون الاساسي في الدولة الديموقراطية يجعل المجتمع المحلى في وضع اعلى من الدولة .

٧ - الديموقراطية هي روح للحكم بقدر ما هي شكل له ، واذا كانت الديموقراطية تعرف بشكلها لثلا لتلبس خصائصها بخصائص أشكال الحكم الأخرى ، فانها في الاساس نسق للحياة ، والاطار الذى تهددها تهتهد شكلها وروحها .

٨ - تتشابه كل أنظمة الحكم الدكتاتورية من حيث انها لا تفرق بين الدولة والمجتمع المحلى ، وحينما يسود نظام دكتاتورى فانه يقضي نهائيا على كل ما من شأنه ان يعجز بين ما هو من اختصاص الدولة وما هو من اختصاص المجتمع المحلى (٢٩) .

وبالنسبة لمبدأ تعدد الجماعات وحرية الانتماء الى اى منها ، فاننا نجد ان الدولة الدكتاتورية تقضي على الشخصية الخاصة التى تتميز بها الجماعات ، بحيث تصبح هيئات حكومية أو شبه حكومية ، ولذا فان الجماعات المتعددة التى تمتنع قيما متنوعة تجد نفسها

في النظام الدكتاتورى تتبنى قيما واحدة . هي قيم الدولة . والديموقراطية تقوم على مبدأ التنوع القمى والاخلاقي والاعتقادي ، واتاحة الفرصة لكل جماعة ولكل عقيدة لان تقوى اجتماعيا بدون ان ترتبط بالدولة ، فتظل بذلك حياة الافراد متنوعة تنوعا عضويا ، واذا اقترنت اية ديموقراطية باخلاقية معينة فان مرجع ذلك الى انتشار هذه الاخلاقية بين مختلف الجماعات لا الى صدورهما عن الدولة .

ويضع « سنيديمان » بعض التحفظات على هذا النموذج ، ويحددها فيما يلي :

١ - النموذج مشتق من نظرية يتسوبها الغموض في بعض المواضع ، ولذا يصح موضعا للشك ، فحكم الاغلبية لا يتحقق في عالم الواقع وكثيرا ما يحدث ان تسيطر احدى الجماعات على مغاليد الامور في المجتمع ، كما ان القرارات تتخذ بعد مساومات طويلة (٣٠) .

٢ - يفشل النموذج في وضع الحدود القاطعة بين الدولة والمجتمع المحلى ، وكثيرا ما يوسع كل منهما دائرة نفوذه على حساب الآخر (٣١) .

٣ - يصور النموذج وجود حرية في الراى ومنافسة حرة بين الافراد والجماعات ، غير ان هذا لا يحدث في عالم الواقع ، وغالبا ما يتحول الامر الى احتكار القلة لمجال العمل السياسي . . . ان المنافسة الحرة تستلزم وجود تكافؤ بين القوى المتنافسة من النواحي الاقتصادية والسياسية ، غير ان هذا لا يتحقق في المجال التطبيقي .

(٢٩) الكتاب : ص ٨٠ ، ٨١ .

(٣٠) الكتاب : ص ٨٧ .

(٣١) الكتاب ص ٨٨ ، ٨٩ .

وهذا النمط الآلى على افتراض مؤداه أنه ليس نمة يعارض بين مصلحة التنظيم ومصلحة الافراد . ولذا فان اقرارات التى يتخذها القائد أو الرئيس تحقق مصالح الافراد بطريقة آليه ، ومن هنا نترك السلطة كلها للقائد ليتصرف بالطريقة التى يراها مناسبة. ويذهب « ستيدمان » الى أن هذا النمط يشبه الى حد كبير النمط البيروقراطى الذى يقوم على مبدأ تسلسل السلطة ، والذى يعطى للرئيس الحق فى الاشراف على مرؤوسيه واصدار الاوامر اليهم . (٢٢)

ومن الواضح أن هذا النظام من شأنه أن يخلق الوحدة ويحقق التكامل بين ثنائيات وعناصر التنظيم ، الا انه يمنع الافراد من المشاركة فى اتخاذ القرارات ولا يساعد على تنمية المهارات والقدرات الفردية .

اما النمط الاصلاحى فيهدف الى تحويل السلطة الى الشعب ، ويعتمد على عناصر المشاركة على أساس أن كافة الفئات والهيئات ينبغي أن تشارك فى صنع مستقبلها وتقرير مصيرها .

وقد طالب المصلحون منذ سنة ١٨٩٤ بتطبيق هذا النمط ، وكانت لهم مطالب محددة أهمها: تكوين مجالس للمواطنين ، وأحزاب محلية مستقلة ، ونواد اصلاحية ، ويذهب « ستيدمان » الى أن النظام الآلى يجد مساندة من جانب الطبقات الفقيرة ، على حين أن النظام الاصلاحى يجد المساندة والتأييد من جانب الطبقات المتوسطة .

ولذا فان أى تغير فى البناء الطبقي فى

٤ - يقوم النموذج على افتراضات اقتصادية لم يعد لها وجود فى الوقت الحالى . فالمنافسة التى كانت قائمة فى القرن التاسع عشر بين جماعات ومنظمات متكافئة لم يعد لها وجود نتيجة لتغير الوضع الاقتصادى ، وبعد أن كان مجتمع الطبقة الوسطى يحافظ على توازن القوى أصبح اليوم أداة فى يد الدولة .

٥ - يعتمد النموذج الأمريكى للديموقراطية على سياسة لبرالية تفترض أن النموذج يصبح نفسه بدون تدخل من جانب الدولة ، غير أن هذا ليس له أساس من الصحة (٢٢) .

٤ - أسلوب الوساطة أو السمسرة :

استعار ستيدمان هذا الاصطلاح من المجال الاقتصادى، فكما يقوم الوسيط أو «السمسار» Broker بتنظيم عمليات البيع والتراء وفقا لقواعد واجراءات متعارف عليها ، يقوم الحزب أو التنظيم السياسى بالتدخل لدى الهيئات المختلفة لتحقيق مصالح الافراد والجماعات ، ويكون دوره فى هذه الحالة كدور الوسيط تماما . فهو الذى ينظم عمليات بيع واستغلال الاراضى ، وهو الذى يخلق المناخ المناسب للمهاجرين الجدد ليستقروا فى البيئات الجديدة، وهو الذى يساعد الفئات العرقية والطبقات الفقيرة على الحصول على احتياجاتها ، وذلك عن طريق الانصال بالهيئات المسئولة التى تملك زمام الامور .

وهذا الأسلوب له نمطان هما : النمط الآلى والنمط الاصلاحى .

يجد له صدى كبيرا في الكتابات الاجتماعية المعاصرة .

وقد حاول المؤلف أن يقدم نموذجا سياسيا يتمشى مع التغيرات الجديدة التي يشهدها المجتمع الأمريكي المعاصر ، غير أنه لم يستطع أن يقدم نموذجا واضح المعالم ، محدد القسما ، واكتفى بتحديد بعض الخصائص والاتجاهات المتوقعة في مجال العمل السياسي . وقد يكون له بعض العذر في ذلك نظرا لتضارب النتائج التي تسفر عنها البحوث الاجتماعية ، ولصعوبة وضع نموذج نمطي - يتسم بسىء من الثبات - في عالم دائم التغير .

وقد لمس المؤلف بنفسه هذه النقطة في أكثر من موضع ، وأشار الى أن الهدف من الكتاب هو وصف التحول العظيم في أساليب السياسة الحضرية ، ومحاولة تفسيرها بقدر الامكان ، ويتضح ذلك فيما كتبه في مقدمة الكتاب اذ يقول: وقد كنت أحاول أن أقدم تقييما للموقف كلما دعب الضرورة ، أو كلما وجدت ذلك ممكنا ومناسبا ، كما كنت أقوم بصياغة بعض الفروض على أمل أن يكون ذلك دافعا لباحثين آخرين لأن يتناولوها بالتحقيق والدراسة العلمية المتعمقة .

والكتاب في جملته جهد علمي قيم ، جدير بالقراءة المعمقة ، والدراسة الجادة .

المجتمعات المحلية كقيل بأن يحدث تغيرات معاملة في اتجاهات الأفراد نحو النمط السائد . (٢٤)

خاتمة :

يتضح من العرض السابق لأقسام الكتاب وفصوله وموضوعاته أن المؤلف ركز على دراسة النظام السياسي في البيئات الحضرية معتمدا على المنهج التحليلي ، وركزا على النتائج التي أسفرت عنها البحوث المعاصرة في علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة ، مستفيدا بالاستقراء التاريخي في شرح وتفسير الظواهر السياسية السائدة في المجتمع الحضري الأمريكي . والواقع أن هذا المنهج لا غنى عنه لأي باحث يقوم بدراسة نظام سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي معين ، لما بين ظواهر الحياة الاجتماعية - بصورها المتعددة - من رابط وثيق ، واعتماد متبادل .

وهذا الكتاب اذ يحل الأسلوب القديم في السياسة الحضرية ، ويظهر تخلفه عن تحقيق الديموقراطية الصحيحة ، إنما يبرز فشل أسلوب المساومة والتوفيق في حل المشكلات بطريقة جذرية ، وفي مواجهة التغيرات التي يمر بها العالم في النصف الثاني من القرن العشرين .

وليس تمة شك في أن الاتجاه الذي يتبناه المؤلف - وهو الذي يركز على مبدأ الصراع -



من الكتب الجديدة

كتب وصلت إلى إدارة المجلة، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الأعداد القادمة



- (1) A bell, Peter, *Model Building in Sociology*, Weidenfeld and Nicolson, London 1971.
- (2) Ford, E. B., *Ecological genetics*, Chapman and Hall Ltd, London 1971 3rd edition)
- (3) Evans & Smith, *Psychology for a changing world*, John Wiley & sons, Inc., U.S.A. 1970.
- (4) Gurr, Ted Robert, *Politimetrics, An Introduction to Quantitative Macropolitics*, Prentice-Hall, Inc. N.J. 1972.
- (5) Morton, John, *Man, Science and God*, Collins, London and Auckland, 1972.



مطبعة حكومت الكويت

العدد التالي من المجلة

العدد الثاني - المجلد الخامس

يوليو أغسطس سبتمبر ١٩٧٤

قسم خاص عن الطاقة والحياة

بالإضافة الى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال	٣	ليرة
السعودية	٥	ريال	٢٥٠	مليون
البحرين	٤٠٠	فلس	٢٥٠	مليون
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤٥	ريال	٤٠٠	باية
العراق	٣٠٠	فلس	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	٥٠٠	مليون
الأردن	٢٥٠	فلس	٥	درهم
سوريا				
المصرية				
السودان				
ليبيا				
مستقط				
الجزائر				
تونس				
المغرب				

مطبعة حكومة الكويت